بولس
رسول يسوع، وقلبه، ولسانه

أَديب مصلح

مع مقدّمة بقلم

الأَب الياس زحلاوي

تمهيد

في الخامس من أيّار 2001، هبط أَرض دمشق قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني، حاجّاً "على خطى القدّيس بولس "، الذي أَشرقت على نفسه أَنوار يسوع، في هذه المدينة العريقة، ومنها انطلق يجوب العالَم، مُعرّفاً البشر بمخلّصهم، وبحبّ إِلههم.

و لكأنّي بالأَبّ الأَقدس يُهيب بعالم اليوم، وبمن يواجهون الأَلفيّة الجديدة، في شيءٍ من التفاؤل، أو في كثيرٍ من القلق، أَن يستمدّوا، من عبقريّة بولس، معرفةً أوثق بمن هو نبع كلّ معرفةٍ، ونورٍ، وحقّ، وأَن يظفرا، من السير على خطاه، مثلما هو سار على خطى يسوع، بكلّ عزاءٍ، ومنعةٍ، وفرحٍ، وحبٍّ، وانفتاح على أَفراح العالم ومآسيه.

لقد بشّر بولسُ الوثنيّين بيسوع، وها إِنّ واحداً من أَجلّ رعاة كنيسة يسوع، لا يني يذرع دروب العالم، مبشّراً مسيحيّين مهدّدين بالعودة إِلى الوثنيّة، بعد أن تنكّروا للصليب، وأَغفلوا قيامة المسيح، وبات الموت الروحيّ يتربّص بهم.

إِنّ مسيحيّتنا الكليلة، ذات الفكر الرخو، والسلوك المبتلى بحمّى الاستهلاك، والملبّد بالهوَس الجنسيّ، في حاجةٍ إِلى نفحةٍ منعشة من تعاليم يسوع التي تفسّرها وترسّخها رسائل بولس، لعلّها تستعيد شبابها وأَصالتها. وقد تكلّف مطالعة هذه الرسائل بعض جهد وإِعمال فكر، ولكن أَيّة فائدة سينعم بها من يمعن في تأمّلها واستيعابها !

ففي مدرسة هذا المعلّم الفذّ، يتلقّن المرء أَنّ المسيحيّة الحقّة ليست شرائع وطقوساً، بل هي تضحية وموت عن الذات، لأَجل العيش في المسيح، بحيث يغدو يسوع هو من يحيا، ويفكّر، ويحبّ، ويعمل، فينا. وهي السلوك بحرّيّة أَبناء اللّه، وبهدي الروح القدس الفاعل فينا. المسيحيّة ليست أَخذاً، واغتناماً، وإِثراءً على حساب الغير، بل هي بذلٌ، ومشاركة، وبطولة. إِنّها اندماج في المحيط لتخميره وتفعيله، لا للانصياع لعبوديّته؛ إِنّها تتوخّى السموّ به وتوجيهه، لا التعفّن في مستنقعاته، وتبتغي إطلاعه على الحقيقة الإِلهيّة الخالدة، لا الانخداع بأَضاليله وترّهاته.

إِنّ بولس يدعونا إِلى تقبّل نظرة اللّه التي يلقيها على كلٍّ منّا، وعلى إِخوتنا البشر. وهذه النظرة تتجلّى من خلال إِلهٍ متأنّس، مات أَبشع ميتة، في سبيل خلاصنا. لقد أَرسى بولس لاهوته على الصليب، رمز الحبّ اللامتناهي، والتضحية القصوى؛ وعلى القيامة، دليل قدرة اللّه اللامحدودة. وما أَكثر ما تقاسي مجتمعاتنا من مِحَن وأَوصاب لأَنّها استعاضت عن البذل بالأَنانيّة المميتة، ولم تفقهْ المعنى الأَسمى للصليب الكفيل بتخفيف وطأة الآلام البشريّة، والسموّ

بها، وإِخصابها، وبتوفير إِجابة على أَسرار " البؤس البريء ". وما يأسُ البشر حيال الأَحداث التي تتخطّاهم، إِلاّ مغبّة ذهولهم عن قدرات القيامة وما تفيضه من رجاء، وما تبثّه من أَمل في التغلّب على كلّ أَسباب القنوط. وما الفوضى المستشرية في العالم إِلاّ عاقبة استبدال تعاليم المحبّة المسيحيّة، بعدالة عرجاء تستخدم لكلّ حالة، ولكلّ فئة، مكاييل متباينة.

الصليب إِدانة لكلّ صلَف بشريّ عقيم، ولكلّ هويّة مغلقة مبنيّة على المواهب الفرديّة، وعلى جدوى الأَداء المتفوّق، وهو دعوة إِلى الانفتاح والعطاء. وكلّ من استسلم لروح الصليب، ولقيادته، تمتّع بهويّة منفتحة، وانصرف عن همّ الذود عن مكتسباته الشخصيّة، لكي يكتشف، بذهول، سعادة المشاركة، ومساحة النعمة الشاملة.

وبولس هو أَوّل من اكتشف كلّ جدّة المسيحيّة، وسعى إِلى بتر القيود التي كانت تبقيها أَسيرة اليهوديّة، وأَتاح لها فرصة الانتشار في شتّى أَرجاء المسكونة، وإِخصاب جميع الحضارات السائدة، والسموّ بها، متحرّرة من كلّ عنصريّة، وتعصّب، ووهم تفوّق، وانكفاء على الذات.ومن ثمّ، ليست المسيحيّة، وحدها، هي المدينة لبولس، بل كلّ إِنسان متحضّر في هذا العالم.

بولس هو أَوّل من اكتشف أَنّ يسوع إِله محبّة، وأَنّ دينه هو دين انفتاح وشمول. هو أَوّل من استخلص، من تعليم يسوع، قِيَماً خالدة كفيلة بإِشاعة طعم الخلود، والانعتاق، وحرّيّة أَبناء اللّه، التي لا يقوى لا موت ولا حياة، ولا حاضر ولا مستقبل، على انتزاعها منّا. وبفضل لاهوت بولس، بات بوسع كلّ مسيحيّ أَن يعي أَنّ هويّته، هي هويّة ابن اللّه التي تمكّنه من التصدّي لمصاعب الحياة ومِحَنها، بسكينةٍ، وسجوّ نفس، ومن تخطّي البِدَع الرائجة، وتقلّبات الاقتصاد، والفوضى السائدة، ومن النهج، دائماً، نهج أَبناء اللّه.

و ليس، أَكثر من مثال بولس، وقدوة حياته، التي، بكلّ ما حفلت به من مِحَن واضطهاد، ومخاطر، وبطولة، كانت خير مصداق لكلّ ما قال وكتب، بل خير تبشير بالإِنجيل دعوة ملحّة إِلى استعادة هويّة أَبناء اللّه التي نكاد نفقدها، وليس، أَكثر من رسائله، ما يدفع إِلى انتباذ كلّ ما يقصي عن اللّه، ويصلح العلاقة المحطّمة به، فتتدفّق النعمة من جديد، ويشيع السلام في العالم.

عن بولس العملاق، قال عملاق آخر في القرن الرابع، هو القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم: " كلّ مانحن نعرفه – هذا إِن كنّا نعرف شيئاً – لم نتعلّمه بفضل مَلَكات عقلنا وقوّته، بل بالأَحرى، بفضل حوارنا المتّصل مع هذا الرجل، والمحبّة العميقة التي نكنّها له ".

و لا يسعني، ختاماً، إلاّ أَن أَشكر الجمعيّة البولسيّة تكليفها إِيّاي بوضع هذا الكتاب، فأتاحت لي، بذلك، فرصة الاستغراق في معرفة هذا المسيحيّ الأَمثل، وهذا العبقريّ الفذّ، الذي ما انفكّ صوته يدوّي، هازّاً أعماق النفوس، وموقظاً حبّ يسوع في القلوب؛ وما زال وجهه الجمّ يلوح على أُفق الأَلفيّة الثالثة، طيف نبيّ نعمة مدهشة، ورسول رجاءٍ يسري في أَوصال المستقبل.

و شكري الخاصّ لسيادة المطران جوزيف عبسي، المعاون البطريركيّ؛ فهو الذي بلّغني رغبة الجمعيّة البولسيّة، يوم كان ما زال رئيساً عليها، في وضع هذا الكتاب، ثمّ تكرّم بساعات ثمينة من وقته، لمراجعة مخطوطه.

أَمّا الشكر الذي لا قِبَل لي على التعبير عنه، فهو الذي أَتوجّه به إِلى أَخي وصديقي، الأَب الياس زحلاوي، الذي أُجلّ وفاءه لرسالته الكهنوتيّة، وعيشه الإِنجيل بكلّ روحانيّته، مثلما أُقدّر غزارة علمه، وجرأة قوله وسلوكه، وإِقدامه حيث يتخاذل من واجبُهم الإِقدام، والتزامه القِيَم الروحيّة والوطنيّة بلا وَجَل ولا وَهن. فقد واكب ولادة هذا الكتاب، ولم يضنّ عليّ بملاحظاته وتوجيهاته السديدة، ثمّ ارتضى أَن يضع له مقدّمة، عبّر فيها عن سخاء محبّته، وبها أَضاء جوانب هذا العمل، ووضعه في إِطار تاريخيّ، ودينيّ، وعلميّ، ونقديّ، مُحكَم، يتيح استخلاص العِبَر من " حدَث بولس "

أَديب مصلح

مقدّمة

بقلم الأَب إِلياس زحلاوي

منذ اللحظة الأولى، شئت هذه المقدّمة :

1- تعريفاً بالكاتب، مثقَّفاً عربيّاً قصّر الجميع في التعريف به.

2- إِثارة لمواضيع حارقة يطرحها كتاب لا يحتاج أَصلاً إِلى تعريف، ولا يفي به تقديم.

3- صلاة شكر.

I- تعريفي بالكاتب : شهادة كاهن وصديق.

1- عرفته مؤمناً في كنيسة، هي كنيسة سيّدة دمشق. كنتُ أَلحظه خلال عظاتي كلَّ أحد مساءً، وهي الفترة الوحيدة التي أَسمح لنفسي فيها، أَثناء إِقامتي القدّاس الإِلهيّ، بأَن أحدّق في الناس.هو لا يغيّر مكانه.وما كنت أعرف اسمه.

2- ذات يوم وجَّهت نداء للمصلّين، من أَجل طفل مريض بحاجة إِلى عمل جراحيّ في عينه. فجاءني، بعد القدّاس بقليل، شابّ يحمل مبلغاً من والده، مساهمة في معالجة الطفل.شئت أَن أعرف الاسم، فتمنّع، ألححت.عندما عرفت اسمه، أَسعدني الأَمر، لأَنّي كثيراً ما كنت قرأت له في مجلّة " المسرة ".فقصدته بعد أَيّام، في بيته، شاكراً.

3- يومها عرفت، شخصيّاً، هذا الذي كنت أَقرأ له في إِعجاب في " المسرة "، مقالات في غاية التنوّع (...في الصلاة - وكانت أولاها - في الإِيمان، في التربية، في النجاح، في الكهنوت، في الخلاص، في المال، في الإِلحاد، في الجمال، في تاريخ الكنيسة، في يسوع، في العذراء، في بعض المثقّفين الغربيّين المتنسّكين، في العمل، في الأميَّة، في الإِعاقة، في المحبّة، في الاهتداء، في المخدّرات، في التفجّر السكّاني، في خدمة البرص، في الشهادة، في الحضور الإِلهيّ...) مقالات ذات عناوين مثيرة، وفيها من أَناقة اللغة ومتانتها، وعمق الفكر ورحابته، وصدق النبرة الروحيّة، وسعة الأُفق الدينيّ، ما كان أَثار لديّ مراراً الرغبة في التعرّف إِليه.ويومها، دهشت، فوق كلّ ذلك، لما لمست لديه من وداعة واتّضاع.

4 – وعرفت أنّه نشأ في أسرة مؤمنة من النبك، وأنّه قصد، وهو فتى يافع، دير الآباء البولسيّين في حريصا (لبنان)، ليتدرّج في سلك الكهنوت. وهناك تشبّع من روح الإيمان والصلاة والتضحية، ونهل بجدّ من العلوم المقرّرة، وتمرّس باللغة العربيّة على يد أحد نوابغها، الأَب جورج فاخوري، فعشقها، وعشقه كاهناً قدوة لا يُجارى بجرأته وحرّيّته واستقامته.إلاّ أنّه لم يتسنّ له متابعة درب الكهنوت، فعاد إلى دمشق، وحُلمُ خدمة الربّ يسوع يسكن عقله وقلبه.

5– وعمل موظّفاً في أحد المصارف، دون أن يهمل تحصيله الثقافيّ واللغويّ، فبات يتقن الانكليزيّة، فضلاً عن العربيّة والفرنسيّة، ناهيك عن اليونانيّة واللاتينيّة اللَتين كان قد درسهما في الدير.

6– في عام 1958، تزوّج ورزق صبيّاً وابنتين. وكان قد انصرف إلى عمل خاصّ، في تجارة الخيوط، وحقّق فيها مكانة مرموقة، أغدقت عليه مالاً وفيراً، كثيراً ما خبرت بنفسي أنّ فيه للمحتاج حصّة سخيّة، دون "أن تدري اليد اليسرى ما صنعت اليمنى".

7 – وجاء حدث الصوفانيّة في تشرين الثاني من عام 1982. فكثرت لقاءاتنا في " بيت العذراء "، في هذا الحيّ المتواضع، للصلاة، ومن ثمّ في بيته، للحوار. وذات يوم، أطلعني على مقال له حول الصوفانيّة، وضعه خصّيصاً لبعض أصدقائه التجّار الأجانب، وكان المقال موقّعاً بتاريخ 1983/12/9. وقد ختمه بفقرة يتساءل فيها صريحاً عمّا إذا كانت ظهورات العذراء ترمي، في نهاية الأمر، إلى وحدة الكنيسة، " فتكون تلك إحدى أعظم معجزات السيّدة العذراء ". أَجل، تلك كانت خاتمة مقاله. وما كان، حتّى ذلك الحين، قد وردت أيّة كلمة في رسائل العذراء، بشأن وحدة الكنيسة. فسألته، ببساطة، عدم نشره، لئلاّ نستبق الأَحداث، ونحدث شيئاً من البلبلة... الكنيسة والربّ ونحن... بغنى عنه. فاستجاب على الفور. والمقال لا يزال، إلى اليوم، طيّ ملفّاتي الخاصّة بالصوفانيّة.

8 – وفي مطلع عام 1984، ارتأينا معاً أن نبحث عن ردّ علميّ على من يرفض الصوفانيّة باسم العلم، وكانوا كثراً. فوجدنا في العالم الطبيب الفرنسيّ "ألكسي كاريل" (1873– 1944) ضالّتنا المنشودة في كتابه "الرحلة إلى لورد "، الذي يروي فيه، كطبيب وعالم ملحد، الشفاء المعجز الذي حدث تحت ناظريه، لمريضة شابّة في ساعاتها الأَخيرة، والصدمة الهائلة التي أحدثها فيه هذا الشفاء المفاجئ، ومن ثمّ اهتداءه إلى الإيمان، بعد صراع طويل ومكلف. فكان أن ترجم كتاب كاريل وأَضاف إليه مقتطفات هامّة من كتابيه "الإنسان ذلك المجهول" و" خواطر في نهج الحياة "، وفقرات من مذكّراته. وطُبع الكتاب في شهر تمّوز من عام 1984، في دمشق، ووُزّع مجّاناً، كما هي الحال دائماً في شؤون الصوفانيّة. ثمّ أعيد

طبعه في شهر آب عام 2000. وهو بعنوان " على درب الحياة مع ألكسي كاريل ". وهو يقع في (140) صفحة.

9 – في عام 1985، أملت علينا ظاهرة الصوفانيّة حاجة جديدة. فقد تبيّن لي ولأخي الأكبر الأب يوسف معلولي، أنّ ميرنا، مختارة العذراء، تفتقر إلى ثقافة روحيّة، فضلاً عمّا تفتقر إليه من ثقافة عامّة. كما تبيّن لنا أنّها قد تكون بحاجة، خصوصاً، إلى مطالعة سيرة بعض من اختارهم الربّ والسيّدة العذاء لمهمّات مماثلة. وقرّ رأينا على البحث عن سيرة رصينة بالعربيّة، للراهبة الفلسطينيّة "مريم يسوع المصلوب"، فلم نجد. فرأيت، أن أقترح على صديقي أديب أن يضع كتاباً بالعربيّة، يستند فيه إلى أفضل ماكتب عنها. وقصدنا معاً السفارة البابويّة بدمشق، وقابلنا السفير البابويّ، وكان يومذاك المونسينيور "نيقولا روتونو". وكان محبّاً للصوفانيّة، فرحّب بالفكرة، ووعدنا بجلب المستندات الرسميّة التي اعتمدتها المراجع الكنسيّة المختصّة في روما، في قضيّة تطويبها. وهكذا كان. وبفضل هذه المراجع وما استطاع أديب أن يجمع في رحلاته الكثيرة إلى فرنسا وسويسرا، من الكتب، انكبّ علىوضع مؤلّف طبعه في لبنان، تحت عنوان: "قدّيسة من بلادنا: الأخت مريم يسوع المصلوب". وهو يقع في (308) صفحات من القطع فوق المتوسّط.

10 – وفي عام 1992، قرّر وضع كتاب حول " غاندي "، وهو شديد الإعجاب بهذا السياسيّ القدّيس الفريد. فقصدنا معاً السفارة الهنديّة في دمشق، وقابلنا السيّد السفير، وعرض عليه أديب مشروعه، وطلب ما أمكن من المراجع، فكان له ذلك، ثمّ جمع كلّ ما استطاع جمعه في اللغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة.

و بعد أشهر طلع على العالم العربيّ بكتاب أعتقد أنّ المكتبة العربيّة لم تعرف له مثيلاً، وهو بعنوان : " السياسيّ القدّيس، المهاتما غاندي ". وهو يقع في (591) صفحة من القطع فوق المتوسّط، وهو، في نظري، رسالة لجميع العاملين بالسياسة، ولمحتكري الإيمان، أيّاً كان انتماؤهم الديني.

11– وفي ميلاد عام 1992 أيضاً، جاءني، على فجأة، بترجمة عربيّة لكتابي الموضوع بالفرنسيّة حول الصوفانيّة، والصادر في باريس في أيلول عام 1991، وهو بعنوان: "اذكروا اللّه ". وقال لي: "هي هديّتي لك في عيد الميلاد. أرى أن تراجعه وأنا أتكفّل بطبعه، وقد رأيت أنّه لا بدّ للقارئ العربيّ أن يطّلع عليه ". وفي عيد البشارة من عام 1993، صدرت له الطبعة الأولى، ثمّ أعيد طبعه خلال عام 1999.

12– وفي عام 1994، انصرف إلى وضع كتاب حول القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، ولأديب هاجس مقيم بشأن رسالة الكنيسة، كي تأتي ناصعة، حرّة، قويّة، جذّابة، وقد وجد

ضالّته في هذا القدّيس النادر الذي عاش الإنجيل بحرفيّته المذهلة، والذي كان له تأثير فريد في بعث نمط من الحياة الإنجيليّة في الكنيسة مدى أجيال. وصدر الكتاب عام 1994 بعنوان "فرنسيس _ أصلح كنيستي". وقد شاءه أديب، الصامت الوديع، صرخةً مدوّية لإيقاظ حياة الشهادة في فقر ومسؤوليّة، في الكنيسة عامّة، وفي الكنيسة العربيّة خاصّة، وقبل فوات الأوان. والكتاب يقع في (510) صفحات من القطع فوق المتوسّط.

13 – ثمّ اختار وجهاً إنسانياً من وجوه القرن العشرين المتوحّش، فكتب سيرة الأب الفرنسيّ " بيير "، الذي عُرف بنضاله ضدّ المحتلّ النازيّ أوّلاً، ثمّ، طوال قرابة خمسين عاماً، ضدّ الفقر والتشرّد، المستفحلين في المجتمع الفرنسيّ وفي العالم، وأخيراً ضدّ الصهيونيّة، بالتعاون مع المفكّر " روجيه غارودي ". وصدر الكتاب عام 1997، وهو يقع في (590) صفحة من القطع فوق المتوسّط. ولكم كانت فرحة أديب عظيمة، إذ أرسل للأب بيير بعض نسخ، فجاءه، على الفور، جواب شكر مفعم بالتقدير والمحبّة، وفيه طلب خجول لمزيد من النسخ العربيّة.

14 – وفي عام 1997، فاجأني بطلب يسألني فيه موافاته بكلّ ما كتبتُ، ما نشر وما لم يُنشر. فكان أن اختار من كلّ ذلك مجموعة سألني السماح له بطباعتها، على أن أقدّم الكتاب بكلمة. وصدر الكتاب في لبنان، بعنوان "ومن الكلمات بعضها..." وهو يقع في (544) صفحة من القطع المتوسّط. إلاّ أنّه أصرّ على حذف اسمه من المقدّمة، وقد كنت ذكرت فيها أمنيتي الصادقة بأن يوفّق اللّه كلّ كاهن على وجه البسيطة بصديق مثل أديب، إن وُجد.

15 – ثمّ توجّه شطر أكثر الناس حرماناً في العالم، من خلال شخصيّة "الأمّ تيريزا".وقد أسعدني اللّه بلقائها في ديرها في حيّ "برونكس" بنيويورك، فسألتها كلمة له بخطّ يدها ودعاء من أجله. فخطّت له كلمة تستنزل عليه فيها بركة اللّه، وهي الكلمة التي طُبعت على ظهر الكتاب الذي يروي سيرتها الخارقة، والذي يحمل عنواناً لا أروع ولا أغرب: "حتّى يوجع العطاء". وقد صدر عام 1998، وهو يقع في (710) صفحات من القطع فوق المتوسّط.

16 – وفي مطلع عام 1998 أيضاً، فاجأني باقتراح من ابنه المهندس الشابّ أيمن، يسأله فيه ترجمة كتاب " حدّثني عن الحبّ " للأب "ميشيل كواست"، الفرنسيّ، إلى العربيّة، على أن يقوم أيمن بطباعته على نفقته، كي يوزّع على الشبيبة، وقد كنت وجدت، لعشرين سنة خلت، يوم قرأت هذا الكتاب بالفرنسيّة، أنّه قد يكون أفضل ما كُتب عن الحبّ. فهلّلت لهذا الاقتراح يأتينا في زمن بات فيه الحبّ ينحدر في رخص خطير. وقد صدر الكتاب في دمشق في 1998/11/8، وأعيد طبعه مرّتين منذ ذلك الحين، فيما الشبيبة تتلقّفه بدهشة وفرح.

17 – ثمّ انصرف أديب إلى وجه آخر نيّر، من وجوه القرن العشرين العظيمة، وقد تجلّى في الأحياء الفقيرة المسماة "مقابر المزابل" في القاهرة. إنّها الأخت "إيمّانويل" البلجيكيّة. فروى سيرتها المدهشة، ونضالها الرائع من أجل الارتقاء ببعض أفقر الناس في المجتمعات العربيّة، وحضّها لهم، بإيمان وشجاعة، على الارتقاء أيضاً بأمثالهم. وقد صدر الكتاب عام 1999، وهو يقع في (409) صفحات من القطع فوق المتوسّط، ويحمل عنواناً فيه عنفوان محبّب هو: " أنا الأخت إيمّانويل...أشهد " ! وإنّها لشهادة أكثر من مدهشة حقّاً.

18 – بعد ذلك، توجّه أديب شطر المعاقين عقليّاً، واتّخذ له من رسولهم في العالم أجمع، الفيلسوف الكنديّ " جان فانييه "، شخصيّة لكتاب جديد، هو الآن قيد الطبع.

19 – كلّ هذه الأعمال، شاء لي الربّ أن أرافقها في نشأتها وصياغتها.وقد ألِف أديب، بحكم الصداقة التي تجمعنا، وهاجس الرسالة المشتركة، أن يسلّمني أقسامها المتتالية كلّما أنهى جزءاً منها فأكون أوّل المستمتعين بمطالعتها. وأرجوا ألاّ يعتب عليّ إن قلت، بدافع الشهادة فقط، إنّه لا يبتغي من رواء كلّ ذلك أيّ كسبٍ مادّيّ، لأنّ مبتغاه الواضح والأوحد، هو نشر الكلمة العربيّة، المؤمنة، النيّرة، الشاهدة.

و لكم من مرّة، شكرت للربّ وجود مثل هذا الفكر والقلب والقلم في مجتمعنا العربيّ المسيحيّ.

20 – ويغفر لي صديقي أديب إن قلتُ أخيراً أنّ هذا العمل الثقافيّ والرسوليّ، الجبّار والهادئ، لا ينسيني أن أذكر أيضاً ما طبعه من أقاصيص واقعيّة ترجمها عن الفرنسيّ للقاصّة " ماريا فينوفسكا " وللأب "جيرار بسيّير"، تتحدّث عن حضور الربّ يسوع والعذراء مريم في حياة بعض الناس، اليوميّة، في أبسط الظروف وفي أقساها على السواء. أمّا ما ترجمه ولم ينشره حتّى الآن فكثير، وأكثر منه ما ترجمه للكثيرين دون ذكر اسمه، استجابة لخدمة روحيّة.

21 – لذا، لم أفاجأ يوم علمت أنّ رئيس الآباء البولسيّين، الأب جوزيف عبسي آنذاك، قد طلب إليه وضع كتاب حول القدّيس بولس، شفيعهم، وقد بات يوبيل تأسيسهم المئويّ الأوّل قريباً، وهو يقع خلال عام 2003. لم أفاجأ، بل قلت : ومن سواه، بين المثقّفين العرب المسيحيّين، يستطيع أن يتصدّى لمثل هذا العمل الملحميّ ؟ إلاّ أنّ تمنّعه، بادئ ذي بدء، لم يفاجئني، وقد استهول، في تواضعه، ضخامة العمل المطلوب منه. ولكن، كان لا بدّ من سوريّ ابن دمشق، ليكتب – أخيراً ! – سيرة ثاني أعظم سوريَّيْن عرفهما التاريخ : يسوع ابن الناصرة، وبولس ابن طرسوس.

و قد تبيّن لي، بعد أن قرأت مخطوط " بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه "، أَنّ تلك المسيرة الروحيّة والثقافيّة، الطويلة والمتعرّجة في الظاهر، ولكن ذات الخطّ المستقيم في الجوهر، التي عاشها المؤلّف، طوال أَكثر من ثلاثين عاماً من العطاء المتواصل، في إِيمانٍ وجَلَد نادرَيْن، لم تكن سوى تهيئة ربّــيّة، على قدر ما يتسنّى لنا اكتشافه من أعمال اللّه، لصياغة هذه المسيرة، في مثل هذا الكتاب العربيّ الاستثنائيّ، لغة وأسلوباً، ومضموناً وروحاً وأفقاً... بانتظار سيرة من كان ملهم السيَر جميعها : يسوع !

II – المواضيع الحارقة التي يطرحها الكتاب

لهذا الكتاب أهميّة عظيمة، تبلغ، في نظري، حدّ الضرورة.

من يدرك، ولو قليلاً، حجم القدّيس بولس ومدى تأثيره الاستثنائيّ في التاريخ البشريّ، يقف حائراً أَمام تأخّر الكنيسة العربيّة، بكافّة أُسَرها الروحيّة، عن كتابة سيرةٍ لائقة به، حتّى اليوم. فإِنّ ما وُضع عنه، بالعربيّة، من كرّاسات، بل ومن كتب، لا يفي هذا العملاق جزءاً يسيراً ممّا كان له من تأثير على مسار الفكر والتاريخ منذ ألفي عام.

و قد يكون للكنيسة العربيّة، في هذا التقصير، بعض العذر، وما أَكثر ما لدينا، في شرقنا العربيّ، من أعذار، بسبب مئات المؤلّفات التي وُضعت عنه، في مختلف لغات العالم. ولعلّ أوفاها وأغناها كتاب العالم الألمانيّ الأب "جوزيف هولزنر" (1877 – 1947)، الذي كان الفضل في نقله إِلى العربيّة للبطريرك المرحوم الياس الرابع.

و لكم كان مجتمعنا العربيّ بحاجة إِلى مثل هذه الدراسة، تأتينا في لغة عربيّة قلّ نظيرها، وبأسلوبٍ هادئ وموضوعيّ، ولكن حارّ ولاهث في آن، كثيراً ما يفتقر إِليه البحث العربيّ.

بالطبع لا أجهل أَنّ هناك من قد يرى في هذه المسيرة مجرّد إحياء لذكرى شخصيّة من الماضي، كان لها دورها، ولكن لا علاقة لأحد بها اليوم، وبصراحة أكبر، لا علاقة لغير المسيحيّ العربيّ بها اليوم.

إِلاّ أني أسمع أَيضاً، منذ الآن، بعض القرّاء يردّدون ما قال لي ذات يوم، طبيب مسيحيّ شابّ، لم يكن ليقيم للإِيمان وزناً في حياته، قبل أَن يؤخذ بكتاب "هولزنر" في ترجمته العربيّة: "أيُعقل أن يكون إِنسان بحجم بولس قد عاش حقّاً، وفعل ما فعل ؟"

و الحقيقة تقتضي القول إنّ في هذا الكتاب آفاقاً رائعة من الاكتشافات، التاريخيّة والدينيّة والاجتماعيّة واللاهوتيّة والروحيّة والكنسيّة والإنسانيّة، أترك لقارئه متعة اكتشافها كما تسنّى لي أن أكتشفها، إذ كنت ألتهمه، أو بالأحرى إذ كان يلتهمني.

إلاّ أنّ فيه أبعاداً استثنائيّة ثلاثة، استوقفتني بإصرار وتكرار، بوصفي كاهناً عربيّاً. فرأيت أن أتوقّف عندها بشيء من التكثيف، لأنّي أرى أنّ المجتمع العربيّ عامّة، والكنيسة العربيّة خاصّة، مدعوّان للــتأمّل فيها طويلاً، إذ هما بحاجة أكثر من ماسّة لمواجهتها.

هذه الأبعاد الثلاثة هي :

1- حدَث اهتداء بولس في دمشق.

2- علاقة بولس بالمسيح والمسيحيّة.

3- علاقة المسيحيّة باليهوديّة.

-1- حدث اهتداء بولس في دمشق

هذا الحدث يخصّ التاريخ العامّ. وقد كان المفصل الحاسم في حياته، وأَحد المفاصل الحاسمة في تاريخ العالم. وقد رواه بولس نفسه مراراً في رسائله، كما روى تفصيله أمين سرّه، القدّيس لوقا، في سفر أعمال الرسل. وما أحسن ما استخدم المؤلّف هذا الحدث، يذكّر به القارئ في إيقاع منتظم، وكأنّه لازمة لسيمفونيّة، لا يستقيم اللحن الكلّيّ من دونها.

ما حدث يومها غيّر وجهة بولس - شاول آنذاك - وغيّر، بالتالي، وجهة التاريخ، نظراً للدور الذي لعبه بولس فيما بعد. وهذه واقعة لا يجوز لأحد أن يتجاهلها.

فالمؤمنون المسيحيّون، على اختلاف أُسَرهم الروحيّة، يسلّمون بما آمن به بولس: من أنّ الربّ يسوع ظهر له في نورٍ صاعق، وغمره بالمعرفة الإلهيّة، فانقلب، بعد ثلاثة أيّام من التأمّل والصلاة والصوم، وإثر لقائه بأسقف دمشق حنانيا، انقلب إلى رسول. وجميع المسيحيّين يسلّمون، بثقة تامّة، بصحّة هذه الحادثة، لأنّها تأتي منسجمة مع وعد الربّ يسوع بالبقاء مع المؤمنين به حتّى منتهى الزمان، كما هي تأتي منسجمة مع سيرة يسوع ومعجزاته، وهي وحدها تفسّر ما أعقبها من تغيّر جذريّ وكلّيّ لدى شاول، وما مُنح من ثمّ، من قدرات روحيّة خارقة للقيام بما قام به، ومن قدرة على اجتراح معجزات، أسوة بسائر الرسل، تدعم تعليمه وتبشيره.

إلاّ أنّ هذا الحدث عينه أثار، منذ القديم، شكوكاً كثيرة، وجدت لها تربة خصبة في العقلانيّة الوضعيّة التي سادت الفكر الغربيّ، منذ بدايات عصر النهضة، والتي كادت أن

تستأثر بكلّ تفكير، منذ القرن الثامن عشر. ولقد انصبّت الجهود الفكريّة والعلميّة، آنذاك، على استنباط تفسيرات عقلانيّة لجميع الظواهر الدينيّة، عامّة، والمسيحيّة، خاصّة، باعتبارها إفرازات اجتماعيّة ليس إلاّ. وظهرت محاولات متنوّعة ومتلاحقة، كان الهدف منها جميعاً استبعاد اللّه أوّلاً، ثمّ تحجيم المسيح وإعادته إلى حدود بشريّة صرف. فنتج عن ذلك ما أسموه " المسيح التاريخيّ " في مواجهة " المسيح اللاهوتيّ " الذي عرفته المسيحيّة وتنادي به. وكان لا بدّ من تفسير عقلانيّ أيضاً لهذا...التفسير. فاتُّهم بولس بابتكاره والترويج له، واعتُبر، منذ ذلك الحين، المسؤول الأوّل والأخير عن ظهور " المسيحيّة " كما تنادي بها الكنيسة، وليس كما شاءها "المسيح التاريخيّ".

هذا " التفسير " العقلانيّ، كان أوّل من ابتدعه البحّاثة الألمان، ثمّ تبعهم العديد من البحّاثة الغربيّين، ولا سيّما الفرنسيّين.

أمّا كيفيّة تحوّل شاول إلى رسول مسيحيّ على هذا النحو المطلق والجارف، فقد فسّره هؤلاء " العلماء " الغربيّون " العقلانيّون "، تفسيراً أغرب من الغرابة، إذ قالوا إنّ شاول أُصيب بضربة شمس (أجل بضربة شمس! هكذا يقرّر " علمهم " !) على مقربة من دمشق، وشمس دمشق حارقة، فسبّبت له حمّى غريبة، خرج منها إنساناً جديداً مختلفاً بالكلّيّة عمّا كان عليه قبلاً... !

و كما هي حالنا دوماً، نحن العرب مع الغرب، فقد انتقلت هذه التهمة كما هي، ودون أيّ تمحيص، إلى العالم العربيّ والإسلاميّ، ووجدت لها من يتبنّاها ويدّعيها وكأنّها الحقّ المبين ! ثمّ وُجد من يقول، في خطوة لاحقة، أنّ بولس اليهوديّ الحاقد، إندسّ في المسيحيّة، وقد رآها في صعود، ليدمّرها من الداخل على هذا النحو الغريب !

أجل، بمثل هذه السذاجة والسطحيّة، يتعامل بعض " العلماء " في الغرب والشرق، مع حدَث غيّر مجرى التاريخ، وجلب لمن غيّره المتاعب والمشقّات، حتّى الموت استشهاداً، ونشر البشارة المسيحيّة في العالم !.... ولا بأس إن ذكرت أنّ "إرنست رينان" كان أحد أبرز هؤلاء " العلماء " !

و ليس المؤرّخون والعلماء والفلاسفة اليهود بأفضل منهم ! لا سيّما وأنّ اليهوديّة رفضت دائماً وترفض، جذريّاً، المسيحيّة. إلاّ أنّهم، جميعاً، يُظهرون الكثير من الحيرة والتهرّب في تفسير يسوع، وفي تحوّل شاول إلى بولس. وفيما بعد لا يتردّد بعضهم – أمثال "ب لابيد" الفرنسيّ – في وصفها بأبشع الأوصاف، فإنّ الجميع – ومن أهمّهم: " أبرام ليون ساخار "، و" جوزي ايزنبرغ " – يُجمعون على أنّهما نتاج تضخيم عاطفيّ وخياليّ، مارسه المسيحيّون الأوائل، وأقنعوا، من ثمّ، العالم بصحّته !.

إلاّ أَنّ بعضهم استطاع أن يخرج من دائرة هذا التفسير السطحيّ، الذي يتجاهل جوهر الحدث ونتائجه الخارقة والمستمرّة إِلى اليوم، وتقبّله حدَثاً واقعيّاً استثنائيّاً وحاسماً، أتى في منطق لاهوت التجسّد الذي يؤسّس المسيحيّة كلّها. ومن هؤلاء أَسماء كبيرة هنا وهناك، نخصّ بالذكر منهم الفيلسوفَيْن " هنري برغسون " و" جاك ماريتان " من فرنسا، والمفكّر "أندريه فروسار" من فرنسا أَيضاً، والعالم النفسي "كارل شترن" من ألمانيا.

-2- علاقة بولس بالمسيح والمسيحيّة :

إِنّ هذه العلاقة تخصّ اللاهوت المسيحيّ عامّة، وهي تطرح أسئلة حادَّة وعديدة، منها :

هل لاهوت بولس يختلف عن لاهوت المسيح ؟

هل من تطابق أو من اختلاف بين ما علّمه بولس، وما علّمه المسيح ؟

هل أسبقيّة كتابات بولس، تاريخيّاً، على كتابة الأَناجيل وسفر أعمال الرسل، غيَّرت شيئاً في مضمون البشرى المسيحيّة، وفي أسلوب الرسل ومصداقيّتهم في رواية الأَحداث ؟

و بسؤال جامع شامل :

هل بولس هو الذي ولد المسيحيّة

أم المسيحيّة هي التي ولدت بولس ؟

إِنّ الإِجابة على مثل هذه الأسئلة الخطيرة، قد تصدّى لها المؤلّف مرّات كثيرة. وقد حرص، على نحوٍ متواصل، على تبيان التطابق التامّ بين حقيقة المسيح، كما عرفها جميع الرسل الأوّلون، وعاشوها وأعلنوها، ثمّ كتبوها، وأخيراً مهروها بدمائهم، وحقيقة المسيح، كما تلقّاها بولس في اهتدائه الصاعق بدمشق، وكما بشّر بها، على الفور، في دمشق، ثمّ اختلى لسنوات يتأمّل فيها، وانطلق بعد ذلك ينادي بها في العالم كلّه، ومن ثمّ كتبها في رسائل كثيرة وضعها في ظروف مختلفة ولأغراض متعدّدة، لاهوتيّة واجتماعيّة وتنظيميّة وأخلاقيّة، حتّى باتت، والأناجيل، المراجع الأَساسيّة، الوحيدة والملهمة، للحقيقة المسيحيّة على مرّ العصور. وقد مهر، هو أَيضاً، حقيقة المسيح هذه، بدمه، حتّى عدّته الكنيسة جمعاء، بكامل أُسَرها الروحيّة، واحداً من أعظم الرسل الأوّلين.

تلك الحقيقة اللاهوتيّة الواحدة، هل تُرانا بحاجة لأن نذكّر بأَنّ بعض الرسل، وبعضاً من تلاميذهم، رووها في الأناجيل وفي سفر الأعمال وفي بعض الرسائل، وكلّها أسفار من

الثابت أنّها كُتبت بعد رسائل القدّيس بولس بفترة متفاوتة الطول ؟ إلاّ أنّها كُتبت كلّها، وكأنّ واضعيها لم يعرفوا من كان بولس وما فعل وما كتب.

أمّا مصداقيّـــتهم فأجرأ من أن ينالها شكّ أو تشكيك. وهي أكثر من جليّة لمن يقرأ هذه الأسفار بعين مجرّدة. فما عاناه يسوع معهم، من سوء فهم دائم، وانطواء مطبق على يهوديّتهم، ومطامع زمنيّة صرف، وخلافات تافهة ومزمنة فيما بينهم، وتطاوُلٍ وقح باسمه على الناس، ثمّ عليه بالذات، وأخيراً من تخاذل، بل ونكران وخيانة، كلّ ذلك رواه الأوائل بأمانة مدهشة تضعهم فوق أيّ شكّ.

و إلى ذلك، فقد كانوا التقوا بولس مراراً : في دمشق والقدس وطرسوس وأنطاكية وروما، ليختبروا سلامة طويّته وإيمانه أوّلاً، ثمّ ليستعينوا به على نشر البشرى، ثمّ ليتوزّعوا مناطق التبشير ويُنسّقوا أساليبه، وأخيراً ليرسوا معه، في مجمع القدس، عام (50)، القواعد الأساسيّة الموحدّة التي يتوجّب أن يقوم عليها التبشير بين اليهود من جهة، والوثنيّين من جهة ثانية، من يونان ورومان، وفرس وعرب وسواهم...

و كان الجوهر واحداً في بشرى الرسل الأوّلين وبولس. وما ذلك إلاّ لأنّ المسيح وحده كان محور حياتهم جميعاً وغايتها. فما كانوا ليقيموا وزناً إلاّ للبشرى، ضاربين بكلّ شيء، حتّى بيهوديّـــتهم وحياتهم، عرض الحائط ! وهذا بالذات هو ما يفسّر اجتياحهم العالم القديم، وكانوا قبضة صغيرة، والدنيا كلّها تقاومهم، بل تضطهدم وتقتلهم !

لذا كان كلّ حديث عن اختلاف بين لاهوت الرسل الأوّلين ولاهوت بولس، ضرباً من الوهم، بل والجهل. والدليل البيّن على ذلك، إنّ ما جاء في الأناجيل الأربعة وسفر الأعمال من جهة، ورسائل القدّيس بولس من جهة ثانية، في جميع ما يخصّ مولد المسيح وسيرته وأعماله وتعاليمه وألقابه، يظهر حالة من التطابق لا تدرك إلا بالتحاق بولس بالكنيسة الناشئة الجديدة، حيث احتلّ مرتبة بين الرسل، وضعته في شبه مساواة مع زعيم الرسل، بطرس.

و إنّي لأرى من الضروريّ، بقصد تبيان صحّة هذا التأكيد، بصورة نهائيّة وقاطعة، أن أذكّر ببعض ما جاء في رسائل بولس وسواه، وفي سفر الأعمال، في هذا الصدد.

أورد، أوّلاً، ما يخصّ نشأة المسيح وسيرته :

يسوع ولد من امرأة (غلا 5/4)، وكان يهوديّاً (غلا 5/4) من قبيلة يهوذا (عبرا 14/7) ومن بيت داوود (روما 3/1)، وخضع للشريعة اليهوديّة (غلا 4/4) وكان له "إخوة " (1 كور 5/9) منهم يعقوب (غلا 19/1) وأنّه عرف بفقره (2 كور 9/8) ووداعته (2 كور 1/10) وقداسته (2 كور 21/5) ونال العماد من يوحنّا السابق (أعمال 22/1) وأحاط نفسه ببعض التلاميذ، منهم بطرس (1 كور 5/9 و7/15–9)، وأنّه أجرى

العديد من المعجزات (أعمال 22/2)، وتجلّى أمام تلاميذه (2 بطرس 16/1–18) وأسّس سرّ القربان المقدّس في العشاء الأخير (اكور 23/11–27) وعانى النزاع وآلاماً مبرّحة، وذاق الموت (عبرا 7/5) وعرف خيانة يهوذا (أعمال 16/1) والإهانات في آلامه (روما 3/15 وأعمال 13/3–14) وأنّه صلب (1 كور 23/1) (غلا 1/3 و13 وأعمال 23/2) خارج أسوار أورشليم (عبرا 13 /12) وأنّه دفن (1 كور 4/15 وأعمال 23/2–24) وأنّه قام في اليوم الثالث (روما 11/8 و35 وأعمال 24/2) وأنّه ظهر حيّاً مرّات كثيرة ولكثيرين (1 كور 5/15–8) وصعد إلى السماء بمرأى من تلاميذه (روما 34/8 وأعمال 34/2)

أورد، ثانياً، الألقاب التي أُطلقت على المسيح في أسفار العهد الجديد خارج الأناجيل الأربعة فهي تأتي كلّها منسجمة أيضاً مع ما جاء في الأناجيل الأربعة منها :

أنّ يسوع هو المسيح المنتظر (أعمال 5 /42 وروما 11/5) هو آدم الجديد (روما 16/5) وهو الراعي الصالح (بطرس أولى 25/2) وهو مخلّص العالم (أعمال 4 /12) وأنّه ابن اللّه (روما 3/1–4 وأعمال 20/9) وأنّه ابن اللّه الذي أحبّنا ومات عنّا (غلا 20/2) وهو مانح الحياة (أعمال 15/3) والمخلّص الأوحد (أعمال 12/4) وهو ربّ العالمين (أعمال 36/10) وهو الذي أقامه اللّه ديّاناً للأحياء والأموات (أعمال 42/10) وهو " الذي يشهد له جميع الأنبياء بأنّ كلّ من آمن به ينال باسمه غفران الخطايا " (أعمال 43/10).

ألا يفسّر كلّ ذلك الكلمة الشهيرة التي كتبها أحد أكثر النقّاد تطرُّفاً وتحاملاً على المسيحيّة، وهو العالم الفرنسيّ " إرنست رينان "، حيث يقول :

" بوسع المرء أن يؤلّف سيرة صغيرة ليسوع، بواسطة رسائل بولس إِلى روما والكورنثيّين والغلاطيّين والرسالة إِلى العبرانيّين، وهي ليست لبولس، ولكنّها قديمة جدّاً ".

فهل يبقى، ثمّة، مكان " لمسيح تاريخيّ " يختلف عن " مسيح لاهوتيّ " ؟

و بعبارة أخرى : هل، ثمّة، انفصال واختلاف بين مسيح بولس ومسيح الرسل الأوّلين؟

فلنطوِ، إِلى الأبد، كلّ حديث عن بولس اليهوديّ الذي اندسّ في المسيحيّة، ليدمّر المسيحيّة التي شاءها يسوع نفسه، فما ذلك إِلاّ جهل بالمسيحيّة كما عاشها يسوع وعلّمها وحمّل رسله الأوّلين مسؤوليّة التبشير بها، في كلّ مكان وزمان. وهو، أَيضاً، جهل بما آل إليه بولس بعد اهتدائه الصاعق، من حيث إيمانه المطلق بيسوع مخلّصاً وفادياً أوحد، ممّا أتاح قبوله في صفّ الرسل أنفسهم على مرّ التاريخ، وكذلك من حيث قدرته على إجراء المعجزات

باسم يسوع إيّاه، أسوة بسائر الرسل، ودعماً لصحّة رسالته، وأخيراً من حيث كونه مرجعاً رسوليّاً تتلى رسائله منذ ألفي عام، كلّ يوم، وكلّ دقيقة، جنباً إِلى جنب مع الإِنجيل المقدّس، خلال القدّاس الإِلهيّ، على مدار الزمان كلّه.

-3- علاقة المسيحيّة باليهوديّة

إِنّه البُعد الحارق، بُعد العلاقة بين المسيحيّة واليهوديّة كما رآها بولس منذ ألفي عام، وكما عالجها بإقراره مبادئ لاهوتيّة حاسمة ومؤلمة، وباتّخاذه مواقف عمليّة صارمة، أيّده فيها سائر الرسل.

لئن كان هذ البُعد يخصّ الكنيسة عامّة، فإنّه يخصّ، بالدرجة الأولى، الكنيسة العربيّة خاصّة. وحسبي من الموضوع هذا الجانب.

فالكنيسة العربيّة، شاءت أم أبت، في مأزق مصيريّ، والمجتمع العربيّ برمّته، كما هو جليّ، في مأزق خطير.

و للقدّيس بولس، في هذا الشأن، ما يقوله للجميع !

و ما الذي عساه يقوله للكنيسة العربيّة، وهو اليهوديّ الذي صعقه الربّ على أبوب دمشق، منذ ألفي عام ؟

هذا، باختصار وبالتحديد : لئن كانت الكنيسة عربيّة، فإِنّها بحاجة ماسّة إِلى الاهتداء التامّ إِلى مجتمعها العربيّ. هذا هو بالذات ما يقوله لنا اليوم !

أجل، إِنّ الكنيسة لعربيّة بحكم كونها سليلة القبائل العربيّة الكبرى، قبائل غسّان وكندة وتغلب وكلب...التي غشيت قسماً واسعاً من الجزيرة العربيّة، كما غشيت سوريا الطبيعيّة وعراق اليوم والخليج العربيّ، والتي كانت على المسيحيّة قبل الإسلام بمئات السنين.

و هي عربيّة، بحكم استمرارها عربيّة مسيحيّة، في ظلّ الإسلام، وفي تعايش تامّ أو نسبيّ معه، منذ مئات السنين، وقد ساهمت معه في بناء حضارة يعتدّ بها، جعلت منها، في مراحل تاريخيّة دقيقة ومفصليّة، جسراً حضاريّاً فعّالاً بين الشرق والغرب.

و هي عربيّة، بحكم ثقافتها العربيّة، التي باتت لحم وعظم وجودها، وأداة تعبيرها الطبيعيّ، ومجال ابتهالها الروحيّ، وفسحة حضورها الحقيقيّ، الوحيد والأبقى.

و هي عربيّة بفعل وجود أبنائها ومسؤوليها في هذه البقعة بالذات من العالم، وبفعل انتمائهم الجذريّ إِلى أرضها، وبالتالي إِلى مجتمع عربيّ باتوا منه وله، وبات منهم ولهم.

و هي عربيّة، بفعل مسؤوليّتها الروحيّة والفكريّة والتاريخيّة في آن، حيال مسؤوليها ومؤمنيها العرب، من حيث ضرورة معرفتهم بشخصيّاتها المؤسِّسة الكبرى، ومدى التزام هذه الشخصيّات بقضايا الإِنسان الجوهريّة والفرعيّة، انطلاقاً من إِيمانهم.وبولس، بعد يسوع، أولى هذه الشخصيّات وأعظمها.

و هي، أَيضاً وخصوصاً، عربيّة بفعل مواجهتها، مع سائر العرب، خطر الصهيونيّة، بعد أَن ابتلعت الصهيونيّةُ اليهوديّة، أو كادت.

و في يقيني أنّ ما جاء به بولس منذ ألفي عام، بشأن العلاقة بين المسيحيّة واليهوديّة، سيدهش له الكثيرون، حتّى في صوف من يظنّون أنفسهم، أو يعتبرهم الناس، من كبار المثقّفين، بل والباحثين العرب.

في يقيني أنّ ما جاء به بولس، إن عُرف على حقيقته، سيُبدّد، نهائيّاً، الكثير من الأفكار المغلوطة بشأن ما زُعم من وعد اللّه للشعب اليهوديّ في أرض فلسطين.

في يقيني أنّ ما جاء به بولس، سيقتلع، إلى الأبد، الأفكار المسبقة والمدمّرة، الراسخة لدى العرب، من مسيحيّين ومسلمين على حدّ سواء، بشأن العلاقة المبدئيّة بين المسيحيّة واليهوديّة.

في يقيني أَنّ ما جاء به بولس الطرسوسيّ، سيمهّد لبناء علاقة سليمة وقويّة بين العرب جميعاً، من مسلمين ومسيحيّين، لأنّها تستند إِلى مبادئ لاهوتيّة واضحة وحاسمة، ونهائيّة.

و في يقيني أنّ ما جاء به بولس الطرسوسيّ، سيضع حدّاً نهائيّاً ومريحاً، لالتباس مؤلم وخطير، حول العلاقة بين ما يسمى بالعهد القديم، والإنجيل المقدس.

و كلّ هذا دعوة !

و ما أشدّ حاجتنا اليوم، نحن العرب، مسيحيّين ومسلمين على حدّ سواء، إلى الاستجابة السريعة لهذه الدعوة، لاتّخاذ المواقف المبدئيّة والإجراءات الضروريّة، الكفيلة بالحوؤول دون ما تسعى إليه الصهيونيّة من تفكيك للمجتمعات العربيّة بفتنٍ طائفيّة لا نهاية لها، من شأنها أن يُكتب لها من بعدها البقاء إِلى الأبد.

و إنّي لأرى الطريق مفتوحة أمام الكنيسة العربيّة بكامل عائلاتها الروحيّة، كي تقول كلمة في هذه الشؤون الخطيرة والملحّة، كلمة موحّدة، واضحة وصريحة، تشكّل موقفاً مبدئيّاً، يضع حدّاً نهائيّاً وعاجلاً لسيل الأقوال المرتجلة والمقالات المشوّشة، والمقابلات التلفزيونيّة المغرضة والصافية معاً، التي تصبّ، باستمرار، نار الشبهات والتشكيك في العقول والمشاعر، حيال العرب المسيحيّين وصدق انتمائهم القوميّ.

بالطبع، لن يستقيم هذا الأمر الهامّ دون حوارات واسعة وجريئة ومتتابعة داخل الكنيسة العربيّة، بكامل عائلاتها الروحيّة، بقصد بلورة مثل هذا الفكر المؤسّس لموقف لاهوتيّ عربيّ مسيحيّ، كي يصار إلى طرحه في العالم العربيّ أوّلاً، وفي العالم الغربيّ ثانيّاً.

أقول العالم العربيّ أوّلاً، كي يعرف العرب، كلّ العرب، أنّ الكنيسة العربيّة تتعامل معهم بوصفهم عالمها، أجل عالمها، مرّةً وإلى الأبد، عالمها الذي لا غنى لها عنه، في حضورها ومصيرها، وتصوغ مبادئ من وحي إنجيلها الواحد وتعلنها على الملأ، وتتّخذ مواقف واضحة لا لَبْس فيها، موحّدة وعمليّة، من شأنها أن تجعل العالم العربيّ، بمسؤوليه ومثـقّـفيه وشعوبه، يؤمن أنّ هذه الكنيسة، وإن اختلفت عن غالبيّته العظمى بنظرتها إلى اللّه وطرق ابتهالها إليه، لا تختلف عنه في كيانها وهمومها، وأنّها جزء لا يتجزّأ منه، بل جزء حيويّ لا غنى لها عنه، ولا غنى له عنها، وأنّها معه، بالكلّيّة، في مواجهة مصيرٍ واحد، سواء أكان هذا المصير ما يريده هو لذاته، أو ما يريده... الآخرون له.

أمّا العالم الغربيّ، فأخصّ به، أوّلاً، كنيسته الغارقة في بحار من عقدة الذنب، ركبتها وتأصّلت فيها بفعل الاضطهاد الذي أنزله الغرب باليهود في أوروبا طوال قرون. فكان من الصهيونيّة أن أَتقنت استثمار هذه العقدة فروّضت الغرب، وأخرست الكنيسة الغربيّة فيه، حتّى باتت، إن تكلّمت، لا تتكلّم إلاّ لطلب الغفران من اليهود ولتأييدهم الدائم والأعمى، خلافاً لأبسط مبادئ الإنجيل.

و أخشى ما أخشاه أن تجرّ عقدة الذنب هذه بعض المسؤولين في الكنائس الغربيّة إلى انزلاقات لاهوتيّة خطيرة، كما حدث في 1973/4/6، عندما أصدرت " اللجنة الأُسقفيّة الفرنسيّة للعلاقات بالهيوديّة" ما سمّته "توجيهات راعوية حول موقف المسيحيّين من اليهوديّة"، وعندما أصدر مجمع أساقفة فرنسا في 1977/9/30، تصريحه بشأن موقف الأساقفة الفرنسيين من اضطهاد اليهود في فرنسا إبّان الاحتلال النازيّ.

و أعني بالعالم الغربيّ، ثانياً، هذا العالم الذي تنكّر تنكّراً صريحاً، للمسيحيّة منذ ثلاثة قرون ونيّف، وعلى نحوٍ سافر، وأحياناً دمويّ، حتّى باتت، اليوم، بحراً من الإلحاد العمليّ والنظريّ، لا مكان فيه للإيمان إلاّ في أعماق القلب، في نطاق جماعات ضئيلة ومتناثرة هنا وهناك.وقد استطاعت الصهيونيّة ربط مسؤوليه ومثقّفيه وإعلاميّيه بشبكات متعدّدة، فيها من النفوذ والإغراء والتأثير والضغط، ما لا حصر له، حتّى باتوا –راضين أم مكرهين– لا يرون سوى ما ترى الصهيونيّة، ولا ينفذّون إلاّ ما تريده، بل لا يسنّون من القوانين إلاّ ما تمليه عليهم، ممّا يحقّق مصالحها ومخطّطاتها القريبة والبعيدة المدى، وكأنّي بهم دمى بلهاء.

أما قلت أَنّ هذا الكتاب بالغ الأهميّة ؟ وهل تُراني أبالغ إن كرّرت قولي ؟

أجل، إنّه أكثر من سيرة عظيم في المسيحيّة.

إنّه وثيقة لاهوتيّة وتاريخيّة وفكريّة، لا يجوز الاستغناء عنها، بعد اليوم، في العالم العربيّ.

بل إِنّه دعوة.

دعوة للمسؤولين في الكنائس العربيّة أوّلاً، وللمثقّفين العرب ثانياً، ولا سيّما المسيحيّين منهم، لأنّهم كثيراً ما كانوا سبّاقين !

دعوة كي ينهضوا معاً، قبل فوات الأوان – وقد فات منه الكثير – في مواجهة الأخطار المشتركة، القائمة والقادمة !

و إِنّ لفي توقيت صدوره... نعمة، فثقتي تامّة بأَنّ هذا الكتاب ما كان ليرى النور، لو وُقّع، يوماً، على صلحٍ مع إسرائيل!

III . صلاة شكر

أيّها الربّ يسوع، تقبّل شكري، لأنّك هديت شاول– بولس في سماء دمشق.

تقبّل شكري، لأنّك استنبتَّ أرض دمشق من أعطى الشرق العربيّ جمعيّة الآباء البولسيّين.

تقبّل شكري، لأنّك سمحت بأن يُحرم ولدك أديب نعمة الكهنوت، لتتيح له أن يهب الشرق العربيّ والكنيسة العربيّة على السواء، كلّ ما وهبته من فكر وقلب وقلم.

الأب الياس زحلاوي

دمشق في 2002/1/11

الجزء الأَوّل

انتصار المصلوب

الفصل الأَوّل : نشأة فريسيّة

شاهد على مصرع شهيد المسيحيّة الأَوّل

عبر أَزقّة أورشليم المتدرّجة المزدحمة، كانت جموع هائجة تسوق إِلى الموت شابّاً مفعماً نعمةً وقوّة، يشعّ جبينه بالحكمة والجرأة، وتتجلّى عليه سكينة مدهشة، مع علمه بالمصير المريع الذي كان يُقاد إِليه، خارج أسوار المدينة، في ذلك المكان المقفر المخيف، المسوّر، حيثُ تراكمت عظامُ من رُجموا من قبل، وتُركوا فريسةً للضباع والعقبان، وحيث تعالت أكوام حجارة ملطّخة بالنجيع، طالما استُخدمت أَدوات لصرع البغايا والمتمرّدين على الشريعة.

كان الجمهور المهتاج يوسع الشمَّاس الضحيّة ضرباً ولكماً، ويصبّ عليه وابلاً من الشتائم والإِهانات، فبات رداؤه مزقاً، وخلّفت اللطمات على وجهه كدمات داكنة، غير أَنّه كان يتقدّم نحو حتفه، غير عابئ بصيحات جلاّديه المأفونة، عيناه شاخصتان إِلى السماء، وشفتاه تتمتمان صلوات استسلام واثقة، ولكأنّه لم يعد من أبناء الأَرض، بل أَمسى يسبح في لجّة الأَبديّة.

لأَشهرٍ خلت، على تلّة جرداء أُخرى، قرب باب آخر من أَبواب المدينة، كان نبيٌّ قد لقي حتفه، بأَمرٍ من رؤساء كهنة اليهود، مصلوباً بين لصّين، وظنّ جميع الإِسرائيليّين، حينها، أَنّهم قضوا، نهائيّاً على اسمه وبدعته، بحيث لن يذكره أَحدٌ، بعدُ، أَكثر ممّا يُذكر الأَنبياء الزائفون الذين يبرزون بغتة، بين حين وحين، وفي غضون أَسابيع قليلة يضمحلّون، ويتلاشى أَثرهم.أوَ لم يكن تلاميذ ذلك المسيح المزعوم أَنفسهم، في مساء يوم الجمعة ذاك، السابع من نيسان عام ثلاثين، قد برهنوا على قدرٍ جمّ من الجبن والانهزاميّة، وتبعثروا، ولطوا في الأَزقّة المعتمة والأَقبية، بحيث أُتيح لعيون اليهود استنتاج أنّ قضيّة الناصريّ قد طُويت إِلى الأَبد.ولكن سرعان ما كذّبت الأَحداث تلك التخمينات، إِذ برز، من جديد، أَتباع الجليليّ، وقد زادتهم مأساة الجلجلة عزيمة، واندفاعاً، وإِقداماً.ولم يكد يمضي شهران على ذلك المساء الكئيب حيث شوهد الجليليّ المغامر معلّقاً على خشبة الموت المهين، حتّى هبّ زعيم أتباعه، سمعان المدعوّ بطرس، في قلب الساحة العامّة، هاتفاً على مسمع من الجميع : " يا بني إِسرائيل، إِسمعوا هذا الكلام : إِنّ يسوع الناصريّ، ذلك الرجل الذي أَيّده اللّه لديكم بما أَجرى،

على يده، بينكم، من المعجزات والأَعاجيب والآيات، ذاك الذي أُسلم بقضاء اللّه وعلمه السابق، فقتلتموه إِذ علَّقتموه على خشبة بأَيدي الكافرين، قد أَقامه اللّه، وأَنقذه من أَهوال الموت، يسوع هذا الذي صلبتموه أَنتم قد جعله اللّه ربّاً ومسيحاً."

من أَين جاء بطرس ورفاقه بذلك الإِيمان الراسخ والجرأة المتحدّية ؟

أَوّلاً ممّا شاهدوا وخبروا بأَنفسهم.ففي اليوم الثالث لصلب معلّمهم أَلفوا قبره فارغاً، وقد ظهر يسوع للكثيرين منهم، أَفراداً وجماعات، وطيلة أَربعين يوماً عاش بين ظهرانيهم، تارة مثل أَيّ بشر، يأكل ويشرب، ويُجَسُّ، وتارةً يتميّز بقدرات خارقة، فيعبرُ من خلال الجدران، والأَبواب الموصدة، ويظهر في عدّة أَماكن مختلفة في آنٍ واحد.وذات يوم ربيعيّ، إِذ كان يعلّم تلاميذه، على جبل الزيتون، ارتقى إِلى السماء، وكأَنّ قوّة لا تقاوَم، نابعة من ذاته، تدفعه إِلى العلاء، حتّى توارى عن الأَبصار.

على قيامة يسوع كان يستند إِيمان بطرس ورفاقه : " يسوع هذا قد أَقامه اللّه، ونحن بأَجمعنا شهودٌ على ذلك ".وقد دعّم إِيمانهم حلول الروح القدس عليهم، يوم العنصرة، إِذ كانوا مجتمعين فهبَّت ريح عاصفة في سماء صافية، واستقرّت على هامة كلٍّ منهم أَلسنة لهب، رمزَ الروح القدس ؛ ومذّاك تجاسروا على الجهر بأَنّهم أَتباع المسيح، وأَنّهم شهود كلمته، وتخلّوا عن كلّ خوفٍ وتحفّظ، وراحوا يبشّرون، من بيت إِلى بيت، ومن جماعة إِلى جماعة، ويا للعجب، كان كلّ من يسمعهم يفهمهم، وكأَنّهم يتكـلّمون بلغته ولسانه، وخفقت قلوب الكثيرين لأَقوالهم وتبشيرهم.

و أَخذت جماعة الجليليّين تجتذب أَتباعاً كُثُراً ؛ وبات بعض الذين صفّـقـوا لصلب المسيح يندمون ويلتمسون علامة الصفح المدعوّة عماداً.وزاد شفاء بطرس ويوحنّا لمُقْعَدٍ قابعٍ عند باب الهيكل، باسم يسوع، من إِقبال الناس على الإِيمان بيسوع مسيحاً ؛ وإِذ بعَدَد الأَتباع الجُدد يقفز إِلى خمسة آلاف، في أَيّام معدودات.صحيح أَنّ تلك الآلاف كانت ضئيلة بالقياس إِلى جماعة اليهود الملتفّة حول معلّمي الشريعة الساهرين على تعاليمها، وأَكثر ضآلة في يمّ الأَمبراطوريّة الرومانيّة المترامية الأَطراف ؛ غير أَنّ تلك الفئة الضئيلة كانت تدرك أَنّها مدعوّة إِلى مصيرٍ سامٍ، وأَنّ حبّة الخردل مُعدّة لتكون شجرة وارفة الظلال، وهذا اليقين كان يثير قلوبهم.

و إِن لم يأبه الرومانيّون لتلك البدعة طالما هي لم تعكّر صفو الأمن، إِلاّ أَنّ اليهود بفئتيهم المتناحرتين من فرّيسيّين وصدّوقيّين كانوا حريصين على محو اسم الناصريّ، والإِيقاع بأتباعه، فأمروا بطرس ويوحنّا بالكفّ عن التبشير به، ولا سيّما إِثر شفائهما المُقْعد باسمه.

ولكنّ الرسولين أَصرّا على المضيّ قدماً في التبشير، فاللّه أولى بالطاعة من الناس؛ وأَسهمت نصيحة غمالئيل، معلّم الشريعة الذي كان ينعم باحترام الجميع، في الإِغضاء، فترةً، عن أَتباع المسيح، إِذ أَفتى أَنّه إِن كان تعليمهم هو بإِلهام من اللّه، فلا تسوغ مقاومته، وإِن كان من البشر، فلا بدّ من أَن يضمحلّ سريعاً كما اضمحلّت بِدَع كثيرة من قبل، وأَخيراً انفجرت الأَزمة بين اليهود المتشدّدين وأَتباع الناصريّ.وكان مقتل استفانس هو الذي فجّر الصدام بين الجماعتين.

من هو استفانُس ؟

إِنّه رجلٌ استثنائيّ، وأَحد الشمامسة السبعة الذين انتخبهم الرسل، لتَميُّزهم بالاندفاع والجرأة والحزم واتّقاد الإِيمان من أَجل الاضطلاع بمهامّ الخدمة المادّيّة وسط جماعة المسيحيّين، بعد أَن حالت ضرورات التبشير المتعاظمة دون قيام التلاميذ بالخدمات المادّيّة الضروريّة وتوزيع الحسنات، وبعد أَن أَخذ الهلّينيّون المسيحيّون القادمون من خارج فلسطين يشكون من إِهمال الرسل لهم، لصالح المسيحيّين العبرانيّي الأَصل.وكان معظم الشمامسة المنتخَبين من أَصل هلّينيّ، وكان استيفانُس أحدهم، وقد تميّز بغيرته المتّقدة، وفصاحته المتدفّقة، ولم يقتصر على النهوض بالمهامّ الخدميّة والاجتماعيّة بل حرص على المشاركة بالتبشير، فراح يكرز في ساحة الهيكل، وفي الشارع، وفي المجمع ؛ وكان، في اندفاع شبابه، لا يتّقي أحداً، ولا يتحفّظ، ولا يداور.وخلافاً لبطرس الذي كان يحاول، بالاستناد إِلى الكتب، إِقناع مستمعيه بأَنّ يسوع هو المسيح المنتظر، كان استفانس يدفع، في وجه مستمعيه، بأَكثر أَقوال يسوع ثوريّة، مردّداً، بلا هوادة، أَنّه لا يسوغ وضع خمرة جديدة في زقاق عتيقة، ولا رَفْوُ رداء عتيق برقعة جديدة.وعزم من شُبِّهوا بالزقاق العتيقة، والأَردية الهرئة على الانتقام، واقتادوا استفانس إِلى محكمة السنهدرين، الذي استغلّ غياب الوالي الرومانيّ بنطس بيلاطس، بعد إِذ كان اليهود قد وشوا به إِلى روما فاستدعته، وقبل وصول خلَفه استعجل السنهدرين في إِقفال قضيّة استفانس.

كان استفانُس من أَشدّ دعاة يسوع اندفاعاً، وكان الربّ يدعم دعوته بما يُجري على يديه من أَشفية عجيبة تبهر الشعب، وتنتزع قناعاته ؛ فكان لا بدّ من إِذلاله أَمام الجميع بمناقشته، وبإِثبات عجزه، وعقمه، وجهله، أو بحمله على إِنكار إِيمانه، فإِذا ما تمّ ذلك، قُضي على البدعة التي يدعو إِليها.

و انتصب استفانس، أَمام السنهدرين، بملء قامة إِيمانه الشامخة، وأَلقى خطاباً مسهباً استعرض فيه تاريخ الخلاص، مبيّناً تنكّر الشعب اليهوديّ، عبر التاريخ، لإِشارات الربّ،

وقتله الأَنبياء الذين أَرشدوه إِلى أَخطائه وندّدوا بها، وكان آخرهم يسوع الناصريّ، الذي جاءهم مخلّصاً فقتلوه، ولكنّ اللّه ثبّته مسيحاً وإِلهاً بإِقامته من الموت.

استفانس الذي اتُّهم بالتجديف، نهض مقاضياً حكّامه، مثبتاً أَنّ كلّ ما أَعلنه الأَنبياءبشأن المسيح، المخلّص المنتَظَر، قد تحقّق في يسوع الناصريّ، وأَنّ أَعضاء السنهدرين أَنفسهم، بصلبهم يسوع، قد أَسهموا في تحقيق تلك النبوءات، مستخلصاً أَنّ الشريعة إِنّما كانت مرحلة مؤقّتة، وقد انتهت بحلول ملكوت اللّه، وبمجيء يسوع المسيح.

و اعتصم الفرّيسيّون بالصمت، وهم يجترّون غيظهم، مردّدين قولهم السقيم : "ملعون كلّ من عُلّق على خشبة ".فالشريعة ما انفكّت، لهم، سدّاً في وجه الرحمة الإِلهيّة، وعائقاً دون الخلاص الذي أَتى في يسوع، في حين كان استفانس يراها مرحلةً مؤقّتة غربت شمسها.

و عجز السنهدرين عن مقاومة استفانُس، لأَنّ أَقواله كانت تتدفّق من ينابيع الروح القدس الذي كان يلهمه ويشدّ عضده.فقد كان إِيمانه بيسوع الناصريّ قد استحوذ على كلّ كيانه، وبات لديه من العلم والحكمة والإِقناع ما أَفحم به مناوئيه ومناظريه، فأثبت، بالاستناد إِلى نصوص الكتاب المقدّس نفسه، أَنّ العليّ لا يسكن في بيوت من صنع البشر."وإِذ حدّق فيه جميع أَعضاء المجلس رأوا وجهه وكأنّه وجه ملاك "، ولم يخشَ مهاجمتهم، قائلاً : " يا قساة الرقاب، وغُلْفَ القلوب والآذان، إِنّكم، في كلّ حين، تقاومون الروح القدس.كما كان آباؤكم، كذلك أَنتم، فأَيّ نبيّ من الأَنبياء لم يضطهده آباؤكم ؟ ولقد قتلوا الذين أَنبأوا بمجيء البارّ، ذاك الذي أَسلمتموه الآن، وأَصبحتم له قتلة..."

و استشاط الجمهور غيظاً وصرّوا بأَسنانهم، ومزّقوا ثيابهم، وانتزع الحنق من شفاههم سيلاً من الشتائم المُقذِعة في حين كان استفانس مخطوف الروح، مشرق المحيّا، شاخص العينين إِلى السماء.

الجدَل اللاهوتيّ، إِذن، أَفضى إِلى نقيض ما توقّعه السنهدرين، الذي، حيال هذا الفشل، تناسى مؤقّتاً الخلافات المستحكمة بين فئتيه الفرّيسيّة والصدّوقيّة، فاستأجر شهود زور، ولقّنهم ادّعاء سماع استفانُس يشتم موسى، والهيكل، واللّه، ممّا يكفل إِيغار صدور الشعب، كما لقّن أَحدهم ادّعاء سماعه استفانُس يعلن أَنّ معلّمه، يسوع، سيعود ليحكم مكان قيصر، وهذه الشهادة كفيلة بانتزاع موافقة الحاكم الرومانيّ على إِعدام المتّهم.

و إِذ لم يكن السنهدرين يملك حقّ إِصدار مثل هذا الحكم، حرّض الرعاع على تنفيذه، في الحال، فاقتادته عصابة هائجة إِلى موقع الرجم، حيث عرّوه ثمّ دفعوه إِلى حفرة يبلغ عمقها ضعف قامة رجل، حيث ارتمى على ركبتيْه، فوق الحجارة المدبّبة، وأَحاق به جلاّدوه من علُ.

الرجم، حسب الشريعة، رمزٌ لطرد المذنب عن شعبه، ونبذه، ودفنه المخزي تحت وابل من الحجارة.وقد استهلّ شهود الزور المجزرة بإلقائهم الحجارة الأولى عليه، ثمّ اندفع الآخرون، مضطرمين كراهية، قَرِمين إلى الدماء، يرجمونه، بكلّ ما أوتوا من قسوة وحقد، وبأثقل ما تقع عليه أَيديهم من حجار وصخور.

و تقبّل استفانس الموت برباطة جأش نادرة، وبفرحٍ تجلّى على كلّ كيانه، فسفكُ دمه، شهادةً ليسوع، كان يفعم نفسه اندفاعاً ونعمةً، بحيث تجلّت على محيّاه ملامح الفردوس، ولم ينِ يردّد : " أرى السماوات مشرعة، وابن اللّه على يمين الآب ".لم يصرخ، ولم يتأوّه، ولم يحاول درء القذائف المتهامرة على رأسه المدمّى.بل فيما كانت الحجارة تنهال على جسده، والبصقات تهمي على وجهه، جمع كلّ قواه، وهبّ واقفاً، رافعاً ذراعيه نحو السماء وبشفتيْه المتورّمتيْن تمتم : " أَيّها الربّ يسوع، تقبّل روحي ".ثمّ هوى على ركبتيْه، وقد حطّم رأسه حجر كبير، وهو يهتف بكلّ ما تبقّى في صدره من عزيمة : "إغفر لهم، ياربّ". وصمت، راقداً في حبٍّ أَبديّ.

في زاوية من موقع الرجم كان يجلس، ساكناً، شابّ جمّده التأثّر، هزيل القامة، ذو لحية غير منتظمة، مقوّس الساقيْن ؛ وكان، بين فينة وفينة، يمسح قطرات العرق عن جبينه، وعن رأسه الذي خوت قمّته إلاّ من شُعيْراتٍ قليلة.كان مشدود الوجه، شارد البصر، أَسنانه مغروسة في شفتيه، يتابع منظر الرجم بلهفة، وقد تراكمت عند قدميه معاطف الراجمين البيضاء، وقد خلعوها ليكونوا أَرشق حركة، وتعهّد الشابّ لهم بحراستها، وراح يراقب المجزرة بمتعة.كان قد واكب الحدث منذ مستهلّه، وانضمّ إلى قافلة المنادين برجم الشمّاس المسيحيّ، لأَنه استهان بالشريعة الموسويّة، ونادى بمصلوبٍ ملعونٍ مسيحاً.كان يُستدلّ من زيّه أَنّه طالب علوم دينيّة، وتلميذ الرابيّين وأَحد حرّاس الشريعة.

كان من طرطوس، واسمه شاول.

كان سعيداً بتنفيذ أوامر الشريعة، ولكأنّه يعدّ رجم استفانس إنجازاً شخصيّاً.فهو وإن لم يلقِ عليه حجراً، غير أَنّه رجمه بأيدي جميع من رجموه، وتبرّع هو بحراسة معاطفهم.لم يلطّخ يديه بتراب الحجارة، ولكنّه لطّخها بدم الشهيد، وكان ملطَّخ النفس حقداً وجهلاً، وعمى بصيرة.

في ذلك اليوم وقّع شهيد المسيحيّة الأَوّل بدمه على شهادة إيمانه، فيما شهد شاول، بأيدي عصابة الراجمين، على دفاعه عن الشريعة، التي أَنفق شبابه يتملّى من تفاصيلها، وآلى على نفسه صونها من عبث أَعدائها.غير أنّ مشاعر متضاربة كانت تتجاذبه، وتفسد سعادته، فمشهد استفانس وهو يواجه الموت بمحيّا يتأَلّق نوراً سماويّاً، قد أصابه بالدهشة، وزرع في

نفسه الريبة.وكان يجهد في إِغراق هواجسه في الإِيمان بأنّه، بانتصاره للشريعة، ينفّذ مشيئة اللّه، مسبلاً على البغض وروح الانتقام لباس الفضيلة.ومع ذلك ظلّ استشهاد استفانس لغزاً يعتمل في أَعماقه، ويربط مصيري الرجلين ربطاً وثيقاً.

و منذ ذلك اليوم فرضت المسيحيّة ذاتها على نفس شاول، طارحةً عليه تساؤلات دائمة، ما انفكّت تقضّ مضجعه.

على غرار طفولة معظم القدماء الذين أَصابوا شهرة، يكتنف طفولة بولس شيء من الضباب، على نقيض حياته في مرحلة نضوجه وكهولته التي أَتى، هو نفسه، من خلال رسائله، على الكثير من تفاصيلها، وقُيِّض لها، فضلاً عن ذلك، مؤرّخ أَريب عكف على استقراء مراحلها الرئيسة، فدوّنها، وخلّدها ؛ ومثلُ ذلك لم يتسنَّ للكثيرين من تلاميذ يسوع الآخرين.

ليس ما يدلّ بدقّة على تاريخ مولد بولس، ولكن من المرجّح أَنّه وُلد في نحو السنة السادسة بعد الميلاد، وكان يصغر يسوع بنحو سبع سنوات، أو أَكثر قليلاً، ولكنّه، على نقيض يسوع، ولد في أَحضان أُسرة ميسورة، وفي مدينة كبيرة، وتوفّرت له أَسباب العيش الرغيد، والعلم، والثقافة.

في سياق تعريفه بهويّته، يقول بولس إِنّه عبرانيّ ابن عبرانيّ، من سبط بنيامين، وفرّيسي ابن فرّيسيّ، وأَنّه خُتِن في اليوم الثامن وفقاً للشريعة.

أُسرته من يهود الشتات، ويُعتقد أَنّها فلسطينيّة الجذور، وقد هاجرت أو قسرت على الهجرة إِلى كيليكيا، واستقرّت في طرسوس حيث سرعان ما تكيّفت مع محيطها الجديد، فأَصابت الثروة والجاه، والنفوذ، والمواطنيّة الرومانيّة التي كانت توفّر لحامليها امتيازات هامّة ؛ ولكنّها ظلّت متشبّثة بأَهداب التقاليد اليهوديّة، لا بل إِنّها انضوت إِلى فئة الفرّيسيّين الذين كانوا يتميّزون بالتقوى، وبحرصهم على تطبيق بنود الشريعة الموسويّة بدقّة متناهية قد تطاول التزمّت، فيُتمّمون شرائع طهارة الطعام، ويحترمون السبت، بوَجَل، ولا يفوّتون واحدةً من الصلوات الثلاث المفروضة يوميّاً، ويتلون بانتظام مقاطع من التوراة.

لقد عُهد عن الفرّيسيّين أَنّهم، في تطبيق الشريعة، أَكثر تشدّداً من العامّة الذين يُعدّون، في هذا المضمار، أَقلّ كمالاً وطهراً.وكان يُطلب من الفرّيسيّ التوغّل في معرفة الشريعة وتطبيقها بدقّة، وملاءمة أَحكامها مع حالات لم تُلحَظ من قبل.

كان والد شاول، ينعم بالرخاء ويمتلك أَجمل بيت في حارة اليهود بطرسوس، على مرمى حجر من المجمع.وكان يتبوأ، في أوساط الجالية اليهوديّة، وفي المدينة، مركزاً مرموقاً.كان يعمل في حياكة الأَقمشة الخشنة من وبر الماعز التي اشتهرت بها كيليكية، وفي صناعة الخيام التي تستخدم تلك الأَقمشة ؛ والخيام كانت، في تلك الحقبة رفيق المسافر برّاً يتخذ منها منزلاً عندما يحلّ الليل، والمسافر بحراً إِذ كان أَصحاب السفن لا يقدّمون لزبائنهم سوى مكانٍ تحت السماء على متن مراكبهم، بحيث يتعيّن على المسافرين أن يتدبّروا أَمر

مأواهم وطعامهم.وكان للخيام، أَيضاً، استخدامات عديدة في شتّى مناحي الحياة.ومن ثمّ كان الطلب عليها شديداً، وتجارتها رائجة، وفضلاً عن ذلك، كان القوم يصطنعون من أَقمشة الوبر الخشنة الكتيمة بسطاً لمنازلهم ومعاطف تقيهم من القرّ والمطر.

و ممّا أَسهم في ازدهار تجارة والد شاول، انتشار فروع أسرته في شتّى أَقطار الأمبراطوريّة، ولا سيّما في أَنحاء حوض المتوسّط ومرافئه، ومراكز الترانزيت، حيث كان لها شركات شحن ومكاتب تجاريّة، بحيث كان يستطيع تصدير إِنتاجه إِلى جهات عديدة.وقد أَفاد شاول من تشعّب أُسرته وانتشار فروعها في العالم، عندما أمسى رسولاً يجوب الآفاق، ويحتاج، في شتّى الأَمكنة، إِلى من يعرّف به ويشهد بهويّته، ويمدّه بالمعونة التي تمكّنه من الاستقرار في بلد غريب.وقد التقى أَقارب له في كيليكيا ومقدونية، وأورشليم، وروما.وستكون له تلك الشبكة الواسعة من العلاقات خير عون في أَسفاره الرسوليّة.

كان والدا شاول قد رزقا ابنة وطالما تلهّفا لإِنجاب صبيّ وقد رُزِقاه بعد طول انتظار ورجاء، ودعاءٍ وتوسّل حارّين، ولا عجب إِن أُطلقا عليه اسم "شاول" العبريّ، فهو يعني "منّة اللّه استجابة لتوسّل " وهو، أَيضاً، اسم الملك الأَوّل من سبط بنيامين الذي كان والد شاول يعتزّ بالانتماء إِليه.وأُعطي الصبيّ، أَيضاً، اسماً آخر رومانيّاً يونانيّاً، تكيّفاً مع مقتضيات المحيط، وهو " بولس "، ويعني الصغير الضئيل الحجم، فكان يدعي " شاول " في البيت وفي حلقة المعارف، ويسميّه الغرباء " بولس ".

و يقال أَنّ مولد ذلك الصبيّ الذي تمادى انتظاره قد كلّف أمّه حياتها، فلقيت حتفها وهي تضعه.فتناوب على تربيته مرضعة واخته الكبرى قبل اقترانها بيهوديّ من أورشليم ؛ ثمّ تولّى والده تربيته بنفسه مستعيناً بالعطف، والحزم، والعصا كلّما دعت الحاجة.فمذ شرع يتكلّم ويعي، بات يصطحبه إِلى حانوته حيث كان الصغير يراقب، بمتعة، المكّوك يروح ويجئ بين يدي الحائكين، ومع كلّ رحلة من رحلاته يتكوّن جزء من نسيج خيمة أو عباءة.وعندما كان العملاء والعمّال يتحلّقون مع أَبيه حول مائدة الطعام كان يتكوّر في حضن والده ويصغي إِلى الأَحاديث الدائرة حول شعر الماعز والأَصواف، وأَسعار القماش، ويخزّن في ذهنه معلومات عن مهنة أَبيه التي ستصبح مهنته.

و في المساء كان الصبيّ يقعد على الحضيض، عند قدمي والده الذي يروي له قصصاً مثيرة عن الشعب اليهوديّ، متحدّثاً تارة بالأَراميّة، وتارةً أُخرى باليونانيّة، لكي يجعله يألف اللغتين معاً، وكان يتلو على مسامعه مقاطع من الكتاب المقدّس الذي كان لديه، منه، أَيضاً، نسختان، إِحداهما بالأَراميّة، والأُخرى مترجمة إِلى اليونانيّة.

و لمّا بلغ شاول الخامسة، باتت تربية أَبيه له أَكثر جدّيّة، فالدروس أَشدّ دقّة ووضوحاً، والعصا أَثقل وطأة : فالتقاليد الفريسيّة كانت توصي بالشروع، منذ تلك السنّ المبكّرة، بتلقين الصبيّ التوراة، ومبادئ الشريعة، ومعاني الأَعياد الكبرى، والمناسبات الدينيّة.وهكذا، طيلة سنة فُرِض على شاول قضاء ساعتين، كلّ يوم، يتهجّأ الأَحرف العبريّة والأَراميّة، ويستظهر الوصايا، والصلوات اليوميّة، ومبادئ اللغة اليونانيّة ؛ وفي السادسة، غشى "الكرمة " أي ما ندعوه " حديقة الأَطفال "، وهي تابعة للمجمع، وفيها يقتعد الأَطفال الحضيض ويمضون يرتّلون ما يتلقّونه وهم يؤرجحون رؤوسهم من الأمام إِلى الوراء، فيما كاتب شيخ يلوّح بعصاه، ضابطاً الإِيقاع.أَربع مرّات، كلّ يوم، كان يجتاز الطريق من المنزل إِلى المدرسة ومن المدرسة إِلى البيت، عبر أَزقّة ضيّقة متلويّة، يواكبه عبدٌ أَجير يحمل عنه أَدوات الكتابة، وقوامها لوح مطليّ بالشمع، وقلم معدنيّ، أو ريشة طائر.وقد حفلت أَيّام الدراسة بالعراك مع الأَتراب، وبالثورة على الكاتب الشيخ عندما كان يضرب أَنامله بقسوة، عقاباً على نشاز ترتيله، وبالبهجة والاعتزاز عندما كان يردّ بأَجوبة صائبة على أَسئلة المعلّم، ويحظى بتهنئته.

و إِلى جانب التعاليم الدينيّة، باللغتين الأراميّة واليونانيّة، تعلّم الجغرافيا والحساب، وهما علمان ثمينان لأَمثاله ممّن تتبوّأ التجارة أولويّة اهتمامهم.وتدرّب، أَيضاً، على مهنتي الحياكة وصنع الخيام، فالتقاليد الفرّيسيّة تفرض على كلّ يهوديّ، مهما بلغ من علم ومرتبة، مزاولة عمل يدويّ يطرد به البطالة التي غالباً ما تقود إِلى الرذيلة، وتوفّر لصاحبها أوَد العيش، مهما قست الظروف، فقد جاء في التقليد الفرّيسي : " من لا يعلّم ابنه مهنة يجعل منه سارقاً ".وقال رابي غمالئييل الذي أَمسى معلّماً لشاول : " إِنّه لجميل قرن دراسة الشريعة بتعلّم مهنة، فالاهتمام بهذه وتلك يقي من الخطيئة ؛ والاكتفاء بدراسة الشريعة، في معزل عن العمل، باطل، وهو مدرجة إِلى الخطيئة ".وكانت المهنة التي تلقّنها شاول، بمثابة مواطنيّة إِنسانيّة ثانية له، وفّرت له عوناً جزيلاً، ولطالما ساعدته، عندما أَصبح رسولاً للأمم، على مجّانية التبشير، إِذ كان يقوم بأَوَده بجهد ساعديه، من غير إِلقاء أَيّ عبء على كاهل المؤمنين ؛ وقد جمعته مهنته بأَصدقاء يتعاطونها أَيضاً مثل الزوجين أكيلا وبريسكيلا اللذين كانا له عوناً كبيراً في مناسبات عديدة، وأَعدّته لعقد علاقات ثمينة، ونسج المشيئة الإِلهيّة في اللحمة البشريّة، وجمع الخيوط المتناثرة من جسد المسيح كي يحيك بها، في إِيمان واحد وروح واحد، الكنيسة الواحدة. ولا ريب أَنّ إِعمال النول والإِبرة والمقصّ وملامسة الشعر الخشن قد أوجعا يدي الفتى الغضّتين ؛ وفيما كان، في المساء، يستريح من عناء التدريب كان فتى آخر في الناصرة، يكبره بضع سنوات، يستريح، هو أَيضاً من عناء العمل بالنجارة، ويلتمس، في هدأة الليل، من أَبيه السماوي، إِنارة نفس شاول المقيم في طرسوس

في الثامنة من عمره، كان شاول يتلو المزامير بمفرده، ويلمّ بالكثير من أَركان دينه. ولمّا بلغ العاشرة ارتدى تعليمه وجهاً آخر، إِذ شرع معلّموه يلقّنونه " الميشنا "، أَي تقاليد الأَقدمين، وشرائع شعبه الشفويّة التي تناقلتها الأَجيال، والتي ترمي إِلى وقاية نفسه بما يشبه سوراً من الوصايا والمحظورات.وبعد أَن كان قد تلقّن، حتّئذٍ، ما " ينبغي " فعله، غدا يُلقَّن ما " لا يجب " فعله، ممّا كان يشيع في نفسه الرهبة، ويطرح على ذهنه تساؤلات قلقة لا يجرؤ، دائماً، على الإِفصاح عنها.لقد حشر رأسه ونفسه بتعاليم الحاخامات التي تراكمت جيلاً إِثر جيل، حتّى أَضحت كتلة مريعة من الإِرشادات والمحظورات، ومعها فقد فردوس طفولته الذي طالما سُحر بقصص الآلام والبطولات.وربّما هذا ما أَشار إِليه عندما كتب، في رسالته إِلى العبرانيّين : " كنت أَحيا، من قبل، (في براءة الطفولة)، إِذ لم تكن شريعة.فلمّا جاءت الوصيّة، عاشت الخطيئة، ومتّ أَنا.فإِذا بالوصيّة، التي هي سبيل إِلى الحياة، قد صارت لي سبيلاً إِلى الموت..." يا لها من تجربة قاسية تمزّق قلب طفل !

و في الثالثة عشرة، أَصبح، على غرار اليهود الأَتقياء، " ابن الشريعة "، وغدا يمارس، بدقّة، جميع الطقوس، ويتقيّد، في مأكله وملبسه، بتقاليد اليهود الأَتقياء، المتشبّثين بأَهداب الشريعة.

كان ذهنه ينمو سريعاً، أَما نموّه الجسديّ فكان أَبطأ، فظلّ قصير القامة، غالباً ما يتعرّض للأَمراض.ولكنّه، أسوة بأَترابه الطرسوسيّين، مارس الرياضة البدنيّة، واختلف إِلى الملاعب، فاكتسب منعة ومراساً وجَلَداً، ممّا أَهّله، في كهولته، لقطع مسافات شاسعة، سيراً على الأَقدام، ومن مصارعة أَمواج البحر الهائجة سحابة يوم وليلة، في أَعقاب غرق، إِلى أَن تداركته النجاة.

و كان جيّاش الطباع، سريعاً إِلى الغضب، مغالياً في عواطفه وردود فعله، عنيداً، صعب المراس، ولا ريب أَنّه كثيراً ما تعرّض لقسوة عقاب والده المتشدّد، وربّما كانت ذكرى تلك الشدّة، وراء نصحه الأفسسيّين : " لا تغيظوا أَبناءكم، بل ربّوهم بتأديب الربّ ونصحه ".

وبالإِجمال كان تلميذاً نشيطاً، منفتح الذهن، كَلِفاً بالعلم، وقد تمادت سنوات دراسته، خلافاً لعادات عصره.وكان يسحره شِعر المزامير وموسيقاها، فيتلوها بنشوة.وقد التزم بممارسات دينه، التي كان يرى فيها قيوداً عذبة تميّز شعبه عن سواه.

و من المرجّح أَنّه لم يغشَ مدارس غير يهوديّة، فوالده الفرّيسيّ، كان يأبى أَن يفسد التأثيرُ الوثنيّ تربيته اليهوديّة الصارمة.ومع ذلك، لم ينجُ شاول الفتى، تماماً، من تأثير البيئة الطرسوسيّة، حيث اختلطت الأَقوام والمذاهب، وتغلّبت الثقافة الهلّينيّة.

طرسوس

في سياق تعريفه بهويّته، يقول بولس، أَيضاً، باعتزاز : " أَنا طرسوسيّ، من أَهل مدينة بكيليكية، غير مجهولة "

يعسر على من يزور اليوم مدينة طرسوس المتواضعة، في تركيّة، تخيّل ما كانت عليه تلك المدينة، في عهد بولس، من ازدهار.كانت تقع على ملتقى تخوم سوريّة الشماليّة البحريَّة بآسية الصغرى، ولكأنّها صورة مصغّرة للإِسكندريّة.فسهولها الخصبة الموّارة بالخضرة، تضطجع عند أَقدام جبال طوروس الشامخة المكلّلة بالثلوج والتي تسمو بقمّتها حتّى ارتفاع 3585 متراً، وهي، بتضرّساتها الجسيمة، وسحرها، وأَسرارها، تسهر على سهل فسيح تغسل المياه حواشيه من كلّ جانب.

عام 64 قبل الميلاد كانت طرسوس قد أَصبحت عاصمة ولاية كيليلية التي ضُمّت، في عهد أوغوسطس، إِلى إِقليم سوريّة، وأَطلق عليها القائد اليونانيّ " كسينوفون " اسم "المدينة الكبيرة السعيدة ".وقد أَسهم الطابع الهلّيني الذي أَضفاه الإسكندر على تلك المنطقة، والسلام الرومانيّ الذي عمّها، في إِطلاق نشاط اقتصاديّ عارم، دعّمه، في طرسوس، موقع المدينة الجغرافيّ، فهي حارسة الطريق المحفور في قلب صخور جبال طوروس، والمسمّى " أَبواب كيليكية "، والذي كان يفضي إِلى هضاب بيزنطية والغرب، ومنها أَيضاً كانت تشرع "أَبواب سوريّة " التي تضعها على صلة بالشرق.

و كان يربطها بالبحر الذي يبعد عنها نحو خمسة عشر كيلومتراً نهر "سيدنوس" الدفّاق، الذي طالما تغنّى به الشعراء، وبحيرة شاسعة، جعلا من المدينة ملتقى عالمَيْن، ومفترق طرق عالميّاً ومرفأ يضجّ بالحركة، والتبادل التجاريّ النشيط، فإِليه تقدم سلع الشرق وتتّجه إِلى الغرب، وسلع الغرب التي تجد طريقها إِلى الشرق، وقد اشتهرت طرسوس نفسها بتجارة العطور والنبيذ، وبرع مهنيّوها في صناعة أَقمشة الصوف والكتّان وشعر الماعز التي لاقت رواجاً عالميّاً.

و على جانبي نهر سيدنوس كانت تنبسط سهول مخضلّة تنتج الحنطة والعنب والزيتون والكتّان، وحدائق غنّاء تحتضن دارات فخمة رائعة النسق؛ وقد أَغدق أَنطونيوس بسخاء على تلك المدينة في سبيل تجميلها وزخرفتها.

و لم تكن طرسوس مركز تبادل تجاريّ نشيط فحسب، بل كانت مركز تبادل حضاريّ عريق، وملتقى أَرقى حضارتين آنذاك : الإِغريقيّة الرومانيّة الغربيّة، والساميّة الشرقيّة.البحر يأتيها بفكر روما البعيدة وقانونها، وبثقافة اليونان القريبة وفنونها ؛ والقوافل البطيئة تزوّدها

بالتوابل، والأَقمشة الحريريّة، والفلكيّين والسحرة، وبالثقافات السرّيّة التي تتكاثر في أَعماق آسية.

في القرن الميلاديّ الأوّل، كانت طرسوس مركزاً ثقافيّاً متألّقاً، يضمّ مدارس لكلّ أَبواب المعرفة والفنون.وكان أَهلُها كَلِفين بالعلوم والفلسفة، موسوعيّي المعارف ؛ وقد أَنجبت طرسوس عدداً من كبار الفلاسفة الذين ذاعت أَسماؤهم في مختلف أَرجاء العالم القديم، بحيث كتب أَحد المفكّرين القدامى : " إنّ روما تعجّ بالطرسوسيّين والإِسكندريّين ".ومن أَشهر الفلاسفة الذين عاشوا في تلك المدينة المعلّم الرواقيّ انتيباتروس، والمعلّم الإِيبيقوري ليسياس. وقد شهد سترابون، في كتابه " جغرافيا " : " سكّان طرسوس شديدو الشغف بالفلسفة، وفكرهم من الموسوعيّة بحيث تمكّنت مدينتهم من كسف أَثينا والإِسكندريّة، وجميع المدن التي اشتهرت بإِنجابها مذهباً فكريّاً، أو مدرسة فلسفيّة "

كانت طرسوس تحتضن جامعة تضاهي جامعتَيْ أَثينا والإِسكندريّة، ويتولّى التدريس فيها معلّمون ذائعو الصيت.ومنها تخرّج أَشهر الرواقيّين.

طرسوس، مع الإِسكندريّة وأَثينا، كانت مثلَّث الحضارات القديمة، ولكلّ من تلك الحواضر إِسهامه المتميّز في الإِرث العالميّ من علمٍ، وأَدبٍ، وفلسفة.

منها كان يُنتقى معلّمو الأمراء، وفيها كان يتعايش الروح الإِغريقيّ، واللغة اليونانيّة، والحقوق الرومانيّة، والتزمّت اليهوديّ، وأُسلوب العيش الهلّيني بتظاهراته الرياضيّة، إِلى جانب سحر الشرق، والديانات السرّيّة.وربّما صادف شاول، مراراً، في ساحة طرسوس، الحكيم " أثينودورس "، ابن تلك المدينة، الذي كان، فترة من حياته، مربّياً لأوكتافيوس، الذي أَصبح، فيما بعد، الأمبراطور أوغوسطوس، وبات له "أَثينودورس" صديقاً، طالما وقاه من أَهوائه وجنّبه الزلل.وقد أَمضى أَيّامه الأَخيرة حاكماً لطرسوس، مسقط رأسه، وأُثرت عنه أقوال تنمّ عن أَخلاقيّة سامية ؛ وكان الفيلسوف سينيكا أَحد تلاميذه.

****

يلزم زائر طرسوس المتواضعة، اليوم، خيالٌ جامح كي يتصوّر الإِسكندر الكبير مخيّماً على ضفاف نهر سيدنوس، ومستحمّاً في مياهه التي طمرت، اليوم، الرمال مجراها، أو كي يتصوّر شيشرون، الخطيب المفوّه، حاكم المنطقة، وهو يقود، عبر شوارعها، موكبه اللجب، والفاتنة المصريّة المراهقة كليوباترا، وهي تحطّ فيها الرحال، خلسةً، من سفينتها الذهبيّة، الأرجوانيّة الأَشرعة، لكي تغوي الفاتح الرومانيّ أنطونيوس.

في تلك الأَيّام، لأَلفين من الأَعوام، كان عدد سكّان طرسوس يناهز ثلاث مئة أَلف نسمة، وقد اختلط بأَهلها الأَصليين، وهم من جذور أشوريّة وفارسيّة، جبليّون من آسية الصغرى، وبدو سوريّون، ويونانيّون من كلّ منشأ، وميديّون، وبابليّون، وأَفغان، وتجّار هنود، وحثّيّون، وفينيقيّون، وأَناضوليّون ؛ ولا بدعَ إِن تجاور، في أَرجائها، الأَسوأ والأَفضل، فوصف بعضهم شعبها بأَنّه " رائع، ذكيّ ونشيط "، ووصفه آخرون بأَنّه أَسوأ شعوب الأَرض ؛ وهؤلاء وأولئك على قسطٍ من حقّ.

و لكن وسط هذه الأَقوام الهجينة، تميّزت فئة بتماسكها وتحفّظها، وهي فئة اليهود. فمنذ قرون، كان ذلك الشعب الكثير التوالد يصدّر إِلى كلّ أَرجاء المسكونة مهاجريه وشتاته، فيكوّنون نوى جماعات في كلّ مكان ؛ منهم من شرّدتهم قسوة ظروف العيش، ومنهم التجّار والصيارفة الذين اجتذبهم الازدهار ومطمع الربح الوفير، ومنهم أَحفاد مرتزقة كان قد استأجر خدماتهم الملك السلجوقيّ إِيبفانس.وكانت الجالية اليهوديّة، في طرسوس، محكمة التماسك، ملتفّة حول زعمائها، متشبّثة بتقاليدها الخاصّة، ومحاكمها، ومدارسها ومجامعها، ناشطة في محيطها، غير منعزلة، كما فعلت الجاليات اليهوديّة في الغرب، إِبّان القرون الوسطى ؛ إِلاّ أَنّها كانت تتجنّب، ما استطاعت، الامتزاج بالجموع الوثنيّة، وتبنّي عاداتها وأَساليب عيشها.

في إِطار تلك الجماعة، ولد شاول وترعرع، وتلقّى ثقافته الأَساسيّة في مدارسها، حيث تمكّن من تعاليم دينه التي خلّفت آثاراً باقية على حياته كلّها.

و لا مراء أَنّ الفتى شاول لم ينجُ من تأثير محيطه الهلّيني، وجوّ طرطوس الغاصّ بالفلاسفة، والمعلّمين، والطلاّب، الذين لا يكفّون يتجادلون، وحيث مذاهب وثنيّة لا تُحصى تتعايش وتنشر تعاليمها ؛ ناهيك عن التجّار الذي لا ينفكّون يتدفّقون على المدينة، ويأتون معهم بلغاتهم وتقاليدهم، وتعاليمهم وأسرارهم الغريبة التي طالما جعلت الفتى يشرد في أَحلام البلاد النائية.

و كان والده يصحبه، في ساعات فراغه، إِلى مرفأ طرسوس الفريد، حيث يستغرق في مراقبة البواخر القادمة والمبحرة، وفي التجوّل بين أَكوام الأَخشاب وصناديق البضائع التي تزدحم بها الأَرصفة، وفي تأمّل الأَزياء المزركشة المتنوّعة التي يرتديها تجّار غرباء يتكلّمون بالعديد من اللغات الغريبة، قادمون من أَفسس، والإِسكندريّة، وكورنثس وروما وإِسبانية وسورية.أَسماء طالما تراقصت في ذهن الصبيّ، وأوحت له بأَحلام مذهّبة، إِلى أَن أَصبحت له تلك البلدان أَليفة، وأَصبح بعض سكّانها له أَبناء وتلاميذ وإِخوة.

و لشدّ ما افتتن بالبحر، الذي بات له، فيما بعد، أَداة تحقيق رسالته، وغالباً ما كاد يصبح له قبراً.

و لا مراء أَنّ شاول، وهو ابن التاجر، قد اضطر أَن يتقن، منذ طراوة عوده، اللغة اليونانيّة الشائعة ؛ وبفضل تفتّح ذهنه، اكتسب من أَترابه، ومن الحضارة اليونانيّة، الكثير.ويتّضح من رسائله أَنّ الثقافة الهلّينيّة قد طبعته بعمق، وصاغت فكره، فبات يتكلّم ويكتب باليونانيّة وكأَنّها لغته الأمّ.وقد حفلت رسائله بإِشارات إِلى وجوه الحياة المدنيّة في طرسوس، من نشاط تجاريّ، ومدنيّ، وبتلميحات إِلى الجيش والملاعب، والحقوق.وغالباً ما وشّى خطاباته بأَقوال مأثورة لكتّاب وفلاسفة إِغريقيّين.وهو، في ذلك، يختلف عن يسوع الذي قضى حياته الخفيّة في قرية مغمورة، وفي أَحضان الطبيعة، وبين ظهراني قرويّين بسطاء، ومنهم ومنها استمدّ أَمثلته وتشبيهاته.

صحيح أَنّ تأثير تربية شاول اليهوديّة كان هو الأَقوى، وأَنّه، على غرار أُسرته كان يفخر بانتمائه إِلى فئة تباهي بإِعلاء صرح الشريعة.ولم يهزّ التأثير الهلّيني، في شيء، قناعاته الدينيّة ؛ وهو، ولا ريب، كان يشهد الاحتفالات الصاخبة الماجنة التي كانت تقام تكريماً للإِلاه سندان، شفيع طرسوس ؛ ولكنّه كان يقارن سخافة عبادة الأَوثان بعبادة الإِله الواحد التي أُنشئ عليها، منذ يقظته على الوعي، فكانت تلك التظاهرات الوثنيّة تثير نفوره، وتؤكّد له فراغ العالم الخالي من اللّه الواحد.وكانت الشفقة تأخذ بنفسه حيال شعوب البرابرة "الذين لا رجاء لهم"، لأَنّهم يجهلون الخالق الأوحد.

و مع ذلك تأثّر، في أَعماقه، بالنزعتين الرئيستين اللتين كانتا تتنازعان أَذهان الطرسوسيّين : نزعة شرقيّة، ساميّة، آسيويّة، وأُخرى هلّينيّة، وبذلك قبض على ناصية لغة تفهمها جميع الأمم المتحضّرة آنذاك، وأَحدث في أعماقها ثورة مزلزلة.وباستماعه إِلى مجادلات الفلاسفة في ساحات مدينته، ألمّ بأَساليب النقاش الفكريّ اليونانيّ ممّا أَسهم في انبثاق نبوغه.

وهو الذي اصطُفي ليكون رسول الأُمم، وجوّاب الآفاق، في سبيل أَداء رسالته، قد أعدّته لهذه المهمّة سنوات صباه التي قضاها في مدينة متعدّدة الجنسيّات، والأَلسن، والمعتقدات التي كانت تستوعبها الأمبراطوريّة الرومانيّة، فضلاً عن المواطنيّة الرومانيّة التي نعم بها منذ مولده، وهي ميزة نادرة أَشرعت أمامه أَبواب العالم، وطالما وقته من تعسّف الحكّام، والعقوبات المذ لّة.

و بالإِجمال استمدّ شاول من طرسوس ثقافة إِنسانيّة منفتحة على مختلف شعوب الأَرض، رسّخت لديه معاني العالميّة والشمول والحرّيّة والمسؤوليّة، والبحث عن الأَسباب، والإِيمان بالعقل، وقِيَم الحكمة اليونانيّة التي كانت تستهدف الاتّزان، والخفر، والتواضع، ونبل الأَخلاق، وبالإِجمال، سلوك النخبة.وقد اغتنى بثراء حضارتين، وبات يقرن فكراً تحليليّاً

صاغته الثقافة اليونانيّة الرومانيّة بغنى التقليد الساميّ وحدْسه.كان يتكلّم، ويفكّر، ويكتب باليونانيّة والأَراميّة، وكذلك بالعبريّة التي بها وُضعت الكتب المقدّسة.وكان ملمّاً بالفلسفة والآداب الكلاسيكيّة، ويتقن الجغرافيا، وعلوم البحار، والرياضة. ثقافته الشاملة هذه حفرت في نفسه عالماً بلا حدود، على تباين واضح مع حدود ديانته اليهوديّة الضيّقة.غير أَنّ تديّنه كان أَساس حياته، والنواة التي انتظم حولها كلّ وجوده ؛ وكان فخوراً بيهوديّته الأَصيلة، وبانتمائه إِلى فئة الفرّيسيّين وإِلى سبط بنيامين الذي اشتهر ببسالته في الجهاد، وعدم اعترافه بأَخطائه.

ثمّ جاء تأثير أورشليم لكي يغني ما خلّفته طرسوس من تأثيرات فتّقت عبقريّته.

بعد أَن أَصاب شاول كلّ ما يستطيع فتى يهوديّ إِصابته من علم في مدينة كبيرة، داعبت مخيّلة والده أَحلام تزويد ابنه، الذي اتّضحت مخايل نباهته، بأَرقى علوم التلمود والشريعة في قلعة الشريعة، أورشليم، لعلّه يصبح واحداً من كبار معلّميها المشهود لهم، لا بل قد يضحي يوماً – ولمَ لا ؟ – زعيماً دينيّاً ليهود طرسوس ينحني له بنو إِسرائيل إِجلالاً.

وفاتح ابنه شاول بالأَمر، فالتهب خيال الفتى بتصوّر روعة أورشليم وهيكلها، وبمجامعها المئتين، وأسماء الرابيّين النافذين الذائعي الشهرة ؛ ولم يفُتْ الوالد تحذير ابنه بأَنّ بلوغ هذا الأَرب يكلّف جمّاً من المال، والغربة، والفراق، والجهد الدؤوب، وقد يفرض على من يصبو إِليه تضحيات ثقيلة، بحيث يطعم خبزاً جافّاً، ويكتفي بالماء القراح شراباً، ويضحي لمعلّمه الرابي عبداً، يجلس عند قدميه، ويخضع له أَكثر من خضوعه لأَبيه، فالأَب أَنجبه جسديّاً، ولكنّ الرابّي ينجب روحه وعقله.

وكان شاول مستعدّاً لأَداء ثمن تعلّم الشريعة، مهما غلا.

و الد بولس فرّيسيّ متشدّد، ومعروف عن الفرّيسيّين جهدهم في تطبيق الشريعة تطبيقاً مطلقاً. غير أَنّ بلوغ هذه الغاية يقتضي التقيّد بستّ مئة وثلاث عشرة وصيّة، ومثل هذا التقيّد لا يتهيّأ لفرّيسيّي الشتات، من جرّاء إِقامتهم وسط وثنيّين واضطرارهم إِلى مخالطتهم في شؤون كثيرة.بلوغ الكمال، في الفرّيسيّة، لم يكن ممكناً إِلاّ في أورشليم، وهذا ما حدا بوالد شاول إِلى أَن يقول له، يوماً، وفي حلقه غصّة امتزج فيها حزن الفراق بالاعتزاز : "لقد حان أوان الصعود إِلى أورشليم ! ".

المسافة بين طرسوس وأورشليم تربو على سبع مئة كيلومتر ؛ وقد وفّر الوالد على شاول الفتى مشقّة هذه المسيرة الطويلة، إِذ اصطحبه على متن سفينة حتى مرفأ يافا، الذي لا يفصله عن أورشليم سوى نحو ستّين كيلومتراً يمكن اجتيازها على الأَقدام، خلال يومين.ولم يفُت الوالد أَن يأتي معه بمجموعة من الخيام والبسط، التي سيؤمّن ناتج بيعها نفقات الأسرة في أورشليم، ونفقات إِقامة شاول ودراسته.

سكن شاول في بيت صديق لوالده هو أَيضاً، كان فرّيسيّاً من قبيلة بنيامين يعمل حائكاً، وله ولدان باتا رفيقي شاول في البيت وفي المدرسة.أَما المدرسة فكانت هي المثلى لفرّيسيّ يبتغي التوغّل في معرفة الشريعة، هي مدرسة الرابّي غمالئيل.وبعد أَن اطمأنّ والد شاول بالاً، وتيقّن من استقرار ابنه في المدينة المقدّسة، أذنت ساعة الفراق التي خلّفت جرحاً نازفاً بين قلبين متحابّين.وبات شاول لا يرى والده سوى مرّة واحدة في السنة عندما يأتي

أورشليم، حاجّاً بمناسبة الفصح، غير أنّ أسباباً عديدة قد تضافرت على التخفيف من لواعج الغربة، فأورشليم، لشاول، وطنٌ روحيّ، وفيها أُخته التي طالما كانت له بمثابة أُمّ، والحيّ الذي كان يقطنه يغصّ باليهود القادمين من آسية الصغرى، وفيه كنيس يدعى مجمع الطرسوسيّين.

خفقات القلب المجنونة التي كادت تحطّم صدر شاول، لحظة أطلّ على أورشليم، قبلة أحلامه، بهيكلها، ومجامعها، والقصور الجاثمة على تلالها، كانت أقلّ تعبيراً عن الإثارة من تلك التي أخذت بكلّ كيانه، عندما جلس، للمرّة الأولى، عند قدمي أجلّ معلّمي الشريعة شأناً في عصره : غمالئيل.ففي تلك اللحظة شعر أنّ مستقبله المتوهّج قد شرع يرى النور.فالرابّي غمالئيل هو حفيد الرابّي هلّيل، ومن أعلام الأُمّة اليهوديّة في علم الشريعة، وفرّيسيّ صميم؛ كان ينعم بمثل ما نعم به جدّه من إجلال الشعب وتبجيله، بفضل ما اتّصف به من حنكة وسداد رأي، وجرأة في القول والسلوك، ورحابة صدر، وسماحة نفس، وانفتاح ذهن، ونصاعة سلوك وتقوى.

كان غمالئيل، نظير جدّه، صاحب مدرسة، أو ما يمكن تسميته أكاديميّة فرّيسيّة، يحدوها روح ليبراليّ متسامح، على نقيض مدرسة الرابّي " شمّاي " المتحجّرة، والمتمسّكة بالحرف، والتي كانت المنافسة لمدرسته.كان شديد التمسّك بالشريعة، ومبادئ الطهر، والابتعاد عن نجاسة الأطعمة، إلاّ أنّه كان منفتحاً على الأفكار الجديدة، وكان عضواً في السنهدرين، أي محكمة اليهود العليا، حيث مارس نفوذاً بليغاً.عدد تلاميذه كان يناهز الخمس مئة، ولكنّه لم يكن يحتفظ، إلى جانبه، إلاّ ببعض الأتباع، الذين يجلّونه كأب ويدعونه " أباً "، ويقاسمونه العيش والطعام، والصلاة، وكان شاول أحدهم.

هذه النخبة من الأتباع كانت حكراً على من أتقنوا معرفة التقاليد، وأثبتوا، بسلوكهم المنضبط، المنزّه من كلّ لوم، وبغيرتهم، التزامهم الثابت بدين الآباء.وكان شاول من التفوّق في كلّ ذلك، بحيث استحقّ أن يكون في عداد الشبّان المحظيّين القابعين عند قدمي الرابّي غمالئيل، الذي وسم بعمق فكره وقلبه.

في مدرسة غمالئيل تمرّس شاول من الفقه التوراتيّ، لا التوراة المكتوبة فحسب، بل الشفويّة أيضاً، أي التقليد المتوارث عن الآباء والرابيّين منذ موسى، والذي لا يتد نّى شأناً عن المكتوب، فهو يكمله ويفسّره، ويؤوّله في آنٍ واحد.تلك الدراسة كانت تتطلّب جهد استظهار فائقاً، إذ كان يتعيّن على الطالب أن يحفظ عن ظهر قلب، لا النصوص المقدّسة فحسب، بل، أيضاً، تأويلات كبار الرابيّين، وذلك بتكرارها، حرفيّاً، بصوتٍ مرتفع، منغّمةً، وعلى وقع

حركات رتيبة يتأرجح معها الجذع جيئة وذهاباً، محرّكاً مئتين وثمانية وأربعين عضواً من جسده، من أجل ترسيخ الحفظ، على حدّ قول أحد الرابّيين.

كان الرابّي، وهو يلقي دروسه، يجلس على كرسيّ مرتفع من الخشب المحفور المنتصب فوق منصّة، فيما طلاّبه يتحلّقون متراصّين من حوله، مقتعدين الحضيض المغطّى بحصيرة، وهذا ما يوفّر التفسير الحرفيّ لقول شاول أنّه تعلّم " عند قدمي " غمالئيل.

كان التعليم يعتمد على التفسير والاستفسار، فالمعلّم يطرح الأسئلة على ذاته ويردّ عليها، أو يدعو تلامذته إلى الإجابة عنها من أجل إكسابها إيضاحاً.وفي سبيل ذلك، كان الرابي يتلو مقطعاً من التوراة باللغة العبريّة، ويترجمه إلى اللغة الأراميّة الشائعة، ويدعو تلاميذه إلى مناقشته، واستخلاص قواعد السلوك منه، فالتطبيق العمليّ كان هو الهدف الرئيس.وفي هذا السبيل كان يبسط الرابيّ، بين يدي تلاميذه، التأويلات المختلفة التي أُعطيت للنصّ، أو تلك التي يقترحها بنفسه، ويدعو كلاًّ من تلاميذه إلى الإدلاء بدلوه وبتأويله الخاصّ، فيحتدم النقاش، وغالباً ما يُسفر قدْح زناد الأذهان وتصادمها عن إغناء النصّ بمعانٍ جديدة، وعِبَر قشيبة.

كان التعلّم لدى الرابيّين شاقّاً وجادّاً، ويستلزم إنصاتاً دقيقاً واهتماماً يقظاً، إذ يتعيّن على الطالب أن يستظهر كلّ كلمة يفوه بها المعلّم، من غير أن يدوّنها إلاّ في طوايا ذاكرته.

و كانت التوراة هي موضوع التعلّم ووسيلته، فعباراتها تُستقرى بدقّة، لتبيُّن معانيها الخفيّة، ولكن، أكثر من ذلك، لأجل استخدامها في الجدال، واستخلاص معايير أخلاقيّة، وعبَر تاريخيّة منها.ومن ثمّ كانوا يغالون في استغلال النصّ، وإخضاعه لما يرغبون، ويستوحون منه مجموعة حجج تسعفهم في النقاش، إذ بقدر ما يورد المناقش نصوصاً من الكتاب، تكون حجّته أرجح، وأثقل وزناً.

و هكذا أمضى شاول سنوات عديدة، عند قدمي معلّمه، مكرّراً أقواله بنغمة رتيبة، متملّياً من النصّ حتّى النخاع.وقد اكتسب من هذه الدراسة أسلوباً متميّزاً في بحث المواضيع الكتابيّة والعقائديّة، والإحاطة بها، وإنارة الجوانب الغامضة منها.وقد تجلّى هذا الأسلوب في العديد من رسائله فيما بعد، عندما بات هو نفسه معلّماً للمسيحيّين الجُدد.

كان الفرّيسيّون يحتكرون، حينئذٍ، التعليم الدينيّ، ويتميّزون بصلابتهم في الذود عن حياض الشريعة، ويغلون في تفسيرها.ولا ريب أنّ شاول قد اطّلع، في فترة دراسته، على أكوام الفتاوى الصادرة عن الرابيّين، جيلاً إثر جيل، وعلى المجلّدات الضخمة التي وُضعت، مثلاً، في تفسير وصيّة راحة السبت، وتناولت حالات مغرقة في السخف والندرة، نظير النقاش الذي احتدم، يوماً، حول جواز اطّعام بيضة خرج معظمها من الدجاجة قبل ظهور

النجمة الثانية، لأَنّ الدجاجة، بذلك، امتهنت قدسيّة السبت ! وفي كتابٍ لأَحد الرابيّين جاء أَنّ قتل قملة يوم السبت لا يقلّ خطورة عن قتل جمل، في حين أبدى زميل له أَنّ لا ضير من بتر أَرجل القملة، يوم السبت، مع تجنّب قتلها ! ولا عجب إِن أَعلن بولس، الذي حُشيَ رأسه، وهو فتى، بمثل هذه الترّهات، وبعد أَن أَنارت قلبه تعاليم المسيح : "الحرف يقتل، والروح يحيي. "

و من حسن طالع بولس أَنّ معلّمه غمالئيل كان من أَكثر علماء الشريعة انفتاحاً وطيبة، وتسامحاً.فهو ما كان يجد غضاضة في الردّ على تحيّة غريب، ولا تدفعه العصبيّة إِلى ردود فعل رعناء.ومن مواقفه المشهودة أ نّه، عندما أَمعن اليهود في اضطهاد تلاميذ يسوع، بعد أَن اجتذبت الخوارق التي كانت تجري على يدي بطرس ويوحنّا جموعاً غفيرة إِلى الإِيمان بالدعوة المسيحيّة، وحده غمالئيل وقف موقف الحكمة والاعتدال، فخاطب زملاءه أَعضاء السنهدرين قائلاً : " احذروا ممّا تنوون فعله بهؤلاء الرجال. فأقترح عليكم الآن أن تعدلوا عنهم، وتدَعوهم وشأنهم، لأَنّه إِن كان قصدهم أو عملهم من عند الناس فإِنّه سيضمحلّ من نفسه، وأَمّا إِذا كان من عند اللّه، فلن تستطيعوا نقضه، وتتعرّضون لأَن تكونوا حرباً على اللّه "

صحيح أَنّ شاول، في ميعة شبابه، وعنفوان اندفاعه، واضطرام غيرته، لم يرث من معلّمه غمالئيل مثل ذلك التسامح، ولا سيّما حيال أَتباع يسوع الأَوائل، غير أَنّه تلقّن منه الاستقامة، ومخافة اللّه، ونشدان المطلق.وبعد أَن أَشرقت على نفسه أَنوار يسوع، حاذاه في انفتاحه على الغير، وعلى الغريب، وقد تبيّن عمق حكمة معلّمه، وسلامة بصيرته، في أمر يسوع، عندما شنّ هو نفسه عليه حرباً شرسة، ولكنّه تحطّم على صخرته، ثمّ نهض، بقدرة نعمته، إِنساناً آخر.

و من المحقّق أَنّ شاول، بفضل تربيته الهلّينيّة، قد استظهر التوراة، أَيضاً، في ترجمتها اليونانيّة، المعروفة بالسبعينيّة، التي لم تكن ترجمة أَمينة بقدر ما كانت تطوّراً لاهوتيّاً يستهدف التوافق مع العقليّة اليونانيّة، ومن المحقّق أَنّ هذا التعليم القائم على التوراة قد وسم فكر بولس، بعمق، وظلّ تأثيره جليّاً، حتّى بعد اهتدائه إِلى المسيحيّة، إِذ ما انفكّ يورد مقاطع منها، بالترجمة اليونانيّة، يستخرجها من خزانة ذاكرته، غير متقيّد دائماً بحرفيّتها، بل مكتفياً بإِبراز معناها، وغالباً ما يدمج عدّة مقاطع منها، مستقاة من أَماكن مختلفة، في سياق واحد، تدعيماً لحجّته.ولكنّه عندما أَمسى يقرأ التوراة على ضوء أَنوار دمشق، وإِلهام الروح القدس، بات يجهد في استنباط مكنوناتها، واستخلاص تأويلاتها التي تشير إِلى تعاليم يسوع، ورسالته الخلاصيّة، في سبيل إِقناع اليهود.

لا ريب أنّ شاول قد تفوّق في مدرسة غمالئيل، ويؤكّد بنفسه أنّه بذّ أترابه في معرفة الشريعة والذود عن حياضها.وكان بين رفاقه عدد من الهلّينيّين الذين تشابكت مصائرهم بمصيره، فمنهم من غدا له عدوّاً لدوداً نظير استيفانس، ومنهم ما أَضحى له رفيق جهاد مثل برنابا وسيلا.

و إِلى جانب علم التوراة، تلقّى شاول، عملاً بالتقليد الفرّيسيّ، تعليماً موسوعيّاً، فأتقن لغات عديدة منها العبريّة لغة الأَجداد، واليونانيّة لغة الثقافة، واللاتينيّة لغة الحكّام، والأراميّة التي كانت رائجة في فلسطين وسوريّة.وتلقّى دروساً عمليّة في الزراعة وعلم الحيوان والنبات، والتشريح، وأَلمّ بمبادئ الطبّ الأَساسيّة التي تؤهّله لمعالجة الأَسقام الطارئة، ولا سيّما في الأَسفار، وبمبادئ الحقوق اليهوديّة والرومانيّة، وبأصول المحاكمات، إِذ على عالم الشريعة أَن يكون، أَيضاً، قاضياً، وقادراً على الدفاع عن نفسه في وجه مناوئيه وخصومه.

و أَكثر ما اهتمّ به غمالئيل، بعد تعليم الشريعة، هو إِعداد طلاّبه ليكونوا خطباء وواعظين، واستخدام أَساليب التأثير كاستخدام أَوصاف متعدّدة للتأكيد على معنى واحد، وإِيراد أَقوال مأثورة، ومعانٍ متضادّة، وشفع الأَقوال بحركاتٍ يدويّة.

و قد أَتقن شاول، فضلاً عن ذلك، فنّ النقاش والمناظرة، والمرافعة ؛ وخزّن معلومات ثرّة عن الطبيعة البشريّة، والحياة، والموت والخطيئة.

و في ساعات فراغه كان شاول يتجوّل في المدينة، فيشاهد طوائف متعدّدة من الأَجناس والأَزياء والتقاليد، يهوداً من جميع الأَقطار، ووثنيّين من جميع الأُمم.وكان يعجب للتباين الفاضح بين قصور رؤساء الكهنة الفخمة التي تختال بعظمتها في الأَحياء الفاخرة المنسّقة، وبيوت الشعب الزريّة في أَحياء بائسة، قذرة، منفّرة، تضجّ بصنوف الحرمان، ويرزح سكّانها تحت وقر ضرائب ومكوس يتفنّن المسؤولون الرومانيّون والدينيّون في ابتكارها؛ وكان يتألّم لمعاناة شعبه المسحوق، في عقر داره، تحت وطأة اضطهاد المستعمر الأَجنبيّ، والزعماء الدينيّين.وينشد تفسيراً لكلّ ذلك في طوايا الكتب المقدّسة.

و لا ريب أَنّ الحياة الاجتماعيّة التي كانت تسوقها الطبقة المثــقّفة في أورشليم كانت حافلة بضروب الغواية، ولكنّ شاول نأى بنفسه عنها، فقد كان مستغرقاً في دراسته وفي الهواجس التي كانت تتنازعه بخصوص مصير شعبه وأُمّته ؛ بحيث خالف حتّى نصائح دينه، وأَقلع عن الزواج، على غرار قلّة من رجال الدين الذين تركوا لآخرين أمر تنفيذ مهمّة إِكثار الشعب اليهوديّ.

كان فرّيسيّاً حقّاً، والفرّيسيّون يقاومون الأرستقراطيّة الصدّوقيّة، ويأخذون عليها تواطؤها وتعاونها مع المحتلّ الرومانيّ، وبالتالي كانوا أَكثر حظوةً بتقدير الشعب واحترامه.

كانوا "تقدّميّين " في ميدان التعليم، صارمين في مجال الأَخلاق والسلوك ؛ هم غالباً من علماء الكتاب ومفسّريه ومعلّميه، ومن مصدري الفتاوي.لم يكونوا كثيري العدد، ولكنّهم كانوا عنصراً نشيطاً ومؤثّراً في المجتمع اليهوديّ.

و كان شاول منفتحاً على الشعوب والحضارات الأُخرى، ولكنّ عاطفة منطلقة من أَعماق أَحشائه كانت تشدّه إِلى أورشليم، التي، في سبيلها، نسي طرسوس مسقط رأسه، ربّما عن تعصّب دينيّ، وربّما رغبة في الانتماء إِلى مركز فكريّ، على غرار الحكماء اليونانيّين.

و قد عرف الوثنيّة عن كثب، فتمكّن من سبْر الفراغ الثاوي في قلوب من يعيشون في عالمٍ خاوٍ من اللّه.ووقف على حافّتيْ حضارتين : اليهوديّة والهلّينيّة، كما هي حال معظم من حوّلوا مجرى التاريخ، فهم، في أَعماقهم السرّيّة، على علاقة وثيقة بالمجتمع الذي سيحاربونه، ومن شأن تجربتهم الشخصيّة إِرشادهم إِلى ما يتعيّن تدميره واستبداله.

كانت تقلقه أَقوال الأَنبياء المندّدة بسلوك اليهود، وغدا يروز الفرق بين عظمة الخالق وسخافة الضحايا التي يُحاوِل بها إِرضاؤه، وإِخماد غضبه، وهو الأَب المحبّ.وكانت تقضّ مضجعه التساؤلات حول صحّة بعض الوصايا.

في العشرين من عمره كان شاول قد أَنهى تعليمه الأَساسيّ، وأَمسى عالماً في التوراة والشريعة، ممتلكاً عناصر ثقافة موسوعيّة غنيّة، كان معتزّاً بدينه فلليهود، على حدّ قوله "التبنّي، والمجد، والعهد، والشريعة، والمواعيد، ولهم أَيضاً الآباء ".وبفخر كان يعلن : "كنت أَفوق، في الملّة اليهوديّة، كثيرين من أَترابي، في أُمّتي، إِذ كنت أَغار بإِفراط على سنن آبائي " (غلاطية 1: 14).

غير أَنّه، مع كلّ ما كان يتوسّم في اليهوديّة من حقيقة وعظمة، كان يستشفّ مواطن ضعف يتعيّن تخطّيها ؛ ولكنّه لم يكن، هو نفسه، يستطيع تخيّل كم سيكون هذا التخطّي بعيد الشأو، بعد أَن عرف يسوع، الذي كان، حتّئذٍ، يسوق حياة خفيّة في الناصرة.

و قد أَدرك شاول عظمة الكلمة وقدرتها، وتبيّن أَنّها غذاءٌ للنفس أَخطر شأناً من الخبز للجسد. ولكن فاته " أَنّ الكلمة صار جسداً " في قرية بيت لحم القريبة و" سكن فيما بيننا".

في أورشليم ابتدأ جهاد شاول اليهوديّ، فابن طرسوس، المدينة المفتوحة، تحوّل، في أورشليم، إِلى مناضل، صاحب قناعات وقضيّة.لقد اشتدّ عوده، ولكن ضاقت آفاقه، وتحوّل، ولكنّ تحوّله كان نظرة مختلفة إِلى الأمور والعالم.كان قد هبط أورشليم يهوديّاً، وعاد منها متعصّباً، مغالياً في يهوديّته.

بعد خمس سنوات من التحصيل في أورشليم، قفل شاول عائداً إلى مسقط رأسه، مثقلاً بالعلم والحكمة، تحدوه على دينه غيرة مضطرمة.عاد ولكنّ أورشليم ظلّت عائشة في قلبه وفي ذهنه، ولم تنفصم علاقته الوثقى بعلماء الشريعة فيها، الذين ما انفكّوا يراقبونه، إذ كانوا يعدّونه لمهامّ خطيرة.

من المرجّح أنّه كان يختلف إلى حانوت والده الذي كان راغباً في إطلاعه على كلّ أموره، فهو وريثه الوحيد ؛ غير أنّ الاهتمامات الماديّة لم تستطع اجتذاب اهتمام شابّ نذر نفسه لدينه، وجعلت منه سنوات دراسته في أورشليم حارساً للشريعة.

عاد قابضاً على ناصية علم الشريعة المكتوبة والتقليد، متمكّناً من الوعظ في المجمع، والمشاركة في المحاكم الدينيّة التي تنظر في القضايا الراهنة، ضليعاً في النقاشات الدقيقة بين علماء اليهود، مثلما هو ضليع في الجدل مع اليونانيّين المثـــقّفين.

المنافسة بين علماء الشريعة في طرسوس كانت أقلّ شراسة منها في أورشليم، ممّا أتاح للشابّ العالم ممارسة العمل اليدويّ بضع ساعات من النهار، وتعليم الشريعة بالقول والمثَل، والإسهام في نشاط المجمع اليهوديّ في طرسوس، وتولّي شتّى الخدمات الروحيّة، رادّاً على استفسارات مواطنيه، ومبادراً إلى حلّ مشاكلهم الوجدانيّة.

و لا ريب أنّه استنح تلك الفرصة لصقل لغته اليونانيّة، وللاستزادة من الاطّلاع على الثقافة الهلّينيّة، بعد أن أيقن أنّه أصبح من المنعة بحيث تعجز المعتقدات الوثنيّة عن التأثير فيه؛ فاختلف إلى حلقات النقاش الفلسفيّ، وحفظ الكثير من أساليبها ومصطلحاتها ومفرداتها، ممّا أهّله، بعد سنوات، لمخاطبة أيّ محيط وُجد فيه، بلغته التي يفهمها، ومن امتلاك وسائل لإقناع كلّ جمهور.

و يُستدلّ من رسائله اللاحقة أنّ أهواء الشباب لم تجد السبيل إلى هزّ تلك النفس الناصعة، الراسخة العقيدة، السامية المطامع.فلقد كان ذلك الفرّيسيّ الشابّ معدناً صلباً، لا خبث فيه ولا لين، لا يقبل أنصاف المعايير، ولا يرتضي أيّ تنازل.إيمانه كان من الذهب الخالص، وأغلى، لديه، من حياته.في سبيله كان متأهّباً للموت، وفي معزل عنه لم يكن يقوى على العيش.

نحو عشر سنوات أنفقها شاول، على هذا النحو، في طرسوس، ولا ريب أنّها كانت قاسية على نفس جيّاشة المطامح، بعيدة التطلّعات، دائمة التحفّز، ولكأنّه فرس تقضم لجامها

توقاً إلى الانطلاق.ولكنّه، طيلة هذه المدّة، كان على اتّصال وثيق بالسنهدرين ومعلّمي الشريعة في أورشليم الذين يوكلون إليه، بين فينة وفينة، مهامّ مختلفة بين يهود الشتات.

و في تلك الأثناء خضّ أورشليم أعظم حدَث في تاريخ البشريّة، متمثّلاً في بشارة يسوع الخاطفة التي انتهت، بعد أقلّ من ثلاث سنوات، بصلبه، ولكنّها عادت فاستولت على الأذهان، بقيامته العجيبة، ثمّ باندفاع رسله، بعد أن حلّ عليهم الروح القدس، باثّين رسالته الخلاصيّة، في بسالة نادرة، أيّدها الربّ بمعجزات من لدنه.

و نمت إلى الفرّيسيّ الشابّ في طرسوس أصداء عن ذلك النجّار الجليليّ المدعوّ يسوع، والذي قضى ثلاثين عاماً من حياته مغموراً، في قريته، ثمّ راح، فجأة، يذرع دروب فلسطين مؤكّداً اقتراب ملكوت اللّه، داعياً إلى التأهّب له بتحرير النفوس، والتخلّص من الإنسان العتيق، وبالتحوّل الجذريّ، ومعلناً أنّ طهر النوايا واستقامة القلوب، أجلّ شأناً، بما لا يقاس، من التقيّد بوصايا شكليّة.يسوع هذا كان النقيض الحيّ للفرّيسيّين الذين طالما ندّد بهم. وكان بدهيّاً أن يستشيط شاول، بطبعه الحادّ، وعصبيّته المسنونة، غيظاً على ذلك الجليليّ، إذ لم يكن بوسعه، وفقاً لتربيته، إلاّ أن يكون عدوّاً ليسوع الناصريّ، وأن يقابله بأشدّ الحقد.وتنامت نقمته عليه لمّا علم بادّعائه أنّه ابن اللّه، ممّا لم يجسر على ادّعائه أسوأ المارقين، وأكثر الأنبياء زيفاً وكذباً ؛ ولا بدعَ إن هو صفّق لصلبه عند أبواب أورشليم، وأيقن أنّ مغامرته النكراء الخاطفة قد دفنت معه.

و عندما أنبأه قادمون من أورشليم أنّ أتباع يسوع الناصريّ قد انطلقوا، عقب فترة صمت واختفاء لم تتجاوز الخمسين يوماً، يعلنون أنّ معلّمهم الذي صلب قد قام من الموت، انتابته نوبة هيستيريّة من الضحك.غير أنّ سخريته انقلبت قلقاً وغيظاً، عندما أخذت الأنباء تتوارد عن انتشار " طريقة " المصلوب الناهض من الموت، والتي كان الربّ يؤيّدها بمعجزات يجريها على يد تلاميذ يسوع، وقد انضمّ إليها آلاف من اليهود الذين رأوا فيها نهايةً لانتظارهم الدهريّ للمسيح المخلّص.غير أنّ زعماء اليهود قاوموا تلك الحركة بعنفٍ شرس ورأوا فيها بدعة خطيرة حمقاء، فلطالما تخيّلوا المسيح قائداً لا يُقهَر يقود الشعب اليهوديّ في مواكب النصر، هازماً كلّ أعدائه، ساحقَهم تحت أقدامهم، مرسّخاً تفوّقهم وهيمنتهم. فأين منه يسوع، ذاك الضعيف، الوديع، الذي لم يقاوم ثلّة من المرتزقة، واستكان لموت ذليل، فاستحقّ حكم الشريعة التي تعدّ ملعوناً كلّ من يُعلّق على خشبة !

و لا بدعَ إن تصدّى صالبو يسوع، زعماء اليهود، لتلاميذه، وهم يشهدون صفوف أتباعه تتضخّم يوماً إثر يوم، ولا عجب إن هم ألقوا القبض عليهم، غير أنّ الربّ كان يتداركهم بنجدته، ويؤيّدهم بخوارقه، فيستأنفون التبشير، بمزيدٍ من الاندفاع، متحدّين حظر

رؤساء الكهنة، لأَنّ اللّه أَحقّ بالطاعة من البشر.وكيف لا يبشّرون، وما رأوه بعيونهم، وسمعوه بآذانهم، وجسّوه بأيديهم، من العظمة والإِدهاش، ومن تجلّي قدرة اللّه فيه، بحيث لا يستطيعون السكوت عنه، ولا يسعهم إِلاّ الشهادة له حتّى الموت ! وتناقل القوم أَصداء تلك البشارة في مدن فلسطين والسامرة وقراهما، وسارت به القوافل إِلى دمشق وأنطاكية والإِسكندريّة، وأَشاعه المسافرون بحراً في قبرص وكريت وشتّى أَنحاء حوض المتوسّط.وفي كلّ مكان تذاع فيه البشارة وتطويباتها، كانت تُشرَع لها قلوب الفقراء، والمتواضعين، والمقهورين، واليائسين، وأَصحاب الطوايا النقيّة.

و سرعان ما شرع شاول يدرك أَنّ يسوع، ميّتاً، أَخطر منه حيّاً.

لم تتسنّ لشاول فرصة التقاء يسوع في أَثناء حياته الأَرضيّة، وكانت عوامل الاختلاف بينهما كثيرة.

فيسوع ابن قرية مغمورة، وقضى ثلاثين عاماً من حياته القصيرة عاملاً مغفلاً.أَمّا شاول فوُلد في مدينة كبرى تنافس حواضر العالم، آنذاك، شهرة ونفوذاً، ثمّ ترعرع وتثقّف في أورشليم التي لا تقلّ عن طرسوس نفوذاً وصيتاً ؛

يسوع لم يغشَ سوى مدرسة ابتدائيّة، ولم يعاشر سوى القوم البسطاء، أَمّا شاول فتعلّم في أَرقى المدارس، وتلقّن اللغات، والعلوم، وارتقى أَعلى درجات المعرفة، وتجوّل بين تجّار ميسورين، وموظّفين مثقّفين، وخالط بعضاً من أَعظم مفكّري عصره ؛

يسوع عايش ما هو حسّيّ، واستمدّ كلّ صوره من صميم الطبيعة، واستمدّ أمثاله من صدى التلال، والسماء، وبحيرة الجليل، ورعشات النسيم، والحقول، والفلاّح والراعي ؛ وكان كَلِفاً بالحصاد المتموّج، والعصافير اللاهية بلا مبالاة، والأَزاهير الموشّاة، والأَسماك العابثة في مياه بحيرة جنيصارات الزرقاء؛ أَمّا شاول فقد أَلف التعامل مع الأَفكار المجرَّدة، وعاشر الرقّ، والقلم، والكتب، وكان يجد متعته وسط نخبة مثقّفة، وكان حديثه يدور على الشريعة، والمدينة، والحقوق، والمنافسات الرياضيّة، والنظام العسكريّ ؛ وقد احتفظ، أَبداً، بقلق ابن المدينة المنهمك بالأَفكار الكثيرة، والجماهير الغفيرة.

و مع ذلك لم يلقَ يسوع مشقّة في مخاطبة علماء الشريعة وإِفحامهم، وكسفت بساطة أَقواله كلّ حكمة وفصاحة ؛ واحتاج شاول إِلى مران طويل قبل الاهتداء إِلى الكلمات الكفيلة بالنفاذ إِلى قلوب جمهوره وأَذهانه، ولكنّه لم يدانِ، قطّ، بساطة يسوع الإِلهيّة وتأثيره البليغ.وقد ظلّت حياة يسوع تسبح في محيط من السكينة والسلام والعذوبة، ورغم العواصف التي هبّت عليها، بدت وكأنّ أَنسام البحيرة ما انفكّت تداعبها، في حين قُيِّض لبولس أَن يعيش في قلب عاصفة لا يهدأ لها هياج، وأَلاّ يعرف من السكينة إِلاّ ما يسكبه في نفسه مَنْ حاربه يوماً، فهُزم أمامه، وبات له الخادم، والعاشق، ومصدر كلّ حياة : يسوع.

الفصل الثاني :

شاول مضطهد المسيحيّين

كان شاول، إذن، يستقري، من طرسوس، أنباء " طريقة " يسوع، فيثور، ويزمجر، ويتوعّد، ويتحرّق توقاً إلى مقاومتها بكلّ ما أُوتي من طاقة.وتحقّقت رغبته عندما وافاه، يوماً، أمر بالمثول إلى أُورشليم، برّاً، وبزيارة كلّ مكان، في طريقه، يضمّ مجمعاً، فيشدّ من عضد اليهود فيه، ويرسّخ إيمانهم.وكم تميّز حنقاً وهو يشهد في كلّ مكان مرّ به من يتناقلون أنباء النصارى، وفعالهم المعجزة.

و لمّا انتهى إلى أورشليم هالته جسامة التحوّل الذي حدث في المدينة المقدّسة، فالذين انضووا إلى " طريقة " يسوع يُعَدّون بالآلاف، ومعظمهم متأهّبون للموت في سبيل إيمانهم الجديد ؛ وممّا ضاعف سخط شاول أنّ مواطنين له كانوا في أورشليم وقت العنصرة، قد اهتزّ كلّ كيانهم لسماعهم تلاميذ يسوع يشهدون بقيامته ويجرون باسمه المعجزات، ولا يخشون سجناً، ولا ضرباً، ولا تنكيلاً، فآمنوا بيسوع ؛ واتّضح لشاول أنّ الذين انضمّوا إلى الإيمان بالناصريّ ليسوا، فقط، من القوم البسطاء، والمسحوقين، الذين أشرقت عليهم التطويبات بأنوار الأمل والخلاص، بل منهم الكثيرون من أتقياء اليهود، وكتبتهم، ومعلّميهم ؛ والأدهى أنّ بعضاً من زملائه الذين جاورهم في مدرسة غمالئيل قد انضمّوا، أيضاً، إلى " الطريقة " الجديدة، ومنهم لاويّ قبرصيّ يدعى يوسف، كان يحظى بحبّ الشعب، وقد اعتنق اسم برنابا، وباع ممتلكاته الكثيرة القيّمة، ووضع أثمانها كلّها بتصرّف الكنيسة المسيحيّة الوليدة، ومنهم أيضاً استيفانُس الذي أضحى عموداً لتلك الكنيسة، ومن أعوان الرسل الأساسيّين، وقد امتلأ بالروح القدس، وغدا الربّ يجري على يديه المعجزات.

كلّ هؤلاء لم يقتصروا على الإيمان بأنّ يسوع الناصريّ هو المسيح الذي وعد به اللّه، وأشار إليه الأنبياء، وبأنّه هو، هو، منقذ البشريّة، بل راحوا يجهرون بهذا الإيمان، ويجتذبون إليه الأتباع جماعات، جماعات.

و كان أشدَّ أتباع " طريقة " يسوع اندفاعاً، الهلّينيّون، وهم من يهود الشتات، متأثّرون بالثقافة اليونانيّة، أو إنّهم وثنيّون سابقون اعتنقوا اليهوديّة وسرعان ما ألّفوا نواة صلبة في قلب الكنيسة الناشئة، تتميّز بتحرّرها من ربقة حرف الشريعة الموسويّة، وتخطّيها إلى الجوهر الذي عثروا عليه في تعليم يسوع، فراحوا ينشرونه ببساطة، واندفاع، وإقناع. وكان خير ممثّل

لهذه الفئة، الشمّاس استيفانس ؛ هذه الفئة هي التي خصّها اليهود بأعتى اضطهاد، فيما هم هاودوا المسيحيّين من أَصل يهوديّ صرف المعروفين بالعبرانيّين، والذين، مع إِيمانهم، بيسوع، لم يتنكّبوا عن أَيّة من وصايا الشريعة الموسويّة، ولم يتخلّوا عن أيٍّ من طقوس اليهود، وكان ممثّل هذه الفئة، يعقوب، المدعوّ أَخا الربّ، والذي أَبدى له اليهود الاحترام، سنوات طويلة، قبل أَن يقدموا على قتله.يعقوب هذا كان يقرن إِلى إِيمانه بيسوع وفاءه للشريعة اليهوديّة، وصوفيّة متشدّدة.وهو بسموّ سلوكه كان يمارس، على جميع مؤمني أورشليم، تأثيراً بليغاً.فهو لم يحلق شعره، قطّ، ولم يلبس صوفاً، ولم تلامس جسده قطرة عطر، ولم يتزوّج، ولم يذق لحماً، ولم يشرب خمرة، بل كان يكتفي بالزهيد من الطعام، ويكثر الأَصوام، ويقضي في الهيكل ساعات يصلّي.وبفضل كلّ ذلك كان موضع إِجلال اليهود والمسيحيّين، ولذلك استطاع البقاء في أورشليم بعد أَن هجرها جميع التلاميذ، وكان سبب اهتداء عدد من الفرّيسيّين وكهنة اليهود إِلى دين يسوع.

و التفت شاول صوب معلّمه غمالئيل، فإِذا به قد شاخ، وبات متردّداً، ولكأنّ يسوع قد هَمَس في خلَده، وأَشاع في نفسه الحيرة.وهذا ما فسَّر، في نظر بولس، فتوى غمالئيل الداعية إِلى عدم التعرّض لتلاميذ يسوع، وإِيلاء الأَمر للّه، فهو كفيل بإِظهار سلامة دعواهم أو زيفها.

لقد بدا جليّاً لشاول أَنّ يسوع الذي صلبه زعماء اليهود، والذي يعلن أَتباعه أَنّه انبعث حيّاً، وأَقام معهم أَيّاماً قبل رحيله إِلى السماء، قد أَضحى يهيمن على جميع الأَفكار، أَفكار مناوئيه ومناصريه على السواء، ويملأ الأَجواء بحضوره غير المرئيّ.وعقد شاول العزم على محو اسمه، بحيث لا يذكره أَحدٌ، بعدُ.

لم يكن بوسع شاول، وهو ذو الطبع الناريّ الجيّاش، إِلاّ أَن يكون جلاّداً أو ضحيّة، مضطهِداً أو مضطهَداً، وقد انحاز إِلى الخيار الأَوّل.وهذا ما يفسّر موقفه في مصرع استيفانس الذي، ربّما، لم يرتح له قلبه، ولكنّ وجدانه صفّق له.

انحاز شاول، إِذن، إِلى الجناح المتشدّد من السنهدرين وعلماء الشريعة، وغالى في التنكيل بأَتباع الناصريّ، وقد اعترف هو نفسه فيما بعد، في سياق الدفاع عن نفسه أَمام زعماء اليهود : " كنت غيوراً للّه على نحو ما أَنتم عليه اليوم جميعكم، وقد اضطهدتُ تلك الطريقة حتّى الموت، فاعتقلتُ الرجال والنساء وطرحتُهم في السجون " (أَعمال 22 : 34) وفي قوله "حتّى الموت" الدليل على شراسة اضطهاده، فهو كان ينقضّ عليهم مثل المصارعين الذين لا ينتهي صراعهم إِلاّ بمصرعهم أو بمصرع خصمهم.وبعد أَن سمع استفانُس يدعو إِلى الإِيمان بيسوع، مسيحاً، تفجّرت كلّ ينابيع غضبه وحقده، حتّى بات يتمنّى أَن يخنق بيديه كلّ من يتلفّظون باسم يسوع، وأَن يخمد، في قلوبهم، جذوة الحبّ التي كان يضرمها مجرّد ذكر

ذلك الاسم.وقد مضى، في هذا الشوط، شأواً بعيداً، كما يتّضح، أَيضاً، من قوله : " أَمّا أَنا، فكنت قد اعتقدت من الواجب عليّ أَن أُقاوم، بكلّ وسيلة، اسم يسوع الناصريّ.ذلك ما فعلته في أورشليم : فإِنّي بقوّة التفويض الذي تلقّيته من رؤساء الكهنة، قد اعتقلت، أَنا بنفسي، في السجون، كثيراً من القدّيسين ؛ وكنت من الموافقين على قتلهم.وكثيراً ما سُمتُهم أَلوان العذاب، في كلّ المجامع، لإِكراههم على الكفر.ولشدّة حنقي عليهم كنت أَتعقّبهم حتّى في المدن الغريبة".(أعمال 26 : 9 – 11)

كان من شدّة الحنَق على المسيحيّين بحيث يتذوّق متعة كبرى في التنكيل بهم حتّى حملهم على إِنكار يسوع.فغيرته على الشريعة كانت تدفعه إِلى القضاء على كلّ من ينتقص من قدرها، وكلّ من يستخفّ بتقاليد الآباء ويتجاسر على الزعم بأَنّ هناك خلاصاً خارج الشريعة، فما هذا الزعم سوى تعدٍّ على الوعد الإِلهيّ وعلى تفرّد إِسرائيل وتفوّقها.

ربّما خيّل إِلى زعماء اليهود أَنّهم بصلبهم يسوع قد اقتلعوا الكرمة التي تنتج خمرة حامضة، وفاتهم أَنّ بوسع أَغصان تلك الكرمة، أَن تتجذّر في أَماكن عديدة، فتنمو منها كرمات فتيّة.ثمّ خيّل إِليهم أَنّهم بقتل استفانُس قد زرعوا الرعب في قلوب أَتباع الناصريّ، ولجموا " طريقته" ؛ غير أَنّ دم استيفانس قد ثبّت المتردّدين، وروى تربة أَنبتت منهم الآلاف. فاستفانس مات مثلما مات معلّمه، ولكأنّ يسوع كان يولد في كلٍّ من تلاميذه.

و لذلك عقد شاول العزم على اجتثاث أَتباع يسوع، وإِبادتهم أَينما وُجدوا، وحصل من السنهدرين على تكليفٍ بهذه المهمّة، فانطلق يعمل مُزوَّداً به، وبالوسائل الكثيرة التي دُعِّم بها لهذا الغرض، مستعيناً بالعيون، والعَسس، والسلطات المطلقة، وطفق يقتحم المنازل تحت جنح الظلام، ويفتّشها، وينتزع الاعترافات عنوة، ويقسر المسيحيّين، بالجلد والتنكيل، على إِنكار يسوع، والتجديف عليه ؛ وعندما فزع بعضهم إِلى الضواحي والأماكن النائية، التماساً للأَمان، أَمعن في مطاردتهم، وانتشرت شهرة اضطهاده وبطشه، في فلسطين والسامرة، لا بل امتدّت حتّى مدن سوريّة القصيّة.

صحيح أَنّ مراقبة شاول لموت استفانس كان قد أَحدث شرخاً في يقينه، وكان بداية زعزعة في كيانه ؛ ولطالما طارده طيف شهيد المسيحيّة الأَوّل ذاك، وهو مقبل على الشهادة مشرقاً يشعّ منه نور لا عهد للأَرض بمثله، وقد طافت على شفتيه بسمة سماويّة، ثمّ تجرّع سكرات الموت الشنيع، وهو يلتمس الصفح لقاتليه، ولكأنّه كان يخصّ به شاول شخصيّاً.

أَجل، فلقد سكب الشهيد، وهو يلفظ أَنفاسه، في عيني شاول، نظرة نافذة كالسهم، خلت من كلّ نقمة أو غضبٍ أو توسّل، وسالت بكلّ ما في الدنيا من فيض رأفة، ورقّة، ومحبّة.

هذا المشهد الذي ما انفكّ يطارد خياله، كان شاول يطرده بعنف، لثـقته بأَنّ اضطهاده لأَتباع الناصريّ ولطريقتهم الملعونة مهمّة مقدّسة أَلقاها على كاهله اللّه نفسه ؛ وكان يجهد في إِغراق الهواجس والتمزّقات التي يُحدثها فيه ذلك المشهد بالتوغّل في التنكيل بالمسيحيّين، وبالإِمعان في محاولة الإِجهاز عليهم، وصبّ أَشدّ نيران غيظه وافتئاته استعاراً عليهم.وكان إِيمانه بقدسيّة مهمّته يحدوه إِلى النهوض بها بكلّ عزيمة، وبلا هوادة، فهو، بالسليقة، توّاق إِلى الكمال، يمقت الرداءة، ويوظّف كلّ طاقاته في كلّ ما يفعل.

ربّما خُيِّل إِلى زعماء اليهود أَنّهم، بعد قتلهم استفانُس، قد ربحوا معركتهم على نجّار الجليل وأَتباعه، فدماء الشهيد الذي رُجم كفيلة بردع كلّ من تسوّل له نفسه انتهاج " طريقة " الناصريّ.ولكن سرعان ما تبيّنوا أَنّ ماحدث فعلاً يناقض كلّ توقّعاتهم، فرفاق استفانُس، الهلّينيّون، إِثر إِحكام طوق الاضطهاد عليهم، فزعوا من أورشليم إِلى حيث يستطيعون متابعة تبشيرهم بيسوع آمنين، فانتشروا في دمشق وأَنطاكية والإِسكندريّة وفينيقية وقبرص، ومواقع عديدة أُخرى من آسية الصغرى، فانضمّوا إِلى الجماعات المسيحيّة القائمة في بعض تلك المدن، وأَسّسوا في بعضها جماعات مسيحيّة جديدة. وعندما تبيّن شاول ذلك، عزم على مطاردتهم حيثما فرّوا، وحصل على تفويضٍ من السنهدرين بالمثول إِلى دمشق والقبض على كلّ من يدعو إِلى غير الشريعة، وكلّ مرتدٍّ عنها، وكلّ من آمن بيسوع مسيحاً وإِلهاً.ولم يدْرُ في خَلَده أَنّه سيُمسي، قريباً، لهؤلاء الذين كان يضطهدهم، الزعيم غير المنازع ؛ فيسوع كان يتربّص به عند مدخل دمشق.

الفصل الثالث : انقلاب في دمشق

زلزال على طريق دمشق

كان السنهدرين، أي مجلس القضاء اليهوديّ الأعلى، منقسم الرأي في ما يتعلّق باضطهاد أتباع الناصريّ خارج أورشليم، فبعضهم كانوا يؤثرون عدم التدخّل في شؤون الجماعات اليهوديّة، في الخارج، وينزعون إلى الأخذ بنصيحة غمالئيل الداعية إلى التحفّظ في اضطهاد أتباع يسوع.غير أنّ شاول الذي " ما كان صدره ينفث إلاّ تهديداً وتقتيلاً لتلاميذ الربّ "، والذي كانت تضطرم فيه غيرة جامحة على الشريعة، وكراهية لا محدودة لكلّ منتقصٍ من شأنها، وحقدٌ خاصّ على الناصريّ وأتباعه، نظراء استفانُس وإخوانه، أولئك " الخونة " الذين، مع سحق الرومانيّين لبلادهم وإذلالها، لا يتحرّجون من التحدّث عن الصفح ؛ أولئك " الجبناء " الذين يقدّمون خدّهم الأيسر لمن يصفعهم على الخدّ الأيمن، ويدّعون حبّ جميع الناس، حتّى الأعداء ؛ لقد بدت البدعة الكريهة، ولكأنّها متآمرة على دمار الهيكل، والإطاحة بإسرائيل.وبشنّه عليها حرباً ضروساً، أيقن شاول أنّه في طليعة منقذي الشعب المختار، ورافعي راية يهوه شامخة.

لم تكن نفسه لتهدأ حتّى يقضي قضاء مبرماً على كلّ من انزلق إلى تلك " الطريقة "، حيثما وُجد، وحتّى يذيقه الموت الزؤام، ويستأصل شأفة البدعة اللعينة بسيف الشريعة.

و ما انفكّ يناور ويسعى حتّى ظفر من فئة السنهدرين المتشدّدة بتفويضٍ يطلق يده في معاقبة كلّ مارقٍ بما تفرضه الشريعة كالضرب بالعصيّ أربعين ضربة إلاّ واحدة، والنبذ، والإبسال، لا بل إنّ شاول وممالئيه من أعضاء السنهدرين، اهتبلوا، مرّة أُخرى، غياب الوالي الروماني بيلاطس البنطي في روما حيث كان قد استُدعي بمكيدة ووشاية منهم، وكذلك غياب حاكم دمشق القائد فيتلّوس الذي كان يمالئ السلطات اليهوديّة ويداريها تحسّباً من مكائدها، فلم يعبأوا بانتهاك الحقوق العامّة، وفوّضوا شاول باقتياد زعماء الجماعات المسيحيّة، راسفين في الأغلال إلى أورشليم، كي يُرجموا فيها.وما كان عليه إلاّ أن يعمل بسرعة.

و كانت دمشق هي المحطّة الأُولى في حملة اضطهاد شاول ومفرزة الموت التي رأسها، والتي ضمّت لجنة تحقيق مصغّرة ونحو ثلاثين من المسلّحين المتحفّزين للبطش.ولا بدْعَ إن اختيرت دمشق لتلك المهمّة الرائدة، فهي تؤوي واحدة من أكبر الجاليات اليهوديّة في العالم، يناهز عدد أعضائها خمسين ألفاً، وكان يخشى عليها من وباء المسيحيّة.

من الباب المدعوّ "باب دمشق" غادر شاول أورشليم، بموكبه اللجب، وهو يزهو بما انتهى إِليه، إِذ جعل السنهدرين يعنو لرغبته، وينحاز إِلى رأيه، ويجعل منه سفيره، ويد الشعب اليهوديّ الضاربة.

بيد أَنّ بركاناً كان يجيش في صدره، تختلط فيه حمم مشاعر متضاربة ؛ فتعصّبه الدينيّ الجامح، وقناعته باحتكار الحقيقة، وطبعه الحادّ، كانت تفعم قلبه شراسة وعنفاً، وتزيده في عقيدته تصلّباً، وفي التعبير عنها صَلَفاً.ولكن، وإِن تغلّبت مشاعر الفخر، والتحفّز، ومشاعر الحقد التي تقطر سمّاً، غير أَنّ مشاعر مناقضة كانت تطغو بين فينة وفينة.

فليلة مصرع استفانُس لم يعرف الكرى إِلى جفنيه سبيلاً، ولم يستطع أَن يدرأ عن مخيّلته صورة الحجارة المنهالة على ضحيّة عزلاء، والتي كان جسد شاول يرتجف على إِيقاع ضرباتها المتلاحقة ؛ وقد تصادمت في رأسه بعنف أَقوال الشهيد الجريئة ومشهد تجرّعه سكرات الموت في كرامة وشموخ، وتحدٍّ، فلم يتأوّه، ولم يتوسّل، ولم يحاول أَن يردّ عن جبينه قذيفة، بل نهض مشرقاً فرحاً، متطلّعاً إِلى أَمل أَخّاذ، ولكأنّه مبتهج بالأَلم، مرحّب بحياةٍ فضلى.وقد ظلّ استشهاد استفانُس لغزاً يؤرّقه ويطارده.

و قد تعذّر عليه إِدراك كيف استطاع من كان، نظيره، يهوديّاً وخادماً للشريعة، إِعلان أَنّ المسيح المنتظر هو هو ذاك الذي صُلب كالمجرمين، وحلّت عليه لعنة الشريعة.

و لطالما استمع أَيضاً إِلى اعترافات المسيحيّين الذين اضطهدهم، وأَنصت، حائراً إِلى رواياتهم عن معلّمهم يسوع، الذي اتّسمت دعوته بالرحمة والمحبّة، والتسامي ؛ ولطالما أَعمل الفكر في تعليمه، ولكنّه كان سرعان ما يُشيح بفكره عن التردّي في هوّة تلك الترّهات، منصرفاً عن رحمة اللّه السامية إِلى أَتون الحقد، مكتفياً بالبغض مشيراً أَوّلَ وأَخيراً.فلو انتشر مذهب الناصريّ، مذهب الحبّ والوداعة والغفران، والتجرّد عن خيرات العالم، أَلن يؤدّي ذلك إِلى غمر البسيطة بالفوضى والفقر ؟

بيد أَنّه لم يكن يستطيع منع نفسه من الدهشة حيال المسيحيّين الذين يقبض عليهم ويسوقهم إِلى حتفهم بعد إِذاقتهم من العذاب غُصَصاً، ومع ذلك كانت تشعّ منهم رقّة عذبة، وفرحٌ داخليّ عميق الغور، وإِيمان بحياة أُخرى فائقة، واتّحاد مذهل لا يتزعزع بالمصلوب الذي تغلّب على الموت، وتواصل وثيق مع من وطّد في نفوسهم اليقين بأَنّ الموت هو سبيلهم إِلى الحياة الخالدة السعيدة. كان يستشفّ فيهم نوراً آتياً من عالم آخر، يفوق كلّ نور سواه، لم تستطع الشريعة أَن تريه، يوماً، ولو ومضة منه.وكان ذلك يؤرّقه.

و ما كاد الموكب يتخطّى أَسوار أورشليم حتّى انتحى عنه قائده معرّجاً على موقع الرجم، فتملّى لحظاتٍ، من آثار النجيع على أَكوام الحجارة، ثمّ لوى رأس فرسه، ونخس

خاصرتها بالمهاميز، جاهداً في طرد هواجسه، مستعجلاً اللحاق بصحبه، داعياً إيّاهم إلى غذّ السير، فمهمّتهم الخطيرة لا تحتمل أيّ تلكّؤ.

و لدى مرور الموكب بالسامرة، موطن الكفرة، لم يستطع شاول أن يقصي عن ذاكرته مثل السامريّ الذي أقام منه يسوع مثالاً أسمى لمحبّة القريب، وانتفضت نفسه عندما تذكّر تلك المرأة السامريّة الغارقة في الخزي، والتي استماح الناصريّ لنفسه البوح لها بهويّته المزعومة، وتنبّأ لها بزوال الهيكل بإعلانه أنّ عبادة اللّه ستصبح، بعد اليوم، جائزة في أيّ مكان، على أن تكون عبادة روح وصدق.لقد كان الصّلب قليلاً عليه ذلك الكافر، ولا بدّ من اجتثاث كلّ أثر خلّفه.

و عاد يدعو رفاقه إلى غذّ السير، وهو يتلمّظ غيظه، ويجترّ حنقه.كان يخشى الصمت الذي يغزو نفسه بالهواجس، ومع ذلك يلتمس العزلة ؛ وعندما يهبط الظلام، ويرتاح رفاقه من عناء النهار، متمتّعين بهدأة الليل الصيفيّ الساحر، ولألاء نجومه وهمسها السرّيّ، وبنداوته المنعشة التي تذيب التعب الذي خزّنه الهجير والمسير في الأجساد المنهكة، لم يكن شاول يلحظ أيّاً من مجالي السحر والطراوة تلك، إذ كان ضميره مسرحاً لصراع لا رحمة فيه، بين مقتضيات الشريعة الصارمة، والتزام الفرّيسيّ العنيد، وزهو التفرّد بمهمّة جليلة، ونزعة معلّمه غمالئيل المتسامحة، وصوفيّة استفانس المدهشة، وتعاليم يسوع الغريبة المحيّرة.كلّ ذلك كان يتصارع في ذهنه المحموم، ويختلط، ويتعارض، فيبدو له أحياناً أن ملزمة من نار تكاد تسحق صدغيه.كلّ همّه، آنذاك، كان ينحصر في مقاومة كلّ وهنٍ حيال بدعة الناصريّ، وكلّ شفقة بأتباعه.

ثمانية أيّام، واصلت مفرزة الموت سيرها الحثيث فوق الحصباء والرغام، تحت سماءٍ صافية الزرقة، وشمس من هجير.وكانت تلهب نفس شاول ناران : نار اندفاع تلهب مشاعره، ونار القيظ الهابطة من علُ، والتي كانت تجعل كلّ خطوة من خطواته محنة لاهبة. وكلّما دنا من الواحة الدمشقيّة كانت نيران نفسه تزداد اضطراماً، ويزداد كلّ كيانه توتُّراً، وتحرُّقاً إلى بلوغ هدفه، ونقع لظى غيظه.

كان قد أعدّ خطّة شديدة الإحكام، تتيح له الإفادة من كلّ ثانيةٍ من إقامته القصيرة في الحاضرة الأراميّة الأُسطوريّة، حاصراً كلّ جهده في الهدف الذي كان يفعمه اندفاعاً، وتوقاً إلى الفراغ منه.كانت أجهزة دفاعه غافية، غير أنّ أجهزة هجومه كانت في أقصى حالات التأهّب والتحفّز.ولكن غاب عن المطارِد أنّه كان مطارَداً، وأنّ الربّ الذي كان يتوهّم أنّه يعمل في خدمته، هو الذي كان يتعقّبه، ويترقّب اللحظة الملائمة لكي يلقي عليه قبضته.

بعد أَن اجتاز شاول وصحبه السامرة وأَريحا وسهل الأُردنّ، وطبريّا، وكفرناحوم، تسنّموا هضبة الجولان، وغذّوا السير شطر دمشق، وقد انتصب حرمون على يسارهم أَبيّاً، شامخاً بقمّته البيضاء، في حين كانت شمس تمّوز تصبّ عليهم هجيراً كالرصاص.

و أَخيراً لاح لأَبصارهم حزام الغوطة الأَخضر الداكن المحيق بدمشق، وانبسط أَمامهم السهل الممراع يمور بالخضرة، والأَشجار المثقلة بالثمار الشهيّة، وتوسوس بين بساتينه سواقي بردى المنعشة، وبدت المدينة غافية تحت وطأة هجير الظهيرة، ملتحفة بنور أَبيض شفّاف.لقد شارفوا على بلوغ هدفهم، وإِذ كانوا يهمّون بالانقضاض عليه حدَث غيرُ المتوقّع، الذي غيّر مصيرشاول ومصير العالم، إِذ تعرَّض المهاجِم لهجوم خاطف وضربة قاضية حسمت معركته قبل بدئها.

لقد شُبِّهت حملة شاول على مسيحيّي دمشق برحلة الباخرة " تيتانيك " الجبّارة، رحلتها الأُولى والأَخيرة.كانت تتحدّى الطبيعة كلّها، وحطّمها، في لحظات، جبل جليد تائه في المحيط.وبولس المزدهي بالسلطات الممنوحة له، الواثق بنفسه ثقة لا تتزعزع، الذي احتاط لكلّ شيء، إِلاّ لغير المتوقّع، تحطّم أَمام حاجز نور، عندما أَمسى هدفه بمنال يمينه.

" بغتةً " بهر ناظريه نور ساطع، يفوق لمعان الشمس، لفّه، هو، وصحبه، فارتموا أَرضاً وسط قعقعة أَسلحتهم، وفرّت خيولهم مرعوبة." بغتةً " تتفجّر أَحداث التاريخ الكبرى، و"بغتةً" يتدخّل الربّ عندما يحين موعد الخلاص : و" بغتةً " انقضّ نور يسوع على شاول، فيما كان شاول يتحفّز للانقضاض على قدّيسيه في دمشق.وكان الانقضاض من العنف بحيث انحفرت ذكراه في ثنايا كيانه، بأدقّ التفاصيل التي طالما رواها، بعد سنوات، وهو ما انفكّ يلهث تأثُّراً ورهبة.

حدَثَ ذلك وقت الظهيرة، والشمس في أَوج مجدِ إِشعاعها ؛ ووسط هذا النور الساطع تألّقت الحقيقة على مسيرة شاول الروحيّة.وفي حين كان يظنّ أَنّ شعبه ينفرد بامتلاك الحقيقة، أُشرع أَمامه منعطفٌ يقوده نحو النور الحقّ الذي كان شعبه يقاومه بشراسة.

ذلك النور الباهر كان قادماً " من السماء "، والمبادر إِلى الانقضاض عليه كان الربّ عينه، الكلّيّ القدرة.ولا بدْعَ إِن هو هوى أَرضاً، فقد اختلّ توازنه، وانهارت القوى التي كانت تدفعه وتحدوه، والقناعات المنيعة التي كان يتكئ عليها، وتلاشت في تراب الطريق، وأَفلت قياد ذاته من يده، وتهاوى كلّ كيانه فما عاد يعلم من أَمر نفسه شيئاً.

طالما ظلّ المرء يمتطي قناعاته الذاتيّة، ويقبض بحرص على مقاليد مصيره، فهو عاجز عن ولوج محراب العلاقة الحميمة مع خالقه ؛ ولا بدّ له من التزام موقع الخليقة كي

يجد إلى مخاطبته سبيلاً.واللّه لم يخاطب شاول إلاّ بعد أن عضّ الرغام وارتمى على ركبتيه، في وضع مذلّةٍ ومهانة، وسلّم ببطلان الشريعة التي طالما تسلّح بها وزها بها صَلَفاً.

توقّع شاول حكماً قاسياً، واحداً من الأحكام المميتة التي تفرضها الشريعة على مخالفيها، ولكنّ قاهره كلّمه بنبرة عتاب تقطر رقّةً وصفحاً، نبرة قاطعة كالسيف، عذبة كالنجوى، وفي مثل همسٍ قال له بلغة أجداده :

– " شاول، شاول، لمَ تضطهدني ؟ إنّه لصعبٌ عليك أن ترفس المناخس !.. .

و في أغوار نفسه سمع شاولُ يسوع يناجيه: "لقد بتَّ في قبضتي، ولن تقوى، بعدُ، على المقاومة.لقد وضعتُ يدي عليك، ولن تفلت، بعدُ، منّي.إنّني أشدّ منك منعةً، وأسرع منك جرياً، وقد حاصرتك، فخير لك أن تنزع سلاحك، وتستسلم لي.لقد ركضتَ كثيراً، ونكّلتَ بإخوتي، ولكنّني ألقيتُ القبض عليك وهزمتُك، وها إنّي أدفعك في ميدان سبقٍ جديد، فقد اخترتك، وأنت في أحشاء أُمّك، كي تقود شعبي، وتشعّ على أُمم الأرض نوراً."

مثلما كان النور الساطع قد ذهب ببصره، قوّض ردّ محدّثه كلّ عالمه الفكريّ، وكلّ رؤيته للعالم.قبل لحظات كان موقناً بأنّه يفعل الصواب، ويقوم بما يُرضي اللّه، وإذا بيقينه سراب وهباء، وإذا بيسوع الذي صبّ عليه، حتّئذٍ، كلّ حَنَقه، بات يحتلّ، بغتةً، قمّة كلّ شيء، ومن كان يعدّه ألدّ أعدائه ينتصب أمامه بكلّ قدرته.إنّه ليس " سيّداً " فحسب، بل هو السيّد المطلق.لقد اتّضحت له جسامة ضلاله عندما كان يضطهده في أتباعه، ومادت به الدنيا.وما العمى الذي غشى بصره سوى رمزٍ للعمى الذي كان يغشى بصيرته، وهو يحارب الربّ يسوع زاعماً أنه يخدم اللّه.

لقد كان استفانس، إذن، مصيباً : فيسوع ما ظلّ حيّاً، وهو إلهٌ حقّ !

كان عقله ما انفكّ يرفض ما كانت حواسّه ونفسه تكشفه له، وكان فكره ما زال يتمرّد على ما انساب إليه من يقين جديد، وفي انتفاضة كبرياء أخيرة، وقبل إلقاء سلاحه، وإسقاط دفاعاته، سأل شاول محدّثه متلعثماً :

– " من أنت، يا سيّدي ؟

و في صمت نفسه الخاشع واصل يسوع مناجاته: " أنا يسوع الذي تضطهده".

هذا الاسم الذي طالما لعنتَه، يا شاول، يسمو فوق كلّ اسم.وأمامي يجثو كلّ ما في السماء وعلى الأرض.أنا الذي، لأنّه صُلب، عُدّ ملعوناً، إنّما صرتُ لعنة لكي أحمل لعنة البشر.وأنا، المنزّه من كلّ خطيئة، صرتُ خطيئة لكي تموت الخطيئة على الصليب ؛ وبموتي على الصليب غفرتُ جميع الخطايا، حتّى خطاياك، أنت، يا شاول.أنا، يسوع، أُحبّك، وقد بذلتُ نفسي من أجلك.ولكنّني قد نهضت من الموت، وبعد الآن سأحيا، أنا فيك.إنّني وأخصّائي

واحد، نكوّن، معاً، جسداً واحداً متعدّد الوظائف، ويحدونا روح واحد.وبتنكيلك بأَخصّائي، إنّما بي شخصيّاً قد نكّلت ! "

في تلك اللحظة أَشرق على نفسه وجهٌ سماويّ، وبغتةً غشت ذلك الوجه الدماء والجروح، وانحفرت فيه أَخاديد قانية، وطبع ملامحه أَلمٌ جمّ، ولكأنّ دماء الشهداء التي سفكها شاول كانت تنثال منه، قطرةً قطرة.وتعرَّف فيه وجه معلّم استفانُس، وجه المصلوب قاهر الموت، الذي رمقه بنظرة أَبديّة، امتزج فيها الحزن والحزم بالنبل والرقّة، واقترنت فيها العذوبة بالصرامة.حينئذٍ أَدرك شاول معنى جسد يسوع السرّيّ الذي توجعه جروح جميع ذويه ؛ وأَيقن أَيضاً، بما لا يدع مجالاً للريبة، أَنّ يسوع الذي ظنّه ميتاً هو حيّ، وأَنّ الذي صُلب قد قام.بيد أَنّ ما أَخذ من نفسه كلّ مأَخذ، هو أَنّ يسوع أَحبّه بحيث بذل ذاته في سبيله. أَمام قوّة اللّه بات شاول وهناً مطلقاً، وأَمام حبّه أَعلن المضطهدُ هزيمته.أَلمٌ جمّ اخترق صدره، أَلم ولادة جديدة، أَلم الندم على عماه الماضي، وأَلم الفشل النهائيّ. وفي الآن عينه، تلاشى من نفس الصريع المطّرح أَرضاً، وجبينه في الرغام، كلّ مرارة، وغمرها دفق المعرفة والإِيمان، واخترقته قوّة سرّيّة، نافثة فيه حياة جديدة، تحاكي الربيع الذي يفيض في الغصون الجافّة نسغاً محيياً.لقد ولج عالماً جديداً، مخلّفاً وراءه برودة الشريعة وعقمها، واستسلم فكره وإِرادته ليسوع، بلا ردّة، وخضع له كلّ كيانه، وقد برهن عن ذلك الاستسلام والخضوع متمتماً :

– ما يتوجّب عليّ أَن أَفعل، يا ربّ ؟

ذلك الفرّيسيّ الغيور المتجبّر، الذي كان يدّعي معرفة كلّ شيء، ويفخر بتمييز مشيئة اللّه وباتّباعها، اعترف، أَخيراً، بجهله، وبعزمه على الانطلاق، مجدّداً، من أَوّل الشوط، منفتحاً على كلّ التساؤلات، وإِيحاءات الروح.

لقد كان النور الذي انقضّ عليه من البهاء والسطوع بحيث بهره وأَفقده البصر، وأَعماه عن كلّ ما كان يعدّه نور الحقيقة الوحيد، فاتّضح له، بغتةً، وفي لحظةٍ، بطلانه، وتراجعه أَمام النور الذي سطع على نفسه، عند مشارف دمشق.

عمى بولس كان انبهاراً حيال نورانيّة اللّه التي تعجز الطبيعة البشريّة الغارقة في الظلمة عن التصدّي لها.ففي مواجهة اللّه النور، لا مفرّ للإِنسان من الاعتراف بالظلمة التي تغشى نفسه.ورؤية بولس لنور مجد يسوع جعلته يدرك مدى الظلمة التي كان غارقاً فيها ؛ وبإِظهاره نوره له، قاده الربّ إِلى الانعتاق من ظلماته، وإِلى معرفة ذاته على نحو ما يراها اللّه.

تجربة روحيّة خاطفة، غير متوقّعة، ولكنّها صاعقة وحاسمة.نور سماويّ أَشرق، وكلمات قليلة حفرت أَعماق القلب، وزلزت الكيان.اختبار صوفيّ أَخّاذ، لم يغب معه الإِحساس، كان، لشاول، فجر ميلاد جديد.

و قد تمّ كلّ ذلك " لأَنّ الإِله الذي قال : " يُشرق من الظلمة نور "، هو الذي أَشرق في قلوبنا، لكي تسطع فيها معرفة مجد اللّه المتألّق في وجه المسيح " (2 كورنثس 4 :6)

كانت الصدمة ممعنة في الشدّة، وآثر الربّ ألاّ يرهق كاهل شاول في الحال، بوقر ما سيكلّفه به، وبالإفصاح له عن كامل مسيرته المقبلة، دفعة واحدة، بل قاده برفق وتؤدة، مفسحاً للوقت والصلاة والتأمّل إنضاح تجربته وتعميقها، فقال له :

– " إنهض، وامضِ إلى دمشق، حيث ستُنبأ بما سيتعيّن عليك فعله

عليه إذن، مواصلة مسيرته إلى دمشق، إلى الهدف الذي كان يسعى إليه، ولكن بمهمّة جديدة، وبدوافع بديلة.عليه أن يدخل المدينة عينها، ولكن بموقف مغاير لما كان يمليه عليه قلبه سابقاً.

ذاك الذي جندله النور على قارعة الطريق كان مغلوباً، ولكن راضياً بهزيمته، مستسلماً طائعاً لمن قهره. ولمّا فتح عينيه، لم يرَ شيئاً.رجاله، أيضاً، كان قد صعقهم النور الساطع، وسمعوا حواراً مبهماً بين قائدهم وصوتٍ لم يتبيّنوا مصدره.وعندما صمت كلّ شيء، وانقضت فترة الذهول، خفّوا لنجدته، فإذ به يحرّك يديه في الهواء، وعيناه شاخصتان ولا تبصران شيئاً ؛ فاضطربوا وحاروا، واستغلق عليهم فهم ما كان يحدث، وعقلت الدهشة ألسنتهم ؛ أمّا هو فقد فهم، وإلى الأبد، وطلب منهم أن يقتادوه إلى دمشق.

ذاك المتجبّر بات عاجزاً، وذاك الذي كانت ثقته بنفسه تفعمه غروراً أمسى بحاجة إلى يدٍ مرتجفة تمسكه بيده، وذاك القائد الذي كان يرشد القافلة في متاهات الصحراء، وكان وقع قدميه يزرع الرعب في القلوب، بات يحتاج إلى من يقود خطاه ؛ وذاك الذي كان يدّعي امتلاك كلّ أنوار المعرفة، فقد بوصلة مصيره

و تلمّس، في ثنايا صدره، رقّ التفويض الذي زوّده به السنهدرين، وجاء متسلّحاً به، قويّاً، صلِفاً، يجترّ مشاريع التنكيل بمن أغواهم تعليم يسوع، في دمشق، وإذ به، عند أسوار دمشق، رجلٌ محطّم، واهن.

و اقتاده رفاقه، متعثّراً، إلى دمشق.

كانت دمشق أكثر مدن الشرق القديم تألّقاً، واحة غنّاء، زهرة من أزاهير الفردوس في قلب صحراء مميتة، جنّة مخضلّة انتُزعت من قلب الرمال والصخور ؛ كتلة خضرة وطراوة وجمال تسدّ الأفق، توسوس في أحيائها الينابيع والسواقي، ناشرة الطراوة والهناءة، راوية، في كلّ مكان، أشجاراً تحمل أشهى الثمار، وأزهى الأزاهير.كانت "عين الصحراء"، كما وصفها الإمبراطور يوليانُس، و" درّة الشرق " التي تغنّى بها الشعراء الذين رأوا فيها " ماسة مرصّعة بالزمرّد " و" ملكة المدن السوريّة ".

و بفضل موقعها الذي جعل منها مدينة تجاريّة نشيطة وغنيّة، غدت دمشق مسرحاً لتصارُع المصالح الإقليميّة.فهي ملتقى طرق الشرق والغرب، ومحطّة للقوافل الميمّمة شطر مصر، وبلاد ما بين النهرين، وفارس، محمّلة بالفراء والحرير، والملح، والمعادن الثمينة.ويُعتقَد أنّ إبراهيم، أبا المؤمنين، حطّ فيها الرحال، في أثناء هجرته.وقد أضحى ذلك المركز التجاريّ الخطير الشأن موضع نزاع مستحكم بين سلالة الهيرودسيّين، شركاء الرومان، والنبطيّين العرب، الذين اتّخذوا من بترا عاصمة لهم، وجهدوا في احتكار مجمل حركة القوافل بين البلاد العربيّة والشاطئ السوريّ، وقد احتلّوا الجنوب السوريّ، وما انفكّوا يشنّون غزوات على واحة دمشق.ويوم جاء شاول دمشق، كان الملك الحارث، ملك بترا، يقوم على حمايتها.

سكّان دمشق، آنذاك، كانوا خليطاً من أجناس مختلفة، وكانت الجالية اليهوديّة فيها من أكبر الجاليات، تضمّ تجّاراً ميسورين وصنَعة ماهرين؛ وكان ثمّة، أيضاً، جماعة مسيحيّة صغيرة، انضمّ إليها هلّينيّون من رفاق الشهيد استفانوس، إثر الاضطهاد الشرس الذي استهدفهم، وانطلقوا يبشّرون بيسوع الذي صُلِب وقام، واجتذبوا إلى الإيمان به أعداداً كانت، بلا ريب، من الجسامة بحيث أثارت قلق السنهدرين في أورشليم، فأوفد إليها شاول، كي يقطع دابر ملّة الناصريّ، ويحول دون انتشارها.

و مذ صعق نور يسوع شاول، عند مشارف دمشق، بات لدمشق وجه آخر، إذ أضحت رمزاً صوفيّاً، وكناية عن واحة النفس ومكان التحوّل والتجدّد الروحيَّيْن؛ فمن عثر على " طريق دمشق " هو من اهتدى إلى الحقيقة بعد تعثُّر وتيه، فاتّخذت حياته منحى جديداً. والذين عاشوا اختبار " طريق دمشق " يتميّزون بقوّةٍ لا تُقاوم، تدفعهم إلى التماس أهداف جديدة، ممّا يثير دهشة أصحابهم، وقد يدهشهم، هم أنفسهم، أحياناً.

"طريق دمشق"، نورٌ ساطع يجلو الحقيقة، وعصا سحريّة تلمّ شتاتها الذي كان مبعثراً؛ فيلقى كلّ سؤال جوابه، وتمسي الريب والصراعات الفكريّة جزءاً من ماضٍ مندثر أليم، غارقٍ في جهلٍ مخزٍ، في عالم لا لون له ولا طعم، ويسود سلامٌ ساجٍ لا تعكّره سوى نوبات خوفٍ من فقدان الإيمان الجديد.

و يظلّ رمز " طريق دمشق " شاول، مضطهد أتباع يسوع الذي تحوّل إلى بولس، وغدا داعية ليسوع ورسولاً له في العالم أجمع، ذاك الذي انشقّ عن الفريق الذي كان يعمل لحسابه إلى الفريق الخصم، لا طمعاً، ولا رهبةً، ولا خضوعاً لضغوط، بل بفعل نعمة اللّه التي قلبت كيانه، وجعلت منه الناطق باسم الإيمان الجديد الذي أشرق نوره على نفسه وغمرها.

هذا التحوّل لم يتمّ في أَثناء ظهور ليليّ، أو بفضل انقشاع حجبٍ قاتمة انحسرت بغتةً، بل حدث في رائعة النهار، في وضَح الشمس الهاصرة، على قارعة الطريق , وشاهد الدمشقيّون ضحيّة " ضربة " النور هذه، فكان لا بدّ لهم من التصديق بأَنّ المضطهِد بات، بغتةً، رسول سلام، والمفوَّض بالقتل أَمسى داعيةً إِلى الحبّ، والفرّيسيّ الملتزم بالشريعة انقلب مبشّراً بالإِنجيل.

اجتاز شاول وصحبه باب دمشق الشرقيّ الضخم الذي يحرسه برج مهيب، ويعلوه قوس رائع النسق، فإِذا بهم في شارع عريض يخترق المدينة من شرقها إِلى غربها، على امتداد نحو أَلفي متر، وبعرض نحو ثلاثين متراً، وقد انتشرت على جنباته الأَروقة ذات الأَعمدة والتيجان الكورنثيّة، وقد توازى على جانبيه رصيفان يعلوان أَرضاً مبلّطة.ذاك كان "الطريق المستقيم "، الذي بات يُدعى اليوم " السوق الطويل "، وقد غزت جانبيه الحوانيت، ولم يبقَ من ضخامته القديمة سوى آثار قليلة تشهد عليها.

في أَصيل ذلك النهار الصيفيّ كان يغمر دمشق فيءٌ نديّ منعش، ويفوح من حدائق منازلها شذى الورد والفلّ والياسمين النفّاذ، الذي يُنشي الأَجواء، ويشرح الصدور.ولكنّ ذلك السحر لم يهزّ من نفس شاول وتَراً، فقد كان العالم من حوله غارقاً في عتمةٍ تامّة، ويلفّ ذهنه نور مبهم لا يميّز، في داخله، أَيّ معلمٍ واضح، وكلمات الصوت السرّي ما انفكّت تقرع باب نفسه، فيعيد الإِنصات إِليها، كرَّة إِثر كرّة، ويستغرق في تأمّلها.

كان السنهدرين قد أَنفذ إِلى رجلٍ يهوديّ، يدعى يهوذا، ويمتلك في دمشق خاناً يُعدّ من أَفخر الفنادق، تعليمات بحسن وفادة سفيره شاول وصحبه، فغالى في تكريمهم، وخصّهم بأَفضل حُجَره، وبأَنفس ما لديه من طعام وشراب.بيد أَنّ شاول انتحى زاويةً، شارداً، صامتاً، عازفاً عن كلّ مأكل ومشرب، وحديث، أسيراً بين يدي ذاك الذي صرعه، وعيناه اللتان فقدتا النور مشرعتان على ليل المعجزة.ومثلما رقد يسوع في القبر ثلاثة أَيّام، قبل أَن ينهض إِلى حياة جديدة، دفن شاول ذاته في موتٍ صوفيّ، وسحابة ثلاثة أَيّام بلياليها، ظلّ منقطعاً، انقطاعاً كاملاً، عن العالم الخارجيّ، منهمكاً في إِزاحة حطام معتقداته القديمة التي انهارت عند باب دمشق، وسط عواصف داخليّة مزمجرة، وتيهٍ نفسيّ يتعذّر وصفه.ولم يكن لديه قِبَل على مواجهة الليل الدامس والنور المبهم سوى الصلاة ؛ كان ما يزال يدعو إِله آبائه يهوه، ولكنّه شرع يصلّي، أَيضاً، ليسوع، خصمه في الأَمس الذي قاومه بكلّ ضراوة، وبكلّ عناده الشرس، والذي أَثبت له أَنّه كسر لعنة الصليب، وحطّم مخالب الموت، وأَنّه حيّ، بل أَنّه الصخرة الصلدة التي تتحطّم عليها جميع قوى الضلال، والذي استحوذ على كلّ كيانه.

و شاع في دمشق أَمر عمى سفير السنهدرين الذي رأى فيه المسيحيّون عقاباً سماويّاً، في حين هرع زعماء مجمع اليهود للاطمئنان عليه.غير أَنّ صاحب الخان كان يردّهم مؤكّداً: "إِنّه لا يأكل ولا يشرب، ولا يكلّم أَحداً، بل هو عاكف على الصلاة، مستغرق فيها".

ذاك الذي طالما كان الآمر الناهي كان الصوتُ قد قال له أَنّه سيُنبأ، في دمشق، بما سيتعيّن عليه عمله، ولكن من ذا الذي سيخبره، أَ إِنسان أَم ملاك، أم روح ؟ وكان قابعاً، ينتظر إِشارة الربّ مثلما انتظر التلاميذ حلول الروح القدس. " إِنّ النعمة لا تحلّ إلاّ في ساعتها، وانتظارها، في صبر، فضيلة ليست دائماً سهلة الممارسة". ولا ريب أَنّ هذا الترقّب قد حطّم ما تبقّى من كبرياء شاول، وحرّره من شوائبه، كي يبرز جوهر "الإِناء المصطفى".

في دمشق كان رجل ورع، طيّب، حكيم، ناصع الطويّة والسلوك، يتمتّع باحترام الجميع، يُدعى حنانيا، وقد أَشرق على نفسه إِيمان يسوع، فبات من زعماء مسيحيّي المدينة، ولا ريب أَنّ اسمه كان يتصدّر ثبت الذين اعتزم شاول القبض عليهم.وكان قد نما إِليه وصول مضطهد المسيحيّين إِلى دمشق، فتوجّس شرّاً.ولكنّ الربّ تراءى له وقال له: "قم انطلق إِلى الزقاق الذي يُقال له الزقاق المستقيم، والتمسْ، في بيت يهوذا، رجلاً من طرسوس اسمه شاول.فهو هناك يصلّي، وقد رأى في رؤيا رجلاً اسمه حنانيا يدخل ويضع عليه يديه ليبصر ". كان من شأن قول الربّ أَنّ شاول قابع يصلّي تسريب الطمأنينة إِلى قلب حنانيا، فرجلٌ يصلّي ليس بخطير، غير أَنّ القلق لم يزايل نفس حنانيا تماماً، فأجاب: "يا ربّ، إِنّي قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل، وكم أَساء إِلى قدّيسيك في أورشليم، وهنا له سلطان من رؤساء الكهنة أَن يوثق كلّ الذين يدعون باسمك " فقال له الربّ: "انطلق، إِنّه لي إِناء مختار يحمل اسمي أَمام الأمم والملوك وبني إِسرائيل.وسأريه كم ينبغي أَن يتألّم من أَجل اسمي".

و هبّ حنانيا، وهو لم يتحرّر، بعد، من كلّ مخاوفه، وفي نزل يهوذا شاهد مضطهد المسيحيّين مرميّاً على حصيرة، مستغرقاً في أَفكاره.وتنفيذاً لأوامر الربّ، وضع يداً حانية على رأسه قائلاً : " يا شاول، أخي، إِنّ الربّ يسوع الذي تراءى لك في الطريق التي جئت منها، قد أَرسلني إِليك لكي تبصر وتمتلئ من الروح القدس".

و ارتعش شاول عندما سمع، للمرّة الأُولى، أَحد أَتباع يسوع يناديه : " يا أَخي "، وعصفت الحيرة بنفسه ومزّقتها التساؤلات.أَيطلب منه، إِذن، أَن يتنكّر لكلّ ما آمن به، واندفع في سبيل خدمته ؟ ثمّ كيف له أَن يؤمن أَنّ الصليب هو أَداة خلاص، لا أَداة عذاب ولعنة، وأَنّه عنوان مجد وفخار، لا مرادفٌ للعار، وشجرة حياة، لا عمود موت ؟ ولمَ اختير هو، بالذات، هو الملطّخ اليدين بدم أَتباع يسوع، لكي يكون داعية ليسوع ؟ ولكنْ، وهو في دوّامة تردّده،

وحمّى تساؤلاته، تراءى له، ثانية، وجه يسوع الذي صرعه، على الطريق، فتجلّد وسأل، متلعثماً :

– من أنت ؟

– أنا حنانيا الأورشليميّ، وقد أَمرني الربّ بالشخوص إِليك بلا تلكّؤ.إنّي أومن حقّاً أَنّ يسوع هو ابن اللّه، والمسيح المنتظر، فهل تؤمن، أَنت أَيضاً ؟

– أومن بكلّ نفسي، ولكنّني لا أستأهل أَن تدعوني أَخاً.

– جميع البشر إِخوة، يا شاول، وأَنت الذي اجتذبه المسيح، غالٍ على قلبي، على نحوٍ خاصّ.

ثمّ لمس حنانيا، بيده الخشنة، جفني شاول، هاتفاً :

– باسم يسوع المصلوب، استعِد الرؤية.

و في الحال وقع من عيني شاول شيء كأنّه قشور، وأَبصر النور ثانية.وبكى شكراً، ذاك الذي كان يُشيع الرعب والهول، وجلس كالطفل عند قدمي حنانيا، الذي كان مزمعاً على تقييده بالسلاسل وجرّه إِلى محكمة السنهدرين، ومنه تلقّى درسه الأَوّل في التعليم المسيحيّ.

استعاد بولس بصرهُ، فاذا به يمتلك نظرة جديدة إِلى اللّه، والمسيح، وذاته والآخرين، والحياة والموت، وإِذا بمصيره يندفع في منحىً جديد، وكلّ معاييره تتبدّل.

فيما بعد كتب بولس، ولكأنّه يصف تلك اللحظة : " أَين الحكيم ؟ أَين عالِم الشريعة ؟ وأَين المماحك في هذه الدنيا ؟ أَلم يجعل اللّه حكمة العالَم حماقة ؟ "

و استأنف حنانيا :

– يا أَخي شاول إِنّ إِله آبائنا قد اختارك منذ القدم لكي تعرف مشيئته، وترى المسيح، وتسمع الحقيقة التي طالما رفضتها بعناد، ولكي تشهد له أَمام البشر أَجمعين، فانهض، إِذن، واعتمد، وتطهّر من خطاياك، واستشفع باسمه.

من خلال ذلك اللقاء الرائع بين حنانيا المهدّد في شخصه وإِيمانه، ورجائه، وشاول الذي كُلّف بإِنقاذه، والذي كان يتوقّع منه شرّ الأَهوال، تحقّقت المفارقة المسيحيّة في أَسنى مجاليها : " أَحبّوا أَعداءكم، أَحسنوا إِلى من يسيء إِليكم ! " وقد لمس شاول خير دليل على تلك المحبّة، التي سيكتب لها، يوماً، أَجمل نشيد، عندما سمع درسها الأَوّل، بلسان من كان مُعَدّاً ليكون أولى ضحاياه، ومع ذلك حيّاه بقول " أَخي".

و بعد أَن نال من يسوع نفسه عماد الروح، جثا شاول على ضفّة إِحدى سواقي بردى وأَسال حنانيا، بحضور بضعة إِخوة، ماء الغفران والفداء على تلك الرقبة التي كانت، لأَيّام معدودات، قاسية صلبة.وبفضل هذا العماد مات شاول، وولد بولس، رسول المسيح، الذي غدا

دليله الوحيد، وسيّد وجوده.وإِذا بجسده المضنّى ينتعش، وإِذا بنفسه المضطربة يسكنها السلام، وينبثق فيها، كالفجر، كائن جديد.ومثلما سقطت قشور من عينيه، سقطت من نفسه كلّ أوهامه وأَحكامه السابقة التي كانت ما تزال تربطه بماضيه الفرّيسيّ، ونبتت في مكانها براعم الإِنسان الجديد، وفي أفق حياته بزغت شمس يسوع الساطعة.

من جميع أَحداث حياته المدوّية، لم يعدّ بولس أيّ حدثٍ جوهريّاً سوى لقائه يسوع على طريق دمشق، فمنه وُلدت مسيرته الرسوليّة، وخبرته الروحيّة وفكره اللاهوتيّ.هذا اللقاء أَحدث، في نفس بولس، انقلاباً كيانيّاً جوهريّاً حوّل عبد الحرف إِلى خادم الروح، وعبد الشريعة إِلى تلميذ يسوع، ومضطهد المسيحيّين إِلى مبشّر جريء بالإِنجيل.

منذ دمشق بات كلّ شيءٍ مختلفاً.نور دمشق كان نعياً لشاول وشهادة ميلاد لبولس، نهايةً لعدوّ يسوع، وانبثاقاً لأَعظم رسولٍ له، ولواحدٍ من أَشدّ عشّاقه هوى، وانقلاب ناشر الموت إِلى مبشّرٍ بحياةٍ جديدة للجميع.

هذا التحوّل كان نعمةً مجّانيّة، هبةً سنيّةً من اللّه الذي ردّ بالهداية، لا بالعقاب، على من كان يضطهده، وتدارك بحبٍّ لا محدود، من كان يمقته بكلّ ما أوتي من طاقات.

و يحقّ التساؤل أَلم تنبع هذه النعمة الجليلة من لحد استفانُس، استجابةً لدعائه من أَجل جلاّديه؟ أَلم يكن دم شهيد المسيحيّة الأَوّل هو البذار الذي أَنبت أَعظم رسول ليسوع ممّن كان أَلدّ أَعدائه؟ أَلم يكن استشهاد استفانُس، في تربة نفس شاول، خميرة إِيمان لاهب بيسوع ؟ لا جَرَم أَنّ الدنيا قد مادت تحت قدمي شاول، يوم مصرع استفانُس، عندما كان يحرس معاطف راجميه، ولكن كيف كان له أَن يتخيّل، يومها، أَنّ دم الشهيد الذكيّ سيكون بذاراً لمزيد من الشهداء، ولجموع من المسيحيّين، سيكون هو نفسه في طليعتهم، وثمناً لتحرّر المسيحيّة من اليهوديّة، وانفتاحها على العالم أَجمع ؟

قوّة سرّيّة اقتحمت نفس بولس، في دمشق، نافثة فيها حياة جديدة، ومنطلقةً بها إِلى عالمٍ أَسمى، فاستسلمت، استسلاماً كاملاً، قلعة فكره وإِرادته التي طالما قاومت اللّه.تلك اللحظات التي تراءى له فيها الناهض من الموت وكلّمه، قد وطّدت في نفسه يقيناً صامداً، لن يرقى إِليه الشكّ يوماً، ولن تقوى قدرة على زعزعته، وتأهّباً لتوظيف كلّ طاقاته في خدمة السيّد الذي استحوذ على قلبه وإِرادته.

هذا التحوّل الجذريّ الذي حقّق ما كان يبدو مستحيلاً، وضع حدّاً لتساؤلات ممضّة كانت تعتمل في أَغوار نفس شاول حول قدرة الشريعة على توفير الخلاص، وهي التي، بفرائضها التي لا تُحصى، والتي يتعذّر التقيّد بكلّ حذافيرها، باتت نيراً يُرهق، وقبراً للبراءة، ومدرجةً إِلى الخطيئة، ومدعاة للقنوط، وهي التي ابتُغي منها أَن تكون محجّة إِلى الخلاص.

هذه التساؤلات بدّدتها رؤية بولس ليسوع، وسماعه لصوته، وتغلغُلُ أَنواره في جنبات نفسه، فتهاوت سدود الأَوهام التي كانت تحجب عنه رؤية الحقيقة.عندما صعقه نور دمشق،

هوى شاول من شاهق قناعاته الفرّيسيّة التي تناثرت عند قدميه هباءً، وتحوّل بغتةً، ودفعة واحدة، من قطب الشريعة إلى قطب يسوع.

نور دمشق أَضاء له كلّ ما في المسيحيّة من جدّة، وساعده على إدراك مغزى الصليب والقيامة الذي طالما استغلق عليه، والذي أَمعن، من قبلُ، في استنكاره ومقاومته.

جوهر حدث دمشق كان ظهور يسوع لبولس، واستيلاؤه على كلّ كيانه، ممّا جعله يسعى، عمره كلّه، لامتلاك يسوع، والعيش به وفيه. بهذا الظهور، أُعطي بولس معرفة يسوع، ولقاء هذه المعرفة سعد بالتخلّي عن كلّ ما كان يعدّه مغنماً، فبات يراه عديم الشأن وباطلاً. وقبل أيّ شيءٍ آخر تخلّى عن امتيازاته اليهوديّة، ذلك الكنز الذي كان به ضنيناً، وفي سبيله اضطهد المسيحيّين، لأَنّهم كانوا يمثّلون تهديداً باستلاب هذا الكنز.

حَدَث دمشق كان استنارة بات معها بولس يرى كلّ شيء مغموراً بضوءٍ جديد. لقد انجلت له الحقيقة، دفعةً واحدة، فتبيّن أَنّ كلّ مافعله سابقاً، كان على خطأٍ مبين.

حتّئذٍ لم يكن اللّه، له، أَصل كلّ خير وحقيقة لجميع البشر، بل كان مركز خيره هو، وحقيقته هو، وواهب الكنوز التي خصّه بها دون سواه. وهذه النظرة الاستئثاريّة، كانت تفسد كلّ علاقته باللّه، الأَب، الخالق. وعندما اكتشف حقيقة اللّه، تفجّر لديه فهم جديد للإنجيل، وللنعمة، وللرحمة الإلهيّة، ولعمل اللّه ومبادراته. وأَدرك أَنّ لا فضل له في تبريره الذاتيّ، بل كلّ الفضل للنعمة التي وهبه الربّ إيّاها، لا لسبب إلاّ لأَنّه أَحبّه. لطالما ندّد يسوع بالفرّيسيّين من جرّاء عُجبهم بأَنفسهم، وبأَعمالهم الموافقة للشريعة، وادّعائهم استحقاق الخلاص بأَنفسهم، وبلوغهم قمّة الكمال، ممّا يتيح لهم ازدراء الآخرين بل اضطهادهم. وهذا ما كان عليه شاول قبل ظهور الربّ له في دمشق.

لم يجهد بولس بالأَصوام والتأمّلات والصلوات الطويلة، في سبيل اكتشاف الحقيقة، بل أُعطي هذا الاكتشاف بنعمةٍ مجّانيّة لكي يكون مثالاً للرحمة الإلهيّة، ونموذجاً لجميع من سيؤمنون بيسوع كي ينالوا الحياة الأَبديّة: "ولئن كنت قد رحمتُ، فلكي يُظهر يسوع المسيح فيّ، أَنا أَوّلاً، كلّ أَناته، مثالاً للذين سيؤمنون به، ابتغاءَ الحياة الأَبديّة" (اتيمو : 1: 16)

فظهور يسوع له بوجه الرأفة والطيبة، لا بوجه المعاقب المنتقم، رسّخ يقينه بأَنّ غضب اللّه قد تحوّل إلى حنان بفضل المصلوب، " حمل اللّه"، الذي تحدّث عنه الأَنبياء.فانقلب الصليب، الذي كان يرى فيه عثرة وعاراً، قوّة خلاص، وتجلّى له عالم جديد يحمل معاني قشيبة، و"أمسى الصليب رمزاً تتشابك فيه الأَرض والسماء ويحتلّ المسيحيّون نقطة التقائهما ". لقد تبيّن بولس أَنّ الصليب هو مكان حبّ الله الأَقصى، وتجلّي قدرته الكلّيّة.لم يكن الصليب، إذن، لعنة، بل هو معين حياة، ونعمة شاملة للبشر، وبالتالي، فمركز الثقل الذي

كانت تحتلّه الشريعة احتلّه الصليب، وقد حكمت الشريعة على ذاتها عندما حكمت على يسوع بالصلب.ومذّاك عزم بولس على ألاّ يبحث عن اللّه إلاّ في الصليب : "حكمتُ ألاّ أعرف شيئاً، فيما بينكم، إلاّ يسوع المسيح، وإيّاه مصلوباً " ؛ " إنّني مصلوب مع المسيح، ولستُ أنا من يحيا بعد، بل المسيح هو الذي يحيى فيّ ".

كان شاول قد أيّد رجم استفانُس لأنّه أعلن أنّ المسيح المنتظر هو ذاك الذي صُلب كالمجرمين، وحلّت عليه لعنة الشريعة ؛ وإذ ببولس يكتشف أنّ هذا الذي صُلِب ما زال حيّاً، ممجّداً، لا بل أنّه ابن اللّه الوحيد، وأنّه يعيش مع الآب علاقة حبّ فذّة، وأنّ اعتلان قيامة يسوع هو اعتلان الملكوت القادم الموعود، الذي انبثق فجرُه وتألّق في يسوع.

اختبار بولس هذا فاق اختبار الإثني عشر عندما ظهر لهم المعلّم، إثر قيامته.وعندها أيقن أنّ الكلمة الأخيرة ليست للموت والظلم والبغض، بل للحياة والسلام والحبّ.وقد أنفق بولس حياته كلّها جاهداً في التعبير عن روعة هذا الاكتشاف.

لقد ظهر له يسوع في جسد ابن اللّه المصلوب المنتصر على الموت لكي يقوده إلى الإيمان بأنّ يسوع هذا هو ابن اللّه الحبيب منذ الأزل، وهو، أيضاً، آدم الجديد، صورة اللّه، والجامع في شخصه حياة اللّه وحياة البشر.

من خلال هذا الظهور الخاطف عاش بولس مسيرة الربّ على الأرض، منذ عماده حتّى دفنه، مثلما عاش التلاميذ المقرَّبون، لا بل إنّه عاش تجلّيه، ولكأنّ الآب خاطبه قائلاً: "إسمع ! إسمع هذا المصلوب الماثل أمامك حيّاً : هذا هو ابني الحبيب ؛ إنّه المسيح الذي يحمل روحي وحبّي على منكبيه، لا ليحتفظ بهما لنفسه، بل لكي يُشرك بهما جميع من يرى فيهم إخوة له. فله وحده ينبغي الاستماع، وله وحده تجب الطاعة ".

لقاء بولس مع اللّه الحيّ، وجهاً لوجه، كان بمثابة لقائه ملء الحياة، وعبور من الظلمة إلى النور ؛ كان خلقاً جديداً.حضور الحيّ القائم من الموت هذا كان يحمل نوراً من العذوبة والإبهار بحيث لا يمكن أن يكون إلاّ اللّه مصدره.هذا النور الكاشف أظهر له هشاشة كلّ ما عرفه وآمن به سابقاً، وبطلان كلّ ما كان يعدّه امتيازاً، فبات يراه نفاية تثير الاشمئزاز.واتّضح له أنّ غيرته السابقة المستهدفة نيل رضى الربّ، لم تكن، في الواقع، سوى محاولة لتأكيد ذاته حيال الربّ، وأنّ القمّة التي كان يتسنّمها لم تكن سوى هوّة، وأنّ الاطمئنان الذي كان يسكن إليه لم يكن سوى هلاك، وأنّ النور الذي كان يستضيء به لم يكن سوى ظلمات.

إنّه انقلاب جعل بولس يرى كلّ شيء بلونٍ قشيب، وعلى نحو ما يرى اللّه الأشياء، لا على نحو ما يراها العالم.موازين قيَمه انقلبت : فما كان ضعيفاً ومزدرىً، وما كان يُعدّ

ملعوناً أَصبح تعبيراً عن حبّ اللّه، من خلال مغزى صليب الناهض من الموت.مذّاك ما انفكّ بولس يكتشف، كلّ يوم، وجهاً قشيباً لسرّ الصليب والقيامة.وللتعبير عن دهشته المتجدّدة باستمرار حيال هذا السرّ، استخدم عبارات من الكثافة والغنى بحيث يتعذّر استجلاء كلّ معانيها دفعة واحدة، مثل حبٍّ لا ينضب، ولا يبوح بكلّ أَسراره، ويستلزم تأمُّلاً متأنّياً لا يستسلم للاعتياد.

في دمشق كشف اللّه لبولس حقيقة ابنه يسوع، وأماط اللثام الذي كان يحول دون رؤيته مجد اللّه المتجلّي على وجهه، فأدرك أَنّ ذاك الذي كان يضطهده لم يكن، كما توهّم، ملعوناً من اللّه، بل ابن اللّه المطيع المحبوب.لم يُضطر بولس إِلى إنكار اللّه الذي آمن به دائماً، ولكنّه اكتشف، في يسوع، معنى اللّه الحقّ الذي سعى دائماً إِلى خدمته.ومن ثمّ، لم يكن حَدَث دمشق ارتداداً بقدر ما كان اكتشافاً.

لقد سطع نور دمشق على شاول، وهو ما زال معجوناً بالقناعات اليهوديّة، فحوّله رأساً على عقب، تحوّلاً جذريّاً كاملاً، فبات، بين ليلة وضحاها، كَلِفاً بما كان يمقت، وخادماً، بكلّ عنفه، لما كان يكافحه بكلّ عنفه.في لحظة واحدة صرع الربّ عدوّه، على دربٍ صحراويّ، واجتذبه لخدمته، وغمره بحبّه.وستظلّ تدمغ نفس بولس دهشته حيال محبّة يسوع التي لا تُصدَّق، بحيث ظهر له، وهو " السقط "، بل ألدّ أعدائه، وقاتِل أوليائه، واصطفاه، مذ كان جنيناً، وتعقّبه بحبّه، وبذل ذاته في سبيله.

ثمّة من ارتأى أنّ اللفظة اليونانيّة التي اصطُلح على ترجمتها " السقط "، تعني، في الواقع، من انتُزع من رحم أُمّه بعمليّة قيصريّة، إِذ كان لا بدّ من مداخلة قويّة في سبيل انتزاع شاول من رحم الشريعة اليهوديّة، وولادته على الإِيمان المسيحيّ، والدعوة ليسوع.

كان شاول، في غلواء فرّيسيّته، يمقت الصدّوقيّين، خصوم الفريسيّين، إِلاّ أَنّه كان يجد لتصرّفهم تفسيراً ؛ وكان يستنكر سلوك الأسّينيّين، ولكنّه يُغضي عنه ؛ أَمّا التسليم بمسيحٍ هزيل يُصلب صلب المجرمين، فهذا ما كان يرفضه، لأَنّه يتعارض جذريّاً مع رؤيته الجوهريّة، ومع مفهوم شعبه كلّه.فالشعب اليهوديّ الذي ورث رسالة الأَنبياء، كان العقبة الكأداء في وجه هذه الرسالة، لأَنّ زعماءه، الساهرين على الشريعة كما أوّلوها، كانوا يحجبون عنها كلّ نور كفيل بكشف مواطن ضعفها، ونأيها عن روح اللّه.ففي عهد يسوع كانت الشريعة هي المسيطرة على الأذهان والعبادة، ولكأنّ عهد الأَنبياء قد انقرض، وولّى، وحلّ محلّه عهد الكهنة، وخدّام الهيكل والشريعة.وهبّ يسوع محارباً هذه النزعة، وشعر القوم

البسطاء أنّ نبيّاً جديداً قام فيما بينهم، فهلّلوا له يوم أحد الشعانين، ولكنّ القيّمين على الشريعة هرعوا إلى خنق الإيمان الوليد في مهده، وإخماد جذوة النور قبل اضطرامها.

لقد أكّد يسوع أنّ الدين ليس زيّاً، وإيماءات، وأنماط أكلٍ وشرب، بل هو علاقة حميمة بالربّ لا تحفل بالمظاهر، غير أنّ زعماء اليهود، وشاول أحدهم، لم يفهموا إشارات يسوع إلى العالم الجديد الذي بشّر به، أو إنّهم أبوا فهمها لأنّ اليهوديّة المتغلغلة في طوايا عقولهم كانت تصوّر لهم أنّ الشريعة وحدها تؤتي الخلاص، ولو هي اقتصرت على ممارسات خارجيّة خاوية من الروح، في حين أدرك المسيحيّون من أصل وثنيّ، بيسر وتلقائيّة، أنّ المسيحيّة إيذان بمولد عهد جديد، وأنّها روح قبل كلّ شيء، فاتُّهموا بانتقاص الشريعة وامتهان الهيكل.لذلك رُجم استفانس، ولذلك كان يسوع قد صُلب : لأنّه تخطّى فريضة السبت، ونصوص الشريعة التي ترصد الظاهر وتعمى عن الباطن، ولم يتورّع عن مجالسة من يُعدّون خطأة واقتسام الطعام معهم، وأعلن هويّته لامرأة سامريّة، سيئة السمعة، وجعل من السامريّ الطيّب العطوف المثال الصحيح للمؤمن الحقّ، والسامريّون أنجاس في نظر اليهود.

لزم شاول وقت طويل كي يدرك هذا الواقع على ضوء نور دمشق، وعندما أدركه أخيراً، وصف اليهود وصفاً لاذعاً عنيفاً، فهم " الذين قتلوا الربّ يسوع، والأنبياء، واضطهدونا نحن أيضاً ؛ الذين لا يُرضون اللّه البتّة، وقد أمسوا أعداءً لجميع الناس، إذ يمنعوننا من أن نكلّم الوثنيّين لينالوا الخلاص " (1 تيسالونيكي : 15:2)

من قبلُ، كان شاول يناصب يسوع العداء، بدافع تبجيله للشريعة ؛ أمّا بولس فبات ينبذ الشريعة بسبب حبّه للمسيح، مستعيضاً عن هيمنة الشريعة بحضور يسوع الذي يملأ كلّ شيء.

و إذ تمّت استنارة شاول في غمرة اضطهاده للمسيحيّين، فلا ريب أنّ الضحايا هم الذين دفعوا جلاّدهم إلى الهداية، وأنّ الذي قهر الموت، هو ابن اللّه، حقّاً، وهو إلى جانب الضحايا، لا إلى جانب الجلاّدين.

لم يأتِ بولس إلى المسيحيّة من الوثنيّة، بل من خبرة دينيّة راسخة داخل اليهوديّة، تخيّل معها أنّه بلَغَ كمالاً لا عيب فيه، وبات واثقاً من اللّه، وواثقاً من ذاته أمام اللّه، ممّا جعل تحوّله أبلغ عمقاً، وأفضى به إلى انقلاب داخليّ وخارجيّ مزلزل، انقلاب لم يكن تحقيقه ممكناً لولا قدرات النعمة، وإبداع الربّ.

كان إيمانه زائفاً، فهداه إلى الإيمان الصحيح يسوع الذي صُلب لكي يهب الناس الحياة، ووهبه حياة جديدة، وأولاه شرف نشر هذه الحياة.

تحوّل شاول كان تمزّقاً فكريّاً حمله على إعادة النظر في كلّ معتقداته ومسلّماته السابقة، إذ تعيّن عليه الاعتراف ليس فقط بأنّ سُبُل اللّه التي يتعذّر إدراكها تمرّ عبر يسوع الجليليّ، بل بأنّ يسوع هذا هو ابن اللّه.وكم شقّ على فرّيسيّ غيور هذا الاعتراف !

إنّ الولوج في الإيمان يمرّ دائماً عبر مرحلة يعاني فيها العقل الضيق، وهو يستقبل سرّاً يتخطّى المنطق البشريّ، ولكن سُرعان ما يُثبت هذا السرّ المعتلن تماسكه الداخليّ، فيتقبّله العقل باطمئنان.وإيمان بولس قد تفجّر من اقتحام يسوع لحياته، ولن يكون تطوّره الفكريّ، بعد ذلك، سوى ثمرة حَدَث قيامة المسيح، فالمسيح حيٌّ، وهو سيّد الحياة.

على ضوء مجد يسوع وقدرته تسنّى لبولس فهم مسيرة تأ نّسه ورسالته وصليبه الذي كان يبدو له عاراً فأدرك له معنى آخر، باكتشافه أنّ يسوع الحيّ هو البارّ الذي أخذ على عاتقه خطيئة الإنسان وموته، وإزاء هذه التضحية الذاتيّة التي لا تُصدّق، بدت جميع الأضاحي والتقادم وفقاً للشريعة الموسويّة باهتة، زريّة، وغدا كلّ شيءٍ نعمة مجّانيّة، وما عاد الخلاص مرتبطاً بممارسة طقوس الشريعة وفرائضها، بل ناجماً عن الإيمان بيسوع الذي صلب وقام.وهذا الخلاص مشرع على البشريّة كلّها، وعلى الكون بأسره.

و كشفت أنوار دمشق لبولس كشفاً مذهلاً، فهذا المسيح الحيّ، ابن اللّه، ليس إلهاً بعيداً، بل هو حاضر في قلب كلّ إنسان يؤمن به، وهو ينير ذهنه.وقد خَبَر بولس هذه التجربة الوجوديّة في جسده وفي قلبه : فيسوع يعيش في أعماق كيانه، ويحبّه كما لم يحببه أحدٌ قطّ، وقد جعل منه " خليقة جديدة "، وهو سمعه يتوحّد بالمؤمنين به عندما قال له : " أنا يسوع الذي أنتَ تضطهده ".وفيما بعد، أسهب بولس في وصف هذا التواصل الحميم بين يسوع وتلاميذه الذي يجعل منهم جسداً واحداً.

و قد أيقن بولس أنّ حبّ يسوع حبٌّ يهب الحياة، وأنّه مثلما دعاه باسمه، يدعو كلّ إنسان لكي يشركه في حياته الخالدة، وفي مجده.

بفضل هذه الرؤية المسيحيّة وبفضل النعمة الجلّى التي أُسبغت عليه، بات بولس يقرأ الكتب والأنبياء قراءةً جديدة، وأيقن أنّ كلّ وعود الربّ قد تحقّقت بمجيء يسوع مخلّصاً، وأنّ النعمة الإلهيّة والإيمان بيسوع قد حلاّ محلّ الشريعة.حتّئذٍ كانت الشريعة له، ولأبناء دينه، هي كلّ شيء، فممارسة فرائضها بحذافيرها كانت تضمن لهم جميع البركات الأرضيّة والسماويّة، وهي الميزان الذي يُقاس به سلوك كلّ فرد، ويقرّر مصيره الأبديّ وفقاً لمدى التزامه بها.

لقد أضحى بولس يؤمن أنّ الشريعة وُجدت لحقبةٍ محدّدة، وأنّ هذه الحقبة انتهت، وأنّ الشريعة فقدت كلّ مبرّراتها يوم حلّ ملء الزمان، وأرسل اللّه ابنه مولوداً من امرأة، لكي يفتدي البشر أجمعين.وبات بولس، يدرك، بعمقٍ، قدرة النعمة الكلّيّة، فالخلاص لا يُكتَب

بأعمالٍ للشريعة، بل هو مجّاني حيث يترسّخ الإيمان بفداء يسوع، وهو ينبع من رحمة اللّه الواسعة، ومن نعمته التي تفيض حيث تكثر الخطيئة، رأفةً من اللّه بأبنائه.

قبل منعطف دمشق، " كان شاول مقترناً بالشريعة يعيش معها، ويحبّها، ويخدمها، ويأكل ويشرب معها، وطوال النهار يسهر على إرضاء وصاياها ورغباتها، ويسعى إلى إنجاب أبناء لنظام سيناء.ولكنّ بولس، بغية الاقتران بيسوع، طلّق الشريعة، وهجر حبّ صباه، ولمّا أدرك عجزه عن استحقاق الخلاص وعن الظفر به بنفسه، نأى عن منحدر سيناء القاسي، وانتهج درباً بكراً ".ومنذئذٍ اقتصر تبشيره على مجّانيّة الخلاص، وعلى إنجيل يسوع الوحيد، وعلى الإيمان بالنعَم النابعة من صليب يسوع وقيامته.فالربّ ليس محاسباً يجمع استحقاقات كلّ فرد وفقاً لحفظه الشريعة، ويطرح منها ما يفقده من جرّاء كلّ مخالفة لها، بل هو أبٌ يفيض حبّاً ورأفة، ويحقّق وعده للإنسان بالميراث، بعطاءٍ مجّانيّ حرّ.وهذا ما عبّر عنه في رسالته إلى الرومانيّين حيث قال : " فلمّا بُرّرنا بالإيمان حصلنا على السلام مع اللّه بربّنا يسوع المسيح، وبه، أيضاً، بلغنا، بالإيمان، إلى هذه النعمة التي فيها نحن قائمون."

هذه الرؤية الجديدة جعلت بولس يرى كلّ شيء بمنظار جديد، ويكفر بجميع رموز الشريعة مثل الختان، والتمييز، والشعب المختار، والهيكل، والأفعى النحاسيّة ؛ فالعلاقة باللّه لا تقوم على علاقات ودلالات خارجيّة، بل تتحقّق عبر الإيمان.والإيمان لا يقوم على شيء، بل على كائن ؛ إنّه علاقة شخصيّة مبنيّة على الثقة ؛ إنّه فعل يُسلم به الإنسان ذاته للّه، بصفته نبع الخلاص الوحيد.ومن ثمّ فالإيمان هو الاستجابة لدعوة القداسة، والموت عن الخطيئة، من أجل العيش للّه، في المسيح يسوع.

و هذا الإيمان مُشرَع على جميع الشعوب والأجناس، وهو وسيلة الخلاص للبشر أجمعين، بلا تمييز، وهو ملاط وحدتهم في بُنوّة اللّه الواحد: "ليس، بعدُ، يهوديّ ولا يونانيّ؛ ليس عبدٌ ولا حرّ ؛ ليس ذكر وأُنثى، لأنّكم، جميعكم، واحد في المسيح يسوع ".فشعب الخلاص بات يشمل البشريّة كلّها، والجدار الذي كان يفصل الشعوب قد انهار، وأنهض اللّه شعباً واحداً، وليس، بعدُ، أيّ شأن للّحم والدم، بل كلّ الشأن للإيمان الفاعل بالمحبّة.كلّ مؤمن هو مواطن للقدّيسين، ومن أهل بيت اللّه، وموطنه النهائيّ هو السماء.

لقد تبلورت في ذهن بولس صورة جديدة للّه، وصورة جديدة للكائن البشريّ.فاللّه يعترف بكلّ إنسان ابناً له، في معزلٍ عن خصاله وانتماءاته.واللّه يحبّ الفرد كما هو، بلا شُروط، وفي معزل عن استحقاقاته.ولا ريب أنّ تأكيد بولس هذا كان ثورة لاهوتيّة.فمن قبل، كان الإنسان يُقيّم بصفاته وأفعاله، وكانت التوراة تشطر الخليقة إلى مختارين وغير مختارين، معسكر الذين يمارسون مقتضياتها، ومعسكر الذين يخالفونها ؛ كانت تطبّق قانون الهويّة

المغلقة المقتصرة على من يحملون جنسيّة واحدة، وينتمون إِلى شعب واحد، ولهم ثروة واحدة ورأي واحد.وهذه الهويّة المغلقة مرشّحة لأَن تنقلب هويّة قاتلة : فهي تدعو إِلى إِزالة الغير لأَنّه مختلف، وتضع لتنفيذ هذا الغرض برامج تصفيات عرقيّة، ودينيّة ووطنيّة.

و أَعلن بولس بطلان هذه النظرة فاللّه لا يميّز بين خلائقه، ويحبّ الإِنسان لذاته، لا لصفاته التي قد تزول.إِنّه يعترف بكلّ فرد ويتقبّله، في معزل عن منجزاته، وانتماءاته، وموقعه الاجتماعيّ وجنسه.معياره الوحيد هو النعمة، تلك الهديّة المجّانيّة التي لا تقتضي مقابلاً، ولا مطلب لها سوى أَن يُرحَّب بها، وهذا الترحيب يُدعى إِيماناً.

قد قلب الصليب المقاييس، فصلب ابن اللّه، وقيامته، قد جعلا من الكائن البشريّ خليقة جديدة، إِذ إِنّ المسيح قد افتدانا من لعنة الشريعة، بارتضائه لعنة الصليب، من أَجلنا.كانت الشريعة تنبذ الخطأة، والذين يفتقرون إِلى المؤهّلات، ويسوع عاشر الخطأة، ولم ينبذ حتّى البغايا، وعطف على غير المؤهّلين.

و الصليب غيّر النظرة إِلى الجسد والروح، فالجسد هو الكائن البشريّ بكلّ ما يعتوِره من هشاشة، ووهن وموت.فيعمد إِلى جمع الخيرات، التماساً لوهم الخلود، أَو جمع الاستحقاقات، وفقاً للشريعة، اكتساباً لرضى الربّ.

و لكنّ بولس يؤكّد أَنّنا، نحن المسيحيّين، لا نسلك بحسب الجسد بل بحسب الروح.أَي أَنّنا متحرّرون من طغيان الجسد ؛ فالجسد يدفع المرء إِلى أَن يثبت لنفسه أَنّه قويّ ومحبوب ومحترم، محترم وفقاً للشريعة التي توحي بأَنّنا نستأهل الحبّ تبعاً لاستحقاقاتنا.ولكنّ اللّه الذي لا شروط لحبّه، يجعل من المؤمن شخصاً يعتقه الروح من هواجسه، مؤكّداً له، بلا هوادة، أَنّه ابن اللّه، حتّى وإِن لم يفعل ما يستحقّ ذلك، فلا يعود الخوف هو الممسك بدفّة حياته، وإِن ظلّ، غالباً، ضيفاً غير مرغوب فيه، ويظلّ الروح يعمل على أَن يرسّخ فينا وضع الثقة.

و قد واكب تحوّلَ بولس الفكريّ تحوّلٌ داخليّ جذريّ، كامل، غيّر كلّ مسيرته.لم يُحاكِ تحوّله تحوّل المهتدين من الإِلحاد إِلى الإِيمان، أَو تحوّل خاطئ تاب من حياة عبث وسطحيّة إِلى حياةٍ جادّة، بل كان تحوُّلاً من يسوع العدّو اللدود الذي ينبغي محو اسمه، إِلى يسوع المسيح والربّ الذي صُلب، ومجّده الآب.لقد دوّن الناهض من الموت سرّ فصحه، بأَحرف من نور، في قلب من اتّخذه رسولاً، وقلب كلّ علاقاته باللّه وبالعالم، محوّلاً شخصيّته في العمق.ولئن كان يسوع قد دمغ بسِماته، تلاميذه، خلال السنوات الثلاث التي قضاها معهم، إِلاّ أَنّ يسوع الناهض من الموت قد استولى، دفعة واحدة، على كيان بولس، وغيّر مجرى حياته ومصيره.

لقد كان حَدَث دمشق الصاعق اقتحام يسوع لسيرته الفرّيسيّة، ويسوع قد أَدان، بعنف، المتكبّرين، وقساة القلوب، والمعتدّين بذكائهم، وشاول كان كلّ ذلك ؛ أَمّا بعد الآن فقد استنار صبّوه إِلى القداسة والكمال بنور جديد، ولن تكون كلّ أَيّام حياته الباقية كافية لكي يؤدّي شهادة حبّه لذاك الذي كان حبّه قد نفذ إِلى حبّة قلبه.

قبلَ حدَث دمشق كان شاول يعلن أَنّه " في البرّ الذي يُنال بالشريعة، رجلٌ لا لوم عليه"، أَي أَنّ لا أَحد، ولا اللّه نفسه، قادر على أَن يأخذ عليه مأخذاً في ما يتعلّق بالشريعة وبالوصايا المدوّنة على لوح حجريّ بارد، ومن ثمّ فله حقّ المطالبة بالمكافأة ثواباً على ما استحقّ بأَعماله.غير أَنّ هذه الأَعمال سقطت معه، عندما ارتمى أَرضاً عند مشارف دمشق، وتناثرت هباءً، فاعتمد لمغفرة الخطايا، واعترف بأَنّه أَوّل الخاطئين، ومن شأن الخاطئ الفزع إِلى نبع النعمة استمداداً للعون، وبغية الظفر برأفة الربّ وصفحه.

لم يكن تحوّل بولس انتهاج درب آخر، واعتناق مُثُلٍ جديدة، فحسب، بل كان تبنّياً لأسلوب جديد في الإِيمان والعمل ؛ لم يكن صلاة لإِلهٍ آخر، بل أسلوباً جديداً في الصلاة ؛ لم يكن محاربة أَعداء آخرين، بل إِعادة النظر في الحرب ذاتها.وهل يمكن عيش حياة جديدة، مع الاحتفاظ بتفكير قديم ؟ وهل يستطيع العيش " في المسيح " من لم يتحرّر من ذاته؟

لقد ارتضى التضحية بكلّ امتيازاته ومكاسبه حسب الشريعة، لكي يمتلك الكنز الذي أَشرقت أَنواره عليه عند أَبواب دمشق : " إِنّ ما كان، في كلّ ذلك، من ربحٍ لي عددته خسراناً من أَجل المسيح، لا بل إِنّي أعدّ كلّ شيءٍ خسراناً، من أَجل المعرفة السامية، معرفة يسوع ربّي. من أَجله خسرت كلّ شيء، وعددت كلّ شيءٍ نفاية لكي أربح المسيح، وأَكون فيه، ولكيلا يكون برّي ذاك الذي يأتي من الشريعة، بل البرّ الذي يُنال بالإِيمان بالمسيح، أَي البرّ الذي يأتي من اللّه، ويعتمد على الإِيمان، فأعرفه وأَعرف قوّة قيامته، والمشاركة في آلامه، فأتمثّل به في موته، لعلّي أَبلغ القيامة من بين الأَموات".

ظهور دمشق أَظهر لبولس حبّ اللّه اللامحدود، واختياره له، مذ كان في بطن أُمّه، وأَكسبه خبرة فــذّة، هي اتّحاد بالمصلوب، وانفتاح على قدرته الديناميكيّة، وتخلٍّ عن الذات يدوم ويتجدّد مدى الحياة كلّها.ومن ثمّ كان تحوّل بولس اتّحاداً صوفيّاً بيسوع، وانقلاباً من عبد مطيع إِلى ابن محبوب له حقّ بالميراث.فالخادم يذعن، خائفاً، لأَوامر سيّده، ولا يرى فيه شخصاً، بل سلطة تفرض إِرادتها عنوةً واعتباطاً، وعندما يفرغ من عمله لا يجلس إِلى مائدة الأُسرة، بل يطفق يخدم من جديد.أَمّا الابن، فهو، وإِن عمل في حقلٍ، إِلى جانب عبد، يعمل بحبّ، لا خشيةً من سلطة، بل تعاطفاً وإِكراماً لأَبٍ يحبّه حقّاً، وهو يجلس إِلى مائدته، ويتمتّع بحقّ وراثته.

في دمشق، اكتشف بولس، بغتةً أنّ يسوع الناصريّ الذي كان يمقته هو حيّ، وممجّد، ومتألّق ؛ ولم يسهل عليه تصديق ذلك، ولكن، وقد غزا يسوع كيانه وفتنه، انحنى له.

ربّما كان تحوّل بولس الذهنيّ وئيداً، واقتضى تبلور أفكاره اللاهوتيّة وقتاً، غير أنّ ارتداده النفسيّ كان فوريّاً وحاسماً، مذ شعر أنّه ابن محبوب، وأنّ بوسعه أن ينادي اللّه "أباً". وقد ظلّ بولس، سحابة حياته كلّها يسبر غنى " وحي " دمشق، الذي هبط عليه هبوط حدْس صاعق، ومن هذا الحَدَث الفريد نبعت كلّ مشاريعه الرسوليّة، وكلّ أفكاره اللاهوتيّة، وما انفكّ يسبر أغوار كلّ مظهر من مظاهر هذا السرّ المسيحيّ، وفقاً للظروف المحيقة به.وقد جهد، ولقي، أحياناً، عنتاً في التعبير بألفاظ بشريّة هزيلة عمّا يستعصي على كلّ تعبير، ولا يطاله فكر.أقواله لم تنطلق، يوماً، من تفكير شخصيّ، بل كانت اعتلاناً نيّراً للمسيح الحيّ.

لقد جعلت رؤية دمشق من بولس صوفيّاً من مستوى سامٍ فريد، فباتت حتّى نصائحه الأدبيّة مستوحاة، أبداً، من صلب المسيح وقيامته، وممّا جاءا به من رجاء بلا حدود.

عالمٌ بأكمله انهار في نفس شاول، وعلى أنقاضه نهضت " خليقة جديدة " غير أنّ النعمة تكمّل الطبيعة ولا تدمّرها ؛ لا تلغي الطباع الشخصيّة، بل تسمو بها.نفس المهتدي تبقى هي ذاتها جوهريّاً، ولكنّها ترتقي إلى مستوى أسمى.وقد أبقى الربّ على كلّ العناصر السلمية في شاول : غيرته، واندفاعه، وثقافته، وقوّة حجّته، وإرادته الصلبة كالماس، لكي يجعل منها عناصر فاعلة في الإنسان الجديد، بولس.ولكن بتأثير نظرة يسوع الناهض من الموت تحوّلت قسوة شاول إلى لين، وفُكَّت عُقده، وتحرّرت مشاعره المكبوته، وانقلب تعصّبه المتزمّت الشرس محبَّةً متّقدة، ورقّة وطيبة.

و قد شاء الربّ استخدام هذه الخامات الطيّبة في خدمة رسالته.فأوكل إلى من اختاره من بطن أُمّه ليكون له رسولاً مهمّة التبشير برسالته والشهادة لقيامته ومحبّته وألوهته، وإبلاغ البشرى للعالم أجمع، وللوثنيّين خاصّة.لقد أظهر المصلوب المنتصر على الموت ذاته لبولس، وكلّفه شخصيّاً بنشر تعاليمه، ولكأنّه يقول له : "لقد كنت على ضلال، فأنرت نفسك ودربك، وها إنّي أُكلّفك بكلّ شيء، وأنتدبك رسولاً لي"، وبذلك وضعه على قدم المساواة مع تلاميذه الإثني عشر.وقد اندفع بولس إلى تأدية هذه الرسالة بكلّ ما أوتي من غيرة، وبسالة، وبذل، ومؤهّلات.

دعوة يسوع أقحمت بولس في عداد تلاميذه المختارين، وأقامته الشاهد الأخير على قيامة المصلوب، وأكسبت المسيحيّة شاهداً فذّاً، ومبشّراً منقطع النظير، ولاهوتيّاً متفوّقاً، بل مؤسّس اللاهوت المسيحيّ الذي كرّس له طاقاته الفريدة، التي مازلنا نستضيء بأنوارها حتّى اليوم.

و قد قدّر بولس، بعمق، سموّ هذا التكليف الإلهيّ، ولطالما استخدم، للدلالة عليه، كلمات الأَنبياء عندما يشيرون إِلى دعوتهم.وقد وعى بولس أَنّ هذه الدعوة وضعته على قدم المساواة مع بطرس، ويوحنّا، ويعقوب وسائر الرسل.

فيسوع قد ظهر له عند مشارف دمشق على نحو ما ظهر، عقب قيامته، لبطرس ويوحنّا وتوما ومريم المجدليّة، ودعاه باسمه، وجعل منه تلميذاً ورسولاً.ظهوره له كان مختلفاً عن ظهوره للاثني عشر ولكن لم يكن دونه شأناً.

الفرق بين الظهوريْن أَنّ ظهور يسوع لبولس، كان مباغتاً، لشخصٍ لم يعرفه في أَثناء حياته الأَرضيّة، ولم يواكبه في سهول فلسطين وتلالها، ولم يصعد معه إِلى هيكل أورشليم، ولم يقف عند أَقدام الصليب مع مريم ويوحنّا، بل اضطهده ونكّل بأَتباعه.ومع ذلك عندما حان الأَوان أَظهر له يسوع، في مثل ومضة برق، كلّ مأساة آلامه، وأَسرار حياته المبذولة لأَجل خلاص العالم.

هذا ما اعترفت له به الكنيسة، وما ظلّ، هو، يفخر به، عمره كلّه، فخراً من غير كبرياء، فهو يعترف بأَنّه رسول، ولكن من غير استئهال، بل هو أَدنى الرسل لأَنّه اضطهد، في أَيّام ضلاله، كنيسة الربّ.

صحيح أَنّ بولس قلّما جاء على ذكر أَحداث حياة يسوع الأَرضيّة، وترك أَمر تدوينها للإِنجيليّين، ولكنّه استخلص كلّ مدلولاتها وأَبعادها الخلاصيّة، ولم تقلّ شهادته في جوهرها، عن شهادتهم.

لم يكن بوسع بولس أَن يظلّ غير مبالٍ،بعد النور الصاعق الذي انقضّ عليه في دمشق؛ ولم يكفِه الإِقلاع عن اضطهاد المسيحيّين، ولا أَن ينقلب واحداً منهم، بل استولى عليه الشعور بأَنّ عليه أَن يهبّ شاهداً على مارأى، وداعيةً إِلى إِيمانه الجديد.وهو الذي كان سيفاً مسلطاً على يسوع وأَتباعه، أَصبح المدافع عنه والمتكلّم باسمه.لقد تابع جريه، ولكن في الاتّجاه المعاكس، وجعل من حياته كفاحاً موجعاً في خدمة هواه الجديد: إِعلان إِنجيل النعمة، في جميع أَرجاء المسكونة.إِنّه، بعد الآن، " خادم يسوع المسيح، دعي ليكون رسولاً، وأُفرد ليعلن بشارة اللّه ".إِدراكه لهذه الرسالة دفعه إِلى التصدّي لآلاف المهالك، وإِلى قهر جميع المصاعب، موقناً أَنّ الربّ أَولاه ثقته، وأَوكل إِليه مهمّة الرسالة، مع أَنّه ليس سوى "سِقْط"

و كيف له أَن يتوانى عن الاضطلاع بالمهمّة السنيّة : " إِن بشّرتُ فليس لي في ذلك مفخرة، لأَنّها مهمّة فُرِضت عليّ، والويل لي إِن لم أُبشّر ". (1 كور : 9 :16)

ذاك الذي، حتّئذٍ، كان قد ضلّ في كلّ شيء، كُلِّف بكلّ شيء، وأُنيطت به رسالة بلا حدود. فقد أَوصاه الربّ : " جعلتك نوراً للأُمم، لكي تحمل الخلاص إِلى أَقاصي الأَرض". لا

ريب أنّ حمل اسم يسوع ورسالة خلاصه كان عبئاً مرهقاً طالما ناء به، ولكنّ الذي أرسله ما انفكّ أبداً إلى جانبه، يؤيّده، ويساعده، ويثبّته.فمثل يدٍ منيعة تقبض على السيف بحزم، أمسك يسوع بشاول، بحيث لا يفلت منه أبداً، ولئن شاع تصوير رسول الأمم مشهراً سيف الكلام، فهو نفسه، في يد يسوع، سيفٌ مُشهَر، والذي طالما اضطهد يسوع، قبض عليه يسوع، ولن يتخلّى عنه أبداً.وقبضة يسوع هذه، غدت له السند المنيع الذي سيساعده على تخطّي الحواجز، واحتمال السجن، والمرض، والغرق المتكرّر، والجوع، بل حتّى الرجم، وما هو أعتى، أي، خيانة إخوة زائفين، وتنكّر أصدقاء، عند الشدّة.

تكليف بولس بالتبشير بيسوع كان مبادرة إلهيّة، ونعمةً منه مجّانيّة لم يكن بولس يعدّ نفسه مستحقّاً لها، ولكنّها زوّدته بالقوّة على مجابهة كلّ مخاطر الرسالة.وسيظلّ بولس، سحابة حياته كلّها، يعاني تلك المشادّة بين عظمة ما أوكل إليه، والوهن الذي تتامى رزوحه تحت وِقره، بين الكنز الثمين الذي أودع بين يديه، وهشاشة إنائه الوضيع.هذا الشعور وقاه من الاستكبار بما أوتي من كرامات، وحمله على التوغّل في تأمّل قدرة اللّه التي تتجلّى من خلال وهن خدّامه : " لئلاّ أستكبر لسموّ هذه الإيحاءات أُعطيت شوكة في الجسد، ملاكاً من الشيطان لكي يلطمني، لكيلا أستكبر.ولذلك طلبت إلى الربّ، ثلاث مرّات، أن تفارقني، فقال لي : " تكفيك نعمتي لأنّ كمال قوّتي يتجلّى في الوهن ".سأفتخر، إذن، بالحريّ، بأوهاني، لتستقرّ عليّ قوّة المسيح ". (2 كور 12: 7-9)

منذئذٍ اتّخذ بحثه عن اللّه منحى جديداً : " إنّما أواصل السعي لعلّي أُدرك المسيح يسوع لأنّه هو أدركني "، وبات يجهد في أمرٍ واحد : " أن أنسى ما ورائي، وأمتدّ إلى ما أمامي".(فيليبي 3 : 12-13)

الرسالة التي انتدب لها بولس مباشرةً من الربّ هي من أهمّ ثمار حدَث دمشق، وفيما بعد، كلّما قابل مشكّكوه سلامة رسالته بالريبة، أجاب بحجّة لا ردّ عليها : " ألستُ رسولاً، ألم أرَ يسوع، ربّنا ؟ " لولا تلك التجربة الفذّة لربّما كان إعلانه للإنجيل ضرباً من الدعاوة، أو من ترداد قناعات ذهنيّة ؛ ولكن بعد ما خبره بولس في دمشق، بعد ما رأى وسمع وأدرك، باتت بشارته شهادة حيّة، نابعة من علاقة معاشة بعمق، نارها كفيلة بإذابة خواطر الفكر الباردة.وما انفكّت ذكرى التقائه بيسوع في دمشق متأجّجة في حنايا صدره، حتّى في غروب حياته عندما كتب إلى تيموثيوس : " أشكر المسيح يسوع ربّنا الذي قوّاني، إذ عدّني أميناً، فنصّبني لخدمته، أنا الذي كان من قبلُ مجدّفاً، ومضطهداً عنيفاً، غير أنّني نلت الرحمة، إذ كنت أفعل ذلك عن جهل، حين لم أكن، بعدُ، مؤمناً.ففاضت عليّ نعمة ربّنا، مع الإيمان

والمحبّة، في المسيح يسوع...إنّي ما نلت الرحمة إلاّ ليُظهر المسيح يسوع طول أناته فيّ أوّلاً، ويجعل منّي مثالاً للذين سيؤمنون به، ابتغاء الحياة الأبديّة." (1: 12 – 14) و(1: 16)

مثلما دعا اللّه، قديماً، إبراهيم إلى هجر موطنه وبيت أبيه، دعا شاول إلى التخلّي عن كلّ ماضيه، وأفهمه أنّ اللّه لا ينحصر في تخوم أُمّة واحدة ضيّقة، أو بين جدران هيكل.وعلى ضوء هذا الفهم اتّضح لبولس أنّ دين آبائه في حاجة إلى إعادة نظر جوهريّة، وأيقن أنّ عليه الانطلاق لتبشير العالم أجمع بموت يسوع وقيامته.تلك الدعوة المجّانيّة انحفرت في أعماق كيانه ولازمته على مدى كفاحه القاسي، فإذا ما احتدمت المعارك، واكفهرّت الآفاق، وسرّبت الخيانات والسجون إلى قلبه القشعريرة، أشرقت عليه شمس ظهيرة دمشق، وأفاضت فيه نورها ودفأها، فالذي اختاره رسولاً وسفيراً زوّده بسلطانه وقوّته.

حَدَث دمشق هو مفتاح فهم بولس : فقد شطر مسيرته إلى مرحلتين متباينتين :

مرحلة قبل دمشق حين كان شاول يعيش في معزل عن يسوع، بل في عداوةٍ له، ومرحلة بعد دمشق حيث انقلب مصيرهُ، ونحا بولس منحى جديداً كلّ الجدّة، إذ غدت حياته "مع يسوع "، لا بل "في يسوع".

بوركتِ، يا دمشق، فقد اخترتِ لتكوني مسرحاً لأكثر التحوّلات إذهالاً وأبعدها وقعاً، ولمولد أعظم رسولٍ مسيحيّ، وأجرأ داعية ليسوع، كان لرسالته ودعوته أبلغ أثر على المسيحيّة عبر القرون، وعلى تاريخ البشريّة بأسرها ؛ وكنت، مع شقيقتك أنطاكية، مهداً للمسيحيّة الوليدة.

منذ اللحظة الأُولى أدرك بولس أنّ دين يسوع يخاطب العالم أجمع بلا استثناء ولا تمييز ؛ ومنذ الوهلة الأُولى جاءت دعوة يسوع لبولس إلى تبشير الأُمم، وثنيّينها ومؤمنيها، حتّى أقاصي الأرض، بالخلاص الآتي إليهم، وبالعهد الجديد الذي ابتغى اللّه عقده، بلا شروط، بواسطة ابنه، مع العالم أجمع.

بهذه البشرى، وبهذا المنطق، غزا بولس الدنيا موقظاً الضمائر، مدمّراً الأوهام، والامتيازات، والادّعاءات الباطلة، مقوّضاً الحواجز بين البشر، داعياً إلى عالم جديد قائم على المساواة والمحبّة.ومن ثمّ لم يكن حَدَث دمشق شأناً فرديّاً عنى بولس وحده، بل كان له أبعاد تاريخيّة وروحيّة على المسكونة جمعاء ؛ ذلك الحَدث كان أعمق وأبقى أثراً من أيّ إنجاز سياسيّ مجلجل.فعمل الإسكندر الكبير انهار، وعمل بولس استمرّ، فاعلاً في مصائر البشر.ألم يتحوّل، مثلاً، مصير أُوغوسطينوس لدى مطالعته فقرة من رسالة بولس إلى الرومانيّين تقول (13:13) " لنسلكنّ سلوكاً لائقاً، كما يليق في وَضَح النّهار : لا بالقصوف والسكر، ولا

بالمضاجع والعهر، ولا بالخصام والحسد.بل البسوا الربّ يسوع المسيح، ولا تهتمّوا بالجسد لقضاء شهواته "

إنّ تجربة بولس على طريق دمشق جعلت كثيرين، سحابة عشرين قرناً، يكتشفون طريق دمشقهم، وما زالت الاكتشافات متوالية.

وقد كتب دانييل روبس : " مغبوط ذاك الذي رماه النور أرضاً، وفي هزيمته، امتلأ قلبه رجاءً وإيماناً.إنّ ذلك الجلاّد الملطّخ اليدين بدماء الأبرياء، قد تنازل الربّ فدعاه باسمه، وفي تدبير إلهيّ تخفى علينا أسراره جعل منه داعيته وأسيره على جميع دروب المسكونة، فباتت كلّ ساعات عمره لا تكفي للتعبير عن شهادة حبّه لذلك الذي أحبّه بحيث رماه في صميم قلبه !"

الفصل الرابع : في مدرسة الروح

خلوة في الصحراء

" على كلّ من سيحمل، يوماً، رسالة خطيرة، أن يصمت
طويلاً، وعلى من يبتغي إِنتاج الصاعقة أن يظلّ غيمة، أمداً مديداً "
(نيتشه)

النعمة التي أَلقت شاول أَرضاً هي التي سرعان ما أَخذت بيده، وأَنهضته.إِنّها مثل سهم مقدّسة تشفي، فوراً، الجراح التي تحدثها.

استفانُس كان أَوّل من لقّن شاول مبادئ المسيحيّة، وعلى غراره فعل المسيحيّون الكُثر الذين أَلقى عليهم شاول القبض وأَوسعهم تنكيلاً واستنطقهم.هؤلاء جميعهم، أَشرعوا أَمام ذهنه آفاقاً قشيبة ما كان يجرؤ على التطلّع إِليها، وقد غمرها يسوع بأَنواره الساطعة، لدى ظهوره له في دمشق.

و أكمل حنانيا، ومن تلبّث في دمشق من المسيحيّين الجُدد، إِطلاع أَخيهم الجديد على حياة يسوع وتعاليمه ؛ وكان كثيرون من مسيحيّي دمشق قد فرّوا منها عندما تنامى إِلى علمهم مجيء شاول المضطهد مفوّضاً من السنهدرين، وآخرون اختبأوا ريثما تمرّ العاصفة. وقد أَذهلهم، وأَثلج صدرهم، التحوّل العجيب الذي حوّل أَلدّ أَعداء يسوع إِلى خادم غيور له، وأَشرس مضطهد لأَتباعه إِلى داعية باسمه، فمجّدوا قدرة يسوع اللامتناهية.

و تقبّلوا بفرح ذلك الأَخ الجديد الذي كان، حنَّئذٍ، يرعبهم، وسردوا له تفاصيل ثمينة من حياة يسوع الأَرضيّة، وبعضاً من أَقواله، واشتركوا معه في المائدة المذكّرة بعشائه الأَخير، فسحرت نفسه تلك الأُخوّة العذبة في المسيح.

و ضجّ بولس توقاً إِلى التبشير بيسوع مسيحاً وإِلهاً ؛ فكيف له أَن يحبس في صدره كلّ تلك الأَسرار التي تكشّفت له، وغمرته بالمعرفة والفرح والحبّ ؟

يقول الذهبيّ الفم : " انبعث بولس من المياه الإِلهيّة، وقد استحوذت عليه نار من الاضطرام بحيث لم ينتظر تثقيف معلّم "، وتفجّرت من أَعماقه جرأة تلامس التهوّر، جرأة يتميّز بها من يقطنه هوى جامح ؟

و لم يكد يمضي أسبوعان على عماده حتّى رأى من الواجب إِطلاع المجمع على ما جرى له، فقصده، يوم السبت، وعقب تلاوة النصوص المقدّسة طلب الكلام، وأبلغ الحضور بظهور يسوع له عند مشارف دمشق، معلناً، بشجاعة منقطعة النظير، أنّ يسوع هو المسيح المنتظر، وابن اللّه، فراحوا يتساءلون : " أليس هذا هو شاول الطرسوسيّ، أليس هو مندوب السنهدرين، ومضطهد المسيحيّين الذي كنّا ننتظره ليطهّر دمشق من " الطريقة " الجديدة التي أخذت تنتشر وتجتذب أبناء ديننا ؟ فما باله يتكلّم هكذا عن يسوع ؟ ألاّ يجدّف ويهذي ؟ "

كان بولس كُلّيّاً، كتلةً صلبة، لا تجزئة في شخصيّته ولا تذبذب، يجهل أنصاف الحلول، ويتوغّل، في كلّ أمرٍ، إِلى أقصاه.ولا بدْعَ إِن صدمت أقواله اليهود وأثارتهم، وأشاعت الخوف في قلوب بعض المسيحيّين الذين كانوا حريصين على تجنّب كلّ إِثارة للمشاكل.

و أنفذ يهود دمشق رسائل إِلى السنهدرين تعرب عن مخاوفهم واستنكارهم، وشكوا بولس إِلى حاكم المدينة بإِثارة القلاقل.غير أنّ ما حزّ في نفس رسول يسوع الجديد هو موقف بعض إِخوته المسيحيّين الذين ضاقوا ذرعاً باندفاعه وغيرته المتّقدة، بمواقفه القصوى، وأقواله القاطعة.فقد كانوا، في معظمهم، لاجئين فارّين من الاضطهاد، يتحاشون عن أيّ صدام مع اليهود أو سواهم، وكانت جرأة بولس تلقيهم في حَرَج، وتجعل منه " أخاً خطراً". لقد كان عاجزاً عن فهم أيّ فتور في الإِيمان، فآثر مغادرة دمشق، ولا سيّما وأنّ حياته قد باتت مهدّدة إِثر " خيانته " اليهوديّة، في حين أنّ هذه الحياة كانت قد أمست غالية عليه بعد أن انتدبه يسوع لإِبلاغ العالم برسالة محبّته وخلاصه.

و منذئذٍ أمست حياته كلّها سلسلة من جرأة في الكرازة ورحيل متّصل بلا هوادة.

اختيار الربّ له كان خارقاً، ورسالته فريدة.كان يؤمن بيسوع، ولكنّه لا يعرف، بعد، عنه، سوى اليسير، فكان لا بدّ له من أن يخلو بنفسه كي ينصت، في صمتٍ تامّ، إِلى صوت الربّ الذي يرشده إِلى درب مستقبله.لم يستشر بشراً، بل مضى إِلى صحراء حوران وشرقيّ الأردنّ، مثلما اعتزل الأنبياء من قبل، ومثلما فعل يسوع نفسه قبل مباشرة رسالته، فخلوة الصحراء هي بوتقة النفوس الكبيرة، والقلوب المنيعة، وفي تربة الصمت تنمو المشاريع العظمى.

أيّاماً وأيّاماً سار شرقاً، مصلّياً، عائشاً لحظات الظهور الإِلهيّ الرائعة التي حظي بها، متذكّراً أقوال الإِخوة المسيحيّين في دمشق، متوغّلاً في تأمّل مسيرة الخلاص، مقارناً بين أقوال الأنبياء وأفعال يسوع التي كانت تحقيقاً لها، حتّى بات يفهم الكتب التي تعلّمها فهماً جديداً لا علاقة له بكلّ ما تعلّمه من قبل.

عاش متوحّداً، في زيّ البدو، مكتفياً بالزهيد من الطعام، ناعماً بكرم ضيافة أَهل الصحراء واحترامهم للزهّاد المتعبّدين.ولمّا ذاع أَنّ ثمّة رجلاً ورعاً يحيك البسط والخيام، أَعاروه خيمة ونولاً، وغدت القوافل تزوّده بما يحتاج إِليه من صوفٍ وشعر، فاستطاع إِعالة نفسه.

في هدأة الفلاة وفي أَحشاء الصمت، وحيداً مع نفسه ومع الربّ، أَنصت إِلى صوت الربّ، وجهد في بلوغ " المعرفة السامية، معرفة يسوع المسيح، ربّي، الذي من أَجله خسرتُ كلّ شيء، وعددتُ كلّ شيءٍ نفاية لأَربحه وأَكون فيه.. . " كان يتوغّل، مسحوراً، في فهم "سرّ المسيح".

تحوّل وئيد، ولكنّه جوهريّ، تحقّق فيه بفعل روح يسوع.شيئاً فشيئاً كان " يلبس المسيح يسوع "، ويتبنّى مشاعره ورؤيته.فترسّخ إِيمانه بأَنّ يسوع هو ابن اللّه بالطبيعة، لا بالتبنّي، وأَنّ قيامته هي خير مصداق على أُلوهته، وأَنّه بموته الفدائيّ، قد أَشرع حقبة جديدة للبشريّة جمعاء بلا تمييز.وبات الصليب يحتلّ الحيّز الرئيسيّ من رؤيته لمسيرة الخلاص.وقد أَخذ بمجامع قلبه تواضع يسوع الذي " تجرّد من ذاته، متّخذاً صورة عبد، وصار على مثال البشر، وظهر في هيئة إِنسان، فوضع نفسه، وأَطاع حتّى الموت، موت الصليب، لذلك رفعه اللّه إِلى العلى، ووهبه الاسم الذي يفوق جميع الأَسماء، لكي تجثو لاسم يسوع كلّ ركبة في السماوات وفي الأَرض، وتحت الأَرض، ويشهد كلّ لسان أَنّ يسوع المسيح هو الربّ، تمجيداً للّه الآب."

في تلك الخلوة الكثيفة تذوّق بولس نشوة الحقيقة الإِلهيّة، وإِشراق نور يسوع، فخَبَر قوّةً تهدّئ قلق نفسه، دارئة عنها كلّ ريبة وتردّد، غامرة كلّ كيانه بدفءٍ منعش.وهكذا انعتق من تخمين المشيئة الإِلهيّة عبر دهاليز الشريعة، والتزم التزام الرجل الحرّ الفرِح بحقائق الخلاص التي أَعلنها له ابن اللّه.

لقد عرف إِطار يسوع البشريّ، ولكنّه ما عاد يتوقّف عنده، بل كسره مثل قارورة عطر لكي يفوح شذا معرفته في كلّ مكان.

و ما انفكّت معرفته هذه ليسوع تكتمل، يوماً، إِثر يوم، طالما هو ظلّ جاهداً في "بلوغ القامة التي توافق كمال المسيح ". وقد نهج بولس، في ذلك، نهجاً خاصّاً، ولكنّه، في آخر المطاف، تلاقى بصوفيّة يوحنّا الإِنجيليّ الذي توغّل، هو أَيضاً، في معرفة يسوع الذي عايشه، وامتلأ به، ولا بدَع في ذلك، فكلاهما غطسا في بحرٍ واحد، وأَلهب قلبيهما حبّ إِنسانٍ إِلهٍ واحد.

لم تعد معرفة بولس للّه جدَلاً عقليّاً، وتحليلاً بارداً، ولا تكراراً آليّاً لأَقوال تقليديّة، وتأكيداً جافّاً لعقيدة مفروضة، بل غدت إِيماناً حيّاً يُلزم الكيان كلّه بسُبل الخلاص، التي اختارها اللّه وحقّقها ابنه الذي وضعها في متناول المتواضعين البسطاء، الصغار، وأخفاها عن المتحذلقين المدّعين، بها يُرى اللامرئيّ، ويفقد الفائق الطبيعة بعده، ويغدو واقعاً ملموساً.

معرفة بولس ليسوع أَمست اتّحاداً وثيقاً به، وناراً مضطرمة فيه، ونعمة من اللّه مجّانيّة، وهاديه في أَداء الرسالة التي انتُدب لها، ونبراساً لهذه الرسالة.وقد انقلبت تلك المعرفة حبّاً ليسوع أَخذ بمجامع عقله وقلبه، وسيظلّ مستحوذاً عليه إِلى الأَبد.

و في حين كانت يداه منهمكتين في حياكة نسيج الخيام، كان فكره ينسج مادّة كرازته المستقبليّة وعدّتها.كان يتأهّب لمعركة الرسالة بارتداء أَسلحة المقاتلين : خوذة الخلاص التي تقي أَفكاره، ودرع البرّ التي تحمي رغبات قلبه، وحزام الحقّ الذي يسنده في مناهضة الكذب، ونعالاً تؤهّله ليكون جاهزاً دائماً للشهادة، ومجنّ الإِيمان الذي يولي المناعة، وسيف الروح، وكلمة اللّه سلاحاً.

كان يدرك أَنّ ميدان سباقه سيكون مزروعاً بالتصفيق والاضطهادات، بالتكريم والإِهانة والنميمة والافتراء، فلا بدّ له من انضباطٍ فولاذيّ لكيلا تحبطه العداوة، ولا ينشيه النجاح، ولكيلا يُعرِّض للخطر عمل الربّ.

أَمّا غذاؤه ومصدر طاقته فكانا الصلاة التي تبقيه على اتّصال بالقدرة الخلاصيّة، فالصلاة والرسالة ثنائيّ وثيق الارتباط، والتبشير الذي لا تغذّيه الصلاة فاشل.

عندما كان فرّيسيّاً كان يحرص على مواعيد الصلوات اليوميّة الثلاث، ولكن بعدما أَشرقت على نفسه أَنوار يسوع، في دمشق، بات يؤمن أَنّ الشأن هو لنوعيّة الصلاة لا لأَوقاتها.وغدت صلاته مبنيّة على الثقة، ثقة ابنٍ في أَبيه، وبات مثل ابن يهتف للّه: أَبّا، أَبتاه ! تدعمه، في ذلك، شفاعة ابن اللّه، يسوع ؛ وبات الروح يهديه إِلى الصلاة: "الروح يأْتي لنجدة ضعفنا لأَنّنا لا نحسن الصلاة كما يجب، ولكن الروح نفسه يشفع لنا بأَنّات لا توصف ".وحده الروح يُبقي المصلّي على علاقة حميمة وشخصيّة باللّه.في أَثناء الصلاة جرت أَحداث حياة بولس الكبرى جميعها، وأَشرقت عليه أَسمى الإِيحاءات.ولا عجب، بالتالي، إِن حفلت رسائله بآيات تمجيد الربّ، وإِن هو بدا ملحاحاً في دعوة المؤمنين إِلى المثابرة على الصلاة، في كلّ حين، لكي تبقيهم الصلاة يقظين، شاكرين.

و على غرار المقاتل الذي يتنكّب عن الأَغذية والعادات الضارّة، تنكّب الرسول عن كلّ خطيئة من شأنها الحدّ من مسيرته : " فلنلق عنّا كلّ عبء، وما يساورنا من خطيئة، ولنخض بثبات ذلك الصراع المعروض علينا. "

لقد استعبد جسده للروح لكيلا يستعبده جسده للخطيئة، وأَبقاه تحت سيطرة الروح بالانضباط والجهد، إِذ لا يسوغ لخادم الربّ أَن يلتمس الملذّات، ويستكين إِلى التواني، بل عليه أَن يظلّ متيقّظاً واضعاً كلّ طاقاته في خدمة رسالته.بفضل هذه السيطرة على الذات، تمكّن بولس، الذي كان هزيل الجسم وعرضة للأَسقام، من تحمّل مشاقّ الأَسفار الطويلة المضنية، وجلد السياط، والسجن المتكرّر، والحرمان من الطعام والنوم، أَيّاماً وليالي متوالية ؛ فقد أَحسن التأهّب للمعركة فتمرّس من مجابهة الصعاب، وبات لا يخشى شيئاً ولا أَحداً.

و إِلى جانب المراس الجسديّ أَكمل الرسول مراساً نفسيّاً كفيلاً بجعله يميّز، في كلّ حين، مشيئة اللّه، وما هو جيّد، وكامل، ومرضيّ لديه؛ وما يبقيه متيقّناً بأَنّه، مع كلّ ما يعترض مسيرته من فشل وآلام، سينتصر لأَنّه شريك دائم في انتصار المسيح، ولأَنّ لا شيء ولا أَحد قادر أَن يفصله، أَبداً، عن حبّ اللّه المتجلّي في المسيح يسوع.لقد كانت صيحة ذلك المقاتل، وشعاره في مواجهة شتّى الصعاب والاضطرابات : " إِنّني أَستطيع كلّ شيء في ذلك الذي يقوّيني. "

إِنّه على يقين راسخ " بأَنّ اللّه، في كلّ شيء، يسعى لخير الذين يحبّونه"، ويقين النصر هذا يقود، حتماً، إِلى الفوز.

لقد تبيّن عظمة رسالته فتأهّب لها بجميع الوسائل الملائمة، وعلى جميع الصُّعد.

سنتان كانتا ضروريّتين حتّى يتجرّد بولس من الإِنسان القديم، وينمّي في ذاته الإِنسان الجديد الذي يرى ويفهم بنور الربّ، وحتّى يدرك كلّ معاني يسوع الذي بات له رسولاً وأَسيراً، وينظّم حياته وفقاً لهذه القناعة.

و قد خرج بولس من تلك الخلوة، وهو في نحو الرابعة والثلاثين من العمر، شاحباً، هزيلاً، متّقد العينين، وقد لوّحت شمس الصحراء محيّاه، وحرقت جبينه ؛ وقداكتمل نضوجه، ومعرفته التي قادها الروح، وامتلأت نفسه بأَسرار المسيح، واستقام حكمه في معزلٍ عن كلّ تخيّل ووهم، وأَضفت خبرته مع يسوع مزيداً من المنعة والثقة على شخصيّته المنيعة، وعلى حدْسه الصائب، وفكره الثاقب، وإِرادته الفولاذيّة، واندفاعه الجيّاش.

و يسوغ الاعتقاد بأَنّ بولس لم يكتفِ، في خلال تلك الفترة، بالصلاة والتأمّل، بل أنّه شرع يحدّث من يلتقيهم عن يسوع، ويبلّغهم بكلّ ما عرفه عنه، ويدعوهم إِلى معرفته واتّباعه.أَمّا من صادفهم من اليهود فحاول إِقناعهم بأَنّ يسوع الناصريّ هو، حقّاً، المسيح. فادّعى عليه زعماء اليهود أَنّه يبلبل الأَمن.هذه التهمة التي طالما أُلصقت برسل يسوع، سيُلاحِق اليهود بها بولس، أَينما بشّر.

و حرصاً من بولس على مواصلة رسالته، قفل عائداً إِلى دمشق.

عاد بولس إلى دمشق متحرّقاً إلى استخدام أَساليب الإقناع التي تلقّنها عند أَقدام غمالئيل، مقترنة بأنوار الهداية التي أَشرقت على ذهنه ونفسه في دمشق وصحراء العرب، علّه، بذلك، ينفذ إلى قلوب اليهود والوثنيّين وقناعاتهم، ويقودهم إلى الإيمان بيسوع.

حلّ، من جديد، في نزل يهوذا، الذي كان شاهداً على أَسعد أَيّام حياته، وأَفعم صدره السرور لرؤية جماعة المسيحيّين وقد نمت، وتكاثر عدد الذين نالوا نعمة العماد، مع أَنّ بعضاً من الذين كان قد التقاهم من قبل قد رحلوا إلى جوار ربّهم.وقد دهش الإخوة الذين سبق لهم أَن شهدوا عماد بولس لأمارات الثقة، والسكون، ورباطة الجأش، التي أَمست تشعّ من شخصه.

و في يوم السبت هرع إلى المجمع، وطلب الكلام، فأَكّد إِيمانه الجديد الراسخ، المستند إلى الكتب والنبوءات وإيحاء الربّ، بأَنّ يسوع هو المسيح المنتظر الذي أَبى الشعب اليهوديّ فهمه وتصديقه، لأَنّه كان يتوقّع مسيحاً يلائم هواه، ويحقّق مطامعه الدنيويّة العنصريّة.وقد شهد القدّيس لوقا، في كتاب أَعمال الرسل بقوله : " كان (بولس) يزداد قوّة في تبشيره فأَثار البلبلة في أَذهان اليهود المقيمين في دمشق، بحججه الدامغة، مثبتاً أَنّ يسوع هو المسيح. "

للوهلة الأَولى استغرب اليهود الذين أَحاطوا علماً بمروقه إلى صفوف خصومه بقاءه، طيلة هذه المدّة حيّاً، ناجياً من عقاب السنهدرين.غير أَنّ كلامه المحكم المدعّم بمعرفة عميقة للكتب، والمتّسم بالحرارة، والصدق، وقوّة الإقناع، اجتذب انتباه الكثيرين منهم، وهزّ نفوسهم هزّاً عنيفاً، وسرّب الشكّ إلى قلوبهم، وأَثار فيها تساؤلات قلقة.فإن كان من اضطهد يسوع، في أَتباعه، أَضرى اضطهاد، يتكلّم عنه على هذا النحو، أَلا يكون قد وقف على حقيقةٍ من الثبات بحيث حوّلته هذا التحوّل الجذريّ ! واستشفّ زعماء المجمع في ما لقي حديث بولس من أَصداء طيّبة لدى عامّة اليهود، لا بل لدى بعض اللاويّيين والكتبة، خطراً داهماً.ولذلك أوعزوا إلى النساء، والعامّة، ومن زعزعهم الشكّ، بعدم الحضور إلى المجمع، في السبت التالي، وملأوا المقاعد بالكهنة والمتطرّفين.وتكلّم بولس، ثانيةً، ولكنّه ما كاد يأتي على ذكر يسوع حتّى هبّ الحضور يجأرون، ويطالبون بالقضاء على المارق المجدّف، فهذا يدعو إلى رجمه، وذلك إلى صلبه، ولكأنّ مأساة استفانس، التي كان بولس أَحد أَبطالها، تتكرّر.

لقد أنقضّ اليهود الهائجون على الرسول، ملوّحين بقبضات أَيديهم، لا بل تمادى بعضهم فبصقوا على وجهه مزرين بقداسة المكان.ومخافة تنجيس المجمع، دفعه بعض الكتبة نحو منفذ نجاة، حيث التفّ من حوله إخوته المسيحيّون، ومضوا به عبر الأَزقّة الضيّقة

المحيطة بحيّ اليهود، وأَخبأوه في منزل أَكثرهم وضاعة ونكرة، بعيداً عن عيون مطارديه وشُبهاتهم.

الوضع السياسيّ، في دمشق، آنذاك، كانت تغشاه الفوضى، فالمدينة خاضعة، مبدئيّاً، للحكم الرومانيّ، ولكن لا حاكم رومانيّاً فيها، بل هي، في الواقع، تحت حماية الملك النبطيّ الحارث، الذي كان متواطئاً مع الجالية اليهوديّة، التي تمدّه بالدعم الماليّ. وكان الوالي الذي انتدبه لتمثيله في دمشق، قاسياً، فاسداً، جشعاً، يتلقّى من زعماء اليهود الرشاوي الجزيلة، فيُغدق عليهم الامتيازات، ويطلق أيديهم لارتكاب الجرائم والمظالم، باسم دينهم، وقد استعانوا به لإلقاء القبض على بولس، فأطلق رجاله، ففتّشوا منازل النصارى، وبثّوا العيون والعسس في الأَزقّة، وإِلى جانبهم أَفراد من اليهود يعرفون بولس وكفيلون بالإِرشاد إِليه.وشدّدوا الحراسة على أَبواب المدينة ومنافذها للحؤول دون فراره.وفي الآن عينه راحت تذرع الأزقّة عصابات هائجة من اليهود المتطرّفين الذين أَقسموا على قتل بولس، قتل الكلب الشارد، حالما تقع عليه أَياديهم الأَثيمة.

و تنامت أنباء تلك التدابير إِلى الإِخوة المسيحيّين، فأحكموا كتمان مخبأ بولس، بحيث لا ترقى إِليه ريبة ؛ وكانوا يتعاقبون على زيارته خلسة، مزوّدينه بكل ما يحتاج إِليه، منصتين إِلى أَحاديثه عن يسوع، وإِلى إِرشاداته التي كانت تشيع العزاء، وتشدّد الهمم، وترسّخ الثقة، ومشاركينه الإِفخارستيّا.كانوا يخشون على حياته ويحرصون عليها أَمّا هو فلم يعرف الخوف إِلى نفسه سبيلاً، فالربّ قد انتدبه لرسالة سامية في العالم أجمع، وهو كفيل بإِيجاد مخرج له من كلّ تهلكة.ولا عجب إِن ظلّ ساكن النفس، يقطنه يقين بأَنّه لن يُمسّ بسوء حتّى يؤدّي الرسالة الموكلة إِليه.

و لمّا اتضّح للمسيحيّين أَنّ حراسة العسس قد تراخت، وأَنّ اليهود سئموا من البحث عن عدّوهم، التأم عددٌ منهم، ذات ليلة، في بيت أَحدهم مبنيٍّ على سور المدينة الشرقيّ ؛ وبعد الاستماع إِلى خطبة وداع من بولس، كسروا معه الخبز، احياءً لذكرى عشاء يسوع الأَخير مع أَحبّائه، وقبّلوه قبلة محبّة أَخويّة امتزجت بالأَسى على فراقه، ثمّ أَلبسوه ثياب راعٍ، وحشروه في سلٍّ كبير من الخيزران، من تلك السلال التي كانت تخزن فيها المؤن، وتُنقَل فيها المحاصيل، أَيّام المواسم والقطاف، ودلّوا السلّ بحبل، على مهل تحت جنح الظلام.

حيلة اتّسمت بالجرأة، والإِثارة، والغرابة المضحكة، ولكنّ بولس، ظلّ، بعد عقود، يستذكر ذلك الحادث وكأنّه ذكرى هروب مهين ؛ ولكن، حَسْبه أَنّه كان السبيل إِلى نجاته وانطلاقه على دروب مصيره.

كان الربّ قد قال لحنانيا عندما أَوفده إِلى بولس : " إِنّني سأريه كم ينبغي أَن يتأَلّم من أَجل اسمي ".وكان ذاك هو الدرس الأَوّل في ذلك المضمار، وإِشارة أَوّليّة للعداوة التي ستجابهه على امتداد رسالته.وسيتلقّن دروساً كثيرة أُخرى، في ظروف لم يتوقّعها.

و ما إِن تملّص بولس من زنبيله، واستقام على قدميه، وغاص في الظلمة الواسعة، حتّى اتّجه جنوباً، وبحذر شديد، إِلى حيث كان أَخ لاطياً ينتظره، ومعه بغل محمّل ماءً وطعاماً. ومضى بولس في الطريق عينه الذي دخل منه دمشق، لنحو ثلاث سنوات خلت، أَعمى، متعثّراً، مرتعداً.ولما انتهى إِلى المكان الذي ظهر له فيه الربّ، كانت أَولى أَشعّة النهار تذهّب ذؤابات جبل حرمون على يمينه، فجثا شاكراً للربّ نعمة هدايته الفائقة.

ثمّ غذّ السير صوب أورشليم.

مثل من فقد عزيزاً غاب عنه أمداً طويلاً، ورغب في التوغّل في معرفته، فراح يستطلع ممّن عايشوه كلّ تفصيل يتعلّق بأقواله، وأفعاله، وحركاته، وسكناته، وميوله وأذواقه، كذلك كان بولس يتحرّق توقاً إلى سردٍ مسهب لكلّ ما له بيسوع صلة.ومن كان أجدر بتزويده بهذه التفاصيل الدقيقة من تلاميذ يسوع الأقربين، ولا سيّما وأنّ الأناجيل لم تكن قد نشرت بعد، ولكنّها كانت محفورة في صدور شهود عيان عاشوا معه جنباً إلى جنب، يوماً إثر يوم، وسنة إثر سنة ؟

ثمّ إنّ بولس كان مكلّفاً برسالة، وأبى أن يستقلّ بها عن رسالة الكنيسة الأُمّ التي أنشأها يسوع، وحرص على الاندماج بها، وعلى توثيق علاقاته برؤسائها، وعلى إتمام معرفته للمخلّص التي تلقّاها منه مباشرة في لحظات خاطفة، حاسمة، بشهاداتهم الحيّة، وبخاصّة شهادة بطرس الذي أقامه المعلّم نفسه على رأس كنيسته.

هذه الأسباب كلّها دفعته نحو أورشليم، مع علمه بكلّ ما كان يتنظره فيها من مخاطر وعقبات. فأبناء دينه القدامى، من اليهود، لن يصفحوا أبداً له خيانته، وأتباع يسوع لم ينسوا، بعد، كلّ ما ألحقه بإخوتهم في أورشليم وخارجها، من فتك وتنكيل.ولقب مضطهد المسيحيّين ما زال ملتصقاً به بلا فكاك.غير أنّ رغبته الحارقة في الإحاطة بأشمل التفاصيل عن يسوع، وبالطقوس والممارسات التي كان يعتمدها أتباعه بوحيٍ منه، والتي كان لا بدّ له من مشاركتهم إيّاها، انسجاماً مع الكنيسة الناشئة، وحرصاً على وحدتها، كانت هي الأقوى، وأطاحت بكلّ مخاوفه وهواجسه.فقد كانت تعتمل في نفسه رغبة عارمة في الاستماع إلى نجاوى يسوع الحميمة لأصدقائه، وإلى كلماته بحرفيّتها، وفي الاطّلاع على سلوكه في شتّى المواقف، وعلى وصيّته الأخيرة لتلاميذه، في أثناء عشاء الوداع، وعلى ما قاله لهم بعد قيامته، وعلى دقائق أحداث العنصرة.

لثلاث سنوات خلت كان قد خرج من أورشليم صلِفاً، مشهراً سيف اضطهاد المسيحيّين، مدعَّماً بتفويض السنهدرين وثقته، وها هوذا يعود إليها مسيحيّاً، مضطرم الإيمان، ويدخلها خلسة، خائفاً من انتقام السنهدرين وأزلامه.

طعنة حادّة مزّقت قلبه عندما لاحت لناظريه التلّة الجرداء التي انتصب عليها صليب يسوع، وفي الموقع الذي شهد مصرع استفانُس، توقّف ليعترف لأوّل شهداء المسيحيّة: "لقد كنتَ، أنتَ، المحقّ، يا أخي، وها قد عدتُ لأُكفّر عن خطيئتي ".

ذُهلت شقيقته لمّا رأته منتصباً بباب منزلها، بعد انقطاع أخباره مذ غادر المدينة؛ وأدهشها زيّه الغريب، وتراكم غبار الطريق عليه، فتداركته بماء الاغتسال، والطعام واللباس النظيف، والفراش المريح.وقد غمرت نفسه السعادة عندما أَسرّت إِليه أنّها، هي أَيضاً، قد اعتنقت الإِيمان المسيحيّ، وأَنّها تشترك في الطقوس المسيحيّة، في بيت والدة لاوي الذي اتّبع يسوع، ودُعي متّى.

كان أَعضاء السنهدرين قد انتظروا عبثاً عودة شاول من دمشق بقافلة جرّارة من المرتدّين ؛ وعندما بلغهم نبأ تحوّله، آثروا إِبقاءه طيّ الكتمان تحسّباً من أَصدائه السلبيّة ؛ وفي إِثر ذلك همدت نار اضطهاد المسيحيّين، فتكاثرت أَعدادهم، في المدينة المقدّسة.وحاول بولس الاتّصال بهم، ولكنّه كان يُقابَل أَبداً بالريبة والتحفّظ، فكيف لهم أَن ينسوا من أَنزل بالكنيسة الويلات، ولاحق إِخوتهم بضراوة اضطهاده ! حالما كانوا يسمعون باسمه كانوا يتحوّلون عنه، وهم يتلفّتون إِلى الوراء، ويأبون تصديق انقلاب أَشرس مضطهد لهم إِلى واحدٍ منهم.

كثيرون منهم ظنّوا أَنّه مدسوس عليهم لكي يطّلع على أَسمائهم وعناوينهم ومخابئهم، فرفضوا استقباله في اجتماعاتهم، لا بل أَبوا مصافحته ؛ ولطالما تساءل بولس في ليالي أَرقه أَهذه هي الجماعة التي دعاه يسوع ليكون فيها ومنها ولها، والتي التمس لديها الحماية والدعم! لولا النور الساطع الذي أَشرق عليه عند مشارف دمشق، والذي كان يثبّته في عزمه على المضيّ قُدُماً، رغم الأَبواب التي كانت توصد دونه، والمسالك التي كانت تضيق في وجهه، لربّما كان تردّى إِلى وهاد القنوط.ذلك النور كان معين عزيمة يقوّيه على مواجهة محنته الأُولى القاسية، وناراً طهّرت دوافعه.

كان من شأن هذا الوضع الموجع الزاخر باللّبس أَن يدوم طويلاً، لولا أَن أسعفت بولس ذاكرته وأَرشدته إِلى أَحد رفاق دراسته في مدرسة غمالئيل، هلّينيّ، قبرصيّ المولد، مديد القامة، شديد الجسم، كريم النفس، وواسع الثراء، كان يدعى يوسف، واعتنق المسيحيّة، وبات من أَكثر وجوه جماعتها تألّقاً، ولا سيّما بعد أَن باع عقاراته، ورمى بأثمانها عند أَقدام الرسل واختار مسكناً له في أوضع أطراف المدينة بين ظهرانيْ الفقراء والمتسوّلين، وقد أَطلق عليه بطرس اسم " برنابا "، أَي ابن العزاء، وقد أَحبّه المسيحيّون وأُعجبوا بحكمته.وذات مساء قُرِع باب الحجرة التي كان يقطنها، وناداه صوت رقيق: "برنابا، برنابا!".مع أَنّ هذا الاسم لم يكن يعرفه سوى المقرّبين، لم يهتدِ برنابا إِلى هويّة الطارق ؛ وفتح الباب بحذر، فإِذا به أَمام غريب قصير القامة، هزيل الجسم، حاسر الرأس، متّكئ على عصا ؛ كان ينبعث منه مظهر نبيّ، ويشعّ من عينيه نورٌ تتعذّر مقاومته، نظير ذلك النور الذي كان يتألّق في عيني سمعان بطرس، ويوحنّا، ويعقوب الذين عايشوا الناصريّ، وشهدوا قيامته.

و قال الغريب :

– " صديقي برنابا، باسم يسوع الناصريّ، أَسالك أن تستضيفني، هذه الليلة ".

و خُيّل إِلى برنابا أَنّه أَخ يطارده المضطهدون، فرحّب به بالتحيّة المصطلح عليها بين الإِخوة: " ماراناثا " أَي : " فليأتِ الربّ ! "

و اقتعد الغريب الأَرض، وإِثر برهة صمت أَعلن : " أَنا شاول الطرسوسيّ ".

ذُهل برنابا ولكنّه لم يرتعب ؛ وأَنعم التأمّل في ذلك الوجه الذي سرعان ما تذكّر ملامحه الرئيسة، فتبيّن أَيّ تغيير طرأ عليه، وكم تلاشت منه كلّ مخايل الفرّيسيّ المتعجرف القاسي. أَيّة معجزة حوّلته !

و سارع بولس إِلى تبديد تساؤلات برنابا فروى له حَدَث دمشق الفائق، وأَطلعه على الرسالة التي أوكلها إِليه يسوع عندما انقضّ عليه بنوره الباهر، وفي الحال تيقّن برنابا بأَنّ التغيير الذي طرأ على ملامح شاول كان نابعاً من تألّق ناظريه بنور نابع من أَعماقه، فغدت نبرة صوته لا تُقاوَم، ولم يعد مجالٌ للشكّ في حقيقة أَقواله.واستشفّ برنابا، بحدْسه الثاقب، ومحبّته السمحاء، في ذلك الأَخ الذي انكمش عنه الجميع، نفس رسول فذّة، نفساً مستقيمة صادقة، وآمن بمعجزة دمشق، فمدّ له يداً صديقة انتزعته من عزلته، وعزم على تقديمه للرسولين اللذين كانا يحتلاّن المركزين الأَسميين في كنيسة أورشليم: بطرس رأس الرسل والكنيسة، ويعقوب، الذي كان بمثابة أسقف أورشليم الأَوّل.أَمّا سائر الرسل فكانوا قد بارحوا أورشليم كي ينشروا بشرى الخلاص في السامرة وفلسطين، وفي مختلف أَرجاء العالم.وقد ولّد فعل المحبّة هذا واحدة من أَعظم الصداقات وأَخصبها في تاريخ الكنيسة.

****

حدّق بطرس وبولس أَحدهما بالآخر : بطرس، الصيّاد الجليليّ البسيط، الخشن، التلقائيّ، ابن الشعب، وبولس المثقّف، المعقّد، عالم الشريعة، العنيف، الذي لم يكن يرى في بطرس، حينئذٍ، سوى الإِنسان المحظيّ الذي، سحابة سنوات ثلاث، أَكل مع يسوع من طبقٍ واحد، وأَقام معه تحت سقفٍ واحد، ولامسه، واستمع إِلى كلّ كلمة من كلماته، ورافقه في كلّ روحاته وغدواته، وكان الشاهد على جميع حركاته وسكناته، وعلى صلبه وقيامته، ولمس جسده الممجّد بعد قيامته، والذي اختاره الربّ راعياً لقطيعه.

وتفاهم الرجلان من غير كلام، فقد كان قلباهما يخفقان على إِيقاع حبٍّ واحد، ثمّ تعانقا بحرارة ؛ وانفقا خمسة عشر يوماً في حوارٍ حميم، متّصل، خصب، استسلم فيه بطرس

لسماحة قلبه، وبساطته، وتلقائيّته العذبة، ولم يضنّ بتفصيل من تفاصيل علاقته بيسوع مذ التقاه، في مطلع رسالته، حتّى قيامته وصعوده إِلى السماء.وكان بولس يتلقّف بنَهَم كلّ كلمةٍ من كلمات المعلّم، وكلّ لفتةٍ من لفتاته الإِلهيّة، ويدوّنها في سجلّ قلبه بعناية وشَغَف.

و كم من النجاوى قد تبادلا ! فبولس لا يملّ من الاستيضاح، وبطرس يسهب في الإِجابة وسرد الذكريات، ما عذب منها وما ظلّ ناراً تكوي وجدانه.وكانت أَقواله مصطبغةً بصدق شاهد العيان، واندفاع المحبّ.ويوم باح بولس : " كم أنا دهِش من حبّ يسوع الذي لا يُسبَر له غور، فقد ارتضى أَن يحبّني، ويصفح عنّي، ويتراءى لي، أَنا الذي اضطهده بضراوة، ونكّل بأَعضاء جسده السرّيّ، وسامهم العذاب، والموت الزؤام" !، تنهّد بطرس معترفاً : " أَمّا أَنا فقد بذذتك حقارةً.فأَنت، أَقلّه، لم تكن جباناً.أَمّا أَنا فقد اختارني بين الجميع صديقاً حميماً، وأَبدى لي، في كلّ وقت، أَمارات إِيثاره لي. وقد لبثت معه، ثلاث سنوات، ليلَ نهار، آكل وأَشرب معه، وأَقامني شاهداً على سرّ مجده على جبل طابور ؛ ومع كلّ ذلك كنتُ الوحيد الذي أَنكره، بل أَقسم على إِنكاره. ومنذئذٍ لا أَستطيع الإِمساك عن النحيب، كلّما سمعت صياح الديك ؛ وفيماكان يُساق إِلى الصليب والموت كانت الكلمة الأَخيرة التي سمعها منّي كلمة نكران وتجديف، وآخر موقف رآه منّي كان موقف تخلٍّ وجبن.وكيف أَنسى نظرة العطف الحزينة التي رمقني بها، فاخترقت عظامي ! آه ! كم بكيت ندماً، طيلة ثلاثة أَيّام وثلاث ليالٍ رهيبة، فيما كان ذاك الذي أَحبّني كلّ ذلك الحبّ يثوي في وحشة القبر وقرّه ! ومع ذلك ما انفكّ يفكّر بي بحبّ، ومنذ ظهوره الأَوّل للنسوة، يوم القيامة، أَنفذ إِليّ رسالة عزاء.أَتعجب، بعد ذلك، من حبّي له حبّاً يسترخص في سبيله الموت ؟ "

و ليلة السبت شخص الثلاثة.. بطرس، وبولس، وبرنابا، إِلى حيث كان يقيم يعقوب، قريب يسوع، في بيت مريم القبرصيّة، شقيقة برنابا.كان يعقوب من أَكثر وجوه الكنيسة الناشئة إِشراقاً، وشهد له الجميع بالقداسة والتقوى، وكان يحظى بإِجلال المسيحيّين، وباحترام اليهود أَيضاً من جرّاء حرصه على ممارسة فرائض الشريعة، إِلى جانب إِيمانه بيسوع مسيحاً.

و صعدوا جميعاً إِلى العلّيّة حيث تناول يسوع عشاءه الأَخير مع الإِثني عشر، وأَنشأ سرّ الإِفخارستيّا، فدلّه بطرس إِلى المكان الذي كان مضطجعاً فيه، وحكى له كيف ائتزر وغسل أَرجل تلاميذه واحداً واحداً، منشئاً سرّ الخدمة المطلوبة من كلّ من يتولّى مسؤوليّة ورئاسة ؛ ثمّ احتفلوا جميعهم بذكرى عشاء يسوع الأَخير فاستخدم بطرس أَلفاظ يسوع عينها، ومثّل حركاته، التي انحفرت جميعها في ذاكرة بولس وفي نفسه.

و في تلك الليلة جاء دور بوح يعقوب، فروى ذكرياته عن طفولة يسوع، الذي كان يظنّه ابن النجّار يوسف، وتطلّعاته التي كانت تحيّر محيطه، وتأمّلاته الطويلة التي كانت تقلق حتّى أُمّه.

ثمّ تعقّب بطرس مع بولس كلّ خطوة من خطوات يسوع، في كلّ مكان شهد مبادرات حبّه، وتوقّلا معاً على درب الآلام من بستان الزيتون حيث دلّ بطرس بولس إلى الزيتونة التي جثا يسوع تحتها، وتجرّع غصص الآلام النفسيّة قبل موته، وبكى بطرس ثانية وهو يتذكّر كيف استسلم للنوم، فيما كان يسوع يقطر دماً على بعد خطوات منه. وعرّجا على الجلجلة حيث باح بطرس باكياً : " هنا مات يسوع. هنا كانت تقف مريم أُمّه، وهنا يوحنّا، أَمّا أَنا فكنت هارباً جباناً ".ثمّ دلفا، خاشعين، إلى بستان قريب، فإلى مغارة حيث قال بطرس : "هنا وجدنا الكفن فارغاً من محتواه ".

في أَعقاب هذه الأَيّام الخمسة عشرة بات بولس يشعر وكأَنّه قد توغّل في محراب مسيرة يسوع، وتغلغل في أَدقّ تفاصيلها واختزن جمّاً من مآثره وأَقواله، وأَنّه أَقعد كلّ ما عرفه، حتّئذٍ، عن يسوع في دمشق، ثمّ من خلال تأمّلاته في الصحراء، على أسس الواقع، وعلى دلائل مادّيّة، وشهادات حيّة ؛ ثمّ ما انفكّ يوطّد هذه المعرفة بالاستماع إلى سائر الشهود: مرقس، ولوقا، ويعقوب، وبرنابا وسواهم، ممّن عرفوا يسوع عن كثب، أو عرفوا تلاميذه الذين استمعوا إلى كلماته العذبة، في حياته، وشاهدوه، وتحدّثوا إليه بعد قيامته، بحيث غدت معرفته له لا تقلّ دقّة عن معرفة الذين عايشوه.

و كان من شأن تلك الإقامة في أورشليم أَن تظلّ ساجية عذبة، لولا شخصيّة بولس المتحفّزة الجيّاشة، التي لا تستكين إلى حياة سلسة هادئة، بل تستفزّ، أَبداً، المعارضة.فبعد كلّ ما عرف عن يسوع لم يعد يستطيع الإحجام عن التبشير به ؛ وكاشف بالأَمر بطرس الذي توجّس خشية من ردود فعل السنهدرين عندما سيتبـيّن أَنّ من سبق له أَن انتدبه لاعتقال المسيحيّين قد جاء ليبشّر بيسوع في معقل اليهود ؛ ولم يكن اندفاع بولس ونزعته القتاليّة ليخفيا على بطرس ؛ في حين أَنّ سائر الرسل كانوا يجهدون في الإبقاء على علاقة سلام مع اليهود، ويتحاشون عن التطرّق إلى القضايا الحسّاسة الكفيلة بإثارة الخلافات الحادّة، وينزعون إلى المهادنة لكيلا يوروا، من جديد، نار الاضطهاد في منطقةٍ تُحسَم فيها الخلافات بالسكّين والخنجر.لم يستطع بطرس الحؤول دون تبشير بولس، وهو من اختاره الربّ نفسه رسولاً، إنّما دعاه إلى الحذر، ولكن أَين بولس من الحذر ؟

و شخص بولس إلى مجمع البنيامينيّين، واندفع يثبت لهم، بالاستناد إلى نصوص الكتب المقدّسة، أنّ يسوع الذي صلبه اليهود كان حقّاً المسيح المنتظر، ودعاهم إلى الإيمان به، وفي دعوته كان ملحاحاً، قاطعاً، لا يراوغ ولا يداري ولا يهادن.وإن استمع إليه بعضهم باحترام، غير أنّ السنهدرين، الذي فشل في مقارعته حجّة بحجّة، أوفد عصابات كفيلة بجرّه إلى مثل مصير استفانُس.لقد كان ارتداد أحد قوّادهم الموثوقين إلى فريق الأعداء شديد الوقع عليهم، فازدادت نار حقدهم عليه استعاراً.

و خشي الرسل عليه، وأكّدوا له أنّ أُسلوبه لن يجدي فتيلاً في قلعة التعصّب اليهوديّ، بل أنّه قد يلحق بالكنيسة ضرراً فادحاً، وحثّوه على الفرار.وتردّد بولس، فليس من شيَمه الهرب من الخطر أو التقاعس عمّا يراه واجباً.واعتزل، أيّاماً، في منزل شقيقته يُعمل الفكر ويستلهم الربّ، ثمّ شخص إلى الهيكل حيث شكى إلى الربّ أمره، فالقوم على معرفة وثيقة بماضيه، ويأبون الإصغاء إليه، وهو لم يهتدِ إلى سبيل ينفذ منه إلى قلوبهم.

و جاءهُ صوت اللّه هامساً في نفسه بحزم : " هيّا اخرج، سريعاً، من أورشليم، فالقوم هنا لن يقبلوا شهادتك ".وأحنى بولس رأسه، محاولاً المقاومة بحجّة أنّ فراره قد يُؤَوّل خيانة أو تخاذلاً، أو جبناً في الدفاع عن إيمانه.ولكنّ الربّ حسم النقاش إذ، في لحظات، نأت ببولس مشاعره عن الأَرض، ورأى المصلوب يحدّق فيه ويأمره :

" إمضِ، فإنّي مرسلك بعيداً إلى الأُمم. "

كان أَمراً بمغادرة أورشليم، وتكليفاً برسالة بين الوثنيّين، الذين ما زال عليهم أن يقفزوا من الجهل التامّ إلى الحقيقة الكاملة.

هل أَدرك، في الحال، رسول الأُمم العتيد، كم جديدةً ستكون تلك المهمّة التي أَوكلها إليه الربّ، وكم ستقتضي من الجرأة والمخاطرة، وكم ستحفل بالمفارقات ؟ سنوات طويلة تصرّمت قبل أن يكرّس نفسه بالكامل لتلك المهمّة.

غير أنّه، في تلك الأَثناء، كانت نفسه قد سكنت، وعزمه قد استقرّ، فمضى إلى بطرس ويعقوب اللذين أَخبراه، والقلق آخذ بخناقهما، أنّ قتلةً مأجورين يتربّصون به، وحثّوه، ثانية، على الابتعاد عن أورشليم.

كانا يتوقّعان منه معارضة، وقد عهدوا عناده، ولكن، في هذه النوبة، كان رأيهما قد تشابك ومشيئة اللّه، ودهشا لاستسلامه، بلا جدال، استسلاماً كفيلاً بإنقاذه وإنقاذ إخوته.

لم يدعاه يمضي وحيداً، بل شايعه برنابا وعدد من الإخوة إلى قيصريّة، وأَصعدوه على متن أَوّل سفينة ميمّمة شطر كيليكيا.وتنفّس مسيحيّو أورشليم الصعداء.

بيد أَنّ تلك الأَيّام المعدودات قد أَسهمت في توثيق عرى معرفة بولس بمسيحيّي أورشليم الذين مدّوا إِليه أَيادي المعاهدة وأَشرعوا له قلوباً تدفق محبّة، وفي تمتين علاقات صداقته ببطرس لم تفلح في تعكيرها الخلافات التي نشبت بينهما، عندما ضعف بطرس أَمام ضغوط المتهوّدين المتشدّدين في التشبّث ببنود الشريعة الموسويّة.ولئن أَخذ عليه بولس تخاذله هذا، إِلاّ أَنّه اعترف دائماً بزعامته، وقابله باحترامه.وقد وفّر توثيق علاقة بولس ببطرس ويعقوب دعماً لرسالته بين الأُمم ؛ وإِن قاومه، فيما بعد، فئة من المتهوّدين، مدّعين التحدّث باسم يعقوب، إِلاّ أَنّ يعقوب كان بريئاً من ادّعائهم، فقد أولى بولس ثقة تامّة، حتّى وإِن تباين موقفاهما من الشريعة.

و هكذا غادر بولس أورشليم، وهو يحمل اعتراف الكنيسة الرسميّة برسالته، وتفويضاً منها بتبشير الأُمم بيسوع، وعلاقة مميّزة مع برنابا، لن تلبث أَن تثبت جدواها.

غادر بولس أورشليم بأَمرٍ من الربّ، وتلبّث في مسقط رأسه ينتظر إِشارة أُخرى من الربّ ترشده إِلى الخطوة التالية.

بعض معالم طرسوس كانت قد تغيّرت، غير أَنّ تغيّراً أَعمق وأَبلغ كان قد طرأ على نفس بولس وشخصه ؛ وكم اختلفت عودته هذه من أورشليم عن عودته الأُولى لتسع سنوات خلت !

يومها كان فخوراً بما اكتسبه من معارف ومنصب، وكان قرّة عين أَبيه، ومحقّق أَحلامه، ومبعث اعتزازه.وها هوذا يعود، الآن، لكي يستعيد بعض قواه، في أَعقاب أَحداث جسيمة قلبت كلّ كيانه، وقد بات، في نظر أَبيه، وأَبناء دينه، مارقاً، خائناً، ومصدر عار؛ فنبذوه.أوَ لم يكن يسوع قد أنذر بأَنّ الالتزام بالإِيمان قد يفصل الابن عن أَبيه؟

و لئن كان المعلّم الإِلهيّ نفسه قد اعترف : " ليس لنبيٍّ كرامة في وطنه "، فمن المرجّح أَنّ بولس لم يكن أوفر حظّاً وسط فرّيسيّين متزمّتين، شديدي التشبّث بتقاليد الشريعة، وهو الذي قُيّض له أَن يتذوّق طعم حرّيّة المسيح اللامحدودة.لم يستطع ذووه ومواطنوه اليهود استيعاب الحدَث الرائع الفريد الذي جرى له عند أَبواب دمشق، كما أَنّهم لم يستسيغوا توجّهه إِلى تبشير الوثنيّين، أولئك الذين قال التلمود فيهم : " أَفضل " الغوئيم " اقتله ! "

لسبع سنوات خلت كان قد يمّم شطر أورشليم فاتحاً، تحدوه بارقات الأَحلام، وها هوذا يعود وقد زهد في منصب الحاخاميّة، وفي كلّ طموحات شبابه، وأمسى تطلّعه إِلى الشهرة والنجاح المهنيّ ذكرى مندثرة.لقد نأى شأوا بعيداً عن العالم، وعن كلّ ما قد أَلفه من حياة، وعاد عبداً ليسوع، لا مطمع له سوى خدمته والامتثال لمشيئته.

ربّما ارتأى الربّ أَنّ تلك الأَداة التي انتقاها لم تكتمل صقلاً، فدأب على تهذيبها في صمتٍ وأَناة.ولا جَرَم أَنّ بولس، في تلك الأَثناء، كان قد عزف عن متاع الدنيا، وتطلّعات مريديها، ولكن كانت ما تزال في داخله حصون كبرياء وأَثرة ينبغي أَن تُدمّر، لكي يكون بأَكمله للربّ، وللعمل الجبّار الذي أُعدّ له.

و عكف بولس على التأمّل، والصلاة، والتأهُّب، في العزلة والصمت.

من استنطاقه للمسيحيّين الذين اضطهدهم، ومن أَقوال استفانس، ثمّ من تعليم حنانيا ومسيحيّي دمشق، ثمّ من تأمّلاته في الكتب والأَنبياء، وبما تلقّنه في مدرسة الرسل، ومن شهاداتهم الحيّة، كان بولس قد خزّن عناصر ثمينة من معرفته ليسوع، وقد شاء الربّ، أَن يرسّخ هذه المعرفة بإِيحاءات خاصّة، فاختطفه، في أَثناء تأمّله وصلاته، إِلى "السماء الثالثة"

(2 كور 12: 2)، وكشف له أَسراراً من الروعة والسموّ بحيث تعجز الكلمات البشريّة عن وصفها ؛ وقد كتم بولس هذه الرؤية في صدره سنوات، ولكنّها كانت في داخله ناراً تضرم كلّ كيانه، ونوراً يضيء قلبه، وفكره.

بتدخّل اللّه الخلاّق تحقّق، في بولس، تحوُّل حتّى الجذور، وانفصالٌ جوهريّ عن الماضي، وتوجّهٌ جديد كلّ الجدّة.كلّ ما هو بشريّ فيه مات، فبات ينهج نهج يسوع من موت، ودفن، وقيامة إِلى حياة قشيبة في الربّ يسوع.وهذه الحقائق لم تعد، لبولس، نظريّات لاهوتيّة وصوفيّة، بل كانت له وقائع أَكثر واقعيّة من أَحداث الحياة الماديّة، ولكن يتعذّر إِدراكها على من لم يخبرها، ولا يمكن تفسيرها إِلاّ بجنون الصليب.

لقد غدا نظر بولس المتبصّر المستـــنير بأَنوار الربّ يخترق غلاف وجودنا الأَرضيّ لكي يغوص في صميم " الإِنسان الداخليّ "، ولا بدعَ إِن ارتدت بعض العبارات التي تتكرّر في رسائله مثل التأَلّم مع المسيح، والموت والدفن والقيامة والسيادة معه، والاندماج والتشبّه به، غموضاً يعسر على غير المتمرّسين اختراقه، فهي تحمل من المعاني أَكثر ممّا تتحمّله الكلمات.

و ستكون الوحدة الجوهريّة بيسوع هي أَساس تعليمه وعامل ترابطه، فيسوع هو له البدء والنهاية، كلّ شيء يتمّ فيه، وبه، ومن أَجله.

من هذه المعارف السامية كان على بولس أَن يستخلص ما سمّاه " إِنجيله " أَي مادّة رسالته، والخطوات العمليّة التي تقتضيها.وقد استغلّ فترة الترقّب تلك، في موطنه، لبلورة هذا "الإِنجيل "، ولصوغ أَدواته الصوفيّة واللاهوتيّة والعمليّة التي ستمكّنه من حمل كلام المصلوب إِلى جميع أَطراف الأَمبراطوريّة الرومانيّة.

و قد أَسهمت فترة الترقّب والتأهّب هذه في تجريده من يهوديّته، ومن مظاهرها وممارساتها الخارجيّة التي طالما أَزرى بها يسوع، والتي استعاض عنها بلفظةٍ سحريّة، جمّة المعاني، متمادية الأَصداء، لا يحيط بها وصف : المحبّة.لقد سقطت يهوديّة بولس تلقائيّاً مثل ثوبٍ خَلِقٍ، ولم يحتفظ منها إِلاّ بعلاقة وثيقة مع الربّ، وبمجاورة حميمة للأَزليّ.

و في تلك الصحراء النفسيّة الموحشة، توغّل بولس في استخلاص العبر من نظرته المسيحيّة الجديدة، وفي صبغ سلوكه بأَلوانها، وفي تحوّله الداخليّ وفقاً لمقتضياتها. وقد أَكمل تنقية نفسه، وتجريدها من روابطها الأَرضيّة، ومن شوائب أَنانيّتها.وكان آخر ما تعلّمه التجرّد عن فرحة التمتّع بثمار جهوده، والإِيمان بأَنّ العمل كلّه هو عمل اللّه، وأَنّ الرسول إِن هو إِلاّ أَداة بيده.

بالإِجمال، كانت السنوات السبع التي تلت اهتداءه، سنوات نضجٍ داخليّ أكثر منها سنوات نشاطٍ خارجيّ، وكان، خلالها، ينمو ويتقوّى في المسيح، جاهداً في بلوغ الإِنسان الكامل، و" ملء قامة المسيح "، متأهّباً تأهُّباً كثيفاً لرسالته.

سنوات الانتظار الصامت تلك كانت سنوات نضج واغتناء روحيّ، سنوات سبات الحبّة في الأَرض قبل انبثاقها سنبلة زاخرة بالخير : سنوات إِلهامات إِلهيّة تستمطرها صلواته الحارّة، وينسّقها فكره النيّر المنيع في رؤية شاملة مضيئة، ممّا أَتاح له الالتقاء بصوفيّة يوحنّا الإِنجيليّ، أكثر ممّا فعل سائر الإِنجيليّين.

و من المحقّق أَنّ الترقّب الصامت كان صعباً على شخصٍ مثل بولس متحفّز الإِرادة، متوقّد الغيرة، جيّاش الطاقات.ولكنّ يسوع، وإِبراهيم، وجميع الأَنبياء، انتظروا ساعتهم في صمتٍ وصبرٍ وثقة، وقد اقتضى هذا الانتظار منهم قوّة مراس نادرة، في حين أَنّ الضعفاء ينطلقون قبل الأَوان فلا يصيبون هدفهم، أو ينطلقون متأخّرين، فيفوّتون الفرصة.

و كان بولس يستعين على الصبر بالعمل اليدويّ الذي يقيم به أَوَده.فبعد أَن أَنكره والده عمل حائكاً في حيٍّ بعيد، وإِذ كان يعالج خيوط الشعر والصوف الخشنة، ويقذف المكّوك بإِحدى يديه كي يتلقّاه باليد الأُخرى، كانت أَفكاره تغوص في لاهوت يسوع، ونفسه تستغرق في الصلاة، وفي شكر العليّ لهذه المحنة الجديدة، وهذا الانتظار الشديد الوطأة على رجلٍ مثله، متوثّب الديناميكيّة.لقد كان له الانتظار درساً قاسياً في التواضع، والتمرّس بالإِيمان، والشجاعة والصبر.

و بعد أَن لفظه المجتمع اليهوديّ التفت إِلى المجتمع الهلّيني، وفي ساعات فراغه كان يطوف بالمدينة ويصغي إِلى الخطباء اليونانيّين، وهم ينثرون في الهواء حكمة المفكّرين القدامى.وكان يختلط بالطلاّب، ويراقب جدالهم، ويتلقّن فنّ التعليم، وأَساليب النقاش، ويتمكّن من لغة هوميروس.لم يكن في حاجةٍ إِلى تعاليم الفلاسفة الذين لا يملكون ما يضيفونه إِلى إِيمانه بيسوع، ولكنّه كان في حاجة إِلى تعلّم طُرُق تفكير القوم لكي يستطيع مخاطبتهم باللغة التي يحسنون فهمها، ويكون سفير يسوع بين الوثنيّين.

و لا ريب أَنّه، في تلك الأَثناء، لم يهدر سانحة للكرازة ونشر بشرى الخلاص، فتبشير الوثنيّين مهمّة أَوكلها إِليه الربّ شخصيّاً، ولا مفرّ له من الاضطلاع بها، كلّما وجد إِلى ذلك فرصة.ولكنّه كان، آنذاك، يعمل وحيداً، وفي صمت، بعيداً عن كلّ ضجيج، فيعمّد الذين أَنار قلوبهم الإِيمان بيسوع، ويشترك معهم في طقوس الإِفخارستيّا والصلاة الجماعيّة.

غير أَنّ هذا النشاط الرسوليّ كان لا يزال فرديّاً محدوداً، وبولس كان يتطلّع إِلى نشاط على مستوى الكنيسة والعالم.

الفصل الخامس : تأهّب للرسالة

انطلاقة الرسالة من أنطاكية

فيما كان بولس، في طرسوس، يكمل تأهّبه النفسيّ والروحيّ، كان تاريخ المسيحيّة العالميّ يخطو خطواته الأُولى، وربّما كان لبولس، في ذلك، يدٌ على غير علمٍ منه.فالاضطهادات التي كان قد شنّها على أَتباع الناصريّ، واستهلّها برجم استفانس، قد دفعت بجماعات من المسيحيّين، ولا سيّما الهلّينيّين منهم، إِلى خارج فلسطين، وأَخذ التبشير بيسوع يتخطّى نطاق اليهود، ويتوجّه إِلى الوثنيّين في فينيقيا، وقبرص، وسوريّة، ويستميل جموعاً غفيرة.وقد استقرّ بعض المسيحيّين الجُدد في أَنطاكية، حيث تألّفت، للمرّة الأُولى، جماعة مؤمنين قوامها معمّدون من قبرص، والقيروان، وبلدان حوض المتوسّط، وتجرّأوا على التحدّث إِلى الوثنيّين عن المسيح وعن تعاليمه.

كانت أَنطاكية، آنذاك، من كبريات مدن الأَمبراطوريّة الرومانيّة، بل ربّما أَكبرها، بعد روما، كانت عاصمةً لسوريّة، وحجر زاوية الحكم الرومانيّ في الشرق الأَوسط، وفيها كان يقيم والي سوريّة الرومانيّ.

كان يقطنها نحو خمس مئة أَلف نسمة، هم خليط من مختلف الأَجناس، واللغات، والديانات، ومزيج من شرق وغرب، وقد جاور فيها السوريّين الهلّينيّين غرباء قدموا من شتّى أَرجاء الأَمبراطوريّة، من إِيطالية وصقلّية، ومقدونية، وآسية الصغرى، وفينيقيا، وفلسطين، وليبيا، والقيروان، وجميعهم ينعمون بفيء السلم الرومانيّ.

و كانت أَنطاكية مركزاً حضاريّاً هامّاً يضاهي كبريات عواصم الحضارة مثل الإِسكندريّة، وأَثينا، وأفسس، بل روما نفسها، وكانت تزدهي بأَفضل المدارس وأَغنى المكتبات.وقد اشتهرت بخطبائها، وأَبرزهم ليبانيوس، وحقوقيّيها، وكانت تجتذب باستمرار جموعاً من كلّ منشأ ومذهب ولون ولغة، بفضل مسارحها، واحتفالاتها الصاخبة، ومبارياتها الرياضيّة، ومكتباتها العامرة.

و في حين استعصت أورشليم على التنظيم الرومانيّ، وظلّت فيها الخميرة اليهوديّة تشيع الاضطراب، وظلّ هيكلها مثل بركان ينذر أَبداً بالانفجار، فاحتفظت شوارعها بفوضاها وروائحها الكريهة، امتزجت، في أَنطاكية تأثيرات رومانيّة ويونانيّة بالخصال السوريّة، فبدت المدينة مبنيّة وفق تناغم هندسيّ رائع، قسّم المدينة إِلى أَربعة أَحياء متنافسة، في روعة

هياكلها، وحمّاماتها ذات المياه المعدنيّة، وعمدها الشاهقة ذات التيجان المنحوتة، وميادين سباقها.وكانت تخترق المدينة ثمانية كيلومترات من الطرقات المرصوفة بالرخام.

كانت تدعى " الجميلة " أو " المذهّبة "، وتستأهل هذه التسمية بسبب إطارها الماديّ وثرواتها. فقد كان سهل العاصي يبسط بساتينه، ونخيله، وحقوله، في غنىً لا ينفد، وكانت مياه النهر، بلونها الأخضر الشاحب، تناطح الجسور الحجريّة المشادة فوقه.

و في أنطاكية كان يُتاجَر بكلّ ما يمكن بيعه وشراؤه، فقد كانت مدينة أعمالٍ ناشطة، ومدينة ترف وبذخ، ومدينة مسرح وفنّ، مثلما كانت موطن جميع الرذائل.

فمعبد الإلاهة دافني، وحده، كان يؤوي، بين أسواره الفخمة التي تحيق بنحو مئتي هكتار، أكثر من ألف " كاهنة " مكرّسات لطقوس الإلاهة الخلاعيّة، حيث تنفلت الغرائز البهيمية من كلّ قيد.

و كانت أنطاكية تضمّ واحدة من أكبر الجاليات اليهوديّة، وقد ناف عدد أفرادها على خمسين ألفاً.كانوا يتعاطون جميع ألوان التجارة، والصرافة، والصاغة، والمهن، وكانوا يتمتّعون بالنفوذ والامتيازات، وينعمون بنوعٍ من الاستقلال القضائيّ والثقافيّ، ويملكون عدّة مجامع ؛ ولكنّهم أُشبعوا بالثقافة الإغريقيّة، وانفتحوا على محيطهم، واجتذبوا كثيرين من اليونانيّين الذين كانوا يغشون المجامع حيث تتلى التوراة في ترجمتها اليونانيّة، والذين كانت قد استهوتهم فكرة الإله الواحد، ولكنّهم لم يخطوا الخطوة الحاسمة نحو الالتزام بجميع فرائض الشريعة، وكانوا يُعرفون باسم "متّقي اللّه".

غير أنّ احتكار اليهود للتجارة، وجشعهم، وتكدّس الثروات بين أيديهم، كانت تثير حسد الكثيرين من الأنطاكيّين، ونقمتهم عليهم.

إلى تلك المدينة المتعدّدة الوجوه نزح من أورشليم كثيرون من المسيحيّين من أصلٍ هلّينيّ، في أعقاب استشهاد استفانس، واستفحال الاضطهاد الذي انصبّ خاصّة عليهم.وفي الحال شرعوا يبشّرون اليهود في المجامع، غير أنّ بعضهم، ولا سيّما القبرصيّين، والقيروانيّين بشّروا اليونانيّين، و" متّقي اللّه " من الوثنيّين المتعاطفين مع اليهود.

ويقول سفر أعمال الرسل : " كانت يد الربّ معهم، فآمن منهم كثيرون، واهتدوا إلى الربّ".

و سرعان ما نمت جماعة المسيحيّين في أنطاكية، وتولّى قيادتها أشخاص مرموقون، أمثال سمعان الملقّب بالأسود، ويُرجّح أنّه سمعان القيروانيّ الذي ساعد يسوع في حمل صليبه إلى الجلجلة، ولوكيوس القيروانيّ، ومناين وهو أخٌ بالرضاعة للتترارخس هيرودس أغريبا انطيباس، الطاغي الذي أمر بقطع رأس يوحنّا المعمدان وهزئ بيسوع.صبيّان ربيا معاً في

حضن أُمٍّ واحدة وأصبح أحدهما طاغية مجرماً متواطئاً على مقتل الربّ، في حين أَصبح الآخر داعية من دعاة يسوع وركناً في كنيسته.ويُعتقد أَنّ الطبيب والكاتب لوقا الذي أَصبح الإِنجيليّ الثالث كان من أَوّل الذين آمنوا بيسوع، في أنطاكية.

في فترة أولى، كان المسيحيّون الجُدد يغشون المجامع اليهوديّة للصلاة، ويبدون وكأَنّهم يمثّلون إِحدى شِيَع اليهود.ولكنّهم، بعد أَن تكاثرت أَعدادهم، في أَنطاكية، وغلب على جماعتهم الطابع الهلّينيّ الذي كان أَقلّ التزاماً بفرائض الشريعة، وأَكثر انجذاباً إِلى تعاليم يسوع الجديدة، شرعوا يتميّزون كفئةٍ منفصلة، لها أَخلاقيّة خاصّة، وطقوس مميّزة؛ فنأوا عن اليهود ومجامعهم، ونأوا أَيضاً عن ممارسات الوثنيّين التي كانت تصطبغ بفوضى أخلاقيّة مريعة ؛ وانتحوا مكاناً منعزلاً يمارسون فيه دين الطهر والنقاء، بعيداً عن مستنقعات الفجور، ويحيون ذكرى يسوع وعشائه السرّيّ.

و تنامت أَنباء ازدهار كنيسة أَنطاكية إِلى أورشليم، وتوجّس أَساطين الكنيسة هناك خشيةً من أَن يتّخذ التبشير، في تلك البيئة الوثنيّة، منحىً يشذّ عن الإِيمان القويم، فأوفدوا برنابا لتقصّي الأَمر، والتأكّد من صحّة التعليم.وكان اختيار برنابا لهذه المهمّة اختياراً موفّقاً، فهو رجل ثقة متحرّر القلب والفكر، كان قد اهتدى إِلى المسيحيّة على يد زعيم الشهداء استفانُس ؛ وتلقّى تعليماً أَصيلاً على يدي بطرس ويعقوب، ويمتلك إِيماناً منيعاً، وحكماً سريعاً صائباً، ويحسن التمييز بين العَرَضيّ والجوهريّ، ولا يخشى المعارضة ؛ ويتمتّع بالحكمة والتبصّر، وقادر على مواجهة الأَمر بدراية وسكينة، وعلى التفاهم مع أولئك القوم القريبين منه جغرافيّاً وثقافيّاً، فضلاً عن كونه هيلّينيّاً، متملّكاً من الثقافتين العبريّة واليونانيّة ؛ وفوق كلّ ذلك كان " رجلاً صالحاً ممتلئاً بالروح القدس والإِيمان ".ولمّا رأى النعمة التي وهبها اللّه للمؤمنين فرح، وشجّعهم كلّهم على الأَمانة للربّ بكلّ قلوبهم. لقد أَثلج صدر برنابا ما رأى من ازدهار للمسيحيّة في أَنطاكية، وتأكّد له أَن ما بُدئ به لا بدّ من ترسيخه وتوسيعه ؛ وبالفعل كان عدد المؤمنين الجُدد على تزايد مطّرد، وقد بلغ " جمعاً غفيراً " ؛ واتّضح له أَنّه سيعجز بمفرده عن تلبية احتياجاتهم الروحيّة.فلا بدّ له من معاونين مؤهّلين، مشبعين بروح يسوع، ومتحرّرين من العصبيّة اليهوديّة، لكي يكونوا قادرين على التفاعل مع العالم الوثنيّ والتأثير فيه.وسرعان ما قفز إِلى ذاكرته صديقه الذي ظهر له يسوع عند أَبواب دمشق، ذو العينين المتوهّجتين، والقلب المضطرم، والذي قدّمه بنفسه لبطرس، وكفله لدى جماعة المؤمنين في أورشليم.

كان برنابا موقناً أَنّ الربّ قد اختار بولس ليكون رسوله إِلى الأُمم، وها إِنّ الفرصة لذلك قد باتت مؤاتية ؛ فعلى بولس أَن يتدرّب، في أنطاكية، على تبشير الوثنيّين، على أَن

ينطلق، من هناك، إلى العالم الفسيح.أكثر من أيٍّ سواه من المسيحيّين الأوائل آمن برنابا أنّ خلف طباع شاول الحادّة كانت تتوارى ألماسة فريدة نادرة، لا تحتاج إلاّ إلى شيء من الصقل، وأنّ ذاك الذي كان يثير المتاعب، وهواجس البعض، وحسد الآخرين، إنّما هو إناء مختار، وقد أذنت ساعته ليكون نوراً وهّاجاً للأُمم.

بهذه المبادرة النبويّة الثانية أثبت برنابا تباينه في الرأي عمّن حاولوا أن يُقصوا عن خيمة الجماعة المسيحيّة صانع الخيام المتميّز.ومرّةً أُخرى، وضع برنابا يده في النار، دعماً لصديقه الذي ما انفكّ موضع شُبهات وريبة.وقد أكّدت الأيّام أنّ حدسه كان ثاقباً، وأنّ رؤيته كانت بعيدة المدى، فمكانة بولس، في المسيحيّة، لا تتدنّى عن مكانة أساطين الكنيسة، لا بل تسمو على مكانة الكثيرين منهم، وأثره قد تغلغل إلى أقاصي المسكونة، وقد انتشرت، في جميع الأماكن التي يقطنها مسيحيّون، كنائس وكاتدرائيّات تحمل اسمه.

فيما كان بولس مستغرقاً في أحلامه وتأمّلاته، في مشغله المعتم، وقف بالباب رجل مديد القامة، بهيّ الطلعة.وقفز بولس، واحتضنه بشوقٍ وحرارة، وهو يهتف " برنابا، برنابا، أهلاً بك ! ".

في تلك الليلة افترش الصديقان حصيرة على سطح البيت الذي كان يقطن فيه بولس، وتحت السماء الصافية، والنجوم المتلألئة، راحا يتبادلان الأخبار عن أورشليم، والرسل، والجماعة، والاضطهادات التي شنّها هيرودس الشرس، بعد أن أطلق كاليغولا يده، وجعل منه سيّد فلسطين بلا منازع، فأعدم يعقوب، وسجن بطرس.

و لم يكن برنابا يحمل أنباءً مشؤومة فحسب، بل إنّه أطلع بولس على أمرٍ مثير.فبعد أن كان النشاط الرسوليّ حكراً على الأوساط اليهوديّة دون سواها، وبعد أن تأسّست جماعات في جوبّة، وقيصريّة، وقبرص، والإسكندريّة، ووادي النيل، والحبشة، برزت في أنطاكية سورية نزعة جديدة ومختلفة، فالبشارة هناك قد انتشرت كالنار في الهشيم، واستقطبت يهوداً ووثنيّين على السواء، يعيشون جنباً إلى جنب في جماعة واحدة.ولكنّ هذا الأمر أقلق شيوخ أورشليم الذي خشوا التجاوزات، والحياد عن السراط المستقيم.

و قد تبيّن برنابا أنّ كنيسة أنطاكية أصيلة وحيّة، وملتزمة بتعاليم يسوع ؛ غير أنّ فئة من مسيحيّي أورشليم ارتأوا أنّ عماد وثنيّين لم يُختَنوا هو عمل تدنيس، وحرّموا على المسيحيّين الجُدد، حتّى القادمين من الوثنيّة، تناول لحوم من ذبائح غير شرعيّة، أو من تقادم الأوثان التي كانت تباع بأسعارٍ زهيدة بمتناول الفقراء، أو توزّع عليهم مجّاناً أحياناً.هذه

الممارسات الظاهريّة التي كانت تستفزّ حساسيّات اليهود، ولا تلقى من اليونانيّين سوى اللامبالاة والازدراء، باتت قضيّة شائكة مستعصية.كان برنابا، على غرار بطرس الذي تلقّى ذلك من الربّ نفسه، مؤمناً بأَنّ ما من إِنسان رجس في ذاته أو غير طاهر، وأَنّ لا نجاسة تهبط على المرء من الخارج، بل هي تنبع من القلب، وأَنّ لا شأن للختان أو للطعام، بل كلّ الشأن هو للإِيمان بيسوع.ولكنّه لم يكن قادراً على تجاهل تشدّد المتهوّدين من المؤمنين، وتأثيرهم.ولذلك جاء ملتمساً عون بولس، فهو أَقدر على التفاهم مع الهلّينيّين، وجدير بأن يكون رسول يسوع إِلى الوثنيّين، كما أَنّه متعمّق في معرفة الشريعة.

هذه الدعوة أَشرعت أَمام مخيّلة بولس آفاقاً وُضّاءة ملكت عليه كيانه، فراح يحلم بغزو العالم، واستمالته إِلى دين يسوع.أوَ لم ينبئه يسوع، على مشارف دمشق، أَنّه اختاره رسولاً للأُمم؟ وها قد أَذنت الساعة، وبات بمكنته أَن يحقّق هدف حياته الأَسمى.لم يحتج برنابا، إِذن، إِلى حججٍ كي يقنع صديقه بهجر كلّ شيء في الحال، والمجئ معه إِلى أَنطاكية، فلطالما انتظر بولس ساعته في طرسوس، وها هي تحين بغتة، في بساطة مطلقة؛ هكذا هي سُبل اللّه، قد تبدو لنا غامضة أَحياناً، ولكنّها، دائماً عظيمة ومدهشة، فاللّه هو الذي يختار ويوقّت، ويرسم الطريق، وكما قيل يكتب كتابة مستقيمة بأَسطر متعرّجة أَحياناً.

هاجس التبشير بيسوع المخلّص كان الرابط بين الرجلين اللذين كانا يكمل أَحدهما الآخر.فبرنابا نبيٌّ ذو كلام ملهم، وبحاجةٍ إِلى " معلّم " يتولّى التثقيف.وقد تعلّم بولس من برنابا أَنّ التنبّؤ الصحيح ينبغي أَن يندرج في عالم واقعيّ، وأَلاّ ينحصر في عالَمٍ صوفيّ بعيد عن منال العامّة.فالتنبّؤ يعني لبرنابا سكب العزاء في قلوب الآخرين، وشدّ إِزرهم، ممّا يقي النبيّ من الظهور بمظهر الثرثار الذي لا طائل منه، والذي كان اليونانيّون يشبّهونه بالساحر. هذا الدرس كان ذا فائدة جُلّى لبولس، الذي كان يملك قدرة التكلّم بلغات، ولكنّه أَدرك بطلان هذه القدرة إِن هي لم تعُدْ على الجماعة بالفائدة ؛ وتيقّن أَنّ من يتنبّأ لا يتكلّم لنفسه، بل لتبليغ الآخرين رسالة، ولكي يبني، ويشجّع، ويفسّر، ويعزّي، ويستهدف خدمة الآخرين، ويثـــقّفهم بلغة يفهمونها.

و قد أَرشد برنابا بولس إِلى أُسلوب تعليم اليونانيّين والرومانيّين وفقاً لعقليّتهم الخاصّة، وما انفكّ إِزميله يزيل الشوائب عن جوهرة المسيح، ويحمله على جعل تبشيره لا مجرّد برهنة عن الحقيقة، بل جاذباً إِلى اتّباع يسوع.وهكذا، بفضل برنابا، أَصبح بولس رجل اتّصال ممتازاً.

و قد أَقنع بولس برنابا بأَنّ مصداقيّة التبشير تعتمد على مجّانيّتها ؛ وحمله على مشاركته في مزاولة عمل يدويّ كفيل بإِعالتهما في أَثناء اضطلاعهما بمهامّها الرسوليّة ؛

ولئن كان بولس قد اعتاد، منذ صباه، العمل اليدويّ، إلاّ أنّ مثل هذا العمل كان جديداً على برنابا، وهو سليل أُسرةٍ من أَغنى الأُسر اليهوديّة، ومع ذلك لم يحجم عنه، بغية تدعيم تبشيره في عيون الوثنيّين الذين كانوا يزدرون كهنتهم الجوّالين المتسوّلين، وبعض المبشِّرين اليهود الذين ينهجون نهجهم ؛ فقد كان اليونانيّون يعتقدون أَنّ التبشير الأَصيل الصحيح لا يقتضي مقابلاً، فحتّى فلاسفتهم كانوا يرتضون بحياة مُغرقة في التقشُّف.

و في سبيل الرسالة عزفا كلاهما عن الزواج، والتزما بالعزوبة، كي ينعما بحرّيّة عمل مطلقة، في حين كان بطرس وسواه من الرسُل يفرضون على الجماعات التي يبشّرونها إِعالة أُسَرهم.

لمّا أَطلّ الرجلان على سهل أَنطاكية أَخذت روعته من نفس بولس كلّ مأَخذ، فالعاصي يتألّق في وسطه مثل شريط فضيّ، وفي مياهه تتهادى عشرات المراكب الشراعيّة، وقد انتظمت من حوله، انتظام حبّات عقد، دارات كاللآلئ، بمرمرها العاجيّ، فيما انتصب، مختالاً على سفح هضبة سيلبيوس، مسرحٌ فخم، ومن حوله انتثرت القصور والمعابد، الأكروبول والبانثيون، وتمثال زوس الجسيم، والسوق، والمسارح، والملاعب، وبحرٌ من البيوت المتفاوتة الأَحجام، حيث يجاور الغنى الفاحش الفقر المدقع، ويجاور البطرُ العوَز الممضّ.غير أَنّ بولس لم يتوقّف عند مجالي الجمال المنبسطة أَمام ناظريه، بل راح يحلم بجمالٍ فائق، خالد، لا غبار عليه، جوهريّ، غير زائل، يشترك الجميع في صنعه والتمتّع به.وقد استشفّ وراء تلك الواجهة البرّاقة، وفي صميم تلك المدينة الضاجّة بكلّ علم وفنّ، ومتعة مرهفة، جوعاً إِلى حقيقة سامية، إِلى اللّه.

قبل انحدارهما إِلى المدينة، جثا الرسولان ودعيا، معاً، العليّ كي يبارك مشروعهما ويحمي الكنيسة الفتيّة وينمّيها.ثمّ تجاهلا التعب المتغلغل في جسديهما، وحثّا الخطى إِلى حيث أَلِف أن يجتمع " القدامى ".ورحّب هؤلاء ببولس الذي حظي برؤية الربّ.وفي أَثناء العشاء ازدحمت القاعة بالإِخوة الذين جاؤوا مرحّبين بالرسولين، وأَصغى بولس، بدهشة وجذل، إِلى الشيوخ وهم يسردون، في حميّة الشباب وحماسهم، نشأة كنيسة أَنطاكية، وامتلأ إِعجاباً بصفاء إِيمانهم وعمقه، وبعدد المؤمنين الغفير.تلك الجماعة التي كانت ما برحت مشبعة بالنعمة والنقاء، والتي لم تلجم اندفاعها، بعدُ، أَيّة رتابة، سيلقِّحها بولس بحضوره، وورعه، وقوّة شخصيَّته، ومعرفته الراسخة بالكتب، وثقافته الرفيعة، وخطابه المؤثّر، فيعطيها دفعاً فريداً.

كان لأَنطاكية مجلس شيوخها برئاسة برنابا، وفي بادئ الأَمر لم يكن بولس سوى مساعد لبرنابا، غير أَنّه سرعان ما تميّز بقوّة شخصيّته، وأَصالة كرازته، فقد أُتيحت له فرصة

بذل ملء طاقاته، في جماعة فتيّة، ما زالت منتعشة بندى نعمة الإيمان، في حين كان، هو، منتشياً باندفاع رسول يباشر مهمّته، منزّهاً من التبلّد، والرتابة، وضيق التفكير. آفاقة رحبة، وقلبه يتدفّق سخاء، فيما ينفخ الروح أَشرعة سفينته ويدفعها برفق.

كانت عبقريّة بولس في حاجة إِلى ميدان تبرز فيه، وقد وفّر له الربّ أَخيراً، عبر برنابا، هذا الميدان، فكانت السنة الأُولى التي قضاها في أَنطاكية، من أَسعد أَيّام حياته.

كان دائباً على التعليم بعد أَن خرج من إِطار المجمع، وراح يبشّر في الأَحياء والأَزقّة على غرار الفلاسفة الجوّالين ؛ فهو يخاطب النسوة، وهنّ يغسلنَ امتعتهنّ على ضفاف العاصي، والعمّال الكادحين في قطاعي النقل والزراعة.وفي المساء، كان يتحلّق، من حوله، مهنيّون، وبائعون، وعبيد، كي يصغوا إِلى كرازته، فيحدّثهم عن يسوع، ابن اللّه العليّ، مرسل الآب لإِعلان بشرى الخلاص، مؤكّداً لهم أَنّ المحبّة كفيلة بتوفير الخلاص، فدين يسوع هو، جوهريّاً، دين محبّة.

أَحاديثه عن يسوع التي كان كثيرون منهم قد سمعوها من سواه، كانت، على لسانه، تشيع صدى مميّزاً، ويتغلغل أَثرها في النفوس عميقاً، وتؤتي جنى خلاصيّاً وفيراً، لأَنّها كانت مضمّخة بخبرة بولس الشخصيّة للربّ على أَبواب دمشق، وبما تبلّغه من شهود عيان لا يرقى إِلى شهادتهم أَيّ ارتياب.وكان أولئك المستمعون المساكين الكادحون، في بؤسهم وانسحاقهم، يتطلّعون إِلى حياةٍ فضلى، وكان بولس يعرض لهم مشاهد مجد يسوع المنتصر على الموت، وما يوفّر الإِيمان به، والعيش وفق تعاليمه، من فرحٍ خالص، ومحبّة أَخويّة.

و قد زاد من سعادة بولس تبيّنه أَنّ الوثنيّين كانوا يتقبّلون بشارة الصليب، ببراءة الأَطفال، بلا تحفّظ، خلافاً لليهود الذين كانت لهم الشريعة، دائماً، لجاماً يحدّ من اندفاعهم، وقيداً يثقل خطواتهم.

كان بولس ما زال في عنفوان الجسم والعقل، وفي قمّة نضجه ونشاطه.وكان القوم البسطاء، الصادقون، المتعطّشون إِلى حبٍّ مجرّد، حقّ، يُقبلون بلهفة لتلقُّف بشرى خلاصهم من فمه، فتتألّق عيونهم، عندما يحدّثهم عن ابن اللّه، المكلّل بالمجد، الذي اتّخذ صورة عبد، وضحّى بحياته، ومات حبّاً بهم كي يسبغ عليهم نبل أَبناء اللّه وحرّيّتهم.وفي عشايا السبت كان الجميع يتحلّقون حول مائدة، ويكسرون الخبز معاً، ويحتفلون، عملاً بوصيّة المخلّص، بالإِفخارستيّا التي تظلّ ذكراها ونِعَمها تواكبهم طيلة الأُسبوع، ممّا كان يوثّق العلاقات بين الإِخوة، ويدعّم اتّحادهم بالمصلوب الإِلهيّ.

"في تلك الأَثناء كانت سفينة بطرس ما انفكّت في مرفأ أورشليم تقيّدها به حبال التقاليد اليهوديّة التي لم تفقد، بعدُ، كلّ سيطرتها.وكان لا بدّ من رجل إِلى جانب بطرس، جريء،

متحرّر من القيود، ولا يتحرّج من قطع الحبال، رجل لا يخشى التميّز عن الآخرين، وكأنّه هابط من السماء بين ظهراني البشر، معثرةً لبعضهم، وأحمق في نظر آخرين ؛ رجل يرتدي لباس المسيح، ورداء الإنسانيّة، رجل شابّ، نضر، مثل خمرة جديدة ؛ رجل جديد وقديم في آنٍ واحد، لأنّه يعمل في حقل قديم، ويحمل كلّ قديم بشريّ لا يموت، وكلّ الاحتياجات ومواطن العجز التي خبرَتها البشريّة عبر القرون، كما إنّه يحمل غنى مكتسبات أجيال لم يهملها الربّ، غير أنّه يتدفّق بنسغٍ جديد، ديناميكيّ، متفجّر، مفعم ثقةً وإقداماً، ولا يبتغي سوى الانطلاق إلى الأمام.

" مثل هؤلاء الرجال الجُدد، لا يوجدون جاهزين، بل يُصاغون من معدن قديم، من معدن يُحمى حتّى يبيّض ويلين ؛ وهم، عادةً، من المهتدين حديثاً إلى يقين يأخذ بجماع قلوبهم ؛ إنّهم يختلفون عن سواهم ؛ إنّهم كتلة واحدة متماسكة، فهم بأكملهم في خدمة من هو الكلّ، يأبون كلّ تأويل، وتأرجح، ومساومة، لأنّ الربّ لم يساومهم عندما استولى على كيانهم، بل دفعهم دفعاً، وأعاد توجيههم، وعلّمهم استخدام كلّ طاقاتهم الاستخدام الصحيح" (الأب مونييه)، وكان بولس من هذا المعدن الذي عالجه الربّ بنفسه.

لقد اختاره الربّ أداةً مميّزة، اختار رجلاً كما أراده ويريده، بكلّيّته، من غير انقسام ولا تشويه، اختاره يهوديّاً فرّيسيّاً، أي متشدّداً في ممارسة فرائض دينه، خَبَر، بعمق، بطلان الطقوس اليهوديّة الخارجيّة، والختان، ونير الشريعة المرهق، وعجز كلّ مقتضياتها عن تبرير الإنسان.فلو كان بولس، قبل اهتدائه، أقلّ تشدّداً في يهوديّته، لكان أقلّ تحرّراً من ربقتها، وأقلّ جرأةً في الدعوة إلى التحرّر منها، وفي نبذ قشرة الشريعة الخانقة للنفاذ إلى لبّها.

اختاره الربّ متميّزاً : فهو ليس منظّراً مدرسيّاً، بل من أصحاب العزيمة الذين يفوزون بالملكوت.ليس مفكّراً منهجيّاً، بل هو إداريّ حازم، ويرى كلّ فلسفة ضئيلة الشأن، بالمقارنة مع حياة يسوع وتعليمه.وإن لم يكن تفكيره فلسفيّاً، غير أنّه متماسك مثل جسد حيٍّ.فهو يعيش مع المسيح وله وفيه، وهدفه جمع العقول والقلوب على حبّ يسوع. إنّه يلقي بكلّ كيانه في إثر يسوع كي يقبض عليه مثلما أحكم يسوع قبضته عليه، وفي ذلك تكمن أصالته، ويكمن غناه.

لقد سحر بولس الأنطاكيّين بحرّيّته، وصدقه، وجرأته، وتحرّره من قيود الشريعة، في جميع مسالك الحياة، من أكل وشرب، واغتسال، تلك القيود التي كان سائر الرسل لم يتحرّروا منها بعد، بقدرٍ كافٍ.

لقد أمضى بولس سنته الأُولى في أنطاكية، إلى جانب برنابا، كارزاً، معلّماً، مثقّفاً المهتدين الجدد، معرّفاً بأسرار المسيح.وكانت تلك الكنيسة تتمتّع بحيويّة عارمة، وتتجلّى فيها

مواهب الروح بهيّة، كثيرة، يوماً إثر يوم.ولكأنّ غرسة الإنجيل التي زرعت في تلك التربة الغريبة قد نمت نموّاً سريعاً، مرسّخة جذورها مادّة فروعها بعيداً.

و سرعان ما غدت كنيسة أَنطاكية كبرى الكنائس وأَغزرها عدداً، فضلاً عن كونها كنيسة متميّزة متحرّرة من اليهوديّة، مسكونيّة، تجمع على تناغم مختلف الأَجناس، وأَقواماً قادمين من مذاهب متنوّعة، وطبقات اجتماعيّة متباينة، محقّقة نظرة يسوع التي غمرت العالم كلّه بحبٍّ واحد ؛ يسوع بذل ذاته للعالم أَجمع، وفي أنطاكية، وهب العالم أَجمع ذاته ليسوع.

و كان لبرنابا وبولس فضل إِخراج المسيحيّة من الظلّ إِلى الشمس، ومن مجمع اليهود، إِلى الهواء الطلق والعالم الرحب.وعلى خلاف الجماعات الدينيّة، يهوديّة كانت أَم وثنيّة، التي كانت تدعى باسم دعاتها، لم تنتسب المسيحيّة في أَنطاكية إِلى برنابا أو بولس أو سواهما من الشيوخ والمعلّمين، الذين عرفوا التواري خلف معلّمهم، وانتسب المؤمنون إِلى يسوع مباشرة.

و اتضّح جليّاً للجميع أَنّ هؤلاء المسيحيّين يتميّزون عن جميع الآخرين، يهوداً كانوا أَم وثنيّين، في سلوكهم اليوميّ، وفي أخلاقيّاتهم وعباداتهم وطقوسهم، فأَطلق عليهم الأَنطاكيّون، للمرّة الأُولى، اسم " المسيحيّين " الذي باتوا يُعرَفون به في أنطاكية وفي العالم.

و ربّما انطوت هذه التسمية، من قبل الأَنطاكيّين، على نغمة ازدراء وشفقة، فزُهد أؤلئك القوم في طيّبات العيش، وإِيمانهم بما لا يقرّه العقل دائماً بسهولة، ومحبّتهم لجميع الناس، ولا سيّما الأَعداء، كلّ ذلك كان، في نظر بعض الوثنيّين، مدعاة للسخرية.

غير أَنّ بولس والمسيحيّين الأَنطاكيّين رأوا في تلك التسمية مبعث اعتزاز وافتخار، وأيّ فخر أَعظم من انتساب إِنسانٍ إِلى ربّه ؟

و لئن اندثرت، فيما بعد، كنيسة أَنطاكية، بفعل أَحداث سياسيّة قاهرة، إِلاّ أَنّ لقب "المسيحيّين " الذي عُرف به أتباع يسوع في أنطاكية، قد تحدّى الأَحداث كلّها، واجتاز الأجيال، وسيدوم ما دام العالم.

في ذلك العهد أَصبحت أنطاكية مهداً آخر للمسيحيّة، ومحرّك الدعوة المسيحيّة في العالم، وترسانتها الروحيّة المتقدّمة، وسط العالم الوثنيّ، وكان لإِسهام بولس وبرنابا في هذا التحوّل اليد الطولى.فقد كان يسكنهما، كليهما، هاجس إِبلاغ بشرى يسوع إِلى شعب أنطاكية المزركش المتعدّد المشارب، الوثنيّ الخاضع لعبادة الأَصنام ولتأثير وثنيّة متألّقة، كَلِفة بالمظاهر البرّاقة، حيث كان الشعب يُنشد بصخبٍ لأفرودويت، ويكرّم إِلاهة الحبّ هذه بطقوس جامحة، تفلت فيها الغرائز من كلّ عقال.وفي هذا السياق كان تبشير الرسولين بمثابة ثورة حقيقيّة.فحتّئذٍ كان التبشير محصوراً في بيئة يهوديّة تحارب الأَصنام، ولكنّها، مع بولس

وبرنابا خرجت إِلى العالم الرحب، إِلى عالم مختلفٍ كلّ الاختلاف عن اليهوديّة.ومن أَنطاكية، أَقامت المسيحيّة رأس جسر إِلى العالم، وتوجّهت للمرّة الأُولى، وبكثافة، إِلى الوثنيّين.

مجاعة في أورشليم

كانت كنيسة أَنطاكية في غمرة البهجة والازدهار ؛ وكانت تقارير برنابا إِلى الكنيسة الأُمّ، في أورشليم، زاخرة بالتفاؤل، تثلج قلوب الرسل، وتحفز الكثيرين منهم على القدوم إِلى أَنطاكية للإِسهام في الكرازة، وإِقامة الشعائر.وبلّغ بعض القادمين بما تعانيه كنيسة أورشليم من ضيق، فالأَموال الناتجة عن بيع أَملاك " القدّيسين " قد نفدت، والموارد نضبت من جرّاء سوء الأَحوال الاقتصاديّة، وباتت المعاناة تزداد حدّة، يوماً إِثر يوم.

و ذات يوم حطّ الرحال، في أنطاكية، نبيّ يدعى أَغابس، تنبّأ بقرب حلول مجاعة في أورشليم ستكون عواقبها موجعة على المؤمنين هناك.

هذه الأَنباء المقلقة استفزّت أَريحيَّة مسيحيّي أَنطاكية، الذين لم يستطيعوا الاعتصام باللامبالاة تجاه إخوتهم في أورشليم، فهبّوا لجمع مساعدات لهم، وكانت تلك مبادرة أولى في سلسلة مبادرات لن تنقطع على مدى أَجيال.وكُلِّف برنابا وبولس بإِيصال الأَموال والموادّ التي تجمّعت، لكنيسة أورشليم.ولكي يوفّر بولس الفائدة القصوى من المساعدة، ابتاع بجزءٍ كبير من المال حنطةً وموادّ غذائيّة أَساسيّة، كانت قد باتت عزيزة المنال وغالية الثمن، في أورشليم ؛ وابتاع بغالاً لن يصعب بيعها بعد أَن تقوم بمهمّتها في إِيصال تلك السلَع إِلى غايتها؛ واستصحب ثلّة من الرجال الأَشدّاء كي يواكبوه هو وبرنابا.واحتاط لئلاّ تقع الحمولة بين أَيدي رجال هيرودوس، وعسَسه، وعيونه، فانتهج من الطرق ما يبقيه وصحبه في منأى منهم.

كان بولس توّاقاً إِلى رؤية أورشليم بعد غيابه عنها الذي امتدّ نحو أَربع سنوات، ولكنّه كان حَذِراً، متخفّياً، اتّقاءً لنقمة هيرودس، ورؤساء كهنة اليهود.وشقّت عليه رؤية مظاهر العَوَز المتجلّية في المدينة، ورؤية الكنيسة الأُمّ تجتاز فترةً من أَحلك أَيّامها، وأزمة من أَحدّ أزماتها ؛ ففضلاً عن المتربة والجوع الآخذين بخناقها، كان الملك الفاسد الشرس هيرودس أَغريبا، الذي تمكّن، بمناوراته الماكرة، من انتزاع سلطات مطلقة على فلسطين من الأمبراطور المجنون كاليغولا.وإِرضاءً لليهود، واتّقاءً لمكرهم، أَعمل في كنيسة المسيح اضطهاداً ضارياً، فأعدم كثيرين من أَعضائها، وفي طليعتهم يعقوب الكبير، ابن زبدى، شقيق يوحنّا الحبيب الإِنجيليّ، كما أَنّه زجّ بطرس في السجن، عشيّة عيد الفصح ؛ غير أَنّ ملاكاً من الربّ أَطلق سراحه، وقاده إِلى بيت مريم شقيقة برنابا وأُمّ يوحنّا الملقّب مرقس، ذلك البيت الذي كان يسوع قد تناول في علّيّته عشاءه الوداعيّ مع تلاميذه، ليلة آلامه، وفيه حلّ الروح القدس على التلاميذ، ثمّ أَضحى مقرّاً للكنيسة الناشئة ؛ وفيه تلقّى بطرس عناية المؤمنين،

الذين شكروا للربّ إِنقاذه العجيب، ثمّ سهّلوا له سُبل الهرب خارج فلسطين، إِلى العالم الرحب، حيث سيسهم بدوره في إِيصال بشرى يسوع إِلى الأُمم.

في ذلك البيت حلّ بولس وبرنابا وصحبهما، حيث سلّموا الأَمانة إِلى يعقوب ومريم، وانتهز بولس تلك الفرصة النادرة كي يستزيد اطّلاعاً على دقائق أَيّام يسوع الأَخيرة، ويتزوّد بشهادات عن مريم أُمّ يسوع ؛ فكلّ شيء في ذلك البيت كان يتحدّث عن يسوع وأُمّه، وعن ولادة الكنيسة.

لم تتريّث قافلة برنابا وبولس وصحبهما، طويلاً، في المدينة المقدّسة التي بدت لهم كئيبة في غياب بطرس ؛ غير أَنّهم عادوا بشاهدٍ آخر ملمّ بدقائق ثمينة عن حياة يسوع، هو الفتى يوحنّا الملقّب بمرقس، ابن مريم المذكورة وابن أُخت برنابا، الذي سيصبح، فيما بعد، الإِنجيليّ الثاني، والذي كان منذ صغره، مكرّساً للربّ.مرقس هذا كان قد أَسهم في إِعداد عشاء يسوع الأَخير مع الأثني عشر في علّيّة منزل ذويه، وراقب عن كثب أَقوال يسوع وحركاته، في تلك الليلة المشهودة التي انحفرت ذكراها في أَعماق نفسه.ولمّا شهد الجند ماضين للقبض على يسوع هُرع لإِنذاره، وقد تلفّع، على عجل بعباءة رقيقة ؛ وعندما حاول الجند القبض عليه، ترك العباءة بين أَيديهم، وفرّ، في ثنايا الليل، عارياً.كان شاهد عيان ممتازاً على صلب يسوع، وقيامته، وحلول الروح القدس، ونشأة الكنيسة، وكان يتقن اللغة اليونانيّة، ولهذه الأَسباب مجتمعة رأى فيه خاله برنابا خير رسول بين الوثنيّين، فجاء به إِلى أنطاكية، بُغيةَ إِعداده لهذه المهمّة الجسيمة.

قبل ذلك كان مرقس معاوناً لبطرس وأَمين سرّه، ولكن بعد أَن اضطرّ بطرس إِلى مغادرة أورشليم صبت نفسه إِلى خوض مغامرة الرسالة إِلى جانب خاله برنابا، وبولس.

في طريق عودتهم تلبّث أَفراد القافلة برهةً في الجلجلة، وتخشّعوا في مكان صلب يسوع، وتملّوا منه عزيمة وإِيماناً.

و تنفّس بولس الصُّعداء، عندما وطئت أَقدامه، ثانية، أَنطاكية، التي بات يشعر وكأَنّها موطنه، ففيها يُعلّم الإِنجيل، ويُعاش، بحذافيره، وبساطته، وشموليّته وحرّيّته، بعيداً عن قوقعة أورشليم، وغلواء اليهود المتهوّدين.وكان مسيحيّو أَنطاكية موضع اهتمام الكثيرين، فالبحّارة والمسافرون الغرباء يدهشهم قوم يعيشون متآخين، مهما تباينت أَجناسهم وثرواتهم، مؤمنين بإِله حبٍّ وعدل، لا إِله غضب وانتقام.أَمّا التجّار والصيارفة فتدهشهم استقامة المسيحيّين، وتعاطيهم التجارة في معزلٍ عن الغشّ والسرقة، وهو أَمرٌ كان يبدو محالاً.وبالإِجمال كانت الأَلسن تتناقل أَنباء دين جديد قائمٍ على المحبّة والتسامح.

و استأنف بولس وبرنابا عملهما الرسوليّ في أنطاكية فترة لا نعرف بالضبط مدّتها.وقد اغتنى تعليم بولس من جماعة أنطاكية وأغناها ؛ اكتسب هو من برنابا وأنبياء الجماعة وأكسبهم الكثير.وفي أنطاكية برزت مواهبه، وتبلور طابع رسالته الخاصّ، فهو لا يقصر تعليمه على المجمع، بل يبشّر في قلب المدينة، ولا يخشى التوجّه إِلى المسؤولين المدنيّين، ويأبى انتماء أيّ مؤمن إِلى شخصه ؛ يكتفي، عادةً، بالتعليم، ويدع لسواه مهمّة العماد والاحتفال بالطقوس.

كان بولس يؤثر المدن الكبرى حيث يلقى التبشير أصداءً بعيدة، وأنطاكية، فضلاً عن كونها مدينة كبيرة، وفّرت لبولس وسائل استثنائيّة ودمغته في العمق، فقد كانت جماعتها مختبر نمط حياة مسيحيّة جديدة على صلة بالوثنيّين، وقد اخترق مسيحيّوها عوائق الشريعة، وعاشوا، فعلاً، شموليّة الخلاص، واختلطوا بالوثنيّين، بلا حرج، ولا خوف من التنجّس؛ وقد أكملت هذه التجربة صوغ لاهوت بولس، وتوجّهاته الرسوليّة ؛ وفي أنطاكية اتّخذت طقوس المأدبة الربّيّة صيغتها التي مازلنا نستخدمها، وتبلورت عناصر هامّة من قانون الإيمان الذي ما زلنا نعلنه.

و قد آمنت جماعة أنطاكية بالرسالة وبضرورة نشرها في العالم الرحب، بين الأُمم الوثنيّة، ووفّرت لها إِمكانيّات عمل هامّة، فقد كانت جماعة ديناميكيّة تتمتّع بطاقات كبيرة، ويسعها الاعتماد على مساعدات ماليّة كريمة من متعاطفين أسخياء، أمثال ثيوفيلس الذي أهداه لوقا إِنجليه، وكتاب أعمال الرسل، والذي يُعتقد أنّه أنطاكيّ المولد.وكان بولس أحد "الأنبياء والمعلّمين" الذين تتولّى الجماعة شؤونهم الماديّة ؛ وقد ظلّت أنطاكية هي مرجعه، منطلقه ومثابه، طيلة سنوات رحلتيه الرسوليّتين الأُولى والثانية.

و إِلى كلّ ذلك، كانت أنطاكية مشرعة على الإِسكندريّة، والمدن المصريّة الأُخرى، وقبرص واليونان، وآسية الصغرى، بحيث باتت، في ذاتها، دعوة إِلى السفر.

نتائج تبشير برنابا وبولس للوثنيّين تخطّت كلّ التوقّعات، وقد نما الحصاد وفيراً تحت أنظارهما.فقد أمست الجماعة المسيحيّة في أنطاكية أكثر الجماعات حيويّة وخصباً، وتفرّعت منها نحو خمس عشرة جماعة جديدة على امتداد سهل العاصي، والساحل السوريّ الفينيقيّ، "مثل عقد من اللؤلؤ".وكانت منفتحة على كلّ تيّارات الفكر.

و كان مسيحيّو أنطاكية توّاقين إِلى إِشراك العالم أجمع في الحياة المثلى التي مُنحوها، بفضل إِيمانهم بيسوع، وبما يوفّر هذا الإِيمان من خير وخلاص، فصاموا، وصلّوا، طيلة ثلاثة أيّام، إِلى أن أوعز الربّ إِلى زعمائهم : " افرزوا لي برنابا وشاول، للعمل الذي انتدبتهما له."

و توسّم بولس في هذا الوحي الإِلهيّ الإِشارة التي طالما صبا إِليها.

و في احتفال رسميّ جثا برنابا وبولس أَمام الشيوخ الذين وضعوا عليهما أَيديهم، وأعلنوهما رسوليْ يسوع، حاملين مواهب الروح وتفويض الجماعة.ثمّ اشترك الجميع في الإِفخارستيّا، شكراً للربّ، وابتهاجاً بهذا القرار، الذي أُبلغت به، أَيضاً، كنيسة أورشليم.

لقد كانت الجماعة الأَنطاكيّة بأَسرها متضامنة مع الرسولين، مسؤولة عنهما مادّيّاً، مواكبة لهما بصلواتها، متّحدة، روحيّاً، برسالتهما.

و قد ارتأى الجميع أَن يستهلاّ تبشيرهما من جزيرة قبرص القريبة.

يا لجرأة كنيسة أَنطاكية وحيويّتها ! فهي ما كادت تنشأ حتّى تطلّعت إِلى غزو العالم، وفي سبيل ذلك، قدّمت أَفضل واعظين فيها، وأَمنع أَساطينها.

و ربّما كان بين من حضروا رتبة وضع اليدين، فتى شديد الإِعجاب ببولس، يدعى أَغناطيوس، وسيعرف بلقب الأَنطاكيّ، أَصبح، بعد ثلاثين سنة، أُسقفاً على أَنطاكية، وكتب رسائل مشبعة بروح بولس، ونال، نظيره، نعمة الاستشهاد.

الجزء الثانــي

بولس رسول الأُمم

الفصل السادس : مقتضيات الرسالة

حياة الرسول [1]

لم تكن المهمّة التي أَفرز لها الروح القدس برنابا وبولس سوى العمل الجوهريّ الذي أَوصى به يسوع تلاميذه قبل مغادرته هذا العالم : " إِذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس... فمن آمن واعتمد يخلص ". في تلك الوصيّة كان يكمن مصير المسيحيّة، وآفاقها اللامحدودة. هذا ما أَدركه بولس، فدفع في سبيله حياته كلّها، دافعاً الكنيسة نحو مصيرها الحقّ.

و صيّة يسوع هذه توجب على كلّ مسيحيّ أَلاّ يُخفي النور الذي تلقّاه تحت مكيال، بل أَن يرفعه عالياً كي يسير العالم كلّه بهديه. فالمسيحيّ، بمجرّد كونه تابعاً ليسوع، عليه أَن يكون له رسولاً، وداعية، ومناضلاً في سبيله. وفضلاً عن هذا الواجب المفروض على كلّ مسيحيّ، تلقّى بولس دعوةً خاصّة من الربّ، من خلال إِلهامات وظهورات وانخطافات؛ وقد تأهّب لهذه المهمّة عبر خلواته في حوران وشرقيّ الأُردنّ، وطرسوس، وعبر تدرّبه على الكرازة في أَنطاكية؛ ولهذه المهمّة سيكرّس كلّ ما تبقّى من حياته، وسيخلص لها إِخلاصاً رائعاً، كما لم يخلص إِنسان، قطّ. كان واجبها يرين على وجدانه بِثقل، بحيث هتف يوماً : " الويل لي إِن لم أُبشّر ! "

و بولس، أَكثر من أَيّ رسولٍ آخر، أَدرك شموليّة الرسالة، وشموليّة الخلاص، فيسوع شاء أَن تُبشَّر جميع الأُمم، والخليقة كلّها، فرسالته لا تعترف بحدود سياسيّة، ولا بطبقات اجتماعيّة، ولا تميّز بين يهوديّ ويونانيّ، بين مختون وغير مختون، بل جميع البشر متساوون أَمام وعد الخلاص. هذا المفهوم للمسيحيّة أَسهم بولس، أَكثر من أَيّ إِنسانٍ آخر، في إِبرازه، والتعبير عنه بأَقوال خالدة تغلغلت إِلى دم الكنيسة ونخاعها، وجهد في تحقيقه ببطولة وجرأة، وبفضل جهودٍ جبّارة، وحرص على نشر اسم يسوع في كلّ مكان لم يُسمَع فيه بهذا الاسم، وعلى أُسس غير أُسس الشريعة الموسويّة، التي ظلّت كنيسة أورشليم وفيّة لها إِلى حين.مهمّته كانت زرع الكنيسة في كلّ أَرجاء الأمبراطوريّة الرومانيّة، من أَورشليم حتّى أَقاصي الغرب، ودعوة جميع شعوب العالم المعروف إِلى النور.

مستقبل المسيحيّة بأَكمله كان ثاوياً في ثنايا تلك المبادرة العبقريّة، وفي غرس البذرة الخصبة في التربة الطيّبة التي حرثتها ثورة الصليب، وفي زعزعة الوضع القائم وإِحلال

---

[1] هذا الفصل مستوحى من دانييل روبس

الإنسان حسب المسيح يسوع، محلّ الإنسان حسب التقليد العتيق. وقد تبدو لنا اليوم تلك المبادرة طبيعيّة، نحن الذين تغلغلت مفاهيم بولس للمسيحيّة في لحمنا ودمنا. ولكنّها حينذاك، كانت حافلة بالجرأة، والمخاطرة، والمفارقة.

انتُدِب بولس للرسالة، فهبّ لها بكلّ طاقاته ومواهبه وجرأته، واندفع إلى خوض حياة تشرّد وخصب ستكون حياته مدى اثنين وعشرين حولاً، حتّى الموت، حتّى الاستشهاد. لقد بذل حياته مثلما قلّما بذلها إنسان، في سبيل قضيّة، في خدمة فكرة، فحفلت أيّامه بنشاط لا يُصدّق، على وقع ارتحال متّصل، وهو لا يني يكرز، ويناقش، ويُقنع؛ وحيثما مرّ كانت تنبت كنائس جديدة، وما تكاد تنهض إحداها، حتّى يُلقي بذار واحدة أُخرى. ومع ذلك يجد وقتاً لإملاء رسائل يُنفذها إلى بناته الروحيّات، الجماعات الناشئة، ويطويها على نصائح، وتقويم، وتعليم.

في غضون عشرين عاماً كم من النجاحات التي شابها بعض الفشل ! بفضله، كلّ ما كان، في المسيحيّة الأُولى، مجرّد نيّة غير واعية، وطاعة تلقائيّة لأوامر المعلّم، أضحى تعليماً ونظاماً. وقد احتلّ ذاك الذي دُعي، عند أبواب دمشق، في مصير الكنيسة الجامعة، مكانةً جوهريّة دبّرتها العناية الإلهيّة.

و على غرار معظم الذين حقّقوا، في العالم، أموراً عظيمة، لم يكن بمتناول بولس سوى وسائل هزيلة. فهو رجلٌ متواضع يكسب خبزه بكدّ ذراعيه. ولكنّه رجل لا حدود لجرأته، لا ترهبه ولا تعيقه الجلدات التسع والثلاثون التي كثيراً ما أُنزلت به، ولا الضرب بالعصيّ، ولا الرجم، ولا الخوف من الموت، ولا مخاطر البحر، ولا مخاطر الصحراء، ولا مكائد اليهود، ولا تهديدات الوثنيّين، ولا جوع، ولا عطش، ولا عواصف؛ بل هو، أبداً، متأهّب لتحمّل كلّ شيء. وهو ممتلئ بهذا الإيمان الذي قال يسوع أنّ ذرّة منه كفيلة بتحريك الجبال؛ وهو مثقلٌ بالفضائل التي تشعّ على وجوه من يمتلكونها، والتي تفسّر السلطة السامية التي غالباً ما تجلّت على ذاك الذي كان يدعو نفسه "السقط "

" قد يأخذ عليه البعض عنفه، غير أنّ من يتوقّفون عند هذا المأخذ، لا يفقهون شيئاً من تلك الطبيعة الناريّة الملتزمة بكفاحٍ لا هوادة فيه، يحدوه الحبّ، والحبّ لا يخلو من صرامة لا تلين. إنّ نهر المشاعر المرهفة، وسيل المحبّة، اللذين يدفعان بولس، قد ينطويان على سورات غضب : فالطريقة المثلى لحبّ البشريّة لا تتمثّل في الاستسلام إلى الوهن، والمشاعر المتناقضة، بل تبتغي خير هذه البشريّة رغماً عنها، أحياناً، ورغماً عن الذات.

لقد اندرجت رسالة بولس خارج فلسطين، وسط من لا يعيشون في ظلّ الهيكل، من يهود " هلّينيّين "، ومن وثنيّين أمَره يسوع بحمل إِنجيله إِليهم.

في مرحلة أولى قادت الرسالة بولس إِلى عالَم هلّينيّ، معجون بالروح اليونانيّ، والفوضى الشرقيّة، حيث كان يعتمل، منذ ثلاثة قرون القلق الروحيّ، والانحطاط الأَخلاقيّ، والتهديدات الاجتماعيّة، ذلك العالم الذي أَفلحت روما في منحه النظام الإِداريّ، ولكنّها فشلت في منحه سلام القلب. أمّا في المرحلة الثانيّة، فقد واجه بولس، والمسيحيّة الناشئة، السلطة الأمبراطوريّة المركزيّة، والوثنيّة الرومانيّة.

تقسم عادة رحلات بولس الرسوليّة إِلى ثلاث، مع أَنّها كانت شبه متّصلة لا يفصل إِحداها عن الأُخرى سوى محطّات قصيرة، ويحدوها روح واحد. وقد تمّ معظمها سيراً على الأَقدام، واجتاز، خلالها الرسول زهاء عشرين أَلف كيلومتر، في غضون ثلاث عشرة سنة. ويمكن رسم خطوطها الأَساسيّة كالتالي :

– الرحلة الأُولى، بين عام 45 و49 (تقريباً) وقد شملت قبرص، وآسية الصغرى، وبمفيليا، وبيسيدية، وليقاؤونية، وأنطاكية بيسيدية، وإِيقونية، وليسترة، فعودة إِلى أَنطاكية.

– نهاية عام 49 : " مجمع " أورشليم

– في الرحلة الثانية التي امتدّت من عام 50 حتّى عام 52،عاد إِلى آسية الصغرى، وتفقّد أَحوال الجماعات المنشأة من قبل، ومضى إِلى بلاد الغلاطيّين؛ ثمّ، بقيادة الروح، أَبحر إِلى فيليبي ومقدونية، وتيسالونيكي، وأَثينا وكورنش، وعرّج، في طريق العودة على أَفسس، وعاد إِلى أَنطاكية في نهاية خريف عام 52.

– الرحلة الثالثة ابتدأت في ربيع عام 53 فعاد بولس إِلى كورنش ومنها انطلق إِلى حدود الأَدرياتيكي، ثمّ اجتاز جزر ميتيلينية، وكيو، وسامُس، ورودُس، ومرافئ سوريّة وفلسطين، وانتهى إِلى أورشليم حيث كان ينتظره مصيره، فسجن وأُرسل إِلى روما عام 61.

ما هو الأَكثر جدارةً بالإِعجاب في هذا الجهد : البطولة، أم المثابرة، أَم الذكاء ؟ فحينذاك كان اللصوص يعيثون على الدروب سرقةً وقتلاً، وعلى المرتفعات حيث ترتقي معظم المدن إِلى ارتفاع يتخطّى أَلف متر، الشتاء رهيب، وقيظ الصيف يصهر الحجر.في حالات نادرة كان بولس ورفاقه يستأجرون حماراً أَو بغلاً يحمل أَمتعتهم وخيمتهم؛ ولكنّهم، في معظم الأَحيان، يربطون أَشياءهم إِلى عصا، ويحملونها على مناكبهم؛ وغالباً ما يرقدون في العراء.أَمّا إِذا تيسّر لهم خان، فهم يضطرّون إِلى الرقاد، وإِحدى عينيهم ساهرة، وأَمتعتهم ملتصقة بهم، خشية السرقة.وإِن هم سلموا من اللصوص، لم يسلموا من هجمات الحشرات الطائر منها والزاحف. والطرقات ليست دائماً واضحة المعالم، ولا دائماً مصانة. وبعض

الممرّات الجبليّة قد تنقلب مزالق قاتلة، كما تنقلب بعض السهول مستنقعات موحلة مميتة.ولم يكن السفر بحراً بأفضل حالاً، فالمراكب، عموماً، هي مراكب نقل بضائع، وتقلّ على متنها بعض المسافرين، ولكنّها لا توفّر لهم أيّاً من أسباب الرفاهية، فعليهم أن يرقدوا في العراء، أو تحت خيمتهم الخاصّة، ويتدبّروا أمر طعامهم بأنفسهم، والسفر بطيء، رتيب وممل، وحوادث الغرق كثيرة، مع أنّ السفن تتحاشى عن أعالي البحار، وتؤثر محاذاة الشواطئ في سيرها، وتحجم عن الإبحار في الليل وفي أشهر الشتاء حيث " يُغلق " البحر؛ هذا، فضلاً عن الدوار الذي كان يلمّ بمعظم المسافرين.

أيّة بسالة في التصدّي لكلّ ذلك العناء، وتلك المخاطرة الطبيعيّة، وأكثر منها في التصدّي لعداوات البشر! ففي كلّ مكان كان التبشير يصطدم بعقبات كأداء، إذ، بعد استماعٍ مهذّب، يتحوّل عموماً موقف اليهود إلى عداءٍ سافر فاضطهاد، وكذلك موقف الوثنيّين الذين تتعارض مصالحهم مع تعاليم الإنجيل، وينشأ عن ذلك أزمات واضطهاد. ولكنّ الرسول صامد، مثابر، يعود إلى الميدان الذي اضطرّ إلى الابتعاد عنه، مؤقّتاً.إنّه، على غرار العظماء الحقيقيّين، يخضع للحدث، ويستخلص منه نتائج خصبة، ويساعده فشلٌ مثل فشله الذريع في أثينا على اجتياز خطوة حاسمة.

ما يثير الإعجاب فيه هو هذا المزيج من ليونة وقوّة، وتعمّق مستمرّ، ومن ترسيخ للعقيدة الذي لا يعيقه العمل، بل يوفّر له فرصة التعمّق. فهذا الرجل الذي نراه لا يكفّ يخوض الفيافي والبحار، يجد الوقت الكافي لكتابة نصوصٍ أبديّة، عبر رسائل هي مآثر الفكر المسيحيّ، وصروح الروح. تلك الرسائل التي أُمليت، غالباً، تحت ضغط الظروف، والمُعدَّة لكي تُقرأ علناً على الجماعات الملتئمة، والتي يشعر كلّ فردٍ أنّها موجّهة إليه، تحدّد عقائد يتساوى فيها المنطق والسموّ، وهي منبعثة من صميم نفس كاتبها.

و لا بدعَ إن استفزّ هذا الرجل الفذّ، من حوله، تفاني المخلصين له، فإلى جانبه وقفت فئة صغيرة، كتلك التي وقفت، من قبل، حول يسوع، متأهّبة، لمشاطرته المخاطر، وتحمّل مسؤوليات مصير مشترك، وإذا ما تخاذل أحدهم سارع آخرون إلى الحلول محلّه؛ لقد تألّف من حول بولس إطار رائع، وتيّار اندفاع وتضحية يشيع الدفء في القلب. من أوائل الأوفياء كان تيطس الابن الروحيّ، وسيلا رفيق الرحلة الرسوليّة الثانية، وتيموثيوس التلميذ الحبيب، ولوقا الطبيب المفعم ذكاءً ورقّة شعور، والذي سيكتب الإنجيل الثالث وسفر أعمال الرسل، والذي، بفضله، نعرف جلّ ما نعرفه عن بولس. وهناك نسوة مثل ليديا المقدونيّة الكريمة، وبريسكيلا، التي مع زوجها أكيلا، طالما حمت الرسول، ووفّرت له المسكن والطعام في ميادين عديدة من ميادين رسالته.

أُسلوب بولس الرسوليّ

لقد انتهج بولس، في أسفاره الرسوليّة المختلفة، أُسلوباً قلّما شذّ عنه. فهو عندما يهبط، للمرّة الأُولى، مدينة غريبة، يقصد، أوّلاً، حيّ اليهود، الذين كانت لهم جاليات في كلّ مكانٍ تقريباً، وفي جميع أَقاليم الأمبراطوريّة الرومانيّة، في آسية الصغرى وسوريّة، في مقدونية واليونان، وفي روما. أَلم يكتب الفيلسوف الرومانيّ سينيكا (نحو 60ق.م – نحو39 ب. م) : " لقد استقرّت عادات ذلك الشعب اللئيم وتقاليده في جميع البلدان " !

و كان بولس، بصفته عالماً في الكتب المقدّسة، يُستقبَل استقبال الضيف المميّز، وبما أَنّه كان يعتزم الإِقامة، فترة طويلة، كان يُساعَد على إِيجاد عمل له، وكان عمله، دائماً، ذاك الذي أَتقنه منذ صباه : الحياكة وصناعة الخيام. فهو حريصٌ، أبداً، على أَلاّ يكون مديناً لأَحد، وأَن ينعم بالحريّة كي يمارس مجانيّة التبشير. كان مؤمناً أَنّ " من لا يعمل لا يحقّ له أَن يأكل "، وحقّ له أَن يفخر : " لم نأكل الخبز من أَحدٍ مجّاناً، بل عملنا، ليلَ نهار، بجدّ وكدّ، لئلاّ نثقل على أَحدٍ منكم " و" أَنتم تعلمون أَنّ يديّ هاتين سدّتا حاجتي وحاجات رفاقي ". ومن المحقّق أَنّ تلك الحاجات لم تكن باهظة، فقد كان الرسول ورفاقه يعيشون في شظفٍ وزهد.

غير أَنّ هذا الحائك وصانع الخيام، الذي يكدح غالباً وسط العبيد، سرعان ما ينتصب سيّداً عملاقاً، فمنه تنبعث قوّة خارقة، وتأثيره لا ينحصر في البسطاء والكادحين، بل إِنّه غالباً ما يجتذب احترام العظماء واهتمامهم، فيسعون إِلى الاستماع إِليه.

الحفنة الأُولى من بذور الإِنجيل كان يلقيها في مجامع اليهود، حيث يلتقي، إِلى جانب الأَتقياء منهم، والنفوس الطيّبة المتطلّعة إِلى نور الخلاص، بعض النازحين عن الوثنيّة، غير الراضين عن طقوسها وأَصنامها الزائفة، والصابين إِلى معرفة الإِله الواحد.

ففي السبت الأَوّل الذي يلي حطّ رحاله في مدينةٍ ما، يشخص ورفاقه إِلى المجمع، وبصفتهم غرباء يُدعون إِلى مخاطبة المؤمنين، فينتهزون السانحة، للتحدّث عن المسيح يسوع، وحياته، وشهادته، وتعليمه، وصلبه، وقيامته، ويبيّنون، استناداً إِلى الكتب المقدّسة، أَنّه هو المسيح، فإِذا ما لقيت حججهم قبولاً، ولو جزئيّاً، كان بولس يعود فيؤكّدها ويتوسّع في بسطها في الأُسبوع التالي. أمّا إِن هي رُفضت، فكان يعلن أَنّه أَدّى واجبه حيال بني قومه، ولم يبقَ عليه سوى التوجّه إِلى الوثنيّين لإِبلاغهم بشرى الخلاص.

في الواقع، كان الجمهور يصغي إِليهم، بادئ الأَمر، باهتمام. ثمّ لا يلبث أَن يتسرّب الشكّ إِلى أَذهان رؤساء المجامع، عندما يتبيّنون أَنّ ذلك التعليم يتعارض مع مبادئهم؛ وقد يستشيرون في الأَمر مجامع أُخرى. ويتفجّر العداء، عندما تحدث الارتدادات الأُولى إِلى المسيحيّة، فيطرد مرسلو المصلوب من المجمع. ولكنّ ذلك لا يثبّط همّة الرسول الذي يكون في تلك الأَثناء، قد خَبَر معالم المدينة، فيتوجّه إِلى الوثنيّين فيها، في منازل بعضهم، أو في أَماكن عملهم، أو في الساحة العامّة، أَو في أَيّ مكان يُتاح له فيه الكلام. ويخاطبهم بلغة يفهمونها، تختلف عن اللغة التي يتحدّث بها إِلى اليهود، والتي تعتمد، جوهريّاً، على الكتب المقدّسة. أَمّا الوثنيّون، فهو يستخدم مفاهيمهم، ومفرداتهم، وتعابيرهم.

و سرعان ما تتضخّم نواة الذين تبعوه من المجمع، برافد المؤمنين الجُدد من الوثنيّين، ويتّحدون جميعاً في أُسرة واحدة. على هذا النحو نشأت كنائس أَنطاكية بيسيدية، وإِيقونية، وليسترة، وتسّالونيكي، وكورنثــس. وعندما، أَخيراً، يضيق زعماء اليهود أو كهنة الوثنيّين ذرعاً بنجاح بولس ورفاقه في اجتذاب أَتباع ليسوع، يوغرون عليهم صدور السلطات، ويشرعون يطاردونهم، ويطردونهم، يكون البذار قد ضرب جذوراً في التربة، وكتُب له النماء.

كيف كان بولس يختار ميادين رسالته ؟ من المحقّق أَنّه لم يكن يدع للصُّدف تحديد خطّة سيره، بل هو ينطلق وفق مخطّط محكم الإِعداد، غير أَنّه قد يلجأ إِلى تعديله، في أَثناء المسيرة، استجابة لحدْس أو لإِيحاء؛ وقد يخضع، أَحياناً، لظروف قاهرة، فيمكث في مطارح لم يعتزم التريّث فيها، مثل غلاطية، حيث استوقفه المرض؛ وقد يطيل الإِقامة في أَماكن أَكثر ممّا توقّع أَصلاً، تمشّياً مع مستلزمات الرسالة، ولا سيّما في المواقع المؤثّرة التي تساعد على انتشار الإِنجيل، نظير أَنطاكية بيسيدية، ملتقى طرق الأَناضول وكورنثس، وأفسس، الباب الكبير المشرع على آسية. وعندما تتشعّب أَمامه المسالك، ويحار دليله، يبادر الروح القدس إِلى إِرشاده، مثلما حدث قبل انطلاقته الكبرى إِلى أوروبا.

كان لنشأة بولس تأثير محقّق على مسار رسالته. فقد تأثّر بعوامل ثلاثة : يهوديّته، وترعرعه في مدينة هلّينيّة تطبعها الثقافة الإِغريقيّة، ومواطنيّته الرومانيّة. على أُصوله اليهوديّة قامت شخصيّته القويّة، غير أَنّ نشأته في طرسوس، وتمتّعه بالمواطنيّة الرومانيّة حرّراه من النظرة اليهوديّة الضيّقة المتزمّتة، وأَشرعا أَمامه آفاقاً أَوفر رحابة، فقد استوعب ما

تُمثّله الأمبراطوريّة، ونظامها، وشموليّتها العمليّة، وعظمتها وهوانها، وكان له ذلك عوناً على مشاريعه.

فلا ريب أنّ " السلام الرومانيّ "، وما أشاعه من استقرار وأمان، كان إطاراً ممتازاً لانتشار تعاليم الإنجيل. غير أنّ بعض المناطق التي اجتازها بولس لم تكن آمنة تماماً، فضلاً عن أنّ السفر بحراً كان يفتقر إلى مرافق الراحة والأمان؛ أمّا الطرق البرّيّة بين معظم المدن فعريضة وممهّدة، وتنتشر على امتدادها الخانات حيث تتيسّر الاستراحة، أو استئجار الرواحل؛ بيد أنّ ذلك كان يقتضي مالاً وفيراً؛ ومن كان، مثل بولس ورفاقه، لا يملك شروى نقير، كان عليه انتهاج الدروب المباشرة، عبر الحقول، وتسلّق التلال وهبوط السفوح، والتوقّف بين مرحلةٍ ومرحلة لاستعادة بعض القوى، بحيث لا يقطع، في النهار الواحد، أكثر من ثلاثين كيلومتراً. ومن ثمّ لم يكن سفر بولس المستمرّ، سلسلة من الرحلات الممتعة، بل كان يقتضي عناءً يوميّاً مضنياً، وتضحيات متّصلة يحدوها التفاني، والغيرة المضطرمة.

أمّا البيئة التي دأب بولس على حرث تربتها، فهي، ولئن رفرفت على مختلف أرجائها أعلام الإمبراطوريّة الرومانيّة، إلاّ أنّها كانت على تباين مُبين، يتراوح بين قرية موحشة في ليقاؤونية، أهلها بدائيّون، وأثينا حيث يبلغ الترف الفكريّ أوجه. غير أنّ ذلك المجتمع الرومانيّ، في جملته، كان يتّسم بالزيف، فهو، رغم مظاهر الاتّزان والنظام، كان نَخِر القواعد، مهدّداً بالانهيار، بسبب الظلم الاجتماعيّ، والتفسّخ الأخلاقيّ، والنأي عن الأُسس الروحيّة الوطيدة. وقد قرأ بولس عوامل الانحلال هذه، تحت قشور الحضارة الرومانيّة، وأوجزها في رسالته إلى الرومانيّين حيث كتب : " تاهوا في آرائهم الباطلة، فأظلمت قلوبهم الغبيّة. زَعَموا أنّهم حكماء، فإذا هم حمقى؛ وقد استبدلوا بمجد اللّه الخالد، صُوَراً تمثّل الإنسان الزائل... لذلك أسلمهم اللّه، بشهوات قلوبهم، إلى الدعارة، يشينون بها أجسادهم، لقد استبدلوا حقيقة اللّه بالباطل، واتّقوا المخلوق وعبدوه، بدل الخالق، تبارك أبداً. ولذلك أسلمهم اللّه إلى الأهواء الشائنة... ولمّا لم يروا خيراً في المحافظة على معرفة اللّه، أسلمهم اللّه إلى فساد بصائرهم، ففعلوا كلّ منكر. ملئوا من أنواع الظلم، والخبث، والطمع، والشرّ، ومن الحسد والتقتيل، والخصام، والمكر، والفساد. فهم أعداء اللّه، شتّامون، مفترون، متكبّرون، صلِفون، متــفــنّنون بالشرّ، عاقّون لوالديهم، لافهمَ لهم، ولا وفاء، ولا ودّ، ولا رحمة... "

و قد أثبت التاريخ أنّ ظواهر الضلال والفساد هذه كانت السوس الذي نخر أُسس الأمبراطوريّة الرومانيّة.

و إلى ذلك، تبيّن بولس بطلان عبادات الأوثان، وما تنطوي عليه، أحياناً، من مخزيات : " إنّ الأفعال التي يأتونها في الخفاء يقبح حتّى ذكرها ". لا ريب أنّ ذلك المجتمع

كان يعاني قلقاً روحيّاً ممضّاً، وفراغاً لا يقوى على ردمه سوى كائن واحد، وحقيقة واحدة، وحضور واحد. وهو، بهذا الكائن سيُبشّر، وهذه الحقيقة هي التي سيعلنها، وهذا الحضور هو الذي سيشيد به وسيشيعه، ببلاغة، وصراحة، وقوّة حبّ سامية. فمن أَجل إِنهاض المجتمع على أُسسٍ سليمة، وإِسالة السكينة إِلى النفوس الممزّقة، ثمّة سبيل واحد، لا يتمثّل في ممارسة طقوس، وفي الخضوع لقوانين، بل في الاستسلام إِستسلاماً كاملاً لمن هو الإِجابة على كلّ تساؤل، والقدوة الوحيدة لكلّ سلوك : يسوع المتأنّس.

و بيسوع هذا سيبشّر بولس.

و هذا التبشير حوّل حياة بولس ترحالاً متّصلاً حافلاً بالاضطراب واللااستقرار، فهو لا يقوى على الثبات في مكان، بل يتنقّل باستمرار، وغالباً ما يُطرد أو يُقسَر على الرحيل. ولكن رغم نشاطه المدهش، واندفاعه الذي لا يكلّ، في التصدّي لمهمّات جديدة دائماً، لم يقع في شرك الفعّاليّة المفرطة، المتوتّرة، التي تتنطّح لمهامّ كثيرة، ولا تكمل أَيّة منها. فلئن قسرته ضرورات خارجيّة، ومعاكسات القدر، والاضطهادات، إِلى الترحال المتواصل، إِلاّ أَنّه ظلّ ساكن النفس، صافي الذهن، مركّز التفكير، بحيث يدهش قارئ رسائله بالنظام الفكريّ العميق الذي تمكّن من إِنضاجه، مع إِنشغالٍ لا هدنة فيه، وترحال لا يدع له فسحة لراحة. وهو، في ذلك، أَقرب التلاميذ إِلى يسوع، وأَكثرهم تمثّلاً به، وما سكونه إِلاّ انعاكس لسلام الربّ الإِلهيّ النيّر الذي كان يغمره.

و قد اتّسمت كرازة بولس بالتواصل الشخصيّ، وبعقده مع تلاميذه والمؤمنين الجُدد، علاقات صداقة عميقة باتت طابع رسالته المميّز. ولم تكن الصداقة غاية في ذاتها، ولا إِرضاءً لحاجة عاطفيّة، بل مجرّد وسيلة لوضع المؤمنين على صلة بالمسيح. فالمسيحيّة، عند بولس، ليست تعليماً نظريّاً مجرّداً، بل هي صداقة متينة ومرهفة مع الربّ، وواقع حيّ، تستأهل أَن يتألّم الإِنسان ويموت في سبيله. وقد حقّ لبولس أَن يقول :

" ومع أَنّي حرّ تجاه الناس جميعاً، جعلت نفسي عبداً لجميع الناس كي أَربح أَكثرهم؛ فصرت لليهود كاليهوديّ، لأَربح اليهود، وللّذين في حكم الشريعة كالذي في حكم الشريعة – مع أَنّي لستُ في حكم الشريعة – لأَربح الذين في حكم الشريعة. وصرت للذين ليس لهم شريعة كالذي ليس له شريعة – مع أَنّي لست بلا شريعة من اللّه – لأَربح الذين ليس لهم شريعة، إِذ إِنّني في حكم شريعة المسيح. وصرت للضعفاء ضعيفاً لأَربح الضعفاء، وصرت للناس كلّهم كلّ شيء لأُخلّص بعضهم، مهما يكن الأَمر. وأَفعل كلّ شيء في سبيل الإِنجيل، كي أَصير شريكاً فيه ".

و لم يفعل بولس أيّ شيء بحساب، ولا التمس، من وراء فعله، مركزاً وتقديراً، بل كان حاديه المحبّة والحنان، فعلى حدّ قوله : " لم ننطق بكلمة تملّق، قطّ، ولا أضمرنا طمعاً، يشهد اللّه، ولا طلبنا المجد من الناس، لا منكم ولا من غيركم، مع أنّه كان من حقّنا أن نفرض أنفسنا لأنّنا رسل المسيح، ولكن لطفاً بكم، كما تحتضن المرضع أولادها ".

و ممّا يستدعي الدهشة السرعة التي كان بها بولس يؤسّس جماعاتٍ مسيحيّة، ويعلّمها، ويعدّها للعماد والإفخارستيّا، في غضون أسابيع أو أيّام معدودات. صحيح أنّه كان ينفق كلّ ثانية من أيّامه ولياليه في هذه المهمّة، ولكن هل كان ذلك كافياً ؟ لا ريب أنّ الرسول كان يتعاون مع الروح القدس، الذي كان يواصل عمله في أذهان المعمّدين وقلوبهم، مذكّراً إيّاهم بما تعلّموا، وكاشفاً لهم الثروات الطائلة التي يمكن استنباطها ممّا تعلّموه عبر الرسول. إنّ الروح حياة تحيي كلّ ما تقبض عليه، وكان بولس يوكل إليه النفوس ويعتمد على عمله فيها. كان يودع فيها الخميرة، ويدع للروح مهمّة إنضاجها.

و كان محور تعليمه يدور حول صلب يسوع وقيامته. والقيامة، في تعليمه، لا تقتصر على ما حَدَث صباح الفصح، بل هي ترتكز على يسوع الناهض من الموت، الحيّ المحيي، وعلى وحدة حياة المؤمن مع يسوع، التي تجعله عضواً في جسده، ويستمدّ من قدرته الكليّة حيويّة ومناعة. أولَيس هو الطريق والحقّ والحياة، النور والحبّ والقوّة والماء الذي يتفجّر حياة أبديّة ؟

و عندما يتحدّث بولس عن الإيمان بيسوع فهو لا يعني موافقة عقليّة على تعليمه، بل تسليم الذات له بثقة، بحيث يصبح المرء له تلميذاً وخادماً. وعندما يتكلّم عن إنجيل يسوع، لا يقصد الكتاب الذي نعرفه بهذا الاسم، بل بشرى تجسّده، وصلبه، وقيامته، وما أسفرت عنه من غفران للخطايا، وخلاص، وسموّ، وقداسة.

هذا الهوى للنفوس لم يعرف له العالم مثيلاً إلاّ لدى من دعا نفسه الراعي الصالح، والذي كان بولس خير تلميذٍ له.

و غالباً ما أيّد اللّه سعي بولس بمواهب خاصّة، فقد جاء في الرسالة الأُولى إلى التيسّالونيكيّين : " إنّ تبشيرنا بالإنجيل لم يصرْ لكم بالكلام فقط، بل بالقوّة أيضاً، وبالروح القدس، وبكمال اليقين ". فقد كانت تواكب تبشير بولس مواهب نبويّة تجعل موعوظيه يبكون خطاياهم، ويتعاطفون مع الذي صُلب من أجل خلاصهم، ويتدفّقون فرحاً وعزاءً ليقينهم من هذا الخلاص. ويمكن التخمين أنّ معجزات كانت تحدث، فينهض مشلولون، وينعتق من تسكنهم الأرواح الشرّيرة. وكان بولس، بمعرفته للقلب البشريّ، يضيء أعماق قلوبهم، فيساعدهم على تبيّن فوضى أفكارهم ومشاعرهم المتضاربة، والشريعة المزدوجة، شريعة

الروح والجسد التي تتحكّم بكلّ كائن بشريّ، فتتجاذبهم مشاعر عذبة وأَليمة معاً، ويتطلّعون بتوق إِلى المخلّص. وكان ينتابهم شعور بأَنّهم بين يدي نطاسيّ بارع يحرّرهم من كلّ ما هو فيهم معتلّ ومشوّه، فيخبرون " كم كلمة اللّه حيّة فعّالة، وأَمضى من كلّ سيف ذي حدّين، تنفذ حتّى مفرق النفس والروح، والأَوصال والمخاخ، وبوسعها أَن تميّز خواطر القلب ونواياه".

و لم يكن بولس يكتفي بلهيب الاندفاع الأَوّل هذا، بل كان يتابع، بصبرٍ ومحبّة، مسيرة التحوّل الداخليّ، والشفاء الحاسم، لدى المهتدين الجُدد، ويساعدهم على مواجهة مقتضيات الحياة اليوميّة، ومصاعب الوجود، بسلاح النعمة التي غمرتهم، عندما انسكبت عليهم مياه المعموديّة، مؤكّداً أَنّ الربّ لا يبتغي لهم نشوة اليقظة فحسب، بل سعيهم الدائب والمستمرّ، في سبيل تقديس ذواتهم.

كانت كلّ مدينة بشّر فيها تعني له منطقة أَرحب، وكان مؤمناً بأَنّ النار ستنتشر إِلى كلّ صوب انطلاقاً من موقد مضطرم. وما كان تطلّعه إِلى روما سوى تعبير عن رغبته في اقتحام الغرب كلّه حتّى إِسبانيا، أَقصى الأَرض المعروفة آنذاك.

و كان بولس، أَبداً، نهباً بين رحابة مشروع الرسالة، والعناية التي تقتضيها كلّ جماعة جديدة، فهو، بدافع تطاول أَهدافه، لا يقوى على المكوث طويلاً بين ظهراني جماعةٍ واحدة، إِذ عليه التوغّل، أَبداً، إِلى أَبعد فأَبعد، غير أَنّ شعوره بالمسؤوليّة حيال تلك الجماعات تقسره، غالباً، على إِرجاء سفره. وهكذا، يظلّ نشاطه محكوماً بنزعتيْن متضاربتين، إِحداهما تدفعه إِلى الأَمام، والأُخرى تمسكه في مكانه. وهذا يعني أَنّه وإِن كان يرى الجزئيّات في علاقتها بالمجموع، إِلاّ أَنّ المجموع لا يعفيه من الاهتمام بالجزئي.

لقد كان همّ نشر الإِنجيل يطارده، ويقضّ مضجعه، ولذلك كان كلّما أَسّس جماعة، واطمأَنّ إِلى نشأتها، يوكلها إِلى معاونين يثق بهم وبكفاءتهم، وينطلق نحو غزو مواقع جديدة، ولكنّه لا يكفّ يستقري أَنباء الجماعات التي أَسّسها، ويوجّهها، سواء برسائله، أَو بزياراته الخاطفة. وهو، في ذلك، يحدوه إِيمانه بيسوع المصلوب الذي جعل منه اللّه سيّد العالم، فقد مات لأَجل فداء العالم أَجمع، وهو " يفيض غناه على جميع الذين يدعونه ".

فهم بولس للعالم كان ينطلق من الإِنسان الخاطئ والضالّ عن اللّه، ولكنّه، بنعمة المسيح، مدعوّ إِلى الخلاص، وهذا الخلاص يستهدف البشر أَجمعين بلا تمييز، وفي مساواة تامّة بينهم. ومن ثمّ كان تبشير بولس رسالة المصالحة، وبرّ اللّه الذي يُنال بالإِيمان وحده.

و كانت تطلّعاته تقفز، أَبداً، من الواقع المرئيّ إِلى اللامرئيّ، ومن الوهن البشريّ إِلى الكمال الإِلهيّ، فإِذا ما دُعي إِلى فضّ خلاف بين فئتين تدين إِحداهما الأُخرى، وتحتقر أَحداهما الأُخرى، بسبب مواقفهما المتباينة، بشأن فرائض تتعلّق بالطعام، مثلاً، يتعالى فوق موضع

الخلاف، ويحلّق به إِلى مرا قٍ أَسمى، مبرزاً بشاعة موقف الطرفين، فالذي يدين أَخاه، إِنّما يستلب حقّاً يعود إِلى اللّه وحده، ويستصغر قريبه الذي مات يسوع من أَجله، والطرفان ينتهكان حرمة الخلاص الإِلهيّ.

الفصل السابع :

الرحلة الرسوليّة الأُولى : باب الإِيمان يُشرع للوثنيّين

قبرص

ذات يوم من خريف عام 46 راقب، في شيء من الاستغراب والدهشة، المسافرون على متن مركب يهمّ بالإِبحار شطر قبرص، من مرفأ سلوقية الأَنطاكيّ، قوماً يرتدون زيّاً يهوديّاً، راكعين على أَرض المرفأ، يصلّون وسط الدموع، ثمّ يشيّعون، بعبارات غير مفهومة، وبكثير من الإِيماءات، وإِشارات التبريك، ثلاثةً من قومهم، لا يختلفون عنهم ببساطة زيّ، أَحدهم كان فارع القامة، مهيباً، على نُبلٍ وخَفَر، وثانيهم كان نحيلاً، قصير القامة، ولكنّ محيّاه يشعّ حميّةً وذكاءً؛ أَمّا الثالث فشابٌّ، طريّ العود، ويبدو أَنّه كان معاوناً لهما. ولم يخطر ببال أَحد من التجّار الأَنطاكيّين الميمّمين شطر قبرص ليبيعوا الأَخشاب والجلود، ويبتاعوا بأَثمانها نحاساً وعطوراً، أَنّ رفاق سفرهم الثلاثة الفقراء أولئك، كانوا ماضين لغزو العالم، مستهلّين ملحمة رسوليّة فريدة، نهجت طريقاً معاكساً لحملة الإِسكندر، إِذ إِنّها انطلقت من الشرق صوب أَعمدة هرقل، عند أَقصى تخوم الغرب آنذاك، مدوّنةً صفحة جديدة مشرقة في سجلّ الكنيسة المجيد، وفي تاريخ العالم.

كان بودّ بولس استهلال رسالته من أَحد مراكز التجارة العالميّة الكبرى المنفتحة على الأَفكار الجديدة، التي يتناقلها المسافرون، وينشرونها مع كلّ ريح، في كلّ اتّجاه. كان يتطلّع صوب الغرب، بعد أَن يمّم سائر الرسل شطر الشرق والجنوب والشمال؛ فامتدّت تطلّعاته إِلى حيث لم يتّجه سواه، ولا سيّما وأَنّ الغرب يضمّ عواصم الحضارة الكبرى : أفسس، وأَثينا، وروما. كان يعلم أَنّ عواصف عاتية ستنقضّ عليه هناك، ولكنّه كان واثقاً، مع ذلك، أَنّ الصيد سيكون وفيراً. غير أَنّ برنابا، الذي كان يتولّى قيادة الفريق، آثر أَن يشرع بالشهادة لإِيمانه المسيحيّ في مسقط رأسه بين ذويه وأَهله، في بلاد له فيها الكثير من الأَقارب والمعارف والخلاّن الكفيلين بدعمه، وإِرشاده، والتعريف به. واستسلم بولس، طائعاً، فقبرص، على أَيّة حال، خطوة أُولى نحو الغرب، ونحو الوثنيّين والحضارة الإِغريقيّة.

و انطلقت السفينة فوق اللّجة الزرقاء تدفعها ريح رطبة ناعمة، وفرحٌ عارم كان يلهب قلبي برنابا وبولس، وهما يخطوان خطوتهما الأُولى على درب مخاطرة رائعة، خدمةً للربّ، وتعريفاً بيسوع. لم يكن المجهول الذي اقتحما سراديبه يخيفهما، فقد كانا واثقين من مواكبة الربّ لهما ومن مؤازرته. كثيرون من الملوك والقوّاد انطلقوا من مرفأ سلوقية، في حملات

جريئة، ولكن سرعان ما امّحت آثارهم، وأَغفلهم التاريخ. أَمّا أَسفار بولس، التي استهلّها مع برنابا من أَنطاكية، فهي، حقّاً، " أوديسة " مسيحيّة، ملحمة ما انفكّت فصولها تهزّ مسارح العالم.

عقب نهارين وليلتين، تراءت للمسافرين الثلاثة المتلفّعين بعباءاتهم المنسوجة بشعر الماعز، آفاق ورديّة اللون.ثمّ ما عتّم أَن تجلّى لهم، في مجد الصباح المنبثق، خليج سلامين الغافي بسكون، في خضرته المتموّجة، بين ذراعي التلال السمراء المحيقة به، على شاطئ قبرص الشرقيّ، وعلى مقربة من فاماغوستا. كانت سلامين هي مرفأ قبرص التجاريّ الرئيسيّ قبل أَن تختطف منه لارنكا هذا الامتياز.

قبرص من أَجمل جزر شرقيّ المتوسّط ومن أَكبرها، فهي، بمساحتها البالغة تسعة آلاف كيلومتر مربّع، من الاتّساع بحيث لا يشعر المرء بضيقها، ومن الصِّغَر، بحيث يشعر أَنّ البحر يكتنفها من كلّ صوب. وكانت الجزيرة بأَكملها مكرّسة لأفروديت إِلاهة الجمال والحبّ، التي جاءت بها أمواج البحر إِلى الشاطئ، فانبثقت من قلب الزبد، وفقاً للأَساطير الرائجة. ولكن أفروديت (أو فينوس) تلك لم تعد رمزاً للجمال الكامل فحسب، بل غدت مرادفاً للمتعة الجامحة المنفلتة. ولا ريب أَنّ صدمة عنيفة هزّت نفس بولس، عندما شهد بعض طقوس عبادة تلك الإِلاهة، طقوس خَلَت من كلّ خَفَر وحياء، وتجلّت من خلالها الوثنيّة في أَبشع وجوهها، وأَكثرها عكَراً وجموح غرائز، متناقضة تماماً مع ما نادى به يسوع من طهرٍ، وعفّة، واحترام للمرأة. وساور الرسول شعور بأَنّ مهمّته ستكون شاقّة، في تلك الجزيرة ذات الجوّ الساحر الداعي إِلى الاسترخاء.

كانت قبرص تؤوي جالية يهوديّة كبيرة العدد، اجتذبتها إِليها مناجم النحاس الغنيّة والمنتشرة في الجزيرة. وإِذ كان لبرنابا معارف كُثُر، دُعي المرسلون الثلاثة إِلى المجمع، يوم السبت، للتحدُّث بما لديهم. وتكلّم برنابا، أوّلاً، بصفته لاويّاً، فأورد نصوصاً من أَشعيا عن صفات المسيح، ثمّ قدّم رفيقه، عالم الشريعة، بولس، الذي كان، يوماً، مفوَّض السنهدرين.وحدّق الجمهور بدهشة في ذلك الرجل القصير القامة، الذي اشتهر بعلمه الكتابيّ، وبتنكيله بأَعداء دين الآباء، والذي عُرِف عنه أَنّه جحد هذا الدين. واسترسل بولس في سرد تاريخ الخلاص، وأَثبت أَنّ النبوءات المتعلّقة بالمسيح قد تحقّقت بمجئ يسوع الذي ولد في بيت لحم، وصلبه اليهود، ولكنّه قام، وظهر للعديدين.

كان لأَقوال بولس وقعٌ بعيد الأَثر في نفوس مستمعيه، ولئن أَبدى اليهود بعض مقاومة، غير أَنّ القبارصة الهلّينيّين أَقبلوا بنَهَم على استيضاح المزيد عن دين الحبّ والإِخاء هذا، فقد كانوا، في ما يتخطّى الرفاه والمتعة، يصبون، في أَعماق كيانهم، إِلى مُثُل أَخلاقيّة

تلبّي احتياجاتهم النفسيّة الكمينة. وقد استشفّ صغار القوم، خاصّة، في دين يسوع، المنارة التي شخصت إِليها أَبصارهم الدهِشة. وتضخّم، يوماً إِثر يوم، عدد طالبي التعلّم والعماد، واعتناق دين يسوع. فحرص الرسل الثلاثة على تثقيف معاونين، وتأهيلهم لمتابعة التعليم والكرازة في غيابهم، تاركين للوقت ولعمل الروح القدس أَمر إِنضاج البذور التي غرسوها، على أَن يعودوا، فيما بعد، لسقايتها ورعايتها.

فقد اعتملت في صدور الرسل رغبة مضطرمة في المضيّ قُدُماً نحو حقولٍ بكر يلقون فيها بذور الخلاص. فاجتازوا معظم مُدن الجزيرة، وفي كلّ مكان كانوا يكرّرون ما فعلوه في سلامينا. وكان برنابا يزداد، يوماً فيوماً، إِعجاباً بفصاحة بولس التي تتخطّى قدرات البشر، وكلماته القاطعة التي تمزّق حجب التواني واللامبالاة، وتنساب، من خلالها، الحقيقة الملهمة الخلاصيّة. وحينئذٍ كان يردّد، في سرّه، قول المعمدان، إِثر تعميده ليسوع : "عليه أَن ينمو، وعليّ أَن أَتضاءل ".

و في كلّ مكان كانت قيود الشريعة تلجم اليهود عن القبول بيسوع مسيحاً، في حين أَنّ القبارصة الوثنيّين كانوا يرون في دين يسوع نوراً متألّقاً يزري بسراج اليهوديّة الشاحب.

يذكر كتاب " الأَعمال " أَنّ الرسل الثلاثة اجتازوا الجزيرة من أَقصاها إِلى أَقصاها، وهذا يعني أَنّهم قضوا في التبشير أَشهراً طويلة، ريثما رأوا ثمار كرازتهم؛ ولم يأتِ الكتاب على ذكر أَيّ صدام بين الرسل واليهود في قبرص، كما حدث في معظم مدن آسية التي بشّروا فيها، فيما بعد، ممّا يتيح استخلاص أَنّ تبشيرهم لقي قبولاً، وأَنّهم أَسّسوا على امتداد الجزيرة جماعات مسيحيّة، عاد، فيما بعد، برنابا ومرقس إِليها كي يثبّتاها وينظّما شؤونها.

و انتهى بالرسل المطاف في مدينة بافوس، عاصمة الجزيرة، ومقرّ الحاكم الرومانيّ؛ وكان يتبوّأ ذلك المنصب " سرجيوس بولس " المقرّب من الأمبراطور كلوديوس، وقد خلَف، فيه، الخطيب المفوّه، والكاتب الشهير، شيشرون. وكان سرجيوس بولس سليل أسرة نبيلة، ثريّاً، رفيع الثقافة، جليل الشأن، كلِفاً بمعارف الفلسفة، والتاريخ، والعلوم الطبيعيّة، والأَديان. كان من تلك النفوس المتعطّشة إِلى الحقيقة، والتي خيّبت أَملها الديانة الرسميّة، فراح ينشد جواباً على تساؤلاته المصيريّة لدى الفلاسفة، وفي الديانات الغريبة. وبات مجلسه منتدى للمثقّفين، إِذ أَحاط نفسه بحاشية من الفلاسفة والشعراء، وعلماء الرياضيّات، وعلماء الدين. وتنامى، يوماً، إِلى علمه وجود واعظين في المدينة يدعون إِلى دين جديد، ويلقون من الشعب ترحيباً حارّاً، ويبشّرون بإِلهٍ إِنسان يدعى يسوع، صلبه اليهود لبضع سنوات خلت، ولكنّه تغلّب على الموت، وجاء بحياة جديدة للجنس البشريّ بأَسره، وبلا تمييز.

و اعتمل في الحاكم الفضول إِلى مقابلتهم، فأرسل في طلبهم. وكان لذلك اللقاء أَثر حاسم على مصير الحاكم ومصير بولس معاً.

كان الحاكم يرتدي ثوباً أَبيض بسيطاً، وقد تكدّست على مكتبه المصاحف والمخطوطات، والنماذج العلميّة، وأَحاق به رجال فكر، وأَدب وعلم. ولفت نظرَ بولس يهوديّ يرتدي ثوباً موشّى بالذهب، وتثقل أَصابعه الخواتم والجواهر.

كان يهوديّ المولد يدعى بار يشوع، ولكنّه انتحل اسم إِليماس اليونانيّ، وكانت له شهرة ذائعة في ميدان السحر الذي كان له فيه مدرسة يدّعي استمدادها مباشرةً من موسى، فضلاً عن ادّعائه الإِلمام بعلم الفلك، وبأمور أُخرى كثيرة؛ وكان يحتلّ، في بطانة الحاكم سرجيوس بولس، مكانة مرموقة. منذ الوهلة الأُولى، انتاب بولس شعور بأَنّ صراعه معه سيكون مريراً، وبالمقابل توجّس الساحر خشية من تأثير الرسل على الحاكم تأثيراً يفضي إِلى إفقاده بعض امتيازاته ومكانته.

و قد لفت نظَر الحاكم لباسُ الرسُل الذي يحاكي لباس الفقراء، على نقيض فلاسفة الشرق وسحرته الذين يغوون الأَلبسة الفاخرة. وعندما أَعرب عن رغبته في الاطّلاع على تعليمهم فوجئ الحاضرون بأَنّ من تصدّى للإِجابة لم يكن الرجل المهيب، المديد القامة، بل الرجل القصير، الأَصلع، القاسي القسمات، والمواطن الرومانيّ.

و استهلّ بولس خطابه بملاحظة أَنّه ليس فيلسوفاً، مع احترامه لسقراط وأَفلاطون وأرسطو وسواهم؛ وأَنّه لا ينادي ببدعة، أو بدينٍ جديد، بل بالدين الواحد، وبالإِيمان الحقّ، وباللّه الحقّ، الخالق الذي منه نستمدّ " الحياة، والحركة، والوجود ". حتّئذٍ، كان يتحدّث بهدوء الفيلسوف، ولكنّه عندما جاء على ذكر تجسّد اللّه في المسيح يسوع، وولادته العجيبة، وموته وقيامته، من أجل خلاص العالم، وظهوره له عند مشارف دمشق، وهو ممعنٌ في اضطهاده أَتباعه؛ والانقلاب الذي قلب كلّ كيانه إِثر ذلك؛ حينئذٍ تفجّر حماساً، وأَضحت كلماته من نار. وكان لآرائه الغنيّة، وعباراته اللاهبة، وشخصيّته المتجلّية، أَثر بليغ في نفس الحاكم حيث شرع يعتمل قلقٌ خلاصيّ.

و لكن، إِذ كان الحاكم رجل قانون وحكيماً، حرص على سماع الجانب الآخر، وعلى تحويل الجلسة إِلى مناظرة، ولا سيّما وقد لمس ضيقاً لدى باريشوع، فدعاه إِلى إِبداء رأيه.

و جهد الساحر في صرف الحاكم عن الإِيمان بيسوع، فانطلق يتشدّق بالتخرّصات، والترّهات والأَباطيل. وفي الواقع لم يكن باريشوع خصماً سهلاً، فقد كان، من قبل، عالم شريعة، ضليعاً في الكتب، والديانات الأُخرى، وكانت ممارسته للسحر قد علّمته طُرُق اجتذاب اهتمام ضحاياه من المستمعين؛ هذا، فضلاً عن حرصه الشديد على مركزه، وما يدرّه عليه

من ثروة. فحاول نصب الشباك لبولس، ولكن الرسول كان، في هذا الميدان، مجلّياً، فقلب عليه كلّ حججه، ومزّقها شرّ ممزّق.

و فيما كان باريشوع يبذل جهوداً مستميتة، في سبيل طمس الحقيقة، والحؤول دون تسرّب أَنوارها إِلى قلب الحاكم وذهنه، ارتأى بولس أَنّ لا بدّ من إِثبات تفوقّ المسيحيّة على رُقى السحر، وتعاويذه، وشعوذاته، في حقبة كان للسحر فيها سطوة وسلطان، ولا بدّ من تسهيل نفاذ حقيقة المسيحيّة إِلى الأذهان، واستيلائها على القناعات، فاستعان بقدرات إِلهه، ثمّ دنا من خصمه، وأَمسك بصدره، ورشقه بنظرة حادّة، وبصوت جهوريّ قال له : " يا ممتلئاً من كلّ مكرٍ وخبث، يا ابن إِبليس، ويا عدّو كلّ برّ، أَلاّ تكفّ عن تعويج سبل الربّ المستقيمة ؟ فها إِنّ يد الربّ عليك، فتكون أَعمى، ولن تبصر النور إِلى حين ! " ويتابع كتاب أَعمال الرسل سرده للحادث فيقول : " فسقطت على عينيه، في الحال، غشاوة سوداء، فأَخذ يدور حول المكان، ملتمساً من يقوده بيده. فآمن الحاكم عندما شاهد ما جرى، وأَدهشه تعليم الربّ "، وقد أَيقن أَنّ ما قاله بولس هو الحقيقة عينها التي طالما سعى في إِثرها. وكان لذلك الحَدَث وقعٌ بعيد الأَصداء على طبقة الرومانيّين الراقية، وعلى شعب قبرص.وقد عدّ بولس مغنماً عظيماً أَن يؤمن كبار موظّفي الدولة بيسوع، إِذ إِنّ وظيفتهم تدعوهم إِلى التنقّل في شتّى أَنحاء الإِمبراطوريّة، وهم، بذلك، كفيلون ببثّ بشرى الخلاص حيثما حلّوا. كان الفرح يفعم صدر الرسول، فهمس في آذان رفيقيه :

– إِنّ العالم يشرع أَبوابه أَمامنا، إِنّه أَرحب ممّا توقّعنا، وسيكون يسوع سيّده !

إِثر هذا الحدَث تجلّى بولس وكأَنّه قد تقمّص شخصيّة إِيليّا، وترسّخ نفوذه، وأَودع برنابا بين يديه زعامة الفريق، عن طيب خاطر، ممّا أَتاح لعبقريّته أن تتــفــتّق، ولأَحلامه في تبشير الوثنيّين أَن تتحقّق، وفقاً لأسلوبه ورؤاه.وجدير بالتنويه أَنّه، منذ ذلك الحدَث، طُوي نهائيّاً اسم " شاول " العبريّ الذي كان يُعرف به الرسول حتّئذٍ، وبات يدعى باسمه الرومانيّ "بولس" فحسب. أَكان ذلك تكريماً لحاكم قبرص سرجيوس بولس، وعرفاناً بجميله ؟ يبدو أَنّ لهذا التحوّل بعداً آخر أَكثر دلالة، فللاسم، عندالساميّين، مغزى كبير. واستبدال الاسم اليهوديّ بالاسم الرومانيّ، كان يعني لبولس طيّ ماضيه العبرانيّ، وتوجّهه بكلّيّته نحو رسالته الجديدة بين الوثنيّين. وقد أَشرع له موقف حاكم قبرص الرومانيّ، في هذا المجال، آفاق رجاء مشرقة.

فسرجيوس بولس لم يكتفِ بالإِيمان بيسوع، وبمناصرة الرسل وحمايتهم، وإِحاطتهم بعطفه، بل إِنّه دعاهم إِلى تبشير ذويه ومواطنيه في أَنطاكية بيسيدية، في آسية الصغرى،

حيث كان لأُسرته نفوذ وأَطيان؛ وزوّدهم بكتب توصية إِلى وجهاء تلك المدينة، وربّما ساعدهم على التوجّه إِليها، على متن مركب البريد الأَمبراطوري.

من كان يعلم أَنّ ذلك المركب كان يحمل على متنه مستقبل العالم ؟

أنطاكية بيسيدية

كان بولس يؤثر المضيّ إِلى أَفسس، أَوّلاً، فالمدن الساحليّة التي تمثّل مراكز تبادل تجاريّ كثيف، والتي تختلط فيها الأَقوام المتنوّعة، تجتذبه. ولكن لم تكن، ثمّة، خطوط بحريّة مباشرة إِليها، فضلاً عن أَنّه استشفّ في دعوة حاكم قبرص إِلى الشروع من أَنطاكية بيسيدية، يد العناية الإِلهيّة، فانساق لها طائعاً، غير عابئ بما تنطوي عليه تلك المدن القائمة وراء جبال طوروس من مشاقّ ومهالك.

فما كان يدعى بآسية الصغرى هو ما ندعوه، اليوم، الأَناضول، وهو شبه جزيرة متمادية الاتّساع، تمتدّ، مرتاحة، بين البحر الأَسود وبحر إِيجه الذي تنتشر على شطآنه جزر عديدة، وأَطراف حوض المتوسّط. ولم يكن شبه الجزيرة ذاك تحت ستار وحدة ظاهرة، إِلاّ كوكبة من الأَماكن الصغيرة المتفرّقة؛ ففي الجنوب سهول ليسية، وبمفيليا، وكيليكية الساحليّة النضرة؛ وفي الوسط، هضاب فريجية، وغلاطية، وليقاؤونية، وكبادوكية، الجرداء، وفي الغرب تلال ميزيا، وليديا، وكاريا ذات النتوءات البارزة؛ وفي الشمال شرفات بيتينا، وبافلاغونيا، والبونت، وفي أَقصى الشرق أرمينيا.

الشعوب التي كانت تقطن تلك المنطقة كانت مزيجاً هجيناً من القبائل والأَقاليم، واللهجات، والثقافات الغريبة. وقد أَضفت الثقافة الإِغريقيّة طابعها على هذا المزيج، ولكنّها عجزت عن النفاذ إِلى جوهرها، وعن إِخفاء منشئها الآسيويّ. من تلك البقاع انطلق الغزاة عبر التاريخ؛ وفي ذلك الزمان لم يكن للأَتراك ذكر ولا وجود.

و لا جَرَم أَنّ التبشير في تلك الكتلة من الهضاب الوعرة المترامية الأَطراف، لم يكن بالأَمر اليسير. فثمّة تبدّلات المناخ المفاجئة، المتأرجحة بعنف بين البرد القارس، والهجير القائظ؛ وثمّة الملاريا المتفشّية في مستنقعات السهول، وشتّى الحمّيات الأُخرى، التي تحصد مئات الأَرواح كلّ يوم؛ فضلاً عن أَخطار قطّاع الطرق الذين ينشطون حالما تتراخى رقابة الحرس الرومانيّ. وبالتالي كان التصدّي لبثّ رسالة الإِنجيل، رسالة الحبّ والرجاء، في تلك البقعة، مخاطرة رهيبة، تقتضي مسيرات طويلة تتواصل يوماً إِثر يوم، مع حمل المؤونة والأَمتعة، والرقاد أَينما تيسّر، في العراء، أو في زريبة، أو في خان مهجور، والاكتفاء باليسير من الطعام، وقوامه، غالباً، خبز شعير، وسمك مجفّف، ممّا لا يقوى عليه سوى عزيمة لا تنثني، وأَجساد من فولاذ.

و لم تكن العلاقات بالبشر الذين يتعيّن تبشيرهم بأَقلّ وعورة، فهم من كلّ جنس ولون، ومذهب، إِذ اختلط الحتّـيّون بالطرواديّين، والساميّين، والأَشوريّين، واليونانيّين، والرومانيّين، والغلاطيّين المتحدّرين من الغاليّين، والذين قذفت بهم الحروب والهجرة إِلى تلك البقاع النائية؛ وكلّ فئة منهم تحمل تقاليدها ومعتقداتها الخاصّة.

حيال مثل تلك المهمّة الكأداء، كان من شأن أَيّ رجل لا يحمل بين جنحيه اندفاع بولس وشدّة مراسه، أَن تتثبّط عزيمته، وأَن يُمنى بالتقاعس والحيرة. وهذا ما حدث فعلاً لمرقس الطريّ العود الذي، مع حرارة إِيمانه، وصدق نيّته، عجز عن مسايرة وتيرة بولس.فبولس كان صارماً، قاسياً على نفسه، جريئاً حتّى التهوّر، مغامراً، لا يحسب للخطر حساباً، ولا يردعه شيء عن المضيّ في الدروب الخطرة، ولا يحفل بأَكل أَو بشرب، أَو بمرقد، ويقتضي من رفاقه ما يتخطّى طاقاتهم أَحياناً. ومن جهةٍ أُخرى، شقّ على مرقس أَن يتولّى بولس زمام القيادة بديلاً عن خاله برنابا الذي كان يستكين إِلى حنانه ورقّته وصبره. وربّما لم يستسغ نزعة بولس الصريحة إِلى تجريد المسيحيّة من آثار الشريعة الموسويّة، وآثر العودة إِلى خدمة بطرس الأَكثر محافظة على تقاليد الآباء، والذي طالما كان له أَمين السرّ الوفيّ، والترجمان، وكان شديد التعلّق به.ولا ريب، أَيضاً، أَنّ الحنين شدّه إِلى عطف والدته، التي عاش، حتّئذٍ، محاطاً بدلالها، والتي خلّفها وحيدة في أورشليم.

ذلك الانفصال خلّف مرارة بالغة في نفس بولس الذي نعى على مرقس جبنه وتخاذله، إِذ إِنّه بعد أَن وضع يده على المحراث تلفّت إِلى الوراء، وتقاعس عن مواصلة المسيرة. وقد ظلّ بولس سنوات طويلة، يأخذ عليه موقفه المتخاذل، ويعدّه غير جدير بالرسالة. ووقع برنابا في حيرة بين ابن أُخته ورفيق جهاده، بين استجابته لعاطفته، أو وأد مشروع الربّ. ولكنّ حيرته لم تطُلْ، إِذ إِنّ نداء الرسالة كان أَشدّ أَسراً على نفسه من وشائج القربى، فودّع حزيناً، ممزّق النفس، مرقس الذي أَبحر عائداً إِلى أورشليم.

حينها، أَدرك الرسولان كم يفرض الوفاء المطلق لخدمة الربّ، أَحياناً، من تضحية بأَحبّة وأَعزّاء، وهذا ما عبّر عنه بولس بفصاحة عندما كتب (عب 4:12) : " إِنّ كلام الربّ أَمضى من كلّ سيف ذي حدّين، ينفذ إِلى ما بين النفس والروح، وما بين الأَوصال والمخاخ، وبوسعه أَن يحكم على خواطر القلب وأَفكاره ".

كان الرسل القادمون من بافوس قد أَرسوا في بيرجة، عاصمة بمفيلية، وفيها انفكّ مرقس عن رفيقيه وأَبحر إِلى أورشليم؛ أَمّا بولس وبرنابا، فلم يتريّثا في تلك المدينة، وآثرا التبشير فيها في طريق عودتهما، إِذ كانا على عجلة من بلوغ أَنطاكية ببسيدية؛ وقد وقع

اختيار بولس على تلك المدينة، لأَنّها كانت مركز " رومنة " المنطقة، وبسبب وجود الجنود والموظّفين الرومانيّين الكثيف فيها، والكفيل بنشر الدعوة.

و بعد استعدادات موجزة، استأنف الرسولان سيرهما صوب قلب آسية الصغرى، عبر جبال طوروس الوعرة، تارة يخوضان مياه سيول متدفّقة من علٍ وهما يحاولان إِنقاذ أَمتعتهما الرثّة، ومؤونتهما الزهيدة، التي ربطاها إِلى عصا ملقاة على كتف كلٍّ منهما. وتارة يشقّان درباً ضيّقاً سدّته انهيارات ترابيّة، أو يمهّدان ممرّاً عبر الأَشواك، والنباتات المتشابكة الكثيفة. وفي كلّ مكان كانا يتعرَّضان لعصابات اللصوص التي يضخّمها العبيد الفارّون؛ ولطالما صادفا قوماً تجلّت عليهم مخايل الشراسة والعدوان تفرّسوا فيهما بعيون قاسية حتّى يتحقّقوا من فقرهما قبل أَن يدَعوهما وشأنهما. وطالما أَزّت سهام كادت تلامس رأسيهما لتخويفهما. ومع كلّ ما يتكبّدان من نَصَبٍ وعناء، لا يأملان، عندما يخيّم الليل، بأَكثر من خانٍ خرب أو مغارة مهجورة، حيث يرقدان فوق التراب والبعر، تلفحهما ريحٌ جبليّة قارسة، ويوقظهما عواء ذئاب جائعة تجوس في الجوار، فيتعبهما النوم أَكثر ممّا يريحهما. أَمّا الطعام الذي يتبلّغان به، فخبز جافّ مبلّل بماء الأَنهر، وحفنة من الزيتون، وما قد تجود به عليهما الطبيعة، أَو بقايا طعام يصعب ازدراده.

ذلك العنَت وتلك المخاطر لم تفلح في تثبيط عزائم الرسولين، بل كان الاندفاع للرسالة يزوّدهما بجَلَد خارق. فلئن كانت تلك الدروب الوعرة يجتازها تجّار يحدوهم طمع الربح، وجنود رومانيّون ملتزمون بالنظام العسكريّ، وموظّفون يضطلعون بواجباتهم، فكم أَحرى برسل يسوع أَن ينتهجوها، من أَجل مجده !

بعد ستّة أَيّام من السير الشاقّ المرهق، غدا الطريق أَيسر مسلكاً، وأَوفر راحة، وفي اليوم التاسع انتهى الرسولان إِلى غايتهما، بعد أَن قطعا نحو مئتين وستّين كيلومتراً.

و لا ريب أَنّ تلك المسيرة الطويلة معاً، قد وثّقت أَواصر الصداقة بين الرسولين، فلا شيء يجمع بين نفسين أَكثر من سيرٍ مشترك عبر جبال مهيبة، واقتسام المشاقّ والمخاطر والأَفراح.ولا مراء أَنّهما كانا يستشفّان، معاً، حضور اللّه من خلال دهشتهما أَمام الصخور الشاهقة المضرّسة، وصخب المياه المتدفّقة، وهمس الغابات، فيسوع، الصخرة التي يتدفّق منها ماء حيّ، كان رفيق مسيرتهما. وربّما هما هتفا بفرحتهما عندما خرجا من إِطار الجبال، وانبسطت أَمامهما، في قعر الوادي، بحيرة زرقاء، متمادية الطول، تنعكس فيها روعة السماء، وتخطر فيها السفن التي تنقل المسافرين بين المدن المزدهرة الثاوية على ضفافها.

أَنطاكية تلك تقع على مفترق طرق بيسيدية، وفريجية، وغلاطية الجنوبيّة؛ وهي واحدةٌ من ستّ عشرة مدينة تحمل اسم " أَنطاكية " الذي أَطلقه عليها سلوقيوس نيكاتور،

تكريماً لذكرى أَبيه أَنطيوخُس. كانت مدينة جميلة جاثمة على تلّة تشرف على سهل ممراع، عند أَقدام جبال محيقةٍ بها شاهقة حتّى ارتفاع ثلاثة آلاف متر، تكسوها الثلوج في معظم أَيّام السنة، وهي معروفة اليوم باسم " سلطان داغ ". وكانت مركزاً تجاريّاً وإِداريّاً هامّاً، فضلاً عن كونها أَحد ستّة مواقع عسكريّة مكلّفة بحراسة المناطق الجبليّة. ومن بساتينها كان يُشاهد تلألؤ مياه بحيرةٍ كبيرة مجاورة.

و كانت أَنطاكية تؤوي جالية يهوديّة كبيرة وذات ونفوذ، معظم أَفرادها من الدبّاغين وقد اجتذبتهم إِلى هناك تجارة الجلود الرائجة. وكان لتلك الجالية، وفقاً للتلمود البابليّ، مدرسة، وطبيب يداوي بالأَعشاب، وجرّاح يعالج بالحجامة، وكاتب بالعدل، وجزّار يؤمّن الذبح حسب الشريعة، وصندوق خيريّ، ومحكمة لا تقلّ هيئتها عن ثلاثة وعشرين عضواً، وحمّامات عموميّة، ومجمع يؤمّه، إِلى جانب اليهود، رهطٌ من الوثنيّين متّقي اللّه.

و كان معظم أولئك اليهود قد أَصابوا ثقافة هلّينيّة، ويتمتّعون بامتيازات عديدة، ويعيشون في تفاهم مع أَهل البلاد.

أَمّا سكّان المدينة الأَصليّون، فكانوا يعبدون القمر، ويؤدّون له، في الليالي المقمرة، طقوساً حافلة بالفحش، يُسبِلون عليها قناع الدين.

و حلّ الرسولان في بيت رجل يهوديّ صانع خيام وبُسط، وفّر لبولس عملاً كحائك، فيما عمل برنابا بغزل الصوف وشعر الماعز، فقد حرص الرسولان على أَن يأكلا خبزهما بعرق جبينهما، وأَلاّ يكونا عالة على أَحد.

و في يوم السبت الذي تلا وصولهما، شخصا إِلى المجمع، وكان قد شاع وجود ضيفين غريبين أَحدهما عالم في الشريعة، والآخر لاويّ، يحملان أَفكاراً جديدة، فوافى الحضور بكثافة. وعقب تلاوة فصول من التوراة، وإِنشاد مزمور، أَنفذ رئيس المجمع خادماً يدعو بولس إِلى التحدّث، فنهض وبسط ذراعيه كما كان يفعل الخطباء، واسترسل بخطاب مستفيض، استهلّه بإِيجاز تاريخ الشعب اليهوديّ، ثمّ أَوضح أَنّ جميع ما جاء في الأَنبياء عن مسيحٍ يرذله شعبه، ويسومه أَقسى أَلوان المهانة والعذاب، قد تحقّق في يسوع الذي اضطهده رؤساء إِسرائيل، بسبب عمى قلوبهم، وصلبوه، ولكنّه قام من الموت إِلى حياة أَبديّة، على نقيض جميع الأَنبياء الذين ماتوا وفنيت أَجسادهم، محقّقاً ملكوت اللّه على الأَرض، وشاطراً التاريخ إِلى ما قبله وما بعده، والشعوب إِلى مؤمنين وغير مؤمنين.

الأَنوار التي غمرت نفسه عند مشارف دمشق، كان توّاقاً إِلى إِشراك جميع البشر فيها، فهتف : " فاعلموا، إِذن، أَيّها الإِخوة، أَنّكم بيسوع قد جاءتكم البشرى بمغفرة الخطايا،

وأَنّ هذا البرّ الذي لم تستطيعوا أَن تجدوه في شريعة موسى، إِنّما به يُعطى كاملاً لكلّ إِنسانٍ يؤمن به " (أعمال 13: 38- 39)

تلك كانت المرّة الأُولى التي يُعلن فيها تفوّق عمل النعمة على أَعمال الشريعة، وهزيمة طغيان التزمّت اليهوديّ أَمام رسالة حبّ سامية، بتدخّل جديد من اللّه في تاريخ البشر. ومنذئذٍ غدت تلك العقيدة هي أَساس التعليم الذي سينشره بولس في العالم أَجمع.

و فيما كان زعماء الهيكل مرتبكين، مضطربين، متسائلين عن صواب تفسير بولس للنبوءات والكتب، كان " متّقو اللّه " من الوثنيّين، جذِلين، فرحين، لأَنّ بولس بشّرهم بأَنّهم، في عين اللّه، لا يقلّون شأناً عن المتشبّثين بأَهداب الشريعة، ولئن اشتمّ اليهود الفرّيسيّون في كلام بولس رائحة بدعة، وثورة، لا تبشّر بخير، غير أَنّ غير اليهود من " متّقي اللّه " والمتهوّدين حديثاً، وجميعهم من أَصلٍ وثنيّ، استشفّوا في حديث بولس فجراً مشرقاً تسطع فيه شمس الحرّيّة الروحيّة، واتّضح لهم أَنّ الموضوع من الدقّة، والجدّة، والخطورة، بحيث يحتاج إِلى استفاضة في الإِيضاح. فقد ضرب بولس على وترٍ حسّاس لدى ذلك الجمهور الشديد الاختلاط بتخطّيه جميع عوامل التفرقة فيما بينهم، مؤكّداً أَنّه لم يعد، في يسوع، يهوديّ ولا يونانيّ، لا عبدٌ ولا حرّ، لا ذكر ولا أُنثى، بل "جميعكم واحد في المسيح يسوع". وعندما همّ الرسولان بالخروج، تدافع جمع غفير للدنوّ منهما، ملتمساً منهما المكوث في المدينة، والتحدّث إِليهم ثانية؛ وكثيرون منهم لم يطيقوا الانتظار حتّى السبت التالي، فما انفكّوا، سحابة الأُسبوع، يتقاطرون إِلى حيث كانا يعملان، راغبين في الاستزادة من الحديث عن يسوع، وعن ظهوره لبولس. وكان الرسولان يحرّضانهم على الثبات في نعمة اللّه.

و تناقلت الأَلسن، في المدينة كلّها، أَنّ يهوديّاً طرسوسيّاً سيخطب في المجمع، وأَنّه رومانيّ الجنسيّة، وقد سبق له أَن اضطهد أَتباع يسوع الناصريّ، ثمّ انقلب هو نفسه إِلى حزبه، بعد أَن شهده منتصراً على الموت، وتعرّف فيه المسيح الذي ينتظره اليهود. وقد وُصف ذلك الخطيب الوافد، بالفصاحة وقوّة الحجّة، وبأَنّه خليق بأَن يُستمعَ إِليه، وهو يبسط آراءه حول استقلال المسيحيّة عن الشريعة الموسويّة. وكان ذلك النبأ، في مدينة صغيرة تنساب فيها الحياة رتيبة، حَدَثاً مدوّياً، بحيث " في السبت التالي، اجتمع نحو المدينة كلّها لسماع كلمة الربّ "، فقد غصّ المجمع بالحضور، حتّى قبل أوان الصلاة، واضطر كثيرون إِلى التراصّ خارجاً. واستشاط زعماء اليهود غيظاً وحسداً حيال هذا الحشد المنقطع النظير. إِذ كيف استطاع هذان الغريبان، بمجرّد حضورهما، استقطاب هذه الجموع التي لم يستطيعوا هم، قطّ، اجتذاب مثلها من قبل؟ من المحقّق أَنّ كلام بولس كان من عمق الأَثر بحيث استطاع، في غضون أُسبوع واحد، قلب الدنيا، لا بل بات يهدّد بنسف نظام فكريّ لم يغيّر أَحدٌ

منه حرفاً مذ أقرّه الأجداد، ولا يجوز لأحد أن يعدّل منه شيئاً. وزاد من نقمة زعماء اليهود أنّ الوثنيّين و" متّقي اللّه " كانوا يمثّلون أغلبيّة الحضور، وأنّهم، فضلاً عن تدنيسهم ذلك المكان المقدّس، قد تدافعوا ليسمعوا تأكيداً بأنّ شريعة موسى أداة خلاص ناقصة، وأنّ جميع الشعوب، أمام اللّه، سواسية، وأنّ لا ميزة لليهود على أحد.

لقد شقّ على زعماء اليهود أن يسترق دخلاء احتكارهم لتفسير النبوءات على غير ما يرغبون؛ وتوجّسوا خشية من انهيار الدكتاتوريّة التي جهدوا، جيلاً إثر جيل، في ترسيخها على أُسس الشريعة؛ بيد أنّهم، حيال حماس الشعب المزدحم، لم يستطيعوا منع الرسولين من الكلام، ولكنّهم وطّنوا العزم على معارضتهما بعنف.

استهلّ برنابا الكلام، بلهجة وديّة مسالمة، متجنّباً كلّ ما من شأنه إثارة الخلافات، غير حائد عن المعتقدات اليهوديّة، محاولاً إخماد تربّص اليهود، ومعدّاً الجوّ لرفيقه. وتلاه بولس، فعلّق على قول النبيّ أشعيا : " إنّي جعلتك نوراً للأُمم، كي تحمل الخلاص إلى أقاصي الأرض "، وبيّن أنّ مخطّط الخلاص الإلهيّ لا يمكن أن يكون حكراً على اليهود دون سواهم، بل يجب أن يشمل البشر أجمعين، أيّة كانت أجناسهم ومعتقداتهم. ولكنّ الشعب اليهوديّ تكبّر، وتقوقع، وبخل، فنال عقابه، وتشتّت، واضطُهد. غير أنّ مجيء يسوع كفيل بتقويض جميع الجدران، وردم المسافات، ومحو المظالم، وتحرير العبيد، وإحلال المساواة والوحدة بين البشر أجمعين، أيّاً كان منشؤهم، ومركزهم الاجتماعيّ. وخيّل لزعماء اليهود أنّهم باتوا يسمعون هدير قضقضة الحواجز التي جهدوا، عبر الأجيال، في إشادتها، والتمترس خلفها. لقد حالت غيرتهم وكبرياؤهم دون رؤيتهم للحقيقة، فانتفضوا وأخذوا يجأرون : " أبعدوا هذا المارق، فنحن نرفض مسيحه."

و فيما كان غضب الرابيّين يتفجّر شتائم، ولعنات، ووعيداً، تفجّر حماس الوثنيّين و"متّقي اللّه " تصفيقاً، وأناشيد، وهتافات، غطّت على صياح اليهود، وكان لها، لدى إخوتهم المتراصّين في الخارج، صدى وترداد. فقد غمر الفرح قلب الوثنيّين لمّا سمعوا أنّهم موضع اهتمام الربّ وحبّه.

و أطرق بولس صامتاً، محدّقاً في داخله، وكأنّه يحدّث كائناً غير مرئيّ. كانت ساعة حاسمة من مسيرته قد أذنت، ووسط المعارضة اليهوديّة العنيفة التي كانت تنهال عليه، اتّخذ قراراً كفيلاً بتغيير وجه الكنيسة جوهريّاً، وبجلب نقمة أبناء جلدته الشرسة عليه. وما إن هدأت الضوضاء حتّى ألقى، بتؤدة، كلمات مثقلة بالتأثّر والتصميم، موجّهة إلى اليهود المتزمّتين، قائلاً : " إليكم، أوّلاً، كان ينبغي أن تُبلَّغ كلمة اللّه، ولكن بما أنّكم ترفضونها،

وتحكمون بأنّكم غير أَهل للحياة الأَبديّة، فها نحن نتوجّه إِلى الوثنيّين؛ فهذا ما أوصانا به الربّ إِذ قال : " إِنّي جعلتك نوراً للأُمم لتحمل الخلاص إِلى أَقصى الأَرض."

و يضيف كتاب أَعمال الرسل: "فلمّا سمع الأُمم ذلك، فرحوا ومجّدوا كلمة الربّ، وآمن جميع الذين كُتبت لهم الحياة الأَبديّة، وكانت كلمة اللّه تنتشر في الناحية كلّها"

و فيما ظلّ زعماء اليهود واجمين، تحلّقت حول بولس وبرنابا جموعٌ نشوى بالبهجة، والشعور بالانتصار، وواكبتهما هاتفةً، منشدة، متوثّبة.

في يوم السبت ذاك، وفي أنطاكية بيسيدية، انتهجت المسيحيّة منعطفاً حاسماً، وكذلك رسالة بولس.فبما أَنّ اليهود يأبون تعليم يسوع، فهو سيتّجه إِلى غير اليهود؛ أَولَم يكن الربّ نفسه قد أَنذره، لستّ سنوات خلت: "لن يقبل اليهود شهادتك فيّ، ولذلك سأرسلك إِلى الأُمم الوثنيّة النائية؟"

صحيح أَنّ بولس لم يكفّ، يوماً، عن دعوة اليهود إِلى الإِيمان بيسوع، فقد كان يتلهّف إِلى نزع الغشاوة عن عيون بني جلدته، علّهم يبصرون النور. ولكنّه لم يتوهّم يوماً النجاح في إِنفاذ الرسالة إِليهم، ولم يبارحه الحزن لمكابرتهم في إِنكار الحقيقة الدامغة التي تجلّت له.

كان بولس أَوّل من أَدرك روح يسوع المسكونيّ، ونهج بوحيه، منفتحاً على جميع الأُمم، غير خاضع لسلطان أَيٍّ منها، فروح يسوع هو الرباط بين الأَرض والسماء، بين الأُمم والشعوب، في حين أَنّ اللحم والدم هما عاملا فرقةٍ وشقاق.

إِثر ما حدث كان من البديهيّ أَن يُحظر على الرسولين التعليم في مجمع اليهود، فهجرا أَيضاً بيت ضيفهما اليهوديّ، لكيلا يعرّضاه لانتقام زعماء اليهود، واستقرّا في بيت رجلٍ غلاطيّ كان يملك مصنعاً للنسيج في حيّ اليونانيّين، وانطلقا يعلّمان في البيوت والحوانيت، وعلى الشرفات، وفي الهواء الطلق. وسرعان ما اتّضح أَنّ هذه الأَماكن المرتجلة لم تقلّ جدوى عن المجمع، وقد بات بمكنة الرسولين التبشير بيسوع، بحرّيّة تامّة، في معزل عن أَيّ قيد يفرضه المجمع.وكان الوثنيّون البسطاء الذين لم تفسد عقولهم الأَحكام المسبقة يتقبّلون بتأثّر بالغ بشرى الخلاص، التي لم تعُدْ سرداً مملاً لفرائض وموانع شرعيّة لا حصر لها؛ ولا " أَركاناً ضعيفة وحقيرة " (غل 4 :9). ولم يكن اللّه الذي يبشّر به بولس وبرنابا تاجراً دائباً على مراجعة حساباته، ولا ملاّكاً غنيّاً يحاسب خدّامه عن كلّ فلس، بل هو مَلِكٌ سمح، يعيد إِلى الخاطئين والمتعبين السعادة بكلمة نعمته الحرَّة. وحيال هذا الإِله، كان الوثنيّون يتبيّنون سخافة الآلهة التي سبق لهم أَن آمنوا بها وضحّوا لها، ولمسوا زيفها، ولا سيّما وأَنّ إِله المسيحيّين إِلهٌ حيّ، عاش في بقعة معروفة من الأَرض، وفي زمنٍ محدّد، وما زال التلاميذ الذين عايشوه أَحياءً وشهوداً عليه، وهو قد ظهر لبولس، وكلّمه، وقلب كلّ كيانه. أَيّة

سعادة تذوّقها أولئك القوم الذين انعتقوا من الأَوهام والخزعبلات، وانفتحت قلوبهم على الحقّ والنور ! وكم كانت بهجة الجماعة عارمة كلّما تقدّمت فئة من الموعوظين إِلى ماء المعموديّة، وأَعلنت إِيمانها بيسوع ! كان أولئك الوثنيّون الصابون إِلى النور يتقاطرون بلهفة للنهل من تعاليم يسوع، ويستقون منها سعادة عظمى، ويعودون منها بالعزاء والرجاء، ويُطلعون أَقاربهم وأَصدقاءهم، وجميع من يصادفونه، سواءً كان جاراً، أو تاجراً قادماً من بلد غريب، أو جنديّاً وافى في مهمّة، وهكذا تستيقظ لدى الكثيرين من هؤلاء الرغبة في الإِطّلاع على التعليم الجديد، وهؤلاء، بدورهم، يخبرون سواهم بما أَصابوه من مغانم روحيّة؛ وغدا الرسولان يذرعان الدروب في كلّ اتّجاه جاهدين في تلبية احتياجات المتعطّشين إِلى نور الحقيقة، ونثر بذور الإِيمان والفرح. ولهذا الغرض اختار الرسولان نخبةً من المهتدين الجُدد يتميّزون بسداد الحكم، والفطنة والتقوى، فدرّبوهم، واستعانوا بهم على التبشير، وكلّفوهم بمتابعة التعليم في غيابهما.

لقد مكث بولس في بلاد الغلاطيّين مدّة أطول ممّا توقّع، وأَفاد من " الباب المفتوح " أَمام بشرى يسوع؛ فأمضى نحو سنة يبشّر، وأَسّس كنيسة تتألّف، في معظمها، من وثنيّين مهتدين، ممّا أَقضّ مضاجع اليهود، الذين كان قد خُيِّل إِليهم أَنّ طردهم للرسولين من المجمع كفيل بحرمانهما وسيلة التعليم، فإذا بهما، بعد أَن ابتعدا عن المجمع، اكتسبا انطلاقاً، ورشاقة، وحرّيّة، ونشاطاً. لقد غاظ اليهود أَن يروا هيكلاً ينتصب في إِزاء هيكلهم، ويجتذب من الأَتباع المتحمّسين أَكثر من كلّ ما توقّعوا. ولم يكن لديهم قِبَل على مقارعة بولس بالحجّة، فقد أَثبت براعته في المحاجّة، ولم يبقَ لهم من حيلة سوى المكيدة والعنف، فبراعتهم في التجارة كانت تمكّنهم من توثيق علاقات مع متنفّذي البلاد، وغالباً ما كانوا يحرّضون يهوديّات ثريّات على الاقتران بموظّفين رومانيّين، وبفضلهنّ يضمنون تواطؤ أَصحاب السلطة. وقد أَقنعوا عدداً من أولئك النسوة اللواتي كنّ يختلفن إِلى المجمع في أَفخر حلاهنّ ولباسهنّ، بأَنّ دعوة بولس وبرنابا كفيلة بالقضاء على امتيازاتهنّ الاجتماعيّة، ورفاههنّ، وحرّضوهنّ على استخدام نفوذهنّ من أَجل طرد " المبشّرين الخطرين ".

و مذّاك، اندلعت على الرسولين حركة اضطهاد ماكرة شرسة، إِذ أَمر رؤساء المجمع بجلدهما أَربعين جلدة إِلاّ واحدة (فالشريعة تفرض التوقّف عند الجلدة التاسعة والثلاثين، مخافة خطأ في العدّ يؤدّي إِلى تخطّي الأَربعين جلدة، وكأنّ جلدة واحدة، بعد الأَربعين جلدة، خطيئة كبرى، أَمّا الجلدات التسع والثلاثون أو الأَربعون فهي تنفيذ لمشيئة ربّ الشريعة !). كما أَنّهم راحوا يوهمون المسؤولين عن الأَمن بأَنّ المسيحيّين يدعون إِلى دين غير شرعيّ يناقض دين الدولة، وينادون بملكٍ شرقيّ منافسٍ للقيصر، كان بيلاطس قد حكم عليه بالموت،

وبذلك يرتكبون جريمة الخيانة العظمى.وإِلى جانب هذه الافتراءات أَخذوا يرشون عصابات من الرعاع، ويحرّضونهم على مهاجمة المسيحيّين وإِيذائهم.

تلك الممارسات لم تصدم المؤمنين الجُدد، إِذ كان الرسولان قد أَطلعاهم على ما ينبغي للرسول والمؤمن أَن يكابداه من اضطهاد في سبيل الإِيمان؛ وكان بولس وبرنابا يعبّران عن اغتباطهما بأَنّهما وُجدا جديرين بالتألّم في سبيل يسوع، فالأَلم والاضطهاد ملازمان للرسالة. ولطالما طارد الحقد والعداء بولس على مدى حياته الرسوليّة، وقد استذكر في غروب حياته، ومن خلال رسالته الثانية إِلى تيموثيوس، تلك السلسلة المتّصلة من "الاضطهادات والآلام التي أَصابتني، في أَنطاكية، وإِيقونية، وليسترة، وأَنقذني الربّ منها جميعاً.فجميع الذين يريدون أَن يحيوا حياة تقوى في يسوع يُضطهدون ".ودأب الحكّام على مضايقة الرسولين، وانتهوا بطردهما من المدينة، " فنفضا عليهم غبار أرجلهما "، عملاً بوصيّة المعلّم، وتطلّعا في الحال إِلى حقل عمل آخر، فيمّما شطر إِيقونية، مخلّفين في أَنطاكية بيسيدية جماعة متدفّقة إِيماناً وفرحاً، وممتلئة بالروح القدس.

و قد زادت التجربة الحيّة الرسولين يقيناً بأَنّ حلاوة النجاح ستكون، غالباً، مشوبة بمرارة الاضطهاد.

غادر الرسولان أنطاكية بيسيدية حاملين على ظهريهما آثار السياط، وقد أُشرع أمامهما طريقان : فإن هما اتّجها غرباً لأفضيا إلى أفسس، وإن هما يمّما شطر الشرق لانتهيا إلى إيقونية، المسترخية على ضفاف بحيرة؛ ولكن دونها كانت تمتدّ مستنقعات ملحيّة عسيرة العبور. وقد آثرا التوجّه شرقاً، تدفعهما الرغبة في إقامة مواقع للكنيسة في بلاد الغلاطيّين. فسارا خمسة أيّام، متوغّلين، أكثر فأكثر، في شبه الجزيرة الأناضوليّة؛ منحدرين من هضاب جرداء، حيث تدأب قطعان الغنم والماعز على التقاط عشبة هزيلة نادرة بين الحصباء، تحت هجير حارق تصبّه شمس لا ترحم، تنساب بتؤدة في سماء قاتمة الزرقة، وحيث، فيما خلا بعض أشواك داكنة، لا أثر لشجرة، ولا فيء ظلّ. ثمّ استمرّا في المسير عبر سهول قاحلة، بين سماء زرقاء صافية، وأرض غبراء لا نبات فيها.

و لمّا انتهيا إلى إيقونية – المسمّاة اليوم قونيا، وهي مدينة "الدراويش الدوّارين" – سُرَّت أبصارهما بالاستراحة على منظر واحة غنّاء، غافية في أحضان بساتين نضرة، ترويها عشرات السواقي المتدفّقة ماء نميراً. فعلى غرار دمشق، كانت إيقونية جزيرة من الخضرة والطراوة وسط بحرٍ من الرمال، وكانت تضمّ مزيجاً من غلاطيّين هلّينيّين، وموظّفين رومانيّين، ويهود؛ وكانت مركزاً تجاريّاً هامّاً، وملتقى طرق نحو جميع أرجاء آسية الصغرى، وكانت قد أعلنت حديثاً مستعمرة رومانيّة.

و تذكر روايات شعبيّة أنّه، عندما دنا الرسولان من إيقونية، كان بانتظارهما رجل يدعى أونسيفورس، ترافقه زوجته ليكترا وابناه سيمياس وزينون. وكان أونسيفورس هذا وجيهاً مسموع الكلمة، وكان منزله محجّة للأصدقاء، والجيران، والضيوف. وكان قد أُبلغ، في رؤيا، بوصول الرسولين، وأُعطي وصفاً دقيقاً لبولس، فراح يحدّق في كلّ مارّ إلى أن تعرّف بولس، الذي انطبقت عليه الأوصاف التي وُصِف بها : رجل قصير القامة، أصلع، موصول الحاجبين كثيفهما، معقوف الأنف، مقوّس الساقين، ممتلئ المحيّا نعمةً؛ فهو يبدو تارة إنساناً، وتارةً ملاكاً. هذه الأوصاف عينها هي التي بقيت لنا عن بولس، حتّى اليوم.

و يقال أنّ أونسيفورس استضاف الرسولين اللّذين أكبرا شهامته، ورقّة معاملته لعبيده؛ وسرعان ما أضحى منزله مقرّاً لجماعة مسيحيّة عديدة، ونشيطة.

و تكرّر في إيقونيّة ما حدث في أنطاكية بيسيدية، إذ راح برنابا يبشّر بيسوع في مجمع اليهود، فيما طاف بولس بالحقول والبساتين، والأسواق، ناشراً البشرى بين الناس

المتعطّشين إلى مَثَلٍ أسمى، وإلى مُطلقٍ يشبع تطلّعاتهم الكمينة.وفي غضون أيّام معدودات اجتذب الرسولان إلى الإيمان بيسوع جموعاً غفيرة.

و إذ كانت تلك المنطقة غاصّة بالسحرة والدجّالين، أجرى الربّ المعجزات على يدي الرسولين، تأييداً لهما، وتصديقاً لتعليمهما، وتمييزاً له عن شعوذات السحرة.

و حيال إقبال القوم على الإيمان بيسوع، استشاط غلاة اليهود غيظاً، فهيّجوا الشعب، وأوغروا الصدور على الرسولين، وألصقوا بهما من التّهم والافتراءات ألواناً، فانشقّ أهل المدينة، بعضهم لليهود، وبعضهم للرسولين؛ بعضهم يناصبونهما العداء، ويطاردونهما بمضايقاتهم، وبعضهم يؤيّدونهما ويذودون عن حياضهما. " ومع ذلك مكثا هناك مدّة غير يسيرة يتكلّمان بجرأةٍ، بتأييد من الربّ ". ولا ريب أنّهما قاما بحملات تبشيريّة في شتّى نواحي الجوار، وفي القرى والدساكر، وأسّسا جماعاتٍ فلاّحيّة صغيرة، ستخضع لإدارة كنيسة إيقونية، بعد أن تبلغ هذه أشدّها، وستبقى إيقونية، سنواتٍ طوية، إلى جانب أنطاكية، إحدى ركائز الكنيسة في آسية الصغرى، ومركزاً لبطريركيّة تخضع لسلطتها أربع عشرة مدينة، وكان الأرمن آخر من شهد، فيها، للإيمان بدمائهم.

و ما انفكّ اليهود يلاحقون الرسولين بحقدهم ويحرّضون عليهما الرعاع، ويلصقون بهما شتّى التهم الباطلة والتخرّصات، زاعمين، على سبيل المثال، أنهّما يحرّمان الزواج ويعدّانه إثماً. وذات يوم تنامى إلى علم أصدقاء بولس وبرنابا أنّ اليهود وأعوانهم يتأهّبون لرجمهما، فساعدوهما على اللجوء إلى ليكأونية المجاورة. فغادرا إيقونية تاركين فيها جماعة مسيحيّة نشيطة وطيدة الأركان. وتنفّس حاكم المدينة الصعداء، فقد كان حائراً بين الدفاع عن رسولين لم يشهد منهما إلاّ كلّ فعل حسن، ويهود مناوئين لهما، يثيرون بمناوراتهم الغادرة الفتَن، ويكادون يقضون على الاستقرار الذي كان حريصاً عليه.

و جدير بالإشارة أنّ في إيقونية ولدت أسطورة " بولس وتقلا " التي راجت في القرون الوسطى، وهي تقول أنّ فتاة ثريّة رائعة الجمال تدعى تقلا كانت تقطن في بيت شاهق مطلّ على منزل أونيسيفورس، حيث كان بولس يلقي تعاليمه. وكانت تقلا مخطوبة لشابّ ينافسها ثراءً وجمالاً يدعى تاميريس. غير أنّها، مذ شرع بولس يعلّم، باتت تتنصّت بشَغَفٍ لأقواله التي فتنتها. وقد أخذ من نفسها كلّ مأخذ، على نحوٍ خاصّ، كلامه في الطهارة والعفّة، فوطّنت العزم على تكريس عفّتها للربّ، ممّا أثار سخط أُسرتها وأُسرة خطيبها؛ وكلتاهما صاحبتا نفوذ، فاستطاعتا سجن بولس وجلده، بتهمة ممارسة السحر. ولكنّ تقلا رشت حارس منزل ذويها بسوارها الذهبيّ، وشخصت إلى السجن، فرشت حارسه، أيضاً، بمرآةٍ من الفضّة،

وجاءت فجلست عند قدمي بولس الذي أَنفق الليل كلّه وهو يلقّنها مبادئ المسيحيّة، ثمّ تمكّنت من تهريب الرسول من السجن.

و لمّا أَخفقت جميع محاولات والدتها وخطيبها المتكرّرة، والتي حفلت بالضغوط وأَلوان التعذيب، في حملها على الزواج، وثنيها عن نذر العفّة، شكواها بتهمة العناد والعصيان، فحُكِم عليها بالحرق وهي حيّة. غير أَنّ مطراً مدراراً أَطفأ المحرقة، وفرّت تقلا فالتحقت ببولس في أَنطاكية، حيث قبضت عليها السلطات، مجدّداً، وأُلقيت طعماً للوحوش التي لم تمسّها بسوء، فـــقُذِف بها إِلى حفرة تعجّ بالأَفاعي التي ابتعدت عنها. وأَخيراً أُفرج عنها، فراحت تجوب البلدان مبشّرة بيسوع إِلى أَن لقيت وجه ربّها، وقد طعنت في السنّ.

بولس يُرجَم في ليسترة

من إيقونية سار الرسولان نحو أربعين كيلومتراً إلى ليسترة، وسط أراضٍ مقفرة قاحلة، كان اللصوص قد اتّخذوها مكامن لهم، قبل أن يتعرّضوا لملاحقات السلطات الرومانيّة التي طالما جهدت في إشاعة الأمن في تلك الأنحاء. وكان سكّان ليسترة من البسطاء، الفقراء، المؤمنين بالخرافات؛ يتكلّمون إحدى لهجات جبال الأناضول التي يعسر فهمها على الغرباء، والتي كان الإغريقيّون والرومان يزدرونها.وكان الإغريقيّون قد جاؤوا تلك المدينة بعبادة آلهتهم، ولا سيّما زوس وهيرميس، اللّذين كان تمثالاهما يحرسان مدخل المدينة، حيث كان كاهن وثنيّ يؤدّي لهما واجبات العبادة.

و كانت الأساطير الرائجة تروي أنّ زوس وهيرميس سبق لهما مرّتين أن تنكّرا بصورة بشر، فحلاّ مرّة ضيفين على ملك ليقأوينية الذي أهانهما فحوّلاه ذئباً، وحلاّ، مرّة أُخرى، ضيفين على راعٍ فقير أَحسن وفادتهما، فحوّلا كوخه قصراً منيفاً، وأَجزلا له العطاء. ومن ثمّ كان القوم يتوقّعون، دائماً، اقتحام الآلهة لحياتهم.

هزال الأَحوال الاقتصاديّة في ليسترة أَبعد عنها اليهود. ولكنّ الرسولين كانا مزوّدين بعنوان أُسرة يهوديّة تائهة في ذلك المحيط، تتألّف من جدّة يهوديّة تدعى لوئيس، وابنتها المدعوّة أفنيقية، وهي أَرملة رجل يونانيّ، ولها ولد يافع يدعى تيموثيوس. وإذ لم يكن في ليسترة مجمع ولا حاخام، لم يُختَن الفتى، ولم يتلقّ من التعليم سوى ما زوّدته به جدّته وأُمّه التقيّتان، وترعرع في كنفهما، فتميّز، بوداعته ورهافة إحساسه، عن أَترابه الفظّين العنيفين. ومنذ الوهلة الأُولى أَحبّ بولس ذلك الفتى، الذي نشأ في منجاة من تزمّت اليهوديّة، ومن خرافات الوثنيّة على السواء، فظلّ نقيّ النفس والفكر. كان زهرة يانعة واعدة تستدعي أَرقّ رعاية، وقد توسّم فيه بولس عنصراً فعّالاً في حقل الرسالة، فحرّضه على دراسة الكتب المقدّسة على ضوء مجيء يسوع. وعندما سمع تيموثيوس بولس يتحدّث عن يسوع في ثقةٍ وقناعةٍ راسختين، واندفاعٍ مضطرم، وعيناه تشعّان مثل جمرتين، التهب قلبه، والتمس، بحماس مرافقة الرسولين على دروب رسالتهما، ولكن بولس دعاه إلى التريّث والتمرّس من العلم والممارسة، ووعده باصطحابه، لاحقاً، بعد أن ينضج ويشتدّ عوده. أَما أُمّه وجدّته فقد تسرّب إلى قناعتهما تعليم بولس وأَيقنتا أَنّ عهد الشريعة قد ولّى، وأَشرقت على نفسيهما تعاليم يسوع فكانتا رائدتي المؤمنين به في ليسترة.

و ما عتّم أن أَصبح منزلهما منبراً للتبشير بيسوع، وملتقى المؤمنين الجُدد، وأَصبح تيموثيوس رفيق الرسولين ودليلهما إلى المدن والقرى المجاورة، حيث انتشرت أَنوار يسوع،

ونشأت جماعات متجانسة، راسخة الإيمان. وكان الرسولان، في معزلٍ عن مكائد اليهود، يواصلان كرازتهما في هدوءٍ وحماس، لا يعكّر صفو رسالتهما شيء، إلى أن حَدَث، يوماً، ما قلب الأوضاع إلى مأساة حقيقيّة.

فذات يوم أقامت المدينة مهرجاناً شعبيّاً تكريماً لرئيس الآلهة زوس، وقد استقطب الاحتفال، إلى ساحة المدينة، جمهوراً غفيراً، انضمّ إليه رعاة الجوار وفلاّحوه، ومتسوّلون طامعون بصدقات وهبات، فيما اطّرح على أدراج المعبد، وعند عتبات المنازل، مقعدون ومعاقون ومرضى. وقد توسّم بولس في ذلك الحشد الجيّاش المزركش جمهوراً مثاليّاً، فهبّ يخطب فيه، وسرعان ما أَسر القومَ صوتُه الأَخّاذ، ونبرته التي تنساب بيُسر إلى القلوب، فيما كان رفيقه المهيب، برنابا، يجيب، برقّة وصبر، على تساؤلات الحضور البسطاء.

و تحدّث بولس عن يسوع، ومولده الوضيع، والخوارق التي أَجراها، فشفى بها أوصاب المتألّمين وعللهم، فأَطلق أَلسنة البكم، وأَعاد البصر إلى العميان، والحركة إلى المشلولين، والحياة إلى بعض الأَموات. وفيما هو يتكلّم، تملّكه شعور آسر، لا يوصف ولا يقاوَم، بأَنّ توسُّلاً ملحاحاً يلاحقه من قريب؛ وتلفّت فإذا بمسكين مهجور، منتحٍ زاوية، مقعد منذ مولده، كان قد أَصغى إلى خطاب بولس، وأَلهبت أَخبار معجزات يسوع، في نفسه، أَملاً مضطرماً، مجنوناً، وقد سمّر أَبصاره على الخطيب القصير القامة، الساحر الأَلفاظ، الذي توسّم فيه تجلّياً إلهيّاً، ووعداً بالخلاص، وتلاقت أَبصارهما، فقرأ بولس في عيني ذلك المسكين كلّ ما كان يعتلج في نفسه من رجاءٍ مضطرم، وتوقّعٍ وجيع، وإيمانٍ وطيد، فتحرّكت أَحشاؤه، وتضرّع، في سرّه، إلى معلّمه الذي لم يقوَ، يوماً، على مقاومة الإيمان الصادق، والتمس إزره، ثمّ حدّق في المُقعد، وأَمره، بصوت جهوريّ : " هيّا، قمْ فانتصب على قدميك". وإذ بقوّةٍ خارقة تسري في كلّ أَوصاله، فهبّ، وانطلق يتوثّب، رافعاً عكّازيه عالياً، متدفّقاً فرحاً وشكراناً، وسط جمهور مذهول.وتعالت من كلّ جانب صيحات إكبار ودهشة. وأَقبل الرجل على بولس، وانكبّ على يديه تقبيلاً، ولكنّ الرسول أَنهضه برقّة، وقبّله، وقال له :

– امضِ الآن، وآمن بالربّ.

كان بولس يدرك وقع المعجزة على الجماهير، ولكنّه لم يتوقّع ردّ فعل الليستريّين الذين ما إن رأوا ذاك الذي طالما شاهدوه مقعداً، مفترشاً الحضيض، عاجزاً عن الحركة، وهو يرقص، ويضحك ملءَ شدقيه، حتّى هتفوا بلهجتهم الخاصّة التي لم يفهمها الرسولان :

– لقد حلّ الآلهة فيما بيننا، واتّخذوا شكلاً بشريّاً. وها هما زوس وهيرمس.

أوَ لم يكن برنابا، المارد، الهادئ، الوقور، ببسمته الساحرة، ووسامته الرائعة، ولحيته المهيبة، وشعره الأَسود الكثيف، يحاكي تمثال زوس الساهر على مدخل المدينة ؟ وألم يكن بولس القصير القامة، المتدفّق حيويّة، الإِلهيّ الفصاحة، رمزاً لقدرات هيرمس المدهشة؟ !

و سرعان ما انتظمت تظاهرة صاخبة يقودها كاهن زوس وهو يدفع أَمامه، على أَنغام المزامير، الثيران المزيّنة، معتزماً التضحية بها عند أَقدام الرسولين، ويحمل أَكاليل يبتغي وضعها على هامتيهما. حينئذٍ، فقط، أَدرك بولس وبرنابا اللّبْس الذي وقع، ومعنى التكريم الذي كان يستهدفهما، فسارعا إِلى تبديد ذلك الخطأ الفادح، فمزّقا ردائيهما، وهتفا :

– " أَيّها القوم، لمَ تفعلون هذا ؟ نحن، أَيضاً، بشرٌ ضعفاء مثلكم نبشّركم بأَن تتخلّوا عن هذه الأَباطيل، وتهتدوا إِلى اللّه الحيّ الذي صنع السماء، والأَرض، والبحر، وكلّ ما فيها".

ربّما صدم الرسولان، بقولهما هذا، ذلك الشعب البسيط الذي أَسعده أَن يحظى بزيارة الأَرباب لمدينته؛ غير أَنّ بولس وبرنابا كانا حريصين على إِزالة أَوهام عبادة الأَوثان، ورافضين الظهور بمظهر السحرة والمشعوذين المنتشرين في تلك البقعة، والذين كانوا يعيثون في عقول الناس فساداً، فيدّعون أَنّهم نازلون من السماء، ويتقبّلون الأَضاحي والهبات والتكريم. أَمّا بولس وبرنابا فحرصا على عدم الخلط بين مقام اللّه ومقام البشر، ولو كلّفهما ذلك حياتهما.

غير أَنّ الرسولين، بموقفهما هذا، كانا كمن ينتزع، من ولد، دميته المفضّلة، ويصرفه عن وهمٍ يغمر نفسه حبوراً، ويفضح جهله وسذاجته.وخاب فأل الكهنة الذين توقّعوا من تكريم إِلاهَيْ مدينتهم حُظْوة، كما خاب أَمل الجماهير التي كانت توّاقة إِلى وجبة لحم مجّانيّة وشهيّة من الثيران التي كانت ستضحّى.

و في تلك الأَثناء هبط ليسترة وفدٌ من اليهود الناقمين القادمين من أَنطاكية وإِيقونية وهم مصمّمون على ملاحقة الرسولين بانتقامهم وكيدهم؛ فاستغلّوا اللَّبْس الذي حدث، لكي ينفّذوا ما كانوا قد عجزوا عن تنفيذه من قبل، فراحوا يشيعون الأَقاويل والافتراءات على الرسولين، ويوهمون أَهالي ليسترة، بأَنّهما ساحران دجّالان خطيران، تمثّلا بآلهتهم للإِيقاع بهم، وأَنّهما سيستخدمان قدرتهما الخارقة لإِيذائهم وابتزازهم كما يفعل الكثيرون من السحرة الجوّالين. لا بل دفع اليهودَ كيدُهم إِلى إِيهام الليستريّين بأَنّ الرسولين يعقدان اجتماعات سرّيّة مع أَتباعهما، فيأكلون معاً لحوم ضحايا بشريّة. وأَكّدوا أَنّ ذيْـنك الرجلين قد قوبلا، في كلّ مكان حلاّ فيه من قبل، بالرجم والطرد، فإِن قبلهم أَهل ليسترة لانصبّت عليهم لعنات زوس! ونزلت افتراءات اليهود من نفوس أولئك القوم السذّج منزلة الحقيقة، والإِنذار المخيف.

و بعد أيّام انطلق برنابا للكرازة خارج المدينة، فيما وقف بولس في ساحة المدينة معلّماً؛ ولكنّه ما إن همّ بالكلام حتّى انقبضت نفسه، وهو يرى وجوهاً متجهّمة، مكفهرّة، تقطر غضباً وحقداً، ممّا أيقظ في نفسه ذكرى حَدَث مؤلم، يوم وقف شاهداً على رجم استفانس. وما كاد يفتح فاه، حتّى تعالت صيحات حادّة، وانقضّ عليه سيل من الكراهية؛ وأزّت قرب أذنه الحجرة الأُولى، تلاها وابل من الحجارة التي فجّت جبينه، ومزّقت خدّيه، وحطّمت صدره، وسرعان ما انهار حطاماً هامداً تغمره الدماء المنثالة بغزارة من كلّ جسده. وهمد هياج الجمع، وقد أيقنوا أنّ الرسول لقي حتفه، فأخذوا يرفضّون من حوله، غير أنّ بعضاً منهم، منعاً لتنجيس الهيكل بالجثّة، أو خوفاً من عقاب الحكّام الرومانيّين، انتشلوها من تحت ركام الحجارة، ومضوا بها إلى خارج المدينة، حيث ألقوا بها كما تلقى القمامة، أو كما يلقى كلب نافق، وهم واثقون من أنّ الوحوش الجائعة والكواسر كفيلة بالقضاء على الجثّة قبل انبلاج الصباح.

و لمّا عاد برنابا مساءً وانبئ بالفاجعة، قال : "ربّما لم يمت". غير أنّ الذين شهدوا المجزرة أكّدوا أنّ ما انهال عليه من حجارة لا يمكن أن يُبقي في جسدٍ رمق حياة.

و مع ذلك كان برنابا واثقاً من أنّ بولس ما زال حيّاً، فرسالته لم تكتمل بعد، وما زال أمامه عملٌ جمّ. وعلى أيّة حال، كان لا بدّ من استرجاع الجثمان. ومضى برنابا بصحبة تيموثيوس وحفنة من الإخوة المؤمنين، ولدى مرورهم بقرب الهيكل ورؤيتهم ركام الحجارة التي انهار تحتها بولس، ارتجّت ركبتا برنابا فَرَقاً، وغزاه الشكّ في بقاء بولس حيّاً. ولكنّه عندما انكبّ فوقه منتحباً، وأخذه بين ذراعيه، شعر برعشة حياة تسري في أوصاله، فحمد اللّه، وهرع به، مع صحبه إلى المنزل حيث أزالوا عنه النجيع المتيبّس، وضمّدوا جراحه، وأسعفوه بكلّ ما تيسّر من علاج؛ وبعد لأيٍ، فتح الرسول جفنين متورّمين، وشكر الربّ عندما وجد نفسه محاطاً بأحبّائه.

على غرار العبيد الذين يدمغون بكيّ النار كي يُحدّد انتماؤهم إلى سيّدهم، كذلك بات بولس يحمل في جسده ندباتٍ وسماتٍ لن تمّحي أبداً تُشعِر بانتمائه إلى يسوع، وعلى كلّ من وهب نفسه ليسوع أن يحمل مثلها، ظاهرةً أو خفيّة.

لسنوات خلت كان بولس شاهداً على رجم استفانُس، ثمّ اكتشفت فيه الكنيسة أحد أبطالها، وفي ذلك اليوم شهد تيموثيوس رجم بولس، وسيصبح أوفى مساعديه، وعزاء شيخوخته، وقد أدرك، ذلك الفتى، يومها، ماذا يعني أن يكون الإنسان رسولاً ليسوع، حقّاً.

كان لا بدّ من الفرار ببولس بعيداً عن هياج الليستريّين، وضغينة اليهود، قبل أن يشيع نبأ نجاته فيجهز عليه أعداؤه. ومنذ الصباح الباكر وُضع على عربة أحد الفلاّحين، وغُطِّي بالأعشاب، ومضى به برنابا وتيموثيوس إلى دربة، خلسةً. وقد دلّل بولس على قوّة احتمال نادرة، فمع أنّ كلّ جسده كان جرحاً كبيراً مؤلماً، وبعد كلّ ما نزف من دماء، احتمل وعثاء مسيرة ثماني ساعات على متن عربة مقرقعة تهتزّ بعنف فوق طريق وعر، ولم تبدر عنه أنّة أو شكوى.

و حلّ القادمون الثلاثة ضيوفاً على حائك فقير يدعى غايوس؛ وما كاد بولس يستعيد بعض القوى، حتّى راح يعلن، بلا حرج، أنّه قادم للتبشير بمخلّص العالم، ويا له من منظر مبشّر، مثخن بالجراح، مريع المنظر، مهشّم الجبين، متورّم العينين، وقد انتشرت الكدمات الزرقاء على امتداد جسده ! وسرعان ما أمسى سرير بولس الجريح منبراً للكرازة، كثيف النشاط؛ وكان ذلك المصاب المسجّى، على وهنه، يستخوذ على النفوس، ويسحر القلوب. أيّ سرٍّ كان يسكنه !

كانت دربة شبه معزولة عن جوارها، وخيّل لأعداء بولس من اليهود أنّه قضى نحبه، فكفّوا عن مطاردته، وهكذا تمكّن، مع برنابا، من نشر بشرى الخلاص، بلا عائق، في دربة وفي الجبال والسهول المحيطة بها، حيث غرسا بذور الإنجيل، وأنشآ جماعة مسيحيّة، جميع أعضائها من الوثنيّين السابقين، جماعة وُلدت من صميم آلام بولس، وكأنّها تولد من مخاضٍ أليم. أولَم يكن أشقّ من آلام المخاض انتزاع أولئك القوم البسطاء من أوهامهم وعباداتهم الساذجة للأوثان، من أجل إدخالهم في محراب حرّيّة أبناء اللّه ؟

و امتدّ نشاط الرسولين، في تلك البقعة، مدى سنة، وكان خصباً بالثمار، بدليل اكتشاف نحو خمسين كنيسة بيزنطيّة صغيرة والعديد من الأديرة، فيها، ممّا جعل الأتراك يطلقون على تلك البقعة اسم " بن بيركيليسة " أي " ألف كنيسة وكنيسة "

و في تلك الأثناء، ما انفكّ الرسولان على اتّصال بالجماعات التي أنشأها في كلٍّ من ليسترة، وإيقونية، وأنطاكية بيسيدية.وعبر الرسائل التي كان تيموثيوس مرسالها، كانا يستقريان أخبار تلك الجماعات، ويشدّدانها في الإيمان.

كانا مفعمَين بالروح القدس، وقد اتّضح لهما أنّ الربّ أقامهما نوراً للأُمم، إذ انتشرت كلمته في أماكن عديدة؛ كانا يزرعان الفرح في قلوب مستمعيهما، ولكّن أعداءهما – ولا سيّما اليهود منهم – ما انفكّوا يزرعون العاصفة، ويعيثون فساداً، ويتمادون في الاضطهاد؛

وذلك، أَيضاً، كان لهما مصدر فرح عميق الغور، فهما ليسا أَفضل من معلّهما، والطوبى لهما إِن هما اضطُهدا في سبيله.

و بعد أَن أَقاما للمؤمنين مجلساً، وكلّفا غايوس بقيادة الكنيسة التي أَسّساها في دربة وجوارها، ا تّضح لهما أَنّ مهمّتهما في تلك الديار قد انتهت، وراحا يتطلّعان إِلى حقول عمل جديدة. وكانت طرسوس قد باتت على مقربة منهما، وربّما شدّ بولسَ الشوق إِلى تبشير مسقط رأسه، ولكنّ نفسه كانت مشغولة بما يصرفه عن ذلك الشوق، إِذ كان يشدّه حنين أَكبر إِلى الجماعات المسيحيّة التي ولدها، مع برنابا، في الإِيمان. فقرّرا العودة من حيث جاءا، وحيث كابدا الرجم، والضرب، والطرد، والاضطهاد، وكأنّهما يقذفان بنفسيهما طوعاً في أَشداق الوحوش. وقد أَثلج صدرهما تبيّنهما أَنّ متانة الحكم الرومانيّ قد أَضعفت، في تلك الأَثناء، الصَّلَف اليهوديّ وتسلّطه، وأَشاعت فسحة من الحرّيّة الدينيّة، وأَنّ الإِيمان بيسوع قد امتدّ حتّى بلغ، أَحياناً، دور الحكّام وحاشيتهم، فأكبّا، في تؤدة وسكون، على تدعيم ما كانا قد بنياه.وفي كلّ مكان اختارا أَشخاصاً يتحلّون بأكرم المناقب، والصفات، ونوّاقين إِلى بذل حياتهم في سبيل يسوع، فرسما منهم كهنة؛ ودعيا الإِخوة المؤمنين إِلى انتخاب من يجدونهم جديرين بقيادتهم؛ وبعد الاستعداد بالصلاة والصوم، كانا يضعان عليهم أَيديهما، ويكرّسانهم أَساقفة أَمام الشعب كلّه، وباسمه. وكان وضع اليد هذا، يُسبغ على المنتخَبين قدرة روحيّة، ويفرض عليهم مسؤوليّة حفظ الإِيمان، والأَسرار، والطقوس، ومن ثمّ كانت تُقتَضى منهم مواصفات رفيعة، بيّنها بولس، فيما بعد، بإِسهاب، في رسائله الراعويّة، فيكونون بلا عيب، منزّهين من الادّعاء والغضب، لا سكّيرين ولا مخاصمين، ولا جشعين ولا مبذّرين، مضيافين، محبّين للخير والعدل، ملتزمين بالتعليم، متمكّنين من إِرشاد المؤمنين، ودحض حجج المناوئين.

طيلة أَشهر، عكف الرسولان على هذه المهمّة، باذلين جهوداً جبّارة، في كلٍّ من ليسترة، وإيقونية، وأَنطاكية بيسيدية، وضواحيها من أَجل تزويد كنائسها الفتيّة بالمناعة في مواجهة الهجمات الداخليّة والخارجيّة، وتنظيمها، وتشديدها برعايةٍ أَثبتت جدارتها، مذكّرين الجميع أَنّ دخول الملكوت يتمّ عبر دروب وعرةٍ واضطرابات جمّة. وفي تلك الأَثناء كان بولس قد تعلّم التحلّي بالصبر، واللباقة، عند الضرورة، ومداراة مشاعر اليونانيّين والغلاطيّين، وكبرياء الرومان، وضيق أُفق المتهوّدين من المسيحيّين.فقد لقّنته الأَيّام ومقتضيات الرسالة السيطرة على جموح قلبه، والتحكّم بطبعه المتوثّب، وإِخضاعهما لنير رقّة يسوع، وتحويلهما إِلى صبرٍ وجَلَد وثبات.

و دّع الرسولان الإِخوة في أَنطاكية بيسدية، وفي حلقيْهما غصّة لاضطرارهما إِلى الابتعاد عن حقل الرسالة الخصب، وإِلى الانفصال عن تيموثيوس الذي أَعاداه إِلى ليسترة.

وانحدرا نحو بمفيلية المسترخية بخيلاء على شاطئ المتوسّط، وطافا بالعديد من المدن الأُخرى الصغيرة المحيطة بها، ثمّ حطّا الرحال في برجة، ذات التاريخ الحافل، والحاضر المزدهر، الشهيرة باحتضانها معبد أَرتيميس، إلاهة الصيد، وإلى جانبه سوق تجاريّ رائع الهندسة، تحيق به أَروقة مستندة على عُمُدٍ من مرمر منحوت، وينطلق منه شارع عريض مرصوف يُفضي إلى الأكروبول، حيث يجثم مسرح يتّسع لخمسة عشر أَلف متفرّج، وملعب يتّسع، أَيضاً، لمثل هذا العدد من المتفرّجين.

غير أَنّ كلّ تلك الروائع الهندسيّة، ووفرة تماثيل الآلهة، وربّات الفنون التسع، لم تنجح في اجتذاب اهتمام بولس، الذي ما كان يتطلّع إلاّ إلى النفوس، وما كان شيء سواها يحتلّ من قلبه حيّزاً مهما ضؤل.

بشّر الرسولان، إذن، بكلمة اللّه في بيرجة، وبعد أَن اطمأنّا إلى ما أَصابا من نجاح، وأرسيا أُسس جماعة مسيحيّة فيها، غادرا المدينة منحدرين نحو أَتّاليا، ومنها أَبحرا عائدين إلى سوريّة. وما إن انتهيا إلى أنطاكية حتّى بادرا إلى الاجتماع بجماعة المسيحيّين، ووضعا بين يديها تقريراً مفصّلاً وموضوعيّاً، لا تزويق فيه ولا تحريف، عمّا "أَجرى اللّه، على أَيديهما، وكيف أَشرع باب الإيمان لغير اليهود...".

ثلاث سنوات كانت قد انقضت مذ انطلقا في رحلتهما الرسوليّة الأُولى، اجتازا خلالها أَلفين وخمس مئة كيلومتر، منها نحو أَلف وخمس مئة كيلومتر سيراً على الأَقدام. غير أَنّ ما حقّقاه، أو بالأَحرى، ما حقّقه الربّ بواسطتهما، لا يمكن قياسه بمعيار الزمن والمسافات.

كانا قد انطلقا وهدفهما قبرص، فإذا بتدابير العناية الإلهيّة تدفع بهما حتّى أَقاصي آسية الصغرى. ولمّا قفلا عائدين كانت حصيلتهما سبعة حصون مسيحيّة منيعة في سلامين، وبافوس، وأنطاكية بيسيدية، وإيقونية، وليسترة، ودربة، وبرجة، والكثير من العرق، والدماء، والنصَب، والاضطهاد، والعزاء، والفرح. كانا قد حرثا وبذرا، وشاهدا النبت ينمو، وتركا الحصاد لربّ الحصاد، وهما يترقّبان إشارته إلى الحقول الجديدة التي سينتدبهما لها.

عادا بعد سنوات من الرسالة الشاقّة الخصبة، وآذانهما ما برحت تدوّي بهدير شلاّلات طوروس. وبدا لهما كلّ شيء جميلاً وممتعاً في سهل العاصي، قياساً إلى قسوة مناظر ليقأونية التي طالما واكبت مسيرتها. عادا عودة قائدين منتصرين، غير أَنّ الإخوة وجدوهما وقد شاخا ونضجا، فأحاطوهما بجمٍّ من المودّة.

و غمر الحبور قلوب المسيحيّين على ضفاف العاصي، الذين توافدوا كُثُراً مرحّبين بالمرسلين العائدين، نهمين إلى الاستماع إلى رواية ما أَنجزه الربّ على أَيديهما. وأَشبع بولُس فضولَهما بسرد وقائع مغامراته الرسوليّة مع برنابا، وتفاصيلها المذهلة، وبوصفه لإخوانهم في

البلدان التي بشّراها، ولتقاليدهم، والديانات التي كانوا يمارسونها من قبل، وأَطلعهم على ما خبراه وكابداه من آلام في سبيل يسوع. وأَشاد بولس بتجلّي قدرة اللّه من خلال تمكّنه، هو الهزيل، المصاب بعلل عديدة، من مجابهة عداء الطبيعة والناس، والتنكيل، والسجن، والجلد، والرجم، والتشرّد، ومكائد اليهود بحيث استطاع مع برنابا، وبقوّة الروح القدس، تحطيم الكثير من الأَصنام، واجتذاب عبّادها إِلى عبادة المصلوب.

و قد كرّس الأَنطاكيّون بولس رائداً في تبشير الوثنيّين.

الفصل الثامن :

مجمع أورشليم

عقب عودته من رحلته الرسوليّة الأُولى، وجد بولس، في وادي العاصي، حقلاً خصباً لتبشير الوثنيّين، فراح يذرع دساكره وقراه، مجتذباً إلى الإيمان بيسوع أقواماً كانت أعدادهم تتضخّم، يوماً إثر يوم. وإذ كان عليماً بارتياب الوثنيّين حيال الخطباء الجوّالين ذوي الأيدي الناعمة الذين يبيعون فصاحتهم لقاء الرفاه وبحبوحة العيش، عاد يعمل حائكاً لدى نسّاج أنطاكيّ كي يكسب لقمة عيشه بكدّ يمينه. وفي أثناء عمله كان يسرد رواية الخلاص لفتيان يتحلّقون من حول نوله. وقد لفت انتباهه، بين هؤلاء، فتى فقير، منفتح الذهن، يقرن طهر النفس بصلابة الإرادة، يدعى تيطس، توسّم فيه أداة ممتازة للرسالة، كفيلة بردم الفراغ الذي خلّفه تقاعس مرقس وعودته إلى أورشليم. فحرّضه على الإمعان في تقصّي الكتب المقدّسة، على ضوء حياة يسوع وأقواله، التي أسهب في تعليمه إيّاها، إلى أن عمّده، واتّخذه معاوناً له في التبشير، عاقداً عليه آمالاً عراضاً. وفي الواقع أصبح تيطس، فيما بعد، خير تلاميذه، وأكثر معاونيه نشاطاً، وسيكون رسوله المختار للمهمّات الدقيقة، و"الابن الحقيقيّ في الإيمان المشترك ".

كان بولس سعيداً وسط تلك الجماعة السوريّة المسيحيّة الحيّة، والمتنامية، يوماً إثر يوم، إلى أن قدمت، من أورشليم جماعة من المسيحيّين من أصل يهوديّ، الذين ما برحوا يعيشون في جوٍّ يهوديّ صرف، وما انفكّوا متشبّثين بالشريعة الموسوية تشبّثاً متزمّتاً، وادّعوا أنّهم منتدبون من قبل يعقوب، أسقف أورشليم، وانطلقوا يبلبلون الأذهان بإعلانهم أنّ مسيحيّة المهتدين من أصل وثنيّ ستظلّ ناقصة غير مكتملة، ما لم يُختَنوا، ويلتزموا بجميع وصايا الشريعة الموسويّة التي تقدّم الحرف المميت على الروح المحيي. وقد أثّروا في بعض الإخوة الذين نأوا بأنفسهم عن غير المختونين، لا بل باتوا يتجنّبون مجالستهم، حتّى في أثناء العشاء الإفخارستيّ، مشكّكين بسلامة إيمانهم، معتبرينهم مسيحيّين من درجة دنيا، لا بل أخذ بعضهم يدعون " نجسين، وخطأة، وغرباء، ودخلاء " أولئك أنفسهم الذين كان بولس وبرنابا يدعوانهم " قدّيسين، وأبناء اللّه، ومختارين، وأعضاء الأُسرة ". وبذلك كانوا يكرّسون الفرقة والتمييز العرقي، ويحطّون المسيحيّة إلى مستوى شيعة ضيّقة، في حين أراد يسوع إشراع دينه على العالم أجمع.

لا مراء أنّ المسيحيّة التي علّمها يسوع لم تقتضِ من المؤمنين سوى الإيمان والمحبّة، وصفاء الطويّة، على نقيض اليهوديّة التي حاكت حول شريعة موسى شبكة خانقة من الفرائض التي حاولت تنظيم كلّ حركة وسكون من سلوك الفرد اليوميّ، وتصدّت للعلاقات بين الناس، ولا سيّما بين اليهود وسواهم بدقّة متناهية، كان دافعها، في الغالب، بغض الآخرين وازدراؤهم، والتقوقع وضيق الأُفق. يسوع وضع مبادئ المحبّة الشاملة، ودعا إلى تبشير العالم أجمع ببشرى الخلاص، ولكنّه لم يضع قيوداً ولا تعليمات مفصّلة؛ ووجد المسيحيّون الجُدد أنفسهم أمام حالات مستحدثة لا يملكون نصّاً يرشدهم إلى ما يتعيّن عليهم من سلوك تجاهها، سوى مثال يسوع وأقواله، وسوى إيحاءات خاصّة أُنزلت على بعض الرسل والمؤمنين. ولكن حتّى تلاميذ يسوع المقرّبون أمثال بطرس ويعقوب لم يدركوا إشاراته إلى حلول عهد جديد، يستلزم نهجاً وفكراً جديدين، فلطالما ردّد أنّ الخمرة الجديدة لا يسوغ أن توضع في زقاق عتيقة؛ وأنّ الثوب الخلِق لا يُصلَح برقعة جديدة؛ ولم يفهموا قوله: " إنّه لم يقم في مواليد النساء أعظم من يوحنّا المعمدان، ومع ذلك فإنّ الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه "، وبهذا القول أكّد البون الشاسع بين العهد القديم، وكان يوحنّا المعمدان آخر ممثّليه، والعهد الجديد الذي سيستهلّه صليب يسوع وقيامته. كما أنّهم لم يدركوا مغزى تجلّي يسوع على جبل طابور، حيث تمثّــل العهد القديم بإيليّا وموسى، والعهد الجديد بثلاثة من تلاميذ يسوع، وبحضور هؤلاء جميعاً أعلن الربّ، مشيراً إلى يسوع : " هذا هو ابني الحبيب، فله اسمعوا "، أي بوسعكم نسيان كلّ ما تعلّمتموه حتّى الآن، وحسبكم العمل بما يعلّمه ابن اللّه.

و إلى هذه الإشارات كلّها، ضرب يسوع أمثلة حيّة، عندما أجرى معجزات لصالح قائد مئة وثنيّ، وأرملة فينيقيّة، وأدلى بسرّ ألوهته لامرأة سامريّة. وأيّد الروح كلّ هذه الأفعال والإشارات عندما دفع بطرس – الصخرة التي أشاد عليها يسوع كنيسته – إلى تعميد قائد رومانيّ وثنيّ وأهل بيته، وإلى الإغضاء عن المحرّمات اليهوديّة في ما يتعلّق بالطعام والشراب؛ وامتثل بطرس للأمر، وكذلك فعل فيليبّس أحد شمامسة الكنيسة الأُولى السبعة، الذي لم يتوانَ عن تعميد ضابط حبشيّ بمجرّد أن أيقن أنّ قلبه منفتح على الإيمان بيسوع، ولم يفرض عليه أيّ إجراء آخر. ومع ذلك خيّل إلى سائر المسيحيّين أنّ هذين الحدثين عارضان، ولا ينهضان قاعدة لاستقبال الوثنيّين في حضن المسيحيّة، بعد أن كانت اليهودية قد عوّدتهم على قواعد دقيقة ومفصّلة تقود خطاهم في كلّ منحىً من مناحي الحياة.

و من ثمّ ظلّ المسيحيّون الأورشليميّون يؤمنون بأنّ الشريعة شرط ضروريّ للخلاص، وطالبوا كلّ راغب في اعتناق المسيحيّة بالتزام الشريعة اليهوديّة أوّلاً.

و بالإجمال ظلّ المسيحيّون الأَوائل أَسرى فرائض الشريعة، وضيق أُفقها. وكان بولس – قبل اهتدائه – أكثر منهم جميعاً التزاماً بهذه الشريعة، وذوداً عن حياضها، إلى أن أَشرقت على نفسه وذهنه أَنوار يسوع في دمشق، فتجلّت حقيقة العهد الجديد الذي انبلج مع الإنجيل، والذي باتت معه الشريعة أَثراً غابراً، انتهى دورها التمهيديّ.

كان بولس أَكثر من استغرق في اكتناه تعليم يسوع، واستيعاب شموليّته العالميّة، وما جاء به من حرّيّة للبشر. وعملاً بهذه القناعة انطلق ينشر البشرى، موقناً أَنّ شرط اعتناق المسيحيّة الوحيد هو الإيمان بيسوع المسيح، وتلقّي نفحة الروح التي يهبها العماد، ممّا يجعل المسيحيّة مشرعة على جميع البشر بلا استثناء؛ وقد أَظهرت له تجربته الرسوليّة في رحلته التبشيريّة الأُولى، جدوى هذا السلوك، بعد أَن رأى باب الإيمان يشرع على مصراعيه أَمام الوثنيّين، وبات بإمكانه تخيّل أَيّ عالم رحب ستشرق عليه شمس يسوع، وأَيّة جموع غفيرة قد تنضمّ غداً إلى ملكوت المسيح، تبدو إزاءها جماعة أورشليم وجماعات سوريّة المسيحيّة مغرقة في الضآلة.

غير أَنّ هذه الرؤيا المشرقة باتت مهدّدة بالاضمحلال من جرّاء مناورات المتهوّدين المنادين بضرورة المرور عبر اليهوديّة، بكلّ مقتضياتها، سبيلاً إلى اعتناق المسيحيّة، وكأَنّ لا شأن لإنجيل يسوع وصليبه، ولا وزن لنفحة الروح التي تفيضها نعمة العماد.

و في الواقع كيف يمكن اجتذاب وثنيّين إلى اعتناق دين يسوع مع قسرهم على الالتزام بمقتضيات الشريعة التي لا حصر لها، والتي ينوء بنيرها الفريسيّون أَنفسهم، والوثنيّون كلفون بالحرّيّة وقد اعتادوا العيش بلا قيود ؟ أَما ختان البالغين فكان ينفّرهم، فضلاً عمّا يسبّبه من آلام نافلة، في حقبة كان التخدير وفنّ الجراحة فيها مجهولين. وإلى كلّ ذلك كان الختان في نظر العالمين الرومانيّ واليونانيّ أَمراً معيباً ومدعاة للخزي؛ وفي بيئة كان العري في ملاعبها شائعاً، كان المختون يتعرَّض للسخرية والهزء.

ربّما نشأ موقف المتهوّدين المتشدّدين عن سلامة نيّة، واعتقادٍ خاطئ بأَنّ الشريعة ما انفكّت شرطاً ضروريّاً للخلاص. فهم قد وُلدوا على هذا الإيمان، ورغم جدّة تعليم يسوع وثوريّته، لم يقطعوا علاقتهم بالمجمع، ولم تفتر غيرتهم على الشريعة. وكان من شأن موقفهم هذا تحويل المسيحيّة إلى دين عرقيّ، ربّما أَسمى روحانيّة من اليهوديّة، وأَكثر تطوّراً، غير أَنّه، مثل اليهوديّة، متقوقع، محتمٍ وراء جدار صفيق يعزله عن الآخرين، ويوهم أَتباعه بالتفوّق على سواهم على غرار الجدار الذي يقيمه اليهود بينهم وبين جميع الآخرين، في حين أَنّ يسوع قد جاء ليخلّص البشر أَجمعين، بلا تمييز ولا استثناء، وليوثّق أواصر محبّة ومساواة بينهم جميعاً. ومن ثمّ بدت كنيسة أورشليم وكأَنّها بدعة يهوديّة تتّسم بالتقوى، ولا يُعرَف

الكثير عن طقوسها الخاصّة، واحتفالها بالإفخارستيّا. ولكأنّ حركة الانفتاح على العالم الوثنيّ التي أَشرعها استفانُس قد ماتت معه. ولكنّ بولس، خليفته الروحيّ، حرص على إِيقاظها من جديد.

و في الواقع كانت مطالبة هؤلاء المتهوّدين بإِخضاع المسيحيّين القادمين من الوثنيّة للختان ولكلّ مقتضيات الشريعة كي يعدّوا مسيحيّين حقيقيّين، وكانت استجابة بعض الإِخوة لهم، تحدّياً للإِنجيل سافراً، وخطراً داهماً ينذر بلجم حركة تبشيرالوثنيّين، أو ربّما بشطر الكنيسة، وبإِيصاد الباب الذي أَشرعه الربّ نفسه للوثنيّين كي يدخلوا إِلى الملكوت، وبوأد الرسالة التي باشرها بولس وبرنابا، والتي كانا يتحفّزان للمضيّ بها قُدُماً حتّى غرو العالم الوثنيّ بأَجمعه ليسوع. ناهيك عن أَنّ هذا الموقف طرح مشكلة عقيديّة خطيرة، فقد حاول قصر الخلاص على أَتباع الشريعة، في حين أَنّ يسوع علّم أَنّ الخلاص نعمة إِلهيّة نابعة من الإِيمان. وقد احتلّ هذا اليقين حيّزاً واسعاً من تعليم بولس ومن رسائله؛ وقد ظلّ هاجسه الدائم أَنّ لا شأن للشريعة في الخلاص، بل الشأن، كلّ الشأن، للنعمة الإِلهيّة، وأَنّ البشريّة أَمام خيار مصيريّ : فإِمّا العبوديّة اليهوديّة أو حرّيّة المسيح.

و سرعان ما أَدركت عبقريّة بولس أَنّ على درء هذا الخطر يتوقّف مستقبل الكنيسة والمسيحيّة. فلو حدث أَن انتصرت نظرة المتهوّدين لاقتصرت المسيحيّة على حفنة منهم. أَمّا إِذا تغلّبت نظرة بولس المبنيّة على الإِنجيل وعلى جدّة تعليم يسوع، فستعهد المسيحيّة مستقبلاً زاهراً، إِذ سيُلقي العالم الرومانيّ اليونانيّ بنفسه بين ذراعي المسيح المشرعتين لاحتضانه.

حيال هذا الخطر المنذر، ما كان بوسع بولس سوى أَن يهبّ مدافعاً عن روح يسوع، ورسالته، وعن العهد الجديد الذي استهلّه. فاحتدم النقاش بينه وبين المتهوّدين. غير أَنّه ارتأى أَنّ خطورة الموضوع تقتضي حلاًّ شاملاً وحاسماً تُجمع عليه الكنيسة بأَكملها، ويدمغه الرسُل بموافقتهم، كي يقوم أَساساً لسلوك كنائس المستقبل. واتّفق الطرفان على الاحتكام إِلى "عمد الكنيسة" بطرس، ويعقوب ويوحنّا، وشيوخ أورشليم.

و إِلى أورشليم شخص برنابا وبولس الذي اصطحب تلميذه الجديد تيطس، الذي تعمّد ولم يُختن، كنموذجٍ للمؤمنين القادمين من الوثنيّة، وكأَنّه أَجمل غنائم الرسالة ودليلٌ حيّ على الثمار النبيلة التي كانت قد جُنيت من شجرة كنيسة الأُمم.ومع تحرّق الرسولين إِلى حلّ ذلك الإِشكال سريعاً، غير أَنّهما آثرا السفر برّاً، وتفقّد أَحوال الجماعات المسيحيّة في كلٍّ من اللاذقيّة، وطرابلس وصور وصيدا، وقيصريّة، والجليل، والسامرة، واليهوديّة. وفي كلّ مكان حلاّ به رويا أَعمال الربّ على أَيديهما، وأوريا نيران الاندفاع والإِيمان، وأَشاعا الفرح

والعزاء. وفي حين كانت أورشليم، المدينة المقدّسة، هي حلم تيطس، وموضع دهشته، بات بولس وبرنابا يريان كلّ مكان يضمّ مسيحيّين مكاناً مقدّساً.

كان بطرس قد أَبلغ الإِخوة بقدوم الرسولَيْن، فتقاطر كثيرون للترحيب بهما، ودخلوا بهما أورشليم دخول المنتصرين، ومضوا بهما إِلى بيت مريم، أمّ مرقس، الذي أمسى للكنيسة مقرّاً.

قبّلهما بطرس بحرارة الطفل، واندفاع الصديق، ومنذ اللحظة الأُولى قرأ في النُدب التي انتشرت على جبين بولس كلّ ما كابده في سبيل نشر رسالة المعلّم. بون شاسع بين بساطة بطرس وعفويّته، وتحفّظ يعقوب، الذي، منذ سنوات، كان يعيش صوفيّاً متجهّداً، وكأنّه خارج نطاق الزمن، في ذكريات الناهض من الموت، لا يتبلّغ من الطعام إلاّ بما يبقيه على قيد الحياة، ولا ينام إِلاّ عَرَضاً، ولكأنّه الحارس الساهر على وديعة الكلام الإِلهيّ.

عقب العشاء، دعا بطرسُ بولسَ إِلى الكلام، فسرد بإِسهاب ما أَنجزه الربّ، على يده ويد برنابا، في قبرص وآسية الصغرى، ورسالتهما بين الوثنيّين، والكنائس السبع التي أَسّساها، فقوبل خطابه، الذي أَظهر انتصار الإِنجيل، بموجة عارمة من البهجة والارتياح والاعتزاز. غير أَنّ فئة ضئيلة ممّن كانوا يرتدون ثياباً قاتمة فاخرة، ظلّوا واجمين مقطّبين، ولم يعسر على بولس تبيُّن أَنّهم هم من أَنفذوا إِلى أَنطاكية عصابة المشاغبين. وما كاد المجتمعون يفرغون من رفع الشكر للربّ حتّى أَثار أولئك المتزمّتون القضيّة التي كانت تشغلهم، ولكأنّ شهادة الروح القدس للوثنيّين المهتدين لم تكن كافية لزحزحتهم عن تعنّتهم.وتنطّح أَحدهم فقال؛ ولكأنّه يستنكر وجود تيطس :

– كيف يمكن لأَبناء إِسرائيل مجالسة وثنيّين غير مختونين، من غير أَن ينتهكوا الشريعة ؟

فردّ بولس بحزم :

– وهل تجهل أَنّ العماد بالروح القدس قد جعل الشريعة نافلة ؟ وأَنّ الإِصرار على فرض حرف الشريعة هو مقاومة للروح ؟ لقد كان هدف الشريعة التمهيد لمجئ المسيح. أَمّا الآن وقد جاء، فعلينا التطلّع إِلى ما يتخطّاها ويكملها. وهل غرب عن بالكم أَنّ يسوع لم يتحرّج من الجلوس إِلى مائدة عشّارين وسواهم ممّن تعدّهم الشريعة أَنجاساً، غير حافلٍ باعتراضات أَسلافكم الفرّيسيّين ؟ وهل نسيتم أَنّ الأَنبياء قد قرّعوا تمسّككم بمظاهر الشريعة وقشورها، وهل ذهلتم عن قول الربّ بلسان النبيّ عاموص : " إِنّني أَمقت أَعيادكم وأَزدريها؛ واحتفالاتكم تثير احتقاري ونفوري " ؟ أَم إِنّكم تدّعون إِصلاح يسوع المسيح ؟ أَمّا أنا فبين مقتضياتكم البالية، وتعليم يسوع، قد اخترت تعليمه ".

و على اعتراض المتهوّدين المتزمّتين بأَنّ إِعفاء المسيحيّين القادمين من الوثنيّة من الختان هو خروج على الشريعة، وانسلاخ عن الشعب المختار، ردّ بولس، قاطعاً، بأَنّ حقيقة إِنجيل الحرّيّة أَبطلت الشريعة، وشموليّة الخلاص أَبطلت مفهوم الشعب المختار. كانت القضيّة، في نظر بولس هي قضيّة مبدأ وعقيدة، فإِذا ما حُلّت، وعُقِد حولها الإِجماع، جاءت النتائج العمليّة تلقائيّة. وكان لا بدّ من الإِجابة الصريحة على سؤال واضح : هل التقيّد بفرائض الشريعة هو شرط للخلاص، أم إِنّ الخلاص هو ثمرة نعمة يسوع ؟

و هكذا وجد "أعمدة الكنيسة" وشيوخها أَنفسهم على أَرض الإِنجيل، وفي صميم تعليم يسوع الذي لا مجال للحياد عنه، وفي حبكة منطق لا يدع مجالاً للتذبذب.

و كان الجميع قد وافقوا على أَنّ انتداب بولس للرسالة لا يقلّ شأناً عن انتدابهم، فدعوة يسوع له في دمشق لا تختلف، في جوهرها، عن دعوته لهم عند ضفاف طبريّا، وظهور يسوع له لا يتدنّى أَهميّة عن ظهوره لهم بعد قيامته.

و إِذ تعالى الصَخَب، وكان لا بدّ من بحث الموضوع الجوهريّ المطروح في جوّ من السكينة والهدوء، انتحى عُمد الكنيسة وبولس ورفيقاه؛ فاستفاض بولس في استخلاص النتائج العمليّة لتعليم يسوع، التي بهديها بشّر الوثنيّين، مؤيَّداً بنعم الروح الذي أَشرع باب الإِيمان أَمام الأُمم، وبيّن المخاطر الجمّة الناجمة عن فرض الختان ومجموع فرائض الشريعة على وثنيّين غريبين كلّ الغرابة عنها، ممّا قد يُفضي إِلى شلّ ديناميكيّة الكنيسة، ومعاندة مشيئة الربّ.

و لم يكن بوسع بطرس سوى الانضمام إِلى موقف بولس، وهو الذي كان قد أَفهمه الربّ أَنّ ما من خليقة نجسة، وأمره بتعميد كورنيليوس الوثنيّ وأَهل بيته، من غير أَن يطالبهم لا بالختان ولا بفرائض الشريعة، مكتفياً بإِيمانهم بيسوع وبنفحة الروح التي أَسبغها عليهم العماد، ثمّ جلس إِلى مائدتهم وقاسمهم الطعام بلا حرج، وقد برّر موقفه هذا بقوله: "إِن كان اللّه قد أَعطاهم نظير الموهبة التي أَعطاناها، لكوننا آمنّا بالربّ يسوع المسيح، فمن أَكون أَنا حتّى أَمنع اللّه؟". وكذلك كان موقف يوحنّا الذي كان متوغّلاً في روحانيّة يسوع التي تخطّت كلّ المظاهر وحطّمت كلّ حواجز الشريعة.

حتّئذٍ ظلّ يعقوب ملتزماً بصمتٍ وقور، وعليه كان المتزمّتون يعلّقون آمالهم، إِذ عُهد عنه التزامه التامّ بالشريعة، ولكنّه خيّب فألهم، فهو أَيضاً كان ممتلئاً بالروح القدس، وعاشقاً ليسوع؛ ووسط سكونٍ مثقل بالترقّب، نهض " أخو الربّ " وأَعلن، بوضوح، تأييده لمواقف بطرس وبولس ويوحنّا، فالخلاص نعمة من اللّه غير مشروطة، وهو مشرع على البشر أَجمعين، وأَضاف : " لذلك أَرى، أَنا، أَن لا يُثــقَّل على من يرجع إِلى اللّه من الأَمم".ولكأنّه

يقول بعبارة أوضح : فلنرحّب بمن يودّون الانضمام إِلى كنيسة يسوع سواء كانوا مختونين أو غير مختونين.

غير أَنّ يعقوب خشيةً منه على انقسام الكنيسة، ورأفةً على الذين ما زالوا من المسيحيّين ملتزمين بالشريعة، والذين كانوا يمقتون الجلوس إِلى موائد تُقدَّم عليها لحوم الأَضاحي أو لحوم الحيوانات المخنوقة، اقترح أَن يُطالب الوثنيّون المهتدون بالحدّ الأَدنى من الفرائض، فأُعفوا من فريضة الختان، ولكن طلب منهم الامتناع عن تناول لحوم أَضاحي الوثنيّين ولحوم الحيوانات المخنوقة، والدماء، كما طلب منهم التنكّب عن الفحشاء التي كانت مباحة لدى الوثنيّين، بل كانت، أَحياناً، طقساً من طقوس عبادتهم، وعن اللواط الشائع فيما بينهم. ومن المحقّق أَنّ يعقوب إِنّما أَدلى بهذه الاقتراحات لا دفاعاً عن الشريعة بل تفادياً للفرقة بين المسيحيّين من أَصل يهوديّ والمسيحيّين من أَصل وثنيّ، ولتمكينهم من المشاركة في الموائد وفي الإِفخارستيّا، بلا حرَج لأَيّ منهم، وبدافع المحبّة التي تأبى جرح مشاعر أَخٍ لأَخيه؛ وفيما بعد توغّل بولس نفسه في هذا المنحى، إِذ أَكّد: إِن كان أَكل اللحوم يشكّك أَخي، فلن آكل اللحوم أَبداً، ولئن كان كلّ شيء جائزاً، غير أَنّه ليس كلّ شيء حسناً.

و على إِثر هذا الاجتماع، تقرّر وضع ما يمكن تسميته ببيان مشترك، كُلّف اثنان من "المتقدّمين بين الإِخوة" في أورشليم، بإبلاغه إِلى الإِخوة في أَنطاكية، وهذان الرجلان هما يهوذا الملقّب برسابا الذي كان قد رُشِّح ليكون التلميذ الثاني عشر ولملء الفراغ الذي أَحدثته خيانة يهوذا الاسخريوطي، وثانيهما هو سيلا، أو سلوانس، وهو، على غرار بولس، هلّينيّ، يحمل المواطنيّة الرومانيّة، ويتقن اللغة اليونانيّة، وسيتولّى مرافقة بولس في رحلته الرسوليّة الثانية بدل برنابا. أَمّا الرسالة التي حملها يهوذا وسيلا، فكان نصّها كالتالي :

" من الإِخوة الرسل والشيوخ إِلى الإِخوة الذين من الأُمم في أَنطاكية وسوريّة وكيليكية، سلام.

" بلغنا أَنّ قوماً منّا، على غير تفويض منّا، أقلقوكم بأَقوالهم، وبلبلوا نفوسكم، فرأينا بالإِجماع أَن نختار رجالاً نرسلهم إِليكم مع حبيبنا برنابا وبولس، هذين الرجلين اللذان خاطرا بحياتهما في سبيل اسم ربّنا يسوع المسيح، فأرسلنا، إِذن، يهوذا وسيلا، ليبلّغاكم مشافهةً أَيضاً الأمور نفسها.

" فقد رأى الروح القدس ونحن أَلاّ نحمّلكم أَيّ عبء فوق هذه المطالب التي لا بدّ منها، وهي أَن تمتنعوا عمّا يذبح للأَصنام، وعن الدم والمخنوق والفحشاء. فإِذا صنتم أَنفسكم منها فنعمَ ما تفعلون، كونوامعافين ".

و إلى هذا أَضاف بولس، في رسالته إِلى الغلاطيّين، وفي معرض إِشارته إِلى "مجمع أورشليم " ذاك، قائلاً : " لم يفرض عليّ الأَعيان شيئاً آخر، بل، بالعكس، لمّا رأوا أَنّي أؤتمنت على الإِنجيل للقلف، كما أؤتمن عليه بطرس للختان، لأَنّ الذي أَيّد بطرس للرسالة لدى المختونين، أَيّدني، أَنا أَيضاً في أَمر الوثنيّين. ولمّا عرف يعقوب وصخر ويوحنّا، وهم المعدودون أَعمدة الكنيسة ما أُعطيت من نعمة، مدّوا إِليّ وإِلى برنابا يمناهم، عربون الاتّفاق الكامل، فنحن للأُمم، وهم للختان. وأوصونا فقط أَن نتذكّر الفقراء، الأَمر الذي اجتهدت أَن أَقوم به "

كان مستقبل الكنيسة يواجه خطراً، ولكنّ الروح الساهر على كنيسته أَسقط الجدار الذي كان المتزمّتون يحاولون إِقامته بين دين يسوع وشعوب العالم، وقد استخدم بولس لإِعلان دين يسوع ديناً عالميّاً شاملاً الكون بأَسره. وأَسهم مجمع أورشليم في وضع قاعدة كفيلة بالقضاء على مداخلات المتهوّدين وبلبالهم – أولئك الذين سمّاهم بولس " الدخلاء، الإِخوة الكذبة، الذين اندسّوا خلسة فيما بيننا، ليتجسّسوا حرّيتنا، تلك التي لنا في المسيح يسوع، بقصد استعبادنا " – وقد اشترك، في إِرساء هذه القاعدة أَقطاب الكنيسة الأَربعة، كلٌّ بمواهبه الخاصّة : بولس، بغيرته المتدفّقة، وبطرس بإِدارته الحكيمة، ويعقوب بتقواه الصوفيّة، ويوحنّا بنظرته اللاهوتيّة الثاقبة، وقبّلوا بعضهم بعضاً، متعاهدين على التضامن والوحدة.

و قد أَكّدت هذه المعاهدة على ميزات الكنيسة الأَساسيّة : فهي، بقبولها، في أَحضانها، الوثنيّين بلا شروط، أو بالحدّ الأَدنى منها، أَعلنت شموليّتها ورسوليّتها؛ وهي، بنبذها عبادة الأوثان، وباقتضائها السيطرة على الغرائز، في إِطار حضارة إِباحيّة مهترئة، تميّزت بصبّوها إِلى القداسة؛ وبدعوتها الجماعات المسيحيّة الميسورة إِلى مدّ العون إِلى كنيسة أورشليم التي كانت تعاني من الفاقة، أَثبتت وحدتها، وتضامنها، ومحبّتها. وقد أَخذ بولس على عاتقه مساعدة كنيسة أورشليم، علّه يكفّر عمّا سامها من اضطهاد قبل أَن يعرف المسيح. وأَخيراً، نهض مجمع أَورشليم مثالاً رائعاً على التناغم والتساوق بين عمل النعمة الإِلهيّة والجهد البشريّ، فالديناميكيّة البشريّة تدفع نموّ الكنيسة، في حين تضمن القوّة الإِلهيّة وحدتها العضويّة، واستمراريّتها، ووفاءها لمنشئها الإِلهيّ.

كانت المسيحيّة قد وُلدت في أَحشاء المجمع اليهوديّ، ولكنّها، مثل كلّ جنين، كانت معدّة لحياة مستقلّة، وتمثّل دور بولس في قطع الحبل السرّيّ الذي كان يربط المسيحيّة باليهوديّة. وكان لهذه القطيعة مغبّات لا تُقدّر لصالح البشريّة جمعاء، فقد ظلّت اليهوديّة منكفئة على ذاتها، تجترّ وهم اختيار أَمسى باطلاً، في حين غمرت بشرى خلاص يسوع العالم أَجمع.

وحتّى في داخل الكنيسة، سرعان ما انقلبت " كنيسة الختان " هي كنيسة الأَقلّــيّة المنحسرة، وكنيسة الوثنيّين هي كنيسة الأَغلبيّة، وبات بطرس نفسه رسولاً للوثنيّين.

و على ضوء هذا الحدث يمكن اعتبار بولس مولّد الكنيسة الحقيقيّ، وقد تميّز عمله بجرأة نادرة، إِذ لم يخشَ إِعلان بطلان قانون حياة أُمّة بأكملها، جرت عليه سحابة دهور، وكان إِعلانه هذا باسم نفس السلطة الإِلهيّة التي أَقرّته. لقد أَعلن أَنّ حرف هذا القانون خاوٍ من كلّ قيمة، فهو كبرياء، وصلَف، وادّعاء امتياز. ولم يفعل بولس ذلك بغضاً باليهوديّة، بل ظلّ، حتّى آخر لحظة مستعدّاً لكلّ تضحية في سبيل اهتداء بني قومه – الشعب الذي خرج منه المسيح – إِلى الإِيمان بهذا المسيح. وقد قطع علاقة المسيحيّة باليهوديّة بيدٍ مرتجفة، وقلبٍ حزين، ولكن لم يكن بدٌّ من تلك القطيعة كي يغزو الإِيمان بيسوع العالَم.

إِنّ ما قرّره أركان الكنيسة، في مجمع أورشليم، أَشرع الباب واسعاً أمام الوثنيّين لاعتناق الإِيمان بيسوع، بلا عوائق نافلة. وكان خيار الكنيسة، يومها، جليّاً : فهي لن تكون، بعد، خليطاً من يهوديّة ومسيحيّة، أو بدعة مبهمة متفرّعة عن اليهوديّة، بل ستكون، ببساطة ووضوح، مسيحيّة فحسب، جوهرها يسوع، ويسوع وحده.

ما أَسفر عنه " مجمع أورشليم " كان أَكثر من مقرّرات، كان وثيقة ميلاد المسيحيّة النقيّة من كلّ شائبة، وقد مهر هذه الوثيقة أَعمدة الكنيسة، وإِلى جانب تواقيعهم كان توقيع بولس.

قد يبدو الوفد المشارك في أوّل مجمع مسيحيّ – في عدد أَعضائه – ضئيلاً ومتواضعاً بالقياس إِلى وفود المجامع التالية. ولكن لم يكن لأَيّ مجمع لاحق مثل بُعد مجمع الرسل في أورشليم، وخطر شأنه، ولولاه لربّما ما انعقد أَيّ مجمع آخر.

و قد كرّس هذا المجمع بولس رسولاً للأُمم، وثبّته في المهمّة التي انتدبه لها الربّ في أَثناء ظهوره له في دمشق، ثمّ في أورشليم؛ وأَيّد "إِنجيله " أي تعليمه المستمدّ من صميم تعليم يسوع؛ وبذلك ضمن بولس دعم الكنيسة لرسالته السابقة ولرسالته اللاحقة، وانتظام الكنائس التي أَسّسها والتي سيؤسّسها في شتّى أَرجاء العالم في شراكة وثيقة مع الكنيسة الأُمّ، والكنيسة الجامعة.

بعد أَيّام غادرت قافلة كبيرة أورشليم ضمّت، فضلاً عن برنابا وبولس وتيطس، ومندوبيْ الكنيسة، حشداً من مسيحيّي السامرة والجليل، ومن التجّار الذين كانوا قد باعوا بضائعهم وقفلوا عائدين إِلى بلدانهم، ومع هذه القافلة سار أَحد أَعمدة الكنيسة، التلميذ الحبيب يوحنّا، عائداً إِلى مسقط رأسه. وكم سعد بولس بانتهاز تلك السانحة الثمينة، كي يستقي من فم من أَلقى رأسه على صدر يسوع، في أَثناء عشائه الوداعيّ مع تلاميذه، ما ادّخره قلبه وذهنه

عن ابن اللّه. وبعد أَن أودع في قلبه كنوز الذكريات هذه، وطوائف من أَقوال يسوع وفعاله، استوضحه عن أمّ يسوع، أمّ إِلهه، التي طالما تاق إِلى لقياها، والاستماع، من شفتيها الطاهرتين، إِلى تفاصيل عن طفولة الإِله المتجسّد.

بعد مسيرة أسبوعين انتهت القافلة إِلى أنطاكية، وجميع أَفرادها توّاقون إِلى تبليغ رسالة المجمع التي أَفعمت فرحاً قلوب المهتدين من أَصل وثنيّ، الذين ارتضوا، عن طيب خاطر، الخضوع لوصايا الرسل. ولم يكتفِ يهوذا بارسابا وسيلا، اللذان كان يسكنهما روح اللّه، بتبليغ رسالة المجمع، بل أَلقيا عظة مستفيضة شجّعا بها الإِخوة، وشدّدا عزائمهم. وقد مكثا معهم بعض الوقت، ثمّ عاد يهوذا، وحده، إِلى أورشليم، في حين آثر سيلا الانضمام إِلى فريق بولس وبرنابا الرسوليّ الذي أَسره بكلّ ما انطوى عليه من اندفاع، وغيرة، وتضحية، ومخاطرة.

و بات بوسع بولس أَن يتطلّع إِلى رسالةٍ بحجم العالم؛ ولئن كانت أنطاكية هي التي أعطت المسيحيّين اسمهم، إِلاّ أَنّ بولس طبع جماعة أنطاكية بدمغته، وأَعطاها، وأَعطى المسيحيّة كلّها، هويّتها الخاصّة كما أرادها مؤسّسها يسوع.

الفصل التاسع :

خلاف بين هامَتـَيْ الرسل

من المحقّق أَنّ المسيحيّين الأورشليميّين من أَصل يهوديّ، لم يستسيغوا مقرّرات مجمع الرسل، ولم يتخلّوا عن تصميمهم الالتزام بالشريعة التي وُلدوا في أَحضانها، وعُجنوا بروحها. غير أَنّهم لم يقتصروا على ذلك، بل راحوا يطاردون كلّ من يحيد عن مثل موقفهم، ويناهضون تيّار بولس، الداعي إِلى روح جديد يعتمد تعليم يسوع، وينهي العمل بالشريعة. وما انفكّ بولس لهم بالمرصاد.

و حدثت المواجهة الأُولى، وحبر بيان مجمع أورشليم كاد لم يجفّ، بعدُ. إِذ هبط بطرس وبعض رفاقه أنطاكية فراراً من اضطهاد هيرودُس الذي قتل بحدّ السيف يعقوب الكبير أَخا يوحنّا، وزجّ بطرس نفسه في السجن، إِلاّ أَنّ ملاك الربّ أطلق سراحه. وقد أَثلج صدره مالاقى لدى المؤمنين المهتدين من الوثنيّة من ثقةٍ وتقدير، والروح الجديد الذي كان يخفق في صدروهم، ولم يتردّد في تبنّي عاداتهم ونمط سلوكهم. وسعِد الأَنطاكيّون باستضافة زعيم الكنيسة، ولا سيّما وأَنّ بطرس لم يتحرّج، أوّل الأَمر، من الاستجابة لدعواتهم إِلى منازلهم، والاطّعام على موائدهم، ومن تناول أَيّ طعام يقدّمونه له. وتنامى الأَمر إِلى كنيسة أورشليم، فاستشاط المتزمّتون غيظاً، وهرع فريقٌ منهم إِلى أنطاكية، وأنحوا باللائمة على سلوك بطرس، الذي، من جرّاء طبعه المترجرج، أَخذ يتباعد عن الأَنطاكيّين، ويرفض، بلباقةٍ، دعواتهم، ولا يجالس سوى المؤمنين من أَصل يهوديّ الملتزمين بفرائض الشريعة. وقد يكون فعل ذلك بقصد عدم تشكيك المتزمّتين، ولكنّ عواقب فعله هذا كانت مثقلةً بأَفدح المخاطر. إِذ سرعان ما حذا حذوه برنابا، وآخرون، وبدت جماعة أنطاكية وكأَنّها منقسمة إِلى فئتين : فئة المسيحيّين الكاملين بفضل الختان وممارسة فرائض الشريعة، وفئة غير المختونين، الذين تُعدّ مسيحيّتهم ناقصة، وتعتبر مخالطتهم لأَبناء الشريعة تدنيساً لهم. ولكأنّ فئة المتشدّدين قد انتقمت لهزيمتها العقائديّة، في مجمع أورشليم، بانتصار على الأَرض، ممّا أَشاع لدى الأَنطاكيّين شعوراً بعدم الارتياح، ولكأَنّهم منبوذون، أو مسيحيّون من درجة دنيا. ولو استمرّ الحال على هذا المنوال، وشرعت كلّ فئة تجلس على مائدة خاصّة، وتُعدّ طعاماً خاصّاً وفق تقاليدها العتيقة، لما بقي للجماعة معنى، ولغدت الكنيسة حطاماً متناثراً من طوائف صغيرة، مشتّتة، بل متنافسة، ومتعادية.

و قد هال هذا الموقف بولس، الذي كان كتلة واحدة، صاحب مواقف صلبة صريحة، وواضحة، لا التواء في سلوكه، ولا مهادنة في إيمانه، يمقت الازدواجيّة والتذبذب وكلّ تناقض بين الإيمان والسلوك، بين القول والفعل؛ وكان ثاقب البصيرة يستشفّ المخاطر حالما تذرّ قرنها، فيهبّ لدرئها.

فإن كان بطرس الذي أقامه الربّ على رأس كنيسته، والذي خبَر تعليم يسوع عن كثَب، وتلقّى إيحاءات خاصّة بشأن التعامل مع الوثنيّين، ينهج هذا النهج، وإن كان برنابا، شريكه في تبشير الوثنيّين، ينأى عنهم، فكيف للمهتدين من الوثنيّة أن يثبتوا في إيمانهم، وكيف لمن لم يُبَشَّروا بعد أن يؤمنوا، وهم يشهدون كيف يعامَل إخوانهم ؟

كان تحوّل بطرس ورفاقه، وما أثاره من نتائج وبيلة، شائعَيْن، بيّــنَيْن، فكان لا بدّ لبولس من مواجهتهما علناً، بكلّ ما عُهد عنه من غيرة على تعليم يسوع، وعلى الكنيسة الوليدة، ومن جرأة ووضوح، ومن محبّة حتّى في الخصام.فقرّع بطرس أمام الجماعة كلّها، آخذاً عليه تلوّنه، وحياده عن سراط إنجيل يسوع، لا في العقيدة، بل في السلوك، إذ إنّ مسلكه الظاهر كان يناقض إيمان فكره وقلبه؛ فهو بمسايرته المتشدّدين في يهوديّتهم غمط حقوق فئة عريضة من المؤمنين، وعرّض إيمانهم للنكسة بل للانهيار، وهدّد الرسالة بالشلَل، والكنيسة بالانقسام والتفتّت، بل بالدمار. وقد اعتمدت مداخلته ثلاث نقاط رئيسة :

– كنّا قد ألفنا، بطرس، وبرنابا وأنا، نحن اليهود بالولادة، أن نعدّ الوثنيّين خطأة بفطرتهم؛ بيد أنّ إيماننا بيسوع علّمنا أنّ مرضاة اللّه لا تُبلَغ بتطبيق بنود الشريعة، فما من عملٍ بشريّ يساوي نعمة اللّه. ولذلك وضعنا ثقتنا في المسيح يسوع، وتخلّينا عن ممارسات الشريعة. وما عودة بعضنا إلى هذه الممارسات، ودعوتهم إلى التشبّث بها إلاّ تكذيب لإيماننا، ونقضٌ له

– إنّ فيض نعمة يسوع المخلّصة قد حرّرنا من الشريعة، وقد سلكنا بموجب هذا الإيمان حتّى اليوم، فلئن كان سلوكنا خاطئاً، فالخطأ يقع على المسيح منشئ إيماننا. وإن كان تخلّينا عن الشريعة خطيئة، فيسوع هو سببها. ولكنّكم أنتم من جعلوا المسيح خادماً للخطيئة، عندما أعدتم بناء الشريعة، وعددتم مخالفتها خطيئة.

فإن أنا أعدت بناء ما سبق هدمه، لأثبتُّ أنّني ارتكبت خطأ، وإن اعترفتُ بعدم كفاية الشريعة، فقبلتُ الإنجيل، وقوّضت بناء الشريعة النخِر، ثمّ عكفت على إعادة بنائه، لأثبتُّ أنّني تسرّعتُ في تدميره، وبذلك ارتكبتُ خطأً، ولكأنّني أعلن : " إنّ نعمة المسيح، وحدها، لا تكفي. "

و ذكّر بولس بأنّ إبراهيم نفسه لم يعرف الشريعة، ولكنّه آمن، فكان إيمانه عامل خلاصه.

– لقد ماتت الشريعة، وأُبطلت، وفقدت حقوقها، من جرّاء موت يسوع، الذي صلب عملاً بالشريعة. وبذلك أَبطلت تلك الشريعة ذاتها، وأَثبتت زيفها، وعدم جدواها. وبما أَنّ المسيحيّ شريك المسيح في حياته وموته، فهو قد مات عن الشريعة، وهذا الموت بالاتّحاد مع يسوع، يولد حياة جديدة، وحياتنا الجديدة هي يسوع.

هذه الحجج الدامغة كانت توضيحاً نهائيّاً لتعليم يسوع، ودحضاً حاسماً لادّعاءات المتهوّدين المتزمّتين الذين ما انفكّوا يتصرّفون وكأنّ الشريعة هي المعيار الأوحد، وكأنّ صلب يسوع من أَجل خلاص البشر أَجمعين لم يكن؛ وكأنّ هوّة التفرقة التي ردمها يسوع نهائيّاً تُحفَر من جديد.ومن خلال هذه الحجج كانت تخفق صوفيّة بولس، الذي ما عاد يعدّ نفسه حيّاً، بل كان موقناً أَنّ يسوع هو الذي يحيا فيه، مذ أورت رؤيته له في دمشق نار حبّ ما زادتها الأَيّام إلاّ اضطرماً. وقد جعلته هذه التجربة يعيش، أَكثر من أَيٍّ من رسل يسوع، التناقض الصارخ بين الشريعة، ونعمة اللّه المجانيّة.

فضل بولس، في تلك القضيّة، تمثّل في سَبْره، بتبصّر ثاقب، ورؤية بعيدة المدى، عمق المشكلة المطروحة، وتبعاتها المدمّرة، وفي الإعلان عنها بجرأة ووضوح. ومن خلال صوته سمع بطرس وبرنابا صوت يسوع نفسه، فخضعا للحقيقة ومقتضياتها بتواضع ورفعة نفس نادريْن. وقد أَثبتا، من بعدُ، باستشهادهما، أَنّ حبّهما ليسوع لم يقلّ صدقاً وكثافةً عن حبّ بولس له.

و كان فضل المؤمنين أَنّ تلك المجابهة التي أظهرت خطأ بطرس، وعدم تحرّره من طبعه المتردّد، كما دلّت على تواضعه السحيق، وصدق إيمانه، وصفاء طويّته، لم تجعلهم ينتقصون، في شيء، من إجلالهم له، كرأسٍ للكنيسة.

و أَخيراً تمثّل فضل لوقا، الذي دوّن كتاب أَعمال الرسل، في إغفاله لتلك المجابهة بين هامتي الرسل، إيماناً منه بأَنّ البشر زائلون، والمسيح باقٍ، وأَنّ، في يسوع، لا غالب ولا مغلوب. ولو لم يضطرّ بولس، تدعيماً لصحّة رسالته، ودحضاً لتخرّصات المتهوّدين الذين ما انفكّوا يطاردونه، ويحاولون إفساد عمله، أَينما مضى، لَما جاء على ذكر تلك المواجهة، في سياق رسالته إلى الغلاطيّين، حيث تخطّى، بخفقة جناح جبّارة، صغارات الختان وممارسة الشريعة، ووضع القضيّة في موقعها الصحيح، أَي في التناقض بين الإيمان الذي يهب الخلاص، وفرائض الشريعة العقيمة، بين الروح المحيي، والحرف المميت، معلناً حرّيّة أَبناء المسيح الذين افتداهم بحبّه ودمه.

" إنّ قَدَر العباقرة أَن يصطدموا، على مدى مسيرتهم، بعجز الآخرين عن فهمهم، وبصغارتهم ورداءتهم، غير أَنّ ميزتهم تتمثّل في الإِفادة من العوائق التي تنتصب في طريقهم، لكي يتجاوزوا أَنفسهم، ويكتسبوا مزيداً من التأثير والإِقدام ".

هذا الموقف الصلب الذي وقفه بولس في أَنطاكية عام 49، سيكون للمسيحيّين دليلاً هادياً على مدى العصور.لولاه لتحطّم زخم انطلاقة المسيحيّة، ولعزف الوثنيّون عن الإِيمان بيسوع، ولغدت المسيحيّة بدعة يهوديّة، وطائفة قوميّة ضيّقة الأُفق، خائنة لمشيئة يسوع. ولحسن الطالع أَنّ بطرس، بقلبه السمح، قد فهم العبرة، والتزم بها، قبل فوات الأَوان.

و هكذا، بعد أَن أرسى بولس قاعدة لاهوتٍ مسيحيٍّ راسخ، ونموذج سلوكٍ مسيحيّ سمح، ورسم للمسيحيّة وجهاً بهيّاً يختلف عن ذاك الذي دأبت على الظهور به فئة من المسيحيّين الأورشليميّين، واطمأنّ إِلى حيويّة جماعة أنطاكية التي وسمها في العمق، اعتمل في نفسه التوق إِلى فتوحات جديدة، لمجد يسوع.

الفصل العاشر : الرحلة الرسوليّة الثانية

انفصال صديقين

بعد أن اطمأنّ إلى وجود بطرس في أنطاكية، متحرّراً من تأثير المتهوّدين الوبيل، ضجّ بولس نفاد صبر وتحفّزاً للرسالة، ففي صدره كانت تثوي حميّا الغزاة المتوثّبين أبداً إلى المزيد من الفتوحات.غير أنّ أسلحته كانت سلميّة : كلمة البشرى، ومثال السلوك، والصلاة، وكان سيفه المُشهَر صليب يسوع الذي سيصبح سيفاً من نار.

كان توّاقاً إلى تدعيم مكاسب حملته الأُولى، وغزو مواقع جديدة.وعرض على برنابا العودة معاً إلى مسارح رحلتهما السابقة لتفقّد أحوال الإخوة، ونموّ عمل الربّ وكلمته في الديار التي بشّراها.وكان برنابا يقاسمه رغبته وتطلّعاته عينها، ويذكر بتوقٍ الأفراح والآلام التي خبراها معاً.غير أنّه أعرب عن رغبته في استصحاب ابن اخته مرقس، لكي يوفّر له فرصة التكفير عن انفصاله عنهما في مستهلّ رحلتهما الأُولى، وإثبات جدارته للرسالة.ولكنّ بولس، الذي لم يكن يهادن ولا يساوم، كان ما يزال موقناً بأنّ مرقس ما انفكّ غير ناضج، وغير مؤهّل لرسالة حافلة بضروب المخاطر، ويخشى منه ما يفسد مخطّطاته الرسوليّة، فرفض، رفضاً قاطعاً، استصحابه.

لم يتوقّع برنابا هذه الشدّة من بولس، وهو الذي طالما هبّ لنجدته، وارتضى السير في ظلّه.ولم يتوقّع بولس من برنابا أن يغلّب أواصر القربى على مقتضيات رسالة الإنجيل.وربّما كانت تدابير العناية الإلهيّة وراء هذا الخلاف كي تتيح لبرنابا إتمام تبشير جزيرة قبرص، وتثبيت دعائم كنائسها، والخروج من دائرة ظلّ بولس، وهيمنة شخصيّته القويّة، وإثبات مزاياه الفذّة.ولا ريب أنّ بولس فقد فيه صديقاً قلّ من يماثله كرماً، ووفاءً، وتجرّداً، ورقّةً مقترنةً بالوقار، ونظرةً مفعمة مودّة وثقة، وكلاماً أبويّاً وإرشاداً روحيّاً ملهماً، وشخصيّةً آسرة تجتذب القلوب.ولا غروَ أنّ كلّ تلك الخصال قد أسهمت في إنضاج مرقس بنار تقوى برنابا الهادئة، وإكمال تثقيفه بحكمته وفطنته، وإعداده لفتوحات جديدة في ميدان الرسالة، لم تخطر ببال بولس، وتأهيله لكتابة إنجيل يسوع.

و لم يتوقّع أحدٌ ممّن شهد الصداقة الساجية المكينة بين ذيْنك الرجلين، اللّذين ناضلا وتألّما من أجل المسيح، جنباً إلى جنب، سنين طويلة، أن يعكّر هذه الوحدة، يوماً، سبب، أو أن تنفصم عراها، بحيث لن يشتركا معاً في أيّة مهمّة رسوليّة.

و مضى كلّ منهما في طريق، فأبحر برنابا، وبرفقته مرقس، إِلى قبرص، حيث عكفا على التبشير. ثمّ مضى مرقس إِلى الإِسكندريّة التي كان رائد التبشير فيها، والتي ما زالت تعترف له بهذا الفضل، قبل أَن يعود ليعاون كلاً من بطرس وبولس.

قد يبدو موقف بولس هذا من برنابا موغلاً في الجفاء، والظلم، بل قد يبدو فظّاً، إِلاّ أَنّه ينهض دليلاً على أَنّ بولس قد وهب قلبه كلّه للرسالة ولسلامتها، وأَنّ موجباتها كانت تتفوّق لديه على كلّ اعتبار، حتّى على أَغلى صداقة.

و منذ هذا الانفصال لم يعد لبرنابا ذكر في كتاب أَعمال الرسل، غير أَنّ بولس ما انفكّ يذكره بحنين وتقدير في رسائله، مشيداً ببذله وتجرّده، في سبيل كنيسة يسوع.وبعد أَن توغّل بولس في التمثّل بيسوع، وفي اقتفاء مثال رقّته، وسعة صدره، وصفحه، ندم على ما أَلحق بمرقس من إِهانة خلّفت في قلبه الرقيق جرحاً بليغاً، وعلى ما واجهه به من قسوة، وحرص على مصالحته، وعلى استقدامه إِلى سجنه في روما، حيث لم يتوانَ الإِنجيليّ عن خدمة الرسول العظيم، وتولّي أَمانة سرّه.

و من المحقّق أَنّ ما كان يحمله كلٌّ من برنابا وبولس أَحدهما للآخر من مودّة صادقة، وتقدير عميق، جعل انفصالهما أَليماً لكليهما.فمثل هذه العلاقة لا تنفصم من غير نزف دماءٍ غزيرة.ومن المرجّح أَنّ بولس وبرنابا ظلاّ يتراسلان ويتبادلان الرأي في شأن كنيسة يسوع، وبات برنابا مشبعاً بالفكر البولسيّ، وقد رجّح بعض علماء الكتاب أَنّه هو كاتب الرسالة إِلى العبرانيّين المنسوبة إِلى بولس، فهذه الرسالة، وإِن توافقت توافقاً تامّاً مع أَفكار بولس، إِلاّ أَنّها تتميّز بسلاسة أُسلوبها، وجمال لغتها، وخلوّها من حدّة تعابير بولس، وتزاحم أَلفاظه وجمله تزاحم حمم بركان، وهي أَقرب إِلى عذوبة برنابا، ونقاء أُسلوبه، وهي تحمل سمة صديقين عظيميْن يجمعهما حبٌّ واحد للمسيح.

كان بولس يعتزم أَن يتفقّد، مع برنابا، الكنائس التي أَسَّساها في أَثناء رحلتهما الرسوليّة الأُولى؛ أَمّا وقد انفصلا، فقد ارتأى بولس أَن يضيف إِلى هذه المهمّة ارتياد آفاق جديدة.

كان بولس يقدّر الصداقة أَرفع تقدير، ومن ثمّ فقد آلمه الانفكاك عن برنابا، ولكن لم يعسر عليه استبداله برفيق آخر، فشخصيّة بولس من قوّة الإِشعاع والجاذب بحيث كان المتطوّعون للعمل معه لا يُحصون.منهم تيطس، ذلك الشابّ اليونانيّ المخلص الذي رافقه إِلى مجمع أورشليم، وسيكون رفيق حياته كلّها، بل نظير ظلّه.ولكنّه كان لا يزال حديث السنّ، طريّ العود، فآثر، آنذاك، استصحاب سيلا أو سلوانس، ذاك الذي كانت جماعة أورشليم قد أوفدته إِلى أنطاكية كي يبلّغ قراراتها، وتلبّث في أنطاكية، آملاً في أَن يصبح رفيق رسالة لبولس، فقد كان شديد الإِعجاب به، وأَسير شخصيّته الفذّة.وتوسّم فيه بولس الرفيق الرسوليّ المثاليّ، فهو من أوائل المؤمنين، متأهّب لكلّ تضحية، متمرّس، كريم؛ هلّينيّ التربية، منزّه من كلّ تعصّب يهوديّ، فضلاً عن كونه صديق بطرس ورجل ثقة كنيسة أورشليم، بحيث كان وجوده إِلى جانب بولس يضفي على رسالته تأييد الرسل، ويثبت وحدة الكنيسة، ناهيك عن تمتّعه، مثل بولس، بالمواطنيّة الرومانية، ممّا كان يسهّل مهمّته، ويرفع من شأنه لدى السلطات المدنيّة.

برفقة سيلا، إِذن، وفي ربيع عام 50 انطلق في رحلة رسوليّة ثانية، ذلك الرجل الجيّاش الطباع، ابن السابعة والأَربعين، بغية غزو العالم ليسوع.في هذه النوبة لم يودِّع وداعاً رسميّاً – فقد كان لانفصاله عن برنابا أَصداء سيّئة في جماعة أنطاكية – ولم يُزوَّد بتفويض رسميّ؛ ومضى " على بركات اللّه " بلا هدفٍ محدّد؛ وإِنّما تبلور برنامجه وانتظم، يوماً فيوماً، على إِيقاع الظروف، وإِلهام الربّ.

اتّجه بولس وسيلا شمالاً، عبر الطريق المحاذي لسهل العاصي، الذي يجتاز سفوح الجبال المشجّرة المدعوّة " أَبواب سوريّة "، ثمّ ينحدر برفق نحو إِسكندرون، ويعبر، عند نهاية خليج البحر المتوسّط الشرقيّ، سهل إِيسّوس. وخليق بالتنويه أَنّ خليج إسكندرون كان، يوماً، مُنطلَق الإِسكندر المقدونيّ، الذي بفضل انتصاراته، وُلدت الهلّينيّة، تلك الحضارة اليونانيّة، ذات الأَلوان الشرقيّة، التي أَتاحت امتزاج الحضارات الشرقيّة والغربيّة، ووفّرت لرسالة الإِنجيل، لغةً يفهمها عالَم تلك الحقبة كلُّه.ثمّ واصلا مسيرتهما صوب أَدنا، فطرسوس، حيث أَصابا بعض الراحة، وحيث كان أَقرباء لبولس يرعون كنيسة كيليكية.وكان خبر أَليم بانتظار

بولس، فوالده كان قد لقي وجه ربّه، وانضمّ إِلى أَبائه وأَجداده، وهو مازال غاضباً على شاول، ولكنّ شاول نفسه كان من الماضي، وماضي شاول كان قد دُفن عند أَبواب دمشق.وقد وهب بولس مصنع أَبيه وكلّ ممتلكاته لأَقربائه، وتطلّع نحو مستقبل يسوع.وانتهز الرسولان فرصة هذه المرحلة لتفقّد أَحوال الكنائس السوريّة والكيليكيّة، وشدّ إِزرها، وتدعيم إِيمانها. وبعض هذه الكنائس كان قد أَسّسها بولس نفسه، في أَثناء خلوته في طرسوس، إِثر إِهتدائه.

ثمّ بعد أَن تزوّدا بخيمة وببعض زاد للطريق، يمّم الرسولان شطر الكنائس التي كان بولس قد أَسّسها مع برنابا.وإِن كان اجتياز مضايق طوروس من جانب بمفيلية، في الرحلة الأُولى، شاقّاً، فاجتيازها من الجانب الكيليكيّ أَعتى مشقّة ووعورة.ففوالق الصخر تتشامخ مئات الأَمتار، وتكاد ذراها تتلاقى، ولا تُفسح، فيما بينها، سوى ممرّات صخريّة ضنكة، لا تُظهر من السماء سوى كوى شحيحة النور، وتخترقها، بين مكان وآخر، مجاري سيول هادرة، ويعترضها، أَحياناً أُخرى، ركام انهيارات جبليّة.بين فينة وفينة كانت تترامى إِلى أَسماع الرسولين صيحات حادّة من كواسر مختبئة في حُفَر الصخور؛ وفي كلّ لحظة كانا يتعرّضان لهجوم عصابات لصوص اتّخذوا، من تلك المطارح الموحشة، مخابئ تعاقب على اللجوء إِليها، منذ قرون، جيلٌ منهم إِثر جيل.ولطالما اصطدما بجثث بشر أو حيوانات مرميّة على حافّة الطريق.وكان الليل يهبط باكراً، فجأة، ويتعذّر عليهما العثور على موقع مأهول، أو على ملجأ يأويان إِليه، فيتوقّفان تحت شجرة، أو في حفرة صخرة، ويتناولان شيئاً من الزاد، ويلتـــفّان بعباءات من شعر الماعز، ويستسلمان لنوم غير مريح، لا يمكّن منه سوى التعب الشديد.

من المرجّح أَنّ اجتيازهما لتلك المضايق قد تمّ في مطلع شهر حزيران، بعد أَن ذابت الثلوج، وباتت شعاب طوروس سالكة.وما زالت تشاهَد، حتّى اليوم، في معبرٍ ضيّق، كتابة محفورة في الصخر تقول : " عبر هذا المضيق كانت تُنقَل سيوف دمشق، وطيوب أَريحا، ومنه عَبرَ كلمة اللّه الذي تأنّس في الجليل، وصار روحاً للعالم أَجمع..." وكان أَوّل من جاء بالكلمة إِلى تلك الديار ذيْنك الرسولان، المصعّدان في الجبل، مشمّرين ثيابهما، حاملين زاداً ضئيلاً، متسلّحين بسلاح الروح القدس، ورافعيْن راية الصليب.

بعد اجتياز طوروس، امتدّت أَمام أَنظار الرسولين سهول ليقأونية، التي كان عليهما اجتيازها متجشّمَيْن عناءً من نمط آخر، فقسم كبير من تلك السهول كان ينقلب، في مطلع الصيف، مستنقعات قد تضحي قبراً لمن يغوص في وحلها القاتل؛ غير أَنّ المراعي كانت كثيرة فيها، وكان من شأن القطعان أَن توفّر لهما طعاماً طازجاً، ومن شأن أَكواخ الرعيان أَن تؤمّن لهما مبيتاً مؤقّتاً آمناً.

إثر أيّام من السير الشاقّ انتهى الرسولان إلى دربة، المدينة الصديقة الوحيدة التي لم يُضطَهد فيها بولس وبرنابا، لأنّها كانت خاليةً من اليهود.وقد تذكّر سكّان دربة ذلك الرجل القصير المدهش الذي شاهدوه، لأربع سنوات خلت، يقدم إلى مدينتهم مُثخناً بالجراح، في أعقاب رجمه، لكي يبشّر بإله المحبّة، وهو يعاني الاستشهاد، بفعل قسوة البشر.وفي دربة، كما سيحدث في كلّ جماعة سيتفقّدانها من بعد، كان المؤمنون يزدحمون حول الرسولين، ويبدأون بالسؤال : " أين برنابا ؟ ". ثمّ كان مسؤولو الكنيسة يعرضون قضاياهم، ويستوضحون ما استغلق عليهم إدراكه، ولا سيّما وأنّه لم يكن، بعدُ، بين أيديهم، إنجيل مكتوب.

و بعد أن رسّخ الرسولان كنيسة دربة، وأحكما تنظيمها، شخصا إلى ليسترة، حيث كان الوثنيّون قد نسوا مثير الشغب، في حين كان المسيحيّون الذين علموا بوجود بولس في الجوار، يتلهّفون إلى قدومه.وكان أكثرهم تلهّفاً أُسرة تيموثيوس.ذلك الشابّ الذي علقت نفسه برسالة بولس، وبإنجيل يسوع، منذ الرحلة الرسوليّة الأولى، كان قد اكتسب نضجاً، وأصبح رائعاً، جامعاً إلى نعمة الإيمان والتقوى، والحكمة، وسامة المحيّا، وشباباً طاهراً نقيّاً، وكلّ ما فيه ينبئ بأنّه ابن اللّه المختار.وكانت حرارة إيمانه قد تخطّت ليسترة، فقد "كان الإخوة في ليسترة وإيقونية يشهدون له شهادة حسنة ".وفضلاً عن كلّ ذلك، كان تيموثيوس مثقّفاً، يتقن اللغة اليونانيّة مثل أيّ يونانيّ بالولادة، متعمّقاً في معرفة الكتب المقدّسة، وبذلك كان مؤهّلاً لأداء أجلّ الخدمات للكنيسة.وقد توسّم فيه الرسول خادماً مثاليّاً ليسوع وإخوته، وطليعة جيلٍ جديد من رجالٍ مكرّسين كلّيةً للربّ، كانت الكنيسة في أشدّ حاجةٍ إليهم.

و كان لا بدّ لبولس من تحقيق أمنية غالية على قلب تيموثيوس، باتّخاذه رفيق رسالة ومعاوناً، منفّذاً بذلك الوعد الذي كان قد قطعه له في أثناء الزيارة السابقة.وارتأى أن يخوّله سلطة رسوليّة بترقيته إلى درجة الكهنوت.وقد استشار، في ذلك، المؤمنين في ليسترة وإيقونية، فأجمعوا على الإشادة بأخلاقه وسلوكه، وخدماته للكنيسة.فأعدّه للكهنوت، ثمّ اشترك مع سيلا ومجمع الشيوخ، في وضع اليد عليه.وبتلك المناسبة شهد تيموثيوس للإيمان شهادة حسنة، بحضور شهود كثيرين، على حدّ قول بولس.

يومها تقاطر المسيحيّون من المدن والقرى المجاورة، فكان حشدٌ لم يشهد له أهل ليسترة مثيلاً.وكان تيموثيوس هو الشابّ الأعزب الأوّل الذي يُكرَّس كلّيّة للربّ، ولخدمة أبنائه، خلافاً للشيوخ والرعاة المتزوّجين الذين، من قبل، كانت قد وُضعت عليهم اليد في سبيل منحهم سلطة الرعاية.

و لا ريب أنّ تلك السيامة الكهنوتيّة الأُولى التي نعرفها قد ضربت أَروع مثال للتضحية السخيّة التي أَقدمت عليها جدّة تيموثيوس وأُمّه، تيْنك المرأتان الوحيدتان اللتان قدّمتا للربّ بسخاء سندهما الوحيد في هذه الدنيا.

كانت أُمّ تيموثيوس يهوديّة، قبل اعتناقها المسيحيّة، وكانت، من قبل، قد امتنعت عن ختن ابنها، إكراماً لزوجها اليونانيّ الوثنيّ الذي اختطفته المنون في ريعان شبابه.ولكنّها، الآن، باتت راغبة في ختانه، ومع أَنّ بولس لم يكن يرى في الختان أَيّ طائل، ويأبى فرضه على أَيٍّ كان، إلاّ أَنّه لم يجد ضيراً في ختان تيموثيوس، بناءً على رغبة والدته، فمن شأن ختانه أَن يوفّر عليه الصدام مع اليهود عندما يدخل مجامعهم؛ وهو قد حرص دائماً على أَلاّ يجعل من هنات لا قيمة لها قضايا مبدئيّة تعوق الرسالة.ومن الجدير بالذكر أَنّ بولس لم يفرض الختان على تلميذه الأَثير الآخر تيطس، الذي كان وثنيّاً قبل اهتدائه.

شرف مرافقة بولس زوّد الشابّ تيموثيوس بطاقةٍ على فراق أُمّه وجدّته ووطنه؛ ومنذئذٍ وقف بوفاء وحبّ إِلى جانبه الرسول في ليالي سهاده، ونوبات مرضه، " وفي همومه بشأن جميع الكنائس ".وفي ساعات إِرهاقه، وكان يواسيه برقّة متناهية.وقد واكبه إِلى كورنثس، وأفسس، وأورشليم وروما.وكان له أَمين السرّ الذي لا يكلّ، والذي سرعان ما تمثّل فكر معلّمه ولغته.هذه الخدمات الجلّى جعلت بولس يكتب، وهو سجين، إِلى أَهل فيلبي : " أَرجو في الربّ يسوع أَن أَبعث إِليكم تيموثيوس، بعد قليل، لتطيب نفسي أَنا أَيضاً، إِذا ما أَطّلعت على أَحوالكم، فليس لي أَحد غيره يشعر مثل شعوري، ويهتمّ بأَمركم اهتماماً صادقاً... إِنّكم تعرفون كيف أَثبت فضيلته، وكيف عمل معي للبشارة عمل الإِبن مع أَبيه... " وبفخر دعاه: "إِبني المخلص في الإِيمان"

و لطالما اضطلع تيموثيوس بمهامّ أوكلها إِليه بولس، ومثّله حيث لم يستطع الحضور بنفسه، وشاركه في تدوين بعض رسائله.وعندما قضت الظروف بابتعاد أَحدهما عن الآخر، أَنفذ إِليه بولس رسالتين، حافلتين بالإِرشاد والتوجيه الرسوليّ، والنصائح العمليّة، وتنطوي بعض مقاطعهما على لفتاتٍ شخصيّة رقيقة، وعلى بوحٍ يسكب فيه بولس ذاته.

انضمّ تيموثيوس إلى فريق بولس الرسوليّ، وفي مدرسته تمرّس.وكان حقل الرسالة رحباً.فالكنائس التي أسّسها بولس وبرنابا كانت قد نمت نموّاً فوضويّاً أحياناً، وكان لا بدّ من إيضاح التعليم، وإحكام التنظيم، وترسيخ إيمان الرعاة الصالحين، وإضرام الحميّة، وتزويد كلّ كنيسة بتعليم يسوع كاملاً.ولا ريب أنّ وجود بولس قد أضفى على تلك الكنائس شباباً جديداً.غير أنّ اهتمام بولس انصبّ، في تلك المرحلة، على الجوانب الروحيّة أكثر منه على الشؤون الإداريّة التي انكبّ عليها، فيما بعد، عبر رسائله الراعويّة.

إنّ كتاب أعمال الرسل يوجز، أحياناً، شهوراً من الجهاد، في عبارة شديدة الاقتضاب، فهو يكتفي بالقول، عن تلك الحقبة، إنّ بولس ورفيقيه كانوا يبلّغون المؤمنين، عند مرورهم بالمدن، مقرّرات الرسل والشيوخ ويوصونهم بالعمل بها، وإنّ الكنائس كانت تتقوّى في الإيمان، ويزداد عددها يوماً بعد يوم.

تفقّد، إذن، الرسل الثلاثة إيقونية، وأنطاكية بيسيدية، وهي حقول عملٍ قديمة كان بولس يزورها للمرَّة الثالثة، فتطلّع إلى ميادين جديدة، والتفتت أبصاره غرباً صوب إقليم آسية الأمبراطوريّ، المتميّز بالكثافة السكّانيّة، والأراضي الضاحكة النضرة الممتدّة على شواطئ بحر إيجه، إلى أفسس وجوارها، غير أنّ جسراً منهاراً حال بين الرسل وبينها.وإذ كان بولس يعيش بكلّيّته في الروح، مستسلماً لتوجيهاته، فقد رأى، في ذلك، إشارة من الربّ تدعوه إلى تغيير وجهته، فبشّر، هو ورفاقه، في فريجية وغلاطية.

الفريجيّون قبائل هنديّة أوروبيّة تمتّ بصلة إلى المقدونيّين والتراسيّين، وكانت قد نزحت عن بلاد اليونان، واستقرّت في قلب آسية الصغرى، وتاريخها معجون بالأساطير.وقد راعت بولس مشاهدته لطقوس عبادة الإلاهة " سيـبـيل "، أم الآلهة، تلك الطقوس الحافلة بالفحش وانفلات الغرائز، والتي تبلغ قحة ممارسيها أن يدعوها ديناً، ويصفوها بالعبادة.

و بعد أن اجتازوا بلاد الفريجيّين، تلك، من طرف إلى طرف، يمّم بولس ورفيقاه صوب الشرق، وهبطوا أرض الغلاطيّين في قلب الهضبة الأناضوليّة.والغلاطيّون متحدّرون من قبائل الغاليّين، وطالما خاضوا معارك مع أهل البلدان التي حاولوا احتلالها، وعقب هزائم متعاقبة، أخلدت تلك القبائل الجامحة إلى شيء من الهدوء، واستقرَّت في منتصف هضبة الأناضول الجرداء، وراح أفرادها يؤجّرون طاقاتهم الفوّارة لأمراء آسية الصغرى، ويعملون لديهم مرتزقة، حتّى إنّ بعضهم عملوا في جيش الملك هيرودُس في فلسطين.وفيما بعد،

أَصبحت غلاطية إِقليماً رومانيّاً، يضمّ ثلاث مناطق رئيسة، كانت لإِحداها عاصمة تدعى أنقيرا، وهي، اليوم، أَنقرة، عاصمة تركيّا.

لقي بولس وصحبه، لدى الغلاطيّين، وفادةً حسنة، ولكن ساءه أَلاّ يعرفوا اللّه، وأَن يكونوا عبيداً لآلهة ليس لها من الألوهة شيء، وأَن يكون كلّ اهتمامهم منصبّاً على العناية بالأَجساد، على غير اكتراث بالروح.ولا عجب إِن أَكبّ رسُل يسوع على إِبلاغهم رسالة الإِنجيل.إِذ ما نفع تلك الأَصنام الخرساء، التي لا تملك ما تقول، في حين يكلّمهم يسوع عن أَهمّ ما في الحياة ؟ وقد استجاب له الغلاطيّون، وسرعان ما قامت فيهم أَكثر من جماعة مسيحيّة، سيكتب لها الازدهار والانتشار، كما لم يكتب لأَيّة كنائس أُخرى.

و في بلاد الغلاطيّين، العاجّة بالمستنقعات، أُصيب بولس بالملاريا، التي تجد ملاذاً أثيراً في الأَجساد المنهكة، والتي طالما أَلزمته عواقبها ونكساتها الفراش.واضطرّ الرسول إِلى الاختلاء، أَيّاماً، في حجرته، عاجزاً، مرتجفاً من الحمّى.

كانت الملاريا، في تلك الأَيّام، تُعَدّ لعنة من اللّه وعقاباً، يشمئزّ منها المصاب نفسه، ويشمئزّ من يشاهدونه، ويبصقون على الأَرض تطيّراً، ولكنّ المُهتَدين الجُدد، لم يشمئزّوا من بولس، ولم يرفضّوا عنه، على نحو ما يتّضح من قوله في رسالته إِلى الغلاطيّين : "كنت لكم محنةً بجسمي، فلم تزدروني، ولم تشمئزّوا منّي، بل قبلتموني قبولكم لملاك اللّه، وقبولكم للمسيح يسوع... إِنّي أَشهد أَنّكم، لو أمكن الأَمر، لقلعتم عيونكم، وأَهديتموني إِيّاها". وربّما حداهم إِلى هذا الموقف تبيّنهم البون الشاسع بين ما عهدوه لدى المصابين بالملاريا من أَصدقائهم وأَقربائهم، الذين كانوا يضجّون ثورة واضطراباً، ويصيحون، ويجأرون بالكفر والشتائم، ويرون أَرواحاً شرّيرة.أَمّا بولس فلم يتخلّ لحظة عن صبره، وجَلَده، وقوّة مراسه؛ فحتّى عندما كانت تنتابه الحمّى، كان لا ينفكّ يتحدّث عن يسوع، ويحدّثه، وينشد له الأَناشيد، ولكأنّه الشاهد على أَنّ المسيحيّ كائن مدهش، كائن مختلف حتّى في مواجهة المرض والموت.ولا مراء أَنّ بولس بدا لزائريه إِنساناً فائق الطبيعة، استثنائيّاً، وجعلهم يدركون النظرة المسيحيّة إِلى الأَلم.

و قد واكبت تبشير بولس في أَنحاء غلاطية خوارق وأَعمال إِلهيّة اجتذبت أَعداداً من المؤمنين.وكان وصول الرسل إِلى تلك البقعة حَدَثاً، فقد عُهِد عن الغلاطيّين فضولهم المتّقد، ونهمهم إِلى المعرفة، بحيث كانوا يستوقفون كلّ غريب، ويستوضحونه عن موطنه، وتقاليده، ومعارفه، وعمّا سمعه في الطريق.وقد أَثارهم وصول المرسلين الغرباء الثلاثة، واستمعوا بشغَف، أوّلاً، إِلى سيلا وتيموثيوس، ثمّ إِلى بولس بعد أَن أولوه خير عناية، وساعدوه على الإِبلال من علّته.

وفي غلاطية، دون سواها، لم يلقَ المرسلون مقاومة وعداءً من اليهود، على نحو ما جرى في كلّ مكانٍ آخر؛ ربّما لأنّ اليهود، هناك، كانوا قليلي العدد، وضئيلي الشأن، ولأنّ تبشير الرسل اتّجه، أوّلاً، لوثنيّين منفتحين عليه.غير أنّ ما أَفسد عمل بولس كان اندساس فئة من المسيحيّين من أَصل يهوديّ، متزمّتين في تقيّدهم بالفرائض اليهوديّة، ممّن دأبوا على مناصبة الرسول العداء، أولئك الذين وصفهم بولس " بالدخلاء، الإِخوة الكذبة، الذين اندسّوا خلسة فيما بيننا، ليتجسّسوا حرّيّتنا "، وكانوا قد هبطوا غلاطية في أَعقاب رحيل بولس وصحبه عنها، وزرعوا الزؤان بين القمح الطيّب، وتمكّنوا من غواية بعض المؤمنين الجُدد، وإِيغار صدورهم على بولس.وعندما تنامى إِلى سمع الرسول تذبذب أولئك الغلاطيّين، أَنفذ إِليهم رسالة تقطر مرارة، وتفيض تعنيفاً.فقد كانت خيبة فيهم بحجم محبّته لهم.

بعد أَن غادر الرسل غلاطية اتّجهوا غرباً، فبلغوا ميسية، وهي بقعة شبه مجهولة في آسية الصغرى، لولا عاصمتها بيرغاما التي كانت تضاهي أَكبر المدن الرومانيّة رقيّاً وعمراناً والتي اختُرع فيها، للمرّة الأُولى، رقّ الكتابة من جلود الخراف والماعز المدبوغة.ومع أَنّ تلك المدينة كانت تضمّ جالية يهوديّة كبيرة، لا يبدو أَنّ الرسل توقّفوا فيها، بل واصلوا السير نحو بيثينية التي تطلّ على كلٍّ من بحر مرمره، والبحر الأَسود.ولكن، يقول كتاب أَعمال الرسل أَنّ روح يسوع لم يسمح لهم بالشخوص إِليها، وهي عبارة ما زال يكتنف معناها الغموض، والمرجّح أَنّ مرسلين آخرين كانوا قد سبقوا بولس إِلى غرس بذور الخلاص في تلك الديار، وكان على بولس أَن يحرث أَراضي بكراً ويلقي فيها بذور الإِنجيل.

و تحوّل الرسل نحوترواس أو طروادة، متوقّلين الجبل الذي تقول الأَساطير أَنّ الآلهة تفرَّجوا من قمّته على المعارك الحامية التي دارت في تلك المدينة، والتي خلّدها هوميروس في شعره؛ ولا ريب أَنّ طوائف من الذكريات قد تزاحمت في أَذهان أولئك الهلّينيّين الثلاثة الذين هدهدت أَحلام صباهم أَساطير الإِغريقيّين وملاحم أَمير شعرائهم.غير أَنّ تلك الملاحم والروائع الأَدبيّة كانت عاجزة عن النفاذ إِلى نفس بولس، ذلك الشرقيّ الذي كان يحضن، في صدره، لا ملحمة أُسطوريّة، بل ملحمة واقع مدهش، ولا همّ له سوى تبليغ رسالته العلويّة، على غرار متسابق المراطون الذي كُلّف بنقل نبأ انتصار الأسطول اليونانيّ، إِلى أَثينا، فانطلق يجري، لا يلوي على شيء، ولا يسمح لشيء بإِلهائه، بل ظلّ يجري، ويجري، إِلى أَن بلغ نهاية شوطه، وصاح، بكلّ ما تبقّى في صدره من قوّة : "النصر"، ثمّ هوى ميتاً.هكذا كانت حال بولس، فعليه أَن يبلّغ العالم أَجمع نبأ انتصارٍ آخر، انتصارِ ابن اللّه على الموت، وإِشراعه طريق الخلاص المضيء أَمام البشر أَجمعين، وريثما يبلّغ هذه الرسالة لا شيء يشغله، ولا يصمد أَمام عزيمته عائق.

و سرّ بولس أَن يتأمّل، من جديد، البحر الذي شُغف بحبّه، منذ صباه، والذي كان يستشفّ في رحابته صورة للكنيسة العتيدة.وتطاولت أَبصاره إِلى روما، سيّدة العالم التي كان يقدّر " عبقريّتها الأَبيّة والجريئة، التي تقرن الاندفاع بالصبر، وعشق الحرّيّة باحترام النظام، والقانون، والمقدّسات "، والتي كان موقناً من أَنّها ستكون عاصمة المسيحيّة.وكان جلّ ما يتمنّاه أَن يحمل إِليها بشرى الإِنجيل.ولكن لم يُكتب لهذا الحلم أَن يرى النور إِلاّ بعد انتظار طويل، وجهادٍ مرير، فقد ارتأى الربّ أَن تكون روما هي حقل بطرس، " فلا يأتيها بولس إِلاّ متأخّراً، لكي يضمّ رسالته إِلى رسالة رأس الكنيسة، ويكرّس وحدة الكنيسة، فتصبح روما مقرّاً لبطرس وبولس، ولكن لبولس الخاضع لبطرس ".ومع كلّ تشوّقه إِلى روما، كان يتهيّبها، فأولئك الرومانيّون المتغطرسون الذين يعدّون كلّ من سواهم " برابرة "، ويقيمون شأناً كبيراً للفصاحة، وللّغة المرهفة المصقولة، كيف لهم أَن يستقبلوا يهوديّاً قصير القامة، زريّ الهندام، يتكلّم بلغة يونانيّة بعيدة عن لغة الأَدب الراقي، وبصوتٍ أَجشّ.

في طروادة بات بولس على مرمى حجر من أوروبا، وكان هو ورفاقه، يجهدون في نقل بشرى الخلاص إِلى الوثنيّين، في منطقة المرفأ.وفي كلّ يوم كانت سفن تقدم من أوروبا، وأُخرى تمضي إِليها، فيتأمّلها بولس، وهو حائر أَيّها يستقلّ، وأَيّة جهة من أوروبا يقصد.وقد أَخذت حيرته تتبدّد عندما جاءه سيلا، يوماً، عائداً من التعليم في المرفأ، وبرفقته لوقا الذي سيلعب دوراً هامّاً في مسيرة بولس الرسوليّة.

كان لوقا طبيباً، ورسّاماً، ويونانيّاً مثقّفاً، ذكيّاً، رقيق الإِحساس، ويحمل بين جوانحه روح رسول.ويُعتقد أَنّه تعلّم الطبّ في طرسوس، وتعمّد على يد بولس الذي وجد فيه كلّ ما يحتاج إِليه : الطبيب الكفيل بمعالجته، كلّما انتابته أزمة مرض، ورفيق السفر الخبير بالملاحة، والكاتب المرهف، وشاعر ملحمة بولس الرسوليّة، الذي سيدوّن سفر أَعمال الرسل، والإِنجيل الثالث، بأَصفى لغة يونانيّة، في العهد الجديد كلّه، والمساعد الرسوليّ الكفء.

كان لوقا قد سافر كثيراً، ومارس مهنته على متن البواخر، في مختلف المرافئ، وترسّخت معرفته بكلّ ما يتعلّق بالسفر بحراً.وتمّ التقاؤه ببولس، في الوقت الذي كان بولس في أَشدّ حاجة إِليه، فأَمسى هذا اللقاء، منطلق صداقة من أَخصب الصداقات التي عرفها تاريخ الرسالة المسيحيّة.ويُلاحظ من سفر أَعمال الرسل، حتّى فصله الخامس عشر، أَنّ لوقا يروي الأَحداث كما تلقّاها من أَبطالها وشهودها، ولكنّه، منذ الفصل السادس عشر، بات يتحدّث بصيغة الجمع، بصفته عضواً في فريق بولس الرسوليّ.ومنذ لقائهما في طروادة، سنرى لوقا دائماً، تقريباً، إِلى جانب بولس، وقد شاركه السجن في روما، وكان له المعاون والطبيب المؤاسي، وقد جاء في رسالة بولس الثانية إِلى تيموثيوس : "وحده لوقا معي".

و كان لوقا يتميّز بدماثة الخلق، ونبل النفس، والاتّزان والتبصّر، وفضلاً عن كلّ ذلك كان شديد الإعجاب بالرسول العظيم، والوفاء له؛ وكان يستخدم، بنفس القدر من المهارة والرقّة والثقة، قلم الكاتب المؤرّخ، ومبضع الطبيب الجرّاح، فكان خير مؤرّخ لحلول ملكوت الربّ، وهكذا اغتنت الكنيسة بسجلّين عن نشأة الكنيسة، أحدهما دوّنه بولس، من خلال رسائله، بأسلوبه المتفجّر، الدفّاق، حيث تتردّد أصداء كفاحه، والآخر دوّنه لوقا بأسلوبه المتّزن، المتبصّر.ومن خلال كلٍّ من بولس ولوقا امتزجت أجمل مزايا الشرق واليونان : عمق رؤية بولس النبويّة واضطرامها، وفكر لوقا النيّر، الساجي، المتناغم.كان بولس ما زال حائراً حول الطريق الذي يتعيّن عليه انتهاجه.وذات ليلة توسّل الربّ، بحرارة، أن يرشده.وسارع الربّ إلى إنارة دربه، إذ رأى، في الحلم، رجلاً يرتدي زيّ المقدونيّين، الذي طالما شاهد مثله في مرفأ طروادة؛ وكان الرجل واقفاً، مادّاً يديه، يناديه متوسّلاً : "أعبر إلى مقدونية وأغثنا ".وبعد أن عاد بولس إلى النوم ثانية ظهر له المقدونيّ من جديد مكرّراً نداء استغاثته." كانت أوروبا تنادي المسيحيّة.كانت مقدونية قد أغنت الشرق، سابقاً، بلغتها اليونانيّة، وفلسفتها، وها هي ذي، وقد أفلست، تلتمس من الشرق أثمن ما لديه.بفضل هذا الحلم، وبفضل لقاء بولس ولوقا، سيُكتب للثقافة الغربيّة أن تنتهج نهجاً قشيباً" (هولزنر)

نهض بولس، وقلبه يخفق بعنف، وقد استقرّ في خَلَده أنّ الغرب، بجميع شعوبه التي تعيش، روحيّاً، في الظلمة، يستدعيه، وأنّ الربّ يوكل إليه نشر بشرى خلاصه في تلك الديار.وكان ذلك إيذاناً باستهلال فصل جديد من فصول ملحمة الإنجيل الكبرى.وفي الصباح روى بولس لرفاقه ما رآه ليلاً، فتوسّموا، جميعهم، في تلك الرؤيا، إشارة سماويّة، ونداءً من الربّ، كما يتّضح من قول لوقا : " ما إن رأى بولس هذه الرؤيا حتّى طلبنا الرحيل إلى مقدونية، موقنين أنّ اللّه دعانا إلى تبشير أهلها ". وتوثّب قلب بولس تحفّزاً إلى تلك الآفاق الجديدة.

لم يكن بلوغ مقدونية من طروادة يستغرق أكثر من سفر يومين بحراً؛ بيد أنّ البوْن الروحيّ كان شاسعاً، فعلى خلاف الثقافة السوريّة والفريجيّة القريبة من الفكر اليهوديّ، كانت الثقافة اليونانيّة، والمقدونيّة، والرومانيّة، شديدة البعد عنه.ولكنّ صرخة الاستغاثة كانت حادّة، وكان على بولس أن يتحوّل فيكون يونانيّاً مع اليونانيّين، ورومانيّاً مع الرومانيّين، لكي يبلّغ الجميع رسالة يسوع.وبذلك ضرب مثلاً لجميع الرسل من بعده علّهم يدركون عقليّات الشعوب التي يبشّرونها، ومشاعرها، ولغاتها الخاصّة، كي ينفذوا إلى قلوبها، ويُنفذوا إليها رسالة الخلاص.

كان يوليوس قيصر قد حلم بجعل ترواس عاصمة للإمبراطوريّة الرومانيّة تحلّ محلّ روما، ولكنّ حلمه تبخّر هباءً.أمّا بولس، فعلى نقيضه، حلم بأن يجعل من روما مركزاً لملكوت المسيح.ومع كلّ ما اتّسم به حلمه هذا من مفارقة، إلاّ أنّه تحقّق تحقُّقاً رائعاً.هكذا كان أبداً شأن انتشار المسيحيّة : الانتصار في ظروف تتعارض وكلّ التوقّعات البشريّة.وكان هبوط بولس ورفاقه الثلاثة أرض أوروبا خطوة حاسمة، في هذا السبيل.

كان موكب الرسل قد أبحر من ترواس، باتّجاه ساموتراكية، المدينة الجبليّة الخضراء الموحشة، حيث قضوا الليل، وفي الغداة استأنفوا الإبحار، وأرسوا، مساءً، في نيابوليس، ومنها توقّلوا الهضبة المحاذية للساحل، حتّى انتهوا إلى مضيقٍ انحسر عن منظر رائع نحو الشمال، حيث أطلّوا على سهلٍ ممراع، اتّكأت في أحضانه مدينة فيليبي، وقد برز منها قصرها المنيف، وقلعتها الشامخة.

و كان يوماً عظيماً في تاريخ البشريّة، ذاك الذي وطئ فيه بولس ورفاقه، للمرَّة الأُولى، أَرض أوروبا في مقدونية.تلك البلاد كان يقطنها، قديماً، شعبٌ باسل، نبيل، اكتسب شهرة عالميّة، بفضل مشاريع مَلِكه الشابّ.ولكن منذ عام 167 قبل المسيح أَصبح الرومانيّون هم سادة البلاد، وجعلوا منها أَربع مقاطعات، أهمّها مقاطعتا فيليبي وتيسالونيكي.

" كانت سهول فيبلبي تحتضن أَساطير آلهات اختُطفن إلى عالم الموت، ممّا كان يُشيع، في أَجوائها، سحابة من الحزن المبهم؛ وعلى ترابها انثالت دماء قادة بذلوا حياتهم في سبيل حرّيّة روما.وها قد جاءها، اليوم، رسُل حرّيّة من نمطٍ آخر، وبُشَراء فاتحٍ جديد، لم يمتشق، يوماً، سيفاً، ولكنّه سيعمل في سبيل تحرير البشر أكثر ممّا فعل جميع محرّري الدنيا مجتمعين ".

كانت فيليبي قد جهدت في محاكاة روما، بعد أَن جعل منها أوغوسطوس مستعمرة عسكريّة رومانيّة، وبات لها ميدانها، ومسرحها، ومقرّ سلطتها، وأسوارها، ودستورها الليبراليّ.وقد اختلط بالرومانيّين، فيها، أحفاد المقدونيّين القدماء، المتميّزين، رجالاً ونساءً، بشدّة المراس، والقسوة، والإباء، والعناد.وكان من شأن اعتناقهم المسيحيّة تأدية خدمات جلّى لدين يسوع.وتوسّم الرسل، في فيليبي، حقلاً واعداً وخصباً للرسالة.

و جال الرسل في المدينة بحثاً عن مجالات للتبشير؛ وجرياً على عادته القاضية بالتوجّه، أوّلاً، إلى اليهود، بحث بولس عن مجمع، ولكن، إذ كان عدد اليهود ممعناً في الضآلة، لم يعثر على مجمع، في المدينة، ولكنّه أُرشد إلى مكان، خارج أَسوار المدينة، حيث

يجتمع المؤمنون عند ضفّة ساقية، ممّا يمكّنهم من أَداء فرائض الاغتسال؛ وهناك وجد عدداً ضئيلاً من النسوة، قلّة منهنّ يهوديّات، والأُخريات من "متّقي اللّه"، أَي وثنيّات استهواهنّ الإِيمان بالإِله الواحد، ولكنّهنّ لم يعتنقنَ اليهوديّة، بعد.ربّما خيّبت ضآلة الجمهور آمال بولس، ولكنّها لم تثنهِ عن الرغبة في نشر الإِنجيل، وتكوين خميرة قد تُنهِض عجيناً وفيراً.وسرعان ما لحظ الرسول أَنّ معرفة أولئك النسوة بالدين كانت واهية، غير أَنّ قلوبهنّ كانت مشرعة على اللّه، وحيال هذا الانفتاح أَطلق بولس لقلبه العنان.

و يلاحظ لوقا أَنّ بين النسوة المجتمِعات " كانت امرأة تصغي إِلينا، اسمها ليدية، من مدينة ثياتيرة، تبيع الأَرجوان، وتعبد اللّه، ففتح اللّه قلبها لتصغي إِلى كلام بولس ".ثياتيرة مركز اشتهر بصباغة الأرجوان، وكانت ليدية أرملة تاجر من تلك المدينة يصبغ الأرجوان ويبيعه، وقد تولّت متابعة أَعماله، وكانت تجارتها توفّر لها يسراً وبحبوحة، وكانت تتّصف بالخبرة، والحنكة، والحكمة.وقد أَخذ كلام بولس من نفسها كلّ مأخذ، فأَصغت إِليه بكلّ جوارحها، وفي الحال أَلقى الربّ في قلبها نعمة الإِيمان، وأَيقنت أَنّ يسوع هو، حقّاً، الطريق، والحقّ، والحياة.ومع أَنّها، بصفتها بائعة، كانت حريصة، يقظة، تحسب لكلّ شيء حساباً، إِلاّ أَنّها التمست أَن تعتمد هي وجميع مستخدميها، وعمّالها، الذين لم يعسر عليها تبشيرهم بدين يسوع.وما إِن حلّت عليها نعمة العماد، حتّى دعت الرسل قائلة : " بما أَنّكم تحسبونني الآن مؤمنة بالربّ، فادخلوا بيتي، وأَقيموا عندي ".ومن المرجّح أَنّ بولس ردّ عرضها بتهذيب، فهو يأبى أَن يكون عالة على أَحد، ويحرص على أَكل خبزه بكدّ يمينه، ولو اضطرّ إِلى الاكتفاء بالزهيد من الطعام، وبالمأوى الزريّ.غير أَنّ تلك السيّدة الكريمة لم تكن مفتقرة إِلى الحجج المقنعة، فالاهتداءات تتمّ بوتيرة متسارعة، والمؤمنون يحتاجون إِلى مكان رحب يجتمعون فيه بهدوء وأَمان، ومنزلها مؤهّل لذلك أَكثر من أَيّ فندق أَو مكان آخر، فهو من السعة، والخدَم فيه من الكثرة والكفاءة، بحيث لا تمثّل إِقامة الرسل فيه أَيّ عبء.فضلاً عن أَنّ إِتّساع رقعة الرسالة يقتضي من الرسل التفرّغ لتلك المهمّة السامية، وهي تملك من الإِمكانيّات، ووسائل الخدمة، ما يفيض عن حاجتها، وليس أَفضل من الرسالة ما تكرّس له ما تملك.وكانت حجّتها الأَكثر إِقناعاً أَنَّه، إِن كان الرسل قد عدّوها خليقة بالسكن في منزل الربّ الروحيّ، فكيف لا يعدّونها جديرة بأَن يقيموا في منزلها المادّيّ.ويوجز لوقا ذلك الجدَل بين الرسل وليدية بقوله : " لقد اضطرّتنا إِلى قبول دعوتها ".ومنذئذٍ ما عاد الرسُل يعرفون إِلى الراحة سبيلاً، فمجال الرسالة بلا حدود.وفي حين كان رفاقه ينشرون الإِنجيل كان لوقا يجوب المدينة، معالجاً المرضى مجّاناً، وبلا تمييز، إِذ إِنّ اعتناقه المسيحيّة لم يزد فطرته السمحة سوى فيضٍ من السخاء والتجرّد.

و أَقام الرسل، في فيليبّي، أَشهراً شاقّة ومثقلة بالثمار، إِذ كان عليهم السعي لدى الوثنيّين، متنقّلين من بيت إِلى بيت، ومن حيٍّ إِلى حيّ، ومن قرية إِلى أُخرى، وقد أتى حصاد جهودهم الوفير عزاءً واعتزازاً لبولس الذي كان يخاطب الفيليبيّين بلُغتهم، وعلى غرار أَفلاطون كان يحدّثهم في الهواء الطلق، وعلى ضفاف السواقي.

و أَصبحت ليديا نفسها خير أمّ للكنيسة الوليدة، وللرسل، ترعى احتياجاتهم المادّيّة، كي تتيح لهم التفرّغ للرسالة.وجدير بالتنويه أَنّ بولس كان حريصاً، على مدى رسالته، على رفض أَيّ دعمٍ مادّيّ من أَيّة كنيسة، وأَيّة هبة ماليّة، ما خلا كنيسة فيليبي، التي هرعت إِلى إِنقاذه من أزماته الماليّة وفكّ عسره، مرّة إِثر مرّة، بهبات سخيّة كان يتقبّلها بفرح وامتنان، وكانت ليديا، في المقام الأَوّل، هي مصدر تلك الهبات.ولم ينسَ بولس، يوماً، ذلك الجميل، بل كان شديد التقدير له، عندما كتب في رسالة إِلى أَهل فيليبي: "أَشكر إِلهي كلّما ذكرتكم، وإِنّي، على الدوام، في جميع صلواتي، أَتضرّع في سرور لأَجلكم جميعاً، من أَجل إِسهامكم في الإِنجيل، منذ اليوم الأَوّل حتّى الآن...وتعرفون جيّداً أَنتم، يا أَهل فيليبي، أَنّه، في ابتداء البشارة، لمّا خرجت من مقدونية، لم تشترك معي كنيسة في عطاءٍ وأَخذ، إِلاّ أَنتم وحدكم... إِنّي في سعة منذ تسلّمتُ هبتكم على يد إِبفرديتُس: فإِنّها عطرٌ طيّب العرف، وذبيحة مقبولة لدى اللّه، مرضيّة، وسيملأ إِلهي كلّ احتياجاتكم، على حسب غناه، في المجد ".

و قد انضمّ إِلى فريق بولس الرسوليّ رهطٌ من المهتدين الجُدد المفعمين غيرة، منهم نسوة، مثيلات " أَفودية " و" سنتيخة " اللتين يقول بولس أَنّهما "جاهدتا معي في خدمة البشارة" ومنهم إِكليمنتس وسيزيفُس " الرفيق الأَمين " وأبفرُ ديتُس " أَخي ومعاوني، ورفيق جهادي "، وهو الذي شخص من فيليبي إِلى روما كي يعنى ببولس السجين هناك، آتياً له بمعونات الجماعة المادّيّة.وقد اعتلّ أبفرُديتس في روما فقلق عليه الرسول قلقاً شديداً، ولمّا تعافى أعاده إِلى فيليبي حاملاً إِلى مسيحيّتها رسالة تقطر محبّة وعرفاناً بالجميل.

و هكذا دخل الإِنجيل أوروبا بكتمانٍ ورقّة، مضمّخاً بسخاء امرأة، ومدعوماً بتصميم إِيمانها، وبشجاعة رجال بواسل كرماء.

و قد نزل مسيحيّو فيليبي من نفس بولس منزلة مميّزة، وكانت كنيستهم أَغلى الكنائس على قلبه، فقد كانت، في القارّة الأوروبيّة، حبّه الأَوّل و" فرحه وإِكليله ".وقد أَكّد ذلك عندما كتب إِلى الفيليبيّين : " يشهد اللّه أَنّي شديد الحنان عليكم جميعاً في أَحشاء يسوع المسيح".

عقد بولس ورفاقه علاقات صداقة متينة مع الكثيرين من أهالي فيلبي، وأَحاطوا أَنفسهم بأَعوان يتمتّعون بالجدارة والكفاية.وكان الجميع يجهدون في نشر الإِيمان، ويلتئمون تارة تحت الأَشجار الوارفة الظلال، عند ضفّة الساقية، وتارة في منزل ليديا الذي أَمسى مقرّاً للكنيسة.وفي المساء، إِثر عناء النهار، كانوا يتبادلون الأَحاديث والانطباعات في جوٍّ مفعم بالمودّة.

و ساور القلق بولس من جرّاء اندراج رسالته في فيلبي بسكون وسلام، وهو الذي أَلِف، في رسالاته السابقة، مجابهة العداوات والاضطهادات؛ ولكنّ المصاعب التي عكّرت ذلك الصفو، كانت له بالمرصاد، وقد تجسّدت في جارية هيستيريّة السلوك، تقطنها أرواح شرّيرة، كانت تُصدر من بطنها أَصواتاً شيطانيّة، بلغات متعدّدة، فتكشف للناس عمّا يخامرهم من أكثر الأَفكار سرّيّة، وتنبئهم بالمستقبل.وكانت تجتذب جموعاً من التوّاقين إِلى معرفة الغيب، الذين يجزلون لها العطاء، ممّا كان يوفّر لأَسيادها، وهم مجموعة من الكهنة الوثنيّين، موارد وفيرة.ويبدو أَنّ القوّة الروحيّة المنبعثة من بولس وسيلا قد أَثّرت فيها تأثيراً بليغاً، فراحت تتعقّب خطاهما، وهي لا تني تصيح : " هؤلاء الرجال هم عبيد اللّه العليّ، وهم يبشّرونكم بطريق الخلاص ".

و استمرّت الحال على هذا المنوال أَيّاماً إِلى أَن ضاق بولس ذرعاً بمطاردة العرّافة وصياحها.صحيح أَنّ الروح الذي كان يسكنها كان يعترف بأَنّ الرسل هم خدمة العليّ، وأَنّهم يرشدون إِلى سبيل الخلاص، ولكنّه لم يكن بحاجة إِلى شهادة غير شهادة اللّه، وكان يأبى شهادة العرّافة، لكيلا يورّط الإِنجيل في مثل هذه الهتافات، ولئلاّ تختلط شفافية الإِنجيل الوضّاءة بمكائد الجحيم.أوَ لم يطرد يسوع نفسه، من بعض المسكونين، أرواحاً نجسة كانت تعترف بأَنّه ابن اللّه ؟ فضلاً عن ذلك، أَشفق بولس على تلك الإِنسانة التي كانت مستعبَدة، في آنٍ واحد، للأَبالسة ولكهنة الأوثان، فحذا حذو معلّمه، وتوقّف، ذات يوم، وأمر الروح الساكن في الجارية : " إِنّي آمرك باسم يسوع المسيح أَن تخرج منها ".وانصاع الروح صاغراً، في الحال، وأَشرق محيّا الفتاة الذي طالما كان متشنّج الأَسارير، وأَشرقت على نفسها أَنوار الروح الحقّ، والعقل، والحرّيّة، والانعتاق، وغزتها قدرات يسوع، وتدفّقت، من مآقيها، دموع الفرح والشكر.ويسوغ التخمين أَنّها كرّست نفسها، منذئذٍ، لخدمة المسيح، على غرار ذاك الذي أَخرج منه يسوع جوقةً من الشياطين، فاتّبعه، والمجدليّة التي أعتقها من سبعة شياطين، فغدت المبشّرة الأُولى بقيامته.

غير أنّ بولس، بفعله هذا، كان قد تصدّى لقوى الشرّ، وهي ركن منيع من أَركان الوثنيّة، كما تصدّى لقوى المال المتسلّطة، إِذ حرَم طغمة من كهنة الأَوثان من موردٍ كانوا به ضنينين.ومثلما كان يثور متزمّتو اليهود انتصاراً للشريعة التي بها يتحصّنون، ثار كهنة الوثنيّين فرَقاً على مال لا يقلّ عن آلهتهم إِجلالاً.فلا عجب إِن هم أَلّبوا الشعب وولاة المدينة على الرسولين.من المحقّق أَنّه لم يكن بوسعهم الادّعاء بما حدَث للجارية، فالقوانين الرومانيّة لا تحمي العرّافين والسحرة، والأرواح الشرّيرة، فزوّروا الوقائع، وموّهوا دوافعهم المتمثّلة في فقدان موارد رزق غير مشروعة، بالحرص على مصالح روما، وأَظهروا الرسولين بمظهر المشاغبين اللّذين يعكّران صفو الأَمن، وأَدلوا بتخرّصات قائلين : " إِنّ هذين الرجلين يبلبلان مدينتنا، وهما يهوديّان يناديان بعبادات لا يجوز لنا قبولها ولا العمل بها، إِذ نحن رومانيّون".ورافق هذا الإِدّعاء شغَب حرّضوا الرعاع عليه، ممّا أَقلق ممثّلي السلطة الرومانيّة، الذين كانوا حريصين على خنق كلّ محاولة إِخلال بالأَمن، في مهدها، فأزروا بأصول المحاكمات التي كانت روما حريصة عليها، واستهانوا بشأن يهوديَّيْن غريبَيْن متسكّعَيْن، فلم يستنطقوهما، ولم يستمعوا إِلى شهود، بل لجأوا إِلى إخراس الغوغاء بمعاقبة الرسولين، اللّذين أَمروا بتجريدهما من ثيابهما، وضرب كلٍّ منهما خمساً وعشرين ضربة بالعصيّ.وعبثاً حاول بولس وسيلا إِسماع اعتراضهما وإِعلان مواطنيّتهما الرومانيّة الكفيلة بوقايتهما من تلك المهانة، والتي تمنع معاقبتهما قبل إِخضاعهما لمحاكمة عادلة، ولكنّ صوتيهما تاها وسط زئير الجموع وزمجرتها، وصيحاتها العدائيّة الصاخبة، وانهالت عليهما العصيّ بوحشيّة، ثمّ اقتيدا إِلى غياهب سجن محفور تحت الأَرض، حالك الظلمة، قذر، تفوح منه روائح كريهة، حيث ضبطت أَرجلهما في مقطرة، ووثّقت أَيديهما في أَغلال مثبتة بسلاسل حديديّة في الجدار، بحيث تعذّرت عليهما الحركة، وإِن هما حاولا أَن يتحرّكا، ولو قليلاً، وهما جالسان، أَلهبت جسديهما آلام حادّة من الأَثلام الدامية التي حفرتها العصيّ فيهما، ومن جراحهما التي ما برحت نديّة.

و فيما كانت تتصاعد من المحابس الأُخرى صيحاتٌ هوجاء، وأَنّات أَليمة، وشتائم مقذعة، كان الرسولان يتمتمان الصلوات، شاكرين الربّ لأَنّه وجدهما جديرين بالتأَلّم من أَجله.وفي منتصف الليل، أَي في تلك الساعة التي تسكن فيها الخليقة كلّها، في وقفة سجود وعبادة لخالقها، طفق بولس وسيلا ينشدان للربّ تسابيح رقيقة شجيّة، يسري الفرح في ثناياها، لم يسمع قطّ مثلها سجن فيليبي.وتساءل السجّان، وسائر المسجونين، أَيّ إِله ذاك الذي يجعل بشراً ينشدون بفرح، وسط آلام مبرّحة، وضيق خانق ! وكان بولس مطمئنّ النفس إِلى أَنّ الربّ الذي أَنقذه دائماً، ليمكّنه من مواصلة رسالته، سينقذه، في هذه النوبة أَيضاً.

أَمّا تيموثيوس ولوقا، فربّما كانا في مكان آخر عندما أُلقي القبض على بولس وسيلا، أَو إِنّهما اعتُبرا مرافقين غير خطيرين، فتُركا وشأنهما، فهرعا إِلى منزل ليديا، وسرعان ما تحلّق من حولهما المؤمنون الجُدد، وراحوا يتضرّعون بحرارة، وبنفسٍ واحدة، من أَجل إِطلاق سراح الرسولين العزيزين السجينين؛ وكانت استجابة الربّ سريعة، إِذ حدثت، بغتةً، زلزلة شديدة، زعزعت أركان السجن، وانتزعت الأَبواب من محاورها، وحطّمت القيود والمقاطر.ونهض بولس وسيلا، وشخصا إِلى فناء السجن حيث انضمّ إِليهما سائر السجناء مذعورين، فهدّآ من روعهم، ونصحاهم بعدم الفرار.واستولى الرعب على حارس السجن عندما شاهد الأَبواب كلّها مشرعة، والقيود محطّمة، وظنّ أَنّ السجناء لاذوا بالفرار، ولا سيّما الإِثنين اللّذين كُلِّف بحراستهما حراسة شديدة، واستلّ السيف ليقتل به نفسه، فالموت على هذا النحو خيرٌ من القتل المهين على أَيدي الحكّام الذين كان من شأنهم تعذيبه وإعدامه، بسبب إخفاقه في حراسة السجناء الموكلين إليه.وإِذ بصوت بولس الجهير يهتف له، وسط العتمة الدامسة: "لا تُلحق بنفسك سوءاً، فنحن جميعنا هنا. "

و جاء حارس السجن، وخرّ عند أَقدام الرسولين، وقد تيقّن أَنّ كلّ ما حدث كان معجزة لصالحهما أَجراها الربّ الذي كانا ينشدان له. من قبل، كان قد سمع العرّافة تهتف أَنّهما خادمان للعليّ، وأَنّهما يرشدان إِلى سُبُل الخلاص؛ وكان قد شهدهما يُضربَان بالعصيّ بقسوة، وهما يحتملان بصبر وشجاعة فائقــيْن، ولا تصدر عنهما أَنّة أو شكوى؛ وسمعهما ينشدان التسابيح لإِلههما الذي بادر إِلى إِنقاذهما، وأَيقن أَنّهما رسولا إِله قدير، اتّضحت، حياله، هشاشة الأَوثان وزيفها، وتمنّى أَن يكون له إِله مثل إله سجينه، يساند، ويدعّم، ويلبّي احتياجات النفوس، ومن أَعماق كيانه سأل بولس : " يا سيّدي، ماذا عليّ أَن أَفعل لأَخلص؟" ولم يخفَ على بولس ما يميّز ذلك السجّان من بساطة وشفافيّة، وانفتاح على روح الربّ.

و سرعان ما انضمّ إِلى حارس السجن جميع أَهل بيته؛ وذهل الرسولان عن وضعهما الرثّ، وعن كلّ ما أَصابهما، في الأَمس، من تنكيل، وما انتابهما من انفعالات؛ وعن ثيابهما الملتصقة بجراحهما، وعن آلامهما الكاوية، وعن جوعهما وعطشهما.فحيال أولئك المساكين الباحثين عن مرسى أمين يربطون به مصيرهم، ذهلا عن نفسيهما، وراحا يعلّمانهم، تعليماً مكثّفاً، جوهر الدين المسيحيّ، ويعرّفانهم بيسوع وبرسالته الخلاصيّة، تاركين للروح القدس إِتمام تثقيفهم.وعندما جاءا على ذكر العماد، هتف السجّان، كما كان قد فعل خازن ملكة الحبشة : " ها إِنّ الماء موجود، فما المانع من أَن نعتمد ؟ " إِزاء هذه الرغبة المضطرمة، أَجاب بولس : " آمنوا بالربّ يسوع، فتخلصوا ".وهكذا، قبل شروق الشمس، كانت أنوار الإِنجيل قد أَشرقت على تلك العائلة بأَكملها.

و حينئذٍ فطنت زوجة حارس السجن إِلى أَنّ الرسولين لم يتناولا طعاماً ولا شراباً منذ ظهر البارحة، فمضى بهما زوجها إِلى منزله، حيث غسل جراحهما، وقدّم لهما طعاماً، وفي ختامه اشترك وجميع أَهل بيته مع ضيفهما بإِفخارستيّاهم الأُولى.

السعادة التي غمرت نفس الرسولين، مع بزوغ فجر ذلك اليوم، كانت تستأهل كلّ ما عانيا من آلام

في تلك الأَثناء كان لوقا قد أوضح للحكّام أَنّ ضحيّتيهم إِنّما هما رجلان مستقيمان يتمتّعان بمزايا رفيعة، على نقيض ما صوّرهما المدّعون المغرضون، وبيّن لهم أَنّهم ارتكبوا خطأً جسيماً، عندما تسرّعوا في الحكم، افتئاتاً، بالسجن والضرب على مواطنين رومانيّين، من غير محاكمة ولا تمحيص، وكان لهذا الكشف وقعٌ مدوٍّ على الحكّام، فالقانون الرومانيّ يفرض عقاباً صارماً على من يضرب أو يسجن مواطناً رومانيّاً من غير محاكمة عادلة.وارتعد الحكّام جزعاً وربّما هم، أَيضاً، ربطوا بين إِله الدين الجديد الذي يبشّر به الرجلان، والزلزال الذي حدَث، وأُعجبوا بموقفهما، إِذ لم يفرّا، حين كانت سُبُل الفرار مهيّأة لهما، بل حالا دون فرار سائر السجناء.فأَنفذ الحكّام من يبلّغ السجّان: " أَطلق سراح ذيْـنك الرجلين".وهرع السجّان فرحاً وبلّغهما : " إِنّ الولاة أَمروا بإِطلاق سراحكما، فاخرجا، إِذن، الآن، وامضيا بسلام". ولكنّ بولس لم يتخلّ، مجّاناً، عن الورقة التي كان يمسك بها، فأَجاب، برباطة جأش: " لقد جلدونا جهراً، ومن غير محاكمة، ونحن مواطنان رومانيّان، وزجّوا بنا في السجن، والآن يريدون إِخراجنا خلسة ! لا، لا، بل فليأتوا بأَنفسهم ويخرجونا".ووافى الولاة ومرافقوهم، مضطربين، وأَعربوا، متلعثمين، عن اعتذارهم، ورجوا الرسولين أَن يغادرا المدينة درءاً للفضيحة.كان بولس يمسك بمقاليد الوضع، وكان الولاة مدينين له، فحرص على أَن " يظهّر " هذا الدَّيْن لصالح الإِخوة المؤمنين، وجال في خلَده أَنّه إن رفض الرحيل، ولبث في المدينة، لظلّ على صراع مع الحكّام، وعرّض جماعة المسيحيّين للانتقام، فطالب بحمايتهم، ثمّ انطلق وسيلا، في موكب رسميّ إِلى بيت ليديا، فشدّدا إِيمان الإِخوة، والتمسا مهلة أسبوع ريثما تعالج جراحهما.وفي خلال هذه المهلة إِذ كان لوقا عاكفاً على تضميد جراحهما، دأب بولس على تكثيف تعليم المؤمنين وترسيخ إِيمانهم، ساهراً ليلَ نهار على تثبيت تلك الجماعة الفتيّة، التي اختار لها ومنها شيوخاً وكهنة، وأَوعز إِلى لوقا بالمكوث بين ظهرانيها كي يكمل تنظيمها، ويوافيه بأَخبارها.

لم يغرب، قطّ، عن بال بولس، ما قاساه في فيليبي، غير أَنّ تلك المقاساة لم تخلّف في نفسه أَيّة مرارة، فالآلام شرط ملازم للرسالة، ومثلما يزداد حبّ أُمٍّ لابنٍ تحمّلت في سبيله الأَوجاع، باتت جماعة فيليبي أَثيرة على قلبه، وظلّ يبادلها محبّة أُمّ لابنها.

بعد أُسبوع شيّع موكب رومانيّ مهيب بولس وسيلا وتيموثيوس مسافة ميل خارج المدينة، ثمّ واصل الرسل مسيرتهما صوب أمفيبوليس، فتيسّالونيكي.

كانت المسيرة طويلة وشاقّة فآثار العصيّ ما زالت تلسع جسدَيْ بولس وسيلا المُعنّيين، وما انفكّت قسوة المقطرة تشعّ في أرجلهما آلاماً مضنية، فيضطرّان إلى التوقّف بين فينة وفينة، التماساً للراحة، ولكي يتيحا لتيموثيوس طلي ظهريهما بمرهم أعدّه لوقا لهذه الغاية.في اليومين الأوّلين ساروا عبر طريق جبليّة مصعّدة، وفي اليوم الثالث انحدروا إلى سهل فسيح، يحتضن شبه جزيرة أمفيبوليس التي تحيق بها الجبال، ويمتدّ بحر إيجه على مسافة ساعة مسير منها.

قضى الرسل ليلتهم في تلك الجزيرة، وفي الغداة تفقّدوها، فإذا بها من الصِّغر بحيث لا تصلح لتكون مركزاً رسوليّاً، فقد كان بولس يؤثر دائماً المدن الكبرى التي يمكن الإشعاع منها على المدن الصغيرة، والقرى المجاورة؛ وتطلّعت أبصاره إلى تيسّالونيكي.

وواصلوا المسير يومين آخرين، تارة عبر غابات كثيفة، وتارةً أُخرى عبر حقولٍ نضرة، حتّى انتهوا إلى أبولّونية التي كان نتوء صخريّ يفصلها عن جبل آثوس الذي أمسى، فيما بعد، قلعةً نسكيّة.واحتاجوا إلى مسيرة يومين آخرين كي يبلغوا خليج تيسّالونيكي الشرقيّ، حيث تأمّلوا امتداد البحر، وفي البعيد، قمم الأولمب المتوّجة بالثلوج، والتي كانت تداعبها الشمس المائلة إلى المغيب بأشعّتها العسجديّة.وقال بولس لرفيقيه : " في هذه القمم يبحث الإغريقيّون عن آلهتهم، فلنمضِ ولنعلن لهم الآب السماويّ، ولنقلْ لهم إنّ هذه القمم ليست سوى موطئ لقدميه".

كانت تيسّالونيكي عاصمة مقدونية، وأكثف مدنها سكّاناً، وفيها للمرّة الأُولى، وطئ الرسل أرض مدينةٍ أوروبيّة كبيرة.كان قد أسّسها عام 315 كساندر ملك مقدونية، الذي احتلّ بلاد اليونان بأكملها، وأطلق عليها اسم زوجته، شقيقة الإسكندر الكبير.وكانت قد أمست تلك المدينة المتأرجحة بين تخوم الشرق والغرب، عندما هبطها بولس، جزءاً من الأمبراطوريّة الرومانيّة، وكانت تمرّ بعهدٍ من الازدهار التجاريّ الفريد؛ فمرفأها، وهو الأهمّ على شواطئ بحر إيجه، يغصّ أبداً بالتجّار، وبالبضائع الواردة والصادرة، وبالسفن القادمة والمغادرة بالسلع والأخبار، من مختلف البلدان وإليها؛ في حين كانت ينابيع مياهها الحارّة، ومسارحها وملاعبها، ومواصلاتها البحريّة تجتذب السائحين، والجنود، والشعراء، والموظّفين المتنافسين على الظفر بوظيفة فيها.وفضلاً عن ذلك، كانت تيسّالونيكي مرتطبة، برّاً، بروما، وبيزنطية، وآسية.

و سرعان ما توسّم بولس في تيسّالونيكي الحقل المناسب لزرع كلمة البشارة، فالكرازة فيها كفيلة بالانتشار السريع إِلى كلّ جنبات حوض المتوسّط.وفي الواقع، ما كادت تنصرم سنة على مجيئه حتّى كتب من كورنثس إِلى التسّالونيكيّين : " من عندكم قد ذاعت كلمة الربّ، لا في مقدونية وآخائية فحسب، بل انتشر خبر إِيمانكم باللّه، في جميع الأَماكن".

لم تكن سمعة التسّالونيكيّين عطرة، فتجّارها بعيدون عن الاستقامة، وجنّاحون إِلى النيل من الغير؛ وفئة عريضة من شعبها من البطّالين المتسكّعين، المهتمّين بشؤون الآخرين أَكثر من اهتمامهم بشؤونهم الخاصّة، العائشين عالة على سواهم؛ لا يقيمون لعهد الزواج شاناً، وينساقون وراء أَهوائهم، ويختلفون إِلى مراتع الدعارة.ولطالما حذّر بولس المؤمنين التسّالونيكيّين من مخاطر تلك الميول والعادات الوبيلة.

و كانت المدينة تضجّ بنشاط عارم، وحركة لا تفتر، وتغصّ بالأَجانب من كلّ شعبٍ ومصر : مقدونيّين، وإِغريقيّين، وآسيويّين، وسوريّين، ومصريّين، ويهود، وموظّفين وجنود رومانيّين.وكانت، فيها، صناعات مزدهرة، مثل حياكة البسط والخيام؛ وكانت أَسواقها مزدحمة بالسلع الجميلة، كالأَقمشة الشرقيّة الفاخرة، والجلود الرفيعة الجودة.

و كان الرسل قد جاؤوا بتوصية من الإِخوة الفيليبيّين، إِلى هيلّينيّ يهوديّ يدعى ياسون، يعمل في حياكة الخيام؛ وعنده لقيَ، بولس ورفيقاه الوفادة الحسنة، والمأوى، والعمل الذي كانوا يكسبون به عيشهم، ممّا أَتاح لبولس أَن يكتب، فيما بعد، إِلى التسّالونيكيّين : "إِنّكم تذكرون، أَيّها الإِخوة، تعبنا وكدّنا، إِذ كنّا نبشّر بالإِنجيل، ونحن نعمل ليل نهار لئلاّ نثقّل على أحدٍ منكم.... "

و كان لليهود، في تيسّالونيكي، جالية كبيرة مزدهرة، لها مجمع مهيب يموّله التجّار والصيارفة، وقد غدا ملتقى يهود مقدونية، وقصده بولس ورفاقه، منذ وصولهم إِلى المدينة، فوجدوا، ثمّة، جمهوراً مختلطاً، فإِلى جانب اليهود الأَصليّين، كان هناك وثنيّون متهوّدون، و"متّقو اللّه "، وعدد من السيّدات الشريفات.واستُقبل بولس بكثير من الاحترام لكونه من علماء الكتاب، وقادماً من أورشليم، فعكف مدى ثلاثة سبوت متعاقبة، على تفسير الفصل الثالث والخمسين من نبوءة أَشعيا القائلة :

"... رجلُ أوجاع، وعارف بالأَلم،
و مثل من يُستَر عنه الوجه.
لقد حمل آلامنا، واحتمل أوجاعنا
فحسبناه مصاباً، مضروباً من اللّه، ومذلّلاً؛
طُعن بسبب معاصينا، وسُحق بسبب آثامنا،

نزل به العقاب من أَجل سلامنا، وبجرحه شُفينا،
عومل بقسوة فتواضع، ولم يفتح فاه،
كحمل سيق إِلى الذبح،
كنعجةٍ صامتة أَمام الذين يجزّونها... "

و استفاض بولس في بيان أَنّ هذا الرجل الذي تكلّم عنه النبيّ، هو، هو، يسوع الناصريّ الذي صلبه اليهود، وأَقامه اللّه، وقد جاء بولس ورفاقه كي يبشّروا برسالة خلاصه.

و لاقى كلام الرسول قبولاً من يونانيّين متعبّدين كثيرين، وعدد غير قليل من السيّدات الشريفات، وبعض اليهود الذين أَنار الربّ قلوبهم، أَمّا اليهود المتزمّتون، فما انفكّ الصليب لهم حجر عثرة، وقد وصفوا كلام بولس بالفضيحة، وبالقحة، فكيف يتجاسر على التبشير بمسيحٍ محتقَر، مذلّ، معذّب، وهم ينتظرون مسيحاً فاتحاً منتصراً لا يُقهر، يعيد لإِسرائيل أمجادها الغابرة، ويثب من انتصار إِلى انتصار، مؤمّناً لشعبه المختار الهيمنة على الدنيا.ولحظ بولس الغيظ الآخذ بالجيشان في قلوب اليهود، فانقطع عن المجمع، ودأب على تثبيت من آمنوا، في بيت ياسون الذي انقلب مدرسة ومنبراً، وفي مختلف البيوت والحوانيت، وفي كلّ مكان: في حُجَر العبيد الزريّة، ودارات الأَغنياء، وحتّى في ردهات النسوة الشريفات؛ وغدت كرازة الرسل، كرازة شخصيّة، من إِنسان لإِنسان، ومن بيت لبيت، وغدا بولس ورفيقاه يذرعون الأَحياء والضواحي، مهتمّين بكلّ فردٍ شخصيّاً، مصغين إِلى تساؤلاته ومصاعبه، ونجواه.وكان بولس، بحدْسه الثاقب، يلج في سريرة محدّثه، موظّفاً عذوبته الساحرة، وكلّ طاقات إِقناعه التي تتعذّر مقاومتها، ومستنبطاً الكلمة الطيّبة الملائمة لكلٍّ منهم، وحاثّاً الجميع على انتهاج سيرة جديرة بالربّ.

لم يكن بولس رسولاً فاتحاً فحسب، بل كان راعي نفوس، يحسن تثبيت ما اكتسبه للربّ، وحفظه، غير باحثٍ عن النجاحات الباهرة.إِنّه، بصفته رسولاً، يشبّه نفسه ببنّاء حكيم، وبصفته راعياً، بأَبٍ يسهر على بنيه، ويقودهم على دروب الخير، مستخدماً الطيبة والصرامة، وبأمٍّ يتعاظم حبّها لمن سبّبوا لها المزيد من الأوجاع.

و أَيّة مدرسة رائعة كان بولس للشابّ تيموثيوس، الذي تسنّى له التوغّل في فهم فكر معلّمه العظيم، وأُسلوبه الفذّ !

و سرعان ما غدت كنيسة تيسّالونيكي تنافس كنيسة فيليبي في اضطرام الإِيمان، إِذ انضمّ الوثنيّون، آلافاً، إِلى دين يسوع، وقد رأوا في الآلام التي ارتضى الإِله المتجسّد تحمّلها ثمناً غالياً وسامياً للخلاص، وفي المساواة التي أعلنها بين البشر أَجمعين، يهود وسواهم، تمجيداً للكرامة الإِنسانيّة.

و كانت مواكبة بولس للمؤمنين الجُدد عملاً مرهقاً، بلا ريب، فعقب ساعات من الكدّ المتعب خلف نوله، كان ينهض متورّم اليدين، موجع الركبتين، ويمضي ليعلّم عدداً من الموعوظين الذين ينتظرونه في حانوتٍ قريب؛ ثمّ يشخص إِلى منزلٍ، حيث أُسرة بأَكملها تتأهّب للعماد؛ ثمّ يزور سيّدة نبيلة تودّ استيضاح بعض عناصر الإِيمان، وفيما هو خارج، يعترضه عبيدها، ويستوضحون هل سيكتب لهم، أَيضاً، الخلاص.وعندما يعود منهكاً، وقد تصرّم من الليل معظمه، غالباً ما يجد يهوديّاً ينتظره كي يناقشه في بعض نصوص الكتاب، فيستفيض في التحدّث إِليه على ضوء مصباح نائس، كما تحدّث يسوع مع نيقوديمس، ذات ليلة.وأَخيراً، قبل أَن يلقي جسده المهدود على الحصيرة، يستوضح سيلاً وتيموثيوس هل هما زارا المرضى الذين استدعوهما، وعقدا أَلوية المصالحة بين موعوظين متخاصمين، وأوضحا لجماعة العبيد المتأهّبين للعماد أَنّ عليهم، بعد أَن يعتنقوا الإِيمان بيسوع، انتباذ الكذب، والزنى، والعادات السيّئة القديمة التي يجري عليها من يجهلون اللّه.

فيما بعد، عندما جالت بذاكرته تلك الأَيّام الحافلة بالجهد، والكدّ، والحصاد، وصف نفسه بالأُمّ الرؤوم التي تسهر بعناية وحنان على أولادها الكثُر.ولا ريب أَنّ الربّ أَيّد مساعي الرسل بالمواهب والكرامات والمعجزات، فانتشرت المسيحيّة في تلك الديار انتشاراً كاسحاً وراسخاً.وقد شهد بولس للتسّالونيكيّين، إِذ إِنّهم عانوا كثيراً، غير أَنّهم قبلوا كلام اللّه بفرحٍ نابع من الروح القدس، وباتوا قدوة للمسيحيّين في مقدونية وآخائية.

و تنامت إِلى ليديا وجماعة فيليبي أنباء معاناة الرسل في تيسّالونيكي فأسعفوهم بإِعانات سخيّة، وهبّ عددٌ من المهتدين الجُدد الميسورين مادّين أَيادي العون لبولس ورفيقيه، فاستطاعوا التفرّغ للكرازة، وتضاعفت أَعداد المؤمنين، وعصفت الغيرة بنفوس اليهود، الذين رأوا مجمعهم يُقفر إِلاّ من حفنةٍ منهم، فراحوا، جرياً على عادتهم، يحيكون لرسُل يسوع المكائد.وبالمال اليهوديّ اشتروا فئة من المتسكّعين، و"جمعوا من الرعاع رجالاً أَشراراً هيّجوا الناس وأَثاروا الشغَب". ونظّموا تظاهرة صاخبة، اخترقت شوارع المدينة، على وقع هتاف : " مؤامرة، خيانة، الموت لبولس ! ". ثمّ حاصروا بيت ياسون حيث كان يقيم بولس ورفيقاه، ولكنّ أَنصار الرسل كانوا، في تلك الأَثناء قد أَخفوهم في مأمن حريز؛ وإِذ لم يجدوهم جرّوا ياسون وبعضاً من الإِخوة إِلى حكّام المدينة وهم يجأرون، ويشتمون ويتوعّدون.

كان قد أَمر الإِمبراطور كلوديوس بطرد اليهود من روما، وكان يهود تيسّالونيكي يعيشون في هاجس أمرٍ مماثل، يضطرهم إِلى هجر هذه المدينة أَيضاً، فسعوا إِلى خطب ودّ الرومانيّين، وتحويل حنقهم على بولس والمسيحيّين الجُدد، فلفّقوا لهم تهمة مخالفة أوامر قيصر، ومناداتهم بملكٍ آخر اسمه يسوع، مذكّرين بالقانون الرومانيّ الذي كان يحظر أَيّ دين

سوى دين الرومانيّين، والذي ينصّ : " لا يكُنْ لأَحد آلهة تخصّه، لا آلهة جديدة، ولا آلهة غريبة، إلاّ من تقبل بهم الدولة".كانت تهمة ذكيّة، ولكن أَليس من الغرابة بمكان أَن يكون الحقد الأسود قد دفع أَتباع يهوه أنفسهم إِلى تذكير الحكّام الرومانيّين بأَنّه لا يحقّ، في مدينة رومانيّة، عبادة آلهة غير آلهة روما، ومن هذه الآلهة الأمبراطور نفسه الذي أَعلن نفسه " إِلهيّاً " ؟

و لكن لم يعسر على ياسون دحض تلك التهمة، وإِثبات بطلانها، فبولس ورفاقه لم يزعموا، يوماً، بأَنّ يسوع سيحلّ محلّ الإِمبراطور، إِذ ليس لدين يسوع أَيّ شأن بأمور الدنيا وحكمها، وأَثبت حكّام تيسّالونيكي أَنّهم أَكثر حنكة وأَعمق تبصّراً من حكّام فيليبي، وعندما رأوا الاتّهامات تصدر عن رعاع مهتاج، وشاهدوا زعماء اليهود يقودونهم ويحرّكونهم، أدركوا مصدر الشغَب ودوافعه.وكانوا موقنين أَنّ الدين الذي يدعو إِليه بولس ورفاقه روحيٌّ صرف، لا يمثّل أَيّ خطر على الحكم، ولطالما عهدوا في مضيفه، ياسون، رجلاً مسالماً، مخلصاً للقيصر.غير أَنّهم حسماً للشغَب، أوعزوا إِلى ياسون بإِخراج بولس ورفاقه من المدينة، وطالبوه بكفالة ضماناً لتنفيذ هذا الأَمر.

في تلك الليلة عقد بولس الاجتماع الأَخير مع الإِخوة، وزوّدهم بتوجيهاته، وشكر لياسون كلّ ما برهن عنه من مودّة وتعاون، وودّع الجميع، وفي قلبه غصّة لاضطراره إِلى الانفصال عن تلك الجماعة التي كانت قد احتلّت من نفسه منزلة أَثيرة.وكانت تراوده الهواجس لما قد يتعرَّض له الإِخوة الجُدد، وياسون، من اضطهاد وافتئات.

ارتأى الإِخوة ترحيل بولس ورفيقيه منذ فجر اليوم التالي إِلى بيرية، وكان الرسول يمنّي نفسه بالعودة إِليهم سريعاً، ولكن ثماني سنوات مرّت قبل تمكّنه من العودة، وعندما عاد، لم يعهد للراحة طعماً، بل كان مضطرّاً إِلى الفرار، بلا هوادة، من بيتٍ إِلى بيت، هرباً من حبائل اليهود وحقدهم.وقد استشفّ بولس في هذا الرحيل المباغت الذي طالما فُرِض عليه مثله، إِشارة رضى الربّ ومباركته له.ولا غروَ أَنّ الاضطهادات المتواصلة قد صاغت وحدة الجماعة، وشحذت غيرتها على دينها، كما يتّضح من رسالة بولس الثانية إِلى التيسّالونيكيّين، حيث قال : " علينا أَن نشكر اللّه دائماً في أَمركم، أَيّها الإِخوة.وهذا حقّ لأَنّ إِيمانكم ينمو نموّاً شديداً، ومحبّة كلٍّ منكم، جميعاً، للآخرين، تزداد بينكم، حتّى بتنا نحن أَنفسنا نفتحر بكم في كنائس اللّه، لما أَنتم عليه من الثبات في الإِيمان في جميع ما تحتملون من الاضطهادات والشدائد... إِنّ إِيمانكم شدّد عزائمنا، في كلّ ما نعانيه، أَيّها الإِخوة، من ضيقٍ وشدّة، بل نحن، الآن، نحيا، ما دمتم ثابتين في الربّ ".

و من تسّالونيكي اختار بولس بعض من سيمسون رفاق أَسفاره ورسالته، ومنهم أرسترخُس وسكندُس.

لقد نبتت كنائس مقدونية وسط المصاعب والاضطهادات، وربّما لهذا السبب، احتلّت، من قلب بولس مكانة فريدة، ولابدعَ إِن هو كتب للفيليبيّين والتيسّالونيكيّين رسائل تنطوي على صفحات من أَروع ما كتب، مع أَنّ هذه الجماعات أَسفرت عن مواطن ضعف عديدة، فبسبب أُصولها الوثنيّة احتفظت بنزعات إِلى الفسق والعنف، طالما ندّد بها والدها الروحيّ بحزم، وبسبب أُصولها الإِغريقيّة تردّدت في قبول جميع عواقب قيامة يسوع.ومع ذلك كانت جماعات متّقدةً غيرة، وفيّة، مطيعة.تلك الكنائس الأوروبيّة الأُولى، كانت نواة المسيحيّين الأَوّلين الذين ما انفكّوا معجونين بدقيق الوثنيّة، إِلاّ أَنّهم مفعمون حبّاً واندفاعاً، كما كان يشتهي قلب بولس.

بيرية

تحت جنح الظلام بارح بولس ورفيقاه تيسّالونيكي، وساروا بمحاذاة الخليج مستتيرين بأضواء السفن الراسية؛ وفي الغداة، عقب مسيرة امتدّت اثنتي عشرة ساعة، انتهوا إلى مدينة بيرية الصغيرة الرابضة تحت تلّة مطلّة على سهل تكسوه الكروم وبساتين الزيتون، التي تمخرها سواقٍ عديدة، وترويها الينابيع الكثيرة.وكان أهلها، ومعظمهم من الفلاّحين، وعمّال مناجم الرخام، والرعاة، يسوقون حياة وادعة، غير حافلين بما يجري في العالم، وبما تتداوله ألسن جيرانهم التسّالونيكيّين من قصص وروايات.

كان بولس ينتظر سكون العاصفة في تسّالونيكي، كي يعود إلى أصدقائه فيها، غير أنّ حملات اليهود المسعورة حالت، مرّةً إثر مرّة، دون تحقيق حلمه هذا.فاغتنم تلك السانحة لتأسيس جماعة صغيرة في بيرية، حيث كانت تقطن جالية يهوديّة صغيرة، أنبل طويّةً، وأقلّ تعصّباً من يهود تسّالونيكي، ففتحت أبواب مجمعها أمامه، وأصغت إليه باندفاع، وصدق.وقد أقبل أولئك القوم على مطالعة الكتب المقدّسة بنزاهة وإمعان، للتثبّت من أنّ المسيح الموعود، ليس مسيحاً عرقيّاً، محارباً، كما بيّن لهم بولس.وقد آتت تلك النوايا الطيّبة ثماراً يانعة، إذ آمن، أوّلاً، اليهود المثقّفون، واجتذبوا معهم الجماعة اليهوديّة بأكملها، فضلاً عن اعتناق عدد من اليونانيّين الوثنيّين الإيمان بيسوع، بحيث كانت كنيسة بيرية هي الوحيدة في مقدونية التي تضمّ في أحضانها أغلبيّة من أصلٍ يهوديّ.

بيد أنّ الفرح والسلام اللّذين نعم بهما في بيرية كانا قصيري الأمد؛ إذ تنامت أنباء اهتداء يهود بيرية إلى أسماع اليهود المتزمّتين في تسّالونيكي، فأنفذوا، في إثره، شراذم من الكلاب النابحة والعملة الأشرار، ولكنّ هؤلاء اصطدموا بقناعة أهل بيرية بأنّ بولس قدّيس ومن أولياء اللّه؛ فراحوا يغدقون الرشاوى على الرعاع كي يثيروا القلاقل.واتّضح للبيريّين كم كان حقد يهود تسّالونيكي سامّاً، وتوجّسوا خشية من أن يُصاب منه بولس بسوء، وحرصوا على إبعاده عن منال أذاهم.وتوافقت رغبة مسيحيّي بيرية مع رغبة بولس بهجر مقدونية والنأي عن حنق اليهود الذي كان يطارده أينما اتّجه.وأبحر الرسول شطر بلاد الإغريق، مخلّفاً في بيرية جزءاً من قلبه، إذ ترك فيها سيلا وتيموثيوس، كي يرسّخا البنيان الذي شرع بإشادته، فيكملا التعليم، ويحكما التنظيم.

شيّع بولس عشرة من الإخوة البيريّين إلى المرفأ؛ ولكن، عندما همّ بالإبحار، اجتاحته نوبة ملاريا جديدة ألقته طريح الفراش، فمكث معه إثنان منهم، وواكباه إلى أثينا للعناية به.ويبدو أنّ نسيم البحر المنعش، وما أشاعته الرحلة البحريّة من سكون، بعد سنوات من

العواصف التي لم يسكت لها دويّ، قد أَسهما في شفائه، فبلغ أَثينا معافى، وودّع رفيقيه شاكراً متأثّراً، وأوصاهما باستعجال التحاق سيلا وتيموثيوس به.

1- بولس وحيداً في أثينا

كانت معظم السفن المسافرة بين مقدونية وأثينا، مراكب شحن للبضائع تتوقّف في كلّ مرفأ صغير أو كبير، فتفرّغ سلعاً، وتحمّل أُخرى، وبالتالي كانت تسلك سبلاً متعرّجة.ولا ريب أنّ السفر مدى أربعة أيّام، فوق عباب بحر إيجه، كان كفيلاً بتهدئة أعصاب بولس المكدودة، وإخماد أحزانه وهمومه، ولو قليلاً، وكان انبلاج الفجر النديّ، الصامت، الطاهر، فوق البحر المتمادي يشيع في نفسه الجريحة السكون والعزاء.وما لبثت أن تجلّت، في الأُفق، قمم الأولمب، مقرّ آلهة اليونانيّين، وعبثاً حاول رفاق سفره إشراكه في التغنّي بأساطير زوس وسائر الآلهة، فقد بات يزدري تلك الترّهات، وما تنطوي عليه من مخازٍ، وغدت قمّةٌ واحدةٌ تستهوي فؤاده : قمّة جبل الزيتون التي منها انطلق المسيح المنتصر على الموت إلى السماء.

أرست السفينة التي كانت تقلّ بولس في مرفأ البيريه الذي يفصله عن مدينة أثينا نحو خمسة عشر كيلومتراً، وانبثق من خلال سجف الغمام هيكلا بوزييدون، إله البحر، وأثيني، ربّة المدينة، مرحّبين بالقادمين.وسار الرسول صوب مدينة الفنّ، والفلسفة، والحضارة، عبر طريق ساحليّ انتثرت على جنباته المعابد، والدارات الأنيقة، وآيات الفنّ المعماري، وحقول الزيتون التي تداعب خضارَها الفضّيّ شمسٌ دافئة، تختال في سماء زرقاء صافية، ساكبة، مثل ساقية من ذهب، أشعّتها المتوهّجة على مياه البحر المتموّجة.بيد أنّ مفاتن الطبيعة هذه، كلّها، لم تفلح في استلفات اهتمام الرسول، الذي ما كان يشغله سوى البشر، ومن البشر نفوسهم التي تأنّس يسوع لكي يخلّصها.كلّ جغرافيّته كانت مقصورة المسافات بين كنيسة أنشأها، وأُخرى يتعيّن إنشاؤها.

لا جَرَم أنّ بولس اهتزّ تأثّراً، وهو ينساب في جوّ مدينة حكماء الإغريق الذين تطلّعوا إلى إنسانيّة نبيلة وجميلة، مرهفة ومستقيمة، حريصة على الكرامة البشريّة.ولكنّ أثينا التي كان بولس يدوس، آنذاك، أرضها، ما عادت سوى ظلٍّ لذاتها، بعد خمسة قرون من الانحطاط، والهزائم، وحروب الآخرين على أرضها.وكانت منذ نحو قرنين قد أمست إقليماً رومانيّاً، وعهدت شيئاً من السلام، ولكنّه سلام جاء متأخّراً، بعد جمٍّ من المآسي، والدمار، والدماء المسفوكة.كانت أثينا قد فقدت الكثير من تألّقها، ولكنّها ما برحت على قدرٍ من الجمال، إلاّ أنّه جمال في حالة أفول، جمال الأوابد والمتاحف.وكانت تذرع شوارعها زُرافات من العاطلين عن العمل، المتغطرسين، الدائبين على التظاهر، وعلى تلقّف كلّ نبأ غريب.كان لا

يزال فيها كثيرون من المعلّمين ومريدي العلم، ومن المراهقين الذين يقرنون نَهَم المتعة، إلى الرغبة في التعلّم، وفي اقتناص أكثر الأفكار إغراقاً في الجنون، وأشدّ النظريّات إيغالاً في الغرابة.

حياة الأثينيّين كانت تندرج في الأماكن العامّة، وكانت "الأغورا " أي ساحة السوق، هي عصب تلك الأماكن، وميدان لكلّ صنوف الأنشطة، من بيع وشراء، وسياسة، وعبادة آلهة.فههنا خطيب يحدّث الشعب، وهناك مؤرّخ يقلّد شخصيّة شهيرة.في أحد الأروقة تحلّق الرواقيّون يتعمّقون في تعاليم زينون، وفي قبالتهم دأب الإبيقوريّون على بسط نظريّات معلّمهم.وفي مكان آخر غرباء قادمون من بلدان نائية، متّشحون بأزياء غريبة، يشيدون بقدرات إله شرقيّ مجهول، وجدوى بعض الطقوس، والطاقات الشفائيّة الكامنة في بعض الأحجار والأعشاب.

كان الأثينيّون ينفقون من الوقت في " الأغورا " أكثر ممّا ينفقون في بيوتهم؛ معظمهم بطّالون، ثرثارون، ساخرون، فضوليّون، يودّون أن يروا ويعرفوا كلّ شيء.ينتقلون تلقائيّاً من التفرّج على بهلوان إلى الاستماع لفيلسوف أفلاطونيّ يدلي بخواطر عن الخلود؛ ينقضّون بأسئلتهم على تاجر قادم حديثاً من الهند، وعلى بعد خطوات يتلقّفون بشغف تنبّوءات عرّافة مصريّة، تكشف أسرار المستقبل، وتشرح قدرات شراب عشق تحتكر إعداده.وقد أوجز لوقا هذا الوضع بقوله : "كان الأثينيّون جميعاً، والمقيمون بين ظهرانيهم من الأجانب، يصرفون أوقات فراغهم كلّها في أن يقولوا أو يسمعوا شيئاً جديداً "

و راح بولس يذرع شوارع أثينا، بغية الاطّلاع على عقليّة سكّانها، وعاداتهم، وتقاليدهم، واستكشاف آفاق الرسالة.وقد رانت عليه وطأة وحدته وسط ذلك العالم الزاخر بتماثيل من المرمر والحجر النادر، حيث تتعب العين من تقرّي مفاتن الفنّ، وتُصدَم النفس حيال شواهد باردة على حضارة وثنيّة منهارة، ومدنيّة فقدت روحها، وسط مزيج من غنى فكريّ، وإملاقٍ روحيّ؛ تطلّعات فنّيّة متوثّبة، وماديّة جامحة؛ وأخذته الشفقة بشعبٍ تردّت حاجات الروح السامية فيه إلى مستوى متعةٍ فنيّة صرف.

و من أولى ردّات فعله ما عبّر عنه لوقا بقوله : " اغتاظت روحه لرؤية المدينة تغصّ بالأصنام ".إنّها في كلّ مكان، في الهياكل، والساحات، والشوارع، والأحياء، والأزقّة، والبيوت، بحيث قال أحدهم ساخراً : " إنّه لأيسر العثور في مدينتنا على آلهة، من العثور على بشر ".

كان بولس قد شاهد العديد من المدن الجميلة، ولكنّه لم يشهد في أيّ مكان، مثل هذا البذخ في الفنّ والنحت؛ ومع ذلك انتابه شعور مرهق بالوحدة في رحاب تلك الصحراء من

التماثيل المرمريّة الباردة الخاوية من الروح، وهو تائهٌ وسط تلك الأُبّهة الوثنيّة التي فقدت عظمتها.وزاد من وطأة شعوره بالوحدة، غياب رفيقيه الغاليين تيموثيوس وسيلا، وتوقه إِلى الإِخوة التسّالونيكيّين الأعزّاء الذين باح لهم، فيما بعد : " كنت وحيداً في أثينا ".

و لا ريب أنّ بولس تسلّق بمشقّة تلّة الأكربول التي كانت، يوماً، مقرّاً للملوك الأوائل، ثمّ خُصّصت للآلهة، وقد جثم على قـمّتها هيكل الإلاهة "بالاّس أثيني"، الذي يحتضن تمثالها الرائع المنحوت من ذهب وعاج.تلك الإلاهة كانت تمثّل عذارء إِلهيّة تجسّد الحكمة، وتسمو فوق الغرائز السفلى التي كانت أفروديت، وبانديموس وديونيُسس تجسيداً لها.وقد توسّم فيها بولس مدخلاً إِلى دعوة ذلك الشعب إِلى المسيحيّة؛ فالشعب اليونانيّ، عبر فنّانيه المرهفين، وفلاسفته، صوّر زعيم آلهته، زوس، آية في الجمال تنطق بالحكمة والقوّة والرقّة والعطف، فيما أبصاره تسرح في مجهولٍ سرّيّ، وكانوا يستشفّون، من خلال كمال الشكل وتناغم النفس والجسد، الرمز الأسمى للألوهة.ولم يخفَ على بولس ما يحدوهم من تلمّس اللّه بتوق، تجلّى عبر شعرائهم ومفكّريهم.

و عندما انحدر من الأكروبول مرّ بولس بسجن سقراط، أنبل اليونانيّين، الذي عُدّ، في زمانه، أحكم الناس، لأنّه اعترف بمحدوديّة معرفته، ولأنّه، طيلة سبعين سنة، ما انفكّ روحه يتطلّع إِلى ذلك الكائن الأسمى، كائن قوامه روح وعطف، وبذلك انضمّ إِلى الكنيسة غير المرئيّة التي تحتضن جميع الباحثين عن الحقيقة، بصدق وأمانة، والذين، بحبّهم للّه، يعثرون عليه.ولطالما أعلن سقراط وفاءَه للكائن الكامل غير المرئيّ، وفخرَه بكونه عبداً له؛ ومات، بجرأة، وسكون، شهيدَ عقيدته، وقُبيل موته ألقى على تلاميذه محاضرة في خلود نفسه.ولا ريب أنّ بين النفوس الكبيرة رباطاً سرّيّاً، وأنّ بين سقراط وبولس وجوه شبه واضحة.

غير أنّ بولس المشبع بعقيدة الإِله الواحد، قد صُدم برؤيته تمثالاً أو هيكلاً لإِله، مع كلّ خطوة يخطوها في أحياء أثينا، ولكأنّ الصبوّ إِلى المطلق لدى ذلك الشعب قد تحوّل إِلى مجرّد نشوة فنيّة، وإِعجاب بجمال الشكل، في حين كان بولس ينشد روحاً فائقاً، وفي كلّ ما كانت تقع عليه عيناه، لم يكن روح.

جرياً على عادته بدأ بولس بالاختلاف إِلى مجمع اليهود، أيّام السبت، بيد أنّ كلامه، ثمّة، لم يلقَ أيّ صدى، ولم يستفزّ أيّ ردّ فعل إِيجابيّ أو سلبيّ، إِذ بات اليهود أنفسهم، في أثينا، غير عابئين بالدين، ولكأنّ عدوى المادّيّة المستشرية قد نشبت بهم.ففزع إِلى الساحات والشوارع.وكان أوّل من حدّثهم أولئك الذين كان يصادفهم كلّ يوم.كانت تساوره الريبة في مدى تقبّلهم لكلامه، ولكن كان لا بدّ من المحاولة؛ وسرعان ما اتّضح له أنّ معظم هؤلاء أشدّ اهتماماً بأنباء تاجر قادمٍ من الهند، أو بترّهات عرّافة مصريّة.فانطلق يناقش الفلاسفة الوثنيّين

مستطلعاً مفاهيمهم الدينيّة، علّه يكتشف، من خلالها، منفذاً إلى التعليم الذي كان آخذاً بنفسه كلّ ماخذ.وكانت تتعاظم خيبته حيال ما يلمسه لديهم من إملاقٍ دينيّ.وذات يوم، وقف مذهولاً، عند زاوية شارع، حيث طالع كتابةً محفورةً على رخامة، فوق مذبح، موجّهة " إلى الإله المجهول "، وكأنّ أولئك القوم، بعد أن ابتدعوا " ميثولوجيا " استوحتها معظم الشعوب الوثنيّة، وعبدوا جميع الآلهة التي اخترعوها، التمسوا نِعمَ إلهٍ فاتتهم معرفته، وتوسّلوا ردّ غضبه وسخطه، فأقاموا له ذلك الهيكل.وأخذت بولس الرأفة بأولئك الذين لم يجدوا، لدى مجمع أَربابهم، ما ينقع غليل تطلّعاتهم العلويّة، فاستنجدوا بآلهة مجهولين، وعبدوا، على غير وعيٍ منهم، سرّاً فائقاً.هذا الاكتشاف أنعش آمال بولس بالتبشير بيسوع – ذلك الإله الذي ما انفكّ الأثينيّون يجهلونه.

كان فلاسفة الإغريق الأَقدمون قد تخطّوا إيمان العامّة بآلهة متعدّدين، ورأوا فيهم صوراً شعريّة، ورموزاً، ومظاهر متنوّعة لألوهة واحدة.غير أنّ هذه النزعة السليمة كانت قد تراخت، في أَيّام بولس، فاستعاض السفسطائيّون عن الاعتقاد بمصدرٍ إلهيّ لكلّ شيء، إلى الاعتقاد بقدَر عابث، وبقوّة الطبيعة الغاشمة، وما عاد الرواقيّون والإبيقوريّون سوى "نقّاري حبوب "، يموّهون إملاقهم الفكريّ برداء أَفكار يلتقطونها ممّا يسقط من حصاد الآخرين.وقد شقّ على بولس أَن يرى انزلاق الفكر الدينيّ الإغريقيّ إلى مادّيّة سطحيّة تدغدغ الغرائز، وتتلهّى بمظاهر الجمال المادّيّ، وهو الذي، بعد أَن ظهر له الربّ، لم يعد يثير اهتمامه سوى أَمرٍ واحد جوهريّ، متمثّل في رسالة الخلاص التي جاء بها يسوع إلى البشريّة، وما تقتضيه من حياة جديدة.كان يتشوّق إلى تحويل أَنانيّة أولئك القوم إلى عطفٍ ومحبّة، والاستعاضة عن أسطورة " بالاس أَثيني " بحقيقة الكلمة المتجسّد، وحكمة اللّه المتأنّس.كان شعار الإلاهة " بالاس أَثيني " بومة، ذلك الطائر الليليّ الذي لا يطيق نور النهار، ولكأنّه يرمز إلى أنّ الحكمة اليونانيّة لم يكن لديها، إلى الوجود، سوى نظرة معتمة مشوّشة، وهو كان راغباً في أن يريهم وجه اللّه الحقّ، الذي هو نورٌ، ومحبّة، وحياة.

على أَيّة حال كان بولس، بلهجته الغريبة، وبمعطفه الخلِق المنسوج من الوبَر، والذي يبدو فيه وكأَنّه خطيب متجوّل، وبأَقواله المستهجنة، يثير فضول زبائن " الأغورا ".فحدّث تلاميذُ الفلاسفة معلّميهم عن هذا القادم الجديد، وعن فلسفته التي لا يمكن تصنيفها في إطار أَيّ مذهبٍ معروف، وكأنّها خليط من الترّهات الشرقيّة، أو كأنّها دعوة إلى آلهة غريبة، ولا سيّما وأَنّهم قد أَلفوا أَن يقرنوا كلّ إلاه بإلاهة، وعندما سمعوا بولس يتحدّث عن المسيح والقيامة (خريستُس وأناستاسيس) خُيّل إليهم أنّه يبشّر بزوج جديد من الآلهة.فدفعوا به نحو محفل الآريوباغوس الذي كان يُفتي في شؤون الدين والأَخلاق، والتعليم، قائلين: "أوَ يكون لنا

أَن نعرف ما هذا التعليم الجديد الذي تتكلّم به ؟ إِنّك تحمل إِلينا أموراً غريبة، فنودّ، إِذن، أَن نعلم، ما عسى أَن يكون هذا ".

ووقف بولس أَمام جمهور كثيف يضمّ نخبة البلاد الفكريّة، معلّمين وطلاّباً، وقف، لا بصفته متَّهماً، بل بصفته رجلاً حرّاً، وكان من شأن خطابه، آنذاك، جعل سلطة البلاد العليا تقرّر هل هو أَهلٌ للتعليم، أو تمسك عليه هذا الحقّ.

حتّئذٍ كان تبشير بولس يتمّ في تربةٍ مُعدَّة لهذا الغرض، سواءً توجّه إِلى يهود، أو إِلى وثنيّين متهوّدين، ولكنّه، في الآريوباغوس، واجه بيئة غريبة، وجمهوراً وثنيّاً بأَكمله، وكان يبحث عن منفذٍ إِلى عقول أَفراده، يستطيعون، به، تقبّل رسالة يسوع.

عندما كان بولس يتحدّث إِلى اليهود أو المتهوّدين كان يتّكئ على كلام اللّه، وعلى الوحي الإِلهيّ، عبر تاريخ الخلاص.أَمّا أَمام الوثنيّين، فكان مرجعه عمل اللّه في الطبيعة، والشهادة التي يشهدها اللّه لنفسه من خلال الوجدان الفرديّ، والاختبار الشخصيّ الحميم لدى كلّ إِنسان، وعلى التوق الثاوي في كلّ نفس إِلى التواصل مع الألوهة، والرغبة في الخلاص، المنتشرين في الشرق.

كان جمهور بولس، آنذاك، في أَثينا، قد ذهل عن إِرث قمّتيْ الفكر الإِغريقيّ : أَفلاطون وأَرسطو، وكان يتألّف، أساسيّاً، من نزعتين : المدرسة الرواقيّة التي تؤمن بحلوليّة مبهمة، ترى الألوهة في كلّ شيء، وتستسلم للقدَر، وتواجه الحياة بلا مبالاة متعالية، أو بالانتحار.الجانب الوحيد الذي كان بولس يقدّره في هذه المدرسة هو احترام الوجدان الفرديّ، وجعله معياراً داخليّاً، ودليلاً، وحكَماً.

أَمّا المدرسة الأُخرى، فهي مدرسة الإِبيقوريّين المؤمنين بأَنّ العالم هو من صنع الصدفة، وأَنّ الرفاه والمتعة هما غاية حياة البشر، وشعارهم العمليّ : " لا تسعَ إِلاّ إِلى سعادتك الخاصّة، ففسحة عيشك قصيرة، ووقت موتك طويل ".ولم يكن لديهم تطلّع إِلى ما يتخطّى الطبيعة.

و بالإِجمال كان الجمهور الذي خاطبه بولس جمهوراً ساخراً متشكّكاً، فضوليّاً، ميّالاً إِلى النقد والاستهزاء، تحت ستارٍ من التهذيب المصطنع.

أَمّا خطاب بولس فكان تحفة بمقياس فنّ الخطابة الرائج آنذاك، ملائماً للزمان والمكان، مزوّقاً بألوان محلّية، وبالظّرْف اليونانيّ.ذلك النصّ الذي أورده سفر أَعمال الرسل مكثَّفاً، يمكن تبسيطه كالتالي :

لقد بدأ بوصف الأَثـــينيّين أَكثر الناس عبادة، بدليل إِقامتهم مذبحاً للإِله المجهول، وشدّ انتباههم بإِعلانه العزم على تبشيرهم بهذا الإِله الذي يعبدونه وهم يجهلونه.إِنّه، بذلك، أسقط

التهمة التي ألصقوها به كداعية إلى عبادة آلهة غريبة، وحصر اهتمامه في الكشف لهم عن "إله مجهول " يعبدونه، ولا يفقهون عنه شيئاً، هو، دون سواه، الإله الحقيقيّ الذي أبدع العالم وكلّ ما يحتويه، ربّ السماء والأرض؛ ولا يسوغ أن يظلّ مجهولاً فأعماله تشهد له وتخاطب جميع العقول.وكان أفلاطون قد استشفّ سموّه، وتفوّقه على جميع آلهة الأولمب.

إنّكم تسجنون آلهتكم في حدود هياكلكم الضيّقة، في حين أنّ اللّه الحقّ هو سيّد البسيطة كلّها، ويملأ بحضوره الكون كلّه، ولا يمكن حصره في هياكل من صنع البشر، ولا صورة له، لأنّه غير محدود، فيتعيّن إجلاله في معزلٍ عن أيّة صورة أو تمثال له.

إنّكم تحيطون آلهتكم بطائفة من الخدم، وتقدّمون لهم الأطعمة، وتدعونهم إلى تناول ضحاياكم، وتجعلونهم يتنشّقون قتار مآكلكم، وتنعشون قلوبهم بالخمرة الفاخرة، ولكأنّهم يفتقرون إلى خدماتكم وعطاياكم.ولكنّ اللّه الحقّ لا حاجة به إلى أيّ شيءٍ من ذلك، بل نحن نحتاج إلى عطاياه.وهو يهب الجميع الطعام والشراب، والروح، والنَفَس والحياة.

إنّكم تزعمون أنّ الآلهة يعيشون في أماكن عالية عيشة غبطة لامبالية، ولا يأبهون لبشر تعبث بمصائرهم الأقدار.ولكنّ اللّه الحقّ يسعد بعمل يديه، ولا ينبذ، ممّا أبدع، أحداً أو شيئاً.ويسهر على البشر.من رجل واحد، استخرج كلّ الجنس البشريّ، فهو ليس إله شعب واحد، على غرار آلهتكم الذين لا يستلطفون سوى بني قومكم ويزدرون سائر الشعوب ويعدّونها برابرة.ومن ثمّ فالشعوب كلّها أسرة واحدة، لها أب واحد، وتجمع نفوسهم غاية واحدة، وإن فصلت بينهم التخوم، وتعدّدت لغاتهم ومناخات بلدانهم.لقد أودع اللّه في قلب كلّ إنسان قبساً من روحه، وفرض عليه نشدانه.إنّ جميع البشر يبحثون عن اللّه، وأنتم، في هذا البحث متميّزون.فقد بحث عنه شعراؤكم في الأساطير السرّيّة، وبحث عنه فنّانوكم في آيات الجمال الخالدة، وبحث عنه مفكّروكم وفلاسفتكم على جميع دروب الفكر.إنّ حنينكم إلى اللّه رائع، ولكنّكم، في سعيكم، تضربون في متاهات الضلال، في حين أنّ اللّه على مقربة منكم.وقد أعلن أحد شعرائكم " إنّ لنا فيه الحياة، والحركة والوجود ". إنّنا قائمون فيه كفي علّة وجودنا.ولكنّ اللّه مع قربه منّا، عسير المنال؛ فأنتم تعبدون مفاهيم فكريّة، ونتاج مخيّلاتكم، وأفكاراً مجرّدةً، أو مصنوعات تجسّد آلهة، ولكنّكم تجهلون اللّه الحقّ، "صانع الحياة"، الذي أعلن عن ذاته بأعماله الفائقة.

طالما ظلّ بولس في ميدان الفلسفة أصغى إليه الأثينيّون باهتمام، فمثل تلك الأفكار ليست غريبة تماماً عن مفكّريهم؛ ولكنّ كلّ ذلك لم يكن، في نظر بولس سوى مقدّمة لبشارته الجوهريّة، وعندما شرع يعلن عنها، تلاشى السحر، وتنكّر له مستمعوه المنتفخون غروراً.

فقد قال لهم بجرأة : " أَحد شعرائكم صرّح : " إِنّا، نحن، ذريّة اللّه "، فإِن كنّا كذلك لتعيّن علينا أَن لا نحسب الألوهة شبيهة بالذهب أو الفضّة أو الحجر، ممّا يُنقَش بصناعة الإِنسان وفنّه، فهذا التمثيل إِنّما هو لعثمة طفولة العالم، التي تخطّيناها، فقد اندثر عهد التلمّس والتيه، والشكّ، والجهل." يا لِقِحة بولس! أَيجرؤ فيتّهم بالجهل أعرق شعوب الأَرض ثقافة؟ لقد شرع مستمعوه يتململون؛ ولكنّ بولس تابع قوله : "لقد أغضى اللّه عن أَزمنة الجهل، ووضع البشر أَمام خيار حاسم، فإِمّا أَن يقيموا على تلمّسهم وتيههم، أو أَن يعيدوا النظر في وجودهم ويعترفوا بالواقع الإِلهيّ وبالفداء الذي جاء به اللّه المتجسّد، و"يتوبوا لأَنّ اللّه قد حدّد يوماً سيدين فيه المسكونة دينونة عادلة، بالإِنسان الذي عيّنه".

كان الأَثينيون يعرفون شيئاً عن التطهّر، ومحاولة التشبّه بالآلهة من خلال طقوس مثيرة.ولكن أَيّ معنى لما يتشدّق به بولس من توبة وتحوّل في التفكير ودينونة عامّة ؟ كفاه ثرثرة سخيفة ! ولكنّ بولس مضى في تبشيره حتّى آخر الشوط مؤكّداً : " ما أَقوله لكم، أَيّها الأَثينيّون، هو عين الحقيقة، فأَنا بولس، القائم فيما بينكم، قد عاينت هذا الرجل الذي عيّنه اللّه للفداء والدينونة، وقد زلزل جميع كياني؛ لقد اضطهده قومه، وحكموا عليه بالموت الأَليم المهين، مثلما حكم آباؤكم على سقراط، ولكنّ اللّه أَقام الدليل على مصداقيّته، وشهد لرسالته، بإِقامته من بين الأَموات ! "

و ما إِن أَتى بولس على ذكر القيامة حتّى أغرق الحضور بالضحك، ولكأَنّهم يستمعون إِلى مأفون، فاقد العقل، فأيّ معنى لهذا اللغو ! لم يكن للفظة " القيامة " وجود في قاموسهم، أَقلّه بالمعنى الذي قصده بولس، فالإِغريقيّون لم يؤمنوا، قطّ، بقيامة الموتى، وأَيّاً كان مذهبهم الفلسفيّ كانوا يؤمنون بقول شاعرهم : " عندما يرتوي الرغام بدم إِنسان، قضى نحبه، لا قائمة له من بعد ".بعضهم ظنّ أَنّ " قيامة " هي إِلاهة جديدة، وبعضهم استغلق عليهم كلام بولس فلم يفهموا منه شيئاً، وآخرون أَبوا أَن يفهموا، وليس أَسوأ صمماً ممّن يرفض الفهم.كانوا يتوقّعون أَفكاراً مليئة بالحكمة كما يرونها، فإِذا بهم يستمعون إِلى قصَص خرافيّة لا يتقبّلها العقل، مثل قيامة الموتى، ولا تستأهل حتّى المناقشة.بعضهم وصفوا كلامه بالثرثرة وآخرون اتّهموه بالهذيان.

بدهيّ أَنّ بولس لم يستطع مواصلة الكلام، وسط الاستهزاء العامّ، فقطع خطابه قبل أَن يلفظ اسم " يسوع " لئلاّ يجعله مضغةً في أَفواه أولئك السفهاء.وأُحرج رئيس الآريوباغوس، وحسماً للمأزق أعلن : "سنسمع منك مرَّة أُخرى ".وأَيقن بولس أَنّه لن تكون، ثمّة، مرَّة أُخرى، وأَنّه أَخفق في النفاذ إِلى قلوب أولئك القوم السطحيّين، وإِلى عقولهم.

و أيّ درس تلقّنه من إخفاقه هذا ! لقد اكتشف، فجأة، محدوديّة الثقافة الهلّينيّة، وتيقّن أنّ المسيحيّة ليست فلسفة يمكن إثباتها ببراهين عقليّة صرف.

و ربّما أساء بولس استخدام وسائل الإقناع : فقد استهلّ خطابه بوصف الأثينيّين بكونهم أكثر شعوب الأرض تديّناً، بدليل أنّهم أشادوا هيكلاً للإله المجهول، وهو قول لا يتطابق مع الواقع، ممّا وضع مستمعيه، منذ الوهلة الأولى، في موقف التحفّظ والريبة.هذا الاستهلال غير الموفّق ألحقه بولس بالقول أنّ الربّ الخالق لا يسكن في هياكل من صنع البشر، ولا يحتاج إلى من يخدمه، وكأنّه، بذلك، يدمّر كلّ ما يفخر به الأثينيّون.

و أعلن بولس إيذان عهد جديد، عهد الوحي والتوبة، مؤكّداً أنّ اللّه سيدين العالم بيسوع الذي أنهضه من الموت؛ وإذن، فتاريخ العالم ينشطر إلى عهدين، عهد الجهل الذي ولّى، وعهد الارتداد والخلاص الذي استهلّته قيامة يسوع.هذا القول كان تعبيراً قويّاً عن الرسالة المسيحيّة الحقّة، غير أنّ لفظة " القيامة " في نظر اليونانيّين حمقٌ صرف، لم يكن أيّ مفكّر منهم، إلى أيّة مدرسة انتمى، مستعدّاً لقبول مبدئها، فالموت في نظر بعضهم هو اندماج في الكلّ الأكبر، وهو، لآخرين، عودة إلى الذرّات الأولى التي قد تُستخدَم في تكوين وجود جديد.

سرعان ما أدرك بولس أنّ كلامه لم ينفذ إلى قلوب الأثينيّين، لأنّه تجرأ فشكّك تشكيكاً جوهريّاً بالضمانات التي كانت توفّرها الثقافة الإغريقيّة، فعَرض على مستمعيه التماس الحقيقة بعيداً عن المتعات البشريّة، وفي ما وراء تخوم الحياة الأرضيّة؛ وخُيّلت إليه القدرة على التحدّث عن قيامة الموتى لأشخاص لم يتعلّموا، منذ أجيال، سوى مداهنة الأجساد، وتجاسر فأحلّ يسوع محلّ آلهة أساطيرهم المغرقة في المشاعر والنزوات والغرائز البشريّة مثل زوش، وديميتر، وإيروس، وأفروديت، وسواهم.كان يظنّ أنّ الأثينيّين سيسارعون إلى الاستجابة لندائه، وسيديرون ظهورهم لتجسيدات معتقداتهم، وخيالات عشقهم، ورغباتهم وأوهامهم؛ ولكن خاب ظنّه، واتّضح له أنّ ارتيابيّة العالم الإغريقي الرومانيّ لا تتدنّى عن تعصّب اليهوديّة، حؤولاً دون المسيحيّة.ومع ذلك لم تثبط عزيمته، ففي كلّ زاوية من أثينا كان يشهد تماثيل فارغة العيون.ألم يكن لها بصر أم إنّ بصرها منكفئ على داخلها ؟ ألا يثوي في أعماق كلّ كائن بشريّ عطش مقيم إلى المطلق ؟

و منذئذٍ تعلّم بولس ألاّ يعتمد الحكمة البشريّة، في تبشيره بإنجيل يسوع، بل أن يضع اعتماده كلّه على صليب يسوع، وهذا ما أكّده في رسالته الأولى إلى الكورنثيّين، حيث قال : " لأنّ المسيح لم يرسلني لأُعمّد، بل لأُبشّر بالإنجيل، ولكن لا بحكمة الكلام، لئلاً يُبطل صليب المسيح، فإنّ لغة الصليب عند الهالكين حماقة، وأمّا عندنا، نحن المخلّصين، فقدرة اللّه.لأنّه قد

كتب : " سأبيد حكمة الحكماء، وأرذل فهم الفهماء ".فأين الحكيم ؟ أين المثقّف؟ أين محجاج هذا الدهر؟ أوَ لم يُجهِّل اللّه حكمة هذا العالم ؟ فإذ إنّ العالم بحكمته، لم يعرف اللّه في حكمة اللّه، حسُن لدى اللّه أن يخلّص المؤمنين، بحماقة التبشير. وفيما اليهود يسألون آيات، واليونانيّون ينشدون الحكمة، نبشّر، نحن، بمسيحٍ مصلوب، عثرة لليهود، وجهالة للأُمم، أمّا للمدعوّين، يهوداً ويونانيّين، فهو مسيح، قدرة اللّه، وحكمة اللّه، لأنّ ما هو جهالة عند اللّه أحكم من الناس، وما هو ضعف عند اللّه، أقوى من الناس ".

و قد أثبتت حكمة اللّه تفوّقها في أثينا، ولم يكن فشل بولس فيها كاملاً، إذ فيما كان منصرفاً، حزيناً، جريح القلب، لحقت به فئة صغيرة ممّن أنار الإيمان قلوبهم، يذكر منهم لوقا ديونيسيوس الذي كان أحد الأعيان وأحد أعضاء محفل الآريوباغوس، والذي سيمسي قلب الجماعة المسيحيّة في أثينا، وأوّل أسقف عليها، وامرأة تدعى دامريس، وسواهما.بذرة صغيرة، كان نموّها بطيئاً جدّاً بسبب طبيعة الأثينيّين الذين طالما ظلّوا أسرى أمجاد الماضي الغابر، ولكن عاجزين عن إنجاب ذرّيّة خليقة بهذا الماضي : فهم يزدهون بسقراط، ولكن لا يخطر لهم ببال التمثّل بحياته، ويتبجّحون بأفلاطون وأرسطو، ولكنّهم لا يحاولون إدراك فكرهما.إنّهم مقتــنعون بتفوّقهم، فيزدرون الآخرين، ويسعون إلى ردم فراغ حياتهم الحافلة بالبطالة، بنظريّات المتعة.

إنّ سبُل اللّه تستعصي على إدراكنا، فالبذرة الضئيلة التي نمت ببطء في أثينا قد أعطت، مع الأيّام، أوفر حصاد، وفي حين اندثرت الكنائس الأُخرى التي عهدت نشأة سريعة في آسية الصغرى ومقدونية.وفي حين لم يبقَ شاهد على تبشير بولس في تلك الديار، ثبتت كنيسة أثينا وترعرت، وسيعمد أحفاد أحفاد الذين بشّرهم بولس، يوماً، في تلك المدينة، إلى نقش خطابه على لوحة برونزيّة، أثبتوها، عام 1938، في أسفل صخرة الآريوباغوس، عرفاناً بجميل الدين الذي بشّرهم به، والذي أصبح لهم كنزاً ضَمِن بقاء أمّتهم وحضارتهم ولغتهم.

من تجربته الأثينيّة تعلّم بولس أنّ الإيمان ليس نصيب الجميع، فهو يستلزم استعداداً نفسيّاً، وشيئاً من الصدق مع الذات، وصدمة داخليّة.والأثينيّون، عموماً، كانوا مولعين بالتشكيك في كلّ شيء، سطحيّين، مغرورين، ومنذئذٍ بات بولس يزدري حكمة العالم التي تُبعد الإنسان عن خلاصه، وقرّر مقاومتها، أعند مقاومة، ببشارة الصليب.

و هو الذي تكيّف مع غيرة اليهود، واضطهاد الوثنيّين، ضاق ذرعاً بلامبالاة الأثينيّين، فقد كان مثل قبطان يمسك، بيدٍ ثابتة، دفّة سفينة تصارعها الأمواج، ويضجّ حيويّة في مقاومتها، ولكن سرعان ما يسأم بحراً هادئاً أبداً.

و في غمرة فشله همس، في داخله، صوت يشدّ إِزره ويقول : "ما زال أَمامك مشوار طويل، فتشجّع ! " وفي الحال غادر أَثينا إِلى كورنثُس، المشهورة بفساد أَخلاق أَهلها، عسى أَن يلقى صوت المسيح لدى الخطأة استجابة أَكبر من تلك التي لقيها بين المفكّرين المزدهين بأَنفسهم.

كورنثس

بين أَثينا وكورنثس تسعون كيلومتراً يستلزم اجتيازها بالسيّارة، اليوم، أَقلّ من ساعة، وقد اقتضى من بولس أَكثر من ثلاثة أَيّام من السير الحثيث، على امتداد الشاطئ، وبمحاذاة العديد من الجزر العائمة في البحر، وعندما انتهى، أَخيراً، إِلى مضيق كورنثس، وشاهد العبيد يئنّون تحت وقر البضائع، أو يدفعون السفن دفعاً، من ضفّة إِلى ضفّة، أَيقن أَنّ هؤلاء هم الأَحقّ ببشرى التطويبات.ولكن سرعان ما تبيّن أَنّ العبيد ليسوا، فقط، أولئك العاملين في المضيق، بل هم يمثّلون ثلثي سكّان المدينة، وكان القيصر قد جاء بآبائهم لإِعادة بناء المدينة التي كانت، في عام 146، إِثر تمرّد على روما، قد سقطت بيد القائد الرومانيّ مينيموس، الذي أَطلق أَيدي جنوده، فسلبوها وأَضرموا فيها النار.

هذا الدمار دام طويلاً، إِلى أَن أَدرك خَطَرَ شأن موقع كورنثس يوليوس قيصر الذي كان يبحث عن مكان ملائم كي ينشر فيه قدامى قوّاده وجيوشه.فقرّر إِعادة إِعمار المدينة وجعلها مستعمرة رومانيّة أَسكن فيها جنوده المسرّحين، وأَعداداً كبيرة من العبيد والعبيد المحرَّرين من مصر وسوريّة ومن اليهود، وممّن لا وطن لهم.وقد أَغدق بسخاء لإِبراز المدينة الجديدة على أَروع طراز.ودأب سكّانها الجدد على البناء، وعلى المتاجرة بكلّ ما كان يقع بأَيديهم، ولم يتوانوا حتّى عن نبش القبور، وسلبها ممّا قد تحتويه من نفائس.وربّما هذا ما أَشار إِليه بولس، عندما كتب إِلى الكورنثيّين : " ليس فيكم، في نظر البشر، كثير من الحكماء، ولا كثير من المقتدرين، ولا كثير من ذوي الحسب والنسب "

عندما وطئ بولس أَرض كورنثس كانت إِعادة بنائها قد انتهت، على نمط رومانيّ، لا يمتّ بصلة إِلى كورنثس اليونانيّة القديمة.وقد أمست مدينةً كبيرة، تؤوي، مع ضواحيها، نحو نصف مليون نسمة، معظمهم عمّال بناء قادمون من كلّ أُفق، وقد أَصبحوا موضع ازدراء الطبقات الثريّة أو المثقّفة.وقد تميّزت، كورنثس، بموقعها الجغرافيّ المتميّز، وامتلاكها مرفأين، أَحدهما على البحر الأدرياتيكي، هو مرفأ ليكائيون، والآخر على بحر إِيجه وهو مرفأ سنخريّة، جعلا منها مركزاً تجاريّاً هامّاً للتبادل، يُحاكي خليّة نحل تضجّ بالحركة والنشاط، وتنعم بازدهار عارم.وقد تميّزت بصناعة السفن من كلّ الأَحجام، وصناعة الخزف الذي كان يُصدّر إِلى جميع أَنحاء الإِمبراطوريّة، وصناعة النسيج الذي اشتُهر بالذوق الرفيع، وصناعة الأَسلحة والدروع البرونزيّة المنقطعة النظير.وقد ذاعت شهرة نحّاتيها الذين تميّزوا بفنّهم في رسم تيجان العواميد التي ما زالت تُقلَّد حتّى اليوم.وقد أَسّس مواطنوها النشيطون مكاتب، بل مستعمرات تجاريّة، في مختلف المدن الأُخرى.

و إلى جانب ذلك، كانت تحيق بالمدينة أَراضٍ زراعيّة خصبة تنتج بوفرة القمح والفواكه، والخضراوات، والعنب اللذيد، والنبيذ الفاخر.

و كانت كورنثس أيضاً، مرتعاً للحياة الطيّبة والملذّات؛ ففي قمّة هضبة مطلّة على المدينة كان ينتصب معبد أفروديت، ويقوم على خدمته أَكثر من ألف مومس يُقمن في بيوت فارهة ملاصقة للمعبد، ويمارسنَ "الدعارة المقدّسة"، ولهنّ منافسات في معظم أَحياء المدينة.وقد أُطلق على الإِلاهة المشرفة على المدينة من علُ اسم " أفروديت بانديموس "، أي إِلاهة الشعب بأَجمعه.ففي ملحقات المعبد وسواها، كان الأَثرياء، والتجّار، والبحّارون، والغرباء الذين اجتذبتهم إِغراءات كورنثس ينفقون الأَموال الطائلة في سبيل العبّ من فنون الملذّات المرهفة.ولم يكن الفُحش، ثمّة، أَمراً مخجلاً، بل موضع افتخار وزهو، وباتت عبارة "العيش الكورنثيّ " تعني أُسلوب عيش منحلّ، منفلتٍ من كلّ قيد، على غير اكتراث بالعواقب المميتة أَحياناً.

في هذا الجوّ الفاسق تجرّأ بولس، النقيّ القلب، على التبشير بالظهر المسيحيّ، في أعقاب ما مُني به من فشل في أَثينا، فقد كان يخشى كبرياء العقل، أَكثر من وهن الجسد.

و من المعروف أَنّ بولس كان يؤثر المدن الكبرى حيث تُحسَم معارك الفكر، والمُدن المنفتحة على سواها، وكانت كورنثس، في هذا المضمار، سبَّاقة، فهي، في آنٍ واحد، سوق ضخم، وقلعة، وماخور، وهي مدينة جامعة تقرن سمات المدينة الرومانيّة، والمدينة اليونانيّة، والمدينة اليهوديّة.إِنّها بابل حقيقيّة تتجاور فيها جميع الأَجناس والشعوب، بحيث أَيقن الرسول أَنّ من استولى على فكر كورنثس انقادت له بلاد اليونان بأَكملها، وإِذا ما شاعت أَخبار يسوع في مرفأي كورنثس النشيطْين، سرعان ما تنتشر في جميع الجزر المجاورة.وفضلاً عن ذلك، كان سكّان كورنثس متعدّدي الجنسيّات، متحرّرين من الكبرياء الوطنيّة الضيّقة، منفتحين على مختلف تيّارات الفكر.وكان بولس على يقين بأَنّه واجد في تلك المدينة الجديدة أَرضاً طيّبة لإِنماء بذرة الإِنجيل.

مذ عرف بولس يسوع، عرف السعادة، وبات يُنشد التسابيح حتّى في غياهب السجن، إِلاّ أَنّ خيبته الذريعة في أَثينا، وبُعد رفيقيه تيمثاوس وسيلا عنه، أوقعاه في هوّة الانهيار النفسيّ، الذي زاده حدّةً اضطراره إِلى الارتحال المطّرد، ونكسات المرض المتعاقبة، وانقطاعه القسريّ عن العمل، ممّا أَوقعه في فقر مدقع، عرف معه العوزَ والجوع، ناهيك عن الهواجس التي كانت تحاصره بشأن الجماعات الفتيّة في مقدونية التي أُجبر على النأي عنها

قبل أَن يشتدّ عودها.لقد أضحى، ماديّاً ونفسيّاً، في حالة إِفلاس، وإِحباط؛ ولكنّه كان يمتلك يسوع، وفي سبيله صمد، في كورنثس، وحيداً.

و ما لبثت أَن انحلّت أَزمته بالتقائه الزوجين أَكيلا وبريسكيلا، النازحين حديثاً عن روما، واللّذين كانا، مثله، يتعاطيان الحياكة وصناعة الخيام.وقد فتحا له ذراعيهما، وقدّما له، بسخاءٍ ومحبّة، السكن والطعام والعمل.وكانت مفاجأة بولس الكبرى، والتي أسالت في نفسه أَعذب عزاء، أَنّهما كانا قد اعتنقا المسيحيّة في روما، ولذلك طردا منها، بموجب قرار الإِمبراطور كلوديوس، وربّما كانا المسيحيّين الوحيدين في كورنثس.وسرعان ما عقد معهما واحدة من أَغنى الصداقات وأَخصبها، في تاريخ رسالته، فقد واكباه في أَماكن عديدة كان عليه أَن يبشّر فيها، ووضعا بتصرّفه منزلهما، ومحبّتهما، وما ملكت يمناهما، لا بل خاطرا بنفسيهما في سبيل إِنقاذ حياته.كان بولس قد دخل منزلهما مثل إِعصار، في هيئة رجل هزيل، غطّت جسمه النُدوب وآثار التعذيب، كتلة أَعصاب، ولحم وعظام، شبحٌ نهاريّ، ولكنّه، بغتةً يتحوّل إِلى رجل هوىً وثورة، ورؤيا وقلق، ينتفض فجأة، ويتكلّم بحرارة وطلاقة.

كان أكيلا يهوديّاً من منطقة البنطة، وقد هاجر إِلى روما حيث عمل في حياكة أَقمشة الخيام، وهناك اقترن بامرأة رومانيّة تدعى بريسكيلا أو بريسكا.كان على شيءٍ من الثقافة، وعلى الكثير من الكرم وسماحة النّفس.وإِذ كانا، كلاهما، يتحرّقان إِلى الاستزادة من معرفة يسوع، فقد سرّهما استضافة واحد من أَعظم رسله، وكانا يستمتعان بحديثه عنه في كلّ وقت، في أَثناء العمل، وعلى مائدة الطعام، وخاصّة في السهرات الطويلة التي تمتدّ حتّى مطلع الفجر؛ كانا يصغيان إِليه بهوى واندفاع، ولا يملاّن من استيضاح ما استغلق عليهما، وكان هو حريصاً على أَن يجعل منهما مساعدين مؤهّلين لحمل رسالة الخلاص بدورهما.وهكذا بات له، في كورنثس، فضلاً عن تلميذين ومعاونين، صديقان مخلصان، صداقتهما مبنيّة على محبّة مشتركة ليسوع.وقد أَضحى منزلهما مقرّاً للرسول بولس طيلة الثمانية عشر شهراً التي قضاها في كورنثس، ونواة الجماعة المسيحيّة الكورنثيّة، وكنيستها، قبل أَن يشرع المسيحيّون ببناء الكاتدرائيّات المهيبة.فالمسيحيّة وُلدت ولادة متواضعة، ونمت في البساطة، على غير اكتراثٍ بالمظاهر.

و جرياً على عادته كان بولس يكدح طيلة النهار لكيلا يكون عالةً على أَحد، ويحتفظ بحرّيّة التبشير المجّانيّ بالإِنجيل؛ وإِذ كان مشغل أَكيلا مُشرَعاً على سوق البسط، كان بولس، وهو يدفع بمكّوكه، فوق سدى النسيج، وسط الخيوط المغزولة من وبر الماعز، ويدوس النول بقدميه، ويركم على ركبتيه، شيئاً فشيئاً، ما اكتمل من نسيج، يحيك في فكره، خواطر سامية عن اللّه، ويتحدّث إِلى العمّال والزائرين الفضوليّين عن الحبّ الذي يفيض به قلبه، ويحرق

شفتيه.وفي عهدٍ كان الأَقدمون يدمغون بالعار والوضاعة العمل اليدويّ، نهض بولس بهذا العمل إِلى قمّة رفيعة، إِذ إِنّه كان يرى في كلّ إِنسان، أَيّاً كان عمله، هيكلاً للروح.

و كانت التجارة المزدهرة في كورنثس قد اجتذبت إِلى المدينة جالية يهوديّة كبيرة، فبات بولس يختلف إِلى مجمعهم يوم السبت؛ ولكنّه، إِثر إِخفاقه في أَثينا، غدا أَكثر حيطة، يتقصّى التربة بعناية قبل الشروع بالبنيان، فشرع يبيّن مواصفات المسيح الحقّ، استناداً إِلى الأَنبياء، محجماً إِلى حين عن التلفّظ باسم يسوع.ولكن ما إِن شرع يؤكّد أَنّ يسوع هو المسيح المنتظر، حتّى تنكّر له اليهود، وأَخذوا يعارضونه ويرشقونه بالشتيمة، مثلما فعل نظراؤهم في كلّ مكان، تقريباً، فلم يُطِق المتزمّتون منهم والأَثرياء أَن يعكّر غريبٌ سكونهم الفكريّ، وينال من كبريائهم، وينسف آمالهم بمسيح منتصر يعيد الملك إِلى إِسرائيل، ويكرّسهم على العالم أَسياداً، في حين كان بولس يؤكّد أَنّ المسيح الحقّ هو الذي احتمل مهانة الصليب.وإِذ لم يلقَ لديهم بولس سوى قلوب متحجّرة، وآذان صمّاء، وقف في الهيكل، بعد أَن سكنت الضوضاء، وفي حركةٍ معبّرة، نفض ثوبه وغبار أَحذيته، بتؤدة، دليلاً على مقاطعته لمجمعهم، وتنصّلاً من تبعة جحودهم، وبصوتٍ جهير خاطب قلوبهم القاسية بقوله: "دمكم على رؤوسكم، أَنا بريء منه، وبعد اليوم سأَمضي إِلى سواكم من الوثنيّين ".

حينئذٍ قدّم رجل رومانيّ، يتّقي اللّه، بيته الملاصق للمجمع، منبراً لبولس، فانطلق يكرز فيه بلا خوف ولا حَرَج. وكان ذلك البيت رحباً وله فناءٌ شديد الاتّساع يصلح لتعليم الجماهير. وكان اسم الرجل نيسُس يوستُس، وهو أَحد أَفراد الجالية الرومانيّة، وبواسطته استطاع بولس النفاذ إِلى أوساط المثقّفين الرومانيّين.وكان عماده إِيذاناً بمولد أَوّل كنيسة للأُمم في كورنثس.وكان أَوّل من أَضاء الإِيمان نفسه رئيس مجمع اليهود نفسه، المدعوّ كرسبُس، وطفر قلب بولس جذلاً عندما سكب ماء العماد على رأسه، ورأس زوجته وأَبنائه وخدمه.وكان لهذا الاهتداء وقعٌ مدوٍّ، فكرسبس كان من وجهاء اليهود، ومن حماة التعليم، مربّياً للشعب، ومحافظاً على الشريعة، وأَميناً على أَموال المجمع.ولا بدعَ إِن بدا اعتناقه الدين المسيحيّ نكبةً حلّت ببني إِسرائيل، عزيت مسؤوليّتها إِلى بولس، الذي لن يسامحه عنها اليهود أَبداً.واعتمد، أَيضاً، كثيرون من الكورنثيّين الوثنيّين؛ وقد أَيّد الربّ بإِزره جهود بولس، إِذ تراءى له في الحلم وقال له : " لا تخَفْ ! بل تكلّم، ولا تسكت.فأَنا معك، ولن يؤذيك أَحد، وسيكون لي شعبٌ كبير في هذه المدينة ".

هذه الرؤيا رسّخت لديه اليقين بأَنّ الربّ معه، فليس لديه ما يخشاه بعد، وبوسعه النظر إِلى المستقبل بسكينة وسجوّ نفس؛ وأَشاعت في نفسه العزاء والاندفاع اللّذين بلغا ذروتهما بعودة سيلا وتيموثيوس إِلى كورنثس.يوم عودتهما كان يوم عيد لبولس، فهو لا

يرتاح إلى الرسالة وحيداً، بل يؤثر العمل الجماعي، ويحتاج إلى الشعور بمن يتعاطف معه، ويفهمه، ويعزّيه.ولمّا أطلّ، في فرجة باب مشغله، طيفا رفيقيه العزيزين، أشرقت أساريره، وأعطى النول والمكّوك إجازة، وامتدّت بالرسل الثلاثة الأحاديث، على ضوء سراج نائس، حتّى مطلع الفجر.

كان سيلا وتيموثيوس يحملان إلى بولس مع الأنباء الطيّبة عن أحوال الجماعات المسيحيّة في مقدونية، هبات سخيّة أشرف على جمعها ياسون في تيسّالونيكي، وليديا في فيليبّي.تلك الأنباء السارّة أيقظت في نفس بولس حماساً بلا حدود، وتلك الهبات الكريمة أتاحت له التفرّغ للكرازة.وسرعان ما حقّق الربّ وعده، إذ تسارعت وتيرة الاهتداءات.وكان من أوائل من أشرقت على نفوسهم أنوار الإيمان المسيحيّ، رجلٌ ثريّ يدعى استيفاناس وجميع أهل بيته، وغايُس، وقد دعاهم بولس " باكورة آخائية ".ثمّ آمن اثنان من الأعيان هما فرتناتُس وأخائكس.ومع أنّ بولس كان منقطعاً للكرازة، تاركاً مهمّة التعميد لأعوانه، إلاّ أنّه عمّد هؤلاء بنفسه.وكم كان مؤثّراً الاحتفال الذي اشترك به مع سيلا وتيموثيوس، وأكيلا وبريسكيلا، الذين انطلقوا بالمعمّدين إلى " الساقية البيضاء "، واحتفلوا بطقوس العماد تحت ظلال أشجار الصنوبر، وهناك أعلن المؤمنون الجُدد إيمانهم، قاطعين عهد الوفاء، ثمّ أنشد الجميع المزامير، وصلوات الشكر.

كان بولس يعلّم ويكرز بلا هوادة، وسيلا وتيموثيوس يرسّخان تعليمه ويعدّان الموعوظين للعماد.وكان يعقد اجتماعات في بيوت الأصدقاء، يتدافع إليها الراغبون في سماع بشرى الخلاص، أو كان هو يدعوهم إلى لقاءٍ في بيت أحدهم، فيستهلّون اللقاء بصلاة جماعيّة حارّة، ويستفيض الرسول في التحدّث إليهم عن يسوع، ثمّ يقتسم الجميع طعاماً زهيداً، فيأخذ بولس الخبز، ويباركه، ويكسره، ويوزّعه.ويتكثّف، حينئذٍ، شعورهم بالإخاء، ويمسي اتّحادهم من المنعة، ووَرعهم من العمق، بحيث يلمسون حضور المخلّص فيما بينهم. وكان بعضهم يأتونه، في أعقاب الصلاة، مستزيدين من تعليمه، متوغّلين في يسوع، وآخرون يدعونه إلى بيوتهم حيث يصغون إليه باستفاضة، فيرشدهم إلى السلوك اللائق بالمسيح، والذي غالباً ما يتعارض مع ما ألِفوه سابقاً، ويحثّهم على المحبّة المتبادلة والتعايش الأخويّ، ويحدّثهم عن قيامة يسوع التي كان أحد شهودها، وعن الإفخارستيّا كما وصفها له بطرس ويعقوب، وعن أفعال يسوع وأقواله كما استقاها من الرسل، وكما سيثبتها متّى، ومرقس ولوقا.

و كرّت الأشهر، والاهتداءات إلى دين يسوع ماضية في ازدياد، مجتذبة أغلبيّة من الفقراء وأقليّة من الأعيان والمثـقّـــفين وعليّة القوم، نظير إرستس خازن المدينة.وقد اهتدى أيضاً إلى الإيمان عدد كبير من النسوة منهنّ " خلوّة " المتحدّرة من أُسرة ميسورة،

و"فيبة" الشمّاسة التي أدّت خدمات اجتماعيّة جليلة للعديد من الإخوة في مدينة سنكريّة، وتولّت حمل رسالة بولس إلى الرومانيّين.وقد انضمّ عددٌ غير قليل من المؤمنين الجدُد إلى بولس، وباتوا له عوناً على أداء رسالته الإنجيليّة، وساعدوه في شتّى مناحي الإدارة.

و سرعان ما تكوّنت، في كورنثس، جماعة مسيحيّة تضمّ مختلف الفئات الاجتماعيّة: ففيها الأعيان من ملاّكين، وكبار الموظّفين، الذين كانت بيوتهم الرحبة تستضيف اجتماعات المسيحيّين الجُدد، وتوفّر لهم ما يلزم للعشاء والإفخارستيّا.في هذه الفئة كان يندرج، إضافة إلى من أوردنا أسماءهم، سوستينُس، ورجل قانون يهوديّ يدعى زيناس.ومن أفراد الجماعة من ينتمون إلى الطبقة المتوسّطة، ومعظمهم من الرومانيّين، منهم ترسيُس الذي سيصبح أمين سرّ بولس، وكوارتُس.أمّا السواد الأعظم من المؤمنين الجُدد، فمن الفقراء، والعبيد، والعبيد المحرّرين، والحرفيّين، والفنّانين، ممّا أتاح لبولس أن يهتف: "ليس فيكم كثيرون حكماء بحسب الجسد، ولا كثيرون أقوياء، ولا كثيرون شرفاء.وإنّما اختار اللّه ما هو جاهل في العالم ليخزي الحكماء؛ واختار اللّه ما هو ضعيف في العالم ليخزي ما هو قويّ؛ واختار اللّه ما هو خسيس في العالم وحقير، وغير الموجود ليُعدم الموجود، لكي لا يفتخر ذو جسد أمام اللّه.وبه أنتم في المسيح يسوع الذي صار لنا، من اللّه، حكمةً وبرّاً وقداسةً وفداء، حتّى إنّه، على ماهو مكتوب : " من افتخر، فليفتخر بالربّ ".(ا كورنثس 1 : 26 – 31)

و ربّما أخذ بعضهم على بولس إحاطة نفسه بحثالة القوم الذين ذكّرهم، هو نفسه، بأنّ كثيرين منهم كانوا " فاسقين "، عبدة أوثان، زناة، مخنّثين، لوطيّين، سرّاقين، جشعين، سكّيرين، شتّامين، خطفة...ولكن ألم يقل يسوع أنّ الخطأة هم الأحوج إلى الخلاص، وأنّ المرضى هم الأحوج إلى الشفاء ؟ لقد تمثّل نجاح بولس الأكبر في تخطّي جميع التناقضات الاجتماعيّة، والوطنيّة، والأخلاقيّة، وجمعه، على مائدة واحدة، وجنباً إلى جنب، الأسياد والعبيد، في جماعة واحدة متلاحمة، يهوداً، ويونانيّين، رومانيّين وآسيويّين.ولا مراء أنّ ذلك الإنجاز كلّفه مشقّة قصوى.

و يلاحظ دانييل روبس في هذا السياق : " لقد فشل الرسول في عاصمة العقل، ولكنّه نجح في مدينة الجشع والفجور.وفي ذلك عبرة لجميع البشر في كلّ الأزمنة : فالخاطئ أقرب إلى اللّه من الخطيب الذَرِب اللسان".

و هكذا غدت كورنثس إحدى قلاع نشاط بولس الرسوليّ، وأحد أعظم أمجاده، و"رسالة المسيح التي لم تُكتَب بحبر، بل بروح اللّه"؛ ولكنّها كانت، أيضاً، مصدر أقسى محنه.

فكورنثس مدينة "مريضة" أَخلاقيّاً، وقد تعيّن على بولس، كي يغرس الإِنجيل في تربتها، أَن ينتقل بمواطنيها من الفجور الذي لم يكن يُعدّ معيباً، إِلى العزوبة، والعفّة، والوفاء الزوجيّ.

وكان عليه التوافق مع شغفهم بالحرّيّة، والفرديّة، والحكمة، والخطابة، ومع صبوّهم إِلى دين يقيم علاقة حميمة مع النفس البشريّة؛ وكان عليه أَن يرتقي بالمعرفة لديهم، إِلى مستوى الإِيمان.وربّما لم يكن صعباً عليه إِقناعهم بقيامة المسيح، ولكنّ تسريب الإِيمان بقيامة المؤمنين، إِلى أَذهانهم، لم يكن على نفس القدر من اليُسر.

و كان عليه، أَخيراً، أَن يحافظ على نوعٍ من التماسك بين أَعضاء الجماعة المتبايني المشارب، والثقافات، والمستويات الاجتماعيّة، كي يجعل منهم أَعضاء كنيسة واحدة يجمعهم إِيمانٌ واحد، وتضمّهم إِفخارستيّا واحدة.

كان الرسول يبذر كلمة الخلاص بملء يديه، غير عابئ بطبيعة التربة التي تتلقّاه، وهو واثق من أَنّ عمّال المرفأ، والبحّارة، والغواني، والوضيعين، والنجسين، قد يكونون أَكثر تقبّلاً لبشرى الخلاص من مثقّفي أَثينا المتكبّرين.

هذه المفارقة التي تجلّت في إِخفاق التبشير بالمسيحيّة في مدينة العقل أَثينا ونجاحه في مدينة النجاسة كورنثس، أَكّدت للرسول، بما لا يدع مجالاً للريبة، أَنّ القدرة التي كانت تقوده، منذ سنوات، تلك القدرة التي تسمو فوق كلّ التناقضات، مفتديةً كلّ وَهَن وضعف، لا تنبع من الذكاء، بل من الإِيمان والنعمة : إِنّها جنون الصليب.

وفي تلك الاثناء لم يبارح ذهن بولس همّ الكنائس التي كان قد أَسّسها في آسية الصغرى ومقدونية، فكان لايني يستقري أَنباءها، ويوفد إِليها أَحد معاونيه، ويستقبل مندوبيها.وسرعان ما تبيّن الكورنثيّون أَنّهم جزء من جماعات مسيحيّة منتشرة في كلّ أَصقاع الدنيا، وقد أَدركوا من زيارات وفود المقدونيّين ومناقشاتهم مع بولس، أَنّ ذلك الرسول شخصيّة رفيعة الشأن تحظى باعتراف واحترام عالميّين؛ فقد كان يمسك بين يديه بمقاليد قيادات عديدة، ويحمل، في قلبه، هموم كنائس كثيرة.

و قد شهد الكورنثيّون، بإِعجاب، كم كان بولس مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة الجامعة وكيف كان قلبه يحاكي كأساً جسيمة تنسكب فيها هموم الكنيسة وهواجسها.أوَ لم يقل الذهبيّ الفم : " قلب بولس هو قلب العالم " ؟ وإِن لم يلقَ الكورنثيّون، حتّئذٍ، أَيّ عنتٍ بسبب إِيمانهم، بل كانوا ينعمون بتقدير شامل، إِلاّ أَنّهم سمعوا أَنّ جماعات مسيحيّة أُخرى كانت تواجه مكائد اليهود واضطهاد السلطات، أَحياناً، ممّا أَعدّهم لما سيلقون، هم أَيضاً، من اضطهاد.

" منذئذٍ غدت أيّام الآحاد، لمسيحيّي كورنثس، هي أكثر الأيّام غنىً بالنشاط والعزاء.فقد كان المؤمنون يحتفلون معاً بصلاة السحر، فينشدون الأناشيد، ويجدّدون إيمانهم، ويعلنون توبتهم عن خطاياهم، ثمّ، في المساء، كانوا يكسرون الخبز معاً، ويتناولون عشاءً مشتركاً، ويقيمون الإفخارستيّا، تخليداً لما فعل يسوع عشيّة موته.

و في أثناء تلك الصلوات كانت تتلى النبوءات المتعلّقة بالمسيح، وأقوال يسوع وأفعاله؛ ثمّ كان بولس يتحدّث ببساطة، فيتناول، من الخواطر التي تملأ فكره، هذه أو تلك من النقاط التي يجدها ملائمة لاحتياجات الحضور النفسيّة، وغالباً ما يؤكّد على حقيقة الصليب، وقداسة الحياة المسيحيّة المتجرّدة.

كان حديثه خالياً من كلّ تزويق خطابيّ، شديد القدرة على الإقناع؛ وكان، عندما يأخذ الموضوع من نفسه كلّ مأخذ، يحلّق إلى قممٍ لم يجارِه فيها أحد، ويتدفّق أقوالاً سامية قلّما نطق بمثلها لسان إنسان، مبيّناً قدرة الحضارة المسيحيّة الفائقة على تجديد العالم.وغالباً ما كان ينطق الروح القدس بلسان أحد المؤمنين المجتمعين للصلاة.

و كانت تلك اللقاءات خالية من كلّ جمود وتصنّع، متميّزة بمشاركة كلّ فرد، وحضوره الكثيف؛ وبترنيم الأناشيد والمزامير بالتناوب والتجاوب؛ وغالباً ما تكون الأناشيد من تأليف المؤمنين أنفسهم، مستوحاة من أحداثٍ معاشة؛ وحتّى الصلوات نفسها كانت تتلى منغّمة معبّرة عن مشاعر الخلاص، والثقة، والشكر، الفائضة من القلوب، والمرتسمة على الوجوه.

و بعد الصلاة كان يلتفّ الجميع حول مائدة بسيطة مشتركة، يجاور فيها الغنيّ الفقير، والعامل العالم، والعبد السيّد، بلا تمييز، في محبّة متبادلة.وغالباً ما تقوم نساء الجماعة على خدمة المائدة.في أعقاب العشاء، كان الموعوظون يبتعدون، ويصعد المعمّدون إلى علّيّة مضاءة، حاملين سلال الغلال، من دقيق، وعنب، وبخور، وزيت، وخبز وخمر؛ وكان بولس يأخذ جزءاً من هذه التقادم، ويحيي ذكرى العشاء السرّيّ؛ ثمّ كانوا يتقدّمون فرداً فرداً فيتناولون من يد الرسول كسرة خبز، ويرتشفون جرعة من النبيذ، ويعودون إلى أماكنهم، فيقبّل الرجال الرجال، والنساء النساء، قبلة المحبّة والسلام والمصالحة.ويبلغ الاجتماع ذروته عندما ينشد الجميع معاً نشيد شكر، هو الذي أطلق على هذا اللقاء اسم: "إفخارستيّا" أي الشكر.

ثمّ يُجمع كلّ ما تبقّى من العشاء والتقادم ويوزّع على المرضى الذين لم يستطيعوا الحضور، وعلى المعوزين، ويختتم اللقاء بصرخة توق إلى مجئ الربّ، وبهتاف : " أذكر، يا ربّ، كنيستك، وخلّصها من كلّ شرّ، وهبها الكمال في حبّك؛ إجمعها من رياح السماء

الأَربع، في الملكوت الذي أعددته لها، فلك القدرة والمجد إِلى دهر الدهور.فلتأت النعمة، وليزُل العالم.من كان قدّيساً فليتقدّم، ومن لم يكن قدّيساً فليتُبْ.ماراناثا، آمين "

قول ماراناثا يعني " فليأت الربّ " أو " إِنّ الربّ آتٍ "

" من هذه الطقوس الجماعيّة كان المؤمنون يستمدّون شعورهم بالوحدة وبالانتماء إِلى جماعة كثيفة متلاحمة.وبعد أَن يكونوا، سحابة النهار، مشتّتين، وفقاً لمِهَنهم، في حُجَر العبيد، أو أمام أفران الخبز، أو في الحوانيت، أو في خلوة، أو وسط عالم معادٍ يسخر منهم، أَحياناً، كانوا يلتئمون مساءً حول مأدبة مقدّسة، فيشهدون معجزة الجماعة.وكانت حرارة الإِيمان الواحد، والرجاء الواحد، وما يشيعان من حماس، يلهبان أَذهانهم، ويضعانهم في عالَم مدهش.وفوق هذا الاندفاع كان يحلّق الربّ يسوع، زعيم تلك الجماعة، مسلّحاً بالقوّة، وقريباً بحيث يمكن لمسه.يسوع كان هو الضيف وحوله تلتئم الجماعة "

و هكذا ظلّ بولس ومعاونوه ثمانية عشر شهراً يعلّمون ويكرزون، حتّى آمن بالربّ "شعبٌ كبير "، في مدينة أفروديت.صحيح أَنّ هذا "الشعب " كان يضمّ، في ما يضمّ، مجموعة هجينة من الفجّار الخليعين، الشاذّين، وأَرقّاء نشأوا في مستنقعات المجتمع على أَسوأ العادات والممارسات.ولكنّ بولس ما انفكّ يحثّهم على التخلّي عنها، وعلى انتهاج سلوك يليق بيسوع.وممّا ساعد هؤلاء المسيحيّين الجُدد على الانعتاق من رذائلهم، والتحلّي بالخصال الإِنجيليّة، الخوارق التي أَيّد بها الربّ تبشير رسوله، ومكّنه من التدرّع بالرجاء حتّى عندما كانت تتضاءل أو تتبدّد أَسباب الرجاء.

و قد أَسهم موقع كورنثس الجغرافيّ والتجاريّ في إِشعاع المسيحيّة إِلى مختلف أَرجاء آخائية، وخاصّة مرفأ سنكريّة.

و تميّز اليهود غيظاً، عندما اتّضح لهم أَنّ ذاك اليهوديّ المارق الذي طردوه من مجمعهم وقد ظنّوه ثرثاراً مأفوناً، هو في الواقع شخص خطر، وليس مجرّد منشقّ ضالّ، كثُرَ أمثاله في تاريخ اليهوديّة المديد، بل هو قد تجلّى – كما لم يحدث قطّ من قبل – داعيةً إِلى دين جديد يبزّ اليهوديّة في الدعوة إِلى نقاء السلوك، والتجرّد، والمحبّة، في بيئة تحكمها قوانين المتعة، والجشع، والفجور.كانوا قد استشاطوا غضباً عندما انضمّ إِلى بولس رئيس مجمعهم، كرسبُس، ممّا أَدّى إِلى شقّ صفوفهم، وزعزعة جماعتهم، ولكنّ غضبهم زاد استعاراً وهم يشهدون ازدهار النشاط المسيحيّ في جوارهم، في بيت يوستُس، وفي جميع أرجاء المدينة، وحتّى في ضواحيها.ولا ريب أَنّ انعقاد مباريات رياضيّة هامّة، استقطبت جماعات غفيرة من

المتفرّجين في أَثناء وجود بولس في كورنثس، قد أَسهم بدوره في انتشار المسيحيّة في تلك الأَرجاء، انتشاراً واسعاً.

و كرّر يهود كورنثس ما كان قد فعله آباؤهم في أورشليم للتخلّص من يسوع.وإِذ كان قد عُيِّن على كورنثس وا لٍ جديد، يدعى غاليون، خُيِّل إِليهم أَنّهم سيستطيعون استغلال قلّة خبرته للإِيقاع ببولس، فرشوا شرذمة من الرعاع، وجاؤوا بهم إِلى مشغل بولس، فاختطفوه من وراء نوله، وجرّوه أمام الحاكم.غير أَنّ الوالي لوسيُس يونيُس غاليون، وهو أَخو الفيلسوف الشهير سينيكا، كان يتّصف بالحصافة، والحكمة، ودماثة المعشر، فضلاً عن معرفته الوثيقة بمكر اليهود ومكائدهم وكذبهم. أوَ لم يكن أَخوه سينيكا قد كتب فيهم : " إِنّ تقاليد هذه الأُمّة الممعنة في الإِجرام، قد أَضحت على قدرٍ من المنعة بحيث راجت الآن في جميع البلدان، وفرض المغلوبون شرائعهم على المنتصرين"؟ أَمّا عن أَخيه غاليون، فقد كتب سينيكا: " ليس بوسع كائن بشريّ أَن يكون طيّباً تجاه صديق له، مثلما غاليون طيّب تجاه كلّ إِنسان.ولا يستطيع أَحدٌ أَن يحبّ أَخي غاليون بمقدار ما يستحقّ من حبّ". فقد كان غاليون يُعدّ زهرة النخبة الرومانيّة المثقّفة الراقية، ويتمتّع بشخصيّة جذّابة.وقد غاب عن ذهن اليهود أَنّ ذلك الحاكم الجديد صاحب الفكر السمح، والنفس الكبيرة، كان يمقت كلّ أَلوان التعصّب، ويضمر مقتاً لليهود بسبب تعصّبهم وتزمّتهم، وجشعهم، ولطالما رأى ثروات أَصدقائه تتسرّب إِلى صناديق مرابيهم.وما إِن وقع نظره على المتّهم القصير القامة، الملتحي، الأَصلع، الذي تتألّق في عينيه أنوار الروح، ويشعّ من كلّ كيانه السلام، والوقار، حتّى اتّضحت له الحقيقة جليّة واستشّم رائحة المكيدة اللئيمة والانتقام الدنئ. وبادر اليهود إِلى الاتّهام قائلين: "هذا الرجل يحاول إِقناع الناس بعبادة اللّه عبادةً تخالف الشريعة ".وهمّ بولس بالدفاع عن نفسه، ولكنّ غاليون أَشار إِليه أَن يصمت، وتولّى بنفسه الردّ على المدّعين قائلاً : " أَيّها اليهود، لو كان، في الأَمر، جرم أو جناية، لسمعت شكواكم كما يقضي الحقّ.أَمّا أَن تكون المسألة جدلاً في الأَلفاظ والأَسماء، وفي شريعتكم، فتدبّروا أَنتم هذا الأَمر، لأَنّي لا أُريد أَن أَكون قاضياً فيه ".وطردهم من المحكمة.ولما تيقّن الحضور أَنّ اليهود ادّعوا على بولس افتئاتاً، هجموا على رئيس مجمعهم الجديد سُستــنس الذي كان ينحدر عن المنصّة متعثّراً بأهداب ثوبه الفضفاض، وإِذ كان اليونانيّون منهم، خاصّة، يتحيّنون كلّ سانحة للتعبير عن ضيقهم من تعنّت اليهود وجشعهم، انهالوا عليه ضرباً وشتماً، على مرأى من غاليون، الذي تجاهل الواقعة، وقفل عائداً إِلى قصره، وهو يضحك في سرّه.

كانت تلك هي المرّة الأُولى التي تقف فيها السلطة الرومانيّة موقفاً مؤيّداً لبولس ممّا انعكس خيراً على الكنيسة الفتيّة، ودعّم ركائزها.

لا ريب أَنّ نظرات بولس وغاليون قد تلاقت للحظات خاطفة، وعبرها وقفت المسيحيّة الوليدة في مواجهة الرواقيّة.لقد أَحبّ بولس ذلك الرجل النزيه، مثلما أَحبّ يسوع، يوماً، الشابّ الثريّ، وتوسّم غاليون، في ذلك اليهوديّ القصير القامة، شيئاً فائقاً غير مألوف، جعل النعمة الإِلهيّة تلامس قلبه، غير أَنّ كبرياءه حالت دون استقرارها فيه.

و انعتق بولس، ولو إِلى حين، من هاجس مكائد اليهود، ونعمت كنيسة كورنثس بفترة سلام، وتضاعف إِقبال الوثنيّين إِلى أَحضانها.

غير أَنّ مهمّة بولس في كورنثس لم تكن سهلة، فالجماعة المسيحيّة التي أَسّسها فيها كانت تضمّ أَقليّةً من أَصل يهوديّ، وأَغلبيّة من أَصل وثنيّ، وكان هؤلاء من مشارب شديدة التنوّع، ومن طبقات اجتماعيّة واسعة التباين، وهذا ما يفسّر ديناميكيّتها، وأَيضاً المشادّات والتوتّرات السائدة فيها.وقد تجلّى ذلك، على نحوٍ خاصّ، من خلال الاجتماعات الإِفخارستيّة حيث كان يأتي كلّ منهم بمأكله ومشربه، على تباين مبين، ومؤلمٍ أَحياناً، وقد حارب بولس هذه الظاهرة بحزم، كما إِنّه جهد في مكافحة الفوضى التي كانت تشوب تلك الاجتماعات وتنظيم الوعظ، والإِنشاد والتنبّؤات، فيها.

و كان، بين المؤمنين الجُدد، عدد من الأرقّاء الذين نشأوا في مستنقعات المجتمع على أسوأ العادات والممارسات، وقد دأب بولس على دعوتهم، بإِلحاح، إِلى التخلّي عنها؛ وغالباً ما كانت تلك العادات من التمرّس والرسوخ بحيث باتت تسري في دمائهم، وبات عسيراً عليهم الانعتاق منها.وكان إِلحاف بولس في دعوتهم إِلى الإِقلاع عنها يؤلّب بعضهم عليه.

همّ هؤلاء، وهمّ جميع المؤمنين الجُدد في كلّ مكان، وحذَره من مكائد اليهود التي قد تتوارى تحت رمادها، حيناً، ولكنّها لا تنطفئ، كانت تقضّ مضجع بولس باستمرار، ولذلك كتب إِلى التسّالونيكيّين : "صلّوا من أَجلنا كي تتابع كلمة الربّ جريها، ويكون لها من الإِكرام ما كان لها عندكم، وننجو من قوم السوء الأَشرار، فالإِيمان ليس من نصيب جميع الناس ".

و حتّى بعد أَن غادر كورنثس، ما انفكّ بولس يستقري أَنباء أَبنائه فيها، وقد خصّهم باثنتين من رسائله، عمّق فيها تعليمه، وندّد بكلّ اعوجاج في السلوك بدر عن بعضهم، وكرّر دعوته لهم إِلى سلوكٍ يليق بيسوع، وإِلى العيش المشترك على تآخٍ ومساواة ومحبّة، وإِلى التواضع والواقعيّة.

بعد مقاضاة اليهود لبولس أَمام غاليون، مكث الرسول نحو شهرين في كورنثس، ثمّ شدّ الرحال إِلى سوريّة مع معاونيه، وبرفقة أَكيلا وبريسكيلا.وكما هي الحال كلّما اضطرّ إِلى مبارحة مؤمنين باتوا له كالأَبناء، أَخذت الغصّة بخناقه وهو ينأى عن الكورنثيّين.

و لكنّه، قبل مبارحته كورنثس كان قد دوّن، فيها، أولى صفحات العهد الجديد، بإِنفاذه رسالتيه إِلى التسّالونيكيّين.

كان بولس قد أُجبر على مغادرة تيسّالونيكي، على عَجَل، اتّقاءً لكيد اليهود وانتقامهم، قبل أَن يُتاح له ترسيخ قواعد الجماعة المسيحيّة فيها.ولا بدع إِن ظلّ هاجس هذه الجماعة يواكبه ويقضّ مضجعه.وكما يحدث، أَحياناً، لأَبٍ بعيد عن أُسرته، استولى على بولس قلقٌ مُبهَم بشأن الأَبناء الذين أَنجبهم على الإِيمان، وقُسر على النأي عنهم قبل أَن يؤتى وقتاً كافياً لرؤية عودهم يشتدّ، وإِيمانهم يتوطّد، وتمرُّسهم بالحياة المسيحيّة يتأكّد.وساورته الهواجس حول موقفهم من المصاعب التي توقّع حدوثها، وتلك التي لم يتوقّعها، وهزّه الشوق إِلى رؤيتهم ومحاورتهم، وشدّ إِزرهم؛ ولكن لم يكن بوسعه مغادرة كورنثس، حيث كانت الجماعة ما برحت هشّة، وحيث الحصاد يبشّر بالجنى الوفير، ويقتضي سواعد منيعة، وجهوداً دائبة، ولا سيّما وقد شرعت تتحوّل كنيسة كورنثس، التي لم تكن سوى قبضة من المؤمنين، إِلى طائفة عريضة من أَبناء الشعب، بل معظم الشعب.

لا ريب أَنّ الأَنباء الطيّبة التي عاد بها تيموثيوس قد أزاحت الكثير من قلق بولس، فقد أكّدت أَنّ معظم التسّالونيكيّين الذين آمنوا بيسوع ثابتون في إِيمانهم، رغم ما يواجهونه من اضطهاد، راسخون في وحدتهم، ولمحبّتهم الأُخويّة المتبادلة تأثير بليغ على الوثنيّين؛ غير أَنّ الصورة التي رسمها تيموثيوس لم تكن كلّها مشرقة؛ ففي أَعقاب مغادرة بولس سعى يهود ومتهوّدون إِلى تشويه سمعته، والتشكيك بتعليمه وأَهليّته للرسالة، متّهمينه بالنفاق، والمداهنة، والطموح، والجشع، والبخل.ومع أَنّ الوقائع كانت تدحض هذه الأَراجيف، وأَنّ معظم المؤمنين قابلوها بالازدراء، غير أَنّها لقيت لدى قلّة من ضعاف النفوس آذاناً صاغية.

و إِلى جانب ذلك عادت إِلى التفشّي بعض العادات الوثنيّة، كالغشّ والفحش، التي كافحها بولس ودعا إِلى انتباذها. وفوق هذه وتلك كان بعض التسّالونيكيّين قد أساؤوا فهم أَقوال بولس حول عودة المسيح الوشيكة، فعكفوا على رصد ساعة حدوثها، واستطلاع علاماتها ونُذُرها، ونسّقوا حياتهم وفقاً لذلك، فاستسلموا للتواني والكسل، مهملين واجباتهم اليوميّة، مردّدين في كلّ مكان أَنّ لا قيمة للحياة الأَرضيّة، ولا مبرّر للعمل، بل لا داعي لإِصلاح بيتٍ متهدّم، ومنهم من استبدّ بهم الغمّ على أَقارب لاقوا حتفهم، فحُرموا شرف المشاركة في مجد يسوع المنتصر، في ذلك " اليوم العظيم ".

و اضطرمت في صدر بولس رغبة في المثول إِلى تيسّالونيكي لعلّه يبدّد الأَوهام والهواجس، ويوضّح الأَمور، ويضع النقاط على الحروف.ولكن، وقد تعذّرت عليه مغادرة

كورنثس، عزم على الشخوص إِليهم، روحيّاً، عبر رسالة يضمّنها ما يصطرع في صدره من عواطف، وخواطر، من حنان وإِرشاد.

" بورك ذلك القرار الذي ستعمّ بركاته المسكونة، مدى العصور.ففي تلك اللحظات الخالدة من عام 51، دُوِّنت أولى صفحات العهد الجديد، بوحيٍ من حاجات المؤمنين الطارئة.لم تُكتب بأسلوبٍ مهيب، جزل، أو بمناسبة حَدَثٍ جَلَل، بل كانت مثل حفنة بذار أُلقيت في زاوية حقل، ولم يلحظها أَحد، وبغتةً انبثقت نبتةً، ونمت.وهكذا، وُلد أوّل أسفار العهد الجديد فوق نول حياكة، في مشغل أكيلا "

استحضر، إِذن، تيمثيوس أدوات الكتابة، وذات مساء، إِثر يوم طويل مرهق تعاقب فيه التبشير والعمل اليدويّ، انتحى بولس زاوية من مشغله، واستغرق مع رفيقيه في الصلاة والتأمّل، بحيث جاءت الرسالة التي أملاها، وكأنّها مدوّنة تحت أنظار الربّ.

كان عمل بولس الطويل في الحياكة قد أَصاب أنامله بالتصلُّب، فغدت الكتابة له شاقّة؛ فكان لا مفرّ له من إِملاء رسائله، وهو متّكئ على مسند نوله، ورأسه ملقى على راحة يده، فيما الكاتب قابع على الأَرض، مثبتاً لوح الكتابة على ركبتيه، راسماً، بعناية، أحرف الرسالة على ضوء قنديل شحيح.قعدة شاقّة لا يقوى على احتمالها شخص واحد طويلاً؛ ومن ثمّ تناوب على تدوين تلك الرسالة الأُولى كلٌّ من تيموثيوس وسيلا؛ ؛ وكانت فترات التوقّف والتناوب مطّردة، تدلّ عليها انقطاعات متعدّدة في تسلسل النصّ والأَفكار، وانتقال مفاجئ من خاطرة إِلى أُخرى، وافتقار، أَحياناً، إِلى الترابط بين الفقرات المتعاقبة.

و قد حرص بولس على إِشراك رفيقيه سلوانس (أو سيلا) وتيموثيوس في وضع تلك الرسالة، مبرهناً عن نبل طويّته وتواضعه، ومعترفاً بإِسهمامهما معه في تأسيس كنيسة تسّالونيكي.

إِثر الأَنباء الطيّبة التي كان تيموثيوس قد جاء بها عن التسّالونيكيّين، تفجّر قلب بولس فرحاً، وشكراً للّه تردّدت أَصداؤهما في رسالته الأُولى إِليهم.فبالشكر استهلّ هذه الرسالة : "إِنّا على الدوام، نشكر اللّه من أَجلكم ". كيف لا وقد تجلّت لديهم الفضائل المسيحيّة الجوهريّة التي حدّدها بقوله : " متذكّرين بلا انقطاع، أمام وجه إِلهنا وأَبينا، عمل ***إِيمانكم***، وتعب ***محبّتكم***، وثبات ***رجائكم*** بربّنا يسوع المسيح ".الإِيمان، والمحبّة، والرجاء، هي ما اتّفق اللاهوتيّون، فيما بعد، على تسميتها بالفضائل الإِلهيّة، وكان بولس أوّل من ذكرها في هذا التسلسل.

كان بولس معجباً، بل دهِشاً، حيال عمل الربّ في نفوس التسّالونيكيّين، ولكأنّ الحياة عادت إِليه عندما اطّلع عليه، فلم يعد يعرف كيف يوفي الربّ شكراً : " إِنّا نحيا الآن، بما

أنّكم، أَنتم، ثابتون في الربّ، وأَيّ شكر نستطيع أَن نؤدّيه للّه من أَجلكم، على ما نالنا من الفرح بسببكم أمام إِلهنا ؟ "

كان بولس قد عانى الكثير من العنت في سبيل تبشير التسّالونيكيّين، ولم تكن معاناته باطلة، وهو يمتدح التسّالونيكيّين ويخاطبهم قائلاً : " إِنّ تبشيرنا بالإِنجيل لم يصرلكم بالكلام فقط، بل بالقوّة أَيضاً، وبالروح القدس، وبكمال اليقين، كما أَنّكم تعلمون ما كنّا عليه بينكم من أَجلكم.وأَنتم أَنفسكم قد اقتديتم بنا وبالربّ إِذ قبلتم الكلمة، في وسط مضايق كثيرة، بفرح الروح القدس، وبتمّ، هكذا، قدوة لجميع المؤمنين الذين في مقدونية وفي أخائية، فإِنّها من عندكم قد ذاعت كلمة الربّ لا في مقدونية وفي أخائية فحسب، بل في كلّ مكان قد انتشر إِيمانكم باللّه... "، " أَلستم أَنتم رجاءنا وفرحَنا، وإِكليل فخرنا أمام ربّنا يسوع، عند مجيئه ؟"

و ينتهز بولس هذه السانحة ليدحض تخرّصات خصومه الدنيئة، فيذكّرهم بأَيّ روح بشّر التسّالونيكيّين : " إِنّا، بعد إِذا تألّمنا وأُهنّا في فيليبّي، كما تعلمون، تجرّأنا، في إِلهنا، على أَن نكلّمكم بإِنجيل اللّه، في جهادٍ جمّ، لأَنّ وعظنا ليس عن ضلال، ولا عن نجاسة، ولا بمكر (كما يفعل المبشّرون المزيّفون المضلّلون)... لم نعتمد، قطّ، كلام تملّق... ولم يكن الطمع لنا، قطّ، مُحرّكاً، على ما يشهد اللّه، ولا التمسنا، قطّ، مجداً من بشر، لا منكم، ولا من غيركم.ومع أَنّه كان بوسعنا أَن نثــقّل عليكم بوصفنا رسل المسيح، كنّا مترفّقين في ما بينكم، كما تحتضن المرضع أولادها.هكذا كنّا، من فرط الحنين إِليكم، نرتضي أَن نبذل لكم لا الإِنجيل فقط، بل أَنفسنا أَيضاً، لكونكم قد صرتم أَحبّاء إِلينا... كنّا لكلّ واحدٍ منكم كالأَب لأولاده، نعظكم ونشجّعكم ونناشدكم لكي تسلكوا على ما يليق باللّه، الذي يدعوكم إِلى ملكوته ومجده... وإِنّكم لتذكرون تعبنا وكدّنا، إِذ كنّا نبشّركم بإِنجيل اللّه، ونحن نعمل ليلَ نهار، لئلاّ نثقّل على أحد منكم... "

لقد تعرّض التسّالونيكيّون، مثلما تعرّض الرسول نفسه ومعظم الكنائس، لكيد اليهود واضطهادهم، واليهود " قتلوا الربّ يسوع، والأَنبياء، واضطهدونا نحن أَيضاً، لا يُرضون اللّه البتّة، وقد صاروا أَعداءً لجميع الناس... يستتمّون خطاياهم على غير انقطاع، والسخط قد حلّ عليهم حتّى النهاية ".

ثمّ يذكّر بولس التسّالونيكيّين بمبادئ المناقبيّة المسيحيّة الرئيسيّة فيدعوهم إِلى انتباذ الزنى، " فاللّه لم يدعُنا إِلى النجاسة بل إِلى القداسة "، وإِلى التوغّل في ممارسة المحبّة المسيحيّة، وإِلى العزوف عن التسكّع، والعمل الجدّيّ الكفيل بإِعالة كلّ امرئ نفسه، في غير حاجة إِلى أَحد.

و أخيراً تطرّق بولس إِلى القضيّة التي طالما شغلت بال التسّالونيكيّين وطرحت عليهم تساؤولات مقلقة، وهي قضيّة عودة المسيح.وكان قد شاع لدى المسيحيّين الأوّلين الاعتقاد بأَنّ النهاية وشيكة، وكان كلّ جيل منهم موقناً بأَنّه سيكون شاهداً على "اليوم العظيم". وربّما، في فترةٍ ما، توسّم بولس في الأَحداث ما ينذر بالنهاية الوشيكة، غير أَنّ طبعه العمليّ الواقعيّ كان يقيه من الانزلاق إِلى التخاذل والتواني بانتظار الساعة الحاسمة.وكان نبراسه قول يسوع: " إِعملوا طالما كان النهار ".فدعا بجرأة إِلى قرن السهر والاستعداد للآخرة بمواجهة الواجبات اليوميّة.وكان يقينه بالعيش في المسيح يسبغ عليه شعوراً بالاشتراك في الأَبديّة، وهو على الأَرض، فلا يحفل بتاريخ النهاية، ويطمح في حمل الإِنجيل إِلى أَقاصي المسكونة، كي يشرق على الوجود نهار جديد لا غروب له، تضيئه شمس المسيح الدائمة السطوع.ولذلك دعا إِلى الكفّ عن ترقّب اليوم الأَخير، وعيش الأَبديّة، منذ هذا العالم، بالعيش في المسيح عيشة لائقة به، مزدانة بالأَخلاق النزيهة، والمحبّة، وبالسعي الدائب إِلى القداسة.

أَمّا بشأن قلق التسّالونيكيّين على ذويهم الذين لقوا حتفهم قبل حلول اليوم العظيم، فيحرص بولس على تكذيب الأَفكار السائدة في الأوساط الوثنيّة، بأَنّ الموت هو نهاية للنفس والجسد معاً، وانطفاء للضمير، أو تيه للنفس في عالم الظلمات، بلا أَمل، ولا رجاء في الانعتاق.

كان التسّالونيكيّون يخشون أَن يُحرم أمواتهم من المشاركة في مجد المسيح العائد، ولكن بولس دعاهم إِلى ألاّ يحزنوا كالوثنيّين الذين لا رجاء لهم.ففي اليوم العظيم سينضمّ الأموات، أوّلاً، إِلى موكب المسيح، " ثمّ نحن الأَحياء الباقين نُختطَف معهم "، وبقوله "نحن الأَحياء"، يتكلّم بولس باسم الكنيسة الحيّة الأَبديّة الحضور، وباسم أَعضائها الأَحياء في جميع الأَجيال والأزمان.وما الموت، للمسيحيّ، إلاّ عيش نهائيّ في المسيح، ووحده، إِذن، يموت حقّاً، من لم يتّحد بالمسيح، أو من انفصل عنه.

و لذلك يدعو بولس التسّالونيكيّين إِلى السهر واليقظة، لأَنّ يوم الربّ يأتي كالسارق، فعلى المسيحيّ أَلاّ يُفاجأ به، كما يفاجأ من يقولون: " سلام وأمان "، فيخلدون إِلى التخاذل، أو ينصرفون إِلى ملذّاتهم وسكرهم.أَمّا المسيحيّ، فهو كالجنديّ المكلّف بالحراسة، متأهّب دائماً، لابس درع الإِيمان والمحبّة، وخوذة رجاء الخلاص.

و يختتم بولس دعوته إِلى تكريم الرعاة، ونصح الضالّين، وشحذ همّة المتوانين، ومساندة الضعفاء، وعدم مقابلة الشرّ بالشرّ، كما يدعو إِلى الفرح الدائم، والصلاة المستمرّة، والشكر على كلّ حال، وإِبقاء جذوة الروح متّقدة.

و أَعاد سيلا تلاوة الرسالة، فلم يجد بولس فيها ما يستدعي تصحيحاً، ولكنّه طلب إِضافة عبارة : " أستحلفكم بالربّ أَن تُقرأ هذه الرسالة على الإِخوة أَجمعين "، بحيث يطّلع عليها من كانوا غائبين عندما تليت للمرَّة الأولى.وأَخيراً مهر بولس الرسالة بتوقيعه، بعد أَن دوّن بخطّ يده : " عليكم نعمة ربّنا يسوع المسيح، آمين ".

صحيح أَنّ بولس قد ترك قلبه يتكلّم في هذه الرسالة، التي اتّسمت بالحنان، والتأثّر العميق، وخلت من الاستفاضات اللاهوتيّة المعقّدة أَحياناً التي حفلت بها بعض رسائله الأُخرى، وقد خُيِّل للتسّالونيكيّين وهم يقرؤونها، أَنّهم كانوا يسمعون صوت بولس، ويشاهدون ملامح محيّاه.

غير أَنّ لهذه الرسالة قيمة فريدة، فهي المحاولة الأُولى التي سعت إِلى تثبيت التعاليم الشفويّة، التي قد تتعرَّض للتشويه والتحريف، في وثائق مكتوبة ثابتة، وهي الأَثر المسيحيّ الأَوّل الرسميّ المكتوب والمحفوظ.وهي تعكس صورة أَمينة لتقدّم الإِنجيل، عشرين سنة بعد أَحداث الفصح، وتلقي الضوء على ولادة لاهوت بولس الذي ما انفكّ يتطوّر ويتبلور من خلال رسائله اللاحقة.

و قد كتب الكردينال دي لوباك، في هذا الشأن :

" للمرّة الأولى، رنّ في آذاننا الصوت المسيحيّ، على نحوٍ لم يسبق له مثيل في أيّ مكان من العالم.إِبداع لا نظير له في تاريخ العالم، ولا يقارن بأَيّة عبقريّة أَدبيّة، أو بأَيّ فنّ أو فكر.كلّ مافيه يتعلّق بشخص يسوع، وينبع من حدث يسوع.إِنّ بولس يعلم، بيقين لا يتزعزع، أَنّ هذا الحدث قد هزّ كلّ شيء وزلزله، وأَنّ كلّ شيء يبدأ معه.أَيّ فجر نديّ، أَيّ اندفاع قشيب، وأَيّ غنىً منذ البدء : فثمّة كنائس قائمة، تربطها وشائج أَخويّة، ويحدوها حرص على التمثّل بالكنيسة الأُمّ والاتّحاد بها؛ وثمّة شراكة في المحن والاضطهادات –وشعور كثيف بحياة متغيّرة، متجدّدة في العمق – ورسول عظيم يعدّ نفسه لا شيء، ولا يبتغي أَن يكون شيئاً سوى شهادة، إِلاّ أَنّ شهادته تسبغ عليه سلطة فريدة : سلطة أَبٍ، وسُلطة أُمّ، مع كلّ ما ينطوي عليه حبّ الأَب والأُمّ من حنان.

" أَيّ امتلاء، وأَيّ عمقٍ عقائديّ في بضع صفحات بل في رسالة عائليّة أَملتها الظروف، وخلت من كلّ موقفٍ تعليميّ، : إِنّها الأَسطر المسيحيّة الأُولى التي استهلّت أوقيانساً ما انفكّ يتدفّق منذ أَكثر من تسعة عشر قرناً؛ أسطر حدّدت، منذ اللحظة الأُولى، الحياة المسيحيّة وأوجزت، للأبد، الفضائل اللاهوتيّة الثلاث : الإِيمان والمحبّة والرجاء؛ استعداد ثلاثيّ، ووجهٌ ثلاثيّ لحياة واحدة، تنبع بأَجمعها من اختيار إِلهيّ... " إِنّها عيد ميلاد الأَدب المسيحيّ "

يا لرقّة مشاعر بولس الذي يشبّه نفسه بأبٍ يطعم أَبناءه، ويحنو على جماعة هو أَسّسها، وهي مجده وفرحه ! "

ما كادت تنقضي ثلاثة أَشهر على كتابة الرسالة الأُولى إلى التسّالونيكيّين حتّى تنامت إِلى بولس أنباء تشير إِلى أَنّ أَنبياء كذبة راحوا ينذرون باقتراب " اليوم العظيم "، يوم القيامة، وراجت رسائل مزيّفة منسوبة إِلى بولس تؤكّد ذلك، فصدّقها بعض المؤمنين، وأَهملوا واجباتهم اليوميّة، وباتوا يتسكّعون، وعيونهم شاخصة إِلى السماء، بانتظار نُذُر النهاية الكبرى.وكان لا مفرّ لبولس من المبادرة إِلى الكتابة، مرّة أُخرى، لتبديد الأَوهام، وإِيضاح الحقائق.

و لا بدّ من التنويه بأَنّ كلّ عصر قد كوّن تصوّراً لليوم العظيم، وفقاً لثقافته وتطوّره، وما هذا التصوّر المتغير إِلاّ إِطار تندرج فيه عقائد إِيمانيّة ثابتة.ويتّضح من تعليم بولس الأُخرويّ ومن رؤيا يوحنّا أَنّ أَبصار المسيحيّة الأَولى كانت متّجهة نحو المستقبل.

و ليس من السهل إِدراك كلّ ما قاله بولس بهذا الشأن في رسالته، فهو يشير، باطّراد، إِلى أَقوال شفهيّة سبق له أَن أَدلى بها، ولا يريد إِثباتها خطّيّاً، وإِلى أَحداث جرت في تلك الحقبة، يعرفها معاصروها وفاتتنا دقائقها.

و من المؤكّد أَنّ بولس، مثل علماء زمانه كان يؤمن بحقبتين متميّزتين، حقبة عالم دنيويّ حاضر فاسد، يحكمها إِبليس وقوى الظلام، وحقبة أخرويّة في عالم علويّ تسودها السعادة والخير الإِلهيّ.ولكن، خلافاً للمعتقدات اليهوديّة السائدة، كان بولس يؤمن بأَنّ العهد الجديد قد أَشرق، والحقبة الأُخرويّة قد بدأت، منذ هذه الدنيا، في النفوس التي آمنت بيسوع وسكنها روحه القدّوس، ومن ثمّ، فالحقبتان متزامنتان، ولكن لفترة مؤقّتة، ريثما يجيء المسيح مجدّداً ليقضي على قوى الشرّ قضاءً مبرماً.وعلى المسيحيّين الإِسهام في إِحلال ملكوت اللّه، ببثّ روح الربّ في العالم، وبمكافحة قوى الظلمة، بنور الإِنجيل.

إِذن " اليوم العظيم " ليس وشيكاً، ولن يحلّ إِلاّ بعد تحقيق مرحلتين :

– في المرحلة الأُولى يستشري الفساد، ويتفاقم الكفر، وينتشر الكذب والظلم، وينقلب الباطل حقّاً، والجور عدلاً، ويرتدّ الناس عن الدين.

– حينئذٍ يظهر " رجل الخطيئة "، أو رجل الإِلحاد، أو المسيح الدجّال "، ابن الهلاك، الذي يقاوم ويناصب كلّ ما يحمل اسم اللّه، أو ما كان معبوداً، حتّى إِنّه يجلس في هيكل اللّه، ويعلن نفسه إِلهاً ".

و يعترف بولس " أَنّ سرّ الإِلحاد قد أَخذ في العمل " بدليل انحلال الأَخلاق، واستشراء الفوضى، ولكنّ ثمّة عائقاً لا يزال يحول دون ظهور رجل الإِلحاد؛ ما هو هذا العائق ؟ سؤال

ما انفكّت الأَذهان والأقلام جاهدة في استجلاء غوامضه؛ أهو الحكم الرومانيّ، في أَيّام بولس، الساهر على الأَمن والاستقرار، أهو ضرورة انتشار الإِنجيل حتّى أَقاصي المسكونة قبل اليوم العظيم ؟ اللّه أَعلم.

وقد تكون إِشارة بولس، إِشارة نبويّة تتعلّق بما سيحدث في آخر الأَزمنة، ويصعب علينا تكهّنها.

و قد يكون العائق قوّة سماويّة تتدخّل على نحوٍ خفيّ أو ظاهر، كي تمنع انتصار الشرّ في الصراع الدائم بينه وبين قوى الخير، على مدى العصور.وربّما كان التسّالينيكيّون على علم بما يشير إِليه بولس، وبما خفي علينا، وربّما كان أَمراً سياسيّاً لا يمكن الإِفصاح عنه.

على أَيّة حال لن تكون نهايةٌ قبل " مجئ الملحد..." (2 تسالونيكي 2 : 9 – 12)

و لكنّ الربّ يسوع سيبيد ذلك الملحد " بنفَسٍ من فمه، ويمحقه بضياء مجيئه "

هذه النظرة البولسيّة تبرز تفوّق المسيحيّة على الوثنيّة بكون اللّه يتدخّل في تاريخ البشر لصالحهم، ولأَجل خلاصهم، في حين تكتفي آلهة الوثن بالتفرّج اللامبالي، ولا همّ لها سوى سعادتها الخاصّة، وإِرضاء شهواتها ونزواتها.

و يرى بولس أَيضاً أَنّ الأُطر اليهوديّة التي نشأ فيها قد باتت شديدة الضيق وعاجزة عن استيعاب التطلّعات المسيحيّة الطموح التي تتناول خلاص العالم بأسره.

ينبذ، إِذن، بولس كلّ توجّس من حلول وشيك لليوم العظيم، ويستنكر كلّ ما قد يوحي به ذلك التوجّس من تخاذل وتوانٍ، وازدراء للحياة الحاضرة، ويدعو إِلى مسيحيّة نشيطة، مقدامة؛ وهو يؤمن بأَنّ لكلّ مسيحيّ حياة مزدوجة؛ حياة طبيعيّة يقتسمها مع الآخرين، وحياة حقيقيّة أُخرى، هي حياة صوفيّة سريّة في المسيح.وهذا لا يُنقص في شيء من قيمة الحياة الأَرضيّة، فهي مسرح الصراع وبوتقة الامتحان.وعلى كلّ مسيحيّ أَن يسهم في تحويل العالم، وبناء المدينة المسيحيّة.وعندما هو يقول : " نحن مواطنو السماء "، لا ينفي وجوب التزام كلّ إِنسان بمواطنيّته الأَرضيّة، وواجباته السياسيّة. غير أَنّ الهمّ الدينيّ يغلب على مفهوم بولس للعالم، وسعيه ينصبّ على خلاص كلّ فرد، فالمسيح جاء ليخلّص الإِنسان، بصفته إِنساناً، أَيّاً كان الشعب الذي ينتمي إِليه، وأَيّةً كانت الدولة التي يخضع لها.

شقّ على بولس مغادرة كورنثس حيث كانت قد غمرته سعادة تفجير نعمة المسيح المنيعة والمضيئة وسط قوم فاسدين.كان التركيب الاجتماعيّ للجماعة المسيحيّة التي أَسّسها فيها يعرّضها للتخلخل، ممّا فرض علىمؤسّسها أَن يظلّ إِلى جانبها أطول وقتٍ ممكن، مرسّخاً أَركانها.إِلى أَن باتت قادرة على تولّي زمام أمورها بنفسها.كان يحدوه روح الزارع الذي يحرث ويبذر، ويدع لسواه الحصاد، متطلّعاً إِلى حقولٍ أُخرى.وغمّ رحيلُه الكورنثيّين الذين توسّلوا إِليه المكوث إِلى جانبهم، فبيّن لهم تعذّر رجوعه عن قراره، من جرّاء التزامه بنذر عليه الوفاء به، في هيكل أورشليم، بمناسبة عيد الفصح.

و للمرّة الأَخيرة تسلّق بولس الهضبة المشرفة على كورنثس، حيث، على مدى ثمانية عشر شهراً، شاهد البذور التي غرسها تنبت وتنمو، نموّ نبتة خردل الإِنجيل.ثمّ ودّع الإِخوة المؤمنين، ويمّم شطر أورشليم وأنطاكية سوريّة.وقد واكبه، فضلاً عن معاونيه سيلا وتيموثيوس، الزوجان أكيلا وبريسكيلا اللّذان قرّرا الإِقامة في أَفسس حيث كانت صناعة الخيام مزدهرة، في حين هي كانت راكدة في كورنثس، ممّا أَفضى بهما وببولس إِلى شفا الإِملاق.

في مرفأ سنكرية بدأ بولس بتنفيذ نذره، فحلق شعر رأسه الذي كان عليه أَن يحرقه على هيكل التقادم في أورشليم.وكان قد أَحجم عن بدء تنفيذ نذره في كورنثس درءاً لسيل التساؤلات، في حين لم يلحظ ذلك، في سنكريّة، سوى معاونيه وصديقيه الحميمين.ثمّ أَبحر وصحبه شطر أفسس التي طالما تحرّق توقاً إِلى زيارتها، ولكنّ الروح حال، مرّتين، دون شخوصه إِليها.

تمّت الرحلة مع مطلع الربيع، فتسنّى للركب التمتّع بمهرجان الطبيعة الساحر، فيما السفينة تتأرجح بين مئتي جزيرة على مدى عشرة أَيّام، إِذ كان الإِبحار، آنذاك، لا يتمّ إِلاّ في ضوء النهار، ويتوقّف ليلاً.وهكذا، في صباحٍ ربيعيٍّ فاتن، رأى بولس جبال إِيونية تنتصب، شامخة، وراء جزيرة سامُس.في أفسس كانت ما تزال تترجّع أَنغام قيثارة هوميرس، وكنّارة سافو، وروائع الشعر، ويخفق روح حضارة الإِغريق العريقة من أَدب، وهندسة، وفلسفة.ولم يكن بولس يزدري الفكر، ولكنّه كان يستنكر انحطاطه إِلى مستوى عبثٍ عقليّ خاوٍ من الروح.أَمّا هو فقد أَتى أَفسس بنفحة الروح السماويّ، الذي لا يولد من البشر، بل يحلّ عليهم، فيغمرهم ويسمو بهم.أَلم يهتف " غوته "، يوماً، في ساعة إِلهام : "أَيُّها الروح، ما قيمة الفكر، في معزلٍ عنك؟"

مئات السفن القادمة من مختلف بقاع العالم كانت ترسو في أَفسس، وتفرّغ فيها حمولتها، ولكن ما من سفينة جاءت بحمولة أَثمن من تلك التي جاء بها بولس.

و أَخيراً وطئ الرسول تلك المدينة الجاثمة على هضبة تكسو سفوحها الدارات والجنائن المزهرة، والتي طالما تشوّق إِلى زيارتها.

و كانت جالية يهوديّة كبيرة تقيم خارج أَسوار المدينة، عند أَقدام هيكل أَرتميس، وتعيش في سلام وازدهار وحرّيّة.لم يكن أَفرادها يعرفون الكثير عن المسيحيّة، ولكن سمعة بولس كانت قد تناهت إِليهم، فزار مجمعهم في يوم السبت الذي تلا وصوله إِلى أفسس، ولاقى حديثه ترحيباً لديهم، فالتمسوا منه إِطالة المكوث بين ظهرانيهم، ولكن، إِذ كان في عجلة من الوصول إِلى أورشليم قبل عيد الفصح، لإِتمام نذره، وعدهم بالعودة إِليهم، وكان قد تبيّن ضرورة الإِقامة الطويلة في أفسس، حيث توسّم مناخاً مؤاتياً للبشارة.

لبث أَكيلا وبرسكيلا في أفسس، وأبحر بولس مع سيلا وتيموثيوس، شطر قيصريّة، ومنها صعدوا إِلى أورشليم.لم يكن وضع الكنيسة الأُمّ في المدينة المقدّسة يبعث على الرضى، فهي، من جرّاء المقاومة الشرسة التي كانت تناصبها إِيّاها اليهوديّة، كانت قد انكفأت على نفسها، فغادرها بطرس ويوحنّا وسائر التلاميذ، ولم يبقَ فيها سوى يعقوب الذي ما انفكّ يتوغّل في صوفيّته ونسكه، ومعه توغّلت كنيسة أورشليم في عزلتها، وتوقّعها نهاية العالم، وارتيابها في الآخرين، وحتّى في المسيحيّين الذين ابتعدوا عن الشريعة، وفي طليعتهم بولس.

و قد تضافر اليهود وفئة من المسيحيّين المتهوّدين، الذين ما انفكّوا متشبّثين بأَهداب الشريعة، على الانقضاض المنتظم بمعاول الهدم على جميع الكنائس التي كان بولس ينشئها في آسية الصغرى ومقدونية.وقد تعيّن على بولس أَن يقاسي حنقهم وعنفهم وتخرّصاتهم، ويتابع رسالته على دروبٍ وعرة حافلة بالأَشواك والدماء.

لم يتلكّأ، إِذن، بولس في أورشليم، بل ما كاد يفي نذره حتّى سارع إِلى قيصريّة ومنها أَبحر إِلى أنطاكية.

وبذلك اختتم رحلته الرسوليّة الثانية التي استمرّت سنتين ونصف السنة، اجتاز خلالها نحو خمسة آلاف كيلومتر منها نحو أَلفي كيلومتر سيراً على الأَقدام.إِنّه لا يني يسير، يسير أَبداً، ولا يكلّ من السير.

الفصل الحادي عشر : الرحلة الرسوليّة الثالثة

لقي بولس ورفيقاه، في أَنطاكية، ترحيباً حافلاً بالدفء والمودّة، فهو، في نظر مسيحيّي أَنطاكية، ما زال المعلّم المحبوب، ورسول الأُمم، الذي، وقد بلغ الخمسين، وخَبَر من المِحَن والأَتعاب أَلواناً، مازال يحتفظ بقلبٍ مضطرم، وبنظرة متأَلّقة بأَنوار السماء، وقد عاد إِليهم بعد غيابٍ امتدّ نحو ثلاث سنوات، بطلاً مكلّلاً بالنصر، مثقلاً بالغنائم.

و قد أَثلج صدر بولس أَن لقي، في أَنطاكية، بطرس ويوحنّا، وبرنابا، الذين أغدقوا الثناء عليه وعلى سيلا، وانصبّ اهتمامهم، خاصّة على تيموثيوس الذي، بشبابه النضر المندفع، وقداسته الجليّة، وإِيمانه المدهش، ترك أَبعد أَثر في قلوب الجماعة.وقد قبّله بطرس ويوحنّا بحرارة، وتمنّيا أَن يزوّد الربّ الكنيسة بالعديد من الكهنة أَمثاله.

مكث بولس في أَنطاكية طيلة الخريف والشتاء، إِذ كان السفر بحراً يتوقّف خلال هذين الشهرين، وهناك تأهّب للمرحلة الحاسمة من رسالته التي ستنتهي باستشهاده.وقد اضطرّ، حينئذٍ، إِلى النزول عند رغبة بطرس، والاستجابة لإِلحاحه، فتخلّى له عن سيلا الذي غدا لرأس الكنيسة أمين السرّ، ورجل الثقة.وحلّ محلّه، في فريق بولس، تيطس الذي طالما تحرَّق توقاً للعمل إِلى جانب والده الروحيّ.

و عندما غادر بولس أنطاكية لمباشرة رحلته الرسوليّة الثالثة، لم يخطر بباله أَنّ مغادرته لها ستكون نهائيّة، ولن تُكتب له العودة إِليها، من بعدُ.

كان بولس ينوي استهلال رحلته الرسوليّة الثالثة من أفسس، وفاءً للوعد الذي قطعه للأفسسيّين.ولكن تنامى إلى علمه أنّ أعداءه المتهوّدين كانوا يعدّون العدّة من أجل مقاومة رسالته في آسية الصغرى، بغية تقويض كلّ ما بناه، فآثر اجتياز جبال طوروس، مرّة أُخرى، صوب غلاطية، مستبقاً مخطّطات خصومه، مشدّداً عزيمة الجماعات التي سبق له تأسيسها، الواحدة تلو الأُخرى.

أشهر عديدة انقضت، وبولس على ارتحالٍ متّصل، متفقّداً أحوال الكنائس الفتيّة في غلاطية الشماليّة والجنوبيّة، وفريجية، وليسترة، وإيقونية وليقاؤونية وبيسدية ودربة، وكولوسّي، وهيريابوليس، وسميرنا، وبيرغاما، وثياتيرة، وسواها.بعض هذه الكنائس كان يزورها للمرّة الرابعة، فكان يجتمع بشيوخها الذين عيّنهم بنفسه أو بخلفائهم، ويكسر معهم الخبز، ويشدّد إيمانهم، ويحذّرهم من المندسّين المفسدين الذين سيسعون إلى إطفاء جذوة يسوع في قلوبهم، وسلبهم الحرّيّة التي جاد بها عليهم.

لقد كان هوى يسوع والرسالة يزوّد بولس بأجنحة، وبمناعة في مواجهة النَصب، وبجلَد منقطع النظير.وقد اعترف "ديسمان" الذي حاول تعقّب خطى بولس في آسية الصغرى: "في أعقاب أسفاري التي تمّ معظمها بوسائل نقل حديثة، بات إعجابي غير محدود بمقاومة بولس الجسديّة، وجَلَده على السفر، واتّضح لي أنّه لم يقل، عبثاً، أنّه استعبد جسده".

و أخيراً انتهى إلى أفسس، في ربيع عام 54.

يومها كانت أفسس من أجمل العواصم الجاثمة على شواطئ البحر المتوسّط.وأوّل ما يأخذ بنفس زائرها مشهد شارعها الرئيسيّ المرصوف بالرخام على امتداد ألفٍ وخمس مئة متر تقريباً، وقد اصطفّت على جانبيه أروقة تزيّن عُمُدها تيجان كورنثيّة رائعة، وهي تظلّل نَسَقا متمادياً من الحوانيت الغاصّة بالسلع من كلّ لون ومصدر، فتتجاور فيها خوابي النبيذ الإيطاليّ واليونانيّ، والزعفران الكيليكيّ، والبُسُط السوريّة، والجواهر الليديّة، والأرجوان الفينيقيّ.وكان ذلك الشارع المزدهي بأناقته وروعته ينتهي عند موقع المسرح الفخم الذي يتّسع لخمسة وعشرين ألف متفرّج، موزّعين على مدرّج من ستّة وستّين مستوى من المقاعد، أمّا المسرح نفسه، فمستطيلٌ، طوله أربعون متراً، وعرضه سبعة عشر متراً.ومن المسرح كان ينطلق شارع مرصوف بالمرمر صوب ساحة المدينة، ويتوقّل نحو الدارات الفاخرة الجاثمة على الهضبة.وكان سورٌ متمادي الطول يحيق بالمدينة.هذا المسرح ما انفكّ، حتّى اليوم، راسياً على هضبته، مطلاًّ، من بعيد، مدهشاً بفخامته، وروعة هندسته.

أفسس التي تجتاح زائرها اليوم غصّة الواقف على إِحدى مقابر الحضارة، كان مجرّد ذكر اسمها، آنذاك، يثير أمواجاً من الصُّور والذكريات، وكانت من الأماكن التي اتّخذ المجد لنفسه فيها مقاماً.فقد اشتهرت بثروتها، ورُوائها، ونافست أَثينا ثقافة، وبرزت كواحد من أبرز المراكز الدينيّة الوثنيّة، وكان جميع الآسيويّين يتطلّعون إِلى أَفسس بمحبّة وإِعجاب، وكلٌّ منهم يؤمن أَنّ له موطنين، موطنه الخاصّ وأفسس.

يوم وافاها بولس كان عدد سكّانها يناهز مئتين وخمسة وعشرين أَلف نسمة، وكانت محاطة بمئات المدن الصغيرة والدساكر الغاصّة بالسكّان.كانت في أوج عزّها، وقد تكاتفت العوامل كلّها على أَن تجعل منها قطباً للثروة والرفاه والمتعة.فمرفأها يغصّ بأحمال الفضّة والذهب، والأَحجار الكريمة، والأَخشاب النادرة، والعاج المنحوت، والعطور، والخمور، والزيوت، والحبوب، والمواشي، فضلاً عن الأَحمال البشريّة، وقوامها العبيد.وكان ذلك المرفأ على اتّصال بروما والغرب كلّه، وأَيضاً بمصر وفلسطين، ناهيك عن الطرق البرّيّة العديدة التي كانت تربطها بالشرق حتّى بلاد فارس والهند.فلا عجب إِن جعل منها الرومانيّون منذ عام 129 ق.م.عاصمة إِقليم آسية الرومانيّ، ومقرّ الحاكم، ثمّ أَدخل أوغوسطوس على المدينة تحسينات هامّة، ما زالت آثارها شاهدة على فخامتها وأناقتها.

كانت أفسس تزهو بداراتها الجاثمة، بخُيلاء، على هضبتها، وبأحيائها الفسيحة التي اخترقتها شوارع مستقيمة متمادية الطول، وبصروحها التي تنافس أَيّاً من صروح العالم المعروفة؛ وبمكتبةٍ من طابقين ما زالت أَطلالها ناهضة تحدّث عنها، وبساحتين عامّتين إِحداهما يونانيّة، وأُخرى رومانيّة، وكلتاهما محاطتان بأَروقة وعمد شاهقة؛ وبالعديد من الملاعب؛ وبساعة مائيّة ضخمة مشهورة في الأمبراطوريّة كلّها.

أَمّا درّتها الفريدة التي كانت تعدّ من عجائب الدنيا السبع، فهي الأرتيميسيون، أو معبد الإِلاهة أرتميس، الذي تضافر على زخرفته أبرع نحّاتي العصر.كان سقفه متّكئاً على مئة وسبعةٍ وعشرين عموداً من المرمر، نقشت عليها منحوتات أَخّاذة الجمال، وجدرانه مزيّنة بروائع الرسوم.إِلى ذلك المعبد كان الحجّاج القادمون من شتّى أَمصار المسكونة، يصعدون، زرافات زرافات، ويهبطون في تطوافات متّصلة، وهم ينشدون ويرقصون.وتبلغ الاحتفالات ذروتها في شهر نيسان – الذي دعاه الأفسسيّون شهر أرتميسيون – حيث كان يتدفّق سيل من الحجّاج والزائرين للاشتراك في تكريم الإلاهة، فتعجّ المدينة بكلّ مزركش من الأزياء، ويتردّد فيها كلّ غريب من الألسنة، وتتمثّل في الاحتفالات آسية الصغرى بأكملها، فيستطلع الحجّاج مستقبلهم، ويعقدون الصفقات.وغالباً ما تتّسم الاحتفالات بالعربدة والمجون.

كان يقوم على خدمة المعبد وتنظيم الاحتفالات جيشٌ من الكهنة، الذين محضهم الشعب ثقته فجعلوا من المعبد مصرفاً يودعون فيه مدّخراتهم خلف تمثال الإلاهة.وقد أُعلن المعبد ملجأً مصاناً، فألف أن يفزع إليه المجرمون حيث يأمنون من الملاحقة، ويحتشد، في جواره الدجّالون ومدّعو السحر.

أرتميس التي يكرّمها الأفسسيّون، كانت، خلافاً لأرتميس الإغريقيّين إلاهة الصيد العذراء، إلاهة الإنجاب والأمومة، تجسّد الخصب، وقدرة الحياة المتفجّرة.وقد عُبدت، أوّلاً تحت شكل كتلة صخريّة قيل إنّها هبطت من السماء؛ ثمّ تمثّلت في شكل تمثال امرأة مصنوع من خشب الأرز الذي سوّدته الأيّام، وقد غطّته قشرة ذهبيّة، ما خلا الرأس والعنق، واليدين والقدمين، وقد انتشر على صدرها نحو عشرين ثدياً، وعلى ساقيها خلايا النحل المعبّرة، هي أيضاً، عن الخصب، ورسوم الإثني عشر برجاً، دليل سيادتها على جميع قوى الأقدار، وشتّى أصناف الحيوانات.

و قد أُطلقت على تلك الإلاهة طائفة من الألقاب منها :"السلطانة"، "الملكة"، "السيّدة"، "العظيمة"، "الفائقة العظمة"، "حامية المدينة"، "مرشدة الإيونيّين"، "التي تتبوأ المكان الأسمى".

بفضل معبد أرتميس، وموقع أفسس المتميّز، كانت تلك المدينة قد أضحت مركزاً لسحر الشرق ورذائله وأسراره، وفردوساً للملذّات، فضلاً عن كونها عتبة آسية، وعقدة مواصلات، ومركزاً هامّاً للتبادل التجاريّ، وعاصمة دينيّة نشطة، فتوسّم فيها بولس حقلاً خصباً للرسالة، وقال "أنّ باباً واسعاً أُشرع له".أضف إلى ذلك أنّ الاتّصال بسائر الكنائس التي سبق له تأسيسها كان ميسّراً من أفسس.

و يوم هبط بولس المدينة "لم يخطر ببال أحد أنّ ذلك الرجل الزريّ المظهر، سيقوّض عرش أرتميس الذي تربّعت عليه مدى أكثر من ألف سنة، وسيبعث يوماً جديداً ستبدّد شمسه البهيّة غيوم جميع مساخر الخصيان، وخداعهم المتزيّي بزيّ الكهنوت ".ربّما لم يلحظ أحد، آنذاك، دخوله أفسس، غير أنّ ذلك الرسول المسلّح بإيمانٍ لا يُقهر في قدرة ابن اللّه الأبديّ، وقوّة صليبه، قد أفلح في تدمير عبادات دهريّة زائفة، بحيث ارتقى تكريم الأمومة من طقوسٍ تحرّكها الغرائز إلى قممٍ شامخة من الصوفيّة والطهر، عندما أعلنت الكنيسة، في عاصمة أرتميس عينها، وفي مجمع أفسس الذي التأم عام 431، العذراء مريم، أُمّاً للّه.

و بعد أن كان فلاسفة اليونان قد علّموا، على التوالي، أنّ في البدء كان الماء، أو كانت النار، أو كانت مادّة لا شكل لها، أو كان القتال أبو كلّ شيء، جاء من كتب في أفسس قولاً سامياً :"في البدء كان الكلمة"، فأصغى إليه العالم خاشعاً.

كان الأفسسيّون، إلى جانب عبادة أرتميس، يعبدون الإمبراطور بمنزلة إله، ويعزون إليه كلّ ما يصيب العباد من خير وسعادة.وكان لا بدّ لبولس من جرأة نادرة، ومن إيمان لا يتزعزع في قدرة يسوع، لكي يخاطر بالتبشير، في قلعة السحر الآسيويّ تلك، إذ لم يكن يملك ما يقدّمه في مواجهة عبادة سلطة الدولة الرومانيّة الساحقة، سوى قصّةٍ شاحبة عن ابن نجّار من الناصرة، صُلب مُمتَهناً في أورشليم؛ وفي مقابل نشوة الحواسّ، ودغدغة الشهوات، التي كانت توفّرها عبادة أرتميس، لم يكن يملك سوى نقاء كسرة خبز لُفظت عليها أَقوال سرّيّة.وما كان بوسع بولس الإقدام على مثل تلك المغامرة، لو لم يخبَر بنفسه قدرة المسيح الفائقة، الحاضرة، التي لا تُقهر.وقد أماط بنفسه النقاب عن سرّه عندما كتب من أفسس إلى الكورنثيّين :"إنّني أومن، ولذلك أتكلّم".وفضلاً عن ذلك، كان قد استشفّ، بحدْسه الثاقب، أنّ شعباً لا يكلّ من تقديم الأَضاحي لآلهته، توّاقاً إلى عقد علاقات مع قدرات غير منظورة، إنّما هو يعبّر عن تطلّع كمين، في نفسه المتغرّبة."لقد كان بولس يؤمن بالبشريّة، لأَنّه يؤمن بيسوع الذي لم يتردّد في بذل حياته لخلاص هذه البشريّة".

لم يجد بولس مشقّة في الاستقرار في أفسس، إذ كان الزوجان المخلصان أكيلا وبريسكيلا قد أعدّا له الإقامة، والعمل، ونواة عمل رسوليّ متمثّل في جماعة مسيحيّة صغيرة هجينة، تؤمن إيماناً غير كامل، إذ لا علاقة تربطها بكنيسة الرسل، ولا علم لها بوجود الروح القدس والأسرار.ذلك النمط من الإيمان كان قد نشره قوم تعمّدوا على يد المعمدان، وكان أتباعه مسيحيّين بالرغبة فحسب، يعوزهم الإيمان الحقّ، والعلم المسيحيّ الصحيح.وكان قد جاء بهذا التعليم إلى أَفسس، قُبيل وصول بولس، شابّ يهوديّ قادم من الإسكندريّة، ضليع في علم الكتاب، خطيب مفوّه، يتمتّع بجاذبيّة خارقة، يدعى أَبولّس، فتنته الحركة المعمدانيّة التي تسرّبت إلى مصر.ومثلما كان المعمدان قد مهّد التربة ليسوع، مهّد أبولّس، في أفسس، للإنجيل، ولرسالة بولس التي سيكون له فيها دور بارز.وقد لقّح المسيحيّة الناشئة بالفكر الإسكندريّ المنفتح الذي صاغ لغة يونانيّة سهلة المنال، أَصبحت وسيلة التعبير عن التعاليم المسيحيّة.كان مخلصاً لما تلقّاه من تعليم يوحنّا، ولكنّه كان يفتقر إلى الإلمام بجوهر المسيحيّة، وبموت يسوع الفدائيّ.وبقيامته، وبحلول الروح القدس.إلاّ أَنّه كان يعوّض عن هذا النقص بحبٍّ متّقدٍ للربّ، وبإيمانه بطبيعة يسوع الإلهيّة.

كان أبولّس، فور وصوله إلى أَفسس، قد شرع يعلّم في مجمع اليهود، فذاع صيت بلاغته.وذات يوم، شخص أكيلا وبريسكيلا إلى المجمع حيث استمعا منه إلى خطاب مسيحيّ مقنع، غير أَنّهما أَحسّا أَنّ في تعليمه نقصاً، ولكأنّه تعليم ينبع من العقل، ويخلو من نبرات القلب التي عوّدهما عليها تعليم بولس.فقد كان يؤكّد على واقع "الكلمة "، ولكنّه يُغفل الروح

القدس الذي يُضفي على خطاب بولس نكهته وروعته.فدعاه أكيلا وبريسكيلا إِلى منزلهما، "وشرحا له مذهب الربّ شرحاً دقيقاً"، وأطلعاه على عمل الروح القدس في الكنيسة كما تعلّماه من بولس، فأنصت إِلى أقوالهما باهتمام، وسرعان ما انقلب ذلك العالِم البارع تلميذاً للزوجين البسيطين، اللّذيْن حدّثاه عن كنيسة كورنثس التي أسّسها بولس، وعلى ما حقّقه الربّ فيها من معجزات.وفي الحال شدّ أبولّس الرحال إِلى أَخائية، بعد أن تزوّد بكتب توصية إِلى مسؤولي كنيسة كورنثس، بغية التمكّن من تعليمٍ مسيحيّ كامل.وهناك عمّده أَحد تلاميذ بولس عمادة الروح، وما لبث أَن أمسى من أركان الجماعة المسيحيّة، فقد بات "بنعمة اللّه، عوناً كبيراً للمؤمنين، لأَنّه كان بقوّة حججه، يسكت اليهود علانية، ويبيّن لهم، من الكتب المقدّسة، أَنّ يسوع هو المسيح".

و كان أوّل من التقاهم بولس في أفسس إِثنا عشر رجلاً من تلاميذ أبولّس، كانوا يسوقون حياة شظفة، وشبه نسكيّة، ولكنّه لحظ افتقارهم إِلى الفرح المسيحيّ الحقّ،وإِلى مواهب الروح التي كانت شائعة–آنذاك– في شتّى الكنائس.فسألهم :

–"هل نلتم الروح القدس لمّا آمنتم ؟"

فدهشوا لسؤاله، واستغلقت عليهم فحواه، فأجابوا :

–"لا، بل لم نسمع، قطّ، بوجود روح قدس !

–"إِذن أَيّة معموديّة اعتمدتم ؟

–"معموديّة يوحنّا"

فبيّن لهم أَنّ هذه المعمودّة ما عادت كافية، بعد قيامة يسوع، وحلول الروح القدس على التلاميذ، يوم العنصرة، وأوضح لهم :"إِنّ يوحنّا عمّد معموديّة توبة، داعياً الشعب إِلى الإِيمان بمن سيأتي بعده، أي بيسوع".فالتمسوا التعليم الكامل، والانضواء إِلى الكنيسة، والتثبيت بوضع اليد.وحينئذٍ انتابهم شعور من سجنوا طويلاً في قبوٍ مظلم، وولجوا، بغتةً، صرح كنيسة مشعّة بالأنوار، وقد أشاع الإِيمان الجديد، في أفئدتهم، اندفاعاً عارماً، بحيث اعتراهم شبه انخطاف، وانطلقوا يتنبّأون، ويتكلّمون بلغات غير لغتهم، وكأنّ عنصرة جديدة حلّت عليهم.وقد أَضحوا لبولس، أعواناً على الرسالة.

و بذلك، أثبت بولس أنّ عمادة الماء إِن هي إِلاّ مدخل إِلى الحياة المسيحيّة التي لا تكتمل إِلاّ بحلول الروح القدس، كما أَنّ القيامة لا تكتمل إِلاّ بالعنصرة، وأَثبت، أَيضاً أَنّ أَيّة جماعة لا تكون مسيحيّة، حقّاً، إِلاّ بانتمائها إِلى الكنيسة الرسوليّة، لا إِلى شخص، أو سلطة مستقلّة، وإِلاّ غدت بدعة، وكان إِيمانها غير مكتمل.

و في أفسس، ظلّ بولس وفيّاً لأسلوبه، فقد كان يعمل بيديه، وراء نول الحياكة، منذ الصباح الباكر، حتّى الظهر، مبيّناً، في مدينة نشيطة، مثل أفسس، أنّ المسيحيّة لا تتعارض مع العمل، وأنّ دين يسوع ليس دين حالمين.

و كان بولس قد عزم، في هذه المرحلة، على انتهاج أسلوب جديد، فهو، في المراحل السابقة، كان توّاقاً إلى نشر الإنجيل في أوسع بقعة ممكنة، ولكنّه، الآن، قد بات متيقّناً أنّ مهمّة النشر هذه لا بدّ من أن تعقبها فترة تعميق وتنظيم، والسهر اليقظ على ترسيخ إيمان الجماعات الجديدة، وسلوكها المسيحيّ الصافي، والحرص على عقد علاقات وثيقة مستمرّة مع جماعات آسية وأوروبة، وبدت له أفسس المركز الأكثر ملاءمة لهذا الغرض، فأطال الإقامة فيها.

و في سبيل الرسالة احتمل معه مضيفاه، أكيلا وبريسكيلا، عنتاً كثيراً، فقد انقلب منزلهما مسرحاً لحركة لا تفتر.فسحابة النهار وحتّى آناء الليل، لا ينفكّ زائرون يتوافدون، مستوضحين تعليماً، مستجلين قضيّة تقلق وجدانهم، أو ملتمسين التأهّب للعماد.يوماً يقدم مندوبو الكنائس الجديدة المجاورة بتحيّاتها وأخبارها، وأيّاماً يوافي مندوبو كنائس فريجية، وغلاطية، ومقدونية، واليونان، طالبين تعليمات ومناهج سلوك.ولا بدْعَ في ذلك، فكلّ من يندفع في تيّار بولس ينخرط في دوّامة حياة دائمة الحركة، شديدة الديناميكيّة، ولا يعود يعرف للكلَل، أو للسأم، أو للراحة معنى.

على مدى الأشهر الثلاثة الأولى، ظلّ بولس يختلف إلى مجمع اليهود، فيتكلّم بجرأة، ويجادل الحاضرين، حتّى استطاع النفاذ إلى أذهان نخبة من الوثنيّين "متّقي اللّه "، وإلى قلوبهم، فأضحوا نواة الكنيسة الجديدة.ولم يلبث أن تبيّن هؤلاء المسيحيّون الجُدد أنّ إيمانهم يختلف جوهريّاً عن اليهوديّة، وتبيّن اليهود من جانبهم، أنّ بولس كان، في الواقع، بعيداً عن تعاليمهم.كان بولس منفتحاً على أيّ نقاشٍ صريح وشريف، ولكنّ النقاش، في مجمع اليهود، سرعان ما ينقلب إلى خصام جارح.وإن تمكّن بولس من إقناع نفرٍ من اليهود، إلاّ أنّ معظمهم قسّوا قلوبهم، وقاوموه بعناد، وأنحوا بالشتيمة على مذهب يسوع، جهاراً، أمام الجميع، وعدّوا بولس مارقاً، فقطع كلّ صلةٍ بهم.

و إذ كان إقبال الوثنيّين على اعتناق دين يسوع شديداً، والبيوت الخاصّة عاجزة عن استيعاب طالبي التعليم، طفق بولس يعلّم في الساحات.وعندما حلّ فصل الشتاء، وتعذّر التعليم في الهواء الطلق، استأجر بولس، لبضع ساعات كلّ يوم، مدرسة المدعوّ "تيـرانّس" الذي كان أُستاذاً في علم البلاغة، ومن المرجّح أنّه كان أحد المؤمنين الجُدد، وقد أتاح لبولس استخدام مدرسته، في فترة الظهيرة، بعد أن يكون تيرانّس قد فرغ من دروسه الصباحيّة، وحتّى نحو

الساعة الخامسة مساءً، أي في الفترة التي ينفقها الناس في الغداء والقيلولة؛ أمّا الرسول فقد زهد في الطعام وفي الراحة؛ ودأب على العمل في مشغل أكيلا منذ الفجر حتّى الظهيرة، عملاً جادّاً مجهداً خلّف في يديه ندبات قاسية كان فخوراً بها؛ ثمّ كان يهرع إلى المدرسة كي يحدّث طالبي الإيمان والمؤمنين عن حبّ المسيح الفادي، والمحبّة المسيحيّة، ووعود القيامة والحياة الأبديّة.تلك المواضيع التي سبكها، فيما بعد، سبكاً رائعاً في رسائله، كان قد أشبعها تأمّلاً قبل أن يلقيها على مستمعيه في أفسس.وكان يتقاطر إلى دروسه جمهورٌ شديد الاختلاط والتباين، يضمّ طلّاباً، وتجّاراً، وموظّفين، وصنّاعاً، وأسياداً وعبيداً، وعبيداً محرّرين.وفي شهر أرتميسيون، كانت أعياد الإلاهة أرتميس تجتذب أرتالاً من الفضوليّين من مختلف مدن آسية، ومن جزر بحر إيجه، وكان كثيرون منهم يرتادون مدرسة بولس، فيسألون، ويناقشون، فهم كَلِفون بالفلسفة.وكان الرسول يجادلهم بثقةٍ، وحجّة دامغة، ولا يتحرّج أَحياناً من الإنحاء بالنقد على عبادة أرتميس، وعلى الكثير من أنماط السلوك المعوجّة.

و إلى جانب ذلك التعليم العامّ، كان بولس، على غرار الراعي الصالح، ينطلق في إثر من عجزوا عن الحضور بسبب مرض أو إعاقة، أو أزمات شتّى، ويواكب المؤمنين الجُدد، فرداً فرداً، فيزورهم في بيوتهم، ويستفيض في التحدُّث إليهم، ويشدّد المترجرجين منهم، والمرتابين، والمحبطين.وكم من الليالي قضاها ساهراً معهم، جاهداً في التوغّل بهم في فهم المسيح، وراوياً لهم قصص أسفاره، وعمل النعمة في بلدان كثيرة أُخرى ! وفي المساء، عندما كان يلتئم المعمّدون لاقتسام العشاء والإفخارستيّا، كان ينتهز تلك الفرصة، كي يستفيض في التحدُّث إليهم، بما يتدفّق به قلبه، ويمتدّ به الحديث حتّى أواخر الليل، فلا يخلد إلى الراحة سوى سُويعات، وقد بلغ منه الإرهاق كلّ مبلغ.وغالباً ما كان يتمّ تعليم المؤمنين الجُدد، في بيوتٍ خاصّة، على يد تلاميذ بولس، فيما يحتفظ الرسول بالإرشاد العامّ، وبالتثبيت، بوضع اليد، وبالمحاضرات الجماعيّة الهامّة.

و في أفسس بلغ بولس قمّة نشاطه، وذاعت شهرته، وعقد مسؤولون محلّيّون كثيرون، معه، علاقات مودّة، وبذلك أثبتت المسيحيّة أنّها تخاطب الجميع، بلا استثناء، العظماء والمثقّفين، وعامّة الشعب والفقراء، ولكنّها، أبداً أقرب إلى قلوب هؤلاء.

وفي تلك الحقبة كانت تجوب أَزقّة أفسس جماعاتٌ من الدجّالين، اليهود والوثنيّين، مستغلّين جهل الشعب.وكانت العلاجات، والشرابات السحريّة، والكتابات والطلاسم، والعرافة، والتنجيم توفّر للمشعوذين أَرباحاً مجزية.وفي هذا الجوّ، كان لا بدّ لبولس من إِظهار تفوّقه لكي يقنع المتردّدين، ويفحم المعارضين، وقد أَيّده الربّ بمواهبه وخوارقه.وحيث لم يكن كلامه كافياً للإِقناع، كانت قوّة الربّ تُجري على يديه أَشفية عجيبة، وتُخرج الشياطين، وتُدهش العقول، ولا سيّما وأَنّ المرضى والمصابين كانوا، في معظمهم، من الفقراء الذين نبذهم الجميع أو أهملوهم.وكان بولس، في أَثناء تجواله بالمدينة، يشاهد كثيرين من هؤلاء، مطّرحين في الزوايا، ملتصقين بجدران البيوت، أياديهم ممدودة، وعيونهم زائغة، فكان يشفيهم، ولا يطلب منهم مقابلاً سوى تمجيد الربّ يسوع.وذاع صيت شفاءاته، بحيث كان القوم يتوافدون إِلى منزل برسكيلا، حيث كان يقيم، وفي غفلة عنه، يتوسّلون للحصول على مناديله ومآزره أو أيّ ملبس لامس جسده، فيأخذونها إِلى مرضاهم القابعين في بيوتهم، عاجزين عن الحركة، والذين، بلمسهم إِيّاها، كانوا يظفرون بالشفاء.

تلك القدرات الخارقة أضرّت بمصالح طائفة من السحرة اليهود، المنتشرين في مختلف أَرجاء آسية الصغرى، والمدّعين القدرة على شفاء كلّ علّة، وعلى إِخراج الأَرواح الشرّيرة.

و بلغ نفوذ بولس من المنعة ما جعل بعضاً من المعزّمين يطردون الأَرواح الشرّيرة باسمه، كما كان يحدث في أَيّام يسوع.وقد اتّفق أَنّ رئيس كهنة يهوديّاً، يُدعى سيكاوا، كان له سبعة أَبناء من المعزّمين الطوّافين، يمارسون طرد الأرواح، ويكسبون أموالاً طائلة.وذات يوم ارتضوا إِظهار مهارتهم، في هذا المجال، علناً، وعلى مرأى من جمهور حاشد.وطفقوا يعزّمون على شخص يسكنه روح شرّير.غير أَنّ الروح سخر من شعوذتهم، فافتضح أَمرهم، وكادوا يفقدون كلّ مصداقيّة ونفوذ.وعندما أُسقط في يدهم، لجأوا إِلى تقليد بولس، ظانّين أَنّه يستخدم صيغة سحريّة، فأمروا الروح بالابتعاد، "باسم يسوع الذي يبشّر به بولس ".فأجابهم الروح الخبيث :"أَنا أعرف يسوع، وأعلم من هو بولس، ولكن، أنتم، من أنتم؟" ثمّ انقضّ عليهم من كان يسكنه الروح الخبيث، وهو يجيش غضباً، وتمكّن من جميعهم، فقهرهم، حتّى فرّوا، عراةً، مثخنين بالجراح، ويجرّون أَذيال الهزيمة والخزي.

ذلك الحدث كان نصراً مبيناً لبولس، وللمسيح يسوع، الذي بات اسمه على شفاه جميع الأفسسيّين، يهود ويونانيّين، يلفظونه في رهبة وإِجلال. فقد زعزعت هزيمة الدجّالين الثمانية

أركانهم، ونفذت إِلى أعماق قناعاتهم.وقد اتّضح للجميع أَنّ بولس ما كان يشفي مستعيناً بالسحر، بل بقوّة الربّ العلويّة.هذا البرهان الملموس الذي شاهده كثيرون، وتنامى إِلى علم الجميع، كان أَبلغ من مئة عظة، وسرعان ما لحظ بولس تزايد عدد المستمعين لدروسه، وطالبي الإِيمان بيسوع، فقد كان لاسم يسوع، عندما يتلفّظ به بولس، وقع لم يعهدوا، قطّ، له نظيراً.وعندما كانوا يسمعونه يقول :" فلتجثُ، لاسم يسوع، كلّ ركبة في السماوات، وفي الأَرض، وتحت الأَرض، وليشهد كلّ لسان أَنّ يسوع المسيح هو الربّ، تمجيداً للّه الآب"، كانت تسري في أوصال مستمعيه رعشة قدسيّة، تدفعهم إِلى التوبة والإِيمان، والاعتراف بأفعالهم.وكان أسطع دليل على هذه التوبة الجماعيّة، يوم جاء العديدون من ممتهني السحر إِلى بولس وصحبه، مرتعدين، معترفين بما كانوا يبتزّون به الناس، وأتوا بكتبهم، فكدّسوها عند أقدام الرسل، وأضرموا فيها النار، على مرأى من جمهور كثيف، سمع زغردة النيران، وهي تلتهم كتب التنجيم، وتفسير الأحلام، والطلاسم، ووصفات الشعوذة.ويذكر لوقا، في شيء من الدعابة، أَنّ قيمة الكتب التي التهمتها النيران قُدّرت بخمسين ألف قطعة فضيّة.مبلغ جسيم، في حساب ذلك الزمن، فقطعة واحدة من الفضّة كانت تمثّل أجرة نهار عمل.

" وهكذا كانت كلمة الربّ تنمو وتتعزّز بقوّة الربّ ".

لم يكن بولس قد لقي، في أَيّةٍ من رسالاته السابقة، حقل عمل في مثل رحابة هذه المقاطعة الآسيويّة الكثيفة السكّان، التي كانت أفسس عاصمةً لها، والتي تضمّ نحو خمس مئة مدينة وقرية.وهذا ما عبّر عنه، في رسالته الأولى إِلى الكورنثيّين بقوله :"لقد انفتح لي، في أفسس، باب كبير للعمل، والخصوم كثيرون ".ولذلك أطال إِقامته في أفسس لكي يرسّخ ما أسّسه، ويُحكم تنظيم الجماعات التي وُلدت.فاختار من المؤمنين معلّمين، وحرّاساً يسهرون على الكنائس المحلّيّة، في غيابه.

فقد كانت أَفسس مركزاً استراتيجيّاً للرسالات، من جرّاء موقعها في منتصف المسافة بين أوروبة وآسية، وانتشار مدن عريقة مزدهرة وجديرة بالتبشير من حولها، مثيلات إِزمير، وميلة، وبيرغاما، واللاذقيّة وهييرابوليس، في حين لم تكن مدن غلاطية ومقدونية تبعد عنها سوى مسيرة أَيّام قلائل.

و لا بدعَ إِن حلّت أَفسس، في الرحلة الرسوليّة الثالثة، محلّ أنطاكية كمركز انطلاق للرسالات، وإِن اصطبغت مرحلة بولس الأفسسيّة بكفاحٍ مضنٍ ولكنّه خصيب.

و في أفسس، كان بولس يستقبل مندوبي الكنائس الأُخرى، الذين يمكثون فتراتٍ طويلة إِلى جانبه، أمثال المقدونيَّين دوبيرس، وغايُس، وأرسترخس الذي انخرط في رسالة أفسُس.والتسّالونيكي سيكندُس، والبيريّ سوباتر؛ وأبولّس القادم من كورنثس والذي التصق ببولس، وكذلك أرستس الخازن السابق ومن كبار وجهاء تلك المدينة، وسوستينُس، رئيس المجمع السابق ويوستُس وستيفاناس، وجميع هؤلاء من أوائل المؤمنين.وكان لوقا يوافيه، بانتظام، بتقارير عن جماعة فيليبي.من جميع تلك المدن، وكذلك من فريجية، وبيسيدية، وأنطاكية، وإِيقونية، كان يتقاطر إِليه، باطّراد، تجّار وبحّارة يوافونه بأخبار الكنائس، ويتزوّدون منه بالرسائل والإِرشادات.

و كان بولس محاطاً، دائماً، بكوكبةٍ من الأَعوان الممتازين، ومن رجال اللّه الذين يستشيرهم في أمور مختلف الجماعات، ويكلّفهم بإِنشاء جماعات جديدة، في المدن المجاورة، وبالمحسنين الذين يجعلون حياة مواطنيهم أكثر عذوبة، ومحنهم أخفّ وطأة، بسخائهم ومساعداتهم الكريمة.وكان لكلّ جماعة جديدة مسؤول يستقبل أعضاءها في بيته.غير أنّ بولس هو، دائماً المرجع، وكان ينتقي موفدين يرسلهم إِلى الجماعات المختلفة في مهامّ تتعلّق بالإِيمان والسلوك، ومن أبرزهم تيموثيوس رجل المواقف الدقيقة، الذي طالما كلّفه بتصحيح الاعوجاجات، وبالتذكير بالتعليم السويّ، وتيطس، سفيره المحنّك الذي أعاد السكينة إِلى كنيسة

كورنش حيث فشل تيموثيوس.وهكذا قامت الكنائس الآسيويّة السبع التي زار بولس معظمها في أثناء أسفاره، مثل سبع جواهر ترصّع تاج كنيسة أفسس الأُمّ.ولا عجب إن كتب لوقا :"استمرّ بولس على ذلك سنتين، حتّى سمع جميع سكّان آسية، من يهود ويونانيّين، كلمة الربّ"(أعمال 19 : 10)، وكذلك اعترف ديمتريُس زعيم صاغة أفسس: "بولس هذا أقنع واستمال خلقاً كثيراً، لا في أفسس وحدها، بل كاد أن يفعل ذلك في آسية كلّها"(أعمال 19 : 26)

و من أنشط المتعاونين مع بولس، والمندفعين في نشر بشرى الخلاص، نبيل يونانيّ من كولوسّي يدعى أبيافراس، كان قد التقى بولس، في أثناء أسفاره، واستمع إليه في مدرسة تيرانّس، فأشرقت عليه أنوار المسيحيّة، فتقبّلها باندفاع، وانطلق ينشرها حيثما ذهب، لا في كولوسّي فحسب، بل أَيضاً في اللاذقيّة المجاورة التي اشتهرت بصنع النسُج الأرجوانيّة، وحيث أَسَّس جماعةً مسيحيّة كانت تلتئم في بيت نمفاس؛ ثمّ أَسّس جماعة أُخرى في هييرابوليس الشهيرة بمغاورها المزدانة بالهوابط والصواعد الكلسيّة المتحجّرة، وأَيضاً بثقافتها الروحيّة، إذ كانت مسقط رأس إبيكتيت الحكيم.وقد وصف بولس ايبافراس بقوله: "صاحبنا الحبيب في العمل، والخادم الأَمين للمسيح من أَجلكم".ايبافراس هذا شارك بولس، فيما بعد، سجنه في روما، وبفضله تعرّف الرسول ثريّاً آخر في كولوسّي، يدعى فيليمون، كان، مع أهل بيته، لبولس، خير عون وسند، وقد وضع منزله بتصرّف الجماعة لإقامة شعائر العبادة والإفخارستيّا.واضطلع عبده أونيسمُس بنقل العديد من رسائل بولس؛ وعندما أَبِقَ هذا العبد، بعد أن اختلس بعضاً من مال سيّده، التجأ إلى بولس، نادماً، فأعاده إلى فيليمون مزوّداً برسالة تُعدّ من أعذب رسائل بولس.وعرّف فيليمون بولس بصديقه أرخيبّس الذي ظفر بإعجاب الرسول، فرسمه كاهناً، وسمّاه "رفيق كفاح ".

و لا ريب أنّ أَمثال هؤلاء قد وُجدوا، أَيضاً، في ثياتيرة، وميلية، وإزمير.ومع أنّ شعب فريجية كان شغوفاً بالمعتقدات الغريبة الحافلة بالملائكة والشياطين والخرافات، استطاع تلاميذ بولس اجتذاب فئة عريضة منه إلى الإيمان بيسوع، وكان أَشدّ معتنقي هذا الإيمان حماساً الفقراء، والمسحوقون الذين اكتشفوا فيه تحرّراً وعزاءً وسط الحيف المحيق بهم.لقد بُذرت كلمة الإنجيل بغزارة في تلك الديار، وساعدت شمس بولس على إنباتها، وعندما رحل بولس، تولّت إدفاءها وإنماءها شمسٌ أُخرى لا تقلّ عنها سطوعاً، هي شمس الإنجيليّ الرابع، يوحنّا، الذي دوّن، في أفسس، "الإنجيل الروحيّ ".

و بقي بولس، في المرحلة الأفسسيّة، على صلة وثيقة بالعديد من الجماعات التي كان لها المبشّر، والرسول، والأَب الدائب على حلّ مشاكلها اليوميّة، وعلى ترسيخ أعضائها في

الإِنجيل، عندما كانت تتهدّدهم مداخلات المرسلين الزائفين.لقد امتدّت رسالة بولس في آسية الصغرى، ومقدونية واليونان، على مساحات مترامية الأَطراف، لم يفتح، قطّ، أيّ مرسل مسيحيّ آفاقاً في مثل اتّساعها لبشارة الإِنجيل.وإِذ ما تكلّم بولس عن هموم جميع الكنائس فذلك القول لم يكن من باب البيان أو المبالغة، بل كان يعكس واقعاً مدهشاً.

و الكنائس التي أَسّسها غرس فيها الاعتقاد أَنّها ليست خلايا مستقلّة، منقطعة عن سواها، بل نفث فيها اليقين بأَنّها جزء من الكنيسة الجامعة، وعضو في جسد المسيح الذي يغمر الكون؛ وغرس فيها روح التضامن مع شتّى الكنائس، ولا سيّما الكنيسة الأُمّ، في أورشليم، ولو هو اختلف معها في بعض وجهات النظر.لقد كان اللاهوتيّ الأَوّل في الكنيسة الأولى الذي بسط رؤية للكنيسة الواحدة الجامعة، القائمة على مشروع يسوع الخلاصيّ، وعلى قانون إِيمان واحد، وإِنجيل واحد، وروح قدس واحد.فبالعماد ينغرس المؤمن في جسد المسيح الواحد، ويشترك في مواهب الروح القدس الواحد.فلا عجب إن هو قاوم، بشدّة وحزم، كلّ اعوجاج كفيل بزعزعة وحدة الكنيسة، ولا بدعَ إِن ثارت ثائرته عندما شرع الكورنثيّون يتحزّبون قومٌ منهم لبولس، وقوم لأبلّس، وقم لبطرس.

و تعلّمت الجماعات التي أَسّسها أَن تفكّر وتسلك تفكيراً وسلوكاً مسكونيّين وترسّخ لدى معاونيه اليقين بأَنّهم ليسوا أعوانه، هو، بل أعوان رسالة يسوع، وخدّامها، ولا مراء أَنّ إِسهامهم في نشر المسيحيّة، بدفعٍ منه، كان بالغاً وحاسماً.

و قد أَثبت بولس أَنّه لا يجيد، فقط، استخدام الكلمة، بل إِنّه، بتنظيمه المحكم، المستوحى من ضرورات الواقع، ومقتضيات الرسالة، أَسهم في تجسيد وحدة العالم المسيحيّ.

من أَين كان بولس يستمدّ كلّ هذا النفوذ، وهذا التأثير في الناس؟ من قوّة شخصيّته، ومن حياته المتجرّدة الموقوفة على فكرة واحدة هي يسوع، ومن نور اللّه الذي كان يشعّ منه ويقود الآخرين إِلى النور.

غير أَنّ بولس الخبير بقلوب البشر لم يغترّ بنوبات الاندفاع تلك، فقد بلغه أَنّ بين الذين هتفوا لمعلّمه :"هوشعنا "، يوم دخل أورشليم منتصراً، كان من هتف، بعد أَيّام ثلاثة : "فليُصلَب ! ".وبولس الذي أَصبح موضع تقدير عارم، لم ينتشِ بروائح البخور الذي أحاطت به سُحُبه من كلّ صوب، ولم يغرب عن ذهنه أَنّ قوى الجحيم كانت تحشد طاقاتها للقضاء عليه. فالصراع مع قوى الشرّ لم ينجُ منه أَيٌّ من القدّيسين.

و في أَفسس كان على بولس"محاربة الوحوش "، واختبار"المحن والدموع "، والشتيمة، والهزء، والازدراء.ولا عجب في ذلك، ففي أفسس، كما هي الحال في المدن الكبيرة، ثمّة القوم المهذّبون والرعاع؛ ثمّة من يُجلّون العبقريّة، ومن يسخرون منها، من يُعجبون بالروّاد، ومن يضطهدونهم.

و كان بولس يدرك أَنّ سموّ حياته المسيحيّة مرهون بآلامه، بالاتّحاد مع يسوع.وقد عانى من الآلام ألواناً.فقد كان اتّساع رقعة الرسالة يصرفه، أَيّاماً كثيرة، عن العمل اليدويّ، الذي يكسب به خبزه، فقاسى"الجوع، والعطش، والعري "، وشظف العيش، حتّى الإِملاق.ومع ذلك، كان يفخر بخدمته يسوع، أكثر ممّا كان يشكو من الفقر.وقد أَسهب، من خلال رسالته إِلى الكورنثيّين، في بيان ما كابده، هو ورفاقه، في سبيل خدمة رسالة يسوع فكتب :

" قد صرنا مشهداً للعالم والملائكة والبشر؛ نحن جهّال من أَجل المسيح، أَمّا أَنتم فحكماء في المسيح؛ نحن ضعفاء، أَمّا أَنتم فأقوياء، أنتم مكرّمون، أَمّا نحن فمهانون؛ ونحن، حتّى هذه الساعة، نجوع، ونعطش، ونعرى، ونُلطَم، ولا قرار لنا.ونُجهد النفس عاملين بأَيدينا.نُشتَم فنبارك، نُضطَهد فنحتمل؛ يُشنّع علينا فنردّ بالحسنى؛ صرنا كأقذار العالم، ونفاية الناس أجمعين، إِلى اليوم".

و يتوغّل بولس إِلى أَبعد من ذلك في وصفه معاناته في أفسس، إِذ يقول، في مطلع رسالته الثانية إِلى الكورنثيّين :"لا نريد، أَيّها الإِخوة، أن تجهلوا أمر الشدّة التي أَلمّت بنا في آسية، فثقلت علينا جدّاً، وتخطّت طاقاتنا، حتّى يئسنا من الحياة نفسها، بل أحسسنا أَنّه قضي علينا بالموت، لئلاّ نتّكل على أَنفسنا، بل على اللّه الذي يقيم الأموات؛ فإِنّه هو الذي أنقذنا من هذا الموت الداهم، وسينقذنا..."

لهذه المحنة الهاصرة تفسيرات عديدة، فمن المرجّح أنّ بولس ابتُليَ، في أفسس، بعلّة خطيرة، قد تكون نكسة ملاريا، فهذا الداء كان منتشراً في أفسس، أو قد تكون علّة خبيثة أُخرى جعلت أيّامه في خطر.ولا ريب أنّ كثيرين من المؤمنين قد تضرّعوا بحرارة من أَجل شفائه، الذي تحقّق بعد أن كان الرسول قد أشفى على الموت.

و من المحقّق أنّ اليهود، بعد إذ شهدوا نشاط ذلك المرتدّ المنشقّ عن المجمع، ونشاطه العارم، ووفرة حصاده، ازدادوا عليه نقمة، وشنّوا عليه حرباً شعواء، ولم يوفّروا، في مضايقته واضطهاده، أسلوباً أو ذريعة.وربّما هم الذين كانوا وراء سجنه، بسبب عجزه عن وفاء مبلغ استلفه من أحدهم، ويبدو أنّه سجن بلا محاكمة، ولأمدٍ غير محدّد، وظلّ في السجن، جاهلاً مصيره، إلى أن أنقذه الفيليبيّون من ورطته بإرسالهم مبلغاً جزيلاً مع إبَفرديتس، فكتب لهم بولس شاكراً وقائلاً :"إنّي أحملكم في قلبي، أنتم الذين لهم، في قيودي، كما في الدفاع عن الإنجيل وتأييده، شركة في النعمة التي أوتيتها.. . إنّي في سعةٍ منذُ تسلّمت هبتكم على يد إبفرُديتس : فإنّها عطرٌ طيّب العرف، وذبيحة مقبولة لدى اللّه، مرضيّة ".

يرجّح البعض أنّ بولس دوّن رسالته إلى الفيليبيّين في تلك الفترة؛ في حين يُرجع آخرون تاريخ تدوينها إلى زمن أسر بولس في روما، وسنفرد لها فصلاً خاصّاً بين رسائل أسره الرومانيّ.

و كانت تضاعف هذه الآلام الماديّة آلام نفسيّة ناجمة عن قلقه الحادّ على "أبنائه الأعزّاء" في كورنثس وغلاطية.فقد كان قلبه وفكره يقطران حزناً، كلّما توجّس خشية من أن يدمّر حقد اليهود مابناه بحذرٍ وصبر، فيضطّر إلى إيفاد معاونيْه العزيزيْن تيموثيوس وتيطس لتدارك الخطر، ويزيد غيابهما عنه من قلقه واضطرابه.غير أنّ صوت الربّ كان لا ينفكّ يشدّد عزيمته، مؤكّداً: "لا تخف ! فما زال هنا شعب كثير ينبغي أن يؤمن بي".وكان هذا الصوت يسرّب إلى نفسه العزاء والعزيمة، ويجدّد طاقاته، فيعلن :"لذلك لا تفتر همّتنا: فإن كان الإنسان الظاهر فينا يخرب، غير أنّ الإنسان الباطن يتجدّد يوماً بعد يوم ".

و كرّت الأَشهر، وفيما كان نيرون اليافع، الذي تولّى حكم الأمبراطوريّة الرومانيّة، يقترف الفظائع، ويبطش بالعباد، بادئاً بقتل أُمّه، ومربّيَيْه سينيكا وبورّوس، كان بولس قد شرع يجني ثمار تبشيره في أفسس، وبات من المؤمنين قومٌ "من حاشية القيصر ".وقد كتب إلى الكورنثيّين :"سأبقى هنا في أفسس حتّى عيد الخمسين، لأنّ الربّ فتح لعملي باباً واسعاً فعّالاً، مع أنّ المقاومين كثيرون".

و عندما يُشرع اللّه باباً لا يسع بولس أن يتخاذل، مع أنّ الأُمور ليست دائماً سهلة، وليس من مكسب دائم، بل لا بدّ من نضالٍ مستمرّ، طالما استمرّ اليهود والمتهوّدون في حبك

المؤامرات، وطالما ظلّ الضعف البشريّ مستحكماً بنفوس العباد، ممّا اضطرّ الرسول إِلى العمل، غالباً "وسط الدموع "؛ غير أَنّه، حتّى في هوّة انهياره، كان سعيداً، يعيش التطويبات.

و لقد كانت المحن لبولس بوتقة صهرت نفسه، وجعلت منها معدناً فريداً لا تفلّه صروف الزمن؛ وقد اعترف هو نفسه للفيلبيّين :"إِنّي تعلّمت أَن أكون قنوعاً في كلّ حال، فأعرف أَن أعيش في العوز، وأعرف أَن أعيش في السعة.لقد روّضت نفسي في جميع الأحوال، وفي كلٍّ منها، على الشبع وعلى الجوع، وعلى الرفاهة وعلى الفاقة، إِنّي أستطيع كلّ شيء في الذي يقوّيني ".

و هكذا في غمرة الآلام والاضطهادت التي كانت تحاصره من كلّ صوب، عاد الرسول يتطلّع إِلى آفاق جديدة، وشدّه الشوق إِلى زيارة أورشليم كي يحمل لكنيستها ما جمعته لها جماعات آسية من معونات، على أَن ينطلق منها إِلى روما فيحقّق حلماً غالياً.فقد كان يقطنه اليقين بأَنّ أنوار الإِنجيل ستشعّ على العالم أَجمع من عاصمة الدنيا آنذاك.

رؤية كانت تغمر نفسه فتنةً، وطمأنينةً، ورجاءً.

غير أَنّ أَنباءً مقلقة من كورنثس حملته على إِرجاء تحقيق حلمه الرومانيّ.

كان بولس قد أَقام في كورنثس ثمانية عشر شهراً، فرسَّخ فيها تعليماً مسيحيّاً وطيداً، وكنيسةً متّحدة متماسكة، وأَخلاقيّة مسيحيّة التزم بها معظم أعضاء الجماعة الوليدة.بيد أَنّ تلك الجماعة كانت على قدرٍ كبير من الاختلاط، وأفرادها ينتمون إِلى أصول ومشارب ممعنة في التباين، وقد نشأوا على عادات وتقاليد راسخة، كثير منها على تناقض مع المبادئ والأخلاقيّة المسيحيّة.وبعد أَن غاب عنهم بولس زهاء أَربع سنوات عادت رواسب العادات القديمة تطفو على السطح، وتثير الغرائز البهيميّة التي جهدت تعاليم الإِنجيل التي نشرها بولس في لجمها وضبطها.

لا جَرَم أَنّ الجماعة الكورنثيّة قد ضمّت إِلى جانب الذين تعثّروا في مسيرتهم المسيحيّة، وضلّوا السبيل، مسيحيّين رائعين، وأسَراً مثاليّة، أمثال أُسرة خلُوة، واستيفاناس، وغايوس، وآخائيوس وفرتناتس والكثيرين سواهم.

و تنامت إِلى علم بولس، عن طريق "خلُوة"، أَنباء مقلقة تتعلّق بعودة بعض العادات الوثنيّة الوخيمة إِلى البروز، فبعض المسيحيّين من أَصل وثنيّ أَخذوا يعودون إِلى أَصنامهم، كما عادت فشاعت ممارسات الفحشاء التي لم ينجُ منها بعض مسؤولي الكنيسة أَنفسهم مشكّكين المؤمنين، وناشرين الفضائح.

و لم يعسر على بولس تخمين العواقب الوبيلة الناجمة عن هذه الظواهر، فأنفذ، في الحال، إِلى الكورنثيّين، رسالة تندّد بها، وتذكّر بالسلوك المسيحيّ الصحيح المنزّه عن مثل تلك الموبقات، وداعياً إِلى نبذ المسؤولين في الكنيسة والمؤمنين الذين ينقادون لأهوائهم، ويلطّخون اسم المسيحيّة، وينهضون حجر عثرة في درب الإِيمان والمؤمنين.ويبدو أَنّ تلك الرسالة – التي لم يبقَ منها، لدينا، أَثر – لم تحظَ إِلاّ باستخفاف المسيئين.وأوفد بولس تيموثيوس لإِصلاح الفساد، ودرء الخطر الداهم، غير أَنّه، هو أَيضاً، باء بالفشل.

و في هذه الأَثناء هبط أفسس قادمين من كورنثس، أبولّس، ووفد من شيوخ كنيستها، ورسموا، هم أَيضاً، لوحة قاتمة ومرعبة عمّا يجري هناك، تراكمت فيها اللطخ السوداء.

فثمّة النزعة اليونانيّة إِلى تأليه الفكر والتي أخذت توهم بعض المسيحيّين الجُدد بأنّ جوهر الإِيمان هو المعرفة، فهي التي تحدّد مستوى كمال الإِنسان، وتهبه القدرة على إِدارة حياته إِدارة مستقلّة.وقد رهنت هذه النزعة التواصل باللّه، لا بالإِيمان، بل بالمعرفة السامية، وأطلقت دعوة إِلى الانكفاء على الذات، وازدراء العالم الخارجي، والاعتصام بالعزلة.

كان معظم هؤلاء من جمهور أبولّس، الذي ربّما اطّلع على مدرسة فيلون، ونهجاً على خطاه، حاول بثّ شيء من الحيويّة في اليهوديّة الجامدة، بتسريب مصل الحكمة اليونانيّة، والحدْس الأَفلاطونيّ في أوصالها.وكان من الطبيعيّ أن يستخدم، في مداخلاته، مصطلحات "الكلمة" (لوغوس)، والحكمة، والمعرفة.وقد استعار الإِنجيليّ يوحنّا هذه المصطلحات، مضفياً عليها أَبعاداً مسيحيّة سامية، عندما استهلّ إِنجليه بقوله :"في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة اللّه ".

جمهور أبولّس، إِذن، كان من يونانيّي كورنثس المدّعين، المشاكسين، الكَلِفين بالجدال، وبعد أَن ظنّ بعضهم أَنّ الإِيمان بالمسيح يقسرهم على إِحراق كلّ ماضيهم، دهشوا عندما تبيّنوا إِمكانيّة تعميد الفلسفة.ولا بدْعَ إِن هم عظّموا أبولّس، وارتقوا به إِلى مكانة تسمو فوق بولس وبطرس، بل ربّما تعادل مكانة المسيح.وكان شغفهم بالفلسفة والاعتماد على العقل يحملهم على رفض ما لا يتقبّله تفكيرهم، مثل قيامة الموتى.

و سرعان ما استشفّ بولس المخاطر الكامنة في هذا الموقف، فكافحه، وأوضح، في رسالتيه إِلى الكورنثيّين، التعليم الصحيح.

و فضلاً عن ذلك، كانت العقليّة اليونانيّة، إِلى جانب إِجلالها المعرفة، تتّخذ من السعادة الأَرضيّة ومن المتعة هدفاً، فيتعذّر عليها إِدراك بشارة الصليب.

و إِلى هذا وذاك، كان اليونانيّون الذين فقدوا كلّ نفوذ، وكلّ حرّيّة عمل سياسيّ، يتحزّبون لأَتفه الأمور، لهذا المغنّي أو ذاك، لهذه الراقصة أو تلك، ولمصارع أو لآخر، وغالباً ما تتحوّل خلافاتهم السخيفة إِلى قضايا مصيريّة.أضف إِلى ذلك أَنّ الضغوط السياسيّة قد فجّرت لديهم ولعاً بالإِباحيّة الأَخلاقيّة.وإِن كان بولس قد أَعلن مبدأ الحرّيّة المسيحيّة، في مواجهة استعباد الشريعة اليهوديّة، انطلاقاً من قول يسوع :"الحقّ يحرّركم "، فقد تعيّن عليه أَن يظلّ يقظاً ومجاهداً لكي يحمي هذه الحرّيّة من النزعات اليهوديّة الضيّقة الأُفق، ومن الإِباحيّة المنفلتة التي يدعو إِليها أَتباع ديونيسيُس، والتي انزلق في مستنقعاتها بعض المؤمنين الجُدد.

و قد هال بولس سماع أَنّ أَحد هؤلاء قد تزوّج أرملة أَبيه، وهي ممارسة تلفظها وتستنكرها حتّى الوثنيّة، ومع ذلك أغضى عنها الإِخوة؛ وأَنّ مسؤولاً في الجماعة يرتكب الفحشاء جهاراً، بلا خَجَل ولا حياء.

و زادت من غمّه أَنباء التحزّبات التي شطرت الكورنثيّين، وهدّدت وحدة كنيستهم.فإِلى جانب النواة الأَساسيّة الملتفّة حول بولس، نشأت فئة تعلن انتماءها إِلى أَبولّس.

بولس وأبولّس كان يحدوهما حماسٌ ملتهب واحد للمسيح، وربّما كان أبولّس أكثر نأياً عن الممارسات اليهوديّة، وسرعان ما أَصبح لبولس "ذاتاً ثانية".فقد كان ذيْنك الرجلان العظيمان على توافق تامّ، واحترام متبادل، ونظرة واحدة، في إتّجاه واحد.ولكن كان لكلٍّ منهما أسلوبه وميزاته.فأبولّس كان قد تلقّن جميع المعارف، وفنّ الخطابة اليونانيّ، فتميّز بفصاحته، وكتابته بلغة يونانيّة نقيّة مرهفة، وبتفكيره الأفلاطونيّ الصبغة؛ فضلاً عن شبابه الغضّ، ووسامته، ومظهره الأرستقراطيّ؛ هذه الصفات الظاهريّة كانت على تعارض مع مظاهر بولس الذي غدا كهلاً، أصلع، قصير القامة، زريّ الهندام، والذي كان يعمل كالكادحين وتتبدّى عليه أَمارات الفقر.وقد سحر أبولّس فئةً من الكورنثيّين الكَلِفين بالمظهر، بفضل بلاغته الفريدة، وذرابة لسانه، وعنايته بلباقة الصيغة الكتابيّة، وتفكيره النظريّ المعجون بالأفلاطونيّة، وحجّته المنيعة، وأعلن بعض المعجبين به :"هذا هو المعلّم الذي نحتاج إِليه "، وتألّف حزب باسمه يدّعي تفوّق أبولّس، في ميدان الخطابة، على بولس.

أَمّا بولس فكان واقعيّاً، وواقعيّته مستقاة من اختباراته الموجعة، وكان يتمتّع بقدرة على اجتذاب القلوب والأذهان، بعرضه الواقعيّ للأمور الذي لا يكترث كثيراً بالمظهر والأسلوب، وبهوى اندفاعه المتأجّج.

"تفسيرات أبولّس كانت ممتعة، مثل عبث الأمواج على سطح اليمّ، ولكنّها لا تنفذ إِلى الأعماق، أمّا تفسيرات بولس فكانت محمولة على أَجنحة عاصفة، توقظ أغوار النفوس، وتدفع دفعاً إِلى اتّخاذ قرارات مصيريّة.كان المستمع إِلى أبولّس يعود سعيداً، معجباً بجمال ما سمع، أمّا المستمع إِلى بولس، فكان يعود مطرقاً متجهّماً، غير راضٍ عن ذاته، إلاّ أَنّ بعض الكورنثيّين كانوا يجدون كلام بولس شاقّاً، جافّاً وقاسياً".

هذا التحيّز لم يرُق لأبولّس الذي استنكره، وقد برهن عن نبل نفسه، وتجرّده، وإِخلاصه للرسالة بهجره كورنثس قَطْعاً لدابر التحزّب له. وبعودته إِلى أفسس، للعمل إِلى جانب بولس؛ وحتّى عندما كلّفه بولس بمهمّة في كورنثس اعتذر عن تلبيتها لئلاّ يفسح للمتحزّبين له فرصة جديدة للتباهي والتمادي.

و كان ثمّة حزب آخر ينتمي إِلى بطرس، وقوامه متهوّدون قادمون من أورشليم وقد نال بعضهم العماد على يد بطرس، وادّعوا صداقته، فانتفخوا غروراً، وعدّوا أنفسهم محتكرين للأَصالة وصحّة التعليم، ومتفوّقين على سواهم، وحطّوا على بولس نظرة ازدراء، ولكأنّه رسول من درجة دنيا، لم يعرف المسيح في حياته، واتّهموه بالغرور والتطاول على موسى، لا بل بلغت بهم القحة حدّ الزعم بأَنّ ما يجمعه من الكنائس لمساعدة كنيسة أورشليم، إِنّما هو ابتزاز لهذه الكنائس لمصلحته الشخصيّة.ولم يشكّ بولس لحظة أنّ أولئك المدّعين كانوا كاذبين

يستغلّون اسم بطرس لأغراض دنيئة.وهو كان يُجلّ بطرس، ويؤيّد مساعيه الرامية إلى لمّ شمل الجماعات المسيحيّة المبعثرة، في وحدة محكمة التنظيم، وتحت سلطة واحدة.أمّا استخدام هذه السلطة من قبل بعض الدجّالين، افتئاتاً، للنيل من مصداقيّة رسالته التي تسلّمها من الربّ مباشرة، فكان يعدّه طعنة له، وطعنة أبلغ في جسد المسيح نفسه.

و إلى جانب هؤلاء وأولئك كان ثمّة من يدّعون أنّهم رسُلٌ متفوّقون، ويترفّعون عن الانتماء إلى أيّ إنسان، زاعمين أنّهم عرفوا المسيح شخصيّاً، في أثناء حياته، فحقّ لهم الانتساب إلى المسيح فحسب، وازدراء جميع من سواه، ولا سيّما الرسل الذين لم تكن لهم به علاقة شخصيّة.وربّما كانوا من المتهوّدين المهاجرين، ويمثّلون أكبر خطر على الرسالة المسيحيّة، فتذرّعهم بسلطة مباشرة من المسيح، من أَجل الإزدراء بخدّامه، كان، في الواقع، تقويضاً للكنيسة كلّها.

أَضف إلى كلّ ذلك المسيحيّين المتهوّدين الذين لم يفقهوا جدّة المسيحيّة وظلّت الشريعة والختان ديدنهم، ولم تهن عليهم رؤية بولس يستقبل في أَحضان المسيحيّة وثنيّين تخطّوا فرائض الشريعة الموسويّة، وتجاهلوا مقتضياتها.ومع أنّ مجمع أورشليم كان قد أَيّد منهج بولس، فلم يعد بوسعهم التعرّض له مباشرة، ناصبوا بولس، شخصيّاً، العداء وشنّوا عليه هجوماً منتظماً ماكراً يستهدف تقويض عمله وسلطته.فدأبوا على الافتراء عليه، والتشهير به، ساخرين من مظهره الزريّ، ومن خطابه الذي يفتقر إلى الفصاحة، فهو، في نظرهم، شخص ضعيف، وكلامه سخيف، وهو جاهل، وأَقلّ شأناً من"الرسل العظام "، بل لا يسوغ اعتباره رسولاً، وهو لا يكفّ عن جباية الأَموال.وبالإجمال لم يتورّعوا عن أيّ افتراء كفيل بالنيل من سلطته، وهزّ إيمان الكنائس التي أَسّسها، والطعن بإنجليه، مع أنّه إنجيل يسوع المسيح نفسه.

هؤلاء الأَعداء لم يقابلهم بولس، قطّ، وجهاً لوجه، في ميادين رسالته، فهم يسبقونه أَو يتعقّبون أَثره، ويدّعون التكلّم باسم "الرسل العظام" الذين لم يرَ أَحدٌ لهم وجهاً، ولم يعرف لهم اسماً.ذلك المكر الخبيث كان يؤلم الرسول المغرق في الولاء، والصراحة، والشفافيّة، وفي الغيرة على مجد معلّمه، وسلام أبنائه.

و لا عجب، بالتالي، إن اتّسمت لهجة ردّه عليهم بالتأثّر، والحزم، والحرارة، وإن بدت رسائله إلى الكورنثيّين وكأنّها ضربات محكمة، قاضية، يردّ بها، وفي وضح النهار، على مكائد أعدائه المحاكة في الظلام، ويفضح تخرّصاتهم.وبولس الذي خُلِق مكافحاً، يبلغ، حينئذٍ، ملء قامته، ويُبرز غنى شخصيّته، وينتهز هذه الفرصة كي يؤكّد سموّ التعليم المسيحيّ على التحجّر اليهوديّ، وسموّ الروح على الحرف، والإنسان الداخليّ على الإنسان الخارجيّ، والنهائيّ على الزائل، وخدمة الروح على خدمة الموت.

أَعداء بولس هم أَعداء يسوع الذين لاحقوه بحقدهم، وبادّعائهم، وغيرتهم حتّى أَقدام الصليب.وكان الربّ قد شجب بعنف رئاءهم، وخميرتهم الفاسدة، وجَشَعهم، وصلَفهم في أثناء الصلاة، وتمسّكهم بالمظاهر، وقسوة قلوبهم، وازدراءهم للفقراء، لا بل وصفهم بالقبور المكلّسة، وأعلن لهم أَنّ خطاياهم، لأَنّها موجّهة ضدّ النور والروح القدس، لن تُغفَر لا في هذا العالم، ولا في العالم الآخر.

إِزاء هذه المخاطر تيقّظت كلّ دفاعات بولس، واحتدمت حميّته الرسوليّة، وتمنّى لو يستطيع القفز إِلى كورنثس ويجهد في درء المخاطر التي باتت تهدّد كنيستها، غير أَنّ الأعباء الكثيرة التي كانت ترين بثقلها على كاهله قد حدّت من قدرته على التحرّك، فكان لا بدّ له من اللجوء إِلى الكتابة.وعلى أَيّة حال كانت الكتابة له أَيسر من الخطابة، وتتيح له الإِحاطة المتأنّية بكلّ جوانب القضيّة التي يتطرّق لها، والانتقال بها من قضيّة ظرفيّة إِلى رؤية سامية تتخطّى الزمان والمكان، وتـــنبع من تأمّل طويل متعمّق وشعور مرهق بالمسؤوليّة، وحرصٍ على ترك وصيّة روحيّة لأَجيال وأَجيال.

و أَمضى بولس ليلة بأكملها جاثياً، يصلّي، ويبكي، ويستلهم الروح؛ وفي الغداة اتّكأ على نوله، في مشغل أَكيلا، وأَملى على سوستينُس ما نعرفه اليوم بالرسالة إِلى الكورنثيّين.

و استهلّها بالدعوة إِلى وحدة المسيحيّين أجمعين، ونبذ الفرقة والتحزّب – دعوة ما انفكّت تدوّي صيحتها حتّى اليوم، ملحّة، مؤثّرة – مذكّراً الذين يتباهون بنوال العماد على يد هذا أو ذاك من الرسل، أَنّ العماد واحد، أَيّاً كان خادم سرّه، وهو يستمدّ قيمته من صليب يسوع وقيامته وحلول الروح القدس.وينتهز بولس هذه المناسبة كي يحمد اللّه لأَنّه لم يعمّد سوى اثنين من الكورنثيّين، وسرعان ما يستدرك فيقول إِنّه عمّد، أَيضاً، استيفاناس وأَهل بيته، بحيث لا يتباهى أَحد سوى هؤلاء بأَنّه تعمّد على يده.وبنبرة مؤثّرة يسألهم :"هل تجزّأ المسيح ؟ أَلعلّ بولس قد صُلب من أجلكم ؟ أَباسم بولس قد اعتمدتم ؟"

و يؤكّد أَنّ الشأن ليس شأن المبشّر، بل شأن البشارة عينها، وأَمّا التحزّب لهذا أو ذاك، فهو دليل عدم نضج، وروح بشريّ بعيدٍ عن روح اللّه.ولذلك يعنّف بولس الكورنثيّين قائلاً :" إِن كان أحدكم يقول: "أَنا لبولس"، والآخر :"أَنا لأبلّس "، أَفليس في ذلك دليل على أَنّكم تتصرَّفون تصرُّفاً بشريّاً ؟ فمن هو أبلّس ؟ ومن هو بولس ؟ هما خادمان بهما اهتديتم إِلى الإِيمان، على قدر ما أعطى الربّ كلاًّ منهما.أَنا غرست وأبلّس سقى، ولكنّ اللّه هو الذي أنمى.فليس الغارس بشيء، ولا الساقي، بل ذاك الذي ينمّي، وهو اللّه.فالغارس والساقي كلاهما واحد.غير أنّ كلاًّ منهما ينال أجرته على مقدار جهده.نحن عاملون معاً عمل اللّه، وأَنتم حقل اللّه، وبنيان اللّه. "

أَمّا الذين يقيّمون البشارة بفصاحة المبشّر، فيؤكّد لهم بولس أَنّ المسيح قد أرسله ليبشّر، ولكن "لا بحكمة الكلام، لئلاّ يُبطل صليب المسيح، فإِنّ كلام الصليب عند الهالكين جهالة، وأَمّا عندنا، نحن المخلّصين، فهو قدرة اللّه... أَوَ لم يجهّل اللّه حكمة هذا العالم ؟ فإِذ إِنّ العالَم، بحكمته، لم يعرف اللّه، في حكمة اللّه، حسن لدى اللّه أَن يخلّص المؤمنين، بجهالة الكرازة... لأَنّ ما هو جهالة عند اللّه أحكم من الناس، وما هو ضعف عند اللّه أَقوى من الناس". لدى المسيحيّة، إِذن، حكمتها الخاصّة، وما هي بحاجةٍ إِلى اقتباس حكمة العالم، وحكمة اليونانيّين بالذات. حكمتها هي حكمة اللّه الخفيّة والسرّيّة، التي لم يستطع أحدٌ من حكماء اليونانيّين سبر عمقها، لأَنّ روح اللّه وحده قادر على الإِلمام بها.ويكرّر بولس، مرَّة إِثر مرَّة، في صيغ متعدّدة، عجز حكمة هذا العالم عن استيضاح الإِيمان العلويّ، مؤكّداً أَنّ الحكمة المسيحيّة تقوم على إِدراك سرّ الفداء، واندماج البشريّة كلّها في جسد المسيح السرّيّ الواحد.وحده من أَدرك ذلك هو حكيم في المفهوم المسيحيّ، وهو كائن يقوده الروح.

و يضرب بولس من نفسه مثلاً، فهو عندما جاء يبشّر الكورنثيّين، تخلّى عن براعة الكلام، والحكمة البشريّة، واقتصر على التبشير بشهادة اللّه.لا بل هو يتوغّل أَكثر من ذلك، فيؤكّد أَنّ بشارة الإِنجيل من السموّ بحيث اعترته الرهبة وهو مقدم على إِعلانها :"لقد حضرت إِليكم في ضعف وخوف وارتعاد كثير؛ ولم يعتمد كلامي وتبشيري على أُسلوب الإِقناع والحكمة، بل على أدلّة الروح والقوّة، كيلا يستند إِيمانكم إِلى حكمة الناس، بل إِلى قدرة اللّه"

و كان تبشيره بمثابة تأسيس، كما يفعل المهندس الحاذق، الذي يهتمّ بمناعة الأساس، ضماناً لسلامة البنيان، ولو قام سواه بالبناء.ولا يمكن اعتماد غير هذا الأساس، لأَنّه المسيح يسوع.

و يحذّرهم من الغرور، كما يفعل المبتدئون في العلم الذين ما يكادون يتلقّون بضع عبارات حتّى يخيّل إِليهم أَنّهم من كبار الفلاسفة؛ وعلى المسيحيّين الجُدد ألاّ يتوهّموا أَنّهم باتوا قادرين على إِدانة العالم، فالربّ وحده هو الديّان؛ ومن شاء أن يكون حكيماً فليعترف بجهله، "فإِنّ حكمة هذا العالم جهالة "؛ ولا يفتخرنّ أَحدٌ بالناس، أو برسول دون رسول، "لأَنّ كلّ شيء هو لكم : بولس كان أم أبلّس، أم كيفا، أم العالم، أم الحياة، أم الموت، أم الحاضر، أم المستقبل، كلّ شيء لكم، أَمّا أنتم فللمسيح، والمسيح للّه. "

و لكيلا يتباهى أحد من المؤمنين، ولكيلا يهتمّ بالظواهر ويهمل الجوهر، ذكّر بولس الكورنثيّين، بنبرة مؤثّرة، بدرك المهانة والعوَز الذي انتهى إِليه الرسُل، طائعين، في سبيل الرسالة، بحيث عُدّوا كالأَقذار والنفاية، ويبيّن بولس أنّه لا يقول ذلك من أَجل إِخجالهم، بل حبّاً بهم، لأَنّهم له أَبناء أَحبّاء، وحرصاً على سلامة إِيمانهم، ونزاهة سلوكهم، "لأَنّه، وإِن يكن

لكم ربوات من المعلّمين في المسيح، فليس لكم آباءٌ كثيرون، إِذ إِنّي قد ولدتكم في المسيح يسوع، بالإِنجيل"

لم يقل بولس ذلك ليحطّ من قدر أحد، ولا استهانة بالحكمة والفكر، فقد كان يؤمن، وفقاً لما قاله في رسالته إِلى الفيليبيّين، أَن "كلّ ما كان حقّاً، وشريفاً، وعادلاً، وخالصاً، ومستحبّاً، وطيّب الذكر، وما كان فضيلة وأهلاً للمديح، كلّ ذلك قدّروه حقّ قدره..."غير أَنّه، في الآن عينه، أَكّد، انطلاقاً من خبرته الشخصيّة، أَنّ الواقع الأَثمن والأَسمى، يتخطّى العقل المفكّر، وأَنّ النفاذ إِلى العالم الإِلهيّ الذي أَشرعه لنا يسوع يقتضي وضعاً فكريّاً جديداً، عرّفه القدّيس أوغوسطينس بقوله: "إِن لم تؤمنوا، أوّلاً، فلن تظفروا بالمعرفة الحقّة ".

إِنّ المعرفة المسيحيّة تعتمد على حكمة الصليب وقدرته، وهي معرفة تتعارض مع الحكمة البشريّة، ولذلك لم يرقَ إِلى فهمها الجَسَديّون، مثل الكورنثيّين الذين لم ينعتقوا، بعد، من ربقة الجسد، ولم يبلغوا مرحلة الروحانيّة الكفيلة باستيعاب هذه الحكمة.وبولس قد كُلّف بالتبشير بإِنجيل المصلوب، ولذلك تنكّب عن "حكمة الكلام، لئلاّ يُبطل صليب المسيح" ولكي ينهض إِيمانهم على قدرة اللّه المتجلّية في صليب يسوع، لا على حكمة البشر القاصرة عن فهم مخطّطات اللّه، "وفيما اليهود يسألون آيات، واليونانيّون يطلبون حكمة، نكرز، نحن، بمسيح مصلوب، عثرة لليهود، وجهالة للأُمم؛ أمّا للمدعوّين من يهود ويونانيّين، فهو مسيح قدرة اللّه وحكمة اللّه "، لذلك "حكمتُ بأَن لا أعرف شيئاً، في ما بينكم، إِلاّ يسوع المسيح، وإِيّاه مصلوباً ".

و عندما انتهى بولس إِلى هذه المرحلة من رسالته، وصل إِلى أَفسس وفد من جماعة كورنثس، حاملاً رسالة تنطوي على قائمة من التساؤلات التي كانت تشغل بال المؤمنين هناك، والتي استثارها سلوك بعض الإِخوة ورؤسائهم.وفي الحال استغرق بولس في مطالعتها، فأرهقته، وأحزنته، غير أَنّ ردّه عليها، ارتقى من معالجة حالات آنيّة محدّدة، إِلى نظرة سامية شاملة، أَغنت الكنيسة بتعليماتٍ أخلاقيّة تصلح نبراساً للأَجيال كلّها.

كانت القضيّة الأُولى المطروحة تتعلّق بحرّيّة العلاقات الجنسيّة التي كانت شائعة في كورنثس، والتي قام، حتّى بين جماعة المؤمنين، من يروّجون لها، حتّى إِنّ أَحد أعضاء الجماعة البارزين لم يتورّع عن إِقامة علاقات أَثيمة مع أرملة أَبيه.ومن جانب آخر كان آخرون يحرّمون كلّ علاقة جنسيّة، حتّى في إِطار زواج شرعيّ، على أَنّها لا تليق بالإِنسان.فاستوضحت جماعة الكورنثيّين رأي بولس في كلّ ذلك، وفي الزواج والطلاق، وفي أمور كثيرة أُخرى مثل شرعيّة تقاضي أَفراد الجماعة المسيحيّة أمام المحاكم الوثنيّة، وتلبية

دعوات إِلى مآدب تُقدَّم فيها لحوم أَضاحٍ؛ واشتراك النساء في الطقوس أسوة بالرجال، وهنّ حاسرات الرأس؛ وانقلاب احتفالات الإِفخارستيّا، أَحياناً، إِلى مآدب يتخلّلها السّكر، ويبرز فيها التفاوت بين الأَغنياء والفقراء...

و قد أبرز جواب بولس على هذه التساؤلات ضغوط الازدواجيّة المتحكّمة بالمسيحيّ، فهو، بصفته بشراً، يعيش في عالم ما زال ملوّثاً بالخطيئة، ولكنّه، بالروح، ينتمي إِلى نمط آخر من الوجود، يحمل طابع الروح، ويقوده الروح.فالمسيحيّ يعيش "في المسيح "، ولكنّه يعيش أَيضاً في العالم.إِنّه حاجّ بين عالمين.صحيح أَنّه لبس المسيح، ومات عن الخطيئة، ولكنّ الخطيئة ما زالت حيّة ماثلة، محدقة به.وهذه الازدواجيّة تنسحب على مختلف القضايا، الآنفة الذكر، المطروحة على بولس.

عمليّاً أمر بولس الكورنثيّين، أوّلاً، بطرد من اقترف عمل الزنى الشنيع من بينهم، بعد لعنه علناً، وتسليمه للشيطان "حتّى يهلك جسده فتخلص روحه يوم الربّ "؛ وبهذه المناسبة، وهو العالم بما نشأوا عليه، يناشدهم بتطهير أَنفسهم من الخميرة القديمة ليكونوا عجيناً جديداً.ويناشدهم أَيضاً ألاّ يخالطوا أيّ أَخٍ مؤمن زانٍ أو جشع أو عابد أوثان أو شتّام أو سكّير أو سرّاق، لعلّه يرتدع، وأَن يزيلوا الفاسق من بينهم.فبولس يعلّم أَنّ جسد المسيحيّ لم يعد يخصّه، ولا يحقّ له التصرّف به على هواه، إِذ إِنّه عضو في جسد المسيح، ولا يسوغ تدنيسه بممارسة الزنى، ويبرّر بولس ذلك بهذا القول الرائع :

" أَما تعلمون أنّ أَجسادكم هي أَعضاء المسيح ؟ أفآخذ أَعضاء المسيح، وأَجعلها أَعضاء زانية ؟ حاشا وكلاّ ! أوَلا تعلمون أَنّ من اقترن بزانية يصير معها جسداً واحداً ؟... أَمّا الذي يقترن بالربّ فيكون معه روحاً واحداً.اهربوا من الفجور! إِنّ كلّ خطيئة يقترفها الإِنسان هي خارج الجسد.أَمّا الفاجر فإِنّه يجرم إِلى جسده.أوَلا تعلمون أَنّ أَجسادكم هي هيكل الروح القدس الذي فيكم، الذي نلتموه من اللّه ؟ وأَنّكم لستم بعد لأَنفسكم، لأَنّكم اشتُريتم بثمن كريم ؟ فمجّدوا اللّه، إِذن، في أَجسادكم ".

وبهذه النظرة عينها نظر بولس إِلى تقاضي المسيحيّين أَمام المحاكم الوثنيّة، من أَجل فضّ الخلافات الناشبة فيما بينهم، فالمسيحيّ، بصفته عضواً في جسد المسيح، يرتقي إِلى كرامة سامية تجعل منه حَكَماً على غير المؤمنين وعلى الملائكة.ويثور بولس استنكاراً: "أفتكونون غير أَهلٍ لإِنشاء أَصغر المحاكم ؟ أَليس فيكم حكيم واحد بوسعه أَن يقضي بين إِخوته؟" بل يمضي بولس إِلى أَبعد من ذلك، فيقول أَنّ أَصغر عضو في الكنيسة أهلٌ للقضاء في أمور الحياة الدنيا، غير أَنّه يعود فيستنكر مبدأ أَن يكون بين المؤمنين دعاوى، بل على المحبّة أَن تحكم في كلّ خلاف، فيحتمل المظلوم، ويرتدع الظالم، وتنتفي الدعاوى.وانطلاقاً

من توصية بولس هذه، اعتمدت الكنيسة فصل الدعاوى بين أَعضائها، حتّى أعلن قسطنطين المسيحيّة ديناً للدولة، فتولّت الدولة هذه المهمّة.

أمّا قضيّة الزواج والعفّة، فينظر إِليها بولس نظرة مزدوجة: نظرة أَخلاقيّة طبيعيّة، ونظرة صوفيّة روحيّة، وهو يقيس كلّ شيء بمقياس جسد المسيح السرّيّ، وحياة الجماعة الدينيّة.

فمبدئيّاً يرى بولس أَنّ العفّة تسمو على الزواج، ويودّ لو كان جميع الناس مثل يسوع ومثله.فالعفّة هي تقدمة حبّ للخير الأَسمى، وبذل ذات كامل وبطوليّ، نابع من إِرادة طاهرة.إِنّها نعمةٌ فائقة من اللّه، وتعبير عن حبّه، وإِنجاز رائع للإِرادة؛ ولكنّها، بذلك، لا يسعها إِلاّ أَن تكون امتيازاً استثنائيّاً موقوفاً على من مسّتهم النعمة، ودعوا إِلى مهمّة سامية.

"ولكنّ كلّ إِنسان ينال من اللّه موهبته الخاصّة، فبعضهم هذه وبعضهم تلك"، ومن ثمّ فالذين لم ينالوا موهبة العفّة لا يقلّون شأناً عمّن نالوها، بل هم نالوا موهبةً أُخرى، وكلتا الموهبتين، إِن روعيتا، تؤدّيان إِلى حياة أَبديّة واحدة.

و في مواجهة من كانوا يدعون إِلى مقاطعة الزواج، لم يرَ بولس في الزواج أَيّ انتقاص من كرامة الإِنسان، بل هو رادع عن الزنى، وإِذاً، "فليكن لكلّ رجل امرأته، ولكلّ امرأة زوجها ".وحتّى إِذا اتّفق الزوجان عن الامتناع عن العلاقات الجنسيّة، من أَجل التفرّغ للصلاة، فإِذا ما خشيا تجربة الشيطان، وعجزهما عن الالتزام بالعفّة، فلا بأس من عودتهما إِلى الحياة الزوجيّة.أَما غير المتزوّجين، فخيرٌ لهم أَن يلتزموا بالعفّة إِن استطاعوا إِليها سبيلاً، وإِلاّ فلا بأس من زواجهم، "لأنّ التزوّج خير من التحرّق"، شرط التقيّد بقوانين الزواج.

و يدعو بولس من اعتنقوا الدين المسيحيّ إِلى الحفاظ على ما كانوا عليه من وضع إجتماعيّ، من قبل؛ فالمسيحيّة لا تغيّر وضع الإِنسان الاجتماعيّ، بل تغيّر نظرته إِلى العالم، ووضعه الروحيّ.والظروف الخارجيّة لا تلعب أَيّ دور "في المسيح "، بل المهمّ هو الإِنسان الجديد.

قضيّة أُخرى استوضح الكورنثيون رأي بولس فيها، وهي تناول اللحوم الناتجة عن ذبائح الأوثان، أو الإِطّعام من مآدب الوثنيّين.وكانت تلك قضيّة تهمّ المسيحيّين في سيرتهم اليوميّة، إِذ كانت الذبائح التي تُقدَّم للآلهة في الهياكل الوثنيّة كثيرة جدّاً، فيوزّع قسمٌ منها، ويُباع القسم الآخر بأَسعار زهيدة، وكان معظم المسيحيّين الجُدد من الفقراء الذين يجدون في ابتياع هذه اللحوم مغنماً، وفرجاً.وفضلاً عن ذلك، كانت تقام في الأَعياد والمواسم مآدب شعبيّة مفتوحة للفقراء، فتساءل بعضهم هل يجوز لهم الإِطّعام منها، وهل يتوجّب عليهم رفض دعوة إِلى الطعام في منازل أَقرباء لهم أو أَصدقاء وثنيّين.

و كان موقف بولس، في هذا الشأن، مستوحىً من موقف معلّمه، فلا شيء ممّا يدخل الفم ينجّس الإِنسان.صحيح أنّ المشاركة في الطقوس الوثنيّة لا تليق بمسيحيّ، أمّا تناول أَطعمة الوثنيّين، واللحوم الفائضة عن التقادم، فلم يرَ فيه غضاضة.اعتراضه الوحيد اقتصر على ألاّ يسبّب تناول هذه اللحوم أيّ تشكيك لضعاف النفوس، وأيّ زعزعة لإِيمانهم؛ وفي عبارات رائعة يفيض في شرح رأيه قائلاً :"ليس لطعامٍ أن يقرّبنا إِلى اللّه، فإِن لم نأكل منه لا ننقص، وإِن أكلنا منه لا نزداد، ولكن احذروا أن تكون حرّيّتكم هذه سبب عثرة للضعفاء.. . إِذا كان بعض الطعام سبب عثرة لأَخي، فلن آكل لحماً أبداً.لا يسعينّ أحد إِلى منفعته، بل إِلى منفعة غيره.كلوا من اللحم ما يُباع في السوق، ولا تسألوا عن شيء مراعاة للضمير، لأَنّ للربّ الأَرض وكلّ ما فيها.وإِذ دعاكم غير مؤمن، ورغبتهم في تلبية دعوته، فكلوا من كلّ ما يُقدّم لكم، ولا تسألوا عن شيء مراعاة للضمير. ..".ولكنّه يحذّر من الاشتراك في طقوس ذبائح تقدّم لآلهة الوثن.ويوجز القاعدة الأساسيّة في هذا الشأن بقوله : "فإِذا أكلتم، إِذن، أو شربتم، ومهما فعلتم، فاعملوا كلّ شيء لمجد اللّه.كونوا بلا معثرة لليهود، ولليونانيّين، ولكنيسة اللّه.كما أَنّي، أنا نفسي، أُرضي الجميع في كلّ شيء، غير طالب ما هو لمنفعتي الخاصّة، بل ما هو لمنفعة الكثيرين، لكي يخلصوا". ويردّ على من منهم يرفع شعار :"كلّ شيء متاح لي "، ليضيف :"ولكن ليس كلّ شيءٍ ينفع"، "كلّ شيء مباح لي، ولكنّي، أنا، لا أُستعبَد لشيء"... "كلّ شيء مباحٌ لي"ولكن ليس كلّ شيءٍ يبني".

و يضرب بولس من نفسه مثلاً: "اقتدوا بي كما أَقتدي أنا بالمسيح" في عمل كلّ ما يبني نفس الآخرين ولو حرم نفسه من حقٍّ له: "ومع أَنّي حرٌّ من جهة الناس جميعاً، جعلتُ من نفسي عبداً لجميع الناس كي أربح أكثرهم... صرتُ للضعفاء ضعيفاً، وصرت للناس كلّهم كلّ شيء، لأخلّص بعضهم، مهما يكن الأَمر، وإِنّي أَفعل كلّ ذلك في سبيل الإِنجيل لكي أُشارك فيه".

و مع أَنّه بصفته راعياً ومبشّراً يحقّ له أَن يأكل من ثمر تعبه، فيُفرَز له من يخدمه، ويُقدّم له ما يقوم بأوده، أسوة بسائر الرسل، إِلاّ أَنّه حرم نفسه هذا الحقّ، فهو، كمعلّمه، ما جاء ليُخدَم بل ليخدُم، وعمل بيديه، لئلاّ يقيم مانعاً دون بشارة المسيح؛ وفي ذلك فخرٌ له يأبى أن ينتزعه منه أحد؛ ولكنّه لا يفتخر بالتبشير، "لأَنّه لي فريضة لا بدّ لي منها، والويل لي إِن لم أُبشّر!".فلو هو بشّر طوعاً لكان له حقّ في جزاء وثواب، ولكن، وقد قبض عليه الربّ في دمشق، وأوكل إِليه التبشير بإِنجيله، فلا فضل له، ولا حقّ له في أجر، بل أَجره هو أَن يبشّر مجّاناً.لا بل هو، حفاظاً على مصداقيّة بشارته، يتحمّل عنتاً كبيراً: "أَقمع جسدي وأعامله بشدّة،

مخافة أَن أكون مرفوضاً بعدما بشّرت الآخرين ".إنّه يحاكي لاعباً في ميدان يستنفد كلّ طاقات جسده، كي ينال إكليل الظفر.

و بعد هذا الاستطراد يعود بولس إلى الردّ على أسئلة الكورنثيّين وإلى تحذيرهم من العودة إلى السلوك الوثنيّ الذي كانوا عليه من قبل، من الشهوات الخبيثة، والزنى، ويدعوهم إلى التيقّظ الشديد: "فمن ظنّ أنّه قائم، فليحذر السقوط"، وإلى الاعتصام بالثقة باللّه، الذي لا يجرّب الإنسان فوق طاقته، "بل يؤتيكم، مع التجربة، وسيلة الخروج منها بالقدرة على تحمّلها".

ثمّ يتطرّق بولس إلى مواضيع جوهريّة في المسيحيّة، ومنها الإفخارستيّا التي كان مفروضاً أَن تكون رمز حضور الربّ غير المرئيّ بين المسيحيّين المشتركين، ومنبع طهارتهم، والتي وصفها حاكم وثنيّ بأَنّها اشتراكهم في"مأدبة البراءة ".ولكن في جماعة كورنثس كانت تحدث، في أثناء الاحتفال بها، تجاوزات ومخازٍ استنكرها بولس بعنف.فقد كان البعض يأتون بمآكل نفيسة، ويتناولونها بنَهم، ويسكرون مستأثرين بها، غير مشركين الآخرين ولا سيّما الفقراء، ممّا كان يبرز البوْن الاجتماعيّ بينهم وبين معظم أفراد الجماعة، ويُفسد جوّ الخشوع المفروض أَن يواكب ذكرى عشاء يسوع الأَخير مع الإثني عشر.ولذلك يعلن بولس لهم أَنّ "من أَكل خبز الربّ أو شرب كأسه ولم يكن أَهلاً لها، فقد أَذنب إلى جسد الربّ ودمه... فمن أَكل وشرب وهو لا يميّز جسد الربّ، أَكل وشرب الحكم على نفسه ".

ثمّ يتكلّم بولس عن تعدّد المواهب التي منحت للمؤمنين وتنوّعها، مؤكّداً "أَنّ المواهب على أنواع، وأَمّا الروح فهو هو، وإِنّ الخدمات على أَنواع، وأَمّا الربّ فهو هو، وإِنّ الأَعمال على أَنواع وأَمّا اللّه الذي يعمل كلّ شيء في جميع الناس فهو هو"، ويفضي به ذلك إلى مبدأ جوهريّ في تعليم بولس، مبدأ "جسد المسيح السرّي"، فللجسد أَعضاء كثيرة ولكنّها جميعها متضامنة متكاملة، لاغنى لأحدها عن الآخر ولا تفوُّق لأحدها على الآخر؛ وهكذا كلّ مسيحيّ هو عضو له وظيفة محدّدة في جسد المسيح الواحد.ولا يفتخرنّ أَحدٌ بما أوتي من مواهب، أو بما أوكل إليه من مهامّ، فهذه كلّها، إن لم تسدْها روح المحبّة فهي باطلة.وهنا تتدفّق روح بولس من خلال"نشيد المحبّة"النبويّ، درّة كتابات العهد الجديد، والذي يداني أَقوال يسوع، سموّاً :

نشيد المحبّة :

" لو كنت أنطق بألسنة الناس والملائكة، ولم تكن فيّ المحبّة، فإنّما أنا نحاسٌ يطنّ أو صنجٌ يرنّ.ولو كانت لي النبوّة، وكنت أعلم جميع الأسرار، وأُحيط بالعلم كلّه؛ ولو كان فيّ الإيمان كلّه حتّى لأنقل الجبال، ولم تكن فيّ المحبّة، فلست بشيء.ولو تصدَّقت بجميع أموالي، ولو أسلمت جسدي للحرق، ولم تكن فيّ المحبّة، فلا أنتفع شيئاً.

المحبّة تتأنّى وترفق، المحبّة لا تحسد، المحبّة لا تتباهى، ولا تنتفخ.لا تأتي قباحة ولا تطلب ما لنفسها؛ لا تحتدّ ولا تظنّ السّوء؛ لا تفرح بالظلم، بل تفرح بالحقّ؛ تتغاضى عن كلّ شيء، وتصدّق كلّ شيء، وترجو كلّ شيء، وتصبر على كلّ شيء.

المحبّة لا تسقط أبداً، أمّا النبوءات فستبطل، والألسنة تزول، والعلم يضمحلّ.فإنّ علمنا ناقص ونبوّتنا ناقصة.فمتى جاء الكامل أُبطل الناقص.لمّا كنت طفلاً، كنت أنطق كطفل، وأعقل كطفل، وأُفكّر كطفل.فلمّا صرت رجلاً أبطلت ما هو للطفل.

ما نراه اليوم صورة مشوّشة في مرآة، أمّا في ذلك اليوم فسنرى وجهاً لوجه؛ الآن علمي ناقص، أمّا حينئذٍ، فستكون معرفتي كاملة كمعرفة اللّه لي.

الآن يثبت الإيمان والرجاء والمحبّة، بيد أنّ أعظم هذه الثلاثة هي المحبّة. "

لقد كان قلب بولس يستعر بنارٍ ليست من هذا العالم.وكان الهوى الذي يغمر كيانه يحمله على تعريف البشر أجمعين بحبّ المسيح الفادي والشامل، وعلى إضرام العالم بهذا الحبّ.التقاؤه المسيح في دمشق كان قد أحرق فيه كلّ مطمع شخصيّ، وبات يقيس كلّ جهوده بمقياس هذا الحبّ الجديد الذي استولى على ذاته، حبّ رمزه الصليب وقلب ابن اللّه المطعون، حبٍّ لا يحفل بمنفعة خاصّة، ولا يبتغي متعةً، بل يستحوذ على الكيان ويتغلغل إلى أعماقه، ويحوّله.لم يكن بوسع أيّ شاعر أن يصف المحبّة كما وصفها بولس، وهو محدّق إلى صورة محبّة المسيح.

بهذا النشيد الجديد، جعل بولس من المحبّة معياراً للحياة المسيحيّة، التي ينبغي أن تكون تمثّلاً بالمسيح، أي نظرة مثبتة على نموذجه، ونشاطاً مستوحى من رؤيته.وبذلك أهدت المسيحيّة العالم روحاً جديداً.

و من ذلك يتّضح أنّ المواهب والنبوءات والتكلّم بلغات لا جدوى منها إن لم تسهم في تعميق معرفة المسيح ومحبّته؛ أمّا كلّ مايُبعد عن المسيح أو ينكره فليس من روح المسيح؛ وبما أنّ المسيح والكنيسة يكوّنان وحدةً لا انفصال فيها، فإنّ كلّ ما يسهم في بناء الجماعة، ويذكي الروح الجماعيّ هو من عمل الروح القدس؛ أمّا كلّ مايبعث على الفرقة والخصام والحسد، وعبادة الذات، فهو من عمل الشرّير.

و مرّة ثانية يضرب بولس من ذاته مثلاً فيقول: "إنّني، والحمد للّه، أتكلّم بلغات أكثر ممّا تتكلّمون كلّكم، ولكنّي أوثر أن أقول، وأنا في الجماعة، خمس كلمات بعقلي أعلّم بها الآخرين، على أن أقول عشرة آلاف كلمة بلغات"، بعبارة أُخرى "فليكن كلّ شيءٍ من أجل البنيان".

و يأتي بولس أخيراً على قيامة الأموات التي تحيّر أفكار الكورنثيّين، فيضرب لهم مثَل حبّة الحنطة أو أيّة بذرة أُخرى، التي متى طرحت في الأرض، فسدت وماتت، وانبثقت من قشرتها نبتة جديدة.كذلك ستنبعث البذرة الإلهيّة التي أودعت فينا بالمعموديّة على غرار جسد المسيح الممجّد.

إنّ تعليم القيامة هو ركن أساسيّ من البشارة : "إن كان المسيح لم يقمْ، فتبشيرنا باطل، وإيمانكم، أيضاً، باطل"، فلولا القيامة لكان صلب المسيح وموته بلا جدوى.ولكنّ القدرة الإلهيّة التي أبداها الآب لصالح ابنه، دليلٌ دامغ على أنّ يسوع هو ربّ ملكوت السماوات.

و بانضمام المسيحيّ إلى جسد المسيح السرّيّ يضمن قيامته الأخيرة.لقد كانت قيامة المسيح فجر عهد جديد، وسيكون مجيئه الثاني غروب هذا العهد.إنّ كلّ مسيحيّ شريك في موت يسوع وقيامته، تلك القيامة التي كفّرت عن خطيئة آدم، وصحّحت عواقبها: "عن يد إنسان أتى الموت، وعن يد إنسان، أيضاً، تكون قيامة الأموات.وكما يموت جميع الناس في آدم، كذلك سيحيون جميعاً في المسيح ".والقيامة هي التي تبرّر جميع ما نبذل من تضحيات، وما نصارع من مصاعب، وما نتحمّل، في سبيل إيماننا، من عنت، "فإن كان رجاؤنا في المسيح مقصوراً على هذه الحياة، فنحن أحقّ جميع الناس بالرثاء "، و" إذا كان الأموات لا يقومون، فلنأكل ولنشرب، فإنّنا غداً لنموت ".أمّا وأنّنا، بموتنا عن الخيطئة، في المسيح، سنقوم مع يسوع، فبولس ينشد نشيد الظفر :

" متى لبس هذا الكائن الفاسد ما ليس بفاسد، ولبس الخلودَ هذا الكائن الفاني، حينئذٍ يتمّ قول الكتاب :"قد ابتلع النصرُ الموتَ "؛ فأين، يا موت، نصرْك ؟ وأين، يا موت، شوكتك ؟ إنّ شوكة الموت هي الخطيئة، وقوّة الخطيئة هي الشريعة.فالشكر للّه الذي آتانا النصر، بربّنا يسوع المسيح "!

ثمّ يُسدي بولس ببعض نصائح عمليّة، أهمّها دعوته إلى النضج العقليّ والروحيّ، فيقول :"أيّها الإخوة، لا تكونوا أطفالاً في أحكامكم.كونوا، في الشرّ، أطفالاً، أمّا في أحكامكم، فكونوا بالغين "...

و بشأن تقديم العون لكنيسة أورشليم يحثّهم على ادّخار مبلغ في أوّل كلّ أسبوع لهذا الغرض، بحيث يتجمّع مبلغ كافٍ عندما يأذن موعد إنفاذ هذه المساعدات لغايتها.ويوصيهم،

أَيضاً بحسن وفادة تيموثيوس الذي أرسله إِليهم، وإِعادته إِليه سريعاً.ويوجز هذه التوصيات بالقول :"اسهروا، أُثبتوا في الإِيمان، كونوا رجالاً، تقوّوا.وليتمّ كلّ شيء عندكم في المحبّة"

تبارك الربّ الذي يستنبط من الشرّ خيراً، فمن ضلال بعض الكورنثيّين، ومن مخازي بعضهم، تفتّقت عبقريّة بولس عن هذه الفصول الزاخرة بالكنوز اللاهوتيّة النفيسة، وفاض قلبه بنشيد المحبّة الرائع، ونشيد النصر على الخطيئة والموت، وجاد فكره بنصائح خالدة جديرة بأن تنهض أَساساً لمسلكيّة مسيحيّة سامية.وقد أَثبت الرسول، عبر هذه الفصول، عظمة شخصيّته وفكره الذي يقرن الواقعيّة بالصوفيّة، واقعيّة تمكّنه من تشخيص أمراض أَبنائه الروحيّة، وصوفيّة لا تتيه في شعاب النظريّات المجرّدة، بل تستند على أَساس صليب يسوع وقيامته.وقد أَثبت بولس، أَيضاً، أَنّه ارتقى، في أفسس، إِلى قمّة سامقة في فنّ الرسالة، وبخفقة جناحٍ جبّارة حلّق إِلى سماء مبادئ خالدة، انطلاقاً من أَحداث عابرة.

كان بودّ بولس تبليغ هذه الرسالة بواسطة أبولّس، للتأكيد على الوحدة المتينة التي تربطهما؛ غير أَنّ أبولّس استنكف عن هذه المهمّة لئلاّ يفسح للمتحزّبين له فرصة التوغّل في ضلالهم، فأوكل الرسول المهمّة إِلى سستينُس، رئيس المجمع السابق، الذي عرفت عنه علاقته الوثيقة بأبلّس.

يبدو أنّ لا رسالة بولس ولا مساعي تيموثيوس أَفلحت في ردع الفاسدين المفسدين في كورنش.وعاد تيموثيوس، فأشار على بولس بالمثول شخصيّاً إلى كورنش، فحضوره، ولو لفترة وجيزة، كفيل بإعادة الأمور إلى نصابها.ومع أنّ مشاغل الرسول في أفسس كانت متراكمة وطاغية، إلاّ أنّه تملّص منها، بضعة أسابيع، ويمّم شطر كورنش حيث لم يكن حضوره أكثر فعّاليّة من رسالته.وربّما لم يقدّر تيموثيوس مدى خطورة الوضع هناك، حقّ قدره.

لم يفصح لوقا بشيءٍ عمّا حدث في كورنش، ربّما بدافع الخَفَر، لأنّ ما حدث كان بشعاً، مقزّزاً ومؤلماً.ويمكن استخلاص أنّ بولس قد اصطدم، في كورنش، بفئةٍ من الذين أَصغوا لخصومه، فاتّخذوا منه موقفاً معادياً.كما أنّ مسيحيّاً جلفاً فاسقاً، منحلّ الأَخلاق ردّ على ملاحظات بولس وتنديده بصلَف وفظاظة، فأهانه وأَهان الجماعة كلّها.واتّضح لبولس أنّ الشرّ من العمق بحيث تحتاج معالجته إلى وقت مستفيض، في حين كانت مهامّ عاجلة تستدعي حضوره في أفسس، فآثر العودة إليها، على أن يعود إلى كورنش لاحقاً، فاسحاً للمذنب فرصةً كي يندم ويتوب، ويرجع إلى جادّة الصواب.

و من أفسس كتب، "في الدموع"، رسالة أُخرى إلى الكورنثيّين، لم يبقَ منها أثر.ولبث ثلاثة أَشهر في قلقٍ مقيم، متسائلاً، بتوجّع، عمّا آلت إليه الأمور.أَتُرى صحا، أَخيراً، أحبّاؤه الكورنثيّون من سكرتهم، وتغلّبت عواطف المودّة التي كانوا يضمرونها له، أم إنّهم آثروا بتر الصلات به ؟ وأَخيراً، كي يستبين واقع الأَمر، أوفد تيطس إلى كورنش، وزوّده بصلاحيّات مطلقة، وكلّفه بعمل كلّ ما يراه ملائماً، وكأنّه بولس نفسه.

و في الآن عينه، ما انفكّ بولس فريسة هواجس الشعوب المختلفة التي بشّرها، فهموم الكنائس كانت تطارده، وتلازمه، إذ كان لا مفرّ للكنيسة، في مطلع عهدها، من أَن تتعرّض لاضطرابات، ودسائس، وتجارب خطيرة.وكان بولس دائماً لها بالمرصاد، كي يدرأها، ويثبّت إيمان الإخوة، ويقوّم كلّ اعوجاج.ولم تبارح خاطره، يوماً، الشعوب التي ما زالت تفتقر إلى أنوار الإنجيل.وربّما لم ينهضْ، قطّ، كاهل قائد عظيم "بعبء النفوس"، مثلما نهض كاهل بولس.

و قد أَثبت بولس قدرة فذّة على الاضطلاع بمهامّ عديدة في آنٍ واحد.فهو مع مجابهته مشكلات الحاضر.ومستلزماته الجسيمة، ما فتئ يستقري، عن كثب، أوضاع الجماعات التي أَسَّسها من قبل، ويرسم للمستقبل خُطَطاً.

و في حين كانت جماعة كورنثس ترتجّ وكأنّ زلزالاً قد ضربها، جاءت، من غلاطية، أنباء مقلقة عن متهوّدين قدموا من أورشليم، واندسّوا في الجماعة حيث مضوا يعيثون فساداً، زاعمين أَنّهم موفدون من قبل يعقوب، وأَنهم، دون سواهم، يمثّلون الإِيمان الصحيح، جاهدين في تقويض كلّ ما بناه بولس، وفي تعكير التناغم التامّ السائد بين تلك الجماعة والرسول.وانطلقوا يتكلّمون في بيوت أَكثر الإِخوة نفوذاً، وفي أَثناء طقوس الصلوات الجماعيّة، مكرّرين تخرّصاتهم وادّعاءهم أَنّ بولس إنّما بشّر بإنجيل مشوّه، وأَنّه ليس رسولاً حقيقيّاً نظير أولئك الموجودين في أورشليم، فهو لم يشهد الربّ يوماً، بل تلقّن ما يعرفه عن المسيح من الرسل الأوائل المؤهّلين وحدهم للتعليم، وأَنّه فشل في أورشليم ففرّ إِلى البلدان النائية، بعيداً عن كلّ حسيب أو رقيب، وأَغفل جوهر التعليم الذي يفرض على الوثنيّين الذين يؤمنون بالمسيح أَن يتقيّدوا بجميع بنود شريعة موسى، وإِنّما هو فعل ذلك لكي يجتذب أَكبر عددٍ من الوثنيّين.لا بل إِنّ بعضاً من أولئك المضلّلين راحوا يوسوسون في آذان الإِخوة: "حسبكم أَن تلتزموا بوصايا الشريعة، حرفيّاً، وبعدئذٍ، سيكون بوسعكم أن تفعلوا ما تشاؤون"، ممّا كان كفيلاً بإِفساح المجال لكلّ أَنماط الشذوذ والشطط.

من كان أولئك المفسدون ؟ فئة من اليهود المناهضين للرسالة المسيحيّة، الذين كانوا يقاومون كلّ ما ليس يهوديّاً، والذين اندسّوا في ثنايا الكنيسة الناشئة وحاولوا ممارسة الضغوط على الرسل أنفسهم، وفئة من المسيحيّين القادمين من اليهوديّة الذي أَبوا الانفكاك عن الشريعة الموسويّة، وظلّوا حريصين على فرض الختان على الجميع.ولا عجب إِن دعاهم بولس "الدخلاء، الإِخوة الكذبة، الذين اندسّوا خلسة فيما بيننا، ليتجسّسوا حرّيّتنا، تلك التي لنا في المسيح يسوع، بغية استعبادنا ".

صحيحٌ أَنّ بولس كان قد زار الغلاطيّين في مستهلّ رحلته الرسوليّة الثالثة، وثبّت إِيمانهم إِلى حين، ومع ذلك استبدّ به القلق، وهو يتصوّر الأَخطار المحيقة بالكنيسة الأولى التي أَسّسها في الآلام والدموع، واشتدّت به الرغبة في الشخوص إِلى أولئك الأبناء الأعزّاء الذين عرفهم أولاداً كباراً عيونهم تنطق بالمودّة، وقلوبهم متقلّبة.غير أَنّ المهامّ المتراكمة لم تتح له المضيّ إِليهم.

و لو كان الأَمر ينحصر في نيل المفسدين منه شخصيّاً لما اكترث بالأَمر كثيراً؛ ولكنّه لم يُطق أَن يتلاعبوا بعقول قوم طيّبين، لزعزعة إِيمانهم، وأَن يسلبوهم الحرّيّة التي نالوها بالمسيح، وأبى أَن تحلّ وصايا شريعة جامدة مندثرة محلّ الفرح المتفجّر، ومواهب الروح التي حلّت عليهم، عندما آمنوا بيسوع.

كان الرهان، إذن، خطيراً، إذ إنّ الأمر يتعلّق بجوهر الإيمان الذي بشّر به بولس، وبمستقبل المسيحيّة التي كان أعداؤها يسعون، جاهدين، لوأدها في مهدها.فهل بوسع بولس، والحالة هذه، أن يدع الدعوة التي انبثقت من الجليل، انبثاق ربيعٍ مثقلٍ بالوعود، تتهاوى في مقبرة التاريخ، ولكأنّ المسيح لم يكن سوى صاحب بدعة تنتهي بموت مبدعها ؟ لقد تعيّن على بولس أن يذود عن إرث يسوع الخالد، المحمول على أجنحة الروح، كي يواصل تحليقه الجريء، في أرجاء المسكونة، معلناً، في كلّ مكان، تعليمه الأبديّ : عبادة اللّه بالروح والحقّ، إله لا يقتضي من الإنسان سوى قلبه وإيمانه، ولا يرتكز ملكوته على أسلوب الأكل والشرب والاغتسال، بل يكمن في فرح الروح القدس، وفي موقفٍ داخليّ يجعل الإنسان يهتف للّه: "أبّا، أبتِ ".في سبيل هذا الهدف كان بولس قد ناضل، ببسالة، في أورشليم، وفي أنطاكية، غير متهيّب مواجهة أيٍّ كان، منتهجاً دروباً بكراً، متحمّلاً من التضحيات والآلام، ما لم يتحمّل مثله إنسانٌ قطّ، معلناً، بجرأة، بطلان مفعول الشريعة كعامل خلاص، وهو الذي كان قد نشأ في أحضان الشريعة، واضطهد أتباع يسوع بشراسة، انتصاراً لها، قبل أن يشرق على نفسه نور الإيمان المسيحيّ.

و إذ تعذّر على بولس الشخوص إلى غلاطية لتوضيح كلّ ذلك، لجأ إلى أسلوب الرسالة الذي كان يمكّنه من إثبات أعمق خواطره، والتعبير عن كوامن نفسه، بكلام لا يتطاير في الهواء، بل يظلّ مرجعاً لكلّ باحث عن الحقيقة، جيلاً إثر جيل.

و قد جاءت لهجة تلك الرسالة ملتهبة، لاهثة، تقرن المنطق المحكم بالعاطفة المشبوبة، وحنان الأُمّ، معبّرة عن تأثّر بالغ واندفاع مضطرم، عن استنكار لدسائس الدخلاء الخبيثة، وتقلّب الغلاطيّين الذين يصفهم، تارةً، بالغباء والحمق، وتارةً بالأبناء الصغار الأعزّاء، "الذين أتمخّض بهم مرّة أُخرى، حتّى يتصوّر فيهم المسيح"، مفصحاً لهم عن تنديده بتذبذبهم: "الآن، وقد عرفتم اللّه، بل بالحريّ عرفكم اللّه، فكيف ترجعون إلى هذه الأركان السقيمة البائسة التي تريدون من جديد أن تتعبّدوا لها ؟ "، ومعرباً عن مرارة خيبة أمله فيهم: "أخشى أن أكون قد تعبت فيكم عبثاً"، ويضرب على وترٍ حسّاس، إذ يذكّرهم بحسن وفادتهم وخدمتهم الرائعة له، عندما جاءهم للمرّة الأُولى، عليلاً مقزّزاً، فلم يضنّوا بشيء لعلاجه.

و تدور الرسالة حول محورين رئيسيَّيْن يتداخلان ويتقاطعان : هما الدفاع عن أصالة بشارة بولس ومصداقيّتها، والتأكيد على إنجيل الخلاص بالإيمان، لا بالشريعة، وتتّضح هذه الغاية المزدوجة، منذ مستهلّ الرسالة حيث يقول: "من بولس – وهو رسولٌ لامن قبل الناس، ولا بمشيئة إنسان، بل بمشيئة يسوع المسيح، واللّه الآب الذي أنهضه من بين الأموات...

عليكم النعمة والسلام من لدن اللّه الآب، والربّ يسوع المسيح، الذي جاد بنفسه من أجل خطايانا، لكي ينقذنا من دنيا الشرّ هذه، عملاً بمشيئة إلهنا وأبينا. "

ثمّ يشرع فيأخذ على الغلاطيّين سرعة ارتدادهم عمّا بشّرهم به، وانسياقهم وراء قوم لا همّ لهم سوى زرع البلبلة، واستعبادهم، بسلبهم الحرّيّة التي جاءهم بها المسيح.وبكلمات حازمة يدعوهم إلى الالتزام بالإنجيل الذي تلقّوه منه :"فلو بشّرناكم، نحن أنفسنا، أو بشّركم ملاك من السماء، بخلاف ما بشّرناكم به، فليكن محروماً. "

و يسارع إلى الدفاع عن سلامة تعليمه، وأهليّته للرسالة التي أنكرها عليه المندسّون: "فالبشارة التي بشّرت بها، ليست على سنّة البشر لأنّي ما تلقّيتها، ولا أخذتها عن إنسانٍ، بل بوحيٍ من يسوع المسيح "، الذي ظهر له عند مشارف دمشق، إذ "قد حسن لدى اللّه الذي فرزني من بطن أُمّي، ودعاني بنعمته أن يكشف لي ابنه، كي أُبشّر به بين الوثنيّين ".وعندما يتكلّم اللّه، فعلى اللحم والدم أن يخرسا.

و يذكّر بأنّه لم يصعد إلى أورشليم، إلاّ في السنة الثالثة التي عقبت اهتداءه، ولم يمكث فيها سوى خمسة عشر يوماً، ولم يقابل سوى بطرس ويعقوب أخي الربّ؛ ولم يعد إليها إلاّ بعد أربعة عشر عاماً ومعه برنابا وتيطس الذي كان يشارك في الرسالة وهو غير مختون، وبسط بين أيدي أعمدة الكنيسة التعليم الذي كان يلقّنه بين الوثنيّين، والذي لم يحدْ عنه منذ البدء، والمستوحى من تعليم يسوع، والذي لا يعتمد إلاّ الإيمان بيسوع – لا الالتزام بالشريعة – شرطاً للعماد.وقد اعترف أعمدة الكنيسة بصواب موقفه، ومدّوا له يُمنى المشاركة.وذكّر، بما لم يذكره لوقا في أعمال الرسل، أي بمجابهته لبطرس نفسه، عندما ضعف حيال ضغوط المتهوّدين، فأخذ ينأى عن مجالسة المسيحيّين غير المختونين.

و يبيّن بولس أنّ موقفه هذا مستوحى من تعليم الإنجيل ذاته الذي أشرع عهداً جديداً، بات معه "الإنسان لا يُبرَّر بأعمال الشريعة، بل بالإيمان بيسوع المسيح... ابن اللّه الذي أحبّنا، وجاد بنفسه من أجلنا، فإن كان البرّ يُنال بالشريعة، فالمسيح، إذن، قد مات سُدًى" لقد افتدانا يسوع من لعنة الشريعة، إذ صار لعنةً من أجلنا..." و" في المسيح يسوع لا شأن للختان ولا للقلف، إنّما الشأن للإيمان العامل بالمحبّة"

"فإن عدتُ أبني ما قد هدمت، جعلتُ نفسي متعدّياً... إنّي قد صلبتُ مع المسيح، فلستُ، أنا، حيّاً بعد، بل هو، المسيح، يحيا فيّ"

و يعبّر بولس تعبيراً قمّةً في البلاغة عن التحوّل الجوهريّ الذي أحدثه مجيء يسوع بقوله: "ولمّا جاء الإيمان، واعتمدتم في المسيح، لبستم المسيح، فليس هناك، بعدُ، يهوديّ ولا

يونانيّ، وليس عبدٌ وحرّ، ليس ذكرٌ وأُنثى: "لأنّكم جميعاً واحد في المسيح يسوع".ولم يعد للشريعة مكان.

و لكي يوقظ الغلاطيّين من تيههم يسألهم: "أترى أنّ الذي يهبكم الروح، ويُجري المعجزات بينكم، يفعل ذلك لأنّكم تعملون بأحكام الشريعة، أم لأنّكم سمعتم بشارة الإيمان؟" ولكأنّه يقول لهم، بعبارةٍ أُخرى : "عندما تلقّيتم نعم الروح القدس ومواهبه، إثر تبشيري لكم، لم يكن لكم علم باليهوديّة، ولا بالشريعة.فما الذي سحركم، وقلقل قناعاتكم ؟ أبلغ بكم الغباء، إلى هذا الحدّ؟"، ويضرب مثلاً قد يكون موجّهاً إلى المتهوّدين المفسدين، أكثر منه إلى الغلاطيّين، إبراهيم، أبا المؤمنين، الذي نال نعمة الإيمان وموعد اللّه، مئات السنين قبل نزول شريعة موسى.والشريعة لم تنزل إلاّ لتضبط شعباً نسي ربّه، وتبنّى عادات البرابرة، وبات يفتقر إلى مربٍّ، وقيود، انتفت الحاجة إليها بمجيء يسوع، الذي كان صليبه حدّاً فاصلاً بين حقبتين.

و يسوع جاء البشر بالحرّيّة، حرّرهم من قيود الشريعة ومن أغلال الخطيئة، وإذن "فانعموا بهذه الحرّيّة، واثبتوا فيها، ولا تدعوا أحداً يعود بكم إلى نير العبوديّة"، "ولكن لا تجعلوا هذه الحرّيّة فرصة للجسد، بل كونوا، بالمحبّة، خدّاماً بعضكم لبعض"، فقد باتت الشريعة الجديدة، شريعة يسوع، تُختزَل في وصيّة واحدة: "أحبب قريبك كنفسك"، "فإذا كنتم تنهشون وتأكلون بعضكم بعضاً، فاحذروا أن تفنوا بعضكم بعضاً".

و أخيراً ينصح الغلاطيّين – ومن خلالهم المسيحيّين جميعاً – بالسلوك اللائق بيسوع، وهو السلوك وفقاً لقيادة الروح، فيقول :"أُسلكوا بالروح، فلا تقضوا شهوة الجسد، فإنّ الجسد يشتهي ما يُخالف الروح، والروح يشتهي ما يخالف الجسد... أعمال الجسد بيّنة : الفجور والنجاسة والعهر، وعبادة الأوثان والسحر، والعداوات والخصومات والأطماع، والمغاضبات، والمنازعات، والمشاقّات والبدَع، والمحاسدات، والسكر، والقصوف، وما أشبه ذلك... إنّ الذين يفعلون أمثال هذه لا يرثون ملكوت اللّه.

"أمّا ثمن الروح فهو المحبّة والفرح والسلام، وطول الأناة، واللطف، والصلاح، والأمانة، والوداعة والعفاف... لأنّ الذين هم للمسيح يسوع صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات.فإن كنّا نحيا بالروح، فلنسلكنّ أيضاً بحسب الروح... فلا نُعجَب بأنفسنا، ولا نتحدَّ ولا نحسدْ بعضنا بعضاً... بل إحملوا بعضكم أحمال بعض، وهكذا أتمّوا شريعة المسيح"

و بيد مرتجفة، وبأحرف كبيرة، يختم بولس الرسالة بخطّ يده موجزاً ما قاله، مؤكّداً أنّ المندسّين المفسدين الذين يتشدّقون بالشريعة، ولكنّهم لا يحفظون من وصاياها إلاّ ما يمالئ أهواءهم، إنّما يحرّضون الغلاطيّين على الختان لكي يفخروا بأجسادهم، ويضيف بولس: "أمّا

أَنا فمعاذ اللّه أَن أَفتخر إِلاّ بصليب ربّنا يسوع المسيح، الذي به صلب العالم لي، وأَنا صلبتُ للعالم. "

في الرسالة إِلى الغلاطيّين تجلّت عبقريّة الرسول تجلّياً فذّاً منقطع النظير : رؤى فسيحة ومضيئة، جَدَليّة حادّة، سخريّة لاذعة، منطق يمضي إِلى آخر شوطه؛ أرقّ ما في المحبّة من حنان، وأعنف ما في الاستنكار من حدّة.وكلّ ذلك مصهورٌ في سكيبة واحدة صلبة.الإِنشاء يلتحم بالفكرة، ويواكبها، ولا يؤخّر مسيرتها؛ الكلمات الهزيلة، العليلة، مثل جسد بولس، تنوء حتّى تكاد تهوي تحت وِقْر فكرةٍ جبّارة، وتتفجّر مثل قشرة نبتةٍ كثيرة الامتلاء، نفسٌ مضطرمة في جسد عليل، فكرةٌ، وعبارات تتحرّق إِلى الاكتمال.وسلاح بولس مشحوذٌ أَبداً، ومشهر في وجه كلّ فرّيسيّة، وكلّ حرفيّة متجمّدة.

تلك الرسالة، بكثافتها، وعمقها، وإِيجازها، أَشعّت بنور باهر، وباتت نبراساً للكنيسة الجامعة، ولكلّ إِنسان يتلمّس طريقه نحو اللّه.وربّما لم يجُل ببال الغلاطيّين، وهم يقرأونها، أَنّهم كانوا يحملون كنزاً ذا قيمة عالميّة خالدة، ونشيد تسبيح للحرّيّة السامية التي دعا إِليها يسوع المؤمنين به، على أَن يعملوا، دائبين، على استحقاقها.وحينئذٍ يستطيع كلٌّ منهم أَن يهتف، مع بولس :"لستُ، أَنا، من يحيا، بعدُ، بل المسيح، هو الذي يحيا فيّ".

أنفق بولس في أفسس ثلاث سنوات حافلة بالإنجازات والمِحَن، كان حصادها وفيراً، فعوضاً عن إِثني عشر"نصف مسيحيّ"التقاهم فيها عند وصوله، باتت، ثمّة، جماعة مزدهرة، فضلاً عن نواة مسيحيّة حيّة نشأت في مدن مجاورة عديدة، مثل كولوسّي، وهييرا بوليس، واللاذقيّة؛ وبعد أن اتّضح لبولس أَنّ تلك الجماعات أمست قادرة على الانطلاق بأجنحتها الخاصّة، تأهّب لتحقيق حلمه بالمثول إِلى أورشليم، لتسليم الإِعانات التي جمعها لها من كنائس آسية وأوروبة، ومنها الانطلاق إِلى روما، محجّة أحلامه.فهو بعد أَن لمس منعة النسر الرومانيّ وسطوة روما، استقرّ في يقينه أَنّ على روما أَن تصبح عاصمة المسيحيّة، كي تشعّ أنوارها إِلى الأمصار كلّها.

كان قد ضرب لتيطس موعداً في ترواس حيث سيلتقيه عائداً من مهمّته في كورنثس، ووجّه إِلى مقدونية إِثنين من معاونيه، تيموثيوس وأرستُس، كي يمهّدا لقدومه، ولكنّه لم يكن يتوقّع أَن يتمّ رحيله عن أَفسس في أَسرع ممّا حسب، وقد أَجبرته على هذا الرحيل المباغت ثورة المتاجرين بتماثيل أَرتميس.

ففي تلك السنة كان موعد المهرجان الأكبر الذي تشهده أفسس كلّ أَربع سنوات، في شهر نيسان – أو أرتميسيون – تكريماً لإلاهة المدينة أرتميس، إِذ تتحوّل المدينة كلّها إِلى مسرح هائل، مسرح هرج وعربدة يتدفّقان في الشوارع والأزقّة والساحات، حيث يتراصّ السائحون والفضوليّون القادمون من كلّ صوب لتقديم فرائض العبادة لإلاهة الخصب، وإطلاق العنان لأهوائهم، في أجواءٍ من البهجة والإِباحيّة.

في تلك المناسبة، كانت المدينة وضواحيها تتَّشح بحلل الزينة والزهور، وكان النهار يضجّ بالأَضاحي، والتطوافات، والألعاب، فيما تضيء النجوم المتلألئة ليالي الرقص والطرب والمجون.وكان كبار التجّار يموّلون تلك الاحتفالات فيجنون منها شهرة ونفوذاً، إِلى جانب المغانم المادّيّة المجزية.

و لكن، في تلك السنة، تبيّن للسحرة والمشعوذين، ولصانعي تماثيل أرتميس وبائعيها، أَنّ تجارتهم تعاني ركوداً، وأَنّ الإِقبال على سلعهم وخدماتهم قد تدنّى كثيراً عمّا أَلِفوه من قبل.وكان من أَكثر المتضرّرين بهذا الركود، واحد من كبار الصيّاغ، يُدعى ديمتريوس فقد أَلِف، منذ سنوات، تصنيع تماثيل للإِلاهة أرتميس ولهيكلها، من موادّ ومعادن متنوّعة، بأَحجام وأَسعار مختلفة، ويوفّر، بذلك لصنّاع كثيرين، عملاً دائماً، ويزوّد الباعة بمنتوجاته التي تضمن لهم أرباحاً مجزية، ولا سيّما في سني المهرجان الكبير.ولكن، من جرّاء الركود، طالت

البطالة بعض الصنّاع، ورأى معظم الباعة حجم أعمالهم ينكمش ويتضاءل.فاستغلّ ديمتريوس نقمة هؤلاء وأولئك، ونقمة أرباب الصناعات المماثلة، ودعاهم إلى اجتماع في السوق، وألقى فيهم خطاباً صاغه بدقّة ومهارة، وجمع فيه بين شحذ جشع بعضهم، واستفزاز بعضهم، ذوداً عن مورد رزقهم، ودغدغة الغرائز الدينيّة والوطنيّة، وإثارة التطيّر الخرافيّ لدى معظمهم، فقال :

" أنتم تعلمون، أيّها الإخوان، أنّنا نستمدّ رخاءنا من هذه الصناعة.ولقد رأيتم وسمعتم كيف أقنع هذا المدعوّ بولس، وأغوى كثيراً من الناس، لا في أفسس فحسب، بل في معظم أنحاء آسية بقوله أنّ الآلهة التي تصنعها الأيدي، لا تمتّ إلى الألوهة بصلة.وهذه الأقوال الخطرة لا تؤدّي فقط إلى امتهان صناعتنا، بل تعرّض هيكل الإلاهة العظيمة أرتميس للازدراء، وتهدّد عظمتها بالانهيار، وهي التي يعبدها جميع الناس في آسية وفي العالم كلّه ".

و ما كاد ديمتريوس يفرغ من هذا الخطاب حتّى سرت بين الحضور موجة غضب وثورة فراحوا يجأرون: "عظيمة هي أرتميس، إلاهة أفسس!" وهتف بعضهم: "إلى المسرح ! إلى المسرح ! فليُحاكم بولس، ويُرمَ إلى الأسود ! ".وكأنّ إشارة أُعطيت، فاندفع الشعب الثائر "اندفاع رجل واحد" باتّجاه الأغورا، في حين أنفذ ديمتريوس رجاله يحرّضون الرعاع الذين انضمّ إليهم اليهود، للتأكيد على تباينهم عن المسيحيّين، وعلى معاداتهم لبولس وتعاليمه.واتّجهت فئة من الثائرين إلى بيت أكيلا حيث كان يسكن بولس؛ ولكن من حسن طالع الرسول أنّه كان، آنذاك، بعيداً عن البيت، يعلّم في مدرسة تيرانّس، أو يعالج البرص في إحدى الضواحي؛ وقد نال أكيلا وزوجته قسطٌ وافٍ من غضب الشعب، وظلّ بولس، حتّى آخر أيّامه، معترفاً لهما بجميلهما، إذ عرّضا حياتهما للخطر من أجله.بيد أنّ الهائجين من الرعاع ألقوا القبض على رفيقي بولس، غايُس وأرسترخُس المقدونيّين، واقتادوهما إلى المسرح، في موكب صاخب كان يتضخّم مع كلّ خطوة، بانضمام الفضوليّين والمتسكّعين.

و جاء من أنبأ بولس بما كان يجري، وفي حالات كهذه كان قلب بولس يتكلّم بلهجة أقوى من لهجة عقله، فتحفّز للمضيّ في الحال إلى المسرح، كي ينقذ رفيقيه، وينتهز تلك السانحة لتعريف الجموع المحتشدة بالإله الحقّ، زاعماً أنّ مواطنيّته الرومانيّة ستكون له حرزاً، وحماية.وفيما كان رفاقه يجهدونه في تعقيله، وثنيه عن عزمه، مذكّرينه بأنّ مواطنيّته الرومانيّة لن تقوى على الصمود حيال هياج الجماهير المطالبة بالقائه طعماً للأسود الجائعة، وصل مندوبون من قبل المسؤولين عن المدينة المدعوّين "رؤساء آسية" الذين كانوا يجلّون فيه أخلاقيّته السامية وخصاله النبيلة، داعينه إلى التزام الحذَر، والتواري عن الأبصار، لكيلا يزيد البلبلة استعاراً.

وفي المسرح كان الشغَب قد انقلب إلى فوضى عارمة، واتّضح لديمتريوس أنّ زمام الأُمور قد أَفلت من يديه، إذ إنّ معظم الذين احتشدوا هناك، ماكانوا يعلمون لاحتشادهم سبباً، فهذا ينادي بشعار، وذاك بشعار آخر، وليس بين الشعارات أيّ رابط.وكانت جماعة ديمتريوس، عندما لم تعثر على بولس، قد اقتادت إلى المسرح عدداً من اليهود.وخشي زعماء المجمع أن يتورّطوا في ذلك الصراع عوضاً عن المسيحيّين، فهرعوا إلى المسرح، ودفعوا بأحدهم، المدعوّ "ألكسندر" المعروف بكرهه الشديد لبولس، كي يبيّن للجماهير أنّ لا علاقة لليهود ببولس وجماعته، بل هم خصوم لهم؛ ولكنّه ما كاد يرفع يده طالباً الكلام، حتّى تعالت صيحات تردّد: "يهوديّ ! يهوديّ !"، واليهود ممقوتون بسبب جشعهم.ودوّت هتافات الجماهير طاغية على صوته فأخذ منه الرعب، ومضى مهرولاً، فاندسّ بين الحشد.و"انفجر الجمع يهتفون، بصوت واحد، مدّة نحو ساعتين: "عظيمة هي أرتميس الأفسسيّين ".

و كان عميد المدينة رجلاً فطيناً، عليماً بنفسيّات الجماهير، فتركها تضجّ وتصيح وتُفرغ هياجها، حتّى كلّت، وبُحّت منها الحناجر، ونال الحرّ والعطش والتعب من تعصّبها، وحمقها، وحينئذٍ فقط أَقدم على حسم الوضع، وما إن انتصب علىالمسرح، في مهابة وسكون، حتّى أخمد هدوؤه الصامت الأَهواء الجامحة، وأَخرس الأَصوات الواحد تلو الآخر، وقال :

" يا رجال أَفسس، من ذا من الناس لا يعرف أَنّ مدينة الأَفسسيّين هي الحارسة لهيكل أرتميس العظيمة، ولتمثالها الذي هبط من السماء ؟ وإذ لا مراءَ في ذلك، يجب عليكم أَن تخلدوا إلى السكينة، وألاّ تأتوا بأيّ فعل عن تهوّر.لقد أتيتم بهذين الرجليْن، وما هما بمنتهكيْن لهياكلكم، ولا مجدّفين على إلاهتكم.فإذا كان لديمتريوس وللصنّاع الذين معه دعوى على أَحد، فهناك مجالس للقضاء، وهناك حكّام، فليحتكموا إليهم.وإن كان لكم مطلب آخر فإنّه يُقضى فيه في مجلس قانونيّ.إنّ ما وقع، اليوم، يجعلنا في خطر الاتّهام بفتنة، وليس بيدنا حجّة نجيب بها على هذا التجمّع"، الذي قد تتّهمنا به روما.

و صحا القوم من سكرتهم، وخجلوا من أَنفسهم، بعد أن اتّضح لهم أَنّهم إنّما كانوا ألعوبة بين يدي ديمتريوس وعصبته.فتفرّقوا، وعادوا إلى بيوتهم يجرّون أَذيال الخزي.

و شقّت على بولس رؤية كلّ هذا العنف وهذا الحقد، وتوجّس خشية من أَن يُلحق بقاؤه في المدينة أَذىً بجماعة المسيحيّين التي أَنشأها هناك. وكان ذلك الحدَث دعوة له إلى الرحيل بلا تلكّؤ.فجمع المؤمنين، وزوّدهم بتوصياته وشجّعهم على الثبات في الإيمان، وودّعهم، ومضى إلى مقدونية وفقاً لما كان قد خطّط من قبلُ.

تلك السنوات الثلاث التي أنفقها بولس في أفسس كانت حافلة بالمآسي والاضطهادات والهواجس.ولا غروَ في ذلك، فجرأته، في القول والعمل، غالباً ما تستفزّ العداوات، وتطلّعاته

الضاجّة بالطموح، ورغبته العارمة في تحقيق حياة مليئة، وتحطيمه المستمرّ لتخوم واجباته التي كان يدفعها، بلا هوادة، إلى آفاق أبعد، وأرحب، كانت تحرمه من كلّ دعة وهدوء.

غير أنّ تلك السنوات كانت أيضاً، زاخرة بالثمار، ولكأنّ ديمتريوس كان يتنبّأ، فعلاً، عندما أعرب عن خشيته على هيكل أرتميس الإلاهة العظيمة، أن يُحسب كلا شيء، وأن "تنهار عظمة تلك التي تعبُدها آسية والمسكونة كلّها ".إنّ كلّ ذلك قد تحقّق؛ فأرتميس لم يبقَ منها سوى بضعة تماثيل ترقد في متحف، وقد شُوِّه معظمها، وحُفِر رسم الصليب على جباهها، وهيكلها تخلخل وانهار، وبحجاره بُنيت كاتدرائيّة القدّيس يوحنّا الإنجيليّ، والحضارة التي كانت تمثّلها أرتميس اضمحلّت، وبديلاً عنها نهض الدين الذي بشّر به بولس منيعاً مشرقاً؛ وفي إحدى ضواحي أفسس سيكتب يوحنّا إنجيله الذي استهلّه بالقول: "في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة اللّه..." وقد باتت أفسس مركزاً مسيحيّاً هامّاً، وكان أسقفها يُسام بحضور جميع أَساقفة آسية؛ وقد احتضنت تلك المدينة لا أَقلّ من تسعة لقاءات كنسيّة كبرى، كان أهمّها مجمع أفسس عام 431 الذي أُعلنت فيه العذراء مريم "أُمّاً للّه ".

"ولكن عندما حلّت كبرياء الفكر، لدى رجال الكنيسة، محلّ المحبّة المسيحيّة، وأفسدت المصالح السياسيّة العكِرة نقاء التعاليم الإنجيليّة، هوت كنيسة أَفسس ومثيلاتها، إلى مصيرها المأساويّ الذي كان قد تنبّأ لها به القدّيس يوحنّا في رؤياه.

" لقد انبثق أَخطر أعداء الكنيسة من حضنها، ومن صفوفها.ومثلما طارد المتهوّدون بولس، طارد أَساقفةٌ ورهبانٌ أَحدَ أكبرالمعجبين به، الذهبيّ الفم، في فيافي آسية الصغرى.ولكن، وإن اندثرت أَفسس، ودرست كنائسها، واضمحلّ سكّانها، إلاّ أنّ ما هو إلهيّ باقٍ؛ وما علّمه بولس، في أفسس، بأنّ الربّ هو روح، وما كتبه يوحنّا في أفسس بأنّ كلمة اللّه صار جسداً وحلّ فينا، لا يمكن أن يموت لأَنّه من اللّه.وهذه الأَقوال غزت العالم.فبولس ويوحنّا لم يبتدعا رموزاً خياليّة، بل أَعلنا حقائق تحقّقا من واقعيّتها : موت يسوع على الصليب وقيامته، وهما أَساس تعليم بولس، وتجسّد ابن اللّه، وهو جوهر إنجيل يوحنّا.وعلى هذين المحورين سيدور التاريخ أبداً ".

اضطرّت الظروفُ بولسَ إلى تقديم موعد سفره إلى ترواس، وفي صدره عاصفة مدوّية تزمجر، عبّر عنها بقوله: "إنّا، في حين قدومنا إلى مقدونية، لم يكن لجسدنا راحة، قطّ، بل كنّا في ضيقٍ من كلّ وجه: من الخارج حروب، ومن الداخل مخاوف ".فهو مازال قلقاً على مصير كنيسة أَفسس، وعمّا قد يصيبها من أذىً، على يد أعداء الروح، بعد رحيله.وما انفكّت الهواجس على جماعة كورنثس تقضّ مضجعه فهي كبرى الكنائس التي أنشأها وكان شديد الحرص على وحدتها، وعلى سلامة إيمان أَعضائها، ونصاعة سلوكهم.كم كان شاهد الروح القدس هذا في حاجة إلى عزاء هذا الروح، وهو يغادر أَفسس، في ما يشبه فرار المهزوم الخائف، والحزن يهصر قلبه !

كان يصحبه، في هذه الرحلة، إلى جانب رفيق جهاده تيموثيوس، مندوبو مختلف الكنائس المكلّفون بإيصال المساعدات إلى أورشليم، غايُس، وأرسترخُس، وسيكندُس، وتيخيكُس، وتروفيمُس، ففي نظر بولس كانت تلك بداية رحلته إلى روما، بعد التعريج على أورشليم.

في ترواس حلّ بولس وصحبه ضيوفاً على كربُس، زعيم الجماعة المسيحيّة هناك، الذي كان قد عرفه لسبع سنوات خلت.ومع توفّر مجال فسيح للعمل الرسوليّ في تلك المدينة، غير أنّه بسبب غياب تيطُس، وبالتالي، غياب الأَخبار عن كنيسة كورنثس، وبسبب الصداع الذي كان يعاود الرسول بين حينٍ وحين، ضاق ببولس المقام، ولكأنّه قابع على جمر، فاستقلّ أَوّل مركب مسافر إلى مقدونية، علّه يستبق، هناك، لقاء تيطُس.وكانت محطّته الأولى فيليبّي، حيث تضافرت عوامل كثيرة على إشاعة الدفء في قلبه المقرور، وتسريب السكينة إلى فكره المضطرب.فقد لقي هناك صديقه لوقا، ولم يخفَ على بصر ذلك الطبيب الخبير ما كان يجتاح نفس صديقه من أَسىً واضطراب، يلحقان بجسده الأَذى، فعكف، بأناة وحنان وحبّ، على مؤاساته.وأَسهمت محبّة الفيليبيّين الصافية التي طالما أَمحضوها بولس، والعناية الرقيقة التي أحاطوه بها، وذكرى الأَيادي البيضاء التي طالما أسبغوها عليه بشهامة وسخاء، في بلسمة جراح نفسه.وكانت تلك مناسبة طيّبة لبولس كي يعبّر لأَحبّائه الفيليبيّين عن شكره وعرفانه بالجميل، ومودّته.

و ذات يوم لاح قوس قزح الفرج بعودة تيطس، ممّا أعاد الفرح لقلب بولس، الذي، نظير كلّ أَبٍ حنون، كان يرتعد جزعاً، ولا يهدأ بالاً حتّى يؤوب ابنٌ له بعيد، ولا سيّما إن كان سفره في مهمّة خطرة.وكانت الأَنباء التي جاء بها تيطس، في الإجمال، سارّة، فجماعة

كورنثس كانت قد استقبلته في رعدة واحترام، تقديراً للتفويض الذي كان بولس قد زوّده به.وكان لرسالة بولس وقعٌ بليغ فيما بينهم، فاستدرّت الدموع من عيون معظمهم.وطُرد المسيء بقرار الأَغلبيّة، وبات الجميع ينأون بأَنفسهم عنه، ممّا آلمه وحمله على التوبة والاستغفار.ونال الذي تطاول على بولس وتيموثيوس عقابه.وأبدى معظم أَعضاء الجماعة رغبة في رؤية بولس كي يستمدّوا منه العزاء ويلتمسوا الصفح، ما خلا قلّة ممّن ترك المتهوّدون في نفوسهم آثاراً عميقة، فما انفكّوا يتناولونه بالثلب، ويشهّرون به، ويرشقونه بشتّى التّهم، آخذين عليه تردّده، وتغييره لمخطّطات سفره، وعدم التزامه بوعوده، فهو يعلن عن زيارته للجماعة ثمّ يقلع عن المجيء، ويعزون ذلك إِلى جبنه، فهو شجاع من بعيد، لا يعلو صوته إِلاّ في رسائله، ولكنّه واهٍ رعديد، عيٌّ، أحمق، عندما يحضر.وبعضهم اتّهموه بابتزازهم، من خلال جمع التبرّعات لكنيسة أورشليم، مدّعين أَنّه يجمعها لنفسه، وآخرون أَخذوا عليه هزاله، وفقره، ومظهره الزريّ، بالمقارنة مع "رسُل كبار" كانوا يأتون في أَبهى حلّة، ويعيشون كالأُمراء، فارضين على الجماعة أَنفسهم وخدمة رفاههم.غير أَنّ كلّ أولئك المتخرّصين كانوا حفنة ضئيلة من الموتورين المضلَّلين، بالقياس إِلى أَغلبيّة الجماعة التي أَقامت على وفائها ومحبّتها لبولس.

و تألّقت عينا بولس فرحاً، وبارك الربّ وشكره، ولكنّه لم يكن، بعدُ، مستعدّاً للمضيّ إِلى كورنثس إِلى أَن تتبدّد جميع الغيوم، وتتلاشى دواعي الكرب والأَسى.غير أَنّه عزم على أَن ينفذ إِليهم رسالة، يُشرك معه تيموثيوس في توقيعها للتدليل على اشتراكهما، بقلب واحد، ورأيٍ واحد، وتمتّعهما بمكانة واحدة، بصفتهما مؤسّسيْن لكنيسة كورنثس، بحيث أَنّ كلّ إِهانة تلحق بتيموثيوس هي إِهانة تطال بولس نفسه.

هذه الرسالة تفجّرت من نفسٍ جيّاشة تتصارع فيها مشاعر متباينة، وتتعاقب فيها نبرات العزاء والفرح والحنان والغضب والعنف والانفعال، غير أَنّ الصليب يرفرف فوق كلّ سطورها، ويسِمُ كلّ حرف من حروفها هوى الرسالة، هوى جريح بسبب الضعف البشريّ، ومكائد أَعداء المسيح، ولكنّه صامد راسخ لا تزيده الشدائد إِلاّ استعاراً، ويقيناً بأَنّ كلّ ما يعانيه من آلام واضطهادات يخدم القضيّة التي كرّس لها نفسه، فيتفجّر من أَغوار محنته هذا الهتاف: "عندما أكون ضعيفاً، حينئذٍ أَنا قويّ "

ففي هذه الرسالة يرسم بولس صورة أَمينة وأَخّاذة للرسول الحقّ، في التزامه الأَمين، ومِحنه الطاحنة، وجرأته المتوثّبة، وصموده البطوليّ الذي تسانده نعمة يسوع، ورجائه الذي لا يتزعزع.

رسالة كالشلاّل تتدفّق اندفاعاً وحيويَّة وعفويَّة، وقوَّةً، مسفرة عن نفسٍ مكرّسة بكاملها لحبّ يسوع، ولخدمة المؤمنين به الذين اجتذبهم إليه وأحبّهم بغيرة مضطرمة، وهو مستعدّ لمواجهة كلّ المحن في سبيلهم وفي سبيل من تمثّل به.هذا الحبّ، وهذه الخدمة هما القاسم المشترك لكلّ المواضيع التي تناولتها الرسالة، وعامل وحدتها وترابطها، وهما الـلّذان يضيفان على كلّ القضايا المثارة، حتّى أكثرها بشريّة، طابعاً علويّاً، وقيمة سامية.ولا بدْع إن زخرت تلك الرسالة بأقوال خالدة، وجاءت في أسلوبٍ متمكّن، منيع، بالغ الفصاحة.

يستهلّ بولس رسالته بمباركة الربّ للعزاء الذي أسبغه عليه وعلى جماعة الكورنثيّين: "تبارك اللّه، أبو ربّنا يسوع المسيح، أبو المراحم، وإله كلّ تعزية، الذي يعزّينا في كلّ ضيقةٍ لنا كي نتسطيع، بالتعزية التي نصيبها، نحن، من اللّه، أن نعزّي الذين هم في كلّ ضيقة. لأنّه كما تفيض آلام المسيح فينا، كذلك تفيض أيضاً بالمسيح تعزيتُنا. "

و يُسارع بولس إلى تبديد سوء تفاهم ناجم عن إحجامه عن زيارة إلى كورنثس كان قد أعلن عنها، سابقاً، مؤكّداً أنّ هذا التبديل في برنامجه لم ينجم عن تردّد، أو خفّة، "فاللّه شاهد أمين أنّ كلامنا لكم لم يكن نَعَم ولا، لأنّ ابن اللّه، المسيح يسوع الذي كُرِز به بينكم، لم يكن فيه إلاّ نَعَم ".وإنّما هو أحجم عن تلك الزيارة، إشفاقاً عليهم، لئلاّ تندرج في جوّ الغمّ السائد؛ ولئلاّ يبدو وكأنّه يبتغي التحكّم في إيمانهم، في حين هو يبتغي الإسهام في فرحهم.وتتجلّى رقّة بولس من خلال مناشدته الجماعة إلى الصفح عمّن أساء إليه وإليهم، وكان سببَ غمّهم، قائلاً: "إنّه ليكفي هذا الرجل قصاصاً ما نال من توبيخ الأكثرين.فالأولى، إذن، أن تسامحوه وتعزّوه لئلاّ يرهقه فرط الغمّ؛ لذلك أُحرّضكم أن تؤكّدوا له محبّتكم. "

أمّا وقد وافاه تيطس بالأنباء الطيّبة، " ***فشكراً للّه الذي يقودنا على الدوام، من ظفرٍ إلى ظفر، في المسيح، وينشر بنا، في كلّ مكان، نفحة معرفته، فإنّا، للّه، نفحة المسيح الطيّبة"***. ويؤكّد إخلاصه للرسالة، وتجرّده في خدمتها: "نحن لسنا كالكثيرين الذين يتّجرون بكلمة اللّه، بل إنّا، بإخلاص، ومن قِبَل اللّه، وفي نظر اللّه، نتكلّم في المسيح ".ومن ثمّ، فهو، على نقيض المندسّين المدّعين المجيء بكتب توصية من "الرسل العظام"، ليس في حاجة إلى رسالة توصية إلى الكورنثيّين، "فرسالتنا هي أنتم، مكتوبة في قلوبنا، يعرفها ويقرأها جميع الناس.أجل، إنّه لبيّن أنّكم رسالة المسيح، قد أنشأناها نحن، وكُتبت لا بمداد، بل بروح اللّه الحيّ؛ لا في ألواحٍ من حجر، بل في ألواحٍ من لحم في قلوبكم ".عندما يدع بولس قلبه يتكلّم يحلّق إلى ذرىً من البلاغة لا تُدانى !

و للمرَّة الأُولى يُظهر بولس البوْن بين العهد العتيق، عهد الحرف، والعهد الجديد الذي أُقيم له خادماً، عهد الروح، مؤكّداً " ***أنّ الحرف يقتل، وأمّا الروح فيُحيي"*** .وقد أدّى تحجّر

اليهود إلى جعلهم لا يأخذون من الشريعة سوى حرفها الذي يحيلها صيغة جامدة خاوية من الحياة، في حين يعيش مسيحيّو العهد الجديد، في القلب وفي الواقع، مشيئة اللّه.ويدحض بولس قول المتهوّدين الذين يتبجّحون بأَنّ وجه موسى كان يشعّ نوراً عند تلقّي الشريعة، فيضع قناعاً، على نقيض بولس الذي لا إِشراق في وجهه، ويردّ على هذا الادّعاء بأَنّ الامتياز الذي مُنح لموسى، فحجب النور عن أعين اليهود، قد وُهب المسيحيّون جميعهم أَكثر منه بنعمة رؤية يسوع، فما عادوا في حاجة إِلى إِخفاء شيء، ولا إِلى قناع، ويقول في ذلك:" فإِذ لنا مثل هذا الرجاء، نتصرَّف في جرأة كثيرة.ولسنا كموسى، الذي كان يجعل برقعاً على وجهه لكي لا يبصر بنو إِسرائيل غايةَ ما هو زائل... لكنّ بصائرهم قد عميت، إِذ إِنّ ذلك البرقُع عينه باقٍ إِلى هذا اليوم، عند قراءة العهد العتيق، فلا ينكشف لهم ***أَنّ هذا العهد قد أَبطله المسيح***.أَجل، حتّى هذا اليوم، إِذ قرئ موسى، يكون البرقع على قلوبهم، ولا يُرفع البرقع إِلاّ متى رجعوا إِلى الربّ.***فالربّ هو الروح، وحيث يكون الروح، فهناك الحرّيّة***.ونحن جميعاً، والوجه سافر، نعكس، كما في مرآة، مجد الربّ، فنتحوّل إِلى تلك الصورة بعينها، ونزداد مجداً على مجد، بفضل الربّ الذي هو روح".فلا يزدهينّ، إِذن، أحد بمظهره الزهيّ، ولا يعيّرنّ أَحد بولس بسبب مظهره الزريّ ! فهو يوفّر للمؤمنين ما يحقّ لهم الافتخار به: " إِنّما نقدّم لكم مندوحة للافتخار بنا، لكي يكون لكم ما تجيبون به الذين يفتخرون بما هو ظاهر، لا بما هو في القلب ".أَمّا الذين يصفونه بالحمق والجنون، فيوكّد أَنّه لا يتوانى عن تخطّي حدود التعقّل، في سبيل اللّه، إِذا ما اقتضت الرسالة، ولا يستحيي من جنون الصليب، ولكنّه، في التعامل مع أَبنائه المؤمنين، يلتزم التروّي، والتعقّل، والفطنة.

و بفعل الربّ أَصبحت معرفة المسيحيّ ليسوع وللبشر معرفة قشيبة: " فمنذ الآن، لا نعرف أَحداً بحسب الجسد، وإِن كنّا قد عرفنا المسيح بحسب الجسد، فالآن لا نعرفه كذلك.إِذن، ***من كان في المسيح، فهو خليقةٌ جديدة، فالقديم قد اضمحلّ، وكلّ شيء قد تجدّد" .***

لو لم يكتب بولس سوى هذه الفقرات لكانت كفيلة بتخليده !

و لكنّ الخيلاء لا تأخذ بأعطاف بولس، من جرّاء كلّ هذه المواهب، فهو يعترف بأَنّ الفضل، في كلّ شيء، يعود إِلى نعمة اللّه التي تقوده، وتسانده، وتمكّنه من مواجهة كلّ محنة:" إِلاّ أَنّ هذا الكنز نحمله في آنية خزفيّة، لكي يتّضح أَنّ هذه القدرة الفيّاضة هي للّه، وليست منّا.نحن مضايقون من كلّ جانب، ولكنّنا لا نحطّم، نقع في المآزق ولا نعجز عن الخروج منها، نطارَد ولا نُدرك، نُصرَع ولا نهلك، نحمل في أجسادنا، كلّ حين، موت المسيح، لتظهَر في أجسادنا حياة المسيح أَيضاً.فإِنّنا، نحن الأَحياء، نُسلَم في كلّ حين إِلى الموت من أَجل يسوع، لتظهر في أَجسادنا الفانية حياة يسوع أَيضاً؛ فالموت يعمل فينا، والحياة تعمل فيكم. "

و المِحن لا تخيف الرسول ولا تقلقه: " فنحن نعلم أنّه إِذ هدُم بيتنا الأَرضيّ – وما هو إلاّ خيمة، ومأوى مؤقّت زائل – فلنا في السموات مسكن من صنع اللّه، بيتٌ أَبديّ لم تصنعه الأَيدي"

و لبولس، عن الرسالة، رؤية سامية، فالربّ "أودعنا كلمة المصالحة، ***فنحن***، إذن، ***سفراء المسيح، كأنّما اللّه يعظ بنا،*** فنناشدكم بالمسيح : أَن تصالحوا مع اللّه.إنّ الذي لم يعرف الخطيئة جعله خطيئة من أَجلنا لكي نصير نحن، به، برّ اللّه". هذه المهمّة الجليلة تقتضي من الرسول احتمال كلّ صنوف المضايق والاضطهادات، والترفّع عن كلّ شائنة تسيء إِلى صورة من يمثّله، وبالتدرّع بكلّ أَسلحة الروح التي تدعم نضاله: " لسنا نأتي بمعثرة في شيء، لئلاّ يلحق خدمتَنا عيبٌ.بل في كلّ شيء نُظهر أَنفسنا خُدّاماً للّه : بالصبر الكثير في المضايق، والشدائد، والمشقّات؛ تحت الضرب، وفي السجون، والاضطرابات، والأتعاب، والأسهار، والأَصوام؛ بالطهارة، والمعرفة، وطول الأَناة، والرفق، بالروح القدس؛ بالمحبّة الخالصة، وكلمة الحقّ، وقدرة اللّه؛ بأسلحة البرّ عن اليمين وعن اليسار، في المجد والهوان، في سوء الصيت وحسنه، كأنّا مُضِلّون، ونحن صادقون، كأنّا مجهولون، ونحن معروفون، كأنّا مائتون، وها نحن أَحياء، كأنّا مؤدّبون ولا نُقتَل؛ كأنّا حزانى ونحن، دائماً، فرحون، كأنّا معوزون، ونحن نغني كثيرين، كأنّا لا شيء، ونحن نملك كلّ شيء. "

لا يخشى بولس الألم، ولا يتنكّب عنه، فهو له السرّ الذي يحقّق له الشركة الصوفيّة مع المسيح، والتمثّل به، ويزيده به توحّداً والتصاقاً.وجسامة مهمّته في الكنيسة تفرض عليه آلاماً أَكثر من الآخرين.

و هذا يقود بولس إِلى دحض تخرّصات خصومه لئلاّ تسيء إِلى مصداقيّة تبشيره. فعلى اتّهامه بأنّه جريء في الكتابة من بعيد، رعديد في المواجهة، يجيب أَنّ على صاحب هذا القول أَن يعلم "أَنّا كما نكون بالقول، في الرسائل، ونحن غائبون، كذلك نحن، بالفعل، أَيضاً، ونحن حاضرون؛ بيد أَنّا لا نحارب حسب الجسد، لأَنّ أَسلحة حربنا ليست بجسديّة، بل هي قادرة، باللّه، على هدم الحصون، فنهدم السفسطات، وكلّ علوٍّ يرتفع ضدّ معرفة اللّه، ونسبي كلّ بصيرة إِلى طاعة المسيح.وإِن افتخرت، في بعض الإِفراط، بسلطاننا الذي أَعطاناه الربّ– لبنيانكم لا لهدمكم – لا أَخجل. "

وعن انسياقهم وراء كلّ جديد، بدليل إِنسياق بعضهم وراء من ادّعوا أَنّهم "رسل أَكابر"، يحملون إِنجيلاً آخر، اضطرّ بولس إِلى شيء من "الجهل"، وما يدعوه كذلك هو الافتخار. فبما أَنّ فئة من الكورنثيّين استسلمت لفتنة من يتباهون بمظهرهم وبلاغتهم، في حين أَنّهم "رسلٌ كذبة، وعملة مكّارون، متنكّرون بهيئة رسل المسيح، ولا غروَ، فإِنّ الشيطان نفسه

يتنكّر بهيئة نور، فليس بغريب أَن يتزيّا خدّامه بزيّ خدّام البرّ، إِلاّ أَنّ عاقبتهم ستكون على وفق أَعمالهم"، فبولس أَيضاً سيكشف النقاب عن بعض مواهبه وكراماته، فلعلّ المفسدين يجارونه في مثلها.

فعلى الذين أخذوا على بولس رثاثة منظره، وعمله بيده كالكادحين، يردّ: "أفيكون ذنبي أَنّي وضعت نفسي لترتفعوا، أَنتم، إِذ بشّرتكم بإِنجيل اللّه مجّاناً ؟ لقد سلبتُ كنائس أُخرى، آخذاً منها نفقةً لخدمتكم.وإِذ كنت عندكم، وصرت إِلى عَوَزٍ، لم أُثقل على أَحد، لأَنّ الإِخوة الذين قدموا من مقدونية قد سدّوا احتياجي، وفي كلّ شيءٍ قد حذِرت أَن أكون مثقلاً عليكم، وسأحذر... إِنّ ميّزات الرسول قد تجلّت في ما بينكم : طول الأَناة، والآيات، والعجائب، والمعجزات.وفي أَيّ شيءٍ نقصتم عن سائر الكنائس، إِلاّ في كوني لم أثقل عليكم ؟ فسامحوني بهذا الظلم."

و للذين فتنهم دجل المندسّين يقول :"أَحسب أَنّي لا أَنقص، في شيءٍ، عن هؤلاء – الرسل الأَكابر – فإِنّي وإِن كنت جاهلاً في البلاغة، فلست جاهلاً في المعرفة، وقد أظهرنا لكم ذلك في كلّ شيء، وأَمام جميع الناس"

لا بل يؤكّد بولس أَنّه فاق أولئك المدّعين، بدليل ما قاسى في سبيل الرسالة، في حين هم يفرضون على المؤمنين بذخهم.وبنبرة تختلج اعتزازاً وتحدّياً، يرسم لوحة متوهّجة، مع اقتضابها، لكلّ ما خاض وما كابد في سبيل إِضرام نار حبّ يسوع في القلوب، فيقول:" أَخدّام المسيح هم ؟ أَنا في ذلك أَكثر : في الأَتعاب أَكثر، في السجون أَكثر، في الجلد فوق القياس، في أَخطار الموت غالباً.جلدني اليهود خمس مرّات أَربعين جلدةً إِلاّ واحدة؛ ضُربتُ بالعصيّ ثلاث مرّات، رُجمتُ مرَّة، انكسرت بي السفينة ثلاث مرّات، قضيتُ نهاراً وليلاً في اللّجة.كثيراً ما واجهت في أَسفاري أَخطار السيول واللصوص؛ أَخطاراً من أُمّتي، وأَخطاراً من الأُمم؛ أَخطاراً في المدينة، وأَخطاراً في البرّيّة، وأَخطاراً في البحر، وأَخطاراً بين الإِخوة الكذبة؛ وتعرّضت للتعب والكدّ، للأَسهار الكثيرة، للجوع والعطش، للأَصوام المتعدّدة، للبرد والعري"، وفوق كلّ هذه، بل ربّما أَشدّ إِرهاقاً من كلّ ذلك :"ما يتراكم عليّ كلّ يوم من هموم الكنائس كلّها، ***فمن يضعف ولا أَضعف أَنا ! ومن يعثر ولا أَحترق أَنا!***

" وإِن كان لا بدّ من الافتخار فإِنّي أَفتخر بضعفي"

و هنا تحضره ذكرى فراره من دمشق، في أعقاب اهتدائه، اتّقاءً لكيد اليهود، محشوراً في زنبيل، ذلك الفرار الذي ظلّ، في صدره، ينزف مهانةً ومذلّةً.

و لكي يكمل الصورة، يُطلق بولس من صدره سرّاً طالما ضنّ به، وكتمه بينه وبين ربّه، فيكشف طرف النقاب عن بعض ما أوتي من رؤى الربّ وإِيحاءاته، فيُسِرّ :"إِنّي أَعرف

إنساناً في المسيح، قد اختُطف منذ أربع عشرة سنة، إلى السماء الثالثة – أَفي الجسد؟ لست أعلم، أم خارج الجسد؟ لست أعلم، اللّه يعلم.وأعرف أَنّ هذا الإِنسان – أفي جسده، أم بدون جسده ؟ لست أعلم، اللّه يعلم، قد اختطف إِلى الفردوس وسمع كلمات تفوق الوصف، ولا يحلّ لإِنسانٍ أَن ينطق بها.فمن جهة هذا الرجل أَفتخر، أَمّا من جهة نفسي فلا أَفتخر إِلاّ بأَوهاني، فإِنّي، لو أردت الافتخار، لم أَكن جاهلاً، لأَنّي أَقول الحقّ.بيد أَنّي أَكفّ خشية أَن يظنّ بي أَحد فوق ما يراني عليه أو يسمعه منّي. "

و مع كلّ ذلك يفخر بولس، في المقام الأَوّل، بوهنه الذي تتجلّى من خلاله قدرات اللّه.إِنّه في عالَم الفخر فتحٌ لم يسبقه إِليه أحد:" ولئلاّ أَستكبر لسموّ هذه الإِيحاءات أُعطيت شوكة في الجسد، ملاكاً من الشيطان لكي يلطمني... ولذلك طلبت إِلى الربّ ثلاث مرّات أَن تفارقني، فقال لي: "تكفيك نعمتي، لأَنّ كمال قوّتي يظهر في الوهن ".فبكلّ سرور، إِذن، أَفتخر، بالحريّ، بأوهاني، لتستقرّ عليّ قوّة المسيح.أَجل إِنّي أُسرّ بالأَوهان، والإِهانات، والضيقات، والاضطهادات، والشدائد، من أَجل المسيح، لأَنّي ***متى ضعفت فحينئذٍ أَنا قويّ***".

لقد شُبّهت فصاحة دفاع بولس عن نفسه، حرصاً على سلامة تبشيره، بفصاحة كبار خطباء الإِغريق.ولكن هيهات بين الاندفاع الذي أَلهم كلماته، ودوافع خطباء أَثينا! فهو ينطلق من حياته عينها، ومن بذله الكامل لذاته.دفاع نابض، يهزّ شغاف القلوب؛ وممّا يزيد وقعه تأثيراً أَنّ مستمعيه كانوا يؤمنون بصدق كلّ حرفٍ من أَقواله، فقد شهدوه يعمل بين ظهرانيهم، ورفاقه شاهدوه يعمل في أماكن أُخرى، وجميعهم شهود على صدق ما يقول.

و من خلال هذا الدفاع تجلّى مدى عمق التزام بولس بخدمة الإِنجيل، ومدى غيرة حبّه للذين اجتذبهم إِلى يسوع، والذين أَكّد لهم: "أَغار عليكم غيرة اللّه، لأَنّي خطبتكم لرجل واحد، لأَزفّكم، عذارء نقيّة، للمسيح "، وفي سبيلهم، واجه كلّ المِحَن، وقاسى في جسده وفي نفسه من الآلام ما أَفضى به غالباً إِلى شفا الموت، ومن المهانات ما لا قِبَل لبشر على احتماله.

و كان بولس قد خصّص الفصلين الثامن والتاسع من رسالته للدعوة إِلى جمع صدقات للكنيسة الأُمّ في أورشليم التي كانت تعاني الضيق والعوز.هذه المهمّة كان قد تعهّد بولس بالاضطلاع بها منذ مجمع الرسل الأَوّل، إِيماناً منه بوحدة الكنيسة، وتضامنها، ومسكونيّتها وبضرورة تنمية التواصل الحميم بين مختلف الكنائس.وقد ظلّ وفيّاً لوعده بشأنها، مع كلّ ما كانت تسبّب له أَحياناً من عنت، فقد كانت بعض الكنائس تتأَفّف منها.غير أَنّ المفارقة الكبرى تكمن في أَنّ الأورشليميّين أَنفسهم كانوا يستغلّون هذه الجباية لاتّهام بولس بابتزاز الكنائس

وإِرهاقها؛ لا بل كانوا يظهرون الازدراء للصدقات التي يأتيهم بها، لأَنّ معظم مانحيها غير مختونين !

غير أَنّ بولس كان، دائماً، يميّز بين الواجب والحساسيّات الشخصيّة، فظلّ وفيّاً، حتّى آخر يوم، لما وعد به الرسل، متحمّلاً، في سبيل ذلك، ما لا يُطاق من التُّهم الباطلة.وكان يزيد من صعوبة تلك المهمّة زهد بولس، وعدم ارتياحه إِلى كلّ ما له بالمال صلة، فكان يتناول تلك القضيّة بكثير من الرهافة والحرَج، وهذا يتجلّى من تسميته لتلك المهمّة التي كان يصفها، على التوالي، بأَنّها "خدمة القدّيسين "، و" إِسعاف القدّيسين "، و" عمل محبّة "، و"خدمة مقدّسة ".واستبعاداً لكلّ شبهة، لم يباشر، قطّ بنفسه، جباية أَيّ مبلغ، بل تنازل عن هذه المهمّة لتلميذه العزيز تيطس الذي كان يثق في نزاهته، ثقته في نفسه.وكان يناشد كلّ كنيسة أَن تختم بالشمع الأَحمر الوعاء الذي تودعه مجموع تبرّعاتها، وتوكله إِلى مندوبٍ عنها حائزٍ على ثقة الجماعة، يرافق بولس إِلى أورشليم، لتسليم الأَمانة لكنيستها، بيده.

كان بولس عليماً بانقباض يد الكورنثيّين في ميدان السخاء، فهم يغدقون الوعود، ولا يجودون إِلاّ بالنزر اليسير، فدعاهم، في رسالته الأولى إِلى أَن يقتطعوا، في مطلع كلّ أسبوع، المبلغ الذي يستطيعون توفيره لهذه الغاية، حتّى يكونوا مستعدّين عندما يحين موعد جمع التبرّعات، لئلاّ يصعب عليهم الأمر؛ وفي رسالته الثانية حرّضهم بلباقة، ضارباً مثل كنائس مقدونية التي رغم فقرها وضيقها أبدت من السخاء فوق طاقتها، آملاً ألاّ يكونوا هم دون المقدونيّين سخاءً في العطاء، عندما يحضر تيطس وآخران، هما على الأَرجح لوقا، وارسترخُس المشهود له بغيرته على الكنيسة، ولئلاّ يكونوا مدعاة للخجل أَمام المقدونيّين.

و جرياً على عادته يرتقي بولس من قضيّة مادّيّة، ومن مناسبة محدّدة إِلى آفاقٍ من الصوفيّة والخلود، فيضرب، من يسوع، المثل الأَسمى في العطاء، "فهو، الغنيّ، قد افتقر من أَجلكم لكي تغتنوا أَنتم بفقره" و"اعلموا أَنّ من يزرع بالتقتير، بالتقتير أَيضاً يحصد؛ ومن يزرع بالسخاء، فبالسخاء أَيضاً يحصد؛ فليُعطِ كلٌّ بحسب وحي قلبه، لا عن كراهية أو اضطرار، "لأَنّ اللّه يحبّ المعطي المتهلّل ".والعطاء وسيلة لإِقرار المساواة، والتكافل:"لستُ أُريد أَن تكونوا، أَنتم، على ضيق، لكي يكون غيركم في سعة، بل أَن تكون مساواة؛ ففي الأَحوال الحاضرة ستسدّ فُضالتكم عَوَزهم، لكي تسدّ، يوماً، فضالتُهم عوزَكم، فتحصل المساواة..."

و العطاء السخيّ يستمطر النعمة ويفضي إِلى تمجيد الربّ : "لأَنّ القيام بهذه الخدمة المقدّسة لا يسدُّ فقط عَوَز القدّيسين، بل يبعث، أَيضاً، على الشكر الكثير للّه.فإِنّهم بتقديرهم هذه الخدمة يمجّدون اللّه على طاعتكم في الاعتراف بإِنجيل المسيح، وسخائكم في المشاركة لهم

وللجميع. وصلاتُهم لأَجلكم تنمّ عن محبّتهم لكم من أَجل نعمة اللّه المتزايدة فيكم.فشكراً للّه على موهبته التي لا توصف!"

لقد قدَّم بولس، في هذين الفصلين من رسالته، نموذجاً فذّاً للدعوة إِلى الإِحسان، يقطر رقّة، ويزخر بالعمق.وفي هذا السياق كتب أَحد الذين كتبوا سيرة رسول الأُمم: "لو أَنّ الكنيسة، عبر تاريخها، التزمت بمثل رقّة بولس ورهافته، ووعت مسؤوليّتها حيال الشعب المناضل في سبيل لقمة عيشه، ولو كانت أَكثر اهتماماً بمحرومي المجتمع، بالأحياء الشعبيّة الكثيفة السكّان في المدن الكبرى، عوضاً عن تعاطيها أعمالاً تجاريّة لا علاقة لها بالدين، لوفّرت على نفسها الكثير من الإِفلاسات الروحيّة، ولتجنّبت انهيار الثقة.عندما يكون، لدى الكاهن، بخصوص مسكنه ومستوى عيشه، مقتضياتٌ تفوق مقتضيات عامّة المؤمنين، فهو لا يُشارك الشعب المتألّم والمعوز مشاعره.وإِن هو لم يقم بإِدارة رأسمال ثقة الشعب المسيحيّ إِدارته لإِرثٍ مقدّس، لجاء الربّ، ومذراته في يده، لينظّف بيدره.إِنّ دوافع بولس دوافع سامية، فحسب رأيه، أَجمل ثمار السخاء المسيحيّ هو النموّ في الشهامة، واستجلاب بركة الربّ الموهوبة في الإِفخارستيّا، وإِثبات الخضوع للإِنجيل.وعندما يُفهم الإِسهام في الإِحسان على هذا النحو يُمسي أَشبه بشعائر صلاة، و"موهبة يتعذّر وصفها ".وحينئذٍ لا يعود الإِحسان عبئاً على من يُعطي، ولا إِذلالاً لمن يتلقّى ".

و ينهي بولس رسالته إِلى الكورنثــيّين بإبلاغهم عزمه على الشخوص إِليهم، آملاً أَن يكون كلّ مسيء قد تاب، وعمّ الوئام، وساد الفرح، لئلاّ يكون مضطرّاً إِلى استخدام الشدّة "على حسب السلطان الذي آتانيه الربّ للبنيان لا للهدم. "

تلك الرسالة، في مجملها كانت وصيّة بولس، لا للكورنثيّين فحسب، بل لجميع المؤمنين الذين بذل، في سبيلهم، دم قلبه، عسى أَن يظلّ صوته الداوي، أَبداً، يحذّرهم: "لا يخدعنّكم إِبليس، بل كونوا أَبناء الروح ".

بعد أَن أنفذ رسالة المصالحة إِلى الكورنثيّين، وسكنت نفسه إِلى انقشاع الغيوم الدكناء التي كانت تعكّر جوّ جماعتهم، تلبّث بولس فترة بين أَحبّائه الفيليبيّين كي يرسّخهم في الإِيمان الذي كانوا أوفياء له منذ اليوم الأَوّل، ولطالما أَغدقوا على الرسول مساعدات سخيّة مكّنته من التفرّغ للكرازة، في مدنٍ كثيرة، وأَنقذته من أزمته عندما سُجن ووقع في عَوَز، في أفسس.

ثمّ أَقام فترة في تيسّالونيكي، حيث أَثلجت صدره رؤية جماعتها تزدهر، نشيطة في الإِيمان، جاهدة في المحبّة، مقيمةً على الرجاء، بحيث أَمست قدوة لجميع مؤمني مقدونية وآخائية.

و من هناك شخص إِلى بيرية متفقّداً شؤون كنيستها، وربّما واصل سفره إِلى إِيليريا على شواطئ الأدرياتيكي، كما يُستخلَص من رسالته إِلى الرومانيّين.

و هكذا كان قد تصرَّم عام 57 وجزء من خريفه، عندما انتهى بولس إِلى كورنثس، في زيارته الثالثة لها، وكانت النفوس قد هدأت، والقلوب قد صفت، والوئام قد ساد من جديد، والمسيئون قد ندموا، وأَثبتت الجماعة صمودها في الإِيمان، وبات من دواعي فرح بولس ألاّ يُضطرّ إِلى الشدّة، بل أَن يعبّر لهم عن فيض حبّه لكبرى الكنائس التي أنشأها.

هبط بولس كورنثس في موكب حاشد يضمّ مندوبي كنائس بيرية، وتيسّالونيكي، وافسس، ودربة، فضلاً عن مرافقين آخرين، وعن مندوبي كنائس أُخرى كانوا ينتظرونه في كورنثس، كي يواكبوه إِلى أورشليم، ويقدّموا هناك تبرّعاتهم للكنيسة الأُمّ.وكان ذاك أَكبر فريق رافق بولس في أَيٍّ من أسفاره. ومنه استدلّ الكورنثيّون على المكانة الرفيعة التي كان يحتلّها في الكنيسة الجامعة.

و حلّ بولس وصحبه ضيوفاً على صديقه غايُس، وهو من القلائل الذين عمّدهم بيده.وكان منزله ملتقى مسيحيّي كورنثس، فأنفق الرسول، بين ظهرانيهم، كلّ فصل الشتاء، إِذ كانت الملاحة تتوقّف في ذلك الفصل.وانتهز هذه المحطّة كي يوطّد إِيمان الجماعة، ويشدّ من إِزرها في مواجهة أَيّة هزّات قد تنال منها في المستقبل، ويزوّدها بإِدارة متينة الأركان.وفي هدأة تلك الوقفة الطويلة تسنّى لبولس أَن يتأمّل مليّاً مسيرة نشاطه الرسوليّ خلال السنوات العشرين الأَخيرة، على دروب الربّ الرائعة.ومن كان، نظير بولس، يحمل نفساً من نار، لم يكن بوسعه العيش إلاّ في المستقبل، وامتدّت تطلّعاته إِلى المدينة التي كانت، مدى سنوات، مهوى فؤاده، ولكأنّ حدْساً ثاقباً كان يؤكّد له أَنّ روما هي التي أَعدّتها العناية الإِلهيّة لتكون

مركز المسيحيّة، بعد أَن ضربت جذوراً في معظم مراكز الشرق الكبرى، وبات ازدهارها مرهوناً بالزمن.كان بولس يدرك أَنّ مصاعب خطيرة تتربّص به في أورشليم، ولكنّ أَبصاره كانت تمتدّ إِلى البعيد البعيد، وتستشرف المسيحيّة مجتازة مراحل جديدة، والإِنجيل يغزو روما نفسها، معقل الإِمبراطوريّة، عقب انتشاره في بعض أطرافها.وكلّما شاهد سفناً مبحرة إِلى إِيطاليا، كان فكره يسرح معها نحو المدينة التي شغلته صورتها.

مذّاك بات بولس يتحرّق شوقاً إِلى تبشير الغرب، واستشفّ في روما منطلقاً إِلى سائر مدنِ إِيطاليا وإِلى إِسبانيا.لم تكن تلك المهمّة الجسيمة لترهب شيخوخته، وبات ينتظر، بنفاد صبر، يومَ تُستعاد فيه الملاحة، فينهي مهمّته في أورشليم، ويشخص إِلى عاصمة الدنيا، آنذاك.وكان هذا الانتظار فرصة طيّبة كي يُطلع مسيحيّي روما على نظرته المسيحيّة التي نضجت في ساحات النضال، وساعات الصلاة والتأمّل، ويدوّن، لأَجيال المسيحيّين، وصيّته الروحيّة.فكانت رسالته إِلى الرومانيّين.

عوامل عديدة دفعت بولس إلى تدبيج رسالته إلى الرومانيّين.فروما، كما أسلفنا الذكر، كانت محطّ تطلّعاته، وكانت توحي له بأعرض الآمال حول مستقبل الكنيسة.وهو لم يكن ينوي المكوث طويلاً في تلك المدينة، التزاماً منه بالامتناع عن العمل في حقلٍ حرثه سواه من الرسل، بل كان يتوخّى الاقتصار على زيارة عابرة بغية التعارف وتبادل الآراء والتطلّعات.فآثر أن يمهّد لهذه الزيارة ببسط بعض مواضيع عقيدته الجوهريّة بين أيدي المؤمنين الرومانيّين.

و كانت المسيحيّة قد رأت النور في روما على يد بطرس وأعوانه، الذين بدأوا بتبشير الجالية اليهوديّة الكبيرة العدد هناك.ولكن سرعان ما اعتنق دينَ يسوع، في روما، من الوثنيّين ما فاق عدد المسيحيّين من أصل يهوديّ، ممّا حدا ببولس إلى مخاطبة هؤلاء وأولئك حرصاً على وقاية الأذهان من دسائس المتهوّدين، وإطلاع المسيحيّين الرومانيّين على واقع الإيمان المسيحيّ الشامل، الصافي، لئلاّ يقعوا في مثل ما وقعت فيه كنائس أُخرى من إشكال وانقسام من جرّاء تضارب التعاليم، انطلاقاً من تجربته المتمرّسة بين الوثنيّين، وصداماته المطّردة مع المتهوّدين، ومن العلاقات الأخويّة وتبادل الخبرات بين مختلف الكنائس والمبشّرين، ممّا كان يُمدّ الجماعات بزخم متجدّد كفيل بتدعيم الإيمان المشترك.

و كان بولس، الذي غدا من أقطاب المسيحيّة، يشعر بجسامة مسؤوليّته في ترسيخ الوحدة المسيحيّة وتدعيم الكنيسة الجامعة.وإذ كان يعلم أنّ جماعة روما تضمّ، هي أيضاً، فئة عريضة من المتهوّدين الذين، مع اعتناقهم المسيحيّة، ما انفكّوا متشبّثين بأهداب الشريعة، حرص على أن يوضح لهم أنّ انتباذه للشريعة لم يكن خيانة للآباء، بل وفاءً للمهمّة التي أسندها إليه الربّ في دمشق، ورغبةً مضطرمة في إشراك بني دينه في أنوار المسيح التي أشرقت عليه، آنذاك، والتي أشرعت عهداً جديداً في الإيمان.

و إلى هذا كلّه، كان يُساوره شعورٌ مُبهَم مرهِق، بأنّه، بشخوصه إلى أورشليم إنّما كان يقذف بنفسه بين أشداق الوحوش، فارتأى من واجبه أن يزوّد المسيحيّة بوصيّته الروحيّة، وبحصاد أفكار حياته الخصبة التي نضجت.تلك الأفكار التي كان قد شرع يبسطها في رسائله إلى الغلاطيّين والكورنثيّين، ما انفكّت تراوده، وتتفاعل في صدره؛ وبعد إذ كانت صرخة قلبٍ يضجّ بالهوى القدسيّ، بات الآن يبحثها في سكون، ويتوغّل إلى أعماقها، فجاءت تلك الرسالة إلى الرومانيّين بحثاً لاهوتيّاً حول المسيحيّة، والوضع الجديد الذي نشأ مع يسوع، وضع البشريّة حيال اللّه، وتعميماً راعويّاً جامعاً.

و ما انفكّت تلك الرسالة، بعد الإنجيل، الوثيقة الأَكثر استفاضة، والأَكثر علنيّة في التعبير عن المسيحيّة الأُولى.وقد تميّزت عن رسائل بولس الأُخرى، بعدم ارتباطها بظرفٍ طارئ، أو بطابعٍ شخصيّ، وبتوجّهها إِلى جماعة لم يؤسّسها بولس، وهو لا يعرفها أَكثر ممّا هي تعرفه.وإِن هو دأب، من خلال رسائله الأُخرى، على محاجّة خصومٍ أَحياء يناصبونه العداء، فهو هنا يحاجّ اليهوديّة التي، بتشبّثها بالشريعة، تنهض عائقاً على درب الخلاص بالإِيمان، حسبما تبيّن في أَثناء جولاته الرسوليّة السابقة.

في هذه الرسالة تتردّد أَصداء سيرة بولس منذ اهتدائه، وانتدابه للرسالة، ونشاطه، ووعظه ونضالاته، وهي تعكس تاريخه الداخليّ والخارجيّ، وفكره اللاهوتيّ، وتشير إِلى اكتشافاته التي جعلت منه مسيحيّاً حقّاً، خادماً ليسوع، ورسولَه إِلى الأُمم، وتظهر أَنّه ما انفكّ ينضج أَفكاره الأُولى حتّى صاغت شخصيّته الفذّة.

و لا بدْعَ إِن هي احتلّت المكان الأَوّل في ترتيب الرسائل البولسيّة المعتمدة رسميّاً، مع أَنّها ليست الأُولى زمنيّاً، فهي أَغنى رسائل بولس تعليماً، وأَكثفها فكراً، بل هي قمّة كتاباته، تحمل دليل نضجه الفكريّ والنفسيّ، إِذ كتبها بعد أَن خبر من أَفراح الرسالة وأحزانها، ومن عيشه المسيح، الكثير الكثير، فنمّت عن متانة التعليم، ومناعة القناعة، وسجوّ الفكر، وتملّك الكاتب من موضوعه، وقدرته الفائقة على التعبير، فتجلّت في صفحات مثقلة بالرجاء حافلة بالخواطر العميقة السامية، ولا بدّ أَنّها اقتضت الكثير من السهر والتركيز، والصلاة، واستلهام الروح القدس.

قلّما أُشبعت وثيقة مسيحيّة بحثاً، وتدقيقاً، وتمحيصاً، واستنتاجاً منذ أَلفي عام وحتّى اليوم بقدر ما أُشبعت الرسالة إِلى الرومانيّين، ولئن أَساء البعض فهم بعض مقاطعها، ممّا أَفضى بهم إِلى شطر الكنيسة وتقسيمها، إِلاّ أَنّها ستظلّ معيناً ثرّاً للفكر والقلب مدى العصور.

في أَثناء إِملاء تلك الرسالة، الذي، ربّما، استغرق نحو أَربعين يوماً، كان مندوبو مختلف الكنائس المرافقون لبولس والمحيقون به يشهدون، بورع، تدفّق آرائه السامية من نفس مفعمة باللّه؛ وقد آل شرف تدوين الرسالة إِلى العبد المسيحيّ ترسيُس الذي لم يُخفِ افتخاره لانتدابه لهذه المهمّة.

يبدأ بولس برسم الإِطار العامّ لرسالته، وهو إِطار حياته نفسها، المشطورة إِلى شطرين : أَحدهما من غير المسيح، والآخر في المسيح، وهو أَيضاً إِطار البشريّة التي عرفت حقبة انحطاط وضياعٍ مع آدم، وحقبة نهوض، ولمّ شمل مع المسيح.

و إِليكم فحوى هذه الرسالة كما لخّصها جوزيف هولزنر :

" من قبلُ، كانت البشريّة تحت غضب اللّه؛ إذ إنّ كلّ ما بلغته من حضارة وفلسفة وثقافة، وازدهار، عجزَ عن الحؤول دون انحطاطها الأدبيّ.فقد عرف الوثنيّون اللّه، والشريعة الأخلاقيّة الطبيعيّة، ولكنّهم أشاحوا عن الحقيقة وسجنوها في قفص استنتاجاتهم الفكريّة الجوفاء، وقصّوا أَجنحة نسر العقل الأَبيّ الذي وهبهم إيّاه اللّه، فقسروه على الزحف المشين.ففي ثنايا عقله ووجدانه يملك الإنسان بالسليقة معنى اللّه؛ وهو من خلال مرآة الخليقة يستشفّ قدرة اللّه، ومن خلال الشريعة الأخلاقيّة الطبيعيّة يكتشف مشرّعاً أسمى، ومن خلال المثُل العليا الفطريّة يتبيّن قداسة اللّه.ومعرفة اللّه هذه تقتضي من الإنسان أن يؤمن باللّه، ويعبده ويحبّه؛ ولكنّ خطيئة الوثنيّة الجسيمة تمثّلت في عبادة المخلوقات، وقوى الطبيعة، والكواكب، والحيوانات، والإبداعات الفنّـيّة والروحيّة، والدولة المُجسَّدة في الحاكم، وفي الركوع أَمامها، عوضاً عن الاستدلال بالمخلوقات إلى الخالق. ولكن الإنسان في معزلٍ عن اللّه يفقد حتّى كرامته، وعندما هو يؤلّه البشريّ لا يفقد الحسّ الإلهيّ فحسب، بل، أَيضاً، الحسّ البشريّ الحقّ، وينساق للغرائز البهيميّة.

و قد رأى بولس بأمّ عينيه عبادة الأوثان التي ولّدت الخطيئة، تولّد الخطيئة باستمرار، وتقود إلى شتّى ضروب الشذوذ والرذائل، وإلى الكذب والخيانة، والإباحيّة وانحلال المجتمع، وانعدام المحبّة والتقوى.

و لا يكتفي بولس بإبراز ضلال الوثنيّين، بل يبرز، أَيضاً، ضلال اليهود الذين مع ما أوتوا من وحي ووعد، لم يدركوا مقاصد الربّ، فتوقّفوا عند عتبة الحرف، ولم يلجوا إلى محراب الروح؛ وتوهّموا أَنّ الخلاص امتياز موقوف على شعبهم، بفضل سلالتهم الجسديّة، في حين أَنّ لا امتياز لإنسان على آخر، بالوراثة، في مجال الخلاص، وأنّ الشريعة الموسويّة لم تكن وسيلة خلاص، بل مجرّد أسلوب تثقيفيّ، يحمل في ذاته بذور إلغائه عندما يستوفي مهمّته.فمجيء المسيح قد أَلغى الشريعة، وبات من الواجب قراءة الوصايا بمفهوم جديد؛ وغدا اليهوديّ، كسواه، لا ينال البرّ إلاّ بالإيمان بيسوع، مهما كان تمسّكه بالشريعة كاملاً، فاللّه لا يفرّق بين البشر الذين خلقهم جميعاً؛ وإذ خطئوا جميعهم شخصيّاً، اليهود منهم والوثنيّون، واحتاجوا إلى فداء ابن اللّه، أشرع أمامهم درب الإيمان بيسوع، المفضي إلى التبرير المجّاني، وجاد للجميع بلا تمييز بنعمة الغفران والمصالحة.ومن ثمّ لم يعد لليهود ميزة يتباهون بها، فإبراهيم لم يكن له من ثواب لدى اللّه سوى إيمانه، وأعلن الربّ برّه، لمجرّد إيمانه، ومن غير أَن يفرض عليه الختان، مع أَنّه كان، من قبل، وثنيّاً.ولذلك اعتُبر إبراهيم أَباً لجميع المؤمنين، المختونين وغير المختونين.إنّ التبرير بالإيمان يمكّن المؤمنين من تخطّي الخطيئة صوب البرّ، والعبور من البرّ إلى الخلاص.

معرفة الشريعة والعجز عن تطبيقها كانا سبب تفاقم الخطيئة، ولكن "حيث كثرت الخطيئة، فاضت النعمة ".هل في هذا القول إجازة للإباحيّة، كما ادّعى خصوم بولس ؟ من المحقّق، لا، فالعماد وهو مدخل الإيمان، هو موتٌ عن الخطيئة، وما نعمة العماد سوى دعوة إلى انتباذ الخطيئة وارتداء المسيح، والتمثّل به.

و بالإجمال لا ينال أحد البرّ بمجرّد أعماله، وثنيّاً كان أم يهوديّاً، بل بنعمة اللّه، ويبقى سبب الخطيئة هو الكبرياء، والاكتفاء بالذات مصدراً للدين والآداب.

إنّ يسوع بتضحية فدائه الدامية قد قضى على كلّ محاولات التبرير الذاتيّة.ولئن كان المجد، في المجال الطبيعيّ، أي في مجال العلم، والفنّ، والتقنية، أو في الميدان الاجتماعيّ، ميدان السلطة والسيطرة، يُستحقّ بجهود شخصيّة، إلاّ أنّه في ميدان ما يفوق الطبيعة، ليس من مآثر شخصيّة.فالعلاقة الأكثر كمالاً مع اللّه، علاقة البنوّة، لا يسعها أن تكون إلاّ موهبة النعمة.جوهر المسيحيّة المتميّز، إذن، هو مجّانيّة النعمة والفداء.

لم يكن المسيح ضحيّة تسلسل ظروف نفسيّة وسياسيّة، بل هو مات حبّاً بالبشر.فاللّه، بدافع حبٍّ لا يوصف، تدخّل في تاريخ البشر لكي يرتقي بهم إلى القداسة؛ ولو لم يكن الحبّ هبةً مجّانيّة لما كان حبّاً.وعندما يعمل اللّه، يكون عمله خلاّقاً يجدّد نفس المؤمن ويحوّلها فتصبح "خليقة جديدة"، بفضل ولادة جديدة يحقّقها الروح.

و من ثمّ، حيال عمل الخلاص هذا، لا يسع إنساناً إدّعاء أصولٍ نبيلة، أو عمل يستحقّ الثواب؛ بل إنّ الموقف الوحيد السائغ هو الإيمان المطلق، والاعتراف بعمل المسيح الفدائيّ، وحبٍّ مفعم بالعرفان بالجميل، يوحي ببذل الذات الكامل، والإقدام على الانخراط في حياة المسيح الجديدة، والاستسلام لأسرها، ففي شخص يسوع تحطّمت كلّ كبرياء بشريّة.

غير أنّ الإيمان الذي يبرّر، والذي تنبثق منه الحياة الجديدة انبثاقها من جذور راسخةٍ، ليس تضحية بالعقل لا تليق بالإنسان، بل هو خدمة مشيئة اللّه.ولا يحقّ لإنسان أن يفخر به، فالإيمان ليس عملاً بشريّاً، وليس نتيجة استنتاجات منطقــيّة، بل هو عمل اللّه وهبة الروح القدس.

عندما يخاطب بولس، بشأن التبرير بالإيمان، مهتدين من أصل يهوديّ يبرهن عن رأيه بنصوص الكتاب المقدّس، وبمثال إبراهيم؛ أمّا في مخاطبته المهتدين من أصل وثنيّ، فهو يدع الصليب يقول كلمته القويّة التي لا ينجو من أسرها إنسان، كما أنّه يدعوهم إلى التأمّل في تجاربهم الروحيّة، وفي شهادة الروح القدس.إنّ عمل اللّه جدير به، فهو يسود التاريخ، كلّ أقواله أفعال، وكلّ أفعاله أقوال، كما دلّت على ذلك حياة يسوع، مذ صار الكلمة جسداً إلى أن تمّ كلّ شيء على الصليب.

و لئن كان في خطيئة البشريّة جمعاء، ممثّلة في زعيمها آدم، سرٌّ، فالتكفير عنها قد تمّ بسرّ آخر، بفعل تاريخيّ، بموت يسوع الفدائيّ، آدم الآخر، وسيّد البشريّة الجديد.

و مثلما لا يسع أحداً أن يهب نفسه الحياة، ولكنّه منذ أن يتلقّاها يتعيّن عليه أن ينمّيها بالتناغم مع قوّاته الطبيعيّة، كذلك الأمر في حياة الروح، التي لا يستطيع أحد أن يستحقّها، أو ينال بنفسه الحياة الجديدة؛ ولكن على الإنسان المتجدّد، أن يحرص على توثيق وحدته بالمسيح؛ ولا يعود يحقّ له أن ينساق وراء أهواء الجسد، بل عليه أن يستجيب لإيحاءات الروح القدس، ويجهد في اكتساب هذه الحياة الجديدة، كلّ يوم، وإلى إنمائها، وتوسيع آفاقها، وتعميقها، وترسيخها بإزر النعمة الإلهيّة.وهكذا، بفضل تجلٍّ مطّرد ومتدرّج، يسير الإنسان المتجدّد، خطوة خطوة، حتّى يبلغ حياة اللّه الكاملة والأبديّة، قاهراً إبليس، والخطيئة والموت.ومسيرة الخلاص هذه، هي، لكلّ إنسان، مرحلة قصيرة تطبعها الأفراح والآلام، والصراعات، والهزائم والانتصارات، وما مأساة كلّ وجود إنسانيّ سوى أنّة قصيرة تصبو نحو التجلّي والتناغم الأبديّين اللّذين يتحقّقان عندما تنشد الخليقة الموحّدة في اللّه نشيد الخلاص.

إنّ نظرة بولس هذه أنشودة رجاء، ومصباح مضاء في عالم صائر إلى الزوال.ولا عجب إن وُجدت في دياميس المسيحيّين الأوائل كتابات تقول :"أنتم، الوثنيّين، العائشين فوق الأرض، أنتم الأموات الحقيقيّون، فيما نحن، هنا الأموات، تحت الأرض، نحن الأحياء الحقيقيّون ".

لقد أحدثت الخطيئة في الكون شرخاً أليماً، جعلت البشريّة تعاني أبداً آلام ولادة، وتتطلّع إلى الخلاص؛ وأبدت التاريخ مسخاً مريعاً، ولغزاً محيّراً، وقد زاد الوحيُ والفداءُ الإنسانَ إدراكاً للهُوى المخيفة التي يسير على شفاها، ولكنّهما زوّداه باليقين بأنّ كلّ هذا النشاز سيزول، يوماً، في تناغم أبديّ.وفي تلك الأثناء تتضرّع الخليقة إلى خالقها أن ينقذها من براثن الشرّير.

و إلى جانب تضرّع الخليقة، "يشفع الروح القدس لنا، بأنّات لا توصف "، ويسكب على الخليقة المتألّمة والمتأوّهة رجاء الانعتاق من الفساد، وبلوغ حرّيّة أبناء اللّه.

لقد أبرز بولس بؤس الإنسان الممزّق بين انحياز فكره للخير، وانزلاق جسده نحو الخطيئة التي تسيطر على أعضائه، ووصف هذا الصراع الحادّ بعبارات مؤثّرة خالدة؛ وما المنقذ من هذا الوضع سوى النعمة، والوفاء للروح، بالإيمان الواثق بمحبّة المسيح، والذي يدفع إلى الاتّضاع كلَّ من يعي وهنه وهشاشته حيال الكمال المدعوّ إليه، كما يتّضح من قول الرسول: "إنّي لا أفهم ما أفعل؛ فما أُريده لا أفعله، وما أكرهه إيّاه أفعل.فإن كنت أفعل ما لا

أُريد، فلستُ أَنا، بعدُ، من يفعل هذا، بل الخطيئة الساكنة فيّ.أَجل، إِنّي أَعلم أَنّ الصلاح لا يسكن فيّ، أي في جسدي؛ فالرغبة في الخير هي في استطاعتي، أمّا فعله فلا؛ لأَنّ ما أُريد من الصلاح لا أَفعله، وأَمّا ما لا أُريد من الشرّ فإِيّاه أَفعل... الإِنسان الباطن فيّ يُسرّ بشريعة اللّه، بيد أَنّي أرى في أَعضائي شريعة أُخرى تحارب شريعة عقلي، وتأسرني لشريعة الخطيئة التي في أَعضائي.يالي من إِنسانٍ شقيّ ! من ينقذني من جسد الموت هذا؟... فهاءنذا عبد، بالعقل، لشريعة اللّه، وعبد، بالجسد، لشريعة الخطيئة ".

غير أَنّ بولس، عقب هذه الصيحة الوجيعة، يسارع، في الفصل الثامن، إِلى إِطلاق نشيد الخلاص محلّقاً إِلى قممٍ شامخات، وإِلى أَجواءٍ سامية لا تُدانى: "لأَنّ شريعة الروح الذي يهب الحياة في المسيح يسوع قد حرَّرتني من شريعة الخطيئة والموت.فالذي لم تستطعه الشريعة، وقد أَعياها الجسد، حقّقه اللّه بإِرسال ابنه في جسد يشبه جسدنا الخاطيء، كفّارة للخطيئة... الجسد ينزع إِلى الموت، وأَمّا الروح فينزع إِلى الحياة والسلام... إِن عشتم بحسب الجسد فستموتون، وأَمّا إِن أَمتُّم، بالروح، أَعمال الجسد، فستحيون.فإِنّ جميع الذين ينقادون لروح اللّه هم أَبناء اللّه حقّاً... وأَنتم لم تتلقّوا روح عبوديّة يعود بكم إِلى الخوف، بل روح تبنٍّ به ندعو: "أَبّا ! يا أبتِ ! ".وهذا الروح عينه يشهد مع روحنا بأَنّا أَولاد اللّه، أَولادٌ، فإِذن ورثة أَيضاً، ورثة اللّه، وشركاء المسيح في الميراث؛ لأَنّنا إِذا شاركناه في آلامه، نشاركه في مجده أَيضاً ". "وأرى أَنّ آلام الزمن الحاضر لا يمكن أن تقارن بالمجد المزمع أن يتجلّى لنا..."

" إِنّ الروح يعضد ضعفنا، لأَنّا لا نعرف كيف نصلّي كما ينبغي، لكنّ الروح نفسه يشفع فينا بأَنّات تفوق الوصف... ونحن نعلم أَنّ اللّه، في كلّ شيء، يسعى لخير الذين يحبّونه، المدعوّين بحسب قصده ". "إِنّ الذي لم يضنّ بابنه نفسه، بل أسلمه إِلى الموت من أَجلنا جميعاً، كيف لا يهبنا، أَيضاً، معه، كلّ شيء ؟"

" فمن يفصلنا عن محبّة المسيح ؟ أَشدّة، أم ضيق، أم اضطهاد، أَم جوع، أم عري، أم خطر، أم سيف ؟.. . في كلّ ذلك فزنا فوزاً مبيناً بالذي أَحبّنا، وإِنّي لواثق بأَنّه لا موت، ولا حياة، ولا ملائكة، ولا أَصحاب رئاسة، ولا حاضر، ولا مستقبل، ولا قوّات، ولا علو، ولا عمق، ولا خليقة أُخرى، بوسعها أَن تفصلنا عن محبّة اللّه في المسيح يسوع ربّنا."

و بعد أَن أسهب بولس في إِظهار أَنّ الشريعة الموسويّة لم يبقَ لها في مسيرة الخلاص شأن، عبّر عن "غمّه الشديد، وأَلمه الملازم" لأَن "إِخوته وبني قومه باللحم والدم"، أَي اليهود الذين عميت أَبصارهم عن رؤية المسيح، ما زالوا متمسّكين بحرف تلك الشريعة،

زائغين عن روحها. فلئن كانت الشريعة قديماً قد اتّخذت من الختان علامة مادّيّة للانتماء إلى شعب اللّه، إلاّ أَنّ الربّ لم يعد يعتدّ للعلامات الظاهرة، وإنّما هو يقتضي ختان القلب، بالتجرّد عن الأَهواء، في سبيل إتمام مشيئته، وبالإيمان بيسوع، وبالمحبّة التي باتت هي جوهر الشريعة وكمالها.

و يبلغ حزن بولس بشأن بني قومه الذين كانوا قد خُصّوا بالتبنّي، والمجد، والعهد، والوعد والشريعة، والذين انحدروا من مجد الآباء، وأنجبوا المسيح بالجسد، وإليهم، أوّلاً، وُجّهت بشرى الإنجيل ولكنّهم رفضوها، بحيث يتمنّى لو أَنّه يُبسَل، ويُفصل عن المسيح، إن كان، في ذلك، خلاص إخوته، الذين أَمعنوا في كبريائهم وغيّهم.وعاد يؤكّد لهم أَنّ اللّه لا يدع أَحداً أو شعباً يستغلّه لأَغراض قوميّة ضيّقة، وأَنّ نعمة الخلاص لا تحصر في قناة وطنيّة؛ وأَنّ وعود اللّه لم تكن موجّهة إلى "إسرائيل حسب الجسد" بل إلى "إسرائيل حسب اللّه"، وأَنّ تخاذل إسرائيل أَعطى أولويّة الخلاص للوثنيّين، ومن ثمّ "فالوثنيّون الذين لم يسعوا إلى البرّ، قد نالوا البرّ الذي يأتي من الإيمان، في حين أَنّ إسرائيل الذي كان يسعى إلى شريعة برّ لم يدرك هذه الشريعة.لماذا ؟ لأَنّه لم ينتظر البرّ من الإيمان، بل ظنّ إدراكه بالأعمال، فارتطم بحجر عثرة... "

و يهتف بولس: "ما أَبعد غور غنى اللّه وحكمته وعلمه ! وما أَعسر إدراك أحكامه وتبيّن طرقه! " إنّ بولس، بعد تجربته المدهشة في دمشق، وطيلة مسيرته المرهقة لم يفقد القدرة على الدهشة، فالدهشة دليل قلب ما برح شابّاً، والدهشة أَمام جلال اللّه مُواكبة للحسّ الدينيّ، ومحرّرةٌ للفكر الذي يُشرعه على عظمة الربّ.

و يختم بولس بتوصيات عمليّة سلوكيّة مستوحاة من الحياة الجديدة في المسيح ومن شريعة المحبّة.

بعد أَن فرغ بولس من إملاء الرسالة، أعاد قراءتها، وختمها، وأَنفذها إلى روما مع الشمّاسة "القدّيسة فيبة "، المكرّسة للربّ، إحدى رائدات جيوش الراهبات اللائي ما انفككنَ، منذ قرون، ينشرنَ شذى يسوع، بأَساليب متنوّعة، في شتّى أَقطار المعمورة.

و أَنطلقت " فيبة " بالرسالة فيما كانت أَشجار اللوز قد شرعت تزهر في اليونان.

كانت الرحلة الرسوليّة الثالثة قد أَشرفت على نهايتها، واجتاز بولس خلالها مسافات شاسعة، ضارباً في الأَرض، قاطعاً سهولاً، متوقّلاً جبالاً، هابطاً ودياناً؛ وكان قد بشّر معظم القسم الشرقيّ من الأمبراطوريّة الرومانيّة، وتحرّق توقاً للشخوص إلى القسم الغربيّ منها، مستهدفاً إِسبانيا، عبر روما.وقد آذنت ساعة تحقيق هذه الرغبة بعد أَن ولّى الشتاء، واستُعيدت الملاحة رسميّاً

و لكن كان عليه، قبل ذلك، التعريج على أورشليم، لتسليم كنيستها حصيلة الإِعانات التي جمعتها مختلف كنائس مقدونية وآخائية واليونان، وكان مندوبو هذه الكنائس يواكبونه.ولم يكن خفيّاً عليه ما يتربّص به، في أورشليم، من مهالك، وما يضمره له المتهوّدون هناك من حنَق وبغض، وقد أَشار إلى هذه الهواجس التي كانت تخامره، إِذ ناشد الرومانيّين قائلاً: "إِنّي أسألكم، أَيّها الإِخوة، بربّنا يسوع المسيح، وبمحبّة الروح، أَن تجاهدوا معي بالصلاة إلى اللّه لأَجلي، لكي أَنجو من الكفرة الذين في اليهوديّة، وتكون خدمتي التي أؤدّيها في أورشليم مقبولةً لدى القدّيسين ".

غير أَنّه، مع هذه الهواجس، كان حريصاً على زيارة أورشليم، وتسليم كنيستها الأَمانة بيد مندوبي الكنائس المتعدّدة، توثيقاً لعرى الوحدة بين مختلف الجماعات المسيحيّة.فهذه الوحدة كانت، لديه، أَخطر شاناً من حياته.وفضلاً عن ذلك، كان بولس راغباً في التماس بركة الكنيسة الأُمّ لرسالته العتيدة في الغرب.

حياته الرسوليّة، منذ مستهلّها، لم تعرف طعم الراحة، وما انفكّت المصاعب تتعقّبه، وتبرز له في كلّ زاوية، ولكنّه لم يضِقْ بها ذرعاً، ولم يقنط، ولم يكلّ، فقد كان الروح يسهر عليه بعناية، والروح خبير بالدروب الملتوية، وهو لا يضنّ أَحياناً بالشهادة لشاهده.حياته تلك كانت، على غرار حياة معلّمه، ترحالاً مستمرّاً، وستتوغّل أَكثر في التمثّل بحياة يسوع.ففي مثل بسالته صعد صعوده الأَخير إلى أورشليم، قاتلة الأَنبياء، وهو مدرك لما يضمره له أَهلها من نقمة، ولما يبيّتونه له من شرّ.ولم يكن يجهل نوايا "الغيورين "، أولئك الأصوليّين اليهود المتعطّشين إلى الانتقام من أَعداء شريعتهم، بل حتّى ممّن لا يشاركونهم التعصّب لها، والذين أَلّفوا عصابات قتل، وتزوّدوا بخناجر على شكل مناجل صغيرة، كانوا يخفونها في ثنايا معاطفهم، ويندسّون بها وسط حشود الهيكل، فيستلّونها بسرعة البرق، ويغرسونها في ظهور ضحاياهم، وينسلّون تائهين في الزحام.

و ما إن همّ بولس بالإبحار إلى أورشليم حتّى استشمّ أصدقاؤه رائحة مكيدة دنيئة، إذ دسّ يهود متزمّتون قتلة للقضاء عليه.فبمناسبة عيد الفصح، كان الحجّاج يتكدّسون في المرافئ، وكانت معظم السفن تخصّ يهوداً، ومن اليسير رشوة قبطان وقبضة من البحّارة.والسفينة المزدحمة بالركّاب هي المكان الأَمثل لطعن أيّ شخص تحت جنح الظلام، وإلقائه في اليمّ، بعيداً عن عين أيّ رقيب.وعلم بعض اليهود المتربّصين ببولس بنيّته الإبحار، فوطّنوا العزم على الإيقاع به.إلاّ أنّ بولس فشّل المكيدة، فانتهج، برفقة لوقا، طريق البرّ، فيما أبحر سائر رفاقه تضليلاً لأعدائه اليهود، على أن يلتقي الجميع في ترواس.وأدّى ذلك إلى العزوف عن الاحتفال بالفصح في أورشليم، وآثر بولس الاحتفال به بين أَصدقائه الفيليبيّين.وبعد أسبوع، استقلّ، في مرفأ ينابوليس، مركباً قاصداً ترواس.

و يتّضح من سفر أعمال الرسل أنّ لوقا بات يلازم بولس منذ تلك الرحلة، وغدا يروي أَحداث الرحلة بصيغة الجمع المتكلّم: "أمّا نحن فأبحرنا من فيليـبّي، بعد أيّام الفطير، وبلغنا إليهم في ترواس، بعد خمسة أيّام، فمكثنا فيها خمسة أيّام ".صيغة الجمع هذه تعبّر عن علاقة وثيقة وحميمة بين الرجلين، كاتب الرسائل، وكاتب "أعمال الرسل" والإنجيل الثالث.فرغم المصاعب التي حفلت بها حياته، حرِص بولس على عقد الصداقات الثمينة، وكان خبيراً في تغذيتها، فالصداقة ضرورة أساسيّة لنشاطه الرسوليّ، ولحياته العاطفيّة، فهو، أُسرويّاً، كان وحيداً، لا زوجة له، ولا ولد، ولا أخ.ولكنّ الربّ منّ عليه بأَصدقاء، وأيّ أَصدقاء ! صحيحٌ أَنّه قلّما كان لإنسان خصوم في مثل شراسة خصومه، ولكن، بالمقابل، قلّما كان لإنسان أَصدقاء في مثل وفاء أَصدقائه وتفانيهم.كذلك كانت حياة معظم القدّيسين تنطوي على صفحات مشرقة، هي أَناشيد رائعة للصداقة.

أَمضى بولس في ترواس أُسبوعاً استغلّه لتوطيد أُسس الكنيسة هناك، وتزويدها بالإِدارة الحكيمة، والإِرشادات الكفيلة بتسديد خطاها.وعشيّة رحيله عنها، وكانت عشيّة يوم أَحد، التأمت الجماعة المسيحيّة في أَحد البيوت للاحتفال بالإِفخارستيّا.ومنذ الغروب، شرع المؤمنون، رجالاً ونساءً وشبّاناً يتدفّقون ويتكدّسون في علّيّة في الطابق الثالث من البيت حيث أُشعلت مصابيح عديدة، وأشرعت النوافذ كي تنساب منها نسمات الربيع، منعشةً جوّ الازدحام الخانق، وفيما كان بولس يستفيض في التحدُّث عن صلب يسوع وقيامته، ويسهب في الإِلمام بهذا الموضوع الذي أَخذ بمجامع فؤاده ووجدانه، كان فتى يدعى أوتيخوس قد وصل متأخّراً، فلم يجد لنفسه مجلساً إِلاّ على حافة نافذة، وغالبه النعاس فغلبه، وهوى من شاهقٍ إِلى حضيض فناء البيت، فدُقّت عنقه.واندفع القوم عبر السلالم إِلى أَسفل، وبولس معهم، فإِذ بالفتى جثّة هامدة.وفيما ساد الوجوم أَعلن بولس: "فلتطمئنّ نفوسكم، فهو مازال حيّاً".وأَخذ الفتى بين ذراعيه وتضرّع إِلى غالب الموت الذي قال: "أَنا القيامة والحياة"، ثمّ سجّى الشابّ على سرير، وصعد ثانية إِلى العلّيّة وكأنّ شيئاً لم يحدث، فكسر الخبز، واحتفل بالإِفخارستيّا، وهو موقنٌ أنّ الذي أَسّس هذا السرّ لكي يهب الحياة بواسطة جسده، لن يدع الموت يتغلّب في تلك المناسبة.

في تلك الليلة لم ينم أَحدٌ من المؤمنين، فقد أمتدّ الاجتماع وتواصل حديث بولس حتّى بزوغ الفجر.وحينئذٍ انضمّ إِليهم الفتى أوتيخس منتصباً على قدميه، معافىً، فقد انتصر الإِيمان ونال مكافأته.وأَنشد الجميع نشيد القيامة، نشيد الفرح والنصر.

حينئذٍ أوعز بولس إِلى رفاقة أَن يسبقوه، بحراً، إِلى آسّوس، وآثر السير إِليها وحيداً، قاطعاً مسافة خسمة وعشرين كيلومتراً، متفقّداً أَحوال الجماعات المسيحيّة الصغيرة المنتشرة على طريقه.فمضى عبر السهول المخضّلة المرصّعة بندى الربيع، مستغرقاً في التحدّث إِلى المسيح، وفي تأَمّل الإِيحاءات التي راودته في أَثناء الإِفخارستيّا.

في أسّوس كان رفاق بولس قد استأجروا مركباً وقبعوا ينتظرونه عند رصيف الميناء، فما كاد ينتهي إِليهم حتّى أَبحروا إِلى ميليتس.في الليلة الأولى أرسى المركب في مرفأ ميتيلينة، وفي الليلة الثانية أرسى في جزيرة كيوس المعطّرة بأريج الربيع، والتي يزعم البعض أَنّها مسقط رأس هوميروس، في حين تنازعها هذا الفخر مدينة إِزمير.وفي اليوم الثالث سار المركب بمحاذاة جزيرة سامُس التي تنتج أَعذب نبيذ ممسَّك في اليونان، وهي مسقط رأس فيثاغوروس.وحرص البحّارة على أَداء فروض العبادة لإِلاه البحر بوزيئيودون الذي كان معبده جاثماً على قمّة هضبة تروجليون.

كانت أفسُس قد باتت قريبة، وكانت أَشدّ قرباً إِلى قلب بولس، غير أَنّ رغبات متضاربة كانت تمزّق صدره، فهو توّاق إِلى العودة إِليها، غير أَنّ الروح يحول بينه وبين الماضي، ويدفعه إِلى الأَمام، بحيث بات مستعجلاً في بلوغ أورشليم لقضاء عيد العنصرة فيها.ومع ذلك لم يستطع أن يمرّ على مقربة من أَحبّائه الأفسسيّين ولا يراهم، فأَرسل يستدعي شيوخهم.

كانت المسافة بين ميليتس وأفسس تقارب ثمانين كيلومتراً، وبانتظار وصول أَحبّائه الأفسسّين تفقّد بولس أَحوال مسيحيّي ميلتس، ومؤمني الكنائس الأُخرى المجاورة، فقد كانت بذور الإِنجيل تنبت وتنمو في جميع أَرجاء آسية الصغرى.وجدير بالذكر أَنّ ميليتس التي آوت، ذات يوم، أسقفيّة مزدهرة، لم يبقَ منها، اليوم، سوى أطلال دارسة تغشاها أعشاب برّيّة ترعاها الماشية، وتسرح فيها الزواحف.

استقبل بولس شيوخ أفسس على الشاطئ، وأَلقى فيهم خطاباً يُعدّ من أَجمل ما قال، خطاباً تفجّر من أَعماق قلبه ووجدانه، ومن رؤيته النبويّة للمستقبل الماثل أَمام ناظريه، خطاباً وصيّة عبّرت كلّ لفظة منه عن عميق وعيه لرسالته ووفائه "لكنيسة اللّه التي اقتناها بدمه الخاصّ ".

ذكّرهم، أوّلاً، بكلّ ما فعل في أَثناء إِقامته بين ظهرانيهم، في سبيل إِنشاء كنيسة يسوع، خادماً الربّ بكلّ تواضع وبكثير من الدموع، ومقاسياً المحن التي أنزلتها به مكائد اليهود، داعياً الجميع، بلا استثناء، إِلى التوبة والإِيمان بيسوع، وقد فعل كلّ ذلك في زهدٍ وتجرّد مطلقين، مؤكّداً :"ما اشتهيت، يوماً، فضّة أَحد أو ذهبه، أو ثيابه "، "وأَنتم تعلمون أَنّ هاتين اليدين كانتا تكفلان حاجاتي وحاجات الذين كانوا معي".

لقد كان بوسع بولس تجنّب المضايقات والاضطهادات، والتمتّع بحياته، لو هو أَغفل الخلافات الجوهريّة القائمة بين اليهوديّة والمسيحيّة، أو لو هو خرس، خوفاً، أو مداراةً، أو خشية إِغضاب المتنفّذين.ولكن ما كان سيحلّ، حينئذٍ، بالكنيسة ؟ أليست هي في حاجةٍ إِلى من يعلنون الإِيمان بلا وَجَل، مثل حاجتها إِلى رؤساء حذرين فطنين ؟

و توخّى بولس، ثانياً، شدّ انتباه شيوخ أَفسس إِلى أَنّ مسؤوليّة كنيسة أَفسس باتت مسؤوليّتهم، فعليهم السهر على أَنفسهم وعلى الرعيّة التي أَقامهم الروح القدس أَساقفة عليها، ورعاية الكنيسة التي اكتسبها المسيح بدمه؛ وناشدهم قائلاً :"إِنّي لعالم، أَيضاً، أَنّه، بعد ذهابي، سيدخل في وسطكم ذئاب خاطفة لا تشفق على القطيع.ويقوم من بينكم أَنفسكم رجالٌ يشيعون تعاليم ضالّة، ويستجرّون التلاميذ وراءهم.فاسهروا، إِذن، وتذكّروا أَنّي لم أَكفّ، ليلَ نهار، طوال ثلاث سنوات، عن نصح كلّ واحد منكم بالدموع... "

ثمّ أَطلعهم على عزمه الشخوص إِلى أورشليم، بدافع من الروح القدس، وهو غير جاهل لما ينتظره هناك من قيود ومشقّات.غير أَنّ اضطلاعه بمهمّته، وإِتمام عمل البشارة الذي أوكله إِليه الربّ يسوع، أَهمّ، لديه، من حياته نفسها.إِنّه يواصل سيره، يحدوه الروح، وعيناه شاخصتان على الهدف، ومعياره سلّم قِيَم يحتلّ قمّته دم المسيح، فالكنيسة، فخلاص النفوس، فدعوته الرسوليّة، وأَخيراً تأتي حياته.

و أَخيراً أَطلق العبارة التي وجفت لها قلوبهم: "أَنا أَعرف أَنّكم لن تروا وجهي بعد اليوم "وبسط يديه ليباركهم". يا ليدَيْ بولس ! كم من البركات هطلت منهما ! لقد كانتا، أَبداً، منبسطتين للعطاء، ولم تمتدّا، قطّ، للأَخذ ! بوركت تيْنك اليدان، فما الخشونة والندبات التي انتشرت فيهما سوى سمات الربّ.ولا عجب إِن شقّ على تلاميذه وداعه، فمشاعر الرقّة الإِنسانيّة لم تكن غريبة عنه.وهو لم يسعَ، قطّ، إِلى الحبّ، ولكنّ الحبّ أُغدق عليه تلقائيّاً".

و جثا بولس على رمل الشاطئ، فحذا الجميع حذوه، وصلّوا معاً، وقد علا نشيجهم، واشتدّ كمَدهم، إِذ لن تُكتَب لهم رؤيته ثانية، وأَكبّوا على عنقه، فقبّلوه بحرارة، ثمّ شيّعوه إِلى السفينة.

و ما لبثت الريح أَن اختطفت منهم ذاك الذي أَحبّوه محبّة الأَبناء لأَبيهم الحنون.وما عتّمت أَن أمست السفينة نقطة سوداء صغيرة في الأُفق، فوق مياه زرقاء مذهّبة.

اتّجهت السفينة جنوباً، وقضت ليلتها الأُولى في جزيرة كوس، جوهرة الجزر، التي تفخر، إلى جانب جمالها، بكونها مسقط رأس إيبوقراط، أَبي الطبّ.وعند الفجر أقلعت ميمّمة شطر رودُس، جزيرة الورود، حيث واحد من أكثر مرافئ المتوسّط نشاطاً وازدهاراً.وكانت رودُس، آنذاك في أوج رونقها، وغدت، من بعد مقرّاً لأسقفيّة، غير أنّ استعجال بولس نحو مصيره منعه من زيارة الجماعة المسيحيّة فيها.وفي اليوم الثالث بلغت السفينة شاطئ باتارا، حيث انتقل بولس وصحبه إلى سفينة أُخرى مقلعة إلى فينيقيا، بلا توقّف.

و لدى مرورهم بجزيرة قبرص ضجّ، في صدر بولس، موكب لَجِب من الذكريات، فمن هناك كانت انطلاقته على دروب الرسالة؛ ربّما هو بكى انفصاله عن الرفيق الحبيب برنابا، وتمنّى لو كان أكثر رفقاً بمرقس، واحتفظ بكليهما إلى جانبه؛ ولكنّه ذكر، بامتنان، لقاءَه بالحاكم سرجيوس بولس، الذي أَشرع أَمامه آفاقاً رحيبة، وزوّده بنفحة رجاء منعشة... خمسة عشر عاماً انصرمت منذئذٍ، جاب بولس، في أَثنائها، مئات المدن والأَمصار، وما زالت ذكرياته نديّةً، مثيرة.

بعد خمسة أَيّام من الإبحار انتهى الركب إلى صور، التي كانت قد فقدت الكثير من رونقها الفينيقيّ، ولكنّها ما برحت مرفأً نشيطاً.وقد نشأت فيها جماعة مسيحيّة صغيرة، أَسَّسها مؤمنون فرّوا من أورشليم في أعقاب اضطهاد شاول لهم.وريثما أَفرغت السفينة حمولتها واستبدلتها بسلعٍ أُخرى، أمضى بولس وصحبه أسبوعاً لدى جماعة صور، حيث انهالت على الرسول النُذُر والنبوءات المنبئة بما ينتظره في أورشليم من قيود واضطهادات ومِحَن.وتوسّل إليه مسيحيّو المدينة أن يعزف عن المثول إلى المدينة المقدّسة، وينفذ المساعدات مع رفاقه، ولكن ربّما غاب عن بالهم أنّ الشدائد لا تخيف بولس، ولا تثنيه عن عزمه.وفي نهاية الأُسبوع شيّعت الجماعة كلّها، برجالها ونسائها وصغارها، بولس ورفاقه إلى خارج المدينة، حيث جثا الجميع على رمال الشاطئ، وصلّوا معاً، ثمّ ودّع بعضهم بعضاً، والقلق ممسكٌ بخناقهم.

و انتهت الرحلة البحريّة في بتولمايس - عكّا الحاليّة - غير البعيدة عن صور.وانحدر الفريق البولسيّ إلى اليابسة.فسلّموا على الإخوة الموجودين هناك، ثمّ استأنفوا السير، برّاً، إلى قيصريّة، حيث نمت جماعة مسيحيّة كبيرة يسوسها فيلبّس، الذي كان يُجلّ فيه بولس نبل نفسه، وبعد نظره، وسداد رأيه، والذي كان يدعو نفسه، تواضعاً، "المبشّر" مع أنّه كان وريث روح استفانُس، وأَحد الشمامسة السبعة الذين اختارتهم الكنيسة الأولى.وهو الذي

كان قد عمّد، على جانبٍ من الطريق، أحد ضبّاط ملكة الحبشة، ثمّ فرّ من أورشليم، إثر اضطهاد شاول، وبعد أَن بشّر في اليهوديّة، والسامرة وجوبة، استقرّ في قيصريّة.وقد تبنّى، من بعدُ، كلّ أَفكار بولس.وإذ إنّ عيد العنصرة ماكان ليحلّ إلاّ بعد بضعة أَيّام، قبل بولس دعوة فيلبّس، وأَقام عنده فترة قصيرة.

أَيّة نجوى عذبة كان يتبادلها الرجلان، مساءً، على شرفة المنزل المطلّة على البحر! وأَيّة مشاركة في أَسرار المسيح ! وأَيّة قراءة مشتركة لتدابير العناية الإلهيّة ! وقد أَثلجت صدر بولس رؤيته بنات فيليبس العذارى الأَربع اللائي كرّسنَ ذواتهنّ للربّ وللكنيسة، ونلن نعمة النبوّة.هؤلاء العذارى أَنبأن الرسول بالمحَن الطاحنة التي سيتعرّض لها في أورشليم.وفي تلك الأَثناء هبط قيصريّة، أَيضاً، نبيٌّ يدعى أَغابُس، كان بولس قد التقاه في أنطاكية، فدخل، وانتزع حزام بولس، وقيّد به يديه ورجليه، مثيراً دهشة الجميع، ثمّ أَعلن :"هذا ما يقوله الروح القدس : إنّ صاحب هذا الحزام سيقيّده اليهود، هكذا، في أورشليم، ويسلمونه إلى أَيدي الأُمم ".واستولى الحزن والوجوم على نفوس الحاضرين، فطفقوا يرجون بولس أَن يُقلع عن قصده الشخوص إلى أورشليم.إلاّ أَنّه أَجاب :"ما بالكم تبكون حتّى لتكسرون قلبي؟ إنّي مستعدّ لا للقيود فحسب، بل للموت أَيضاً، في أورشليم، من أَجل اسم الربّ يسوع ".ويضيف لوقا :"لمّا لم يقتنع، سكتنا وقلنا: " فلتكُن مشيئة الربّ! ".ثمّة أَحوال لا يملك فيها المرء سوى هذا القول.

حيال إيحاءات الآخرين وإنذاراتهم كان بولس يؤثر الإنصات إلى إيحاءاته الشخصيّة الداخليّة، التي كانت تدفعه إلى المضيّ قُدُماً نحو أورشليم، ولو كان سيلقى فيها الضرب والسجن.تلك كانت مشيئة الربّ، وفي ذلك حسْبُه.

كان بولس يعي أَنّه قد يلقى في أورشليم نظير مصير معلّمه، فانبرى لملاقاة هذا المصير بلا وَجل، بل بعظمة واندفاع.

و عندما أَذنت ساعة الرحيل شيّع عددٌ من تلاميذ قيصريّة بولس وصحبه إلى أَورشليم، حيث حلّوا ضيوفاً على مناسون القبرصيّ، وهو من أوائل المؤمنين بيسوع.أَلم يكن لرسول الأُمم، إذن، مكان لدى الكنيسة الرسميّة التي جاءها بالإعانات ؟

في طريقه إلى أورشليم سلك بولس الدرب المارّ بالمكان الذي مات فيه يسوع لأَجل البشر.وكان يؤمن، بكلّيّته، أَنّ مركز المسيحيّة هو سرّ الصليب، والفداء، وأَنّ عليه، هو بولس أَن يكمل، في جسده، ما نقص من آلام المسيح.وقد شاء الروح الذي قاده منذ سنوات أَن يهبه نصيبه من تلك الآلام، ومن تلك التضحية، فانقاد للروح طائعاً.

و هكذا، قُبيْل العنصرة، أنهى بولس رحلته الرسوليّة الثالثة التي امتدّت نحو خمس سنوات، واجتاز، في غضونها، أَكثر من خمسة آلاف كيلومتر، نحو نصفها سيراً على الأَقدام.

الفصْل الثاني عشر: أَسير يسوع

منذ سنوات كان بولس يعايش مسيحيّين آمنوا بشموليّة الإِيمان المسيحيّ، وبدعوة جميع البشر، بلا استثناء، إِلى الخلاص بنعمة يسوع.ولذلك كان يتوجّس خشيةً من تصلّب بعض المسيحيّين المتهوّدين في أورشليم، الذين ينكرون الخلاص على من لا يلتزمون، التزاماً كاملاً، بفرائض الشريعة اليهوديّة.ولطالما خبر بولس مقاومة أولئك المتزمّتين لتعليمه، في جميع أَنحاء آسية الصغرى، وعانى دسائسهم.وكان من شأن تلك الفئة الدعوة إِلى رفض إِعانات كنائس آخائية ومقدونية واليونان لأَنّ مقدّميها غير مختونين، والتنديد بتبشير بولس الذي بات يستقبل، في أَحضان الكنيسة، من تجاهلوا فرائض الشريعة الموسويّة.ولكن، إِلى جانب هذه الفئة الشديدة التزمّت، كانت في أورشليم فئة من المسيحيّين، من أَصل يهوديّ، أَقلّ تزمّتاً وتشدّداً؛ وكان أَيضاً من بقي من الهلّينيّين الذين يفخرون ببولس وبكلّ إِنجازاته، والذين أَشرعوا له بيوتهم وقلوبهم.وفوق هؤلاء وأولئك كان ما زال، أُسقفاً على أورشليم، يعقوب الملقّب بأَخي الربّ، وهو الذي كان، في مجمع أورشليم، لسبع سنوات خلت، قد رجّح الكفّة لصالح بولس وتعليمه.وربّما هو كان، فيما خلا حفنة من الشيوخ المحيطين به، المسؤول العاقل المتّزن الوحيد، بعد أَن نأى عن المدينة المقدّسة بطرس، ويوحنّا، وبرنابا، وسيلا، الذين كانوا كفيلين بدعم بولس ورسالته.

في هذا الجوّ المشحون والمبهَم، مثل بولس ورفاقه، غداة بلوغهم المدينة المقدّسة، إِلى مقرّ يعقوب وشيوخ الكنيسة، حيث لم يكن للمتهوّدين حضور ماديّ كثيف، ولكن كان لهم تأثير بيّن.وكان اللقاء "ديبلوماسيّاً"، مهذّباً، وأَقلّ سوءاً ممّا توجّس بولس، ولكنّه كان يتمنّى لو لاقى رفاقه الذين قدّموا، بفرح، هباتهم، دليلاً على ارتباطهم الوثيق بالكنيسة الأُمّ، استقبالاً أوفر دفئاً، ومودّة، واحتراماً.

يصف لوقا اللقاء، بأسلوبه الموجز، كالتالي: " في الغد دخل بولس معنا على يعقوب، حيث كان جميع الشيوخ مجتمعين، أَيضاً، فسلّم عليهم، ثمّ أَخذ يروي لهم بالتفصيل كلّ ما أَجراه اللّه على يده بين الأُمم.فلمّا سمعوا مجّدوا اللّه.ثمّ قالوا له: " أَنتَ ترى، أَيّها الأَخ، أَنّ المؤمنين من اليهود أُلوف، وكلّهم حريصون على الشريعة.وقد بلغهم عنك أَنّك تعلّم اليهود الذين بين الأُمم أَن يتخلّوا عن موسى، بقولك لهم أَلاّ يختنوا أولادهم، وأَلاّ يجروا على سننهم.فما العمل إِذن ؟ فإِنّهم، ولا شكّ، سيسمعون بقدومك.فاعمل بما نقول لك: إِنّ عندنا أربعة رجال مرتبطين بنذر.فخذهم معك، وتطهّر معهم، وأنفق عليهم.وهكذا سيحلقون

رؤوسهم، وسيعرف الجميع أنّ ما بلغهم عنك ليس بشيءٍ، بل أنّك، أنت أيضاً، تسلك سبيل الحفاظ على الشريعة..."

و كان النذر يقتضي تكريس الذات للربّ مدّة شهر كامل، ينقطع، خلاله، الناذر عن تناول الخمرة، ويلتزم بالعفّة، ولا يقصّ شعره، على أن يقضي الأُسبوع الأَخير متعبّداً في الهيكل، ملازماً له، ويقدّم، في نهايته، الضحايا والتقادم التي نصّت عليها الشريعة ويحلق شعره ويحرقه.

من اليسير تخيّل صدمة بولس، وخيبته المريرة، فإخوته في الدين هؤلاء، بعد كلّ هذه السنين، ما انفكّوا لا يميّزون بين الجوهريّ والثانويّ، وما زالت التقاليد الموسويّة مهيمنة على أذهانهم، ولكأنّهم لم يدركوا، بعدُ، أنّ الخلاص، بات يتحقّق بالإيمان، لا بالشريعة التي ما انفكّوا يُضفون عليها قيمة لا تمتلكها، ولكأنّهم قد ذهلوا عن كلّ الكنائس التي أَنشأها في شتّى أَصقاع العالم الوثنيّ، وعن آلاف الكيلومترات التي ذرعها كي ينشر بشرى الإنجيل.

ذلك العملاق في الرسالة، والعملاق في الإيمان، طلب منه إِخوته في أورشليم الخضوع لطقوس اليهود، ومسايرة تقاليدهم، التي بعد أَن سيطر الإِيمان بيسوع على نفسه، لم يعد يقيم لها أيّ وزن.

لقد كانت تلك النصيحة القاتلة هي نصيب بولس، عوضاً عن المديح، والتشجيع، والتقدير التي كان، هو ورفاقه، جديرين بها، هو الذي هدى الربّ، عن يده، ألوف الوثنيّين، وأشاد عشرات الكنائس بين الأُمم، فُرض عليه أَن يبرّئ نفسه، جاهراً بيهوديّته، مقدّماً كفّارة علنيّة ! ولم يكتفِ إخوته الأورشليميّون بدفعه إِلى ما ينفر منه ويُزري به، بل أَلقوا على كاهله عبئاً ماديّاً مرهقاً: قضاء سبعة أَيّام في الهيكل مع خمسة غرباء، وإِطعامهم، والتكفّل بنفقاتهم الباهظة، ووفاء نذورهم التي تقتضي منه التضحية بخمسة عشر خروفاً، وتقديم خمس سلال خبز وحلوى، وخمس جرار نبيذ، وكلّ ذلك إِكراماً لمظاهر بات يمقتها.ولئن كان ذلك يرضي تطرّف اليهود المتزمّتين، أَلم يكن من شأنه تشكيك المسيحيّين من أَصل وثنيّ، الذين قد يؤوّلونه تكذيباً لكلّ ما علّمه بولس بإِلحاح، ونقضاً لكلّ ما بناه ؟

لا ريب أَنّ صراعاً موجعاً عصف بنفس بولس، الأَبيّ، الذي لا يلين في تشبّثه بما يؤمن به، غير أَنّ حرصه على وحدة الكنيسة، جسد المسيح، وعلى تجنّب أَيّ شرخ أو انقسام فيها، ارتضى تلك التضحية التي كان يرفضها بكلّ جوارحه؛ ومع ذلك تغلّب، في بولس، الرسولُ على الإِنسان، وتغلّبت، لديه، المحبّة على ما نبذه عقله وقلبه، فالمحبّة، كما قال هو نفسه متواضعة تتحمّل كلّ شيء.وكان بولس، في موقفه هذا عظيماً.وقد اعترف رينان نفسه بجسامة تلك التضحية قائلاً: " ربّما لم يفرض بولس، قطّ، على نفسه، تضحية أَقسى من هذه،

في سبيل رسالته...ففي غضون أيّام المهانة تلك، إذ كان ينفّذ مع أشخاص زريّين طقوس عبادة عفاها الزمن، كان أعظم ممّا كان في كورنثس وتسّالونيكي عندما برهن عن رفعة عبقريّته واستقلاليّتها ".

و قد بيّن لوقا لمندوبي كنائس مقدونية وآخائية المرافقين لبولس الدوافع النبيلة التي حملت الرسول على قبول تلك التسوية التي كان، ضمناً، يمقتها، فأكبروا فيه روحه المسيحيّ السامي؛ أوَ لم يسمعوه، من قبل، يعلن: " مع أنّي حرٌّ من جهة الناس جميعاً، فقد جعلت من نفسي عبداً للجميع، لكي أربح أكثرهم..." ؟

ليس مستبعداً أنّ بعض المتهوّدين الذين أقنعوا شيوخ أورشليم بهذا الاقتراح، كانوا متواطئين مع يهود "غيورين" قتلة، متآمرين معهم، مستهدفين القضاء على بولس.وربّما خطرت تلك المؤامرة في ذهن بولس، غير أنّ، ثمّة، لحظات في الحياة، يستسلم فيها المرء لقدره، مغمض العينين، وهو مدرك للمهالك التي ينزلق إليها.وقد أخذ بولس بنصيحةٍ أسداها إليه شيوخ سليمو النوايا بضغطٍ ممّن كانوا يضمرون له سوءاً، تنفيذاً لمخطّط إلهيّ، خفيّ المقاصد.

و لئن أرضى هذا التدبير المسيحيّين المتهوّدين، إلاّ أنّه، في الآن عينه، جعل من بولس فريسة سهلة ليهود الشتات الذين استقطبهم عيد العنصرة من الشرق الأدنى وآسية الصغرى، الذين كانوا يلاحقون بولس بحقدهم ونقمتهم، بعد أن طالما حاربوه في مدنهم، وطردوه من مجامعهم، واشتكوه إلى السلطات.ولمّا وقعت عليه أبصارهم في شوارع أورشليم، ثارت كلّ مشاعر كراهيّتهم ورغبتهم في الانتقام من عالم الشريعة المارق.ولمّا شاهدوه يسير صوب الهيكل برفقة المنذورين الأربعة، ومعهم رفيق بولس الأمين تروفيموس اليونانيّ، تبلورت المكيدة في أذهانهم.ومع أنّ تروفيموس توقّف في ساحة الوثنيّين حيث ينتصب، اليوم، جامع عمر، بيّت أعداء بولس النيّة على اتّهامه بإدخال وثنيّ غير مختون إلى حرم الهيكل، وهذه الفعلة جريمة عقابها الموت، كما تعلن اللافتات المثبتة على أبواب رواق الهيكل باللغات العبريّة، واللاتينيّة واليونانيّة والتي تحذّر: " لا يتقدّمنّ أيّ غريب إلى أبعد من هذا المكان، ولا يتخطّينّ الحاجز المؤدّي إلى المقام المقدّس.فمن وُجد هناك، فما عليه إلاّ أن يحمّل تهوّره عواقب تدنيسه الهيكل، أي الحكم بالموت ".

و أدّى بولس فروض النذر، وأطلع كهنة الهيكل على موعد انتهاء أيّام تطهّره ورفاقه، حيث يتعيّن تقديم الأضاحي عن كلٍّ منهم.وظلّ، سحابة الأيّام السبعة، يشترك في الطقوس والصلوات، منفقاً النهار كلّه في الهيكل.وكانت تلك فسحة كافية لأعدائه كي يُحكموا خطّة القضاء عليه، التي حدّدوا موعد تنفيذها في اليوم السابع والأخير.

في ذلك اليوم وإذ كان بولس يتمّم مع رفاقه الناذرين فروض التطهير، فجّر أَعداؤه الحدَث، بغتةً، ونفّذوا المكيدة المبيّتة، وراحوا يجوبون رواق الهيكل وهم يصيحون: "النجدة، يا بني إسرائيل ! هذا هو الرجل الذي يحرّض الناس جميعاً، في كلّ مكان، على شعبنا، وشريعتنا، وعلى هذا الهيكل المقدّس الذي دنّسه بإدخاله وثنيّين إليه.النجدة !" وفي الحال تعالى، في كلّ مكانٍ من الهيكل، صخب لا يوصف، امتزجت فيه الصيحات الحادّة، بالشتائم والوعيد، بحيث، في غضون دقائق، اختلطت الأمور، وما عاد أَحد يدرك ما يحدث.وهاج المتعصّبون المستثارون، وقد ارتسمت على وجوههم أَمارات الغضب العارم، استنكاراً للتدنيس المريع، وانقضّت جماعة مهتاجة على بولس، وجرّوه إلى الخارج، لينفّذوا فيه حكم الشريعة، ونفخ اللاويّون في الأَبواق إنذاراً بوقوع الرجس؛ وهرع حرّاس الهيكل، فدفعوا الجموع نحو الباب الكبير، ثمّ إلى أَسفل الدرج المؤدّي إلى الرواق الخارجيّ.وأوصدت الأَبواب البرونزيّة الثقيلة، وكان دويّ إغلاقها إنذاراً بنبذ بولس النهائيّ من الجماعة اليهوديّة.

و بغتةً وجد بولس نفسه في المكان الذي كان هو ورفاقه المتزمّتون، لعشرين سنة خلت، قد جرّوا إليه الشابّ المسيحيّ استفانُس.واستحوذ عليه فرحٌ غامر، إذ توقّع أَن ينضمّ، في غضون لحظات، إلى شهيد المسيحيّة الأَوّل، وإلى معلّمه يسوع.ولكنّ ساعته لم تكن قد أَذنت بعد؛ فقد خشي أَعداؤه من قتله في فناء الهيكل، وجهدوا في دفعه إلى الخارج، وكان هذا التردّد كافياً لإنقاذه.

فلم يكن يخفى على السلطات الرومانيّة أَنّ هيكل أورشليم هو بؤرة فِتَنٍ في مثل تلك المناسبات، وكانت ثلّة من الجند التابعين للقلعة الأَنطونيّة متأهّبة، أَبداً، لقمع أَيّ بلبال، وكان سلّم يصل القلعة بالهيكل بحيث تهرع القوّات في لحظات حالما تستدعي الضرورة.وقُبَيْل ذلك، كانت قد نشبت فتنة أَشعل نيرانها دجّال مصريّ، ادّعى النبوّة، ولمَّ، من حوله، أُلوفاً من المشايعين، وهاجم بهم ثكنات الرومانيّين، واستطاع السيطرة على أورشليم، إلى حين، حتّى دحره القائد فيلكس، ففرّ إلى الصحراء، مع أَربعة آلافٍ من أَتباعه الناجين.وكان هاجس الرومانيّين المقيم إلقاء القبض عليه.

و شهد رجال الحرس الرومانيّون الساهرون على الأَسوار حشداً هائجاً ممسكاً بخناق رجل يوسعونه لكماً وضرباً، حتّى ليكادون يقضون عليه، فأخطروا قائد الحامية كلوديوس ليسياس، فانقضّ مع رجاله على بؤرة الشغب حيث كان التجمّع الأَكثف، والصخب الأَشدّ ضجيجاً؛ وفي الحال تفرّق القتلة، وأنقذ القائد ليسياس بولس، ولكنّه عندما لمح لون جلدته الداكن، خيّل إليه أَنّه هو المجرم المصريّ المطارَد الذي كان يتمنّى القبض عليه، فأمر بتقييد يده ورجله بالسلاسل، وبادر إلى سؤاله: " من أَنت ؟ وماذا فعلت ؟ " ولكنّه لم يتمكّن من

سماع الجواب، لأنّ صياح المتظاهرين الهائجين كان يصمّ الآذان.وكان بعضهم يهتف بشيءٍ، وبعضهم بشيءٍ آخر.وحاول القائد استيضاح التهم المنسوبة إلى الرجل، فتعالت صيحات متضاربة، مجنونة، لم تُجمِع إلاّ على المطالبة بقتله.فخشي على حياته وأمر بإدخاله القلعة، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فالازدحام من حول بولس على أشدّه، والشعب متحفّز للانقضاض على الضحيّة، في كلّ لحظة، ولو جهل معظمهم السبب.ولم يكن للجند حيلة سوى حمله وتناقله من يدٍ ليد حتّى انتهوا به إلى أسفل درج القلعة، حيث بات في أمان.

في تلك الأثناء، كان بولس قد فقد معطفه، ومُزّقت ثيابه، وانثال الدم على عينيه ووجهه، ولكنّه ظلّ ساكن الجأش.وقبل أن يدخل إلى القلعة، سأل القائد بهدوء، وبلغة يونانيّة راقية: " أتأذن لي بأن أقول لك كلمة ؟ ".وأُسقط في يد القائد لمّا سمعه يتكلّم باليونانيّة، إذ تبيّن أنّه لم يكن ذلك الإرهابيّ المصريّ الذي توهّم القبض عليه، بل كان يونانيّاً مثقّفاً.وأكّد له بولس ذلك، إذ أعلن هويّته: " أنا رجل يهوديّ من طرسوس كيليكية، من مدينة غير مجهولة، فأرجو أن تأذن لي في كلمة إلى هذا الشعب "، فأذن له.وأخذ القائد الدهشُ من ذلك الرجل الذي كاد يفقد حياته، قبل لحظات، على يد ذلك الشعب عينه الذي التمس مخاطبته، ولا ريب أنّه أُعجب بجرأته، رغم هزاله وقصر قامته، وأمِل أن يدرك المزيد عنه من خلال خطابه.

و ارتقى بولس بضع درجات من سلّم القلعة، وببسالة أجال بصره في ذلك الشعب الهائج هياج بحرٍ مصطخب، وتعرّف، على خطوات منه وجوه بعض أعضاء السنهدرين الذين كانوا له رفاقاً في مدرسة غمالئيل.وأشار بيده، فسكن الهياج، وما إن شرع يتحدّث بالأراميّة، حتّى ساد الصمت، واتّضح للكثيرين ممّن كانوا يطالبون بموته وهم يجهلون هويّته أنّه منهم.

لم ينتهز بولس تلك السانحة كي يدافع عن نفسه، ويدحض تهمة تدنيس الهيكل المنسوبة إليه، بل آثر الشهادة للمسيح.وياله من منبر، ومن مبشّر مقيّد بالسلاسل ! وروى بولس لمستمعيه نشأته اليهوديّة الفريسيّة الصارمة، وغيرته المتّقدة على الشريعة التي دفعته إلى اضطهاد أتباع يسوع في اليهوديّة وخارجها، ثمّ ذكر لهم ما حَدَث له في دمشق، حيث ظهر له يسوع فقلب كيانه ومسيرته، وجعله أسير إنجيله للأبد.فهو، إذن، ليس عدوّاً للشعب اليهوديّ، وللشريعة والهيكل، بل إنّه يفعل كلّ ما يفعل خضوعاً لمشيئة الربّ التي يخضع لها كلّ يهوديّ.وظلّ القوم ينصتون باهتمام إلى ذاك الذي كان يخاطبهم بلغتهم وبمنطق دينهم، إلى أن جاء على ذكر عودته إلى أورشليم بعد اهتدائه، والرؤيا التي عرضت له في الهيكل، حيث سمع الربّ يقول له: " أسرع فاخرج على عجل من أورشليم، لأنّهم لن يقبلوا شهادتك لي...إمضِ فإنّي مرسلك بعيداً، إلى الوثنيّين ".

و لدى سماع اليهود هذه الأَقوال، أَعمى التعصّب أَذهانهم، فتعالت صيحاتهم، وتفاقم هياجهم، وراحوا يمزّقون ثيابهم، ويطرحونها، ويذرّون التراب في الهواء، وانقلب غضبهم هستيريّاً، إِذ كيف يُعقل أَن يُستبدَل الشعب المختار بأَي شعب آخر، أو أَن يوضع على قدم المساواة مع الوثنيّين !

لم يفهم القائد كلوديوس ليسياس كثيراً ممّا قيل باللغة العبريّة، ولكنّه خمّن أَنّ الأَمر يتعلّق بخلافات دينيّة بين فئات يهوديّة، وأَدرك من هياج الشعب، أَيّ خطر كان يهدّد حياة بولس، وهو ما انفكّ يتساءل هل هو مذنب أَو ضحيّة.وعلى أَيّة حال كان هو علّة الشغَب، فأمر بإِدخاله إِلى القلعة.وكما لا يزال يحدث في أَماكن عديدة، ظنّ القائد أَنّ بعض عصيّ تُنزَل على جسد الأَسير كفيلة بانتزاع اعتراف كامل وسريع منه يُلقي الضوء على الملابسات التي استعصت، حتّئذٍ، على فهم القائد، الذي أَصدر أوامره بهذا الشأن، ومضى.

و اقتيد الرسول إِلى حيث كان معلّمه يسوع قد سيم الهوان، وحيثُ طرح الجند على كتفيه رداءً قرمزيّاً، ووضعوا قصبة بين يديه بمثابة صولجان، وغرسوا إِكليل شوك في رأسه رمزاً للتاج.في ذلك المكان ارتدى قول بولس الصوفيّ، " الصلب مع المسيح " الذي طالما كرّره في رسائله، معنًى واقعيّاً ملموساً.وقد ضاعفت آلامه الجسديّة آلام نفسيّة مبرّحة، ناجمة عن خشيته على رفاقه، ولا سيّما على الصديق الأَمين تروفيمُس الذي تذرّع اليهود برؤيته مع الرسول كي يتّهموه بتدنيس الهيكل.وكان يوجع بولس ما سيسبّبه الاعتداء عليه وتوقيفه من قلق وغمّ لمندوبي الكنائس الذين واكبوه، والذين طالما تشوّقوا إِلى زيارة أورشليم، فتخطّت خيبة أملهم كلّ توقّع.غير أَنّهم قد أَدركوا، بالدليل الحسّيّ، أَنّ المسيحيّة تضحية، ومخاطرة، وصليب.

و نزعت عن بولس ثيابه، وإِذ همّ قائد المئة بتوثيقه إِلى عمود تمهيداً لجلده، حدّق فيه الرسول بسكون ورباطة جاش أَلِف التذرّع بهما في المِحَن، وقال له، في شيءٍ من التهكّم: "أَيحقّ لكم جلد مواطنٍ رومانيّ، وأَنتم لم تحاكموه ؟ "

مجرّد قوله: " أَنا مواطن رومانيّ " كان له وقعٌ مزلزل، وأُسقط في يد قائد المئة، وكأَنّ صاعقة نزلت به، فهرع إِلى قائد الأَلف ليسياس، وأَطلعه على الخطأ المميت الذي كادا يقترفانه، وهرع القائد ليسياس بدوره، هلِعاً، مضطرباً، وسأل بولس: " أَحقّاً أنت مواطن رومانيّ ؟ " فأكّد له بولس ذلك.وكان ادّعاء المواطنيّة الرومانيّة، كذباً، جريمة عقابها الموت، فلا يتجرّأ أَحد عليها جزافاً.وحدّق القائد في بولس دهشاً، وقد ازداد تقديراً له، وفتنة بشخصيّته، وأَسرّ له بحرقة: " أَنا دفعت مالاً كثيراً كي أَحظى بهذه المواطنيّة "، فردّ بولس: " أَمّا أَنا، ففيها ولدت ".فاعترى القائد الخوف، وأَمر أَن يكتفى بتوثيق معصم بولس بمعصم

جنديّ، وأن يُعامل معاملة لائقة، إِلى أَن تتمّ محاكمته.ومذّاك غدا القائد يراعي بولس، لكيلا يُفتضح أَمره بضرب مواطن رومانيّ، بغير محاكمة، وهي تهمة كفيلة بالقضاء على مستقبله المهنيّ.

أمام السنهدرين

وجد القائد ليسياس نفسه متورّطاً في قضيّة دقيقةٍ معقّدةٍ وحرجة؛ فهو، في قرارة نفسه، مؤمن ببراءة بولس، وجاهد في حمله على نسيان ما اقترفه من خطأ حياله، حين أَمر بجلده، من غير محاكمة، وهو جاهل لمواطنيّته الرومانيّة.غير أَنّه، في الوقت عينه، لم يكن يستطيع إِغفال سطوة اليهود، النافذين في روما نفسها، ويودّ خطب ودّهم، كما أَنّه يرغب في إِلصاق مسؤوليّة أَيّ أَذى قد يلحق بالمواطن الرومانيّ بولس بمجلسهم.ولذلك سارع إِلى دعوة مجلس القضاء اليهوديّ الأَعلى – السنهدرين – إِلى الانعقاد، في الغداة، للنظر في التهم المنسوبة إِلى بولس.

كان السنهدرين يتأَلّف من رؤساء الكهنة وواحد وسبعين عالم شريعة مكلّفين بالسهر على ألاّ تُمَسّ أَركان التوراة والتلمود بأَذىً، وهو الذي كان قد حكم بالموت على يسوع واستفانُس.وكان بولس يعدُّ شرفاً أَن يتمثّل بهما.غير أَنّ حرصه على رسالته علّمه مواجهة المواقف الخطرة برباطة جأش، وأَعصاب فولاذيّة، فحتّى وهو في غمرة المعمعة، وعلى آلة العذاب، لا ينفكّ يفكّر بعقلٍ بارد، ويقلّب في خلده السياسة التي يتعيّن عليه انتهاجها.

و إِلى السنهدرين الملتئم في رواق الهيكل الخارجيّ اقتاد ليسياس بولس، في مواكبة أَمنيّة، بعد أَن فكّ وثاقه.وكان يرأس السنهدرين، آنذاك، حنانيا الذي اشتهر باستغراقه في الملذّات، والجشع، والنهم، وعدم التقيّد برادع أو وازع من ضمير، وعدم تورّعه من استخدام قتلةٍ مأجورين لقضاء أوطاره الدنيئة.

و فيما كان بولس يجيل أَنظاره في أولئك القضاة المزدهين بعلمهم ونفوذهم، والماثلين في أفخر حُللهم، علّه يلمح وجوهاً أَليفة، بادره نائب رئيس المجلس بالسؤال: " ما لديك لتقوله ؟ ".وكان على المتّهم أَن يدافع عن نفسه بنفسه، فنهض وحدّق في الأَعضاء واحداً واحداً، وأجاب بسكون وثقة: " أَيّها الرجال الإِخوة، إِنّي بكلّ نيّة صافية، سلكت أَمام اللّه، إِلى هذا اليوم ".واستنتج حنانيا من إِعلان بولس هذا أَنّ بولس يحتكم إِلى محكمة اللّه، وهي أَسمى من

المحكمة التي يرأسها؛ فاستشاط غيظاً، وذهل عن وقار مركزه، وعن واجب احترام المتّهم، وأمر أحد أزلامه بلكم بولس على فمه.

كم يذكّر هذا المشهد بمشهد محاكمة يسوع، عندما أمر رئيس كهنة آخر أحد خدّامه بضرب يسوع، الذي، في سكونٍ إلهيّ، ورقّةٍ سماويّة، استوضح أيّ ذنب اقترفه كي يستأهل الضرب.غير أنّ يسوع لم يكن في حاجة إلى الدفاع عن نفسه، ولم يشكُ، بل ارتقى عالياً فوق الإهانة والألم، وهشاشة الجسد.أمّا بولس، فمع عظمته، وقداسته، لم يكن قد بلغ، بعدُ، سماحة معلّمه، وسموّه، وردّ بعنف وغضب: " ضربك اللّه، أيّها الحائط المبيّض.أتجلس لتحاكمني بمقتضى الشريعة، وتأمر بضربي، مخالفاً الشريعة!"

و قد استهدف من ردّه هذا غايات ثلاثاً: أوّلاً تذكير رئيس الكهنة بالتزام النزاهة والوقار اللذين تفرضهما عليه صفته كقاضٍ؛ ولم يعسر على الحضور فهم تلميح بولس إلى الحائط المبيّض الذي كان ينطبق وصفه على حنانيا، رئيس الكهنة الفاسد، المفروض أنّه يمثّل الفضيلة، والاستقامة، والشرف، فيما داخله يعجّ بالتعفّن والفساد.ومن جهة ثانية، توخّى بولس الذود عن كرامة مواطنيّته الرومانيّة، أمام القائد ليسياس؛ وأخيراً كان ردّ بولس ملهماً من الروح وتنبّؤاً بالميتة المهينة التي سيلقاها حنانيا نفسه، بعد سنوات، على يد أزلامه، "الخنجريّين" القتلة أنفسهم، الذين عدّوه فاتراً في عدائه للرومانيّين، فطعنوه وهو مختبئ، خوفاً منهم، في مجرى مياه قذرة.

و كان من شأن ردّ بولس إيقاظ ضمائر أعضاء السنهدرين، وتذكيرهم بمسؤوليّاتهم، غير أنّهم، عوضاً عن الانتصار للحقّ، انتصروا لحنانيا، وعنّفوا بولس: " أتشتم رئيس كهنة اللّه ؟ " فأجابهم بولس بتهكّم: " ما عملت أنّه رئيس كهنة ".ولكأنّه يقول: " لا يبدو عليه أنّه رئيس كهنة، وهو يتصرّف تصرّف الرعاع ! " ثمّ استدرك، لكي يثبت لهم أنّه لا يقلّ علماً بالشريعة عن أيٍّ منهم، وأضاف: " فالكتب المقدّسة تقول: رئيس شعبك، لا تقل فيه سوءاً".

و سرعان ما اتّضح لبولس أنّ لا مكان للمنطق والحجج القانونيّة في محكمة سنهدرين تزري بكلّ حقٍّ ومنطق.فلجأ إلى الفطنة البشريّة، وإلى حيلةٍ شقّت المحكمة.وكان واضحاً لديه أنّ هيئتها تتألّف من فئتين متخاصمتين، يفصل بينهما خلاف عقائديّ مستحكم، هما فئة الصدّوقيّين، فئة رؤساء الكهنة التي تضمّ ليبراليّين وتقدّميّين، وسياسيّين حذقين، يجهدون، أبداً، في لجم الحماس الدينيّ والوطنيّ الكفيل بتقويض نفوذهم وامتيازاتهم، وهم، عموماً من الأغنياء الذين ينهجون، دينيّاً، المنهج السهل؛ ويقابلهم الفرّيسيّون المعروفون بتشدّدهم وتزمّتهم.وكان الخلاف العقائديّ بين الفئتين يدور حول القيامة الأخيرة التي ينكرها الصدّوقيّون كما ينكرون الملائكة والأرواح، ويؤمن بها الفريسيّون إيماناً راسخاً.وسارع بولس

إِلى طرح ورقة " القيامة "، وهو عالم أَنّها كفيلة بشطر هيئة السنهدرين، وأَعلن: "أَيّها الرجال الإِخوة، أَنا فرّيسيّ ابن فرّيسيّ، وأَنا على رجائي بقيامة الأَموات أُحاكم ".وأَغرق الصدّوقيّون في الضحك، متهكّمين بالفرّيسيّين، وكأَنّهم يقولون لهم: " أَنتم، أَيضاً، جديرون بالمحاكمة مثله".فاحتدم النقاش فيما بينهم، وعلا صياحهم، وانتصر بعض الفرّيسيّين منهم لبولس معلنين براءته، غير مستبعدين أَن يكون قد ظهر له ملاك أَو روح.هذا الموقف زاد المعركة استعاراً، حتّى أَشفق القائد ليسياس على أَسيره أَن يمزّقه المتخاصمون، في هياجهم المأفون، فأمر جنده بانتزاعه من بين أَيديهم والعودة به إِلى القلعة الأَنطونيّة.

و قد أَثبت بولس، بإِثارته هذا الخلاف، أَنّه، مع كونه اختطف إِلى السماء الثالثة، كان ما يزال متبصّراً بشؤون البشر، خبيراً بها.

و قبع بولس في السجن، وحيداً، محطّماً، حائراً، وقد اختلطت الأمور في ذهنه، وأحاق الغموض بمستقبله، وحاصرته الهواجس.صحيح أنّ سجنه كان رفيقاً، إذ كان في السجن طليقاً، تحت رقابة جنديّ، بيد أنّ موقف قائد الحامية لم يكن صريحاً، وكان بوسعه، تحت ضغط ما، تسليمه لنقمة اليهود الذين وطّنوا العزم على قتله.

و من جانب آخر، ظلّت كنيسة أورشليم مكتوفة اليدين، ولم تقمْ بأيّ مسعى لإنقاذه.بل وَحدهم أصدقاؤه، لوقا، وتيموثيوس، وتيطس وتروفيمُس، وأخته وذووها كانوا يزورونه ويزوّدونه بما يحتاج إليه؛ وكانوا يجتمعون كلّ يوم، ويصلّون بحرارة، ملتمسين خلاص معلّمهم وحبيبهم.

في تلك الليالي الموحشة، تيقّن بولس أنّ سلطة الرومانيّين وحدها كفيلة بإنقاذه، وقرّر الانسلاخ سياسيّاً وقانونيّاً عن اليهود، بعد أن كان قد انسلخ عنهم عقائديّاً.غير أنّ الرومانيّين كانوا يدارون اليهود المتشبّثين بامتيازاتهم، وكان على سجن بولس أن يتمادى.وأخذت تتضاءل آماله في حمل رسالة المسيح إلى روما وإسبانيا، ولكنّه أودع قلب معلّمه يسوع ومشيئته كلّ هواجسه وهمومه وخيباته؛ وظلّ نظير بحر هائج يصطخب سطحه، وتظلّ أعماقه ساكنة.ونال منه النصَب، فاستسلم للكرى، ولكنّه، حتّى في نومه، كان على حوار مستمرّ مع معلّمه.وتراءى له اللّه، مثلما كان قد تراءى له، غالباً، من قبل، وإذ كان بولس يخشى، أبداً، مكائد إبليس، الذي قد يرتدي زيّ ملاك لتضليل البشر، سأل: "أأنت الربّ، حقّاً ؟ " فالتمعت، على الوجه الحبيب، سمات الصلب، مثلما كانت قد التمعت أمام عينيه، عند مشارف دمشق، وسكب الربّ العزاء في نفسه قائلاً: " طبْ نفساً، يا بولس ! فإنّك كما شهدت لي في أورشليم، كذلك ينبغي أن تشهد لي في روما، أيضاً".

واستفاق الرسول، وقد تخفّفت نفسه من كلّ حزنٍ وهمّ، وخفقت جوانحه بعزيمة جديدة، فما دام الربّ معه، ما همّ إن سجنه الناس، وحاكموه ؟

و مرّةً أُخرى، توهّجت روما، في خياله، توهّج نجمة الصبح.

كان بولس قد أَفلت من أَيدي السنهدرين وأَثار موقفُ الفرّيسيّين المتسامح منه، حنَقَ "الغيورين" من اليهود، الذين لا يطيقون أيّ تساهل في أمور العقيدة، ولا يتردّدون في قتل كلّ فاتر أو خائن.وكان يطلق على هؤلاء الغيورين اسم " الخنجريّين " إذ كان خنجر معقوف مدسوساً أبداً في ثنايا ثوبهم، ولا يتوانون عن استخدامه، خلسةً وبخفّة، كلّما سنحت لهم سانحة.فإن كان القائد الرومانيّ يحمي بولس، وكان السنهدرين عاجزاً عن التخلّص من ذلك المرتدّ، فالحلّ الأمثل هو طعنة خنجر مُحكمة، في الخفاء.ووطّن أَربعون من أولئك الغيورين العزم على تنفيذ هذه المهمّة، وأَقسموا ألاّ يأكلوا ويشربوا حتّى يقتلوا بولس.ومضوا إِلى حنانيا وأَعضاء السنهدرين من الصدّوقيّين الذين كانوا يمقتون بولس، فأطلعوهم على ما عزموا عليه والتمسوا منهم أَن يطلبوا من القائد إِحضار بولس للبحث مجدّداً في أَمره، على أَن ينقضّوا، ويقضوا عليه، حال خروجه من القلعة في طريقه إِلى المحكمة.وبارك حنانيا ورفاقه خطّة الاغتيال هذه، مبرهنين على الدرَك الذي تردّى إِليه من كان يفترض أَن يحموا القانون ! ولكنّ الربّ كان ساهراً على شاهده، إِذ تسرّب أَمر المؤامرة إِلى علم ابن شقيقة بولس، القاطن في أورشليم، فخفّ في الحال إِلى القلعة الأَنطونيّة.وفيما كان بولس ما زال يجيل في خاطره أَمر الرؤيا التي خطرت له، دخل عليه ابن شقيقته، لاهثاً مضطرباً، وأطلعه على المكيدة التي كانت تحاك لقتله.فطلب بولس من قائد المئة القائم على حراسته المضيّ في الحال بابن شقيقته إِلى القائد ليسياس إِذ إِنّ لديه أَمراً هامّاً ينبغي إِطلاعه عليه."وأَخذ قائد الأَلف الشابَّ بيده، وانفرد به جانباً وسأله: " ما عندك تقوله لي ؟ ". فقال: " قد تواطأ اليهود على أَن يسألوك استحضار بولس غداً إِلى المجلس بحجّة أَنّهم يريدون النظر في أمره بوجهٍ أَدقّ، فلا تصدّقهم، إِذ قد كمَن له أَكثر من أَربعين رجلاً وقد تعهّدوا، بإِبسال أَنفسهم، ألاّ يأكلوا وألاّ يشربوا حتّى يقتلوه، وها هم الآن متحفّزون يتوقّعون منك الموافقة ".فصرف قائد الأَلف الغلام، بعدما أوصاه أَن " لا تقلْ لأَحد إِنّك أَطلعتني على هذا الأَمر".

ارتاع القائد لما سمع، وعزم، في الحال، على إِعتاق نفسه من مسؤوليّة سجين ما انفكّ يسبّب له المخاوف والمتاعب، وإِناطة هذه المسؤوليّة برئيسه، الحاكم الرومانيّ في قيصريّة.وفي الحال استدعى اثنين من قادة المئة وأَمرهما بالتأَهّب للذهاب إِلى قيصرية، منذ الساعة الثالثة ليلاً، كي يتمّ كلّ شيء في أَمان، تحت جنح الظلام، ومعهما مئتا جنديّ ومئتا نبّال، وسبعون فارساً – تحسّباً لتحرّكات " الخنجريّين " الخاطفة – وبتأمين مطايا لبولس وحارسه، ضماناً لوصوله سالماً إِلى الوالي فيلكس.

قد تبدو هذه الاحتياطات، من أَجل سجين واحد، على قدرٍ من المغالاة، غير أَنّ الظروف الأَمنيّة السائدة، آنذاك، كانت تستلتزم من الاحتياطات أَشدّها.وكان القائد ليسياس حريصاً على سلامة سجينه، وعلى شراء صمته، ولذلك بعث مع وفده إِلى الوالي رسالة محكمة الإِنشاء، جاء فيها:

" من كلوديوس ليسياس إِلى فخامة الوالي فيلكس، سلام.

إِنّ اليهود قبضوا على هذا الرجل وكادوا يقتلونه.فأدركته بجندي وأَنقذته إِذ علمت أَنّه مواطن رومانيّ.وإِذ شئت الاطّلاع على ما يتّهمونه به أَحضرته إِلى مجلسهم، فوجدت أَنّه يُشكى بأَمورٍ تتّصل بشريعتهم، ولا علّة به توجب الموت أَو القيود.ثمّ إِذ بلغني أَنّهم يكيدون لهذا الرجل، وجّهته إِليك لساعتي، وأوعزت إِلى خصومه أَن يرفعوا إِليك دعواهم عليه ".

كان ليسياس، في رسالته هذه، حريصاً على الظهور بمظهر لائق في نظر الحاكم، فأغفل أَنّه أوشك، هو نفسه، على تعذيب سجينه قبل الشروع باستنطاقه ومحاكمته، غير أَنّه أَكّد براءته.

المسافة بين أورشليم، عاصمة فلسطين الدينيّة، وقيصريّة، عاصمتها السياسيّة، تبلغ نحو مئة كيلومتر.ولا ريب أَنّ الركب قد توقّف لقضاء الليل، في سهل أنتيبترس، في منتصف الطريق، بين المدينتين، بعد اثنتي عشرة ساعة مسير.ومنها عاد المشاة والنبّالون، وواصل الفرسان مواكبتهم لبولس حتّى قيصريّة.

و قيصريّة مدينة ساحليّة، كانت تحتوي على واحدٍ من أَهمّ مرافئ فلسطين، بناها الملك هيرودُس في العام 25 قبل الميلاد، وأَنفق أَموالاً طائلة في سبيل جعلها فريدة في رونقها، كما أَنفق اثني عشر عاماً من العمل الدؤوب، كي يجعل منها عاصمة مملكته، وأَطلق عليها اسم وليّ نعمته، قيصر أوغوسطس، الذي أَقام له فيها هيكلاً، إِلى جانب الهيكل المشاد لروما.

كان نصف سكّان المدينة من السوريّين الذين يتكلّمون باليونانيّة، والنصف الآخر من اليهود، ممّا كان يسبّب اشتباكات وصراعات متواترة.وكان لاعتناق قائد المئة كورنيليوس الدين المسيحيّ، ولاستقرار الشمّاس فيلبس في تلك المدينة أَثرٌ بليغ على انتشار المسيحيّة في تلك المدينة.

و كان الوالي المقيم، آنذاك، فيها هو أنطونيوس فيلكس، وإِليه سلّم قائد الموكب السجينَ والرسالة.

رمق فيلكس، بشيءٍ من الازدراء، السجين الهزيل الوافد، وتلا على مسمعه رسالة ليسياس، ثمّ استوضحه عن مسقط رأسه، وإِذ علم أَنّه من ولاية كيليكية الأَمبراطوريّة، وتأَكّد

أَنّ له سلطة على محاكمته، تنازل فقال له: " سأسمعك متى حضر خصومك أَيضاً ".ثمّ أَمر بوضعه في قصر هيرودُس

لأَيّام معدودات مضت، كان بولس قد انطلق من قيصريّة إِلى أورشليم، يحدوه الرجاء، وتتجاذبه المخاوف، وها هوذا يعود إِليها سجيناً، مقيّداً، جاهلاً كلّ شيء عن مصيره.

ربّما أَوحت له أمواج البحر المتراقصة التي كان يرقبها من محبسه، بحمله، قريباً، إِلى محطّ تطلّعاته: روما، ولكنّه لم يكن يعلم، آنذاك، أَنّ سجنه سيتمادى سنتين.

كان الوالي فيلكس وأَخوه بالاّس عبدين لدى أَنطونيا، أُمّ الأَمبراطور كلوديوس، التي أَعتقتهما.ثمّ أَصبح بالاّس رئيس وزراء ينعم بنفوذ بالغ في بلاط كلوديوس، ومن بعده في بلاط نيرون، مطلَع عهده.وبفضل بالاس عُيِّن فيلكس والياً على قيصريّة، غير أَنّه كان فاسداً، شرّيراً؛ وقد قال فيه المؤرّخ الرومانيّ الكبير تاسيتُس: " إِنّه شرس، فاسق، يمارس السلطة الملكيّة بنفسيّة عبد " ووصفه بالشَبق والخسّة.فكان تارة يقمع المتعصّبين اليهود القتلة، وتارة يستعين بهم على الانتقام الدنيء ممّن يأخذون عليه ظلمه وضلاله.وكان، مستقوياً بنفوذ أَخيه، يعيث الفساد، غير هيّاب، لا يردعه قانون، ولا يزعه ضمير.وكان وصوليّاً يسعى إِلى النفوذ من خلال زوجاته، فزوجته الأُولى كانت حفيدة أَنطونيوس وكليوباترة؛ وزوجته الثانية، يوم كان والياً على قيصريّة، كانت درسلّة، التي لم تتعدّ السابعة عشرة من العمر، وهي ابنة الملك هيرودُس أَغريبا الأَوّل، وكانت قد تزوّجت، من قبل، ملك حمص، عزيز، إِلاّ أَنّ فيلكس استعان بالساحر سمعان القبرصيّ على اختطافها منه.

في قصر هيرودُس، إِذن، جرت محاكمة بولس الأُولى، خمسة أَيّام عقب وصوله إِليه، إِذ حضر رئيس الكهنة حنانيا، الذي بات يضمر لبولس كرهاً أَسود، منذ وصفه علناً بالحائط المكلّس، يحيق به رهطٌ من الشيوخ، وبرفقتهم محامٍ رومانيّ مبتدئ يدعى ترتلّس، استهلّ مرافعته مغالياً في تملّق الوالي فيلكس بأَكاذيب مفضوحة؛ ثمّ وجّه إِلى بولس تهماً ثلاثاً: فهو ثوريّ يثير الفِتَن، ويهدّد أَمن الدولة؛ وهو إِمام شيعة النصارى، أَي زعيم دين ممنوع؛ وهو أَخيراً حاول تدنيس الهيكل، وقد قُبض عليه متلبّساً.وكلٌّ من هذه التهم يستحقّ عقاب الموت.

كان لدى فيلكس الوالي من الخبرة والمكر ما يؤهّله لتبيّن زيف هذه الادّعاءات، ولا سيّما وأَنّه كان ملمّاً بمخازي رئيس الكهنة وبعض أَعضاء السنهدرين؛ فلم يعبأ كثيراً بالاتّهامات التي انصبّت جزافاً، والتفت إِلى بولس، ودعاه إِلى الدفاع عن نفسه.كان بولس واقفاً مقيّداً، ولكن في ثباتٍ وجرأة، وفي قدرة خارقة على مواجهة الأَحوال الحرجة، وعلى التكيّف مع مختلف الظروف.فتكلّم بحكمة، وصوّب الوضع بإِعادته إِلى نطاق الحقّ الدينيّ، وفنّد الادّعاء، بنداً بنداً.فوجوده في أورشليم لا يعود إِلى أَكثر من اثني عشر يوماً، ولم يشهده أَحدٌ يجمهر الناس أو يحدّثهم.أَمّا معتقداته الدينيّة، فهي لا تخرج عن إِطار اليهوديّة المعترف بها، واليهوديّة تقوم، بجملتها، على مجيء المسيح، وعلى قيامة الأَموات، وهو على هذه المعتقدات يحاكم.أَمّا الهيكل فقد أَمضى فيه سبعة أَيّام يتطهّر، بعيداً عن الجماهير، وإِنّما

أَعداؤه – وهم يهود آسيويّون – هم الذين افتعلوا الفتنة والبلبال؛ وإِن كان لديهم دليل على مخالفته الشريعة فلمَ لم يحضروا ويدلوا بشهاداتهم؟

هذا الدفاع البارع أَقنع الوالي بأَنّ القضيّة برمّتها لم تتعدَّ كونها سجالاً لاهوتيّاً، وتبايناً في تأويل الكتب اليهوديّة، وليس، في ذلك أَيّة إِدانةٍ لبولس.وكان بإمكان فيلكس، بل من واجبه، تبرئته وإِطلاق سراحه.ولكنّه أَحجم، مداراةً لليهود، وخشية من دسائسهم، من جهة، وطمعاً في ابتزاز بولس من جهة أُخرى، ولا سيّما بعد أَن علم بأَنّه قد جاء جماعته في أورشليم بمساعدات جزيلة، فخمّن أَنّ أَصدقاءه الآسيويّين سيبادرون إِلى شراء حرّيّته بأَيّ ثمن.ففضّ المجلس قائلاً: "متى وصل القائد ليسياس إِلى هنا سأنظر في دعواكم ".ثمّ أَمر أَحد ضبّاطه بحراسة بولس على أَن ينعم بشيءٍ من الحرّيّة، وأَلاّ يُمنع ذووه وصحبه من زيارته وخدمته.

و مع ذلك شقّ على بولس أَن يظلّ سجيناً، افتئاتاً، وأَن يُحال دونه ودون المضيّ على دروب رسالته.صحيح أَنّ الحجز الذي كان يخضع له كان يدع له فسحة من الحرّيّة، فقد كانت يده اليمنى مربوطة بسلسلة طويلة طرفها الآخر مربوط بيد حارسه.وعلى هذا النحو كان بوسعه الخروج لنزهة أو لزيارة، أو السكن في بيتٍ خاصّ يستأجره أو يُعاره.وكان قيده يُفكّ أَحياناً في الأَماكن المغلقة.

و هكذا حكم على بولس الذي، منذ سنوات، لم يعهد يوم راحة، أَن يقيم، سنتين، في عطلةٍ كسلى.كانت روما ما انفكّت محطّ آماله، وكان واثقاً من الشخوص إِليها، يوماً، فالربّ قد وعده بذلك.ربّما، من ملحظٍ بشريّ، كان يتعذّر، في تلك الظروف، على بولس التخطيط لأَيّ سفر، أو لأَيّ مشروع.غير أَنّ إِيمانه المطلق بخطبة الجبل، وعيشه لها بأَمانة، في حياته اليوميّة، مكّناه من الثبات على الرجاء رغم كلّ بواعث القنوط.

و قد تخلّلت رتابة سجن بولس فترات مثيرة.فقد كانت العقيدة المسيحيّة الوليدة تثير فضول بعض المثقّفين، وتوفّر، في المجتمعات، موضوع نقاش.وكانت درسلّة، زوجة فيلكس، يهوديّة تدّعي الثقافة، وتحيط نفسها بحاشية من الأدباء، والفلاسفة، والفنّانين، وكانت توّاقة إِلى الاستماع إِلى ابن دينها الذي ذاع اسمه في المشرق.كيف لا، وهي ابنة هيرودُس أَغريبا الذي حاول تدمير المسيحيّة في شخصيْ بطرس ويعقوب، وابنة أَخ هيرودُس انتيباس الذي أَمر بقطع هامة المعمدان! فضلاً عن أَنّها كانت تتطلّع إِلى أَكثر من مغازلة رجل ماجن، فاسق، وتحيّرها السعادة السرّيّة التي كانت تغمر نفس بولس، ونفوس إِخوانه، مع كلّ ما كانوا يقاسونه من سجنٍ، وحرمانٍ، واضطهاد.وكانت توّاقة إِلى سماع بولس يتحدّث عن يسوع.فنظّم فيلكس، تلبيةً لرغبتها، احتفالاً مسائيّاً في القلعة، ودعا بولس إِلى التحدّث فيه.

من المحقّق أنّ تلك الدعوة لم تلقَ كثيراً من الرضى لدى بولس، وقد شقّ عليه المثول أمام ذلك المجتمع المنحطّ، الذي يحدوه الفضول أكثر من أيّ دافع آخر، والذي طالما صادف نماذج منه في أثينا، وأفسس، وطرسوس، غير أنّ أمل استمالة قلوب بعض الحضور إلى يسوع رجّح لديه كفّة القبول.فقدّم، أوّلاً، براهين تاريخيّة تدعم الإيمان بيسوع مسيحاً.ثمّ تحدَّث عن سيرة يسوع المدهشة، وعن قيامته وظهوره للكثيرين في إثرها؛ وروى خبراته الشخصيّة معه.وظلّ جمهوره المتأنّق يصغي إلى كلّ ذلك باهتمام، إلى أن اتّخذ حديثه مجرى آخر، وراح يتحدّث عن الطهر النفسيّ، والعفّة، والسيطرة على الغرائز، والدينونة الأخيرة، واستفاض في هذا المنحى، راسماً صُوَراً مرعبة للعقاب الذي ينتظر الفاسدين، وأمسى فيلكس كالقابع على جمر، واضطرب، وطفق يلقي، خلسةً، على زوجته، نظرات متفحّصة، فإذا بها محدّقة في بولس، ولكأنّها تشهد نيراناً ملتهبة في عينيه.وازداد فيلكس ارتعاداً، في مواجهة ضميره الذي كان يعرض عليه، بقسوة، مشاهد ماضيه القاتم، الدامي، الآثم، المزدحم بالضحايا، والغاصّ بالفجور والجشع.فتذرّع بحجّة زائفة، وأنهى الاحتفال، قائلاً لبولس: "إذهب الآن، وسأدعوك ثانيةً، متى سنحت الفرصة".

و ما انفك فيلكس يستدعي سجينه، بين فينة وفينة، محاولاً الإفادة من تجربته في معرفة حياة اليونانيّين، والمدن الشرقيّة وثقافاتها، ودروس أسفاره العديدة؛ وفي كلّ لقاء كان يلمّح إلى إمكان إطلاق سراحه، لقاء رشوة مجزية، وقد غاب عن ذهنه أنّ بولس ليس ذاك الذي يسخّر مال الكنيسة والمسيحيّين في سبيل إخلاء سبيله.ولكم شقّ على بولس الأبيّ، الذي ملكت عليه الرسالة نفسه كلّها، أن يهدر، مع رجل ميّت الضمير، متعطّش إلى الذهب والمتعة، وقتاً كان يؤثر إنفاقه مع عبيدٍ شرفاء متعطّشين إلى الحقّ والعدل! كانت تلك مهانة ارتضاها الربّ لشاهده كي يضفي على معدنه مزيداً من منعة.

بيد أنّ تلك الإقامة الجبريّة المتمادية في قيصريّة لم تكن، بكاملها، عديمة الفائدة، فقد وفّرت لبولس استجماماً استحقّه في أعقاب أسفاره المتعاقبة المضنية، وجهوده الدائبة.

و في سجنه كان يلتقي باطّراد أصدقاءه وأعوانه المخلصين، فيتبادل معهم الآراء، ويستطلع أخبار الكنائس التي لم يكن من العسير الاطّلاع عليها بواسطة المسافرين القادمين من كلّ صوب.ولا ريب أنّ نبأ أسر بولس قد ذاع في كورنثس، ومقدونية، وأفسس، وآسية الصغرى، وأنّ ممثّلين عن جماعات تلك المناطق وافوا لتعزيته، وشدّ إزره، وجاءه بعضهم بشيءٍ من المال.وكان يستوضح كلاً منهم عن أحوال جماعته، ويزوّدهم برسائل إلى الجماعات أو إلى أفراد.

و من المحقّق، أَيضاً، أنّ ذلك الأَسر المتمادي أَفسح لبولس إِنضاج مواضيع رسائله العتيدة.وكانت تلك، أَيضاً، فرصة ثمينة للطبيب الحبيب لوقا، كي يجمع من مصاردها الأولى المعلومات الموثوقة التي ستؤلّف العناصر الأَساسيّة للإِنجيل الثالث وأعمال الرسل.ففي حين كان بولس يغوص في الأَفكار اللاهوتيّة، ويسبر العمق الصوفيّ لحياة يسوع، كان لا بدّ من تأريخ لهذه الحياة، واقعيّ، موثّق، بسيط، صادق، دائم، يعترف بصحّته شهود العيان الأوائل، ويدوّن المراحل البارزة من سيرة المخلّص، وأَقواله الخالدة.وقد انتهز لوقا تلك السانحة كي يتحدّث إِلى يعقوب في أورشليم، ويزور بيت لحم والناصرة، وينصت بشغف إِلى نجوى العذراء أَمّ يسوع، التي أَطلعته على الكثير من الأَسرار التي كانت تحفظها، بحبٍّ وتقديس، في قلبها.والتقى لوقا أَيضاً تلميذي عمّاوس، وعدداً من المسيحيّين الأوائل الذين زوّدوه بمعلومات ثمينة عن نشأة الكنيسة.

و كان من شأن أَسر بولس لدى فيلكس أَن يمتدّ أَكثر من ذلك، لو لم ينشب، في تلك الأَثناء، في قيصريّة، قتال شرس بين سوريّين ويهود، فأمر فيلكس جنده بالتدخّل لإِخماد الفتنة، وأَصدر إِلى اليهود أَمراً بإِخلاء الشوارع، بعد أَن دحروا اليونانيّين، ولكنّهم تمرّدوا على أَمره، فأمر جنده بقمعهم، وحصلت مجزرة، وبلغت صيحات نقمة اليهود إِلى روما، حيث كان لهم أَعوان نافذون في بلاط نيرون، في حين كان داعمو فيلكس قد قضوا نحبهم، وكان أَخوه بالاس قد عُزِل من جميع مناصبه، وجُرّد من كلّ سلطاته، وحلّ عليه غضب الإِمبراطور الجديد. وفي محاولةٍ أَخيرة يائسة لاسترضاء اليهود، أَمر فيلكس بتشديد قيود بولس، وسلبه الحرّيّة النسبيّة التي كان ينعم بها.ولكن غاب عنه أَنّ ساعة عزله وانهياره قد أَذنت، وأَذنت معها فاجعة موت زوجته وابنهما، مدفونين تحت حمم بركان فيزوف الثائر.

و قد تمّ ذلك عام 60

" إلى القيصر أرفع شكواي "

خلفَ فيلكس على ولاية قيصريّة بركيوس فستُس، وهو سليل أُسرة رومانيّة عريقة ونبيلة، ومشهودٌ له بالحزم والاستقامة.ولكنّه، على غرار جميع الولاة على فلسطين، كان يصانع اليهود، تحسّباً لمكائدهم ودسائسهم.وفي اليوم الثالث لهبوطه قيصريّة صعد إلى أورشليم، كي يتّصل بالسلطات اليهوديّة، ويطّلع على القضايا العالقة، وأورشليم هي أكثر المدن الخاضعة لسلطته إثارة للمتاعب والقضايا الشائكة.وسرعان ما هرع إلى تهنئته شيوخ اليهود وأَعيانهم، بقيادة رئيس الكهنة الجديد، إسماعيل بن فابي، الملقّب هيرودس أغريبا الثاني.وكانت وظيفة رئاسة الكهنة قد أَمست تباع وتشترى، والأَقدر على الدفع، بين الأُسر اليهوديّة النافذة، هو الذي يحظى بها.وقد جاء في نصٍّ تلموديّ: " الويل لي بسبب بيت إسماعيل بن فابي.الويل لي بسبب عنفهم.إنّهم رؤساء كهنة؛ وابناؤهم أُمناء الصناديق، وأحفادهم حرّاس الهيكل، وخدّامهم جلاّدو الشعب ! "

و خيّل لليهود أَنّهم قادرون على استغلال حداثة فستُس في منصبه، وجهله للأَوضاع السائدة، لكي ينفّذوا مآربهم الأَثيمة.فسارعوا إلى عرض مطالبهم المستعجلة، وفي طليعتها البتّ بقضيّة بولس التي ما انفكّت عالقة منذ سنتين، والتمسوا من عدالة الوالي الجديد أَن ينزل، فوراً، بذلك المارق العقاب الذي يستأهله.وفي سبيل ذلك طالبوا بجلب المتّهم إلى أورشليم حيث سيتكفّل السنهدرين بالبتّ في تلك القضيّة، خلال جلسةٍ واحدة.وهكذا ستسجّل الأُمّة اليهوديّة للوالي الجديد جميلاً أبديّاً.وفي الواقع إنّما كان غلاة اليهود ما انفكّوا يداعبون حلم تحقيق مكيدتهم السابقة، واغتيال بولس، على يد " الخنجريّين "، في أَثناء جلبه من القيصريّة إلى أورشليم.غير أَنّ فستُس لم يكن على مثل ما تخيّله اليهود من سذاجة، وكان قد اطّلع على ملفّ بولس، وأَلمّ بملابساته؛ وما كان ليخالف القانون في سبيل اكتساب منّة اليهود.وبما أَنّ قضيّة بولس كانت قد أُحيلت إلى قيصريّة، أَصرّ على أَن يُنظَر فيها هناك، فالقضاء الرومانيّ لا يعبث بحياة سجنائه.وإن كان لدى اليهود ما يتّهمون به بولس، فليتقدّموا بشكواهم إلى محكمة قيصريّة، حيث سيعود فستُس بعد عشرة أَيّام.

و هكذا كان على بولس أَن يخضع لمحاكمة مهينة، نافلة، ثانية.

لمّا عاد فستُس إلى قيصريّة، بعد عشرة أَيّام، كان أَعداء بولس قد سبقوه إليها. وفي الغد انعقدت المحكمة، وانهال اليهود على بولس بطائفة من التهم الخطيرة المتعلّقة بالشريعة، والهيكل، والقيصر، والأَمن، ولكنّهم عجزوا عن إثبات أيٍّ منها. وكان ردّ بولس عليها،

جميعها، حازماً، مقتضباً: " أنا ما أذنبت بشيءٍ، لا إلى الشريعة، ولا إلى الهيكل، ولا إلى قيصر".

و تسنّى لفستُس أن يتفرّج على مشهد منفّر لم يألف له مثيلاً، قطّ، حيث تجلّى التعصّب اليهوديّ بكلّ شراسته وكراهيّته، إذ أحاق بالسجين جمهور هائجٌ نابح، يلوّح بقبضات الأيدي، ويبصق بأقذع الشتائم، ويطالب بقتل بولس.وسرعان ما اتّضح للوالي أنّ الخلاف يتعلّق بأمور دينيّة، وربّما خطر له أن يتخلّص من تلك القضيّة الشائكة بإحالتها إلى محكمة دينيّة، في أورشليم؛ ولكن لم يكن بوسعه فعل ذلك إلاّ بموافقة المتّهم، الذي يحمل المواطنيّة الرومانيّة، وهي تخوّله المطالبة بالمثول أمام محاكم إمبراطوريّة، دون سواها.وفي محاولة أخيرة لمصانعة اليهود سأل بولس برقّة: " أترضى الصعود إلى أورشليم، فتحاكم هناك" ؟ ولم يخفَ على بولس أنّ وراء هذا العرض كان يتستّر كمين يهوديّ خبيث خفيَ أمره على الوالي، فأجاب بحزم: " أنا واقف لدى منبر قيصر، ولديه يجب أن أحاكم.فإن كنت مذنباً، أو أتيت بما يوجب الموت، فلستُ بكاره الموت، ولكن إذا لم يثبت عليَّ شيء ممّا يتّهمني به هؤلاء، فلا يحقّ لأحدٍ أن يدفعني إليهم.فإلى القيصر أرفع شكواي ! " عبارة سحريّة قضت على كلّ مخطّطات اليهود.فعندما يرفع مواطن رومانيّ، في أيّة بقعة من الإمبراطوريّة، قضيّة إلى الإمبراطور، حاكمه الأعلى، تسقط سلطة أيٍّ من ولاته عنه.ولم يكن بوسع فستُس سوى الامتثال لطلب بولس؛ وقد فعل ذلك عن طيب خاطر، إذ أشرع له مخرجاً مريحاً، وحرّره من قضيّة شائكة، ومربكة سياسيّاً، فأعلن: " إلى قيصر رفعت دعواك، وإلى قيصر تذهب ! "

و أُسقط في يد اليهود الناقمين، فقد أفلتت الطريدة منهم.صحيحٌ أنّه كان بمكنتهم مواصلة ملاحقته أمام المحكمة الإمبراطوريّة، ولكن كان من شأن ذلك تكبيدهم الكثير من العناء والنفقات، في سبيل نتيجة غير مضمونة، ولا سيّما وأنّ اليهود الآسيويّين، الذين أثاروا القضيّة، أصلاً، قد غابوا عن المحكمة، ولم يدلوا بشهادتهم.

و برفع شكواه إلى محكمة قيصر، كان بولس قد استهلّ في سجلّ مصيره، فصلاً جديداً.

بات سفر بولس إِلى روما واقعاً محقّقاً، لا ريبة فيه، وكان بولس قد كتب إِلى الرومانيّين: " إنّ اللّه يعمل كلّ شيء لخير الذين يحبّونه "، وبما أَنّ حبّ اللّه كان، هو، دافع بولس الوحيد، فقد تحوّل كلّ شيء لصالحه.

و كان على فستُس أَن يرسل سجينه إِلى روما مصحوباً بحَرس، وبرسالة تبيّن تهمته وملابسات دعواه، وكان إِقرار نصّ هذه الرسالة يحيّره.ووافاه الفرج بزيارة هيرودُس أَغريبا الثاني، ملك فلسطين الشماليّة، مهنّئاً إِيّاه بمنصبه، وبرفقته شقيقته الأَرملة بيرنيس، التي خلّد راسين اسمها في إِحدى مسرحيّاته.وكان الملك الشابّ، مثقّفاً، ومهتمّاً، ولو نظريّاً، بالقضايا الدينيّة اليهوديّة، ولكن لم يكن للدين أَيّ أَثرٍ في حياته الخاصّة الغارقة في المجون.وكذلك كانت شقيقته بيرنس، التي بذّته، وبذّت أُختها درسلّة زوجة الوالي فيلكس، عهراً وفسقاً.ولا ريب أَنّ فستس، في أَثناء سمره مع ضيفيه الملكيّين، قد جاء على ذكر السجين بولس الذي ورثه عن سلفه فيلكس، وروى لهما ملابسات قضيّته.فرغب أَغريبا في مقابلة بولس الذي سمع عنه الكثير، والاطّلاع منه على ما يتعلّق بيسوع، وفي الغداة كان له ما أَراده.

و كان من شأن أَغريبا أَن يقدّم لفستُس خير نصيحة بشأن الرسالة التي يتعيّن عليه إِنفاذها إِلى روما مع سجينه بولس.فأَغريبا يهوديّ المولد، تثقّف ثقافة رومانيّة، وتوغّل في دراسة الديانة اليهوديّة حتّى عُدّ خبيراً فيها.وهو سليل أُسرة اشتهرت لا بإِنجازاتها العمرانيّة فحسب، بل ببطشها، وبالدماء التي لطّخت أَيادي أَجيالها المتعاقبة.فجدّه هيرودُس الأَوّل، المعروف بهيرودُس الكبير هو الذي أَعاد بناء هيكل أورشليم، وبنى مدينة قيصريّة، ولكنّه كان، أَيضاً، طاغية شرساً لم يتردّد عن قتل زوجته وثلاثة من أَبنائه؛ وهو الذي أَمر بقتل أَطفال بيت لحم.وعمّ والده هيرودُس أَنتيباس هو الذي أَمر بقطع رأس يوحنّا المعمدان إِرضاءً لصالومة.وأَبوه هيرودُس أَغريبا الأَوّل هو الذي أَمر بقتل يعقوب الكبير، شقيق يوحنّا الحبيب، واضطهد بطرس.أَمّا هو، أَغريبا الثاني، فسيأمر، بعد سنوات، بقتل يعقوب الصغير، أسقف أورشليم.وعندما ستنـــشب الثورة اليهوديّة عام 66، سينتظم في صفوف الجيش الرومانيّ لمحاربة شعبه.وبالإِجمال كانت لتلك الأُسرة الهيرودُسيّة، بيسوع، علاقة نكراء، وقد تحقّق فيها قول يسوع: " من يسقط على هذا الحجر يتهشّم، ومن يسقط هذا الحجر عليه يطحنه".

كان استماع الضيفيْن الملكيّين لبولس، ضرباً من التسلية، وطرد سأم الفراغ، وقد أَقبلا مع الوالي ونخبة من الوجهاء، وجميعهم يرفلون بالديباج والأرجوان، مزدانين بالذهب واللآلئ، فيما جيء ببولس، بعباءته البالية، مقيّداً، شاحباً، ولكن ثابت الجنان، صافي الذهن،

مدركاً خطورة السانحة المتاحة له، كي يشهد ليسوع، ويُسمع كلمة الإنجيل لذلك الحضور المتباهي بمنزلته الرفيعة.وربّما دلّ بولس حدسُه أنّها فرصته الأَخيرة المفسوحة لكي يروي سيرته مع يسوع، ويجأر بعقيدته على أَرض فلسطين، فكان صوته حارقاً، وعباراته تمسّ شغاف القلوب.وإِذ كان يتكلّم أَمام ملك مثقّف، فقد حرص على سبك خطابه بإتقان، وإِذ كان ذلك الملك من أَصل يهوديّ، لم يتردّد في التطرّق إِلى القضايا الدينيّة التي كانت تمثّل جوهر الشكوى المقامة عليه، فكان خطابه أَطول وأكمل دفاعٍ أدلى به.

و استهلّ فستُس الجلسة بعرض موضوعيّ موجز قال فيه: " إِنّكم ترون هذا الرجل الذي سعت إِليّ به جماعة اليهود بأسرها، في أورشليم وههنا، وكانت تصيح أَنّه يجب أَلاّ يُترَك حيّاً.وأَمّا أَنا فوجدت أَنّه لم يأتِ شيئاً يستوجب، عنه، الموت.وإِذ رفع، هو، دعواه إِلى صاحب الجلالة قضيتُ بأَن أَبعث به إِليه.ولمّا لم أَتيقّن من أَمره شيئاً أَكتب به إِلى السيّد، أَحضرته أَمامكم، ولا سيّما أَمامك، أَيّها الملك أغريبا، حتّى يكون لي، بعد استجوابه، شيءٌ أَكتبه، إِذ ليس من المعقول، على ما أَرى، أَن أَبعث بأَسيرٍ لا أَبيّن ما عليه من شكاوى".

ثمّ أولى الوالي الملكَ شرفَ ترؤّس الجلسة، فدعا الملك بولس إِلى الدفاع عن نفسه، ووقف الرسول وقفة الخطباء الرومانيّين، وبجرأة لا تتزعزع، خاطب الملك مخاطبة الندّ، ومع أَنّه كان عليماً بتاريخ أُسرته المنكر مع معلّمه، إلاّ أَنّه تغلّب على مشاعره، والتزم بالموضوعيّة.وذكّر بالوعود التي قُطعت للأسباط الإِثني عشر والتي تحقّقت في المسيح يسوع.وعندما جاء على ذكر القيامة هزّ الملك برأسه.فقد كان من فئة الصدّوقيّين الذين لا يؤمنون بها، فقال بولس: " لمَ تحسبون أَمراً لا يُصدَّق أَن يقيم اللّه الأَموات ؟ "، وأَكّد أَنّ قيامة الأَموات ينبغي أَلاّ تكون عثرة في درب إِيمان اليهوديّ الحقّ، بل أَساس إِيمانه، وعلامة انتصاره.ثمّ ذكّر بنشأته الفرّيسيّة المتشدّدة، وباضطهاد أَتباع يسوع في الداخل والخارج، ناكئاً ذلك الجرح الموجع في تاريخ حياته قبل التقائه المسيح.واستفاض في وصف ذلك اللقاء الصاعق الذي قلب كيانه، عند مشارف دمشق.

لم يكن فستُس يدرك ممّا يُقال شيئاً، فقاطع بولس، بصوت مرتفع: " لقد جننت يا بولس ! إِنّ سعة معارفك قد صارت بك إِلى الجنون ! " ففي الوثنيّة لا شأن لمحتوى الديانة، وبوسع المرء أَن يتبنّى عدّة ديانات في آنٍ واحد، غير ملتمس سوى الفائدة التي قد تأتيه منها؛ في حين دعت المسيحيّة إِلى التماس الحقيقة، والوفاء لها.وهذا ما حدا بفستُس إِلى وصف بولس بالجنون، لتشبّثه بما كان يؤمن به، حتّى الموت.ولكنّ بولس ردّ: " إِنّي لست بمجنون، أَيّها المعظّم فستُس.وإِنّما أَنا أَنطق بلغة الحقّ والرشاد.وإِنّ الملك الذي أَنا متكلّم بين يديه بجرأةٍ هو عارف بهذه الأمور، وأَنا موقن أَنّه لا يخفى عليه شيءٌ منها، لأَنّ هذه الأَحداث لم تجرِ في

زاويةٍ مجهولة ".ثمّ توجّه إلى الملك بالسؤال: " أتؤمن بالأنبياء، أيّها الملك أغريبا ؟...أنا أعلم أنّك تؤمن بهم ".وأُحرج الملك، فعلى اليهوديّ أن يؤمن بالأنبياء؛ وفي منطق بولس من آمن بالأنبياء عليه أن يؤمن بالمسيح.غير أنّ الانتقال من الإيمان إلى تنفيذ مقتضياته العمليّة يستلزم تضحيات تجعل الطريق من العقل إلى القلب طويلة ووعرة.شيء ما هزّ أوتار قلب الملك، كما لم يهزّها أمرٌ من قبل، فاضطرب، ولكنّه، في سبيل التغلّب على اضطرابه، ولكيلا يؤخذ في دوّامة منطق بولس المحكم، سارع إلى التملّص بطرفة، فأجاب مازحاً: " إنّك توشك أن تجعل منّي مسيحيّاً ! " ولكأنّه استشفّ الرغبة العارمة الجيّاشة في نفس بولس، في حمل الناس جميعاً على الإيمان بيسوع.وردّ بولس في وقار مقرون بشيءٍ من الدعابة: " شاء اللّه، عاجلاً أو آجلاً، أن تصير، لا أنت فقط، بل جميع الذين يسمعونني اليوم، أيضاً، إلى ما أنا عليه (من إيمان)، ما خلا هذه السلاسل ".واستحوذ الضيقُ على الملك، فنهض هو وشقيقته، إيذاناً بإقفال الجلسة؛ وقد ساد الحضورَ شعورٌ ببراءة بولس؛ وفي الخارج أسرّ الملك لفستُس: " لو لم يرفع هذا الرجل دعواه إلى قيصر لأمكن إخلاء سبيله ".ووضع فستُس تقريره إلى روما بهديٍ من هذا الرأي، ممّا أفضى، في نهاية الشوط، إلى تبرئة الرسول، وإطلاق سراحه من سجن نيرون.

و قد كتب هولزنر في سياق تعليقه على هذه المقابلة: " في تلك الجلسة، كانت عوالم كثيرة تتجاور ولا تلتقي: عالَم النعمة والفائق الطبيعة ممثّلاً في بولس؛ وفي المقابل عالَم الملموس والأرضيّ ممثّلاً في فيستُس الذي لم يكن يرى في الدين سوى وهمٍ خالٍ من المعنى.كان العالَم العلويّ موصداً دونه، كما هو موصد عالَم الألوان دون الأعمى، وعالَم الموسيقى دون الأصمّ.كان كلّ ما يتخطّى المحسوس، في اعتقاده، نافلاً، لا يستأهل هدر الوقت في التفكير به.أمّا الآلام والصليب، فهي تصلح للعبيد، وأمّا قيامة الأموات، فتخرّصات لا سند لها.إنّ مثل هذه العقول الأرضيّة، لهي من أمنع العوائق في وجه البشارة.

"وللملك أغريبا موقف آخر: فهو متبحّر في أمور الدين، ولا يعسر عليه إدراك شعور الآخرين الدينيّ؛ بيد أنّ معرفة الدين لا تقود، بالضرورة، إلى التديّن، إن هي لم تستحوذ على الكيان بكامله، وإن لم يتجاوب معها المرء بكلّ جوارحه.والمسيحيّة، على نحوٍ خاصّ، ليست فلسفة، بل هي ولادة جديدة، وحياة جديدة، وكان أغريبا في حاجة إلى ما يهزّ كلّ كيانه، كي يتحوّل من المعرفة إلى الإيمان؛ ولكنّه كان حريصاً على ألاّ يهتزّ.وسرعان ما اندثر آخر الهيرودسيّين هذا وشقيقته في غياهب التاريخ، وانهارت سلالة قاتلي الأنبياء، محدثة شيئاً من الضجيج، ولكن في معزلٍ عن كلّ مجدٍ حقٍّ ".

عاصفة هوجاء وغرقٌ آمن

كان فصل الشتاء يقترب، وفيه " يُغلَق البحر "، وتتوقّف الملاحة، ولا بدعَ في ذلك، فالملاحة، في ذلك العهد، كانت ما تزال بدائيّة، فالمعدّات قليلة، ضئيلة الجدوى، والبوصلة ما برحت مجهولة، والربّان يعتمد على النجوم والشمس، وعلى خبرته وجرأته، فإذا ما تجهّمت السماء، وتلبّدت بالغيوم، تاه دليله.وإذا ما هبّت عاصفة هوجاء، جعلت مركبةُ الهشّ دميةً تتقاذفها الأمواج والرياح.وكان من البدهيّ أن يخشى الأقدمون البحر، موطن الفوضى والمخاطر، ويغلقوا البحار في موسم العواصف، ولا سيّما وأنّهم كانوا يعتقدون أنّ الميت الذي لا يحظى بمدفن في أرضٍ صلبة، لن تعهد نفسه الراحة إلى الأبد.

و كان لا بدّ من إرسال بولس إلى روما، في الحال، فأوكله فستُس إلى قائد مئة من "الفرقة أوغسطا "، يُدعى يوليوس، مع عددٍ من الأسرى الآخرين، وجلّهم من المجرمين المعدّين ليكونوا طعماً للوحوش في ملاعب روما.

و إذ كانت السفن الكبيرة قد توقّفت عن الإبحار خشية العواصف، استأجر قائد المئة مركباً شراعيّاً يطوف بالموانئ الصغيرة، ويسير الهوينى.وكان ذلك القائد قد عَرَف بولس عن كَثَب في قيصريّة، وربّما كان ممّن استمعوا إلى خطابه أمام الملك أغريبا الثاني، فأجلّه، وكنّ له أرفع تقدير، بحيث كان له، في تلك الرحلة، رفيق سفر وسميراً، أكثر منه حارساً وسجّاناً.وقد سمح له باستصحاب بعض مرافقيه للعناية به، ومنهم أرسترخس المقدونيّ، والطبيب الإنجيليّ لوقا، وتيموثيوس.ومثل هذا الامتياز موقوفٌ، عادةً، على كبار الأسرى.

و إذ كان بولس يغادر، إلى الأبد، ديار آبائه، خطرت في ذاكرته، مثل شريطٍ أخّاذ، أحداث الملحمة الرسوليّة المدهشة التي كان قد استهلّها مع برنابا، لسنواتٍ عديدة خلت، ففاض قلبه شكراً للربّ الذي اختاره للتبشير بأسرار حبّه للبشر.وفيما هو كان ينأى عن بلاد المشرق، غمر صدره فرح مقدّس، فالجماعات المسيحيّة التي اكتسبها ليسوع، كانت قد انتشرت في كلّ مكان، وارتبطت فيما بينها بأواصر المحبّة.وَحدها قبضة من المتهوّدين كانت منكفئة على نفسها في أورشليم، ولكنّها لم تكن توحي له بأيّ قلق.

عقب وداعٍ مؤثّر على الشاطئ، اشترك فيه تلاميذ بولس وأصدقاؤه، وحشدٌ من المؤمنين، استقلّ الموكب سفينة قادمة من أدرامتّم؛ وقد أسهب لوقا في سرد تفاصيل تلك الرحلة، مبرهناً على طول باعه في علم الملاحة، وجاء وصفه لها من الدقّة والإبداع بحيث اعترف الأميرال نلسون أنّه تلقّن، من خلال تلك الصفحات، الكثير من أسرار مهنته.

صحيحٌ أَنّ بولس كان ينعم، طيلة هذه الرحلة، بالحرّيّة والاحترام، ولكن كانت توجعه مشاهد الإِهانات المنصبّة على المساجين المجرمين، ومعاملة الجنود الرومانيّين الوحشيّة لهم.وعلى مدى أَيّام من التجاور الحميم، وثّق بولس ورفاقه علاقات مودّة مع الأَسرى والبحّارة والجنود.كان عزاؤه في سكب العزاء على نفوسهم، وتقديم كلّ عون يقوى على تقديمه لهم.كان، هو، لهم، الراعي الحنون، وإِلى جانبه كان لوقا، لهم، الطبيب الذي يسارع إِلى مؤاساة أوصابهم وأوجاعهم، بكلّ ما تيسّر له من أَسباب العلاج.فتألّقت المحبّة المسيحيّة في غياهب البؤس، وأمسى السجين بولس هو محبوب رفاقه الراسفين في الأَغلال.ومن المرجّح أَنّه حدّثهم عن معلّمه يسوع، وأسال حبّه في قلوب عددٍ منهم.

في اليوم التالي لإِبحارها، توقّفت السفينة في مدينة صيدون الفينيقيّة، محطّتها الأَولى، حيث أَبدى القائد يوليوس تعاطفه التامّ مع بولس، إِذ أَذن له بالنزول إِلى المدينة كي يتفقّد مسيحيّيها، ويأتي منهم بمعونة مادّية.

و عندما أَقلعت السفينة، ثانية، منعتها الرياح الغربيّة المعاكسة من المضيّ في اتّجاهها المقرّر، فاحتمت بجزيرة قبرص، متّجهة شمالاً، ثمّ انعطفت غرباً وانطلقت، بمشقّة، بمحاذاة شواطئ كيليكية وبمفيلية.واسترجع بولس، في حنين ونشوة، ذكريات رحلته الرسوليّة الأولى، التي كرّسته رسولاً ليسوع إِلى الأُمم.ثمّ استغرق الوصول إِلى مرفأ بيرة نحو خمسة عشر يوماً من السفر المضني.وهذا المرفأ يقع على بعد مئة وأَربعين كيلومتراً من مدينة أنطاليا، على شاطئ الأَناضول الجنوبيّ، وهو معدّ لاستقبال الحنطة المصريّة وإِعادة شحنها إِلى شتّى الجهات.

و بدا جليّاً أَنّ السفينة التي أَقــلّت، حتئذٍ، بولس وصحبه، عاجزة عن المضيّ بهم إِلى إِيطاليا.وعثر الضابط يوليوس على سفينة شحن قادمة من الإِسكندريّة، وميّممة شطر إِيطاليا، وعلى متنها حمولة ثقيلة من الحنطة، فاستقلّها مع مرافقيه، بحيث بلغ مجموع عدد ركّابها مئتين وستّاً وسبعين نفساً.ومع أَنّ السفينة كانت متينة وثقيلة، غير أَنّ الرياح المعاكسة كانت من الشدّة، بحيث تصرّمت أَيّام عديدة، والسفينة تسير ببطء شديد، حتّى اقتربت، بجهدٍ كبير، من مدينة كنيدُس، وهي المحطّة الأَناضوليّة الأَخيرة، ونهاية آسية الصغرى، وبابٌ مشرع على الغرب، ولكن لم يطُلْ فيها توقّف السفينة، إِذ ما كادت تتزوّد بماء الشرب، حتّى استأنفت مسيرتها شطر إِيطاليا.وحالت الرياح الغربيّة دون اجتيازها بحر إِيجه، والتسلّل بين جزره العديدة، فما كان للربّان من خيار سوى التوجّه جنوباً نحو جزيرة كريت، ثمّ الانعطاف عند طرفها الشرقيّ، ملتفّاً حول خليج سلمونه الذي اجتازه بصعوبة فائقة حتّى انتهى إِلى ما يدعى " الموانئ الجميلة "، وهو خليجٌ تحميه جزيرتان.

كان وقت طويل قد انقضى منذ بدء الرحلة، وحلّ موسم " إغلاق البحر "، فعقد القائد يوليوس مجلس شورى ضمّ صاحب السفينة، والربّان، وبولس.وكان بولس هو الوحيد الذي حذّر من متابعة السفر، إذ قال: " أرى في السفر من هنا خطراً وخسارة كبيرة لا تقتصر على السفينة وحمولتها، بل على أرواحنا أيضاً ".

في الواقع كان صاحب السفينة يخشى فساد حمولته، إن طال التوقّف، وليس في المكان مستودع ولا أهراء، وآثر مواصلة السفر إلى مرفأ فينكس والإشتاء فيه، وسايره الربّان، فأخذ القائد برأيهما، ظانّاً أنّهما أكثر خبرة من بولس في هذا الميدان.وربّما دفعه إلى هذا القرار هبوب ريحٍ جنوبيّة ليّنة نسّمت حينذاك، ورأوا فيها جميعهم فرصة مؤاتية، ودعوة إلى السفر، فأقلعت السفينة، ومضت بمحاذاة شاطئ كريت.وما كادت تجتاز مسافة قصيرة حتّى ارتاع الربّان وصاحب السفينة، إذ شاهدا هامة جبل الآلهة، إيدا، وقد تلفّعت بالغيوم الداكنة، وما لبث أن انقضّ إعصار رهيب يدعى " أوراكليون "، يخشاه بحّارة هذا الجزء من المتوسّط، ولا سيّما في فصل الخريف، إذ إنّ هبوبه العنيف يدوم أيّاماً وليالي متواصلة.وعجز الربّان عن مواجهة الإعصار، فاضطرّ إلى طيّ القلوع، وإسلام السفينة للريح التي ظلّت تتقاذفها إلى أن انتهت بها إلى محاذاة جزيرة تدعى " كودة "، تحميها هضبة ارتفاعها ثلاث مئة وثمانية وستّون متراً، أسهمت في درء شدّة الريح.وانتهز البحّارة هذا الهدوء النسبيّ كي ينقذوا قارب النجاة المربوط خلف السفينة، بحبل كادت الريح تقطعه، فأصعدوه، ثمّ شدّوا وسط السفينة بحبالٍ خشية أن تحطّمها الريح، وتبعثر حطامها.

و ما إن ابتعدت السفينة عن تلك الجزيرة حتّى تفاقمت شدّة الريح، فخشوا أن تقذف بهم إلى رمال ليبية، فأنزلوا مرساة خشبيّة مربوطة بحبل متين إلى مؤخّر السفينة التي تركوها عرضة للرياح الهوجاء، تتقاذفها كما تشاء.وانقضى الليل على هذه الحال، والركاب يرتعدون رعباً، وإذ كانت العاصفة، في الصباح، ما انفكّت تزمجر، أخذوا يلقون إلى البحر بعض الحمولة من الحنطة، بموافقة التجّار الذين كانوا يواكبون شحنتهم.غير أنّ تلك التضحية لم تأتِ بجدوى، فاضطرّ البحّارة إلى أن يلقوا، بأيديهم، عدّة السفينة الثقيلة، من صوارٍ، وأقلعة، وبكرات، وصناديق؛ غير أنّ كلّ ذلك لم يضع السفينة في مأمن من هجمات الرياح والأمواج التي كانت تنذر، أحياناً، بابتلاعها.

و ضاعف مخاوف الركّاب اكفهرار السماء، وانحجاب الشمس والنجوم، مدى عدّة أيّام متعاقبة، حتّى تسرّب اليأس إلى نفوسهم، وفقدوا كلّ أملٍ في النجاة، إذ كانت السفينة عرضة، في كلّ لحظة، للارتطام بصخور أو بكتلٍ رمليّة، والتجأ الجميع إلى داخل السفينة التي

أُوصدت نوافذها بإِحكام، فسادها الظلام، والهلع، وطافت فيها أَشباح الموت، وبات جوّها خانقاً.

و كان لوقا أَكثرهم انشغالاً، فالخوف، وصخب العاصفة، وانتشار القيء في كلّ كان، وإِمساك الركّاب عن الطعام، عدّة أَيّام، أَصابت كثيرين منهم بالإِعياء، وكان لوقا هو الطبيب الوحيد، الدائب على مؤاساتهم، ما استطاع إِلى ذلك سبيلاً.أَمّا بولس، فكان جاثياً مستغرقاً في الصلاة، متوسّلاً إِنقاذ رفاقه، إِلى أَن غلبه النّصَب والنعاس، فاستسلم للكرى.وفي نومه ظهر له ملاك، وأَكّد له أَنّ الربّ استجاب لطلبه، فوقف وسط الركّاب المبتلّين، المنهكين، المرتعدين قرّاً وخوفاً، وقال: " لقد كان ينبغي أَن تسمعوا منّي، فلا نقلع من كريت، فنسلم من هذا الخَطَر وهذا الخسران.ومهما يكن، فإِنّي أَدعوكم الآن إِلى الاطمئنان، لأَنّه لن يهلك أَحدٌ منكم – ما خلا السفينة وحدها.فإِنّه، في هذه الليلة، وقف بي ملاك من عند اللّه الذي أَنا له، وإِيّاه أَعبد، وقال: " لا تخفْ، يا بولس، فإِنّه لا بدّ من أن تقف أَمام قيصر.وها إِنّ اللّه قد وهبك جميع المبحرين معك ".فلتَطِبْ، إِذن، نفوسكم، أَيّها الرجال.وإِنّي لواثق باللّه أَنّ ما قيل سيكون.فلا بدّ، إِذن، من أَن نقع على جزيرة ".ثمّ طاف برفاقه يشجّعهم، ويشدّ من إِزرهم.

يا للمفارقة ! فهذا الرجل الذي لا خبرة له بالملاحة سوى الزهيد الذي اكتسبه من أَسفاره، كان قد أَسدى إِلى البحّارة النصيحة الكفيلة بإِنقاذهم، ولكنّهم أَهملوها، وها هو الآن، وقد فقدوا الأَمل، يشجّعهم ويبثّ فيهم الرجاء؛ وها هو ذا، سجين القيصر، يؤكّد لسجناء البحر أَنّهم سينعمون بالحرّيّة، ويتجرّأ فيعلن لهم أَنّ خلاصهم سيأتي من اللّه، من إِلهه الذي يؤمن ويثق به.ولكأنّه هو زعيم الرحلة وقائدها !

ربّما قلّة من الركّاب هم الذي تأثّروا بكلام بولس.ففي أَعقاب الرقصة الجهنّميّة التي استمرّت أَيّاماً، وامتصّت من الركّاب كلّ قطرة حياة، لم يعد يعنيهم سوى الانعتاق من الكابوس المميت. وإِذ بهذا السجين يعلن أَنّ الركّاب سيهبطون على جزيرة، أَيّة جزيرة ؟ ومن هو الإِله الذي أوحى له بذلك ؟ أَوَ لا يكون، هو أَيضاً، فريسة هلوسات أَفرزتها تشنّجات معدته، وتوتّر أَعصابه ؟

و هكذا، سحابة أسبوعين بديا دهراً، ما انفكّت الأَمواج العاتية تتقاذفهم بين كريت وصقلّية، في تلك المنطقة التي كان الأَقدمون يدعونها " أدريا". وخلال هذه الأَيّام والليالي كلّها ما انفكّت السفينة كالجوزة، تعلو وتهبط، وتئنّ تحت عنف الأَمواج.تارة تقفز إِلى قمّة موجة يتطاير منها الزبد، وتارة تدفن بين جدارين من العباب القاتم.ولا ريب أَنّ العاصفة كانت تهمد بين فينة وأخرى، ولكنّ السفينة، بعد أَن فقدت صواريها وأَشرعتها لم تعُدْ سوى حطام تائه؛ وتحت سماءٍ مكفهرَّة أَبداً، بات يتعذّر على الربّان، مع كلّ خبرته، تحديد مكانه وتبيّن

اتّجاهه.وبغتةً، عند منتصف الليل، صاح بعض البحّارة: "اليابسة ! الأَرض تقترب".فقد كانت آذانهم الخبيرة قد التقطت جلبة ارتطام الأَمواج على الصخور.وسارعوا إِلى سبر الغور، فإِذا به عشرون باعاً (37 متراً).ثمّ سبروه ثانية بعد أَن تقدّموا قليلاً، فإِذا به خمشة عشر باعاً (نحو 28 متراً).ولكي يحدّوا من سرعة انطلاق السفينة، ومن عنف ارتطامها بالصخور، أَلقوا أَربع مراسٍ في مؤخّرها، وباتوا ينتظرون، بلهفةٍ، طلوع النهار.وفي تلك الأَثناء، ترامت إِلى سمع بولس همسات يتبادلها البحّارة، ولحظ حركات مريبة يقومون بها، متظاهرين بمحاولة إِلقاء مراسٍ أُخرى في المقدّمة، فيما كانوا يسعون إِلى إِنزال قارب النجاة، والفرار بأَنفسهم، تاركين السفينة والركّاب لقدرهم.فالبحّارة، في تلك الأَيّام، كانوا خليطاً هجيناً من شذّاذ الآفاق، ومعظمهم من العبيد الفاريّن، ولم تكن السفينة وركّابها وحمولتها تعني لهم شيئاً.وخفّ بولس إِلى قائد المئة، وأَطلعه على نيّة البحّارة، محذّراً: "إِن لم يبقَ هؤلاء على متن السفينة، فلن تكتَب لكم النجاة ".فأمر يوليوس جنده بقطع حبال زورق النجاة وإِلقائه في اليمّ.

و أَدرك بولس أَنّ الركّاب، بعد أَربعة عشر يوماً وليلاً من السهر والصوم، خارت قواهم، في حين هم كانوا في أَشدّ حاجة إِلى الطاقة والمنعة وصلابة الأَعصاب، لمواجهة الغد الحاسم، وربّما كان هو الوحيد الذي احتفظ بصفاء ذهنه، وبثبات جأشه، وتأثيره، فناشدهم بتناول بعض الطعام لأَنّ فيه نجاتهم، مؤكّداً لكلّ منهم أَنّ شعرة من رأسه لن تسقط، إِن هو عمل حسب ما يتوجّب عليه.وكان لهم القدوة، إِذ طلب خبزاً، وتلا على مسمع الجميع صلاة شكر، وكسره، وشرع يأكل، وحذا الجميع حذوه.فشاعت على جميع الوجوه بسمة اطمئنان ورجاء، بعد أَيّام طويلة من الغمّ والقنوط؛ ولكأنّه كان يشير، بلباقة، إِلى قدرة الإِفخارستيّا على بثّ الرجاء والثبات، في أَكثر القلوب قنوطاً.

و عندما انقشعت الظلمة، شاهد البحّارة، أَخيراً، من خلال المطر المنهمر، خليجاً صغيراً تحيق به صخور، وله شاطئ رمليّ، ولكنّهم لم يستطيعوا تمييز أَيّ خليج هو.وعزموا على دفع السفينة إِليه، فالقوا ما تبقّى في السفينة من حمولة، وقطعوا حبال المراسي، وبسطوا الشراع الصغير للريح، واتّجهوا نحو الشاطئ، ولكن فاتهم أَنّ دونه ركام رمال.

و بغتةً اهتزّت السفينة بعنف، وارتمى الركّاب بعضهم على بعض، ودوّى صوت انقصافٍ مريع، فقد غاصت مقدّمة السفينة في الرمال، ولشدّة الصدمة، وقوّة الأَمواج، تفكّك مؤخّرها، وتدفقت إِليها المياه.وتجمّع الركّاب في المقدّمة، ولا حيلة لهم سوى النجاة، سباحة.

و خشي الجنود أَن يلوذ السجناء بالفرار، فهمّوا بقتلهم، عملاً بالتعليمات التي كانوا قد تلقّوها.غير أَنّ رغبة يوليوس في إِنقاذ بولس حملته على منعهم من ذلك.ومن المرجّح أَنّ بولس نفسه ضمن عدم هروب أَيٍّ من السجناء، فتغلّب العطف والرأفة، في قلب يوليوس،

على الواجب العسكريّ، وكأنّ شعاعاً من المسيحيّة قد أَضاء نفسه، فأمر بفكّ قيود السجناء، وأوعز إِلى الجميع بالنجاة، فعلى الذين يجيدون السباحة أَن يلقوا بأنفسهم، أوّلاً، قاصدين اليابسة؛ أَمّا الذين لا يجيدونها، فعليهم الاستعانة بألواح خشبيّة أو بحطام السفينة. وما لبثوا أَن نجوا جميعهم، وارتموا على الشاطئ مقرورين، ممزّقي الثياب، مكدودي الأَجسام.

شهد صيّادو الجزيرة، من بعيد، تحطّم السفينة، فهرعوا إِلى الشاطئ، وساعدوا الناجين على الخروج من الماء، وشدّوا إزرهم.كان المطر ينهمر، والبرد يقرس، والناجون يرتجفون في ثيابهم المبتـلّة.ولحسن طالعهم تنادى أَهل الجزيرة لغوثهم.وأَقبلوا يتدفّقون عطفاً، وإِنسانيّة، وشهامة، وقدّموا لهم طعاماً وشراباً ساخناً، وجاؤوا بأَحطاب وأَوقدوا ناراً كبيرة، تحلّق الرجال المقرورون المنهكون من حولها، فاصطلوا، وانتعشوا.

و استغلقت لهجة أَهل الجزيرة على معظم الناجين، غير أَنّ بولس، وبعض البحّارة الفينيقيّين فقهوا أَلفاظاً منها، وسرعان ما أَدركوا أَنّ تلك الجزيرة هي ماطلة.وقد أُطلق، فيما بعد، على المكان الذي هبطوا فيه، اسم " خليج القدّيس بولس "؛ وعلى مقربة منه ينتصب، منذ سنوات، تمثال جسيم لرسول الأُمم.

و إذ أَخذت النار التي أَضرمها المالطيّون تخبو، تناول بولس حزمة أَغصان ميتة وأَلقاها فيها، وإِذ بأَفعى كانت كامنة في داخلها، جعلتها حرارة النار تثب وتنشب بيد بولس، وتلتفّ حول ذراعه.وأَخذ الحاضرون يتهامسون قائلين: " لا ريب أَنّ هذا الرجل مجرم، ولئن هو نجا من البحر، إلاّ أَنّ العدل الإِلهيّ لن يدعه يعيش ".غير أَنّ بولس، بكلّ هدوء، وبلا مبالاة، نفض يده، وأَوقع الأَفعى في النار.ومع ذلك ظلّ الحضور يتوقّعون، في كلّ لحظة، أَن يروه يتورّم، ويقع صريعاً.وطال انتظارهم، وبولس على أَفضل حال، وكأَنّ شيئاً لم يكن.وكما هي حال الجماهير، انقلب الحضور من أَقصى إِلى نقيضه، وراحوا يهتفون: " إِنّ هذا الرجل لإِله ! " ففي تلك الحقبة التي كانت عاجّة بالأَساطير، كانوا يعتقدون أَنّ من يقاوم لدغة أَفعى، يتمتّع بقدرات غير طبيعيّة.وما انفكّ المالطيّون يعتقدون، حتّى اليوم، أَنّ بلادهم خلت من الأَفاعي السامّة، بفضل بولس.

و كانت، على مقربة من ذلك المكان، مزرعة تخصّ حاكم الجزيرة بوبليوس، الذي بعد أَن استمع، من الصيّادين، إِلى حادثة الأَفعى، استضاف بولس ورفاقه، مدّة ثلاثة أَيّام، في منزله، وأَغدق عليهم الإِكرام.وكان والده طريح الفراش مبتلى بإِسهالٍ حادّ، وبالحمّى التي باتت مشهورة بالمالطيّة.فدخل إِليه بولس، وصلّى، ثمّ وضع يديه عليه، فنهض معافى، وسرعان ما ذاع نبأ شفائه في الجزيرة كلّها، فتقاطر جميع المصابين بعلل إِلى بولس، وظفروا، هم، أَيضاً، بالشفاء.ولقي بولس ورفاقه أَجمل تكريم طيلة إِقامتهم في الجزيرة، التي امتدّت حتّى نهاية الشتاء، ولمّا عزموا على الرحيل زوّدهم أَهل الجزيرة بكلّ ما يحتاجون إِليه.

و من المحقّق أنّ بولس لم يهدر وقته عبثاً، مدى الأَشهر الثلاثة التي قضاها في مالطا، بل انطلق يبشّر بيسوع، واستطاع تأسيس نواة كنيسة هناك.ويُعتقد أنّ حاكم الجزيرة نفسه كان في طليعة المؤمنين، وأنّه أَصبح أسقف مالطا، ومات شهيداً.وما زال المالطيّون يعدّونه قدّيساً، وقد أنشأوا مشفى يحمل اسم " القدّيس بوبليوس ".

أَمّا اسم القدّيس بولس فهو منتشر في كلّ أَرجاء الجزيرة، اليوم، إِذ، فضلاً عن "خليج القدّيس بولس"، ثمّة عدّة كنائس، ومصلّى، ونبع ماء، ودياميس، ومغارة تحمل اسمه.وله أَيضاً تماثيل عديدة، كما أَنّ، ثمّة، بائع نبيذ ومشروبات كحوليّة علّق فوق حانوته لافتة تحمل اسم " القدّيس بولس الغريق ".

و قد أَبرزت تلك الرحلة كم يستطيع رجلٌ واحد، متّحد باللّه، أَن يجتذب من نِعَمٍ على الآخرين.لقد كان بولس وسيطاً بين اللّه والبشر، وكان، في جميع الظروف، سيّد الموقف، شجاعاً.وليس في شجاعته أَيّ أَثرٍ لقسوةٍ أو استعلاء، بل هو سجوٌّ داخليّ، وسلام، وحرارة مشعّة، لأَنّها تستقي طاقاتها من ينابيع سماويّة، وتتكوّن من انتصارات صغيرة ويوميّة، على الذات.

و لا عجب إِن أَنهى قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني، في مالطا، حجّه "على خطى القدّيس بولس"، في شهر أَيّار عام 2001، فحضور بولس يملأ هذه الجزيرة.

في أواخر شهر شباط من عام 61، وقد أَشرف الشتاء على نهايته، اتّفق قائد المئة يوليوس مع ربّان سفينة محمّلة، هي أَيضاً، حنطة، كانت قد قدمت من الإِسكندريّة وشَتَتْ في جزيرة مالطا، وتأهّبت لمواصلة سفرها إِلى روما، وارتضى القبطان أَن يقلّ السجناء وحرّاسهم على متن سفينته التي تألّقت في مقدّمها لوحة خشبيّة تحمل رسم الإلاهين التوأمين، كاستور وبولّكس، اللّذين يُزعَم أَنّ زوس تبنّاهما، ويُعتَبران حاميي البحّارة، ويحظيان، في مصر، بتكريم فائق.

المرحلة الأُولى، انتهت بعد نحو أَربع وعشرين ساعة، في سيراكوسة، حيث توقّفت السفينة ثلاثة أَيّام.كانت سيراكوسة، يومئذٍ، أَجمل جزر صقلّية، وقد أَضفت عليها بشائر الربيع مزيداً من رواء، تجلّى من خلال الخضرة المنتشرة في كلّ مكان، وبواكير زهور الربيع، وثمار البرتقال الذهبيّة المتدلّية من أَغصانها، وأَزهار اللوز البيضاء الكثيفة.واكتفى بولس بإِلقاء نظرة خاطفة على لوحات الجمال تلك، ثمّ أَنفق فترة التوقّف غير المتوقّعة في البحث عن المسيحيّين هناك، فالتقى جماعة كان قد أَسّسها أَحد مندوبي بطرس.وما زال السيراكسيّون، حتّى اليوم، يحتفظون بذكرى مرور بولس بمدينتهم، وبتعليمه في دياميسها.

ثمّ أَقلعت السفينة، ثانيةً، وسارت بمحاذاة الشاطئ، حيث نثرت الطبيعة، بملء يديها روائع من كلّ لون، منها الجليل، مثل بركان إِتنا، وصخور شاهقات مهيبة، ومنها الأَخّاذ باخضراره الموّار وأَزاهيره الزاهية، وقصوره الفاخرة.غير أَنّ أَبصار بولس كانت مشدودة إِلى ما وراء الأَشياء.وتوقّفت السفينة، أَوّلاً، في مدينة ريجيوم المدعوّة، اليوم، "ريجيودي كالابريا".وفي اليوم التالي هبّت ريحٌ جنوبيّة، فاندفعت السفينة في مضيق مسّينا الذي تشبّه مياهه المتعدّدة الأَلوان بقوس قزح، وسرعان ما عبرته، وتابعت سيرها، بفضل الريح المؤاتية، حتّى انتهت إِلى مرفأ بوزّولي الآمن، حيث كانت السفن القادمة من الإِسكندريّة تفرغ حمولتها الثمينة من الحنطة.وكانت السفينة التي أَقلّت بولس وصحبه، هي الأَولى التي وصلت بالحنطة، في ذلك الموسم، فخرج القوم لاستقبالها فرحين، إِذ كانت آتية لإِيطاليا بالخبز.وغاب عن علمهم أَنّها كانت تحمل لهم، أَيضاً، مع بولس، "خبز الحياة".وتحقّق قول الشاعر فرجيليوس: "ها إِنّ العذراء تعود..ومن علياء سمائه

ينحدر ولَد سيقضي مولده على العصر الحديديّ ".

و بهذا الولد الذي سيستهلّ عهداً ذهبيّاً، جاء بولس يبشّر

"كان الناس قد استقبلوا بحفاوة، في ذلك المرفأ، الكثيرين من العظماء الذين طوى التاريخ ذكرهم؛ وعندما قدم سفير أعظم الملوك، كان مقيّداً، ولم يعبأ أحد بمجيئه.فللعالم المنهار جلبة، أمّا العالم القشيب، القائم على أفكار جديدة، فلا تُسمَع له نأمة"

و في بوزّولي كان إخوة مسيحيّون في انتظار بولس وصحبه، ودعوهم إلى قضاء أسبوع بين ظهرانيهم.وفي تلك الأثناء كان الضابط يوليوس قد زاد افتتاناً بشخصيّة بولس، وبالشجاعة التي أبداها في أثناء العاصفة، وبقدراته القياديّة، وبصموده الجسديّ الخارق، وهو ابن الخامسة والخمسين عاماً، فبات يستجيب لكلّ رغباته.فبولس الذي لوّحت الشمس محيّاه، وحرقه الماء المالح، وحفرت في وجهه الريح أخاديد، وخلّفت فيه المِحَن آثارها، وقسّى الجهد المتّصل أعصابه، ما انفكّت أنظاره تشعّ عزيمة وقوّة نفس، تحت جبينه العريض المجرّد من الشعر، وما زال يبدو نشطاً، متفائلاً، مع جهله لما ينتظره في محكمة القيصر في روما.كان سجيناً موكلاً إلى حراسة ضابط، ولكنّه بدا وكأنّه هو القائد، وهو الطليق.

أنفق بولس وصحبه، إذن، في بوزّولي، أسبوعاً، ضيوفاً على الإخوة الذين كانوا ينتظرونهم هناك، وهؤلاء أنفذوا إلى روما رُسُلاً ينبئون بوصول الرسول الوشيك إلى عاصمة الإمبراطوريّة، وكان وصوله إليها يستلزم سبعة أيّام من المسير على الأقدام.وفي أثناء اجتيازه تلك المناطق الزراعيّة الخصبْة، اتّضح لبولس مدى الظلم الاجتماعيّ السائد.فقد كانت رقعٌ شاسعة من الأراضي تخصّ حفنة من كبار الملاّكين، في حين أنّ العاملين فيها عبيد يُراقَبون، عن كثب، في النهار، ويُقيَّدون، ليلاً، لمنعهم من الفرار.أمّا طبقة الفلاّحين فقد اندثرت والتهمتها المدن.

غير أنّ ما أشاع العزاء والبهجة في صدر بولس هو قدوم وفدين لاستقباله، أوّلهما كان بانتظاره في ساحة " أبيوس "، التي تبعد نحو خمسة وستّين كيلومتراً عن روما.كانت تلك التحيّة الأولى من جماعة روما إلى كاتب الرسالة الى الرومانيّين. وكان لتلك المبادرة أثرٌ بليغ في نفس الرسول؛ ففاضت عيناه بالدموع، وهو يتبادل القبلة الأخويّة مع مستقبليه الذين كانت تربطه ببعضهم صداقة شخصيّة وثيقة، أمثال أكيلا وبريسكيلا، فيما كان يعرف الآخرين بالاسم فقط.وربّما كان في استقباله، أيضاً، صديقه روفُس، وأمّه التي كان الرسول يعدُّها أُمّا له.وكم كان يفتقر إلى عطف أُمٍّ في شيخوخته ومحنته ! فمن ملاحظة لوقا: "إذ رآهم بولس، شكر اللّه، وتشجّع"، يمكن استخلاص أنّه كان مرهقاً، متعب النفس.

ثمّ، لدى بلوغ الموكب الموقع المدعوّ " الحوانيت الثلاثة " أو "الحانات الثلاث"، والذي يفصله عن روما نحو سبعة وأربعين كيلومتراً، كان في استقبال بولس ورفاقه وفد رسميّ يضمّ شيوخ كنيسة روما، وقد قدموا حاملين تحيّات جماعاتهم.وقد دهش القائد يوليوس

ومرافقوه من مشهد هذه الوفود، فازدادوا إِكباراً لسجينهم العظيم، وبدت لهم المحبّة المسيحيّة معجزة.

و لمّا أَشرف الموكب على المدينة الخالدة بات بمكنة أَفراده تأمّل أسوارها العالية التي كانت تذهّبها شمس المغيب، وأشجار السرو الشامخة الداكنة الساهرة عليها، والقصر الإِمبراطوريّ الناصع البياض، و"الفوروم" المنبسط عند أَقدامه، وأَحياء المدينة التي تراكمت عبر الأَجيال، على غير تناسق ولا انتظام، والتي سيلتهمها، بعد بضع سنوات، الحريق الذي افتعله نيرون، كي تنهض مكانها أَحياء جديدة.وقد لفتت نظر بولس، للوهلة الأُولى، شبكة الأَقنية التي كانت تخترق المدينة والحقول المحيقة بها جالبة إِليها مياه الشرب والريّ، ممّا أَيقظ في ذهن الرسول تلك المياه الحيّة التي وعد بها يسوع من يؤمنون به، ويعملون بتعليمه، والتي ستتدفّق، بعد اليوم، من روما.فالأَغلال، في معصم بولس، كانت عاجزة عن منعه من الانطلاق وراء الأَحلام المتوهّجة.

و آن لبولس أَن يدوس، أَخيراً، تلك الأَرض التي طالما راوده حلمها، والتي، منها تفجّرت عبقريّة روما اللاتينيّة التي، بتضافرها مع العبقريّة الإِغريقيّة، والعبقريّة المسيحيّة، التي كان بولس رائدها، أنجبت الحضارة الغربية، مستمدّة من الشرق النور والروح، ومن اليونان اللغة والأَدب والفكر، ومن روما النظام والقانون.وها إِنّ بولس يهبطها حاملاً بذرة المسيحيّة، ورائداً للوحدة بين العبقريّات الثلاث.

و سلّم يوليوس سجناءه إِلى قائد الحرس الإِمبراطوريّ؛ وكان يتولّى هذا المنصب، منذ نحو عشر سنوات، النبيل بورُّس، القائد الكفء، ورجل الدولة المحنّك، الحائز على حبّ الشعب، وصاحب أَهمّ سلطة بعد الأَمبراطور، وقاضي التحقيق الأَوّل، في كلّ الشكاوى المرفوعة إِلى القيصر.بورُّس هذا، والفيلسوف سينيكا، كانا الوصيّين على نيرون الشابّ، والمكلّفَيْن بتثقيفه، وقد أَفلحا، إِلى حين، في ضبط أَهوائه الوبيلة، ولكن عندما جمحت تلك الأَهواء، واستبدّت به، ضاق ذرعاً بمعلّميه فقتلهما، واستبدلهما بمعاون يبذّه فساداً، استطاع استمالته بدغدغة غرائزه الشاذّة، وزاده، على ضلاله وظلمه، ضلالاً وظلماً.

طالع بورُّس، إِذن، رسالة الوالي فستُس، واستمع إِلى تقرير القائد يوليوس عن السجين بولس، وإِذ أَجمعت الرسالة والتقرير على تبرئته، أمر بورّس بمعاملته برفق وإِنسانيّة، معاملة سجين أَمبراطوريّ رفيع الشأن.وبعد أَن أَقام، في مركز الشرطة، عشرة أَيّام، لاستكمال التحقيق البدائيّ، أُخضع لأَكثر أنماط السجن رفقاً؛ إِذ أُذن له باستئجار بيت يسكنه، ويستقبل

فيه من يشاء، على أَن يظلّ تحت مراقبة جنديّ.وتكرّمت كنيسة روما بتحمّل نفقات البيت، ومعيشة الرسول.

" كان بولس يدرك ما تعني روما للمسيحيّة، ومن جهتها، روما المتعطّشة إِلى جرعة إِنسانيّة، وقبَس نور، تشرّفت باستقبال رسول المحبّة ".

و كان بولس قد أَهدى، في رسالته إِلى الرومانيّين، التي كتبها في كورنثس قبل ثلاث سنوات، تحيّاته إِلى خمسة وعشرين منهم، عرفهم في أَثناء أَسفاره، وتلقّى عوناً من بعضهم، ومن أَبرزهم الزوجان أَكيلا وبريسكيلاّ، اللّذان وضعا بيتهما بتصرّف الكنيسة، و"عرّضا حياتهما للموت من أَجلي؛ وما أَنا وحدي أَشكرهما، بل جميع كنائس المؤمنين من غير اليهود، أَيضاً"؛ و"أبينتُس، حبيبي، وهو أَوّل المهتدين إِلى المسيح في آسية، و"مريم التي تعبت كثيراً من أَجلكم"، و"أَنذرونيكُس ويونيّا، نسيبيّ ورفيقيّ في الأَسر، المشهورَيْن في الرسل، والمسيحيّين قبلي "، و" أَمبلياتُس، حبيبي في الربّ "، و" أوربانس، معاونا في المسيح " و" إِسطاخِس حبيبي "، وأَبلّيس المزكّى في المسيح.و" ترفَيْنة وتريفوسة، وبرسيس اللائي تعبنَ كثيراً في الربّ " و" روفس، المختار في الربّ، وأُمّه التي هي أُمّي أَيضاً "، ويُعتقد أَنّ روفس هذا هو ابن سمعان القيرواني الذي ساعد يسوع في حمل صليبه،... وفي ذلك الدليل على أَنّ روما كانت، آنذاك، تؤوي نواة جماعة مسيحيّة نشيطة ومندفعة.

لا نعرف على وجه الدقّة، من جاء روما بالبذرة المسيحيّة الأُولى، أَهم حجّاج يهود اعتنقوا المسيحيّة في أورشليم وعادوا كي ينشروها في عاصمة العالم آنذاك، أَم هم مرسلون أوفدتهم كنيسة أنطاكية، أم بحّارة وتجّار ؟ ولا نعرف، كذلك، في أَيّ وقت وصل إِلى روما ذلك الرجل الفذّ، زعيم الرسل، بطرس، تلك الصخرة التي كان على الكنيسة أَن تنهض فوقها؛ ومن المرجّح أَنّه هبط روما وقد تقدّم في السنّ، مثقلاً بالمجد والجهاد في سبيل الإِنجيل، وهو ما زال يحمل على وجهه انعكاس نور التجلّي، ذلك الوجه الذي سيظلّ يشعّ، جيلاً إِثر جيل، على روما.ومن المؤكّد أَنّه طبع كنيسة روما الفتيّة بدمغة نفس يقطُنها العليّ.وكانت تلك الكنيسة تجمع، إِلى جانب بعض اليهود الذين آمنوا بيسوع، كثيرين من أَبناء الشعوب العديدة التي كانت تحتضنهم روما، والتي كانت تعاني قلقاً روحيّاً حول الحياة والمصير.

و في تلك الحقبة كان يُنظر إِلى المسيحيّين على أَنّهم شيعة صغيرة من الشيع الشرقيّة الكثيرة التي تعجّ بها مدينة تؤوي نحو مليون نسمة، ولم يخطر ببال أَحد أَن يضطهدهم، طالما هم التزموا الهدوء، ولا سيّما وأَنّ نيرون، ذلك المعتوه المتوّج، لم يكن قد أَطلق، بعد، لجنونه العنان، وبقيت جرائمه مقتصرة على حفنة من المقرّبين إِليه، وعلى أُمّه أَغريبينا.وهكذا تيسّر للمسيحيّة أَن تنتشر بسلام، وأَن تضمّ في صفوفها أوساطاً مختلفة.

إلى هذه الكنيسة كانت تطير أَفكار بولس، وهو يدخل المدينة الخالدة، حيث استشفّ مهمّة خطيرة تقتضي وجوده.فانتصار الصليب يستلزم انتصابه في مفترق طرق الأُمم.وإِذ كان يسوع قد أَرسى الكنيسة على أُسس لا تتزعزع، فعلى هذه الكنيسة أَن تشعّ، وأَن يغزو نورها العالم، وعلى بولس أَن يدعّم ويتمّم عمل أَخيه الأَكبر بطرس.

كما هو الحال في أَماكن كثيرة، لم يكن القضاء الرومانيّ على عجلة من أَمره، وإِذ لم يحضر أَحد من خصوم بولس كي يثبت ادّعاءه عليه، امتدّ أَسره سنتين في روما.

صحيحٌ أَنّ روما، يومها، كانت أَكثر من مجرّد عاصمة إِمبراطوريّة متمادية الأَطراف، إِذ كانت أكبر مدينة في العالم تؤوي أَكثر من مليون نسمة، فاستحقّت، بذلك، أَن تدعى " المدينة " فحسب، وكأَنّ كلّ المدن الأُخرى، مقارنةً بها، ثانويّة وضئيلة الشأن.لقد كانت روما، بمفردها، عالماً كاملاً، تحتوي على هيكل جامع للآلهة، ومقبرة للعظماء، وهَرم، ومدرّجيْن كبيريْن، وملعبيْن رحبيْن، وثلاثة ميادين، وثلاثة مسارح، وثلاث شبكات أسيقة، وأربعة قصور إِمبراطوريّة فخمة، وخمسة أَسواق رئيسة، وستّ حدائق، وسبع تلال داخل أَسوار المدينة، وسبعة جسور فوق نهر التيبر، وفي الساحات والأَحياء كانت ستّ مئة وأَربعون سبيلاً تؤمّن الماء للشعب المحروم من المياه الجارية.

غير أَنّ أَحياءها الشعبيّة كانت كثيرة الضجيج، سيئة البنيان، تنبعث من أَزقّتها القذرة الضيّقة، وأَبنيتها العالية، روائح كريهة.ولا ريب أَنّ بولس الذي كان أَسيراً في أَحد الأَحياء، لم يستطع التجوّل في المدينة، ولكنّه لم ينجُ من ضجيجها وروائحها.وكان قيده الطويل، المثبت في جدار، أو في معصم حارسه، وإِن هو أَتاح له التجوّل داخل البيت واستقبال الزائرين، يذكّره، أَبداً، بأَنّه سجين.وكم كان الأَسرُ شاقّاً على ذلك الرحّالة الذي لم يعهد القعود، بل أَلِف العيش في الهواء الطلق، على الطرقات، وفوق عباب البحار.

بيد أَنّ هذا الوضع الشاقّ لم يثبّط عزيمة الرسول، فلم تنقضِ ثلاثة أَيّام على سجنه حتّى بادر إِلى استدعاء وجهاء اليهود، الذين كان لهم، في روما، جالية قديمة وكبيرة، يتروا ح عدد أَفرادها بين أَربعين وخمسين أَلفاً.وكانت تنعم بالاستقرار والازدهار بفضل إِعلان قيصر الدين اليهوديّ ديناً مشروعاً، وسماحه لليهود بممارسة طقوسهم بحرّيّة تامّة.وقد عقد اليهود علاقات طيّبة مع الأَباطرة الذين خلفوا قيصر، ولا سيّما أوغوسطُس وتيبرُس.غير أَنّ الإِمبراطور كلوديوس أمر، عام 49، بطردهم من روما، بعد أَنّ اتّهمهم بالإِخلال بالأَمن العامّ.ولكن هذا الأَمر أُبطِل، عقب موت كلوديوس عام 54، فعاد إِلى روما معظم اليهود الذين كانوا قد هجروها، وبرز إِلى العلَن من منهم لم يخضعوا لأَمر الطرد، واكتفوا بالتواري عن الأَنظار، والعيش في الخفية.

و يوم حطّ بولس رحاله في روما كانت الجالية اليهوديّة قد استعادت مكانتها في المدينة، ومعظم أَفرادها من التجّار والصنّاع، وكان لهم، ثمّة، أَكثر من أَحد عشر مجمعاً،

حيث يرفعون، كلّ سبت، صلاة خاصّة عن نيّة الإمبراطور، خطباً لودّه.وكان نفوذهم قد تسرّب إلى قصر نيرون، حيث كان يهوديّ يلقّنه الفنّ المسرحيّ، وإحدى عشيقاته يهوديّة، بوبيا، سخّرت مفاتنها لتنفيذ مآرب بني دينها.

و لبّى عددٌ من وجهاء اليهود دعوة بولس، ولا ريب أنّهم كانوا قد سمعوا عنه الكثير، فدفعهم الفضول إلى معرفته عن كثَب.وأراهم الرسول قيوده معلناً أنّه لا يحملها إلاّ بسبب إرث شعبه، أي الرجاء في قدوم المسيح.ولكنّهم أجابوه بلغةٍ دبلوماسيّة لبقة، قائلين إنّهم لم يتلقّوا، بشأنه، أيّ شيءٍ من أورشليم، غير أنّهم أبدوا رغبة في معرفة المزيد ممّا يتعلّق "بالمذهب " المسيحيّ، إذ إنّ كلّ ما يعرفونه عنه أنّه يُقابَل بالمقاومة في كلّ مكان.وضربوا موعداً للقاءٍ آخر معه، ووافوا إليه كُثُراً.وإذ كان جمهوره من العليمين بالكتب، استفاض بولس في إظهار تعمّقه فيها، ومهارته في تأويلها، بما يؤكّد أنّ يسوع هو المسيح المنتظر.وتمادى الجدال " من الصباح حتّى المساء "، ونثر بولس بسخاء المعارف الماسياويّة التي اختزنها طيلة سنوات تأمّله، فاقتنع بعضهم، وأبى آخرون، ولا سيّما الرابيّين، تصديقه، لأنّهم رفضوا أن ينتهي تاريخ اليهود "المجيد" بعار الصليب.وعلى غرار الكثيرين من بني دينهم ظلّ الصليب لهم حجر عثرة لم يقووا على تخطّيها.

كانت تلك محاولة بولس الأخيرة لعرض الخلاص، عبر المسيح، لمجمع يهوديّ، بيد أنّ معظم اليهود رفضوا هذا العرض. ويقول كتاب أعمال الرسل: " ولمّا أخذوا ينصرفون على غير اتّفاق بينهم، لم يزدْ بولس غير هذه الكلمة:

" ما أصدق ما قاله الروح القدُس لآبائكم بأشعيا النبيّ:

" إنطلق إلى هذا الشعب، وقلْ له:

" سماعاً تسمعون ولا تفهمون، ونظراً تنظرون ولا تبصرون،

لأنّه قد غلظ قلب هذا الشعب: فأثقلوا آذانهم، وأغمضوا عيونهم،

لئلاّ يُبصروا بعيونهم، ويسمعوا بآذانهم، ويفهموا بقلوبهم،

"ويرجعوا إليّ فأشفيهم."

" ألا فاعملوا أنّ خلاص اللّه هذا قد أُرسل إلى الأُمم، فهم سيسمعون. "

و الوثنيّون الذين سمعوا وآمنوا هم الذين احتلّوا كابتول روما، ودمّروا هيكل جوبيتير كي يرفعوا، مكانه، الصليب.

مع كلّ ما لقيه بولس، من بني دينه اليهود، من سوء فهم، ونقد، وتهديد، ووشايات، وعنف، وملاحقات، ودسائس، وسجن، وضرب، ورجم، ومحاولات قتل، ظلّ يراوده أمل

هدايتهم إلى حقيقة المسيح، ولكن يبدو من عبارته الأَخيرة، المفعمة مرارة، أنّه كاد يقنط من ذلك الشعب " قساة الرقاب " وأَنّ تطلّعه بات ينحصر في " غير اليهود من الأُمم ".

و قد تحوّل رفض الإيمان لدى فئة من اليهود إِلى عداوة شرسة، دفعت بالجماعة المسيحيّة في روما إِلى شفا الهاوية.وفي الآن عينه شنّت طائفة من المسيحيّين المتهوّدين حملة لئيمة على بولس، عبّر عنها الرسول في رسالته إِلى الفيليبيّين حيث قال: " أَجل إِنّ فئة منهم يكرزون بالمسيح بدافع الحسد والخصام، بيد أَنّ آخرين يكرزون بنيّة صالحة.فهؤلاء يبشّرون عن محبّة، عالمين أَنّي قد نُصِّبتُ للدفاع، هكذا، عن الإِنجيل، وأَمّا أولئك فعن منازعة يبشّرون، وبنيّة غير صالحة، ظانّين أَنّهم، بذلك، يزيدون قيودي ثقلاً.ولكن ما شأن ذلك ؟ حسبي أَنّ المسيح يُبشّر به على كلّ وجه، بغَرَضٍ كان أَم بإِخلاص.بهذا أَفرح، بل سأفرح أَيضاً ".لقد كان بولس، عبر رسائله، قد بدّد كلّ لَبْس، وقاوم كلّ اعوجاج، ولم تعد الترّهات التي ينشرها بعض ضعاف النفوس تخيفه، ولا سيَّما وأَنّه، بصداقته مع زعيم الكنيسة، بطرس، كان قد وثّق الوحدة بين شتّى الفئات المسيحيّة، وسيكمل اضطهاد المسيحيّين، إِثر حريق روما، صهر جميع المسيحيّين، في بوتقة الوحدة، وسيُخرس كلّ نغمة نشاز بينهم.

لا مراء أَنّ كنيسة روما كانت مدينة برسوخ مسحيّتها للقدّيس بطرس، ذلك الشيخ المثقل بالسنين والمجد، ذلك المجاهد العريق في سبيل الإِنجيل، الذي لا يني ينتقل من مدينة إِلى مدينة مباركاً، شافياً، بانياً النفوس، مريحاً القلوب.كان مجرّد حضوره عبرةً ودرساً، وكم كانت كنيسة روما الناشئة في حاجة إِلى حكمته السامية، وناره المضطرمة، وثباته المنيع، ثبات حجر الأَساس.

و في موازاة تعليم بطرس جاءت بشارة بولس المتفجّرة حيويّة، تتمّةً ورافداً؛ وقد كان شاهدا الروح هذان، على وفاقٍ تامّ حول الجوهريّ، وكان همّهما المشترك مجد يسوع وانتشار إِنجيله.

و كان بولس، على نحوٍ خاصّ، موقناً، أَنّ غزو العالم لن يكتمل إِلاّ بغرس الصليب حيث كان قلب العالم، آنذاك، يخفق.

لم يأْتِ لوقا، في سفر أَعمال الرسل، على ذكر التقاء بولس ببطرس، في روما، ولكن من المرجّح أَنّ لقاءات متكرّرة قد جمعتهما، وأَنّها كانت حميمة وحارّة، بدليل ما جاء في ختام رسالة القدّيس بطرس الثانية: " إِحسبوا صبر ربّنا فرصة لخلاصكم، كما كتب إِليكم بذلك أَخونا الحبيب بولس، على قدر ما منحه اللّه من الحكمة، كما هي الحال في جميع رسائله التي تكلّم فيها عن هذه المسائل، فوردت فيها أُمور غامضة يحرّفها الجهّال، وضعفاء النفوس، كما يفعلون في سائر الكتب المقدّسة، لهلاك نفوسهم ".

ترك، إذن، بولس نواة المسيحيّين الأولى بقيادة بطرس، تعمل في الوسط اليهوديّ، واندفع يُلقي بذار الإنجيل في كلّ تربةٍ أُخرى يستطيع الوصول إليها.فكانت سنتا أَسره، في روما، حافلتين بالنشاط، والإنجاز، والعظمة.فوسط القيود يشعر العظيم بحرّيّته، لأَنّ هذه الحرّيّة، حينئذٍ، لا تنبع إلاّ من الروح، ولأَنّ العبوديّات المفروضة عليه تحفزه على تخطّي ذاته، وعلى تحقيقها بالكامل.ولا غروَ إن أَصبح مكان أَسر بولس بؤرةً للتبشير، ومركزاً مقدّساً، أَشعّت منه كلمة اللّه على روما كلّها، ومنطلَقاً لتبشير الوثنيّين بالمسيح.وبعد أَن كان هذا التبشير خجولاً، متردّداً، بسبب مقاومة اليهود، اتّخذ انطلاقة جبّارة بفضل بولس، حتّى أَمست، في روما " كتلة ضخمة " من المسيحيّين عام 64، وعزا بولس هذا الازدهار لقيوده: " أَكثر الإِخوة قد استمدّوا من قيودي جرأة على إذاعة كلمة اللّه بغير خوف ".إنّ ما برهن عنه من شجاعة وثبات جعل أسره يتحوّل لمصلحة الإنجيل، فقد كان ذلك الرسول المقيّد يشعّ بقدرات الروح التي لا تُقهَر.

و على مدى سنتين ما انفكّ يبثّ جماعة روما الشعلة التي كانت تلهب نفسه.وهو الذي بلغ مستوى رفيعاً من الوحدة الداخليّة والامتلاء الروحيّ، استطاع فرض حضوره على الجميع، وحتّى على أَعدائه.وهكذا استطاع بولس أَن يكتب إِلى الفيليبيّين: " أريد أَن تعلموا، أَيّها الإخوة، أَنّ أَحوالي قد آلت، بالحريّ، إلى نجاح الإنجيل، حتّى صارت قيودي، في المسيح، مشهورة في دار الولاية كلّها، وسائر الأَنحاء؛ وأَكثر الإِخوة قد استمدّوا، من قيودي، ثقة بالربّ، فازدادوا جرأة على إذاعة كلمة اللّه، بغير خوف".

و قد وزّع بولس وقت أَسره على الصلاة، والتأمّل، والمطالعة، والكتابة والأَحاديث المستفيضة مع زائريه.

كان يستيقظ مع إشراقة الشمس، وإذ يكون حارسه مازال نائماً، ربّما في غرفة مجاورة، موثقاً إِليه بسلسلة طويلة، كان ينتهز لحظات الصمت والوحدة المتاحة، لوقفها على التعبّد والصلاة.وكان المسيحيّون، آنذاك، يُصلّون وقوفاً، وراحاتهم المبسوطة مرفوعة إِلى أَعلى.بيد أَنّ بولس، تجنّباً لإيقاظ حارسه، كان يؤثر الصلاة جاثياً على ركبتيه، تعبيراً عن اتّضاعه وخضوعه للربّ، وكثافة توسّله.

و لدى استيقاظ حارسه كانا يتناولان، معاً، إفطاراً زهيداً قوامه الماء والحليب، وكسرة خبز، وكان الغداء أَيضاً، متقشّفاً.أَمّا العشاء فكان هو الوجبة الأَساسيّة، ويشارك فيه بولسَ ضيوفه وأَصدقاؤه، وفي نهايته يحتفلون، معاً، بذكرى عشاء يسوع الأَخير مع تلاميذه، وبالإفخارستيّا.وكانت تضاء المائدة بسُرُج من نحاس تبعث ضوءاً شحيحاً، ومقداراً أَوفى من الدخان.ولكن في ليالي السبت عشايا الأَحد، وفي أَثناء الاحتفال بالأَسرار الإِلهيّة، كانت تُشعل

أنوار كثيرة رمزاً للقيامة، فتُحدِث رقصات اللهب، وتناوب الأنوار والظلال، على الوجوه، تأثيراً غريباً، فيما كان جسد الربّ السرّيّ، وصورته السماويّة، يرتديان، بفضل سموّ حديث بولس، بعداً سامياً، ويسود الشعور بحضور " من يملأ الكون كلّه ".

و بالإجمال كان يوم بولس الأسير يبدأ من الفجر، وينتهي مع العشاء تتخلّله فترات صلاة، وعمل، وراحة.وكان كلّ عمل يتوقّف ليلاً، غير أن المسيحيّين قدّسوا الليل بوقفه على الصلاة.ومنذ الصباح كان ينضمّ إليه أصدقاؤه لصلاة مشتركة، وترتيل المزامير.وفي أثناء وجبات الطعام كان الجميع ينصتون إلى أحاديثه الشيّقة التي ينثر عليها ملح ظرفه ودعابته.

وغالباً ما كان بولس يمضي مع حارسه إلى الثكنة ليعود بحارس آخر.وكان أولئك الجند الذين تعاقبوا على حراسته هم أوائل من بشّرهم، متخطّياً بذّاتهم العسكريّة، مخاطباً الإنسان فيهم، محدّثاً إيّاهم عن إله جاء ليخلّص العالم من البغض والكراهية، وتأنّس فقيراً مثلهم، وعلّم المحبّة الشاملة، وساوى بين الناس أجمعين.ولا جَرَم أنّه أثّر في العديد منهم، إذ كان يستحوذ على كلّ إنسانٍ يقابله شعورٌ بأنّه أمسى أرفع نفساً، بفضل اتّصاله بفكرٍ سامٍ.وغالباً ما تحدّث الجند، فيما بينهم، عن ذلك السجين الفريد، وعن ديانته المدهشة؛ وربّما جثا بعضهم أمامه، بعيداً عن عيون الرقباء، وأعلنوا انضواءهم تحت راية إلهه، وقد كتب بولس نفسه: " اتّضح عند حرس الحاكم كلّهم، ولدى سائر الناس، أنّ قيودي هي في سبيل المسيح ".

لم يعانِ بولس الوحدة في أسره، فذلك الرجل الذي نثر المحبّة، طيلة حياته، حيثما ذهب، كان " صانع صداقات "، وقد أحاط به أصدقاء كُثُر.وأكثر من لازمه في أسره هو لوقا الذي أفاد من هذه السانحة كي يدوّن الإنجيل الثالث وسفر أعمال الرسل، الذي توقّف عند أسر بولس في روما.ذلك الطبيب الذي استقى تفاصيل حياة يسوع وأقواله من أوثق مصادرها، وتمثّل فكر بولس المسيحيّ، أثبت في إنجيله، أنّ حياة يسوع هي تحفة الرحمة والمحبّة، وأنّ يسوع هو طبيب الأجساد والنفوس؛ وبوصفه يسوع طبيباً أسبغ على الطبّ صبغة قدسيّة، مخالفاً الرومانيّين الذين كانوا ينظرون إلى تلك المهنة بعين الازدراء، ولا سيّما وأنّ الطبّ عنده لم يكن مهنة، بل خدمة مجّانيّة بلا مقابل.وفي تيّاره اندفع كثيرون فيما بعد، أبرزهم القدّيسان كوزموس وداميانُس، وفي عهدنا، الكاهنان الفرنسيّان الأَخَوان جاكار.

و كان إلى جانب الرسول أيضاً تلميذه العزيز تيموثيوس "الابن الحقيقيّ في الإيمان"، والإنجيليّ مرقس الذي حرص بولس على استقدامه كي يستغفره عن قسوته عليه عندما تخاذل، في مطلع الرحلة الرسوليّة الأولى، وآثر هجر خاله برنابا وبولس والعودة إلى أورشليم؛ غير أنّه فيما بعد أثبت جدارته وإقدامه، وكان من أقرب معاوني زعيم الكنيسة

بطرس، وقد أَضاف إِلى صداقته الراسخة لبطرس، صداقة بولس، وأَضحى صلة بين عمودي الكنيسة؛ ومن المرجّح أَنّه انتهز وجوده في روما، إِلى جانب بولس الأَسير، كي ينهي تدوين إِنجيله.

و فضلاً عن هؤلاء قد آنس أسرَ بولس عددٌ من شيوخ الكنائس التي سبق له تأسيسها في شتّى أَقطار المشرق، أمثال أرسترخُس، وتيخيكُس، وديماس.ففي ما يتخطّى روما كانت خواطر بولس تجوب الإِمبراطوريّة الشاسعة، حيث أَلقى بذور الإِنجيل، وأَكثر من أيّ يوم مضى، كان همّ الكنائس التي أَسّسها يطارده.فكتب إِلى العديد منها.وقد اكتست "رسائل الأسر" بساطةً وجمالاً فريدين، وحرارة افتقرت إِليها رسائله العقائديّة الكبرى، ولكأنّ ما بلغه من نضج، وما كان يعانيه من الأَسر، قد جعلا قائد المسيح أَكثر رقّة وإِنسانيّة.ومن كلّ تلك الكنائس كانت ترده رسائل تشهد على وفاءٍ مؤثّر، وكان موفدوها يتقاطرون إِليه مستشيرين، مستغيثين، أو آتين بإعانات مادّيّة، بحيث باتت حجرة أَسره أَحد مراكز المسيحيّة.

و فضلاً عن هؤلاء جميعهم، كان كثيرون من مسيحيّي روما يزورون بولس، فيبوحون له بنجواهم وأَسرارهم، ومصاعبهم، ويلتمسون نصحه وإِرشاده.وبعضهم يأتونه مساءً، فينفقون الليل في الاستماع الممتع إِلى شهادة رجل لا يعيش إِلاّ من أَجل المسيح، وبه، وفيه، ومعه، وفي نهاية اللقاء كانوا يكسرون الخبز معاً، ويقتسمونه، ثمّ يعودون، وقد سيطر السلام على نفوسهم، وارتبطت قلوبهم بالمسيح.

و قد امتدّ تأثير تبشير بولس إِلى أُناس من شتّى الطبقات والأوساط، ومن رجال ونساء، يعتمل في أَعماقهم القلق الدينيّ.بعضهم من علّيّة القوم ومنهم لينُس الذي خلف بطرس على أسقفيّة روما.وحتّى في " بيت قيصر " كان عدد المسيحيّين يتعاظم. يا لقدرات الروح التي لا تُقهَر: فهذا الرجل المقيّد كان يشعّ بحرّيّة اللّه !

و قد أَظهرت الاكتشافات الأَثريّة التي أَسفرت عنها ديماميس روما أَنّ بين المسيحيّين الأَوائل، كان العديد من الأُسر الأرستقراطيّة والنبلاء، بفضل تبشير بطرس وبولس.ومن التقاليد الشائعة أَنّ " أَكتي " العبدة المحرّرة، التي كانت عشيقةً لنيرون، ثمّ زوجته، فمُطلَّقته، قد اعتنقت المسيحيّة، وجمعت من حولها جماعة مسيحيّة عديدة، وأَنّ بولس تحدّث إِليها.وعندما لمّت بقايا جثمان نيرون كي تدفنها، تأكّد كونها مسيحيّة، إِذ " وحَدها نفس مسيحيّة قادرة على مثل هذه المشاعر، حيال مثل هذا الانحطاط ! "

و يُعتقد، أَيضاً، أَنّ الفيلسوف سينيكا قد اتّصل ببولس، في أَثناء التحقيقات القضائيّة التي أَجريت بحقّ الرسول، وكان له الفضل في تبرئة ساحته، مثلما كان لأَخيه غاليون فضل تبرئته في كورنثس.وقد تكون شخصيّة بولس هي التي أَلهمت سينيكا وصفه للرجل الورع

حيث قال: " لو أُعطينا تأمّل روح هذا الرجل، لتسنّت لنا مشاهدة وجهٍ قوامُه الجمال والقداسة والعظمة.ومن شاهد مثل هذا الوجه الذي يفوق تألّقاً كلّ ما يُشاهَد في المجال البشريّ، أَلا يتراجع حيال هذه الرؤيا، وكأنّه مسحور برؤية إله، ويتلو صلاة لكي تحمل له هذه الرؤيا الخير.أوَلا تشجّعه الطيبة المرتسمة على هذا الوجه، على الدعاء مع فرجيل: إِرحمنا، وخفّف وطأة محنتنا " !

غير أَنّ المسيحيّة لاقت انتشاراً أوسع بين طبقات المسحوقين، الذين كانوا يعثرون، فيها، على ما يتطلّعون إِليه من نفحات الحرّيّة والإِنسانيّة.لقد ذادت المسيحيّة عن حقوقهم وكرامتهم، ولكنّها لم تدفعهم إِلى الفوضى، بل علّمتهم أَنّ على المسيحيّ أَن يكون قدّيساً، زاهداً، متنكّباً عن الأَنانيّة، مقداماً، جريئاً، مسيطراً على ذاته.وقد وفّرت المسيحيّة لذلك العصر ما كانت الحضارة الرومانيّة المنهارة قد فقدته من مقوّمات الأَخلاق.

و بالإِجمال كانت فترة سجن بولس الأوّل، في روما، من أَخصب أَيّام رسالته.فقد توغّلت المسيحيّة في نفوس الجنود الرومانيّين الذين كانوا يُرسلون إِلى شتّى أَصقاع المسكونة، فيخبرون بما رأوا وسمعوا.وفي تلك الأَثناء، نضج لاهوت بولس، وبلغت رؤيته الصوفيّة للمسيح الأَبديّ، رأس الكنيسة، ذروتها.

فيليمون، تاجر ثريّ من كولوسّي، كان قد ابتاع، لقاءَ مبلغٍ جزلٍ، عبداً شابّاً تجلّت عليه مخايل الذكاء والنباهة، وأطلق عليه اسم " أونيسمُس " أي المفيد.وبفضل كرازة بولس، كان فيليمون وزوجته آبيا قد اعتنقا المسيحيّة، وأَصبحا من أَصدقاء الرسول الحميمين، بحيث لم يكن يتحرّج من الإِقامة في منزلهما، والاطّعام على مائدتهما، ولا سيّما وأَنّ منزلهما كان ملتقى الجماعة المسيحيّة في كولوسّي، يدخل أَفرادها إِليه ويخرجون بحرّيّة، ويمارسون فيه طقوسهم.وغالباً ما عُهِد إِلى أونيسموس العبد بنقل رسائل بولس إِلى جهات مختلفة، أو بنقل رسائل فيليمون إِلى بولس.

و ذات يوم سوّلت لأونيسمُس نفسه سرقة بعض مال سيّده، ثمّ لاذ بالفرار، وخشي أَن يُبلّغ عنه سيّده السلطات الرومانيّة التي كانت تنزل بالعبد الآبق أَقسى عقاب، إِذ كانت تسم جبينه، كيّاً، بما يشير إِلى فراره، وتسومه أَقسى العذاب.وكان من حقّ سيّد العبد السارق أَن يأمر بجلده حتّى الموت، أو أَن يكلّفه بإِدارة رحى طاحون، طيلة حياته، حتّى يلقى حتفه.ففزع أونيسمُس إِلى روما حيث كانت تموج حثالة الدنيا، وحيث يضيع، وسط الزحام، المجرمون وشذّاذ الآفاق.وسرعان ما بدّد الأَموال التي سرقها، وتبدّدت معها أحلامه في الحياة الحرّة، وأَخذ به الخوف من أَن يقبض عليه الجند الرومانيّون الذين كانوا لا ينفكّون يطاردون العبيد الآبقين والخارجين على القانون، وأَن يلقوا به في غياهب السجن.وعهد ساعات قنوط وانهيار.وحينئذٍ خطر في باله الرسول الطيّب بولس، وتذكّر ما كان قد سمعه من أَسياده حول أَسره في روما، وعزم على اللجوء إِليه، وهل من ملجأ آمن وأوفر عطفاً من قلب رسولٍ مسيحيّ ؟ وفي الواقع لقي لديه أَكثر من مجرّد ملجأ، لقيَ أَعظم سعادة في حياته.فقد كان ذلك العبد الآبق مهيّأً ليكون أروع رمزٍ لانتصار النعمة الإِلهيّة.أَمّا رسالة بولس، التي كشفت عن سرّه، فهي مأثرة النعمة السنيّة.

بحث أونيسمُس، طويلاً، عن بولس حتّى اهتدى إِلى مكان أَسره؛ ولمّا قرع بابه ظنّ بولس، للوهلة الأُولى، أَنّه آتيه برسالة من سيّده؛ ولكن ما إِن استعلمه عنه حتّى لحظ ارتباكه؛ ولم يكن من السهل إِخفاء أَيّ شيء عن نظر بولس، الذي من غير أَن يتخلّى عن طيبته المتناهية، كان يسبر أَغوار النفوس.وأَقرّ الابن الضالّ بكلّ شيء، واستقبله الرسول بمحبّته الرائعة التي كان يخصّ بها الصغار والمغلوبين على أَمرهم، غير أَنّه كان متيقّظاً لخطورة الوضع.فتستّره على عبد فارّ وسارق كان يعرّضه لتهمة التواطؤ معه.ولكن وجود إِيبافراس إِلى جانب بولس، وهو، أَيضاً، وجيه كولوسّي وصديقٌ لفيليمون، ساعد على إِيجاد مخرج، فقد

تكفّل إيبافراس أَمر فيليمون، وطلب من أونيسمُس أَن يبقى لدى بولس يخدمه ويضطلع بتأمين احتياجاته إِلى أَن تحلّ قضيّته حلاًّ مرضياً.

تمنّى بولس لو يستطيع إعتاق أونيسمُس، ولكنّه خاطبه قائلاً:

– أَنا فقير ولا أَملك مالاً، ولكنّني أَعرف من هو قادر على إِعتاقك وتحريرك، فهو من الغنى بحيث يستطيع افتداء العالم بأَسره.

و تألّقت عينا أونيسمس دهشةً وتساؤلاً، فاستأنف بولس:

– أَلم تسمع بيسوع المسيح، مخلّص العالم ؟

– بلى، فلطالما حدّثني عنه سيّدي فيليمون، الذي مذ اعتنق دين يسوع، بات يعاملنا برفق، وقد اعتنق هذا الدين، أَيضاً، بعض رفاقي العبيد.

– إِعلم، إِذن، يا أونيسمُس، أَنّ يسوع هو ابن اللّه الأَبديّ.لقد كان أَكثر الناس حرّيّة، ومع ذلك تخلّى عن حرّيته وسناه، وارتدى لباس عبد، ومات، طوعاً، ميتة عبد، لكي يعتقنا من عبوديّة أَدهى...إِنّ سيّدنا طيّب، يا أونيسمُس، وفيه لا يوجد عبيد وأَحرار، بل جميعنا عبيد، ويا لها من عبوديّة ! فإِنّ أَضأَل عبيد المسيح شأناً أَكثر تمتّعاً بالحرّيّة من أوفر الأسياد حرّيّة.نيره ليّن، وحمله خفيف.أَنا نفسي، خُيّل إِليّ، يوماً، أَنّني كنت حرّاً، في حين كنت أَتعس العبيد، عبد حرف وهمٍ بائس.ولكن مذ متُّ مع المسيح، وصُلبتُ عن العالم، عرفت الحياة الحقّة.قديماً، كان الجميع يظنّونني سعيداً، في حين كنت تعيساً، وفي ليالي سهدي كنت أَتأَوّه حزناً، وأَصيح: من يخلّصني من جسد الموت هذا ؟ بيد أَنّي مذ جُلدتُ خمس مرّات في سبيل المسيح، وضُربتُ بالسياط ثلاث مرّات، ورُجمتُ مرّة، ومذ طردت من مدينة إِلى مدينة، وتعرَّضتُ لمهالك شتّى في البرّ والبحر، وواجهت مصاعب الطبيعة، ومختلف ضروب الحرمان، وأنفقت ثلاثين سنة من عمري أَجهد في سبيل المسيح، بتُّ أَعرف الفرح الحقّ، وغالباً ما أَقول لأَصدقائي: " ابتهجوا في الربّ ! " لقد سرى المشيب في لمّتي، ولكنّ الربّ يهبني، في كلّ لحظة، شباباً قشيباً.لا تخشَ، يا أونيسمُس، وَسْمَ العار على الجبين، فالموسومون الحقيقيّون هم الذين وُسمت نفوسهم وضمائرهم، إِذ، وحده الإِنسان الداخليّ له، لدينا، شأن، وما أروع الحرّيّة التي دعينا إِلى اقتسامها مع المسيح ! "

ما سمع أونيسمُس، قطّ، مثل هذا الكلام، فراح يتخيّل كم هو رائع نبع مثل هذه الحياة، وهذا الفرح، وهذا السموّ الروحيّ الواثق من انتصاره.وتكرّرت مثل تلك الأَحاديث التي كانت تتفاعل في نفس أونيسمُس وتحوّلها، إِلى أَن جاء يومٌ، جثا، فيه، أَمام بولس، معلناً إِيمانه، ملتمساً العماد، مثلما فعل كثيرون قبله.وتوسّم بولس في ذلك العبد المؤمن معاوناً جزيل الفائدة، وتمنّى أَن يبقيه إِلى جانبه.غير أنّه كان حريصاً على التلازم الوثيق بين الدين

المسيحيّ والأَخلاق، وعلى قرن سموّ الفكر بالتيقّظ للواقع الملموس، فالإِيمان لا يوفّر دائماً الراحة، بل كثيراً ما يسبّب الضيق.ولئن فصل الوثنيّون، غالباً، بين الدين والأَخلاق، وكان لديهم آلهة لا أَخلاقيّون، وراج لديهم الجمع بين خدمة الآلهة والفجور، إلاّ أَنّ المسيحيّة اقتضت دائماً توافقاً تامّاً بين المواقف الدينيّة والمواقف الأَخلاقيّة، فالدين والأَخلاق من مصدر واحد.وتديّن بولس لم يكن موقفاً فكريّاً فحسب، بل كان يجد، في السلوك العمليّ، ترجمة أَمينة.

و من ثمّ أوعز بولس إِلى أونيسمُس بالعودة إِلى سيّده، وتحمّل تبعات سرقته وفراره، إِن اقتضى الأَمر، ولو شقّ عليه الاستغناء عن خدمات ذلك الشابّ الذكيّ النشيط. ولكنّه حرصاً منه على ألاّ يصاب أونيسمُس بأَذيّة، أوفده مع صديقه تيخيكُس الكفيل بالشفاعة له لدى سيّده، وأنفذ معه إِلى فيليمون رسالة شخصيّة، هي الوحيدة التي كتبها بأكملها بخطّ يده، وطواها على ما زخر به قلبه من رقّةٍ وسموّ، وما حفل فكره من مهارةٍ وتبصّر.

استهلّ بولس الرسالة بوصف نفسه " أَسير المسيح يسوع "، وإِذ كان يعلم أَنّ الرسالة ستُقرأ في اجتماعٍ عامّ في بيت فيليمون، بعث بتحيّة إِلى الكنيسة الملتئمة في بيته.

كان لبولس على فيليمون حقوق الأَبوّة الروحيّة، ولكنّه لم يأمره، ولم يفرض عليه شيئاً، ولم يدّعِ دَيْنه عليه، بل خاطب فيه شهامته واستقامته، والتزامه بشريعة المحبّة المسيحيّة قائلاً: " مع أَنّ لي الجرأة في المسيح أن آمرك بما يجب عليك، فإِنّي آثرت أَن أناشدك باسم المحبّة، أَنا بولس الشيخ الكبير، والسجين الآن من أَجل يسوع المسيح، بشأن ابني أونيسمُس...".فقادة النفوس يعلمون أَنّ الحصول على المراد يتحقّق بالإِقناع واستدرار العطف أَكثر منه بالأَمر.ثمّ أَقعد بولس طلبه من فيليمون على حججٍ عاطفيّة يصعب ردّها، فسأله خدمة، وهو الشيخ الأَسير، وما أَبلغ أَثر تواضع شيخٍ يلتمس خدمةً ممّن هو أَصغر منه سنّاً ! وهل من سبيل إِلى رفض طلب سجينٍ في سبيل يسوع، يبدو وكأنّه يطلب باسم يسوع وكنيسته جمعاء ؟

و لم يأتِ بولس على ذكر أونيسمُس، الكفيل باستثارة مشاعر الغضب، وذكريات العقوق، ونكران الجميل، إِلاّ بعد إِعدادٍ نفسيّ حاذق؛ وقد ذكره في قالبٍ مرحٍ طليّ، عابثاً بالأَلفاظ والمعاني.فلفظة أونيسمُس اليونانيّة تعني " النافع "، ولذلك قال بولس إِنّ ذالك الذي لم يكن " أونيسمس " (نافعاً) من قبل، قد أَمسى الآن، "أونسيمُس" (نافعاً) لك ولي.وبعد أَن أعدّ نفس فيليمون، خاطب عاطفته النبيلة، قائلاً: " إِنّني برّده إِليك، إِنّما أُرسل قلبي نفسه"؛ وفسّر قوله هذا بأَنّه كان يودّ الاحتفاظ به، لكي يقوم مقام فيليمون بخدمته، وهو مقيّد من أَجل المسيح، ولكأنّه يقول له: " كلّ خدمة يؤدّيها لي أونسيمُس، عنك، أعدّها خدمة منك.ولكنّه

يستدرك برقّة: " ولكنّني لم أشأ أن أَفعل شيئاً، بلا رضاك، لكيلا يكون الإِحسان منك كُرْهاً، بل طوعاً".

ثمّ يخاطب بولس، في مراسله، روح الصفح المسيحيّ، مذكّراً بأَنّ الخطأ نفسه قد ينقلب للخير بفعل النعمة فيقول: " لعلّ أونسيمُس لم يُفصل عنك، حيناً، إلاّ ليُعاد إِليك للأَبد، لا ليكون عبداً بعد اليوم، بل أَفضل من عبد، أي أَخاً حبيباً، وهو أَخٌ لي حبيبٌ جدّاً، فكم بالأَحرى لك "، كيف لا، وهو بعد اعتناقه المسيحيّة قد غدا أَخاً فعلاً.

و يدعّم بولس طلبه بحجّة أُخرى، فإِن كان فيليمون شريكاً له في الإِيمان، فباسم هذه الشراكة يدعوه إِلى قبول أونيسمُس، وكأنّه يقبل بولس نفسه، ويعلن بولس أَنّه شخصيّاً، يتحمّل تبعات فرار أونسيمُس، فما على فيليمون إِلاّ أَن يسجّل على بولس ما له من دين على عبده الذي سرق وأَبق.وها إِنّ توقيع بولس على الرسالة يقوم مقام توقيع على صكّ دين واعترا فٍ به.وهكذا، بعد أَن نفذ إِلى أعماق قلب فيليمون، أَعطى بولس نفسه الحقّ في تأكيد طلبه، وأمل تلبيته، إِذ إِنّ له في ذمّة فيليمون ديناً أرجح شأناً، أَلا وهو الإِيمان الذي أَنقذ به نفسه.ومع ذلك يظلّ طلبه يقطر رقّة وعذوبة:

" نعم، يا أخي، أَحسن إِليّ في الربّ، وأَنعش قلبي في المسيح، ولي ثقة بأَنّك ستلبّي طلبي، بل أنا على يقين، أَنّك ستعمل أَكثر ممّا أَطلب منك "، ولكأنّه يدعوه إِلى إِعتاق أونيسمُس.

هذه الرسالة قلّما عرف الأَدب القديم في مثل رقّتها وسموّها.وهي فضلاً عن كونها تحفة رهافة وتهذيب، بمثابة إعلانٍ لحقوق الإِنسان.

قد يأخذ البعض على بولس عدم إِعلانه إِلغاء العبوديّة؛ وغاب عن أَذهانهم أَنّ بولس، وإِن لم يكن سياسيّاً، قد فعل في سبيل إِلغاء العبوديّة ما لم يفعله أَيٌّ من السياسيّين الثوريّين، إِذ إِنّه وضع الأُسس الدينيّة والأَخلاقيّة لهذا الإِلغاء، وضرب المثل، هو والكنيسة، على المساواة بين جميع البشر الذين افتداهم ابن اللّه بدمه كي يهبهم حرّيّة أَبناء اللّه.

كان العبيد، في الأَمبراطوريّة الرومانيّة، يفوقون المواطنين الأحرار عدداً، وكانوا هم مصدر الازدهار العامّ.وكان إِلغاء العبوديّة، دفعة واحدةً، قميناً بإِضرام ثورة تدمّر الجميع والعبيد في طليعتهم.وكان لا بدّ من تطوّر إِجتماعيّ ونفسيّ يُفضي، شيئاً فشيئاً، إِلى إِعتاقهم، في منأى عن مآسٍ اجتماعيّة لا تُحمد عواقبها.وكان بولس موقناً أَنّ أَيَّ إِصلاح اجتماعيّ، إِن لم يبدأ بالنفوس، ويتّخذ له من الضمائر والأَذهان منبعاً، قد ينقلب إِلى نقيض ما يرمي إِليه.وقد بنى كلّ إِصلاح على شريعة المحبّة، فمعها تردم الهوّة بين العبد والحرّ، ويعامل السيّد عبده لا

كعبد، بل كأخٍ عزيز، وحتّى إن لم تتغيّر الأَنظمة الرسميّة، ينعتق الأَسياد من غريزة التملّك، ويتحرّر العبيد من عقدة الدونيّة، ويعتبر الجميع أَنفسهم أَعضاءً متساوين في أُسرة المسيح.

كان العبد، في نظر القانون الرومانيّ، " شيئاً "، لمالكه ملء حرّيّة التصرُّف به، ولكنّ بُشرى الإنجيل أَعطت العبيد المسحوقين كلّ ما يتطلّعون إليه: معنى الكرامة، وقيمة إنسانيّة، إذ إنّ إلهاً أَحبّهم، ومات من أَجلهم، وبوّأهم في ملكوته المكان الأَثير.

الفيلسوف سينيكا نفسه الذي دافع بحرارة عن كرامة العبيد، لم يكن مستعدّاً للجلوس مع عبيده على مائدة واحدة.غير أَنّ مائدة الإفخارستيّا قد حقّقت هذه المساواة.وتلك هي إحدى معجزات المسيحيّة.

و إن لم يكن العماد يفضي، حتماً، إلى تغيير الوضع الاجتماعيّ، إلاّ أَنّه يرتقي بالأَفكار والنفوس إلى مستوى أَسمى.وربّما لو أَعلن بولس إلغاء العبوديّة، لكان اجتذب إلى المسيحيّة أَعداداً لا تحصى من المؤمنين، ولكنّه كان عرّض الكنيسة، والمجتمع بأكمله، لمخاطر لا يمكن تكهّن مداها.كان حسبه، آنذاك، أن تتحرّر النفوس، أَيّا كان وضع المرء الاجتماعيّ.وهو لم يفرض إعتاق العبيد فرضاً، ولكنّه أَوحى للأَسياد المسيحيّين، بأنّ العبيد الذين اشتراهم المسيح بدمه خليقون بالحرّيّة.وقد ضربت الكنيسة الأَولى المثل بإيكالها أرفع المناصب لعبيد، ومنهم أونيسمُس نفسه، الذي أَصبح أُسقفاً على أفسس، وكان له الفضل في جمع كلّ ما استطاع جمعه من رسائل بولس، ما عدا التي ضاعت، أو أتلفها عمداً من أُرسلت إليهم.

و غالباً ما كان بولس هو مرجع الأَسياد الذين يحرّرون عبيداً، إذ كانوا يعلنون: "بما أَنّ بولس أَعلن بصوتٍ جهير: لم يعُدْ، بعدُ، عبيد، بل بشر أَحرار فحسب...أعيد لك حرّيّتك، اعتباراً من اليوم، أَنت عبدي الذي أَدّيتُ ثمنه ذهباً".

إنّ كلّ ما يسهم في حرّيّة حقيقيّة، مدين لإرث بولس الروحيّ، بولس الذي كان المتكلّم الأَمين باسم المسيح يسوع، والذي خاطب فيليمون بشأن أحد عبيده، قائلاً: " أَنا بولس، سجين المسيح، أَسألك في أمر ابني الذي ولدته في القيود".

" بورك ذاك الذي تحدّث بمثل هذه الطيبة العذبة الرائعة، يوم كان نيرون يسوم البشر أَبشع ضروب الحيف والاضطهاد؛ وسعى إلى تحطيم قيود الآخرين، وهو راسفٌ في الأغلال!"

كثيرة هي رسائل بولس التي تناولت قضايا عقيديّة وراعويّة ولكنّها فُقدت، فيما تحدّت هذه " البطاقة " الشخصيّة الأَجيال، وانتهت إلينا محتفظة بكلّ نكهتها الفريدة.وفي ذلك الدليل على ما لاقت من استحسان منذ اليوم الأَوّل فنسخت ألوف النسخ، وتداولتها الأَيادي، وتذوّق

فيها قراؤها، إِلى جانب رقّة بولس، وإِنسانيّته العذبة، طلاوة مفعمةً فرحاً خلا منه كثير من رسائله الأُخرى.

هذه الأَسطر القليلة البسيطة التي تفيض ثقةً، تنطوي على أَروع درسٍ في الحبّ الشامل الذي جاء به يسوع، وحقّقه بولس، عمليّاً، على أَرض الواقع، حبّ لا سيّد فيه ولا عبد، بل الجميع إِخوة في المسيح يسوع.

لم يكن بولس يعرف شخصيّاً جماعة كولوسّي، فقد تولّى تأسيسها إبيافراس، وهو أَحد الذين آمنوا على يد بولس، وغدا له تلميذاً ومعاوناً في الرسالة.وقد جاءه إبيافراس هذا زائراً إيّاه في أَسره، فبثّه قلقهُ من جرّاء اندفاع بعض المؤمنين وراء نظريّات تنذر بإبعادهم عن الإيمان الصحيح، وبدفعهم إلى هدر طاقاتهم في التفكير النافل، والاستغراق في الأحلام ومطاردة الأوهام، بعد أَن حشا متحذلقون أَذهانهم بوجود وفرة من الأبالسة في العالم، وازدحام عروش ورئاسات وقوى في السماء، وأَرواح شرّيرة لا تُحصى منتشرة في الأَجواء، ما بين الأَرض والسماء.تلك التخيّلات كانت بذور الغنوصيّة التي انتشرت في القرنين الثاني والثالث؛ وإلى هذه التخيّلات أَضاف متهوّدون أَضاليل فلسفيّة، وفرائض تتعلّق بالأَكل والشرب والممارسات اليوميّة.

و ربّما غذّت تلك التخيّلات طبيعة تلك البلدان البركانيّة، المعرَّضة لهزّات أَرضيّة متكرّرة، وحيث انتشرت الفوالق والفوهات التي تتصاعد منها أَدخنة كبريتيّة، ولكأنّ تلك البُقعة هي ساحة صراع بين أَرواح الجوّ وسكّان الجحيم.

و كانت تلك النظريّات تزعم أَنّ العالم الماديّ من الخبث والبُعد عن اللّه، بحيث لا يمكن اعتباره من عمل اللّه، ولا يمكن للّه، الكائن الساميّ، أَن يُعنى به، ويقوده من غير أَن تصيبه منه النجاسة.ومن ثمّ فإنّ هذا العالم هو من صنع قدراتٍ دنيا؛ فهناك كائنون ينبثقون من اللّه، ولكنّهم يتوغّلون في الماديّة، ويصنعون هذا العالم الحافل بقوى الظلام؛ وما الروح البشريّة إلاّ قبس نور، منبثق من العالم السامي، وتائه في العالم الماديّ...وفي سبيل تحريرها اتّحد أحد أَنبل العناصر المنبثقة من اللّه، وهو المسيح، بالإنسان يسوع، في أَثناء عماده في الأردنّ، ولكنّه عاد فانفصل عنه قبل صلبه، ومن ثمّ فالمخلّص ليس يسوع المصلوب، بل المسيح القاطن في الجوّ.

و فضلاً عن ذلك كانت تعاليم تلك البدعة سرّيّة، لا يطّلع عليها سوى قلّة من المنوَّرين، الذين يرمقون بازدراء المؤمنين البسطاء، ويتميّزون بالزهد، والامتناع عن الخمرة، واللحم، والنساء.

و لم تخفَ على بولس مخاطر انتشار مثل تلك المذاهب الكفيلة بتضليل المؤمنين، وبلبلة أَفكارهم ونفوسهم، وإقصائهم عن وضوح الإيمان.فبفضل معرفته الوثيقة للمسيح واطّلاعه على أسراره، وعلى تدبير خلاصه، اكتشف بولس العلاقة بين حياة اللّه الحميمة وعمليّة الخلق.فالعالم، إذن، ليس غير لائق به، بل إنّ خلقه وفداءه نابعان من مصدرٍ واحد،

يتجلّى من خلال الثالوث الأَقدس.فما الابن سوى معرفة الآب لذاته؛ ومن الحبّ المتبادَل بين الآب والابن انبثق الروح القدس.وأَصبحت الخليقة فيضاً لحبّ اللّه، وإِعلاناً عنه، وتكراراً لصورة الابن الحبيب، في صِيغٍ متنوّعة.هذا هو المعنى العميق للخليقة: فالابن هو سبب خلقها، إِذ إِنّ كلّ شيء خُلِق فيه، وبه، وله.وكلّ الخلائق تجد فيه صيغتها المثاليّة.ليس للخليقة، في ذاتها، ما يدفع اللّه إِلى خلقها، ولا شيء يدفع اللّه سوى ذاته.وإِن نحن أغفلنا مفهوم الثالوث هذا لانتهينا إِلى سرٍّ غير معقول، وإِلى قفزة في العدم.وإِن كان عقلنا المخلوق عاجزاً عن فهم ما يفوق العقل، وإِن كان اللّه وخليقته أَسراراً، غير أَنّها أَسرار حبٍّ ونور.

إِنّ بولس يعترف بما للعلم والمعرفة من شأن على أَن يظلاّ مرتبطَيْن بالأَعمال الصالحة ومدعّمَيْن بالمحبّة، حتّى بلوغ " الفهم الكامل بكلّ غناه، وبه، معرفة سرّ اللّه، أي المسيح، ***المكنونة فيه جميع كنوز الحكمة والعلم***": "إِنّنا لا ننفكّ نصلّي لأَجلكم، سائلين اللّه أَن تبلغوا إِلى معرفة مشيئته، معرفة كاملة، في كلّ حكمة وفهم روحيّ، فتسلكوا، من ثمّ، على ما يليق بالربّ، وفي كلّ ما يرضيه، وتثمروا بكلّ عملٍ صالح، وتنموا في معرفة اللّه، الذي انتزعنا من سلطان الظلمة، ونقلنا إِلى ملكوت ابنه الحبيب " يسوع " الذي ينشد له بولس نشيداً يتدفّق حبّاً وإِيماناً، فهو:

" صورة اللّه الغير المنظور،

المولود قبل كلّ شيء،

إِذ فيه خلق جميع ما في السماوات وعلى الأرض، ما يُرى وما لا يُرى، عروشاً كان أَم سيادات، أَم رئاسات أَم سلاطين،

به وإِليه خلق كلّ شيء؛ إِنّه قبل كلّ شيء، وفيه يثبت كلّ شيء،

الذي هو، أَيضاً، رأس الجسد، أي الكنيسة،

إِنّه المبدأ، البكر من بين الأَموات – لكي يكون هو الأَوّل في كلّ شيء –

ففيه ارتضى اللّه أَن يحلّ الملء كلّه،

و أَن يصالح به، لنفسه، كلّ ما على الأَرض، وفي السماوات، بإِقراره السلام، بدم صليبه".

المسيح، إِذن، صورة الآب، يحمل في ذاته ملء الألوهة؛ إِنّه إِله من إِله، نور من نور، وإِنسان بين البشر، ردم، بدمه، الهوّة بين اللّه والعالم.ليس العالم، إِذن، من منشأ شيطانيّ، ولا هو ملك إِبليس، وليس غير قابل للشفاء.إِنّه بحاجة إِلى الخلاص، وخلاصه بات ممكناً بفضل تأنّس ابن اللّه الذي أَسلمه الآب للموت على الصليب " ليُظهركم لديه قدّيسين،

بغير عيب ولا لوم، بشرط أَن تثبتوا على أَساس الإِيمان، راسخين غير متزعزعين عن رجاء الإِنجيل، الذي سمعتموه، وكُرِز به لكلّ خلقٍ تحت السماء، وصرتُ، أَنا بولس، خادماً له".

و يُسعد بولس أَن يسهم في خلاص المؤمنين بإِسهامه في آلام المسيح:

" إِنّي لأَفرح الآن في الآلام التي أُقاسيها لأَجلكم، وأُتمّ في جسدي ما ينقُص في مضايق المسيح، لأجل جسده الذي هو الكنيسة، التي صرتُ لها خادماً، على مقتضى تدبير اللّه، الذي ندبتُ إِليه لأبشّر، في ما بينكم، بكلمة اللّه كاملة، بالسرّ الذي كان مكتوماً منذ الدهور والأَجيال، وأُعلن الآن لقدّيسيه، الذين شاء اللّه أَن يُعلمهم ما هو، في الأُمم، غنى مجد هذا السرّ، الذي هو المسيح فيكم، ورجاءُ المجد."

و من اكتشف هذا السرّ، وامتلك هذه المعرفة، لم يعد في حاجة إِلى أَن يغرّه أَحد بكلام مموّه، أو أَن يقتـــنصه بغرور " الفلسفة " الباطل، المستقى من تقليد الناس، وأركان العالم، أي من نظريّات اليونانيّين الجوفاء، وتقاليد اليهود التي أَبطلها صليب يسوع.وفي المسيح وحده " يحلُّ كلّ ملء اللاهوت جسديّاً، وفيه أَنتم تمتلئون، لأَنّه هو رأس كلّ رئاسة وسلطان؛ فيه قد ختنتم ختانة ليست من فعل الأَيدي، بها تخلعون عنكم جسدَكم البشريّ، إِذ هذه هي ختانة المسيح: أَن تُدفَنوا معه في المعموديّة، وتُنهَضوا، أَيضاً، معه.لأَنّكم آمنتم بقدرة اللّه الذي أَقامه من بين الأَموات"، فيسوع بصليبه وقيامته "محا الصكّ المكتوب علينا، الذي كان ضدّنا بأَحكامه، وأزاله مُسَمِّراً إِيّاه على الصليب، وجرّد الرئاسات والسلاطين، وشهّرهم في موكبه الظافر".وهكذا ارتقى بالوجدان المسيحيّ إِلى مستوى نظامٍ سامٍ، فهو عوضاً عن حصر الاهتمام في تجنّب امتزاج اللحم باللبن، دعا إِلى عدم تصادم البشر، وإِلى امتزاجهم برباط المحبّة.وعوضاً عن ترداد: " لا تأخذ، لا تذُق، لا تلمس "، قال لهم: "احتملوا بعضكم بعضاً، واصفحوا بعضكم عن بعض، وليسُد بينكم سلام المسيح، وكونوا شاكرين ".وعوضاً عن الدعوة إِلى تجنّب لمس نقد يحمل صورة حاكم وثنيّ، دعا إِلى خلع الإِنسان القديم الداخليّ الملطّخ بالأَفكار الوثنيّة، وإِحياء صورة اللّه في القلوب، والسعي إِلى الاتّحاد بالمسيح، عوضاً عن الانسلاخ عمّن يختلفون عرقيّاً أو اجتماعيّاً.

فلا ينجرّنّ أَحد إِلى من امتلأوا كبرياء، فراحوا يتظاهرون بفضائل زائفة، ويدعون إِلى عبادة ملائكة باطلة، وإِلى زهد مفرط يعبّر عن ازدراء للجسد.فالجسد ليس لحداً للنفس، بل على المسيحيّ ارتداؤه واحترامه كي يتيح له الاشتراك في حياة اللّه، عبر سلوكٍ مسيحيّ، يُرشد بولس إِلى سُبُله ومناهجه:

" أَميتوا أَعضاءكم الأَرضيّة: الزنى، والنجاسة، والأَهواء، والشهوة الرديئة، والطمع الذي هو عبادة وثن..اطّرحوا الغضب والسخط والخبث والتشهير، والكلام القبيح من أَفواهكم،

ولا يكذب بعضكم بعضاً، إِذ إِنّكم خلعتم الإِنسان العتيق مع أَعماله، ولبستم الإِنسان الجديد، الذي يتجدّد بالمعرفة على صورة خالقه...فالبسوا، إِذن، أَنتم مختاري اللّه وقدّيسيه وأَحباءه، أَحشاء الرحمة، واللطف، والتواضع، والوداعة، والصبر.احتملوا بعضكم بعضاً، وتسامحوا...وكما أَنّ الربّ سامحكم، سامحوا أَنتم أَيضاً، وفوق كلّ شيء البسوا المحبّة التي هي رباط الكمال..."

إِنّ ملكوت اللّه " حياة أَبديّة "، " روح وحياة "؛ وروح اللّه الذي ينساب إِلينا عبر يسوع هو المنبع الوحيد لهذه الحياة، ولا شأن للكواكب ومساراتها، للمنظّرين، وهذيانهم، وللمشرّعين وفرائضهم وتقاليدهم، بالإِلهيّ الكامن فينا.فبولس لا يعترف بسلطة سوى سلطة الروح، ولا بشريعة سوى شريعة المحبّة، ولا قيمة لكلّ ما سوى ذلك إِلاّ بقدر ما يعترف له به الروح، وتؤيّده المحبّة.

و ينهي بولس بإِرشادات مسلكيّة عامّة يختمها بهذه النصائح: " واظبوا على الصلاة، اسهروا فيها بالشكر، صلّوا لأَجلنا خصوصاً، لكي يفتح اللّه لنا باباً للكلمة، فنبشّر بسرّ المسيح الذي من أَجله صرت أَنا أَسيراً، وأَعلنه كما يجب عليّ أَن أَنطق به...استغلّوا الوقت الحاضر.ليكن كلامكم لطيفاً على الدوام، مُصلحاً بملح، لكي تعلموا كيف تجاوبون كلّ أَحد على ما ينبغي ".

كان أَصدقاء بولس يحيقون به، وهو يملي هذه الرسالة، وقد انقلب مسكنه مثابة للصداقة، ومقاماً مقدّساً، ومصلّى، حيث الحاضرون يفكّرون بالغائبين، ويصلّون، ويرتّلون معاً، ويشتركون في كسر الخبز.ويتميّز صوت إِيبافراس، المناضل في سبيل نفوس أَبنائه الروحيّين، فتؤثّر كثافة إِيمانه في نفس الرسول.

بعد أن سلّم بولسُ تيخيكسَ الرسالة إلى الكولوسيّين، داحضاً الأَضاليل التي أعرب إيبافراس عن مخاوفه من انتشارها، استحسن أَن يشرك في فحوى هذه الرسالة جميع كنائس آسية التي أَسّسها بنفسه، وتلك التي أَسّسها أَصدقاؤه والتي لم يعرفها شخصيّاً، فأملى رسالة جماعيّة، وكلّف تيخيكس بإنفاذ نسخة منها إلى كلٍّ من تلك الكنائس مع تحيّات شفويّة إلى رعاتها.ولذلك خلت هذه الرسالة من تحيّات إلى أَشخاص معيّنين، خلافاً لما جرى عليه بولس في الرسائل الأُخرى، وربّما خلت أَصلاً، من اسم مرسل إليه، وأضيف، فيما بعد، اسم كنيسة أفسس، إذ إنّ أفسس هي العاصمة التي تنتمي إليها تلك الكنائس الأَسيويّة.ولكنّها، بخلوّها من كلّ إشارة إلى تلميحات محلّية أو ظرفيّة، تتوجّه على السواء إلى مسيحيّي اللاذقيّة، أو مسيحيّي هييرابوليس أو ميلّة، كما هي تتوجّه، اليوم، إلى كلّ مسيحيّ في كلّ مكان.

و قد تناولت هذه الرسالة المواضيع عينها التي بسطها بولس في رسالته إلى الكولوسيّين، غير أَنّه توسّع، هنا، في بسطها، وطواها على نظرته الشموليّة إلى الكنيسة والمسيح، ومستقبل المسيحيّة.

و تشهد رسائل الأَسر – وهذه واحدة منها – على توجّه جديد في الفكرة البولسيّة.فهو كان، حتّئذٍ، بصفته رسولاً رحّالة، ومؤسّساً للكنائس، قد صبّ جلّ اهتمامه على البشر وعلى احتياجاتهم الشخصيّة.أَمّا الآن، وقد بلغ قمّة حياته، فهو يلقي نظرة على مجمل عمله.لقد سكن صخب كفاحه، وأَصبح الرسول شيخاً أوفر سكينة وحكمة، ونضجاً، ولو أَنّه ما زال يتردّد في بعض عباراته صدى رعدٍ يتباعد.

إنّ بولس، بفطرته، شموليّ النظرة، جماعيّ النزعة، وقد أَيقظت لديه روما العالميّة أَفكاراً جديدة حول المستقبل، وأوحت له برؤيةٍ عالميّة عن الوحدة، وعن معنى الكنيسة والإنسانيّة، والكون كلّه.ومفهومه للمسيح، أَيضاً، تطوّر، فلئن هو كان، في رسالته إلى التسّالونيكيّين، قد وصف المسيح بأَنّه الكلمة، ديّان البشر، في نهاية الأَزمنة؛ ثمّ أَظهره، في فئة رسائله الثانية، على أَنّه الكلمة الذي ظهر، في الزمن، وحقّق عمله الفدائيّ، فهو، في رسائل الأَسر، يصفه بالكلمة الخالق، الموجود قبل كلّ الدهور، وملء اللّه الذي يملأ الكلّ في كلّ شيء.

فالمسيح لم يعبر هذا العالم عبوراً خاطفاً، عبور شهابٍ شارد، ولم يأتِ ليلقّن تعليماً جديداً، بل إنّ الآب أرسله من أعماق الحياة الثالوثيّة تنفيذاً لمخطّط خلاصيّ أزليّ، لكي يجمع في ذاته كلّ ما هو موجود، ويخلق بشريّة جديدة.وبذلك تبطل النظريّتان الخاطئتان اللتان جعلتا

من الكون الماديّ كلّ شيء أو لا شيء.واحدة ألّهته، وأُخرى أَقصته عن اللّه، وقذفت به إِلى أَحضان العدم.وها إِنّ الإِبن جاء ليوحّد كلّ شيء، ويوحّد الكون باللّه، ويصبح رباط هذه الوحدة.وهو الذي أَعلن لنا " سرّ مشيئته، الذي سبق فقصده في نفسه، ليحقّقه عند تمام الأَزمنة: أَي أَن يجمع، تحت رأس واحد، في المسيح، كلّ شيء، ما في السموات، وما على الأَرض ".

خليقة جديدة يراها بولس تخرج من أَحشاء الآب، وقلب الابن والروح القدس.فاللّه ليس فكرة أَفلاطونيّة، ولا هو عمل أَرسطوطاليسيّ صرفٍ، لا يعرف، ولا يحبّ إِلاّ ذاته، ولا هو يحلّق إِلى ارتفاعات عليا فوق العالم، لا بل إِنّه يبارك خليقته، والخليقة تنشد له نشيد تسبيح: " وفيه أَيضاً دعينا، وقد اصطُفينا من قبل، لنكون تسبحةً لمجده، نحن الذين سبقوا فأناطوا رجاءهم بالمسيح "

لقد أَفسد الإِنسان الأَوّل نظام الخليقة، وكان لا بدّ للمسيح من أَن يصلحه، ويصبح مركزه، فبالفداء، ودم المسيح، تشرع حقبة جديدة، وملحمة فائقة.بالتجسّد يكرّس العالم، وبموت يسوع على الصليب يتقدّس.وقد أَشركنا اللّه " في غنى مجد ميراثه الذي يذّخره للقدّيسين " وأَظهر لنا " فرط عظمة قدرته، المتجلّية في عزّة قوّته، التي بسطها في المسيح، إِذ أَنهضه من بين الأَموات، وأَجلسه عن يمينه في السماوات، فوق كلّ رئاسةٍ، وسلطانٍ، وقوّةٍ، وسيادة، وفوق كلّ اسمٍ يُسمّى، ليس في هذا الدهر فقط، بل في الآتي أَيضاً.لقد أَخضع كلّ شيء، تحت قدميه، وأَقامه، فوق كلّ شيء، رأساً للكنيسة، التي هي جسدهُ، وكمال من يكتمل في جميع الكائنات "

لقد أَسّس المسيح جهاز خلاص يمتدّ إِلى العالم أَجمع متمثّلاً في الكنيسة، جسده السرّيّ.ومثلما نتجت الخطيئة الأَصليّة من تضامن البشر، ومن أَواصر الدم التي تربطهم برأس الخليقة الخاطئ، آدم، كذلك لا يمكن أَن يُفهم الفداء الشخصيّ، إِلاّ في إِطار المشاركة في الفداء الشامل، بفضل الاتّحاد الصوفيّ بالمسيح، رأس البشرية المفتداة.

و كما أَنّ المسيح هو ملء اللّه، كذلك الكنيسة هي ملء المسيح، وعلامة اندماجه في العالم، بل هي "ملء من يملأ الجميع بكلّ شيء"، إِنّها جسد المسيح السرّيّ الذي يتخطّى حدود هذا العالم، وأساس عمله الخلاصيّ الشامل، الذي دمّر كلّ حواجز الفرقة والتمييز بين البشر والشعوب والأَجناس.الكنيسة هي عروس المسيح الذي يطهّرها، ويغسلها من أَدرانها، ويقدّسها، ويزوّدها بكلّ الثروات الإِلهيّة.وفي الكنيسة، المؤمنون، أَعضاء الجسد وخلايا الكيان المسيحيّ، يتلقّون الحياة الإِلهيّة ويتبادلونها، وفقاً لإِيحاءات رأسها ومؤسّسها.

و قد أَشركنا اللّه في المجد الذي أسبغه على ابنه، فهو الغنيّ بالرحمة، واللامتناهي في محبّته لنا، " حين كنّا أَمواتاً في الخطيئة، أَحيانا مع المسيح، ومعه أَقامنا، ومعه أَجلسنا في السماوات، في المسيح يسوع، ليُظهر في الدهور المستقبلة غنى نعمته الفائق، بلطفه بنا، في المسيح يسوع. "

و ليس لنا في ذلك أَيّ فضل، ولا نحن استأهلنا هذا الخلاص بأفعالنا بل خلاصنا نعمة من اللّه، تتحقّق من خلال الإِيمان بيسوع: " فأنتم، إِذن، بالنعمة مخلّصون بواسطة الإِيمان، وهذا الإِيمان ليس منكم، بل هو عطيّة من اللّه، وليس هو من الأَعمال، لكي لا يفتخر أَحد.أَجل نحن صنعه، إِذ قد خُلِقنا في المسيح يسوع للأَعمال الصالحة، التي أَعدّها اللّه، من قبلُ، لنسلك فيها ".

و لئن كانت الخليقة المادّيّة طيّعة، إِلاّ أَنّ الإِنسان عاصٍ متمرّد، ممّا يجعل عمل الفداء عسيراً في نفس الفرد، وأَشدّ عسراً لدى الشعوب، وسط المقاومات العنصريّة والوطنيّة.غير أَنّ القدرة التي تجلّت في قيامة الابن كفيلة بالانتصار على هذه المقاومة الدهريّة.وقد نفحنا اللّه، بروحه، عربوناً لتحقيق الخلاص.

يشطر بولس التاريخ إِلى حقبتين: قديمة خالية من المسيح، وحاضرة، مع المسيح.وفي المسيح لم يعُدْ مقرَّبون متمثّلون في اليهود، ولا مُبعَدون متمثّلون في الوثنيّين، هؤلاء خاضعون لروح العالم، وأولئك منعزلون في وهم تفوّقهم، ويقين تبريرهم، بأعمالهم الموافقة للشريعة؛ بل هناك شعب اللّه الجديد، المشرَع على البشريّة المتّحدة في المسيح، كلّها. هناك مدينة اللّه، ورأس عقد بنائها المسيح.وإِن كان الدم يفرّق الأُمم، إِلاّ أَنّ دم يسوع يوحّدها.إِنّ المسيح قد أَنقذ العالم من القنوط واليأس، وبه أُصلحت حلقة عقد الخليقة المحطّمة، وتقدّس وجودها، وبها ساد الخليقة السلام: " لأَنّه هو سلامنا، هو الذي جعل من الشعبيْن واحداً، إِذ نقض الحائط الحاجز بينهما، أي العداوة.وأَزال، في جسده، الشريعة مع وصاياها وأَحكامها، ليكوّن، في نفسه، من الإِثنين، إِنساناً واحداً، جديداً، بإِحلال السلام بينهما، ويصالحهما مع اللّه، كليهما في جسد واحد، بالصليب الذي قتل به العداوة.فلقد جاء وبشّر بالسلام، لكم، أَنتم البعيدين، وللذين كانوا قريبين، لأَنّ لنا، كلَيْنا، به، السبيلَ إِلى الآب، بروح واحد، ومن ثمّ، فلستم، بعدُ، غرباء، ولا نُزَلاء؛ بل أَنتم مواطنو القدّيسين، وأَهل بيت اللّه.أَنتم بناءٌ أَساسه الرسل والأنبياء، ورأس الزاوية يسوع نفسه، الذي فيه يُنسَّق البناء كلّه، ويرتفع هيكلاً مقدّساً، في الربّ. وفيه تندمجون أَنتم في البناء لتصيروا مسكناً للّه، في الروح ".

كم كان بولس نبيّاً بعيد النظر لكي يرسم، وهو قابع بين جدران سجنه، ومع ضآلة عدد المسيحيّين، آنذاك، وهشاشة نفوذهم، تلك اللوحة الأَخّاذة المهيبة للكنيسة، حيث يتجلّى

التفاؤل الإِلهيّ الذي عبّر عنه قول يسوع: " لا تخف أَيّها القطيع الصغير" ! ذلك هو جوهر اللاهوت البولسيّ، القشيب، والذي لا يمتّ بصلة إِلى أَيّ تيّار لاهوتيّ سابق.ومن المحقّق أنّه لم يكن بوسع أَيّ فيلسوف جامع لنظريّات مختلفة، صوْغ مثل هذه الأَفكار، فهي نتاج رؤية من اختبر، في ذاته، عمل الفداء المدهش.

و هكذا مع الرسالتين إِلى الكولوسيّين والأَفسسّين، بات لدينا رؤية مسيحيّة ما ورائيّة، مستقلّة عن الفلسفات الرائجة، واقعيّة، ملتصقة بالواقع الماثل، ولا تترفّع عن مجال النشاط العمليّ.وبمساندة الروح القدس، ولج الفكر المسيحيّ إِلى محراب الأَبديّ، إِلى أَحضان اللّه، وشمل الكائنات المخلوقة، وسما بها إِلى قلب اللّه، مغتـــنياً بكلّ الواقع.

و من رؤية بولس لسموّ المسيحيّ ورفعة وحدة الكنيسة استنتج ضرورة ممارسةٍ أَخلاقيّة موحّدة.فعلى الإِنسان الجديد المتحوّل أَن ينهج نهج حياة مسيحيّة جديدة، في إِطار جسد المسيح الواحد، الذي كان يرى فيه واقعاً لا يقلّ عن واقع وحدة الجنس البشريّ.ورباط الوحدة الروحيّة هو المحبّة، فالخليقة جمعاء، وتاريخ البشريّة كلّها ليسا سوى حركة حبّ تنبعث من قلب اللّه وتعود إِليه.فقوّة المحبّة وحدها كفيلة بالقضاء على جميع مصاعب الحياة، وجميع مواطن وهن الإِنسانيّة.ومن نظرة بولس هذه، استمدّ القدّيس أوغوسطينُس قوله: "إِن تصادمت الأَشياء، في المدى، بعنف، أَطلقوا عنان المحبّة ".

و هذه الرؤية المسيحيّة تفرض نضوجاً فكريّاً ونفسيّاً، وسلوكاً لائقاً بالمسيح: " فلا نكون، بعدُ، أَطفالاً، تتقاذفنا الأَمواج، وتعبثُ بنا كلّ ريح تعليم على هو مكر الناس، وخبثهم في طريق التضليل؛ بل نعتصم بالحقّ في المحبّة، فننمو في كلّ وجه، مرتقين نحو من هو الرأس، أَي المسيح، الذي ينال منه الجسد كلّه التنسيق والوحدة، وبتعاون جميع المفاصل، على حسب العمل المناسب لكلّ عضو، ينشئ لنفسه نموّاً، ويُبنى في المحبّة ".

على المسيحيّ، إِذن، الإِقلاع عن السلوك على غرار الوثنيّين " الذين أَظلمت بصائرهم، وتغرّبوا عن حياة اللّه بسبب الجهل الناجم فيهم عن تصلّب قلوبهم، الذين كلّت ضمائرهم فأَسلموا ذواتهم إِلى العَهَر لارتكاب كلّ نجاسة، في نَهَم لا يرتوي ".بل على المسيحيّ أَن ينهج وفقاً لتعليم المسيح، وللإِنسان الجديد " الذي خُلِق على مثال اللّه في البرّ وقداسة الحقّ "، ومن ثمّ عليه انتباذ الكذب، والبغض، والسرقة، والطمع، والنميمة، والكلام القبيح أو السخيف، والسخرية، بل عليه الالتزام بالرفق، والعطف والتسامح، واللهج بالشكر.

و يقود ذلك بولس إِلى التعرّض لآفة ذلك العصر المتمثّلة في انتشار الزنى واللواط اللذين غالباً ما يؤدّيان إِلى العزوف عن الزواج.وقد أَعاد بولس ربط الزواج بمنبع كلّ حياة،

اللّه.فارتباط الرجل بالمرأة، عبر الزواج، هو رمز لارتباط المسيح بالبشريّة المفتداة.إذ، عندما يُفصل ما جمعه اللّه، يتخلخل الطبيعيّ وفائق الطبيعة معاً، وتنضب جميع ينابيع الحياة.ولكن بفضل العلاقات الحميمة بين الأَزواج، القائمة على تبادل المحبّة والاحترام، التي دعا إليها بولس، وبفضل تقديس هذه العلاقات، أسبغ المسيح تكريساً جديداً على حياة المرأة، وأبرز معنىً جديداً للمجتمع، لم يكن ذلك العصر ليتخيّلها.فالإيمان المشترك يشدّ الزوجين أَحدهما إلى الآخر، ويسكب " أنا " كلٍّ منهما في قلب المسيح ليزيدهما وحدة وارتباطاً.وهكذا وُلد مفهوم جديد للأسرة المسيحيّة، وللعلاقة الجنسيّة السليمة التي تقود إلى الازدهار الشخصيّ.

رؤية سامية للحياة البشريّة وللمجتمع البشريّ استمدّها بولس من توغّله في معرفة المسيح يسوع.

من سجنه في روما ما انفكّ بولس على رأس جهازٍ ينشر فروعه في العالم أجمع، فهو قادر على الإفادة حتّى من ظروفٍ سيّئة.وكان نبأ سجنه قد ذاع في كلّ جماعات الشرق، فصلّت جميعها، في اجتماعاتها، من أجله، وأنفذت إليه رسائل مفعمةً محبّة، وأوفدت إليه ممثّلين عنها يساندونه ويخدمونه، ويطلعونه على أوضاع جماعاتهم، ويتلقّون توجيهاته.وباتت حجرة سجن بولس تضجّ بحركة متّصلة: إخوة يقدمون، وآخرون يعودون، حاملين إرشادات وتوجيهات، ورسائل تُنفَذ إلى كلّ جهة، فيما تتصاعد من الأزقّة روائح المدينة، وضجيج صخبها الدائم، وفيما انتحى زاويةً الحارسُ الرومانيّ، صامتاً، وقد أخذ يترسّخ في يقينه، يوماً فيوماً، أنّ السجين الموكل إليه، ليس رئيس عصابة دوليّة خطيرة، بل هو زعيمٌ روحيّ لمنظّمة كبيرة تصلّي من أجل سلام العالم ورفاهه، وتحرص على مصالح الدولة أكثر من حرص متسنّم قمّة السلطة فيها، عليها.

و أضحى سجن بولس مجمعاً كنسيّاً يضمّ، إلى جانب الرسول، الإنجيليَّيْن لوقا ومرقس، وأرسترخس ممثّلاً كنيسة مقدونية، وتيموثيوس ممثّلاً كنيسة غلاطية، وتيخيكس ممثّلاً كنيسة أفسس، وإيبافراس ممثّلاً كنيسة كولوسّي.ووافى أخيراً إبفرُدتُس ممثّلاً كنيسة فيليبي وحاملاً منها مساعدة ماليّة لبولس.

كنيسة فيليبي هي فتح بولس الأوّل في القارّة الأوروبيّة، وقد تبوّأت، أبداً، من نفسه، مكانةً أثيرة.ولئن هو قاسى، في سبيلها، آلاماً جسديّة مضنيةً، إلاّ أنّه احتفظ منها بذكرى فرحٍ عميق.وحتّى عندما جُلد في تلك المدينة كان ينشد، مع سيلا، في سجنه.وقد عقد الرسول مع مؤمنيها وشائج صداقة حميمة جعلته يقبل منهم، دون أيّة جماعة مسيحيّة أُخرى، مساعدات ماليّة أسعفته بها كلّما ألمّت به ضائقة ماليّة.وعندما تنامى إلى تلك الجماعة أسر بولس المتمادي في روما، سارعت إلى جمع مبلغ كفيل بمساعدته على تخطّي أزمته.ومن المحقّق أن الفضل الأوّل، في تلك المبادرة، يعود إلى ليدية، أولى المؤمنات في فيليبي، التي كانت أبداً أكرم مساعديه، ومعين سخاءٍ لا ينضُب.وكُلّف إبفرُدتُس بإيصال هذه الإعانة، وبالمكوث إلى جانب الرسول لخدمته.

لقد أخذت تلك المبادرة الرقيقة من قلب بولس كلّ مأخذ، وأثلج صدره الاستماع إلى أنباء تلك الجماعة التي كانت تمارس مسيحيّة صادقة لا غبارَ عليها، ثابتةً في الإيمان والمحبّة، مكافحةً ببسالة في سبيل الإنجيل، قلقةً على مصير بولس.غير أنّ تلك الصورة المشرقة كانت تكتنفها بعض الظلال، فهناك حزازات سخيفة بين نسوة، مثل أفوذية وسنديخي،

وهناك محاولات فاشلة يبذلها متهوّدون بغية زرع البلبلة بين المؤمنين، والتي لم تُفضِ إلاّ إلى زيادة الجماعة وحدة وتماسكاً.

وكان إبفرُدتُس نفسه، الذي وافى ممثّلاً كنيسة فيلبي، قد أَنفق كلّ ثروته على خدمة الرسالة.وقد أكبّ على خدمة بولس بمحبّة وغيرة، إلى أن مُني هو نفسه، من حيث لم يحتسب، بعلّة خطيرة كادت تودي به إلى شفا الهلاك، فسهر بولس ولوقا على علاجه وخدمته، وعلى نقاهته الطويلة.وبلغ نبأ اعتلاله إلى الفيليبيّين فتفاقم قلقهم عليه، ممّا أَحزنه، وأَصاب بولس بغمٍّ مضاعف، غمٍّ بسبب سقم ذلك الرجل الطيّب الكريم، وغمّ بسبب غمّ الفيليبيّين عليه.ولكنّ الربّ رئف بهم جميعاً، فتداركه بالشفاء.وما إن استعاد قواه، وبات قادراً على السفر، حتّى سارع بولس لإعادته إلى الفيليبيّين كي يشيع في قلوبهم الطمأنينة والعزاء، ويستمدّ هو، من ذلك، عزاءَه.وزوّده برسالةٍ إليهم تقطر رقّةً، ومودّةً، ونبلاً، وعرفاناً بالجميل، وفرحاً، وتشديداً في الإيمان.

تلك الرسالة، تتميّز عن سائر رسائل بولس – ما خلا بطاقته إلى فيليمون – بالتعبير عن الأنس والمودّة والفرح، فقد أطلق فيها الرسول العنان لقلبه، ولبوحه العاطفيّ، ولمشاعر الفرح التي تترجّع أَصداؤها من أوّل الرسالة حتّى آخرها، فقد كان بولس فرحاً بشفاء إبفرُدتُس، وبفرح الفيليبيّين بهذا الشفاء، وفرحاً بقرب انتهاء أسره الذي، دام، في روما، سنتين، فرحاً بمخاطبة أَحبّاء ومؤمنين، برهنوا عن وفائهم البطوليّ لإيمانهم، ومحضوا بولس حبّاً صافياً، فقامت بينه وبينهم عواطف الأَب نحو أبناءٍ يشدّه إليهم الشغَف، وأبناءٍ تجاه أَبٍ يجلّونه، ويتعلّقون به بكلّ جوارحهم، بحيث لم يستقبلوا أَيّاً من خصومه ومناوئيه، ولم يصغوا إليهم، وواكبوه ببذلهم وسخائهم في مختلف أزماته الرسوليّة، فأسهموا في رسالته، منذ اليوم الأولّ، بلا انقطاع، وباتوا شركاء له في قيوده.كان بولس سعيداً بالتحدُّث إليهم، وما رسالته إلاّ تعبير عن هذه السعادة.

غير أَنّ بولس الذي تميّز بإضفاء العظمة والفرادة على أيّ موضوع يتناوله، قد استطاع، من خلال بوحه، التحليق إلى قمم لاهوتيّة شاهقة، وإلى إرشاد راعويّ فذّ، توخّى به أَن يجعل، من جماعة فيليبي، جماعة مسيحيّة نموذجيّة، لا يني يصلّي لكي تكون محبّتهم على نموٍّ صاعد في المعرفة والإدراك التامّ، حتّى يستطيعوا تمييز القِيَم الحقّة.

و لئن تشابكت، في تلك الرسالة، أوضاع بولس النفسيّة المتباينة، من رجاءٍ مضطرم واستسلام لمصيرٍ مجهول، وتوقّع للموت، إلاّ أَنّ الفرح الروحيّ هو الطاغي عليها، وهو الذي يطبعها بسِمته.فأَقصى ما يتطلّع إليه بولس هو انتصار المسيح، سواء كان موته أو حياته

السبيل إِلى ذلك؛ وسواء كان دافع الذين يبشّرون بالإِنجيل صفاء الطويّة، أو الحسد؛ ومن ثمّ يفيض فرحاً لأَنّ سجنه لم يحُلْ دون انتشار الإِنجيل، بل أَدّى إِلى ازدهاره، فيقول:

" أُريد أن تعلموا، أَيّها الإِخوة، أَنّ أَحوالي قد آلت، بالحريّ، إِلى نجاح الإِنجيل، حتّى باتت قيودي في الإِنجيل مشهورة في دار الولاية كلّها، وسائر الأَنحاء؛ وأَكثر الإِخوة استمدّوا من قيودي، ثقةً بالربّ، فازدادوا جرأةً على إِذاعة كلمة اللّه بغير خوف.لا جَرَم أَنّ فئة منهم يكرزون بالمسيح، بروح الحسد والخصام، بيد أَنّ الآخرين بنيّة صالحة.فهؤلاء يبشّرون عن محبّة، عالمين أَنّي قد نُصبتُ للدفاع، هكذا، عن الإِنجيل؛ وأَمّا أولئك، فعن منازعة يبشّرون بالمسيح، وعلى غير خلوص في الطويّة، ظانّين بذلك أَنّهم يزيدون تثقيلاً على قيودي.ولكن، ماذا عليّ ! حسبْي أَنّ المسيح يُبشَّر به على كلّ وجه، بغَرَضٍ كان أَم بإِخلاص، بهذا أَفرح، بل سأفرح أَيضاً...اليوم، كما في كلّ حين، أَتصرّف بجرأة، لكي يُمجَّد المسيح في جسدي، بالحياة كان أم بالممات.***لأَنّ الحياة لي هي المسيح، والموت لي ربح."***

لقد بلغ شغَف بولس بيسوع، بحيث تساوت لديه الحياة والموت، فلا فضل لأَحدهما على الآخر إِلاّ بقدر ما يخدم يسوع ويقرّب الرسول منه.وباتت تتجاذبه، باستمرار، مشاعر متناقضة، فصُبُوُّه إِلى الاندماج بيسوع يحمله على تمنّي الموت الذي يوفّر له راحة أَبديّة في أَحضان الربّ، والتصاقاً بيسوع حبيبه، ومنتهى رجائه؛ غير أَنّ دواعي الرسالة تعود فتتغلّب، فيهتف: " إِن كانت الحياة في الجسد تهيّئ لي عملاً مثمراً، فلا أَدري ماذا أَختار...فأنا واقع بين عاملَيْن: أَرغب في الانطلاق، فأكون مع المسيح، وهذا هو الأَفضل بكثير، بيد أَنّ التلبُّث في الجسد أَشدّ لزوماً من أَجلكم.ولاعتقادي بهذا، أَنا عالمٌ بأَنّي سألبث وأَقيم معكم جميعاً لأَجل نموّكم، وفرح إِيمانكم..."

ليس ما يسعد بولس سوى انتشار حبّ يسوع، وليس له من مطمع شخصيّ، بل إِنّ كلّ مصالحه تتشابك مع مصالح المسيح.ومع ذلك، هو ممزّق بين موتٍ يقرّبه، إِلى الأَبد، من معلّمه وحبيبه، وحياةٍ تمكّنه من تعريف العالم بحبّه الفائق، ولو هي حفلت بالشدائد والمضايقات.

و يظلّ هاجسه أَن ينتفي، بين أَبنائه الفيليبيّين، كلّ خلافٍ وفرقة؛ ومنتهى فرحه أَن يكونوا " على رأي واحد، فتكون لهم محبّة واحدة، ونفس واحدة، وفكر واحد ".فلا يفعلوا شيئاً بدافع المنازعة أو العُجْب، بل فليتّضع كلٌّ منهم ويحسب الآخرين خيراً منه، ولا ينشد كلّ واحد مصالحه الخاصّة، بل فليكن لديهم من الاستعدادات ما في المسيح يسوع.وبهذه المناسبة ينشد بولس نشيد المسيح، الذي، ربّما، كان مألوفاً في أَثناء اجتماعات المؤمنين الأَوّلين، وهو يشيد بأَزليّة الربّ، وتواضعه الذي تجلّى في تجسّده، وتماديه في التواضع الذي حدا به إِلى

الارتضاء بموت يحاكي موت العبيد، ويشيد أَيضاً بتمجيده، وعبادة الكون له، وسموّ اسمه فوق كلّ اسم :

" فهو القائم في صورة اللّه، لم يعتدّ مساواته للّه اختلاساً،

بل لاشى ذاته، آخذاً صورة عبد، صائراً شبيهاً بالبشر، فوُجد كإِنسانٍ في الهيئة،

ووضع نفسه، وصار طائعاً حتّى الموت، موتِ الصليب.

لذلك رفعه اللّه رفعةً فائقة،

و أَنعم عليه بالاسم الذي يفوق كلّ اسم،

لكي تجثو لاسم يسوع، كلّ ركبة ممّا في السماوات، وعلى الأَرض، وتحت الأَرض،

و يعترف كلّ لسانٍ بأَنّ يسوع المسيح هو ربٌّ، لمجد اللّه الآب."

و بذلك أَدخل بولس الفيليبيّين إِلى محراب سرّ المسيح، فهو صورة الآب غير المخلوقة، وله، في الرتبة الإِلهيّة، والمجد الإِلهيّ، حقٌّ مطلق، ولئن كان آدم الأوّل حاول امتلاك الحياة الإِلهيّة، استلاباً وسرقةً، كثمرة محرّمة عليه، فليس الأَمر كذلك، لآدم الآخر، فبولادته الأَزليّة من أَحشاء الآب، امتلك، بحقٍّ طبيعيّ، نسَباً إِلهيّاً.ومع ذلك تجرّد طوعاً عن بهائه الظاهر، وأَخفى ألوهته تحت ستار العبوديّة، و" قفز " من لا محدوده، إِلى محدود الخليقة البشريّة.لا بل توغّل في التجرّد، فبعد أَن لبس طبيعتنا البشريّة، عزف عن كلّ ما من شأنه جعل الحياة عذبة، مُستساغة، وصار وضيعاً، فقيراً، طائعاً، توّاقاً إِلى الانحدار حتّى موت العبيد، وتقبّل كلّ ما يجعل الحياة مريعة، ونهل من كأس العذاب حتّى الجمام، حتّى الحثالة.ونحن، مع وضاعتنا، نجسر، في صغارة، على الادّعاء بحقوقنا، ونعاند، ونرفض التفاهم.فلنبق أَنظارنا شاخصة إِلى المسيح، الذي قفز قفزة ثانية إِلى افتدائنا بالصليب؛ ولنتأمّل عاقبة تنازله هذه، إِذ رفعه الآب بمقدار ما تصاغر، وارتقى بإنسانيّته إِلى العرش الإِلهيّ، ومنحه لقب الربّ، ملك الملوك، وسيّد السادة، والمالك على جميع الممالك في السماوات، وعلى الأَرض، وفي الجحيم.

و بعد هذا التحليق في سماوات اللّه، يعود بولس إِلى مخاطبة إِخوته الفيليبيّين بعذوبة ورقّة، ويناشدهم أَن يظلّوا مخلصين لإِيمانهم، في غيابه، مثلما كانوا في حضوره، فهو نفسه يتطلّع إِلى خلاصهم برعدةٍ وخوف، فعليهم أَن يحملوا الخلاص محمل الجدّ، لكي يكونوا وسط ظلمات مخازي الحكم النيروني، منارات تشعّ وتنير.إِنّ خلاصهم وقداستهم من عظمة الشأن لديه، بحيث " لو اقتضى الأَمر أَن يراق دمي ذبيحةً مقرّبة في سبيل إِيمانكم، لفرحتُ وشاركتكم الفرح جميعاً، فكذلك افرحوا أَنتم، وشاركوني الفرح".

و بغتةً ينتقل بولس إلى موضوع آخر، وترتدي لهجته نبرة قاسية، حادّة، كيف لا، وهو يتحدَّث عن المتهوّدين الدخلاء الذين دأبوا، منذ مطلع رسالته، على نثر الزؤان في حقول قمحه الطيّبة، وعلى محاولة تقويض ما يبنيه، وزعزعة إيمان أبنائه، ومحاولة اغتيال الحرّيّة التي جاءهم بها يسوع والعودة بهم إلى نير الشريعة التي غدت بالية.

و من حقّ بولس أن يخشى منهم على أحبّائه الفيليبيّين المخلصين الذين يحذّرهم، بعبارات قاسية: "إحذروا الكلاب ! إحذروا العملة الأشرار ! إحذروا البَتْر ! "ويردّ بولس على أولئك الذين يدّعون أنّ الختان هو علامة الانتساب إلى اللّه بقوله: " إنّ ذوي الختان الصحيح إنّما هم نحن: العابدين بحسب روح اللّه، المستمدّين الفخر من المسيح يسوع، غير المعتمدين على الجسد "

و يخاطب بولس أولئك المدّعين قائلاً: " فلئن ظنّ أحدٌ غيري أنّه حقيق بأن يعتمد على الجسد، فأنا أحقّ منه بذلك: لقد خُتِنْتُ في اليوم الثامن، وأنا من ذريّة إسرائيل، من سبط بنيامين، عبرانيّ ابن عبرانيّ، ومن جهة الناموس فرّيسيّ؛ ومن جهة الغيرة، مضطهد للكنيسة، ومن جهة برّ الناموس، بغير لوم.بيد أنّ هذه كلّها التي كنت أعدّها ربحاً، بتّ أعدّها خسراناً، من أجل المسيح.بل أعدّ كلّ شيء خسراناً إزاء هذا الربح الفائق: معرفة المسيح يسوع، ربّي، الذي، لأجله خسرتُ كلّ شيء؛ وفي كلّ شيء لا أرى سوى أقذار حتّى أربح المسيح..."

إنّه، مذ ألقى عليه يسوع قبضته، غدا يحاكي متسابق " الماراثون "، يجري ليلحق بيسوع، غايته، ويجري، ولا يكفّ عن الجري، وفي جريه، لا يلوي على شيءٍ آخر سوى هدفه: " أمرٌ واحد اجتهد فيه: أن أنسى ما ورائي، وأمتدّ إلى ما أمامي، ساعياً نحو الهدف، بغية الفوز بالجائزة التي هي دعوة اللّه السماويّة في المسيح يسوع.إنّه، مع تقدّمه في السنّ، ما زال يتطلّع إلى المضيّ قدُماً في مضمار القداسة والتشبّه بالمسيح، مسفراً عن شخصيّته الفذّة التي تأبى كلّ صغارة ورداءة وتوانٍ، وتجزئة، شخصيّة " حجّاج المُطلَق " الذين يهبون، بلا حساب، ذواتهم لما يعدّونه حقيقةً وصلاحاً.

و يدعو الجميع إلى الاقتداء به، في سعيه هذا، وفي تشبّهه بيسوع، كي يتميّزوا عن "أعداء صليب المسيح، الذين إلههم بطنهم، ومجدهم في ما فيه خزيهم، وهمّهم في الأرضيّات.أمّا نحن فموطننا في السماوات التي منها ننتظر مخلّصنا، الربّ يسوع المسيح".

و يختم بولس رسالته بالدعوة إلى الفرح الذي يفوح من كلّ رسالته، ومَنْ أحقّ بالفرح من المسيحيّ الذي يسعى في سبيل قضيّة إلهيّة سامية، ويؤمن باللّه، والأبديّة، والمطلق، حيث يتلاشى الأنا، ويذوب في الكلّ ؟ ولا يني بولس يردّد: " إفرحوا في الربّ على الدوام "،

فالربّ هو منبع كلّ فرح.لقد خلق الكون بفرحٍ صافٍ نابع من ذاته.ولئن لم يكن الفرح فضيلةً، في ذاته، غير أنّه الجوّ الذي تزدهر فيه الفضيلة، والنور الذي يغمرها.والفرح المسيحيّ يشمل كلّ ما هو، في الخليقة جميل، وعظيم، وطيّب.والمسيحيّ هو الإنسان غير المجزّأ، الذي يعيش في سلام مع اللّه ومع الآخرين، ويرتعش مع كلّ ما هو خيّر، ويرتبط بكلّ ما هو جميل، ونبيلٌ، وفاضل.

و أخيراً يعبّر بولس، في كرامة ونبل، عن شكره للمساعدة المادّ يّة التي أَسعفه بها الفيليبيـــيّون، وذلك في لهجة تجعل العاطي أوفر غنًى، على مستوىً أسمى.

المفهوم المسيحيّ الذي يتوهّج مثل جوهرة نادرة ثمينة، من خلال هذه الرسالة، يظهر مدى تطوّر معرفة بولس للمسيح، منذ رؤياه في دمشق، حيث أَدرك أَن ليس ما يضاهي يسوع، ولا ما يفوقه، مع كونه إِنساناً بسيطاً، داس أَرض فلسطين لسنواتٍ خلت.وعندما ينكر بولس على عظماء الأَرض وأَباطرتها، إِدّعاءهم الألوهة، ويحصرها في يسوع، فهو إِنّما يقي الألوهة من التدنيس، والإِنسانيّة من الانحطاط.

أَمّا نبرة المحبّة اللهوف، والفرح الساجي، التي تنبعث من خلال كلّ تلك الرسالة، فقد أَدهشت بعض من أَكبّوا على دراستها، فكتب أَحدهم:

" ليست الرسالة إِلى الفيليبيـــيّين مجرّد انعكاسٍ صادق لخصال القدّيس بولس الشخصيّة، ولاستنارته الروحيّة، ولعواطفه الكريمة، وحنوّه، وتهذيبه الرقيق، واستقلاليّته الصريحة، ولاندفاعه التامّ في خدمة سيّده.وليست مجرّد صرحٍ مبنيّ على مناعة الإِنجيل، ولا تتدنّى، في شيءٍ، عن أَيٍّ من الكتابات الرسوليّة.فما كادت تتصرَّم ثلاثون سنة على صلب يسوع، صلبَ المجرمين، في مقاطعة نائية من الإِمبراطوريّة؛ وما كادت تنقضي عشر سنوات مذ روى يهوديّ من طرسوس، للمرَّة الأُولى، في فيليبي، قصّة الموت الشنيع، الذي لاقاه ذلك المصلوب.فما كانت النتيجة ؟ تصوّروا شخصاً لم يكن له اسم يسوع، حتّئذٍ، سوى اسمٍ من الأَسماء، وتصوّروا أَنّ ظروفاً دفعته إِلى دراسة اللوحة المؤثّرة التي تمثّل العلاقات بين القدّيس بولس، ورفاق رسالته، والمهتَدين على يده، فراح يتساءَل أَيّة قدرة مرئيّة استطاعت الوصول إِلى هذه النتائج الرائعة...

إِنّ لهجة الرسول توفّر لنا الإِجابة على هذا التساؤل، مظهرةً أَنّ هذه القدرة إِنّما هي "قدرة قيامة المسيح ".فالمحبّة المتبادلة تنساب من " أَحشاء يسوع المسيح "، وتنبض بنبضاته، وتعيش بحياته.وعندما كان وثنيّو ذلك العصر يدهشون " كيف يحبّ المسيحيّون بعضهم بعضاً "، كانوا يقفون أَمام لغزٍ مستعصٍ على الحلّ، وكانت تخفى عنهم القدرة الكفيلة بتحقيق هذه

المعجزة.فوصيّة المحبّة لم تكن، في الواقع، جديدة، بل كانت تخاطب أَقدم مشاعر القلب البشريّ وأَصدقها؛ ومع ذلك، غدت تلك الوصيّة جديدة، لأَنّها استمدّت من حياة المسيح، وموته، وقيامته، لا نموذج تكريسٍ فحسب، بل، أيضاً، قدرة وحيويّة، لم يعهد أَحدٌ لهما مثيلاً من قبل".

الفصل الثالث عشر: الأَيّام الأَخيرة

إِطلاق سبيل

" أَقام بولس (في روما) عامين كاملين في البيت الذي استأجره، وكان يستقبل جميع الذين يقصدونه، منادياً بملكوت اللّه، ومعلّماً بكلّ جرأة، وبغير مانع، ما يتعلّق بالربّ يسوع".

بهذه النغمة المتفائلة ختم لوقا سفر " أَعمال الرسل "، مغفلاً مسيرة بولس اللاحقة، التي، للأَسف، لم يطل بها الأَمد كثيراً، حتّى استشهاده، تاركاً الظلال الكثيفة تخيّم على هذه الحقبة من حياة الرسول، لا يلقي بعض ضوءٍ عليها، سوى تلميحات من رسائل بولس الأَخيرة، وبعض أَقوال المسؤولين والمؤرّخين المسيحيّين الأَوّلين.

و فيما بولس ما زال سجيناً كانت أولى أَعراض الاحتضار ترتسم على وجه الإِمبراطوريّة الرومانيّة، إِذ كانت بقايا الروح تتلاشى منها، وتحلّ محلّ الدين فيها، عبادة الدولة، ويُحاول القوم إِسباغ طابع ملموس على الجنون السائد، عبر صروح مفرطة الضخامة، أُسطوريّة البذخ؛ ونيرون قد شرع يخطّط لإِشادة قصر من ذهب.وكانت روما في نشوة دائمة من احتفالات متواصلة، وأَلعاب وحشيّة.وبات كلّ شيءٍ يُباع بالمال: مصالح الدولة، والحرّيّات المدنيّة، وأَصوات القضاة، والقَسَم العسكريّ، وشرف النساء...

و في تلك الأَثناء كان الرجل المدرك أَنّ حكم اللّه سيحلّ قريباً بروما وبأورشليم، راسفاً بالأغلال منذ سنتين؛ فقضيّته دينيّة صرف، وهي تتعلّق بيهوديّ غريب، ومن ثمّ لا تثير اهتمام المحكمة الأَمبراطوريّة؛ فبعد أَن أَقصى نيرون الوصيّيْن النبيلَيْن اللّذَيْن كانا يلجمان نزعاته الشرّيرة، وحَمَلَهما على تناول السمّ، استعاض عنهما بآخرين هما: تيجيلّينُس، شريكه في جرائمه الوحشيّة، وفينوس روفُس، وهو رجلٌ مستقيم، ولكنّه واهن الشخصيّة.وإِذ كان تيجيلّينس مشغولاً بحبك الدسائس، انتهت قضيّة بولس بين يدي روفُس.

و كانت قد آنست أَشهر سجن الرسول الأَخيرة عودة تلميذه المحبوب تيموثيوس، ومكوثه إِلى جانبه.ويقال أَنّ أَحد حرّاسه كوارتُس وزوجته كنديدا، تأَثّرا بتعليمه، واعتنقا الدين

المسيحيّ.وكان ذلك الحارس قد عرض، يوماً، على الرسول الفرار به إِلى حيث يشاء، ولكنّ بولس رفض العرض محتجّاً أنّه لو شاء الربّ ذلك، لأوحى إِليه به. وما لبث اللّه أَن أَعلن له مشيئته، عبر قرار قضائيّ.فبعد سنوات من سجنه الاحترازيّ، وإِذ لم يتقدّم أَحدٌ بالادّعاء عليه، وإِذ لم يكن يجوز تمديد أسره، أكبّ أَحد القضاة على ملفّه، فلم يعثر فيه على أَدلّة إِدانة، إِذ انحصرت التهمة المنسوبة إليه في أَنّ شَغَباً شعبيّاً نشب بشأنه، ولم يكن هو المسؤول عنه، بل طائفة من اليهود المتطرّفين، اختلفوا معه في قضايا دينيّة لا شأن للقضاء الرومانيّ بها؛ إِذ لم يكن، بعدُ، اعتناق الدين المسيحيّ يعدّ، رسميّاً، جريمة بحقّ الدولة.

و من المرجّح أَنّ بولس لم يبقَ مكتوف اليدين، حيالَ أَسره، بل كتب، وراجع، ودافع عن نفسه، بصفته ضحيّة خطأ قضائيّ، ممّا حمل القضاة على البتّ في أَمره.وأَخيراً وافاه الفَرَج، وسمع الكلمات الأَربع التي طالما انتظرها: " أَيّها المواطن، أَنت حرّ ".ولو كان إِطلاق سراحه تلكّأ سنة واحدة، لكان بولس بين من استلّهم تيجيلّينُس الفاسد من السجون لكي يجعل منهم طعماً للوحوش الجائعة في المدرّجات، وفرجةً لتسلية حضورٍ فقد كلّ حسّ إِنسانيّ، وإِمبراطورٍ شاذّ قَرِمٍ إِلى الدماء.

أحلام كثيرة كانت تراود خاطر بولس، وهواجس عديدة كانت تطارده، في أعقاب الإِفراج عنه.ويسوغ الاعتقاد أَنّه، بعد أَن تفقّد أَحوال كنيسة روما، شاكراً، مشدّداً العزائم، مرسّخاً الإِيمان، تطلّع ذلك الرحّالة الذي لم يتسرّب الكَلَل يوماً إِلى همّته، ولم يجد التواني إِلى لجم اندفاعه سبيلاً، إِلى تحقيق الحلم الغالي الذي طالما ملك عليه نفسه، وهو نشر الإِنجيل إِلى أَقصى الغرب المعروف آنذاك، أَي إِسبانيا.

و استحوذ الأَلم على جماعة المؤمنين في روما، عندما علموا بأَنّ بولس سيغادرهم، وربّما لن تكتب لهم، من بعدُ، مشاهدته.وقد بلغ الأَسى ببعضهم أَن " مزّقوا ثيابهم ".ولكنّه جهد في تعزيتهم، واستفاض في التحدّث إِليهم، وصلّى معهم، ثمّ كسر الخبز واقتسمه معهم.ويوم رحيله شيّعه جمع غفير إِلى مرفأ أوستيا، واستمعوا، مرَّة أَخيرة، إِلى أَقواله السامية المنعشة، وظلّوا يلوّحون له حتّى غيّبه اليمّ عن أَبصارهم.وكانوا قد زوّدوه بكلّ ما يحتاج إِليه، وباثنين من الإِخوة كي يسهرا على خدمته.

و لا ريب أَنّ بولس قد بذر كلمة الخلاص في كلّ مرفأ توقّف فيه: جنوى، وناربون، ومرسيليا، إِلى أَن انتهى إِلى ترّاغونا حيث حطّ الرحال، وغرس صليب المسيح. وتؤكّد التقاليد المحلّيّة مرور بولس بإِسبانيا، وسيامته روفُس أسقفاً عليها.غير أَنّ الغموض يكتنف كلّ ما يتعلّق بتفاصيل تلك الزيارة ونجاحها.

و كانت جزيرة ***كريت*** أَحد مطارح رسالته الجديدة.ففي أَثناء إِبحاره إِلى روما كانت السفينة التي تقلّه قد لجأت إِلى تلك الجزيرة التي لوّحت له بأفق رسالة واعد.وانتهز أوّل سانحة كي يزورها برفقة تيطس.

لم تكن سمعة الكريتيّين عطرة، وكان أَحد شعرائهم قد كرّسها، قبل خمسة قرون، بقوله: " الكريتيّون كذّابون أَبداً، ووحوش خبيثة، وبطون كسلى ".ولمّا عرفهم بولس عن كثب، أيّد هذا الوصف.ومع ذلك كانت بذرة الإنجيل قد شرعت تثمر في تلك الديار، وقد حملها إِليها أبناؤها الذين شهدوا معجزات العنصرة المسيحيّة الأُولى، في أورشليم.ولكنّها كانت مسيحيّة فوضويّة، جاهلة، تفتقر إِلى المعرفة الحقّة، والتنظيم، إِذ لم يكن معتنقوها يعرفون سوى الزهيد عن المسيح.ومن ثمّ كان ميدان العمل فيها فسيحاً، فعكف بولس على تثقيف الكريتيّين على المسيحيّة الحقّة، ونظّم جماعاتها، وساند خطواتهم الأُولى على السراط القويم، وإِذ لم يكن قادراً على المكوث فيها طويلاً، أوكل إِلى تلميذه الأمين تيطس مواصلة العمل، بعد أَن أَقامه أُسقفاً على الجزيرة، وكلّفه بإِكمال التنظيم، وبتعيين شيوخ ورعاة في كلّ مدينة.وبعد

أن بارحه، ظلّ همّه وهمّ الجماعة الجديدة يواكبه.وبدافع حرصه على سير الأُمور على خير نسق، أَنفذ إِليه رسالة معروفة بالرسالة إِلى تيطس، مشدّداً إِيمانه، ومستفيضاً في تحديد السلوك الذي يحسن الالتزام به.فقد كان يخشى على تلك الكنيسة الفتيّة من هجمات المتهوّدين الخبيثة، ومن ثمّ كان حريصاً على تجهيزها بتنظيم منيع وتعليم راسخ تستطيع بهما مواجهة مناورات أَعداء يسوع.

ثمّ يمّم شطر أَفسس، كي يتفقّد أَحوال كنيسة كلّفه تأسيسها جمّاً من الجهود والأَسى.وكان المتهوّدون قد انتهزوا غيابه عنها الذي امتدّ ستّ سنوات لينفثوا سمومهم، ويروّجوا أَضاليلهم التي وصفها بولس بالآكلة التي تلتهم الخلايا السليمة.وكان لا بدّ من عملٍ حازم، فاضطرّ بولس إِلى إِلقاء الحرم على ضالَّيْن مضلِّلَيْن، أَصرّا على المضيّ قُدُماً في غيّهما، وهما هيمينايس والإِسكندر.وكانت تلك هي المرّة الأُولى والأَخيرة التي يلجأ بولس فيها إِلى مثل هذا السلوك الذي سيكلّفه حياته.وعندما اضطرّ الرسول إِلى مغادرة أفسس، لم يكن، بعدُ، قد ارتاح إِلى سلامة الوضع فيها، فترك فيها تيموثيوس كي يكمل إِصلاح ما فسدَ، ويوطّد التعليم الصحيح، والالتزام بالمبادئ المسيحيّة السليمة.وإِذ كان تيموثيوس ما برح خجولاً وطريّ العود، في مواجهة وضعٍ عسير متأزّم، أَنفذ إِليه، من المحطّة الأولى التي انتهى إِليها، رسالة تشجيع، حافلة بالنصائح، والإرشاد إِلى أسلوب مكافحة بعض الأَضاليل التي قد ينزلق إِليها الأَفسسيّون، والحفاظ، داخل الجماعة، ولا سيّما بين خدّام الكنيسة، على الانضباط والحسّ بالمسؤوليّة.

و من أفسس انطلق بولس إِلى كولوسّي القريبة تنفيذاً لوعده لفيليمون، ولا ريب أنّه توقّف في ذهابه وإِيابه بكنيستي اللاذقيّة وهييرابوليس اللتين لم يؤسّسهما بنفسه ولكنّه أَنفذ إِليهما رسائل.

و يُعتقد أَنّ بولس زار أَيضاً، حينذاك، كنائس مقدونية واليونان، وواصل سفره إِلى إِيليرية ودلماسية.

في تلك الأَثناء نشب حريق روما الهائل الذي عُزيت مسؤوليّته، افتئاتاً، إِلى المسيحيّين، لتغطية جريمة الإِمبراطور المأفون نيرون، ممّا أَثار عاصفة هوجاء هزّ الكنيسة بأَكملها، إِذ امتدّ اضطهاد المسيحيّين إِلى كلّ أَرجاء الأَمبراطوريّة، وأَصاب بمآسيه وأهواله لا مسيحيّي روما فحسب، بل أَيضاً مسيحيّي آسية الصغرى، والبنط، وغلاطية وكبادوكية، وبيثينية؛ وفي ذلك الوقت الذي كان مجرّد إعلان إِنسان عن مسيحيّته يعرّضه لخطر داهم، كان ذلك الرسول الباسل، يحتفظ بثقة مطلقة في النصر النهائيّ، ويتابع حراثة أَرض الإِمبراطوريّة، باذراً فيها بذور الإِنجيل، موكلاً إِلى المسيح مهمّة إِنباتها وإِنمائها.

روما تحترق، والمسيحيّون أيضاً

في ليلة 18–19 تمّوز 64 شبّ حريق هائل في العديد من أَحياء روما، على رقعة لم يُشهد، قطّ، مثل اتّساعها، فقد اشتعلت ثماني بؤر حريق في آنٍ واحد.وغذّتها وأَجّجتها مؤن الزيت الوفيرة في الأَحياء التجاريّة، التي انطلقت منها الشرارات الأولى، ونشرتها ريح هوجاء إِلى أَحد عشر حيّاً من أَحياء روما الأَربعة عشر.وسحابة مئة وخمسين ساعة ساد المدينةَ الرعبُ، وانطلقت زرافات من البشر المذعورين يجرون في كلّ اتّجاه، وهم يزعقون، ملتمسين، عبثاً، منافذ نجاة.وفي أَحشاء الدخان الكثيف الخانق كانت تُلتهَم آلاف أَجساد الفقراء الأَبرياء، وتنهار ذكريات ثمينة من الماضي، من معابد وقصور.وحتّى بعد قمع جماح اللهيب، ظلّت روائح الكارثة، ونهاية العالم، تحوم فوق المدينة.

لم يصدّق أَحدٌ أَنّ الحريق شبّ صدفة، بل سرعان ما شاع أَنّ جنوداً شوهدوا، حاملين المشاعل، ينشرون الحريق في كلّ مكان، عوضاً عن قمعه، وكان اسمٌ واحد مشؤوم ينتقل من شفة إِلى شفة.فمنذ نحو سنتين كان حكم نيرون يرتدي، على نحوٍ فاضح، وجه المجزرة الدامية، التي سيحفظ التاريخ ذكرى جنونها البغيض.فقد كان الإِمبراطور المجنون قد أَمر بقتل أَحد مستشاريه بورّوس، وأَقصى الآخر، الفيلسوف سينيكا، وتأَلّق نجم مساعده الجديد الحقير تيجيلّينُس السفّاح.ومذّاك أَمست الجرائم المروّعة أَحداثاً يوميّة، ومن أَشدّها بشاعة تلك التي يقترفها الإِمبراطور بيديه الملطّختين، مثل تشهيره بزوجته الشرعيّة أوكتافيا، ابنة كلوديوس، وقطعه رأسها لتقديمه هديّة لعشيقته.وكانت الشائعات تردّد قوله: " فليعرف العالم أَجمع أَنّ الإِمبراطور قادر على كلّ شيء ". وعشيّة الحريق كان قد تغنّى بقول أَحد الشعراء: " فلتصبح الأَرض كلّها طعماً للنّار ".وقيل، أَيضاً، أَنّه شوهد، في غمرة استعار الحريق، على قمّة برج، في زيّ ممثّل مسرحيّ، يعزف على القيثار، منشداً قصيدة نظمها بنفسه حول حريق طروادة.

اتّضحت للجميع مسؤوليّة نيرون الشخصيّة عن كارثة الحريق، فاستحوذ عليه الذعر، وعقد الخوف من غضب الشعب أَحشاءه، فراح يبحث عن كبش فداء، يُسند إِليه التهمة، ويحوّل عليه نقمة الشعب.وهبّ أَصدقاؤه اليهود لنجدته، فألصقوا التهمة بالمسيحيّين، أو بالحريّ، بمن نجا منهم من الحريق.وقد بات افتراء اليهود واضحاً للجميع، ممّا حمل القدّيس يوحنّا، في رؤياه، على وصف مجمع اليهود بأَنّه " مجمع الشيطان.يقولون إِنّهم يهود، وما هم إِلاّ كذّابون".

و قد تجلّى كذبهم الوقح من خلال الافتراءات التي روّجوها عن المسيحيّين فبما أَنّ هؤلاء كانوا يقبّلون بعضهم بعضاً قبلة السلام عندما يلتقون للاحتفال بالإِفخارستيّا، أَشاعوا عنهم أَنّهم يمارسون، فيما بينهم، علاقات مشينة؛ وبما أَنّهم يؤمنون بأَنّ الخبز والخمر اللّذين يقتسمونهما هما جسد ربّهم ودمه، افتروا عليهم بأَنّهم أَكلة لحومٍ بشريّة، وأَنّهم يغطّون بالدقيق جسد طفل، ثمّ يذبحونه، ويلتهمونه، وهو ما زال يختلج ! فعلام لا تُضاف إِلى هذه الافتراءات واحدة أُخرى تتهمهم بإِحراق روما، وتقدّمهم ضحيّة لغضب الجماهير!

ووجد نيرون وزمرته، في هذه الافتراءات، المخرج المنشود، يموّهون به جريمتهم الشنيعة ويصرفون عن ذواتهم نقمة الشعب.وإِذ كان كثيرون من الرومانيّين الوثنيّين يخلطون بين اليهود والمسيحيّين، فقد رأوا، في ذلك الاتّهام، سانحة لينفّسوا عن بغضهم لليهود، المتراكم منذ أَجيال، بصبّه على المسيحيّين الأَبرياء الذين إِنّما أَضرموا، في روما، ناراً من نمطٍ آخر أَتت على الشرور والنجاسات وأَلهبت مشاعر المحبّة والإِنسانيّة والتقوى.

و أَطلق نيرون حملةً واسعة النطاق، للقبض على المسيحيّين، وفي معزلٍ عن أَيّ حقٍّ أو محاكمة، سامهم من وحشيّ العذاب أَلواناً، عسى أَن يشي الضعفاء منهم بإِخوتهم.وفي منتصف آب 64، ولم يكن قد مضى شهر على الحريق، بدأت احتفالات الهول، وتفتّقت عبقريّة ساديّة، تمتلك سلطة مطلقة، عن أَبشع مشاهد الشراسة، وعن كوابيس حافلة بالرعب.فلم يقتصر الطغاة المجرمون على اعتقال الضحايا، والتنكيل بهم، وقطع رؤوسهم، وصلبهم في مكان السيرك الإِمبراطوريّ، حيث تنهض، اليوم، كاتدرائيّة القدّيس بطرس؛ بل نُظّمتْ، أَيضاً، حفلات صيد في الحدائق الإِمبراطوريّة، كانت طرائدها مسيحيّين خيطت حول أَجسادهم جلود حيوانات، وأُطلقت في إِثرهم كلاب جائعة، وكواسر، تمزّق أَشلاءهم شرّ ممزّق.

و مُثــّلت أَكثر مشاهد الأَساطير الميثيولوجيّة فسقاً، وقُسرت مسيحيّات، عنوة، على لعب أدوارها، متحمّلات أَقصى دركات المهانة.وفي ليالي السمر، كان المجنون المتوّج، نيرون، يجوب حدائقه في زيّ حوذيّ يقود عربة، تنير دربه أَجساد مسيحيّين طليت بالقير، ورفعت على سوارٍ وأُشعلت لتكون للإِمبراطور الوحش مشاعل حيّة.

أُلوف من المسيحيّين وقعوا ضحايا ذلك الاضطهاد البربريّ، ومنهم، ولاريب، بعض الذين أنفذ إِليهم بولس تحيّاته، في رسالته إِلى الرومانيّين.ولا يُعرف من الناجين سوى أكيلا وبريسكيلا اللّذين بعث إِليهما بولس بتحيّاته من أَفسس، عبر رسالته الثانية إِلى تيموثيوس.أَمّا الذين نجوا ومكثوا، لاطين، في روما، فلطالما عُيِّروا، افتئاتاً وبهتاناً، بإِحراق المدينة.

و مذّاك بدأ صراع بين الحضارة القديمة، وقوّةٍ روحيّة تتخطّاها بما لا يُقاس. وقد فوّتت روما الإمبراطوريّة فرصة الإفادة من تلك القوّة الوحيدة الكفيلة بإنقاذ مصيرها من الضياع، وسانحة التعاون مع الدين الوحيد القادر على لمّ شمل جميع الفوارق الوطنيّة والإقليميّة، من غير القضاء على مزاياها الحميدة، وتوحيد العالم أجمع بأواصر حضارة إنسانيّة، وملاط حبٍّ سامٍ.

و لم يخفَ على العديد من المثقّفين الرومانيّين وحكمائهم، أنَّ عالَماً قشيباً، مجهولاً، كان يبزغ من خلال " بسمة مسيحيّ متواضع، تستعصي على الفهم ". فقد كانوا يستشفّون إشراق هذا العالم، ولو عجز مفهومهم للدولة الكلّيّة عن حصره في إطار شرائعهم الضنك.

في تلك الفترة من مسيرته، كتب بولس رسائله المعروفة بالراعويّة، لأنّها موجّهة إلى "رعاة"، هم، في الواقع خيرة تلاميذه وأصدقائه: تيموثيوس، وتيطس.

بعد جيشان حياة الكفاح، والحرث، والترحال، حلّت فترة سكون، وعقبت مهمّة التبشير، ضرورة التنظيم والترسيخ.معظم أفراد الرعيل الأوّل من الرسل كانوا قد لاقوا حتفهم، وكان لا بدّ، لاستمرار الكنيسة، من إقامة رعاة يضمنون سلامة العقيدة والتعليم، والممارسات، ويواجهون، بحنكة وحزم، أزمات النموّ التي لا مفرّ منها، ويقاومون البدَع والأضاليل التي تهدّد استقامة الإيمان، وصمود البنيان.وكان ذاك هو دافع بولس الرئيس إلى تدبيج الرسائل الثلاث المعروفة بالراعويّة.

و لا بدْعَ إن خلَت تلك الرسائل من عنفوان الرسائل الكبرى التي كان يلهبها اندفاع التبشير، والتي كانت لغتها دفّاقة، وخواطرها أكبر من أن تستوعبها الكلمات، فتفجّر الجُمَل، وتدكّ السدود.ومع ذلك، اتّسمت عبارات رسائل الأسر بوقار النضوج، وسكون الشيخوخة التي ما برحت يقظة متطلّعة إلى الهدف الأسمى، وإن اعتمدت أسلوباً جديداً حفل بألفاظ جديدة، ربّما من جرّاء اعتماد الرسول كتبةً جُدُداً لهذه الرسائل.

و مع ذلك زخرت تلك الرسائل بحكمة رجلٍ اغتنت حياته بخبرة الكفاح، وإلهامات التأمّل، والغوص في محيط اللّه اللامحدود، ومجاورة الوهن البشريّ، وشتّى أصناف الخبث والعداوة والشرّ، فجاءت ثرّة بالأقوال المأثورة، التي تصلح نبراساً لكلّ جيل.

ذلك البحّار دلّته خبرته إلى أنّه دنا من الشاطئ، فطوى أشرعته، فرحاً بلقاء الحياة الحقيقيّة.أوَ لم يردّد مراراً: "الحياة، لي هي المسيح، والموت ربح" ؟

و ذلك المصارع كان مرتاحاً لكونه جاهد الجهاد الحسن، جهاداً متّصلاً، شاقّاً، ما زالت آثار سياطه، وعصيّه، وحجارته، وقيوده، محفورة في جسده الهزيل.طالما أُلقي أرضاً، وكابد وحشة السجون، ولكنّه، في كلّ مرَّة، هبّ واقفاً لكي يعلن انتصار المسيح يسوع على الخطيئة والموت.فلطالما بنى ثقته على الذي قهر الموت، والذي دعاه، في دمشق، إلى مشاركته انتصاره وقيامته.وها قد أشرف الصراع على نهايته، وهو متشوّق إلى سماع قرار الحَكَم، الذي لا يستند فقط على مآتيه واستحقاقاته، بل، بالحريّ، على رحمة اللّه، وعلى حبّه اللامحدود.

هذا البطل أتمّ شوطه، وها هوذا يجتاز خطّ النهاية، كي يظفر بالمكافأة، وهذه ليست حكراً على المجلّي، بل يكرّم بها الديّان الرؤوف كلّ ساعٍ، بصدق، إلى إقرار ملكوت الحبّ.

و في هذه اللحظات الحاسمة، يودّ الرسول أَن يودع رؤاه وسرّ حياته الحافلة بالنجاح والإِخفاق، بين يدي من هم جديرون بمواصلة مسيرتها، أناس أمناء مؤهّلين لتعليم غيرهم.وهو، من ثمّ، ينصح أَقرب تلاميذه إِلى قلبه، تيموثيوس وتيطس، بانتقاء المعادن الطيّبة، أَشخاص جديرين بالثقة، معترفين بيسوع ربّاً ومخلّصاً، وبتبليغهم ما تبلّغاه، هما، من تعاليم، كي يبلّغوها، بدورهم، لسواهم، فتمضي البشرى حتّى أَقاصي الأَرض، على أَن تكون هذه التعاليم من الوضوح والبساطة بحيث يدركها الجميع.وكان شعار بولس: "دعوا الكلمة تجرِ وتُمجّد.إِحرصوا على إِعلاء منارتها، ونشر أَنوارها، ثـقّفوا رسلاً يثقّفون مبشّرين".

أَبقى بولس تيموثيوس في أَفسس، حيث راج مزيجٌ مُنكَر من الإِيديولوجيّات والبدَع، والترّهات، التي تفشّت، " مثل الآكلة "، وعاثت فساداً ودماراً في النفوس.وقد استشفّ بولس، في ذلك الهذيان الضبابيّ، خطراً يهدّد مفهوم الإِيمان الواضح.فكان لا بدّ من ترسيخ الكنيسة " عمود الحقّ وأساسه "، والتأكيد على وحدة الإِيمان الجماعيّ، ووحدة العبادة، والبنية التراتبيّة للكنيسة.

و كان بولس يثق ثقة مطلقة بتيموثيوس، ويدعوه " ابني المخلص في الإِيمان "، ومذ اتّخذه معاوناً في مطلع رحلته الرسوليّة الثانية وسامه كاهناً، وهو في ريعان شبابه، ظلّ إِلى جانبه على مدى مسيرته، وقد كتب بيده معظم الرسائل التي أملاها عليه بولس، واضطلع بمهامّ دقيقة كلّفه بها لدى التيسّالونيكيّين والكورنثيّين.كان تعاونهما وثيقاً، ولم يعكّر صفو صداقتهما، يوماً، أيّ معكّر. فمع تباين طباعهما، لم يحبّ بولس أَحداً مثما أَحبّ تيموثيوس.ولكنّ تيموثيوس كان ما زال شابّاً، طريّ العود، ولذلك ناشده ألاّ يستخفّ أَحدٌ بشبابه، وكان نزوعاً إِلى الخَفَر والحياء، فشدّد عزيمته، وكان عليل الصحّة نحيفاً، تنتابه وعكات مطّردة، فنصحه ألاّ يقتصر على شرب الماء، بل أَن يشرب قليلاً من الخمر من أَجل معدته وأَمراضه الملازمة.

و لا عجب إِن ظلّ تيموثيوس، وهمّ المهمّة التي أوكلها إِليه، يلازمان الرسول.وخشيةً منه أَن يحول مانع دون عودته من أَفسس، أَنفذ إِليه، من مقدونية، رسالة تشجيع وإِرشاد، "كي يعرف كيف يتصرّف في بيت اللّه، الذي هو كنيسة اللّه الحيّ". فتيموثيوس، من جرّاء حداثة سنّه، وخَجَله الفطريّ، كان بحاجة إِلى يدٍ قويّة، ودفعة شديدة، تأتيه من صديقٍ أَبويّ، يزوّده بنبع طاقات لا تنضب، مذكّراً إِيّاه بضرورة مقاومة تعاليم من يتمسّكون "بخرافات وأَنسابٍ لا آخر لها"، ولا تجدي فتيلاً.فغاية التبشير ليست الاطّلاع على تخرّصات السحرة، وفتاوي الحاخامين اليهود الجوفاء، بل المحبّة المنبعثة من " قلبٍ طاهر، وضمير صالحٍ، وإِيمانٍ لا رئاء فيه ".ولئن تبجّح بعضهم بالتشبّث بالشريعة، فبولس يذكّر بأَنّ الشريعة حسنة طالما هي كانت تعبيراً أَميناً عن مبادئ الأخلاق التي ترضي الربّ.غير أَنّ معيار السلوك المسيحيّ هو إِنجيل الرأفة والرحمة، والصفح، وعظة الجبل، معيار المحبّة، لا معيار شريعة الواجب البارد، الضاغط، القسريّ.

و يذكّر بولس تيموثيوس بلحظات سيامته الكهنوتيّة، ويناشده بألاّ يُخيّب الآمال والتنبّؤات التي واكبت اختياره، ويطالبه بالحزم عندما يتعلّق الأمر بوحدة الإِيمان ونقائه،

ويدعوه إِلى الصلاة من أَجل الجميع، مسؤولين ورعيّة، لكي تتدرج حياتهم، "مطمئنّة، هادئة، في كلّ تقوى ووقار"، لأَنّ اللّه يريد أَن يخلص الجميع ويبلغوا المعرفة الحقّة.ويُسدي بولس بنصائح عمليّة عن كيفيّة الصلوات العامّة المشتركة، فالكنيسة، في نظره، جماعة صلاة شاملة، من أَجل تسبيح اللّه، باسم الخليقة كلّها.

و من بين الذين يدعو إِلى الصلاة من أَجلهم، الحكّام، إِذ عليهم مسؤوليّة جسيمة تجاه اللّه: وهي ضمان حياة هادئة مستقرّة للمواطنين، حياة منظّمة في خدمة اللّه، وحمايتهم من الاضطرابات القادمة من الخارج ومن الداخل.والكنيسة نفسها لا يسعها بلوغ غايتها، وممارسة طقوسها، في معزل عن حياة عامّة تنعم بالسلام والنظام.وكم كان حريّاً بالدولة الرومانيّة أَن تتيح لأَيدي المسيحيّين المتضرّعة أَن تحملها نحو اللّه، بدلاً من قطعها!

كان قد سبَق لبولس أَن صوّر الكنيسة على أَنّها جماعة المختارين الصوفيّة، "خطيبة المسيح المنزّهة من الدنس والغضون "، الكنيسة غير المرئيّة التي يكتنفها سرّ المسيح.أَمّا الآن، وقد بات مسؤولاً عن رعاية النفوس، فهو يرى كنيسة منظّمة، تقودها خبرات الشيوخ التي يضيئها الروح، كنيسة السلطة التعليميّة، الكنيسة الملموسة المرئيّة، سرّ المسيح الذي تحقّق في الزمن، السائرة نحو الأَبديّة، واعتلان اللّه في الخليقة.بها يكلّم الربّ البشر باستمرار، وهي أَساس الحقّ الذي لا يتزعزع ومنارته.

هذه الرؤية تدفع بولس إِلى إبراز الخصال التي ينبغي أَن يتحلّى بها من يتطلّعون إِلى الأسقفيّة، فهي " عمل نبيل ".ومن ثمّ على الأَسقف، وهو وكيل اللّه، أَن يكون بلا لوم، ***متواضعاً***، صاحياً، رزيناً، مهذّباً، مضيفاً للغرباء، وقادراً على الوعظ في التعليم الصحيح، والردّ على المعارضين، غير مدمن للخمر، ولا منازعاً، بل حليماً مسالماً، ***زاهداً في المال...***ولا يكن حديث العهد في الإِيمان، لئلاّ ينتفخ كبراً، فيقع في قضاء إِبليس.ولا بدّ أَيضاً من أَن تكون في حقّه شهادة حسنة من الذين في الخارج، لئلاّ يسقط في العار، وفي فخّ إِبليس.وكذلك يورد الصفات التي ينبغي أَن يتحلّى بها الشماسة فيكونوا " من أَهل الوقار، لا ذوي لسانين، ولا مولعين بالإِكثار من الخمر، ولا ذوي حرصٍ على المكسب الخسيس.وليحفظوا سرّ الإِيمان في ضمير طاهر، وليُختَبَروا أَوّلاً، ثمّ يباشروا الخدمة إِن وُجدوا بغير لوم ". وعلى الشمّاسات أَن يكنّ " أَديبات، غير نمّامات، يقظات، وأَمينات في كلّ شيء ". ويؤكّد بولس " أَنّ الذين يحسنون الخدمة يحرزون لأَنفسهم قدراً سامياً، وجرأةً عظيمة في الإِيمان الذي في المسيح يسوع ".

و للمرّة الأُولى يأتي بولس في رسائله على ذكر " سرّ التقوى " ومحوره يسوع، الذي تجلّى في الجسد،

و شهد له الروح،

و شاهدته الملائكة،

و بُشِّر به في الأُمم،

و آمن به العالم،

و ارتفع في مجد...

و الروح القدس ينذر بأَضاليل شيطانيّة ستنتشر، إِذ يقوم دجّالون يحرّمون الزواج، وينهون " عن أَطعمة خلقها اللّه لكي يتناولها، بشكرٍ، المؤمنون والعارفون بالحقّ.فكلّ خليقة اللّه حسنة، ولا شيء للطرح ممّا يُتناول بشكر؛ لأنّه يُقدّس بكلمة اللّه وبالصلاة ".

فليقاوم، إِذن، تيموثيوس، هذه الترّهات، وليرسّخ التعليم الصحيح، وليتنكّب عن "الخرافات العجائزيّة"، وليروّض نفسه على التقوى، وليكن، رغم شبابه الغضّ، " مثالاً للمؤمنين في الكلام والسوك، والمحبّة، والإِيمان، والعفاف "***و ليواظب" على المطالعة والوعظ والتعليم، ولا يهمل الموهبة التي مُنحها بالكهنوت.***

و بعد أَن يدعو بولس تيموثيوس إِلى التيقّظ: "لاحظ نفسك والتعليم، واستمرّ على ذلك، فإِنّك إِن فعلته تخلّص نفسك والذين يسمعونك "، ينصحه بمعاملة كلّ إِنسان حسب وضعه، الشيوخ، والفتيان، والفتيات، والأَرامل؛ ويوصيه بالكهنة، " فالذين أَحسنوا التدبير، فليحُسبوا أَهلاً لكرامةٍ مضاعفةٍ، ولا سيّما الذين يتعبون في الكلمة والتعليم ".ويناشده أَلاّ يدع الهوى يُملي عليه سلوكه، وأَلاّ يتسرّع في سيامة كاهن، فخير أَن يتضاءل عدد الكهنة من أَن يكثر الرديئون منهم.

و أَخيراً يدعوه إِلى الابتعاد عن المماحكات الكلاميّة العقيمة، والمنازعات الباطلة، والاعتصام بالقناعة، منددّاً بالذين يتّخذون من التقوى تجارة: " أَجل، إِنّ التقوى لتجارة عظيمة، على أَن تقترن بالقناعة.إِنّا لم ندخل العالم بشيء، ولن نستطيع أَن نخرج منه بشيء، ومن ثمّ، فإِذ ما كان لنا القوت والكسوة فلنقتنع بهما.أَمّا الذين يرومون الغنى فيسقطون في التجربة، وفي الفخّ، وفي جمٍّ من الشهوات السفيهة المضرّة، التي تغرق الناس في الدمار والهلاك.***لأَنّ حبّ المال أَصل كلّ الشرور***.مال إِليه قوم فضلّوا عن الإِيمان، وطعنوا أَنفسهم بأَوجاعٍ كثيرة "

و يهيب بولس بأَغنياء هذا العالم أَلاّ يستكبروا، ولا يتوكّلوا على أَموالٍ زائلة، بل على اللّه الحيّ، الذي يؤتينا كلّ شيء بوفرة، لنتمتّع به.فليعملوا الخير، ويستغنوا بالأَعمال الصالحة، ويرتاحوا إِلى التوزيع، وإِشراك الغير بخيراتهم، فيدّخروا بذلك لأَنفسهم رأس مالٍ راسخاً للمستقبل، به يستطيعون أَن يفوزوا بالحياة الحقّة.

أَمّا الشبّان فينصحهم بأَن يكونوا متعقّلين وقدوة في العمل الصالح.

و يختم بولس الرسالة مكرّراً توصياته: " أَمّا أَنت، يا رجل اللّه، فاربأ بنفسك عن كلّ ذلك، واقتفِ العدلَ والتقوى والإِيمان، والمحبّة، والصبر والوداعة.جاهد جهاد الإِيمان الحسن، وفــزْ بالحياة الأَبديّة التي دُعيتَ إِليها، ومن أَجلها اعترفتَ بالإِيمان الاعتراف الحسن أَمام شهود كثيرين...حافظ على الوصيّة بلا عيب ولا لوم، إِلى تجلّيٌ ربّنا يسوع المسيح...***احفظ الوديعة.***أعرض عن الأَحاديث الدنيويّة الفارغة، وعن مناقضات علمٍ كاذب، انتحله قومٌ فزاغوا عن الإِيمان ".

كم هذه الأَقوال ما برحت معاصرة، وما أَحراها بأَن يفقهها المسؤولون الكنسيّون والمؤمنون، ويتخّذوها نبراساً ومنهج عيش !

كان بولس قد أَقام تيطس تلميذه الأَمين و"الابن الحقيقيّ في الإِيمان المشترك"، وسفيره للمهامّ العسيرة، أسقفاً على كنيسة كريت، وكلّفه بإِكمال تنظيمها وترسيخها، وتزويدها بالمناعة التي تؤهّلها لمكافحة الأَضاليل.فقد كان يخشى على الكريتيّين من الانقياد وراء الخرافات اليهوديّة التي يروّجها قوم متصلّبون، خدّاعون، دأبهم الكلام الباطل، يعلّمون ما لا يجب، في سبيل مكسب خسيس.فلا بدّ من سدّ أَفواههم، بحيث يتّضح للجميع "أَنّ كلّ شيء طاهر للأَطهار، وأَمّا الأَنجاس وغير المؤمنين فليس لهم شيء طاهر، بل عقلهم وضميرهم أَنفسهما قد تنجّسا.يعلنون أَنّهم يعرفون اللّه، ولكنّهم ينكرونه بأَعمالهم: إِذ إِنّهم رجِسون، متصلّبون، ولا قِبَل لهم بأَيّ عمل صالح ! "

و يكرّر بولس ما جاء في رسالته إِلى تيموثيوس مبيّناً الخصال التي ينبغي أَن يتحلّى بها الأَساقفة والكهنة والشيوخ، وكذلك العجائز والفتيات والفتيان؛ ويحرّض تيطس على أَن يكون هو نفسه مثالاً للأَعمال الصالحة، ونموذجاً لعمل " نعمة اللّه المخلّصة لجميع الناس، مهذّبةً إِيّانا، لننتبذ النفاق، والشهوات الدنيويّة، فنحيا في الدهر الحاضر، على مقتضى التعقّل والعدل والتقوى، في انتظار الرجاء السعيد، وتجلّي مجد إِلهنا العظيم، ومخلّصنا يسوع..."

و كذلك دعا تيطس إِلى تجنّب المباحثات الخرقاء، والأَنساب، والمماحكات في الشريعة، لأنّها نافلة وباطلة.

و أَخيراً طلب منه أَن يلتحق به في نيكابولس، حيث نوى قضاء الشتاء، حالما يرسل له من يحلّ محلّه: أَرتماس أو تيخيكُس.

بعد أَن أَمضى الشتاء في نيكابولس، شدّ بولس الحنين إلى تفقّد أَحوال المسيحيّين في رومة، الذين أوسعهم نيرون وزبانيته اضطهاداً وتنكيلاً.وما كاد البحر " يُفتَح " للسفر في ربيع عام 66 حتّى شدّ الرحال إلى المدينة الخالدة.لا جَرَم أنّ الإقدام على مثل تلك المخاطرة، ولم تكد تمضي سنتان على حريق رومة، كان ينطوي على قدرٍ جمٍّ من التهوّر، لا بل كان ارتماءً في أشداق الذئاب.ولكنّ بولس هو، هو، ولطالما شهدناه يعود، بلا تردّد ولا وَجَل، إلى حيث كان قد حورب، ورُجم، وسُجن.ولطالما جابه أَعداءه بثبات جأش، ولم يكن من شأن جسامة الخطر الداهم، والشيخوخة، أن ينالا من إقدامه.

و في رومة التقى بولس بعضاً من المسيحيّين الناجين من بطش نيرون، وتبيّن أنّ عدد المسيحيّين قد تقلّص، فإلى جانب من استُشهدوا، ثمّة من لاذوا بالفرار، ولم يجسروا على العودة، أمّا الباقون فكانوا لاطين، يعيشون في الظلّ.ومع ذلك كان الاضطهاد نفسه، مع وحشيّته، قد استنهض مسيحيّين جُدداً، غالبيّتهم من العبيد، والعبيد المحرّرين، وغرباء، وبعضهم من أَفراد الجالية اليهوديّة نفسها، لا بل من " أَهل بيت قيصر ".ومنهم فئة من أَبناء الطبقة الراقية، أَمثال بوذيس، وكلوديا، ولينُس.

و يُعتَقَد أنّ بولس أَقام في مستودع مهجور، خارج أَسوار المدينة، كي يستطيع عقد اجتماعات للمسيحيّين، في جوٍّ من الكتمان، بعيداً عن عيون العَسَس والرقباء، ويتابع التبشير بمعاونة صديقيه تيطس ولوقا اللّذين استدعاهما للالتحاق به؛ وتذكر كتب قديمة أنّه، في أثناء اجتماعٍ للمسيحيّين حضره بعض أَعضاء حاشية نيرون، وافى، أَيضاً، شابٌّ يدعى باتروكلس، وهو أَحد سقاة الإمبراطور، وكان محظيّاً وأَثيراً لديه، وقد قدم متأخّراً، والمكان غاصٌّ بالحضور، فلم يجد لنفسه مقاماً إلاّ عند حافّة نافذة، وبغتةً فقد توازنه، وهوى ميّتاً.وحينئذٍ تكرّر ما كان قد حدث في ترواس، لسنوات خلت، عندما سقط الفتى أوتيخس، وأَعاده بولس إلى الحياة.وعاش باتروكلِس ثانية، ومجّد جميع الحضور الربّ على ما أَجراه أَمام أَبصارهم.غير أنّ عبداً آخر من عبيد نيرون كان حاضراً، وما إن رأى رفيقه واقعاً، بلا حراك، حتّى هرع إلى القصر، فأنبأ الإمبراطور، الذي كان خارجاً، من حمّامه، بما جرى.وفي صباح اليوم التالي دهش نيرون عندما رأى الفتى باتروكلِس، واقفاً أَمام المائدة، كالمعتاد، وبيده جرّة النبيذ، وكأنّ شيئاً لم يحدث، فبادره بالسؤال:

- سمعتُ أَنّك متَّ، فمن الذي أعاد إليك الحياة ؟
- يسوع المسيح ملك الأَبديّة

و استولى الاضطراب على نيرون، فسأل، أَيضاً:

– أسيملك يسوع هذا إِلى الأَبد، ويقوّض جميع الممالك ؟

– أَجل، أَيّها القيصر، سيدمّر جميع الممالك بلا استثناء، وسيكون الحاكم الوحيد إِلى الأَبد.

و ثارت ثائرة نيرون فصفع الساقي، وقيّده، وأَنزل به عذاباتٍ مبرّحة، حتّى لقي حتفه، وأمر بإِلقاء القبض على جميع أَفراد جماعة يسوع، وفيها من باتوا يدعون أَنفسهم "جنود المسيح".

و حثّ المسيحيّون بولس على مغادرة روما في الحال، فعاد إِلى الشرق، وانتهى به المطاف في ترواس، حيث حلّ ضيفاً على صديقه كربُس.بيد أَنّ أَزلام نيرون ما انفكّوا يتعقّبون أَثره، ورأى الخائن، إِسكندر النحّاس، وهو أَحد الأَفسسيَّيْن اللّذين رشقهما بولس بالحرم، بسبب بثّ الضلال، سانحة للاثــّار، فوشى بالرسول، وأَرشد إِليه، فأَلقى عليه جند نيرون القبض في بيت كربُس.وتمّ اعتقاله بعنف ومباغتة، فترك، حيث كان، كلّ أمتعته الخاصّة من أَوراق، وعدّة كتابة، وكتب، ومعطفه الخلق الذي أَلف أن يواكبه أَينما ذهب، ومضى برفقة معتقليه إِلى أَفسس، حيث جُمعت عناصر محاكمته.ثمّ اقتيد إِلى روما، راسفاً بالأَغلال، كالمجرمين.

كلّ شيء كان قد تبدّل في روما مذ غادرها بولس.فالجوّ السياسيّ أَمسى ثقيلاً، خانقاً، لا يُطاق.وكانت مؤامرة تستهدف اغتيال نيرون قد أُفشلت، وانتحر أَبطالها، ومنهم الفيلسوف سينيكا؛ ومنذئذٍ تسارعت وتيرة الإِعدامات، وطالت حتّى المقرّبين من نيرون.وضاق الشعب ذرعاً، رغم المبالغ الطائلة التي أُنفقتْ لإِعادة بناء المدينة المحروقة، ورغم توزيع الدقيق والزيوت مجّاناً، ورغم الأَلعاب التي كانت تُعرض باطّراد في الساحات.فقد سئم الناس رؤية مسيحيّين مصلوبين على قارعات الطرق يحتضرون ببطء، ومسيحيّات يُحرقنَ وهنّ على قيد الحياة.وبالإِجمال حفلت الأَشهر الأَخيرة من حكم نيرون بالكراهية والرعب.

و كانت ظروف أَسر بولس، هذه النوبة، في روما، أَقسى، بما لا يقاس، من ظروف أسره الأَوّل، فقد أودع زنزانة مظلمة، ضنكة، تحت الأَرض، تنزّ رطوبة، وتعجّ بالحشرات المقزّزة؛ وكان البرد والجوع يوقعان به آلاماً يوميّة مضنية؛ ولا عجب إِن هو التمس من تيموثيوس المجيء إِليه وموافاته بمعطفه الذي حاكه بيديه وجعله رفيق أَسفاره، ولكنّه قسر على تركه في بيت صديقه كربُس؛ فقد كان البرد ينخر عظام ذلك الشيخ الفولاذيّ الهمّة، الذي قاسى، حتّئذٍ، أَشدّ الآلام ضراوة، ولم تصدر عنه أَنّة أو تأَفّف.

و ممّا ضاعف آلامه، أنّه أَمسى من العسير جدّاً على أَصدقائه الاتّصال به، ممّا كان يستلزم من لوقا رشوة السجّانين كي يتيحوا لزائري الرسول الوصول إِليه؛ وعلى أَيّة حال ندُر أَصدقاؤه، في تلك المحنة، إِذ ارفضّ عنه معظم الذين واكبوه من أَفسس، فتروفيموس اعتلّ فمكث في ميلية؛ وتلبّث أراستُس في كورنتش، ونأى آخرون، إِثر وصولهم إِلى روما، خوفاً وجبناً، أو إِنّهم فعلوا ذلك، نزولاً عند رغبة بولس.فقد باتت صفة "المسيحيّ"، وحدها، كافية لتضفي على حاملها صفة الإِجرام، وتعرّضه للسجن والموت.ويذكر بولس، والحزن يهصر فؤاده، أَنّ بعض أَصدقائه ارتدّوا عنه، ويذكر منهم فيجلُس وهِرمُجينس؛ وديماس الذي هجره "لحبّه الدهر الحاضر" وانطلق إِلى تيسالونيكي، و"كِرِسكيس" انطلق إِلى غلاطية، وتيطس إِلى دَلماتية، أَمّا تيخيكس فقد بعثه الرسول إِلى أَفسس.وفي مثل أَنّة جريحة يعترف بولس: " معي لوقا وحده "؛ فقد كانت صداقة الإِنجيليّ الثالث والطبيب الحبيب، راسية كالطود، وكان حضوره دائماً، صامداً؛ لقد كانت الوحدة هي أَدهى محنة قاساها ذلك الشيخ الذي كانت الصداقة، له، خير عون وعزاء، على مدى مسيرته الرسوليّة.ونسمع زفرة الأَلم من تلك الوحدة، من خلال قول الرسول، في رسالته الثانية إِلى تيموثيوس: " في احتجاجي الأَوّل (أمام القضاء) لم يحضر أَحدٌ معي، بل تركني الجميع ! لا حاسبهم اللّه ! " ولكنّ ذلك الأَسد الهرم لا يضعف، بل سرعان ما يستعيد عنفوانه، وثقته في الربّ، فيضيف، في الحال: " بيد أَنّ الربّ وقف معي، وقوّاني لكي تكمل بي الكرازة، وتبلغ إِلى مسامع الأَمم كلّها؛ وأُنقذتُ من فم الأَسد ".

مسيحيّو روما أَنفسهم كانوا يخشون زيارته، لئلاّ يقبَض عليهم، ويُقسروا على الاعتراف بمكان اعتصام بطرس وسائر الزعماء المسيحيّين.غير أَنّ أَشعّة نور اخترقت ليل الوحدة الموحشة هذه، وأَشاعت البهجة في قلب الرسول، فمن آسية جاءه صديق شهم وقد سبق له أَن قدّم له جمّاً من الخدمات، ولم تُمسكه خشية عن لقاء صديقه ومعلّمه، وهو أونيسيفورُس الأَفسسيّ، الذي قال عنه بولس: " رحمة اللّه على بيته، لأَنّه كثيراً ما فرّج عنّي، ولم يخجل من قيودي.ولمّا صار في رومة جدّ في طلبي حتّى وجدني".ويبدو أَنّه بحث عنه في العديد من سجون رومة إِلى أَن عثر عليه، فلازمه، وأَقام على خدمته.وثمّة حفنة من وجهاء رومة أَجزلوا رشوة الحرّاس فاستطاعوا الاختلاف إِلى سجن بولس، منهم: إِفبولُس، وبوذيس، ولينُس، والسيّدة الكريمة الشجاعة، كلودية.

جلسة الاستنطاق الأولى انعقدت في غياب نيرون الذي كان يلهو في بلاد اليونان متنكّراً في زيّ ممثّل كوميديّ، فترأّسها شيطانه الشرير تيجلّينُس، الذي كان يبذّ معلّمه شرّاً،

وانعدام أَخلاق.وإِذ كان بولس مواطناً رومانيّاً، كان لا بدّ من إِخضاعه لمحاكمة تراعي الأَصول والشكل، وإِن لم تراعِ الحقّ والعدل.وبدا من العسير إِلصاق تهمة مُسندة على أَدلّة، واحدة من تلك التهم الرائجة آنذاك، مثل إِنشاء جماعة مجرمين، أو ميليشية خاصّة، أو المسّ بأمن الدولة والنظام العامّ، أو شتم الإِمبراطور، فارتأى تيجيلّينس اتّهامه بالتواطؤ في "جريمة إِحراق روما".ولم يجرؤ أَحد من أَصدقاء بولس ومعارفه على الدفاع عنه، أو الإِدلاء بشهادة نفي تثبت بعده عن رومة، ساعة وقوع الحريق، ممّا كان كفيلاً بتبرئة ساحته.ولكنّه أَجاد الدفاع عن نفسه، وأحرج القضاة، فأرجئت المحاكمة، وتمادت.

و بانتظار الجلسة الثانية، استغرق بولس في الصلاة والتأمّل.وكانت أَفكاره تحوم حول موضوعَيْن يحتلاّن من نفسه مكانة أَثيرة: تيموثيوس، ونقاء الكنيسة.كان الشوق إِلى الابن الروحيّ الحبيب مستحوذاً على قلب ذلك الشيخ المهيض الجناح، فجمّع قواه، وأَنفذ إِليه رسالة أَخيرة، هي بمثابة وداع لتلميذه الذي أوكل إِليه تنفيذ وصيّته.

كان بولس موقناً أنّه لن يبارح سجنه المحفور تحت الأرض إلاّ لكي يلقى حتفه.إنّه بطل أنهكه الجري والقتال، وحفرت الحكمة في جبينه غضوناً عميقة، يتأمّل قيوده الغليظة ولكنّه يبتهج في سريرته لأنّ "كلمة اللّه غير مقيّدة "، ولأنّ نور الإنجيل ما انفكّ يسري ويخترق الحدود.ذاك الذي أنشأ جماعات مسيحيّة في كلّ مكان، ودبّج صفحات رائعة عن المسيح، يقبع وحيداً، ويرين عليه وِقْر وحدته، بعد أن تخلّى عنه معظم أصدقائه، بعضهم خجلين من قيوده، وبعضهم متجنّبين الظهور بمظهر المتواطئين مع هذا المحكوم عليه بالموت.فيبوح، بألم، لتيموثيوس: " في مرافعتي الأولى لم يحضر أحد للدفاع عنّي.بل تركوني كلّهم ".وما أقسى تخلّي من كانوا أصدقاءً وأعواناً !

ذاك الذي طالما ساند الضعفاء، وأنهض المنهارين، كان غارقاً في ليل المحنة والعزلة، ولكن كان يقطنه اليقين بأنّه لا يقبع في هوّة أو مغارة مسدودة المنافذ، بل في نفق سيُشرق في نهايته النور.وهو يحمل في داخله بؤرتي نور: النور الساطع الذي أشرق عليه في دمشق، ونور يؤمن أنّه سيتألّق له عندما يماط الحجاب، وتقيّض له رؤية خالقه ومخلّصه، وجهاً لوجه.

و مع دنوّ الأجل، يأخذ كلّ شيءٍ مكانه، ويتلاشى العَرَضيّ، ولا يبقى سوى الجوهريّ.الوقتيّ يزول، ويدوم الخالد؛ ينطفئ بريق المجد الزمنيّ، ويهمد صخب العالم، ويلوح أُفق الأبديّة المتألّق.ولكنّه مثل كلّ مشرف على نهايته، اعتملت في نفسه الرغبة في تبليغ أُمنياته الأخيرة؛ وإذ كان في توقٍ مضطرم إلى رؤية ابنه الروحيّ الحبيب تيموثيوس، مرَّة أَخيرة، قبل مغادرته هذه الدنيا، أنفذ إليه رسالته الثانية، مهيباً به الاستعجال بالمجيء إليه، مسدياً إليه نصائحه الأخيرة، باثّاً إيّاه نجواه.

كانت أبصاره محدّقة في غايته السماويّة، غير أنّ همومه الرسوليّة لم تكن تبارحه؛ فما كان يقضّ مضجعه يتخطّى آلامه ومنغّصاته الشخصيّة، وهاجسه الملازم كان مستقبل الكنائس التي أسّسها.ولذلك كان حريصاً على أن يودع تلميذه تيموثيوس وصيّة روحيّة تحثّه على الوقوف موقفاً حازماً من سلامة العقيدة، ووقايتها من أيّ انحراف، وعلى وقف ذاته وكلّ طاقاته على الخدمة الرسوليّة بلا هوادة.متخطّياً الموت الوشيك كان الرسول يشخص بأنظاره إلى مستقبل الإنجيل المشرق.

و في تلك اللحظات من مغيب شمس الحياة يطيب للمرء أن يسترجع ذكريات صباه.وقد تعالت من نفس بولس صلاة شكر لأنّ أجداده وآباءه أنشأوه على عبادة اللّه بضمير

طاهر.ولم يكن يرى في ما انتهى إِليه من عنت واضطهاد، بسبب إِيمانه بيسوع، فشلاً، بل عمل العناية الإِلهيّة.وتوهّجت، في ذهنه، صورة الفتى تيموثيوس، كما عرفه للمرَّة الأُولى، يافعاً، خجولاً، برئ النظرة والقلب.وتذكّر يوم أَنهضه من تحت ركام الحجارة التي رُجم بها، وهو غارق بدمائه، فاقد الوعي؛ وتذكّر أمّه، وجدّته، والدفء المنبعث من ذلك البيت الكريم.كان تيموثيوس وديعاً، رقيقاً، حيـيّاً، وكان بولس يعطف عليه عطف والد.ويوم وضع يديه عليه، وجعل منه كاهن الربّ، رجا له أَن يستمدّ، من ذلك، طاقة جديدة بعمل الروح القدس، ذلك العمل الذي حوّل كيانه، هو بولس، ووهبه الصمود، والسكون وسط المضايق الجسيمة.

كان بولس قد قطع من مسيرته شوطاً متمادياً، واستحوذ عليه الشعور بدنوّ أَجله، فأسهب في البوح، مذكّراً بجهاده، وبمحبّته لتيموثيوس، الذي اتّخذه ابناً ورفيق كفاح مذ كان فتًى يافعاً؛ وتذكّر دموعه، يوم التمس منه مرافقته على دروب الرسالة الوعرة، فدعاه بولس إِلى التريّث ريثما يشتدّ عوده بعض الشيء، وقطع له وعداً باصطحابه، عند عودته.عشرون سنة كرّت، منذئذٍ، وعلاقة الرجلين، علاقة أبٍ وابن متحابّين، يحدوهما التطلّع إِلى هدف واحد.وها هوذا الشيخ يعترف برقّة: " أَنا أَذكرك ليلَ نهار في صلواتي.أَتذكّر دموعك.فيشتدّ شوقي إِلى رؤيتك لأَمتلئ فرحاً ".

و لكنّ بولس لا يستسلم للعواطف، فهمّ الرسالة يملأ عليه عقله وقلبه.ولذلك ينتهز هذه الفرصة لكي يزوّد تلميذه بكلّ ما هو كفيل بخدمة البشارة.لقد تسلّم بولس الراية من الربّ، وعندما تسلّل الوهن إِلى يديه، أَراد إِيداعها بين يدي تيموثيوس لعلّه يشرك في حملها رجالاً جديرين بالثقة.ومن ثمّ يدعوه ليكون محارباً حسب قواعد المسيح، وحارثاً نشيطاً في حقله، مغدقاً عليه نصائحه، في هذا الشأن: " أُذكّرك أَن تذكي فيك الموهبة التي آتاكها اللّه بوضع يديّ.فموهبة اللّه هذه ليست روح فزَع، بل هي روح قوّة، ومحبّة، وامتلاكٍ للنفس.فلا تخجل، إِذن، من تأدية الشهادة لربّنا، ولا تخجل بي، أَنا أَسيره، بل اشترك معي في مشاقّ الإِنجيل، بقوّة اللّه...".

في سبيل سلامة تعليم الإِنجيل، لا يتهرّب بولس من الأَلم والموت، موت المجرمين، مساهمةً في آلام المسيح.فالجانب الصوفيّ، لديه، أَكثر حقيقةً وواقعيّة من الجانب المرئيّ؛ والأَمانة هي طابعه المميّز؛ ومن ثمّ يحضّ تيموثيوس: " إِحفظ الوديعة الصالحة، بعون الروح القدس الساكن فينا ".

و ترنو أَنظار بولس إِلى صرح الكنيسة المنيع والإِلهيّ، الثابت عبر الأَجيال، وعلى واجهته نقش قول: " الربّ يعرف ذويه ".وفي سبيل منعة الكنيسة يدعو بولس تيموثيوس إِلى

التجنّد، وتجنيد آخرين: " فأنت، إِذن، يا ابني، تشدّد في النعمة التي في المسيح يسوع؛ وما سمعته منّي، لدى شهودٍ كثيرين، استودعه، أَنت أَيضاً، أُناساً أُمناء، كفاة لأَن يعلّموا الآخرين، واحتمل قسطك من المشاقّ كجنديّ صالح للمسيح يسوع.فإِنّ من تجنّد لا يشغل نفسه بأمور الدنيا، بغية إِرضاء قائده... "

و يذكّر بولس تيموثيوس بأساس الإِيمان القائم على الاعتقاد بطبيعتين في المسيح، طبيعة بشريّة حقّة، بدليل مولده البشريّ، وطبيعة إِلهيّة تنهض قيامته من الموت دليلاً عليها؛ في سبيل هذا الإِيمان احتمل بولس المشقّات، ورسف في الأَغلال كالمجرمين، " ***غير أَنّ كلمة اللّه لا تقيّد***".ومن ثمّ يناشد بولس تيموثيوس " أَمام اللّه، والربّ يسوع المسيح، أَن ***تبشّر بكلام اللّه، وتعكف على ذلك، في وقته وفي غير وقته***؛ حاجج، ووبّخ، وعظْ، بكلّ أَناة، وبجميع أَساليب التعليم.فإِنّه سيأتي زمان لا يحتملون فيه التعليم الصحيح بل يسترشدون بأهوائهم، ويتّخذون معلّمين يكلّمونهم بما يطرب آذانهم، منصرفين عن سماع الحقّ إِلى سماع الخرافات..."

و يرسم له أسس السلوك المسيحيّ السليم، فيدعوه إِلى الإِعراض "عن المماحكات الكلاميّة، لأَنّها لا تصلح لشيءٍ إِلاّ لأَنّ تهدم سامعيها...واجتنب الأَحاديث الدنيويّة الجوفاء، لأَنّ أَصحابها لا يزيدون بها إِلاّ نفاقاً، وكلامهم يتفشّى كالآكلة...اهرب من شهوات الشباب؛ واقتفِ البرّ والإِيمان والمحبّة، والسلام مع الذين يدعون الربّ بقلبٍ طاهر.وأَمّا المباحثات السخيفة الخرقاء، فأعرض عنها، لعلمك أَنّها تولّد المشاجرات.وعبد الربّ يجب عليه أَن لا يشاجر، بل أَن يكون ذا رفقٍ نحو الجميع، قادراً على التعليم، صبوراً، يؤدّب المقاومين بحِلْم..."

أَمّا في ما يتعلّق به شخصيّاً، فلم تكن تساور بولس أَيّة أَوهام، إِذ كان موقناً أَنّ أَزلام نيرون سيلفّقون أَيّة تهمة لكي يحكموا عليه بالموت، ولا سيّما بعد أَن نصّب نيرون من نفسه إِلهاً، وبات يتعرّض للعقاب كلّ من يقاوم عبادة جلالته.وبذلك أَمست، في يد القضاة، تهمة جديدة يسعهم إِضافتها إِلى قائمة التهم العشوائيّة التي أَلصقوها ببولس.وكان يخامر الرسول، في تلك المرحلة، شعور متبارٍ في ميدان سباق، انتهى إِلى غاية الشوط، فحقّت له المكافأة.وكرّت، في ذهنه، مراحل حياته التي أَنفقها في خدمة يسوع، مذ انقضّ عليه في دمشق، وأَلقى على كاهله عبء الرسالة، فأقسم على الوفاء لها حتّى الموت، وقد أَخلص له ولها، مذ أَحنى رأسه ليتلقّى العماد على يدي حنانيا، حتّى أَذن وقت إِحنائه تحت سيف الجلاّد، فاعترف: " أَمّا أنا فقد أُرقت سكيباً، ووقت انحلالي قد حضر ".وكمن يحفر نصّ شاهدة قبره

بيده، أَضاف، ": لقد جاهدت الجهاد الحسن، وأَتممت شوطي، وحفظت الإِيمان.إِنّما يبقى إِكليل البرّ المحفوظ لي، الذي سيجزيني به، في ذلك اليوم، الربّ الديّان العادل..."

كم هم الذين يستطيعون أَن يقولوا مثل هذا القول ؟

و نظير قدّيسين كُثُر، وهم على عتبة السماء، تظلّ تشدّهم إِلى الأَرض روابط واهية، ما برحت تخامر بولس، وهو مستغرق في السماويّات، بعض رغبات صغيرة.فالتمس من تيموثيوس أَن يأتيه بمعطفه الذي تركه في ترواس لدى صديقه كربُس، ذلك المعطف العتيق كان أَغلى متاع دنيويّ يمتلكه؛ فقد حاكه بيديه من خيوط وبر الماعز، وهو كفيل بدرء برد السجن ورطوبته اللّذين كانا يتسرّبان إِلى عظامه؛ وهو يذكّره بالزوجين العزيزين أكيلا وبريسكيلا اللّذين طالما وفّرا له، في مشغلهما، العمل والعون والحماية؛ وبالنسيج المتميّز الذي طالما حاكه كي يؤمّن لجسد المسيح رداءً متكاملاً.

كثيراً ما احتمل بولس القرّ والعريَ ببطولة، ولكنّه، الآن، يعترف بوهنه، وبحاجته إِلى معطفه العتيق ليتّقي غائلة برد السجن.لم يطلب أَيّ معطف، لهذا الغرض، بل ذلك المعطف الخلِق الذي كان رفيق أَسفاره، ووقاه شتاءً إِثر شتاء، وواكب أَسفاره الرسوليّة، وشهد كرازته ومعجزاته، وخفّف وطأة الحجارة التي رُجم بها.

وفي وجدان بولس كانت تكمن بقعة قاتمة، وذكرى موجعة، ذكرى انفصاله عن صديقه برنابا الذي ساند خطواته الأولى على دروب الرسالة، ومعاً انطلقا، بدافع الروح، خلف تخوم اليهوديّة لتبشير الوثنيّين بالإِنجيل، وانتباذه لمرقس.فطلب من تيموثيوس أَن يأتيه بمرقس علّه يصافح فيه، ويقبّل، من خلاله، صديق شبابه، برنابا، ويستغفر مرقس نفسه عمّا أَلحق به من أَذىً وأَلم.ففي الرحلة الرسوليّة الأُولى استصحب برنابا، مع بولس، ابن شقيقته، مرقس، الذي كان ما يزال يافعاً، طريّ العود؛ فلم يقوَ على احتمال قسوة الرسالة في آسية الصغرى، وقسوة طباع بولس الذي لا يقيم للتعب والخطر حساباً، فآثر العودة إِلى أُمّه في أورشليم؛ ولكنّه ندم على تخاذله فيما بعد، ورغب خاله برنابا في إفساح فرصة له يثبت فيها ذاته، في مطلع الرحلة الرسوليّة الثانية، غير أَنّ بولس لم يستطع أَن يغفر له التفاته إِلى الوراء بعد أَن قبض على المحراث؛ ولكأنّ من شأن خطأ واحد أَن يقرّر مصير حياة بأكملها.موقف بولس المتصلّب هذا أَدّى إِلى انفصاله عن صديقه الحميم برنابا، وخلّف في قلب مرقس جرحاً ما انفكّ نازفاً، فبولس الذي بات من أَركان الكنيسة عدّه، علناً، غير جدير بالكرازة.

صحيح أَنّ مرقس أَثبت، من بعدُ، جدارته، إِذ بات رفيق بطرس، وأَمين سرّه، وكاتب الإِنجيل الثاني، ولكنّه ما برح يجرّ معه، أينما مضى، جرحاً مخجلاً كميناً، لم تستطع حتّى مرافقته لبطرس الذي كان مجرّد خياله يشفي المرضى، إِبراءه منه.وما انفكّ رفض بولس له،

ذات يوم، يسمّم حياته.واتّضح لبولس، وهو مشرف على طيّ شراع حياته، مدى إِساءته إِلى ذلك الرسول الطيّب، فحرص على التحرّر من دينه تجاهه قبل مواجهته وجه ربّه، فكتب إِلى تيموثيوس: " استصحب مرقس وأتِ به "، ولكأنّه يقول: "ولو قسراً ".فقدوم مرقس ومصالحته هما قضيّة حياة أو موت له.

لقد بات ذلك الرسول الحائك يشعر شعوراً موجعاً بأَنّه مزّق، على غير قصدٍ منه، أَحد أَعضاء المسيح، وأَنّ عليه أن يرفو هذا المزق بخيط المصالحة.وكان توّاقاً إِلى أَخذ مرقس بين ذراعيه، والتحديق في عينيه، والإِعلان له، على رؤوس الملأ: " أنت، يا أخي، ثمين لرسالة يسوع "، فيمحو خطأه الماضي.وربّما كان مطلبه بمصالحة مرقس من أَجمل ما كتب في حياته، كتبه بقلبه، وكلّ كيانه.

و كان بولس موقناً بأَنّ على مرقس متابعة مهامّ الرسالة التي كان بولس قد بدأها في رومة، ولا سيّما وأَنّه خبير بتلك المدينة، في حين كان لوقا مُثقلاً بالمهامّ لدى بولس، فضلاً عن انشغاله بتدوين سفريْ " أعمال الرسل " والإِنجيل الثالث.

ثمّة شيء آخر كان بولس يتوق إِليه، ويلتمس إِحضاره: " الكتب، وخصوصاً صحف الرقّ ".تلك الكتب التي تعلّم قراءتها عند قدمي غمالئيل، وطالما سهر الليالي يستقريها ويستوضح، من خلالها، مرامي الربّ الخلاصيّة، وعلى ضوء النور الذي أَشرق عليه في دمشق، وعلى ضوء صليب يسوع وقيامته.كان يودّ الاستنارة بها، مرّة أَخيرة، قبل رحيله، متلمّساً، بواسطتها، طريقه إِلى اللّه، وإِلى حبيبه يسوع.كان يودّ أَن يتأمّل، للمرَّة الأَخيرة، وجه ذاك الذي عُدّ ملعوناً لأَنّه عُلّق على خشبة، حاملاً خطايا البشر أَجمعين، معلّقاً إِيّاها على صليبه، ومعتِقَنا من لعنتها.كان راغباً في الركوع أَمام ذلك الخادم الذي أَطاع حتّى الموت على الصليب، صليب بات عثرة لليهود، وحماقة للوثنيّين، أَمّا للمؤمنين بيسوع فهو قدرة اللّه وحكمته.كان، وهو راسف في الإِغلال، يودّ أَن يكرّر القول: " ما أَجمل أَقدام المرسلين المبشّرين بالإِنجيل، على الجبال "، ويكرّر، مع إِرميا، القول: " لا تخَفْ، فقد افتديتُك، ودعوتُك باسمك، فأنت لي، ستجتاز المياه، وأَنا إِلى جانبك، وتخوض الأَنهر فلا تغرق، وإِن اجتزت النار، لن تتألّم، ولن يحرقك اللهيب ".كان يودّ أَن يكحّل عينيه، قبل أَن يُطبقا إِلى الأَبد، بوعد الخلاص للعالم أَجمع.

و لا ريب أَنّ أَوراقه التي طلب إِحضارها كانت تتضمّن ملاحظات وخواطر دوّنها، يوماً إِثر يوم، وكان راغباً في جمعها وإِكمال صياغتها، وإِن لم يمهله الأَجل، إِيكالها إِلى لوقا، أو أَحد تلاميذه المشبعين بفكره.ومن هذه الملاحظات نشأت رسالته إِلى العبرانيّين.

في إطار "رسائل الأسر"، تنتظم الرسالة إلى العبرانيّين، التي طالما اختلفت الآراء حول صحّة نسبتها إلى بولس.وما زال الجدل حول هذه النسبة قائماً.غير أنّ زبدة ما تمّ التوصّل إليه هي أنّ الأفكار التي تناولتها الرسالة هي أفكار بولس، ولكنّ من دبّجها هو شخصٌ مقرّب منه تمثّل، بعمقٍ، فكره ولاهوته، واستند على ملاحظات دوّنها الرسول، على فترات متقطّعة، ولم يتسنّ له جمعها وبسطها في عمل مكتمل، فاعتمدها رفيقٌ له أو تلميذ وصاغها بأسلوبه.

أفكار بولس تتجلّى من خلال التأكيد على أنّ يسوع تألّم، طوعاً، لخلاص البشر؛ وبصلبه وقيامته انتهى العمل بالشريعة التي أُبطلت، وقام مقامها عهد جديد أبديّ؛ وأنّ يسوع هو صورة اللّه أبيه، يسمو على الملائكة والأنبياء، وله الاسم الذي يفوق كلّ اسم.

أمّا الأُسلوب، فعلى نقيض أسلوب بولس البركانيّ المتفجّر، حيث تتجلّى شخصيّة بولس من خلال كلّ سطر، هو أُسلوبٌ هادئ سلس، منتظم التأليف.أمّا شخصيّة الكاتب فممعنة في التواري.إنّه أُسلوب يونانيّ رفيع، تجلّت جزالته الفريدة، بالقياس إلى سائر كتب العهد الجديد، منذ سطورها الأولى.ولا نجد فيه عبارات "المسيح يسوع" أو "في المسيح" التي تتكرّر باطّراد في رسائل بولس؛ وهذه الرسالة تفيض بالشواهد المستقاة من كتب العهد القديم، ولكنّها تورد هنا حرفيّاً وفق الترجمة السبعينيّة، لا بتصرّف كما كان يفعل بولس معتمداً ذاكرته.وقد تباينت الآراء حول هويّة هذا الكاتب فقيل أنّه لوقا، وقيل أبلُّس، وقيل برنابا؛ واللّه، وحده، هو العليم بهويّته الصحيحة.

و تختلف هذه الرسالة عن سائر الرسائل بكونها تخلو من المقدّمة التقليديّة التي تبيّن اسم المرسل والمرسَل إليه؛ وإنّما استُنتِج، من بعد، أنّها موجّهة إلى العبرانيّين، والمقصود بهم مسيحيّون من أَصل يهوديّ، يعيشون، على الأرجح، في أورشليم، في أوج استعار الروح الوطنيّ المقاوم للاحتلال الرومانيّ، قبيل تدمير الهيكل عام 70، ممّا حدا بكثيرين من هؤلاء إلى التعبير عن ولائهم الوطنيّ بالعودة إلى ممارسات الشريعة اليهوديّة، فكان لا بدّ من تذكيرهم بأولويّة العهد الجديد والأبديّ الذي عقده المسيح، وقدّم ذاته، عنه، ضحيّة نهائيّة.

محور هذه الرسالة، إذن، هو شخص يسوع المسيح الذي يحتلّ المكانة السميا، وينتصب، وسط تاريخ الخلاص، فريداً، بوجوده الأزليّ، وعمله الفدائيّ الكامل على الأرض، وحياته الأبديّة المجيدة؛ إنّه هو الذي يتمّم، ويُكمل، ويوجز كلّ شيء، في ذاته، لأنّه، بطبيعته،

امتلاء، ووساطته كاملة، وضحيّته فريدة نهائيّة، ومعاهدته أَبديّة، وفق ما جاء في مقدّمة الرسالة:

" إِنّ اللّه، بعد إِذ كلّم الآباء قديماً بالأَنبياء مراراً عديدة، وبشتّى الطرق، كلّمنا نحن، في هذه الأَيّام الأَخيرة، بالابن الذي جعله وارثاً لكلّ شيء، وبه، أَيضاً، أَنشأ العالم، الذي هو ضياء مجده، وصورة جوهره، وضابط كلّ شيء، بكلمة قدرته، الذي، بعد إِذ طهّرنا من خطايانا، جلس عن يمين الجلال في الأَعالي، فصار أَعظم من الملائكة بمقدار ما الاسم الذي ورثه يفضل اسمهم ".

لا يحتلُّ يسوع المكانةالأَولى، بل المكانة كلّها، مكانة فريدة، فهو ليس ابن اللّه البكر، بل الابن الوحيد، وإِنّما نحن، به، وبمشاركتنا له، نكتسب بنُوّة اللّه.وهو ليس نبيّاً في قائمة الأَنبياء، بل هو كلمة الآب ذاتها.وهو يتميّز عن الملائكة، فهؤلاء هم خَدَمة اللّه، أَمّا هو فابن اللّه، ربّ البيت، وسيّد السماوات، وله كلّ صفات اللّه وامتيازاته.وهو لم يأتِ ليعلن اللّه، بل هو ذاته إِعلان اللّه.ومع ذلك هو إِنسان كامل، ويحبُّ أَن يدعى "ابن البشر".

إِنّه الوحيد، ابن اللّه الوحيد، ومرسل اللّه الوحيد، والوسيط الوحيد، والكاهن الوحيد؛ وكلّ ما نحن عليه إِنّما نستمدّه منه، ونبلغه باسمه، وفيه، وله.

و تستفيض الرسالة في إِظهار المسيح كاهناً فذّاً، أَمثل، بل الكاهن الوحيد الأَبديّ.كهنة العهد القديم " كانوا كثيرين، لأَنّ الموت كان يحول دون بقائهم.أَمّا هو فلكونه يبقى إِلى الأَبد، له كهنوت لا ينتقل.ومن ثمّ فهو قادر أَن يخلّص تماماً الذين به يتقرَّبون إِلى اللّه، إِذ إِنّه، على الدوام، حيٌّ ليشفع فيهم ".إِنّه " حبرٌ قدّوس، زكيّ، بلا عيب، قد تنزّه عن الخطيئة، وصار أَعلى من السماوات.لا حاجة له أن يقرّب، كلّ يوم، مثل الأَحبار، ذبائح عن خطاياه الخاصّة أَوّلاً، ثمّ عن خطايا الشعب، لأَنّه فعل ذلك، دفعة واحدة، حين قرّب نفسه".

الهيكل كان رمزاً لملكوت اللّه القادم، أَمّا يسوع فقد "جلس عن يمين عرش الجلال في السماوات، خادماً للأَقداس والمسكن الحقيقيّ الذي نصبه الربّ لا الإِنسان".

كان الكهنة يقدّمون دماء ذبائح، دماء عجول وتيوس وخراف، ويعيدون التقدمة كلّ سنة.أَمّا يسوع فقدّم دمه الخاصّ، لمرّةٍ واحدة، وكان لتقدمته مفعول أَبديّ.إِنّه " لم يدخل مقدِساً صنعته الأَيدي، صورة للحقيقيّ، بل دخل السماء بعينها ليظهر الآن أَمام وجه اللّه لأَجلنا، لا ليقرّب نفسه مراراً، كما يدخل الحبر، كلّ سنة، بدم غيره.غير أَنّه الآن، في الأزمنة الأَخيرة، ظهر مرّة واحدة، ليبطل الخطيئة بذبيحة نفسه ".والذبائح التي كان يقدّمها الكهنة " لا قِبَل لها البتّة على إِزالة الخطايا، أَمّا هو، فإذ قرّب عن الخطايا ذبيحة وحيدة، جلس عن يمين اللّه إِلى

الأَبد، منتظراً، من بعد، أَن يوضع أَعداؤه موطئاً لقدميه؛ لأَنّه، بتقدمةٍ وحيدة، جعل مقدَّسيه كاملين على الدوام ".

و بذلك عقد مع البشر عقداً، هو عقد روحٍ وقلب، به يربط الإِنسان، بصفته إِنساناً، مع إِنسانيّته، ومع اللّه أَبيه، عبر ذاته.

و على من آمن بهذا العهد الجديد أَلاّ يعود إِلى ممارسات العهد القديم: " فإِنّه من المحال على الذين نالوا، مرَّة، نور الإِيمان، وذاقوا الموهبة السماويّة، وأُشركوا في الروح القدس، وتذوّقوا كلمة اللّه الطيّبة، وقوّات الدهر الآتي، أَن يُجَدّدوا، ثانية، بالتوبة، إِذ إِنّهم يعيدون، بأَنفسهم، صلب ابن اللّه، ويشهّرونه ".

و من ثمّ فواجب من آمن أَن يثبت في إِيمانه، ولو اضطرّوا إِلى مقاساة الاضطهاد والمضايق في سبيله: " تذكّروا الأَيّام السالفة التي بعد أَن أُنرتم فيها، صبرتم على نضالٍ طويل، مؤلم، فكنتم، مرَّةً، مشهداً للناس، بالتعييرات والمضايق، وأُخرى، شركاء للذين يعامَلون بمثلها.أَجل، إِنّكم قد تألّمتم مع الذين في القيود، ورضيتم بانتهاب أَموالكم فرحين، لعلمكم أَنّ لكم ثروة أَفضل وأَبقى.فلا بدّ لكم من الثبات حتّى، إِذا ما علمتم بمشيئة اللّه، تفوزون بالموعد ".

و تقدّم الرسالة تعريفاً رائعاً للإِيمان، فهو " قوام المرجوّات، وبرهان غير المرئيّات، به شُهد للأَقدمين شهادة حسنة.بالإِيمان نفهم أَنّ العالم قد أنشئ بكلمة اللّه، بحيث أَنّ المرئيّات صدرت عمّا لا يُرى ".وتستفيض الرسالة في سرد مآتي الأَقدمين الصالحين الذين تسلّحوا بالإِيمان.وتدعو إِلى السعي، بثبات، " إِلى الميدان المفتوح أَمامنا، شاخصين بأَبصارنا إِلى مُبدئ الإِيمان ومكمّله، إِلى يسوع الذي، بدل السرور الموضوع أَمامه، تحمّل الصليب – هازئاً بعاره – وجلس عن يمين عرش اللّه.فتأمّلوا، بتفصيل، ما قاساه الذي صَبَر على مثل هذه المقاومة لشخصه من قبل الخطأة، لئلاّ تكلّ نفوسكم وتخور".

و تنتهي الرسالة بتوصيات سلوكيّة عامّة: " اقتفوا السلام مع الجميع، والقداسة التي بدونها لا يعاين الربَّ أَحد.إحرصوا أن لا يُحرَم أَحدٌ من نعمة اللّه، وأَن لا ينبُت فيكم جذر مرارة يُحدث بلبالاً ويفسد الجماعة ".ويوصي بالإِعراض عن كلام المضلّلين: " إِذ قد حصلنا على ملكوت لا يتزعزع، فلنتمسّك بالنعمة، ولنعبد بها اللّه عبادةً مرضيّة، في ورعٍ وتقوى.***فإِنّ إِلهنا نارٌ آكلة.***

" اثبتوا على المحبّة الأَخويّة.لا تنسوا ضيافة الغرباء إِذ بها أَضاف أناسٌ ملائكةً وهم لا يعلمون.أُذكروا الأَسرى كأَنّكم مأسورون معهم، والمجهودين كما أَنّكم أَنتم، أَيضاً، في الجسد.ليكن الزواج مكرّماً عند الجميع، والمضجع بلا دنس، لأَنّ اللّه سيدين الفسَّاق

والزناة.نزّهوا سيرتكم عن حبّ المال، قانعين بما عندكم..." أُذكروا مُدبّريكم الذين كلّموكم بكلمة اللّه.تأمّلوا في عاقبة سيرتهم، واقتدوا بإِيمانهم.إِنّ يسوع المسيح هو، هو، أمسِ واليوم، وإِلى الدهور، فلا تنخدعوا بتعاليم متنوّعة وغريبة "...

و تختم الرسالة بنبأ الإِفراج عن تيموثيوس، وبتحيّات من الذين من إِيطاليا.فمتى وكيف ولمَ سُجن تيموثيوس ؟ ومن هم الذين من إِيطاليا؛ هذه الإِشارة الأَخيرة العابرة تلقي مزيداً من الغموض على ظروف كتابة هذه الرسالة، وتطرح المزيد من التساؤلات.

ربّما تغيّر مظهر بولس، ولكن لا العمر، ولا الأتعاب، ولا الأَسر، نالت من همّة جنديّ المسيح.لقد أقفرت قمّة رأسه، واصطبغ صدغاه وقذاله ولحيته بالبياض، وحفر الهزال في وجنَتيْه وجبينه أخاديد، ولكنّه ما انفكّ منتصب الهامة، متوقّد العينين، أنوف النظرة، مثلما كان وهو طالب عند قدمي غمالئيل، وعلى شفتيه الجافّتيْن ما فتئت تطوف بسمة سرّيّة، بسمة من رأى غير المرئيّ. " أيّ تدفّق شباب لدى ذاك الستّينيّ يحسده عليه الشبّان، وأيّ ألقٍ في عينيْ ذلك الحبيس القابع في العتمة، وأيّة حرّيّة لدى ذلك الراسف في الأغلال ! وأيّ سلام داخليّ لدى ذاك الذي بات بعيداً، في ما يتخطّى القضبان والسجّانين ! "

و ذات صباح فُتح باب زنزانته، وأعلن الحارس: " أيّها المتّهم، اتبعني ! "

و جرت محاكمته الثانية والحاسمة.ويُعتقد، وفقاً لشهادات منسوبة إلى الأُسقف لينُس، خليفة بطرس الأوّل، أنّ نيرون نفسه تولّى مقاضاة بولس.وقد استشاط غيظاً حيال رباطة جأش الرسول، فقال له: " أنتَ، يا رجلَ لستُ أدري أيّ ملك، لا تنسَ أنّك سجيني..." وأجابه بولس: " أجل، أنت سيّد قدير، ولكنّك لو آمنت بملكي فلن تندم، فهو، عندما سيأتي ليدين الأحياء والأموات، سيحرق بالنار كلّ ما هو بارزٌ في هذا العالم ".

و كانت التهمة الموجّهة إلى بولس هي استنفاره جنوداً يوظّفهم في خدمة المسيح وحده؛ فهو، إذن، يؤلّف جيشاً خاصّاً مزرياً، إزراءً وقحاً، بسلطة قيصر، ومعرّضاً أمن الدولة للخطر، وعقوبة هذه التهمة هي الإعدام.هذا الحكم كان مقرّراً سلفاً، فقد كان الحقّ هو الراسف في الأغلال، والجريمة هي الجالسة على كرسيّ القضاء.

و لم تفتقر السلطات إلى شهود مأجورين أسهمت شهادتهم في تعجيل إدانة بولس.وربّما كان منهم ساحران يدوران في فلك البلاط الأمبراطوريّ، هما سمعان الذي كان قد اشتبك مع بطرس من قبل، والمصريّ تيبيريُس كلوديُس بلبلُّس، الذي كان قد تصادم مع بولس في أفسس، وتولّى، من بعد، مركزاً هامّاً في قصر نيرون.

لطالما لامس بولس الموت، وشاهده عن كَثَب، لا بل اختبره في انخطافاته الصوفيّة.وها قد حان له أن يلقاه، مادّيّاً، نهائيّاً، بلا رجعة.ولكنّه، بقوّة إيمانه، انتزع من الموت شوكته، حين جعل يسوع مركز حياته، وقوامها، وجوهرها.وفي ليلة سجنه الأخيرة، تجرّدت نفسه من كلّ ارتباطٍ أرضيّ، وباتت تعكس، مثل مرآة صافية، صورة المصلوب.وحينئذٍ ارتدت تقدمة مسيرته الرسوليّة معناها الأقصى.

و في فجر اليوم التالي فُتح باب الزنزانة، ثانيةً، ولم يكن بولس نائماً، إذ أَنفق الليل ساهراً يناجي سيّده، معرباً له عن فرحه بلقائه الوشيك.وربّما استرجع الرسول، في تلك الساعات الأَخيرة، مسيرته الرسوليّة، مذ أَشرقت عليه أَنوار الربّ في دمشق.سنوات طوال كرّت سريعة، ولم يجد فيها مايندم عليه.فكلّ شيء قد تمّ وفقاً لمشيئة الربّ، الذي كرّس له كلّ دقيقة من حياته.

و قُبيل بزوغ الشمس انطلق موكب الموت، بإمرة قائد مئة، يتلوه، عن كثب، موكب آخر ضمّ حفنة من أَصدقاء بولس: لوقا، ولينُس وبوذيس، وتيموثيوس ومرقس اللّذين كانا قد هرعا لتلبية نداء معلّمهما الأخير.وعلى بعد خطوات من هؤلاء سار فضوليّون تجتذبهم مشاهد الإِعدام، كما تجتذب الدماءُ الذباب.وسار الجميع زهاء ساعة حتّى بلغوا منطقة أوستيا، التي تبعد نحو خمسة ألاف متر عن أَسوار المدينة، حيث وادٍ خاشع تحيط به الهضاب المكسوّة بالأَشجار، وحيث تتدفّق مياه تدعى " المياه الخلاصيّة "؛ وهناك مُنح الرسول بضع دقائق هدنة، فاتّجه صوب الشرق، وصلّى، للمرَّة الأَخيرة، إِلى من سيقابله، وجهاً لوجه، بعد ثوانٍ معدودات؛ ثمّ أمر القائد بتقييده إِلى عمود، وبجلده، ثمّ مُدّدت عنقه فوق صخرة، وأَهوى عليها جنديّ بسيف قاطع كان يحمله بكلتا يديه.وتروي أساطير تقويّة أَنّ هامة الرسول، عندما هوت إِلى الأَرض، توثّبت ثلاث مرّات، ومن كلّ مكان لامسته، في توثّبها، تفجّرت نبعة ماء، فدعي ذلك المكان، حتّى اليوم "تري فونتاني"، أَي الينابيع الثلاثة.وتروي الأَساطير عينها أَنّ شفتيْ بولس، بعد أَن قُطع رأسه، تمتمتا بالأَراميّة، اسم يسوع، قبل أَن يصمت، إِلى الأَبد، ذلك الفم، الذي، سحابة سنوات، لم يتلفّظ بكلمة لا تقطر طعم يسوع.ويُقال أَنّ نوراً باهراً، غمر المكان، عندما هوى رأس الشهيد، يحاكي الضوء الساطع الذي كان قد بهره عند مشارف دمشق، لثلاثين سنة خلت.أَساطير ابتدعتها مخيّلات تقيّة، ولكنّها لا ترقى إِلى روعة واقع الشهادة البسيط المجرّد.ويقال أَنّ بطرس صُلب، في اليوم عينه الذي قطع فيه رأس بولس، فجبل الرسولان العظيمان بدمائهما وحدة الكنيسة.ويُقال أَيضاً أَنّ بولس استُشهد على مقربة من أَرزة، وبطرس على مقربة من بطمة.فذينك الرسولان كانا، بلا مراء، أَشمخ شجرتين في حقل كنيسة يسوع، وكان يجمعهما هوىً واحد ليسوع.وما أَصدق رؤية ذلك الفنّان الذي، في القرن الثاني، حفر إِيقونة يحمل كلٌّ من وجهيها رسم أَحد هذين الرسولين العظيمين !

على موقع الإِعدام، تسهر، في خشوع وحبّ، أَشجار باسقات، وأَديرة لنسّاك وراهبات، منهنّ أخوات يسوع الصغيرات، يخلّدون بتقواهم وورعهم ذكرى من جاد بحياته، لنشر حبّ من بذل نفسه لخلاص العالم أجمع.وفي ذلك الموقع، أَيضاً، أُشيدت ثلاث كنائس،

تحتضن إِحداها الصخرة التي جُزَّت عليها عنق الشهيد، ويدلّ ارتفاعها على أَنّه أُعدم وهو واقف.ويتقابل فيها هيكلان تكريماً لهامتي الرسل: بطرس وبولس.

و ما كاد ينصرف منفّذو الإِعدام حتّى وافى أَصدقاء بولس، فأَخذوا جثمانه ورأسه كي يدفنوهما دفناً لائقاً، مخاطرين بحياتهم، في سبيل الوفاء للشهيد العظيم الذي أَجلّوه.ومضوا بهما إِلى مزرعةٍ قريبة من مقبرة عامّة، تبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن موقع الإِعدام، وتخصّ سيّدة رومانيّة تدعى لوشينا.ورقد جثمان رسول الوثنيّين، في أَرضٍ كانت وثنيّة، فغدا بذرة طيّبة لمئات أُلوف المسيحيّين.وأَشاد المسيحيّون فوق لحده ما يحاكي نصب نصر يليق بفاتح المسيح المقدام.وحفرت على الشاهدة هذه الكلمات البسيطة: "بولس: رسول وشهيد "، التي، في إِيجازها عبّرت عن كلّ شيء، واختزلت مسيرة ذلك الرجل الفذّ الذي جعلت منه المشيئة الإِلهيّة أَحد أَبرز شهودها.فمنذ تلك الظهيرة المتوهّجة، عند مشارف دمشق، التي بهر فيها ظهور يسوع شاولَ المضطهد المنهار، حتّى ذلك الصباح المغبرّ، على طريق أوستيا، حيث أُريق دمه، كرّس بولس كلّ يوم عاشه في سبيل قضيّة يسوع، وتضافرت كلّ أَفكاره وجهوده، في سبيل مجده.وقد توّجت الشهادةُ التضحية الكاملة التي وسمت حياة من ابتغى أَن يتمّم، في جسده، ما نقص من آلام المسيح، وحرص على أَن يُصلب معه.ولئن تضخّم عدد الشهداء، على امتداد تاريخ الكنيسة، أولئك الذين غذّت دماؤهم بذور جماهير المسيحيّين، إِلاّ أَنّ بولس يحتلّ، في موكب الشهداء، مكانة مميّزة اعترفت له بها الكنيسة، أَبداً.

في القرن الثالث حاول الإِمبراطور فاليريانُس نهب كنوز المسيحيّين، وتدمير مدافنهم، فسارع مسيحيّو روما إِلى إِخفاء جثماني الرسولين بطرس وبولس، في دياميس القدّيس سيبستيانُس.ثمّ أَعاد البابا سلفسترس الجثمانين إِلى مدفنيهما الأَصليّين.وفي القرن الرابع قرّر الإِمبراطور قسطنطين تكريم الرسول بولس بمدفنٍ أَكثر لياقةً به، فبنى فوق لحده كنيسة.غير أَنّ الأَباطرة الثلاثة الذين خلفوه ارتأوا أَنّ هذه الكنيسة من الصِّغَر بحيث لا تليق بعظمة الرسول، فقرّروا توسيعها، وتعاقب على الاضطلاع بهذه المهمّة كلٌّ من فالنتيانُس الثاني، وثيودوسيُس الكبير، وهونوريُس، وفرغوا، عام 395 من بناء كاتدرائيّة القدّيس بولس الشهيرة، التي فاقت، عظمةً وجرأة هندسة، كلّ أَبنية العهد القديم؛ فقد بلغ طولها مئة وعشرين متراً، وعرضها ستّين متراً؛ وما انفكّت، طيلة أَربعة عشر قرناً تزدان وتكتسي مزيداً من بهاء، صامدة في وجه البرابرة الغزاة، والهزّات الأَرضيّة، إِلى أَن أَتى عليها حريق هائل عام 1832.وأُعيد بناؤها بفضل تقادم مسيحيّي العالم أَجمع، فحافظت على أَبعادها السابقة، ولكنّها ارتدت حلّة قشيبة، أَكثر بذخاً، إِذ استُخدم في بنائها مئات أَصناف الرخام الفاخر، فجاءت أَشدّ

تألّقاً، ولكنّها فقدت جمالها السابق الساذج.انتهت أَعمال إِعادة البناء عام 1854، ونُقش فوق الهيكل الرئيسيّ قول بولس: "الحياة لي هي المسيح، والموت ربح"

هذه العبارة المقتضبة تختصر كلّ بولس

غير أَنّ ما يخلّد بولس، أَكثر من تلك الصروح الحجريّة الرائعة التي أُشيدت تكريماً له، صرح رسائله، فهي تخلّد إِنجيل النعمة التي " كشفها لنا الربّ بظهور مخلّصنا، يسوع المسيح، الذي قضى على الموت، وأَنار الحياة والخلود، بالبشارة التي أُقمتُ لها مبشّراً، ورسولاً، ومعلّماً للأُمم "

و لئن مات مسيحيّون كُثُر ميتةً بطوليّة، إِلاّ أَنّ أَحداً منهم لم يدمغ التاريخ مثلما فعل بولس، فقد كان استشهاده تتويجاً لحياته، وإِبرازاً لمعناها العميق، ومصداقاً لرسائله التي كان لها أَثرٌ بليغ في مجرى تاريخ العالم.

الجزء الثالث

تعليم بولس، شخصيّته، وأَثره

الفصل الرابع عشر : ملامح الرسول

بولس رسولاً

من حَدَث دمشق المزلزل وُلد بولس الرسول. ومذ انتدبه المصلوب رسولاً استحوذ عليه هوى الرسالة. فباتت صفة الرسول ملازمة لاسمه ولكأنّها جزء منه يتمّمه. لا شيء، من قبل، كان يُعدّه لهذه المهمّة، فتربيته الربّينيّة كانت تهيّئه للجلوس على كرسيّ الزعامة الدينيّة، منتفخاً صلفاً، محاطاً بالتكريم، مفتياً في ما يعدّه، وفقاً للشريعة، مشيئة اللّه، وإذ بيسوع الذي كان يضطهده يفرض عليه أن يجوب الآفاق، ويخوض الصعاب، كي ينشر معرفته، وحبّه، وإنجيله، في كلّ بقاع المسكونة.

وإثر حَدَث دمشق راجع بولس حساباته، وأعاد قراءة الكتب، فإذا بيسوع في كلّ مكان.ويسوع نفسه دأب، في صبرٍ وأناة وحنان، على استخراج الإنسان الجديد منه، مضمّداً جراحه النازفة، وكبرياءه المحطّمة، مدمّراً آراءه المسبقة، متسلّلاً إلى أغوار ذاته، باثّاً روحه في روحه، وحبّه في فؤاده، قلباً لقلب، عبر حوار حميم لا ينقطع. لقد استولى يسوع على كيانه، فحرص بولس على مبادلته حبّاً بحبّ، ولم يعد العمر كلّه، بكلّ ثانية فيه، كافياً للتعبير عن هذا الحبّ. وهبّ، يدفعه حضور غامر غير مرئيّ، منطلقاً بلا توقّف، خائضاً بحاراً وفيافي، متوقّلاً جبالاً، مجتازاً سهولاً، قاطعاً آلاف الكيلومترات، زارعاً اسم يسوع في كلّ مكان، مستنهضاً له مؤمنين وأتباعاً أوفياء، وسط الاضطهادات والآلام، ونشوة الاندفاع والنجاح، موظّفاً لهذه المهمّة كلّ خصاله وطاقاته ورؤاه، والمواهب الفريدة التي خصّه بها الربّ.

دعي بولس إلى الإسهام في عملٍ ابتدأ عهداً طويلاً قبله، ولن ينتهي إلاّ طويلاً بعده، عندما ستبلغ البشريّة مرحلة ملء المسيح، ويصبح يسوع كلاًّ في الكلّ. وكان بولس أداة للربّ في هذا العمل الذي انتدبه له مذ كان جنيناً.

و مذ تلقّى تكليفه من الربّ مباشرة، أيقن أنّ عليه غزو العالم، لحساب يسوع، فلم يعد عائق قادراً على الحدّ من اندفاعه، حتّى يؤدّي الشهادة أمام العالم أجمع.

البون بين جسامة رسالة بحجم الكون، انتُدب لها، وهشاشة الوسائل المتاحة له، ووهنه الشخصيّ، كان شاسعاً، ولكنّه لم يثــبّط عزيمته، فهو الذي رأى المصلوب قاهراً الموت، وتلقّى منه التكليف بالرسالة، بات موقناً أنّه، بصليب يسوع، سيتغلّب على كلّ شيء، حتّى على عوامل الموت.

لقد شُبّه بولس الرسول بمتسابق في حلبة مترامية الأَطراف، أعدّ للسباق عدّته بدقّة، ووزّع طاقاته على كلّ مرحلة بتبصّر، لكيلا يستنفدها بسرعة، ويعجز عن بلوغ الهدف. وقد علّمته خبرته، بما انطوت عليه من نجاح وفشل، أَفضل الوسائل لتحقيق مخطّط الخلاص، ولتمكين الكلمة من الجري حتّى أَقاصي الأَرض. وهو، في سبيل بلوغ هدفه، يجتاز مراحل ثلاث :

الجري الماراثونيّ : أَي الكرازة بلا توقّف، ومواصلة الجري إِلى الأَمام حتّى إِصابة الهدف. والهدف لا يكمن في نهاية جهوده، بل في نهاية رغباته اللامحدودة. العوائق لا يلحظها إِلاّ بعد تخطّيها؛ ولكن عندما يتعرّض إِيمان أَبنائه لخطر، ويحاول أَعداؤه، أو ضعاف النفوس من بنيه، إِفراغ الصليب من معناه، فهو يعرف كيف يلتفت إِلى الوراء كي يضرب بحزم، ويكتب رسائل تضجّ بالهوى، يمتزج فيها نفاد الصبر بقلق الأُمّ.

مذ التقى يسوع في دمشق أَخذت محبّته بمجامع قلبه؛ لا بل بات يسوع هو كلّ حياته، وأَمسى الموت الذي يجمعه به، من غير انفصال، ربحاً. وأَيّة مخاطر قادرة على إِخافة من يعدّ الموت ربحاً ؟ ومع ذلك، منذ لقاء دمشق، باتت كلّ لحظة من حياته ثمينة لأَنّها موقوفة على التعريف بيسوع، وعلى نشر حبّه. إِنّه يبذل حياته، بلا تحفّظ، ولكنّه لا يفرّط فيها. إِنّه يريد أَن يعيش لكي يكرز، وهو يكرز، فعلاً، ليلَ نهار، ويعلن كلمة اللّه بوقتها وبغير وقتها. حياته، إِذن، في هذه المرحلة، سباق متّصل يتوخّى إِطلاع العالم أَجمع على غنى النعمة الخلاصيّة التي لا يُسبَر لها غورْ.

كيف يكرز ؟ بكلّ الوسائل المتوفّرة. يخاطب الأَفراد والجماهير، يردّ على تساؤلات من يقصدونه، ويقصد بنفسه من يحتاجون إِلى تبشير. يحدّث كلاًّ من محاوريه بلغته، ويستدلّ بعلامات الأَزمنة. يُنفذ الرسائل، ويوفد المندوبين. وهو، خاصّة، يصلّي من أَجل المؤمنين، ويحمل، في صلاته، كلاًّ منهم.

أَين يكرز ؟ لا يفوّت سانحة لإِعلان الإِنجيل في كلّ مكان، حيثما استشفّ ثغرة مفتوحة لنشر البشرى : في الساحات، في المجامع، في البيوت والحوانيت والمحترفات، أو على متن السفن، أَمام السنهدرين، والملك أَغريبا، وفي بيت قيصر. كلّ مكان يصلح له منبراً. وقد أَصغت إِلى كرازته أَهمّ عواصم العالم، آنذاك: دمشق، عاصمة الآراميّين، القدس، عاصمة اليهوديّة، أَنطاكية عاصمة سوريّة التجاريّة، أَثينا، عاصمة الثقافة، كورنثس عاصمة الخطيئة، وأَفسس، عاصمة الجمال، وروما عاصمة الأَمبراطوريّة السياسيّة، وأَخيراً إِسبانية، التي كانت تُعدّ عاصمة تخوم الأَرض.

لمن يكرز ؟ لكلّ إِنسان، فالخلاص متاح للجميع، لليهود والوثنيّن، للملوك، والأُمراء والأَفراد، لحرّاس السجون، للنساء والرجال؛ وجمهوره الأَثير هو الفقراء والمساكين.

في المرحلة الثانية انقلب السباق الماراثونيّ إِلى **سباق تخطّي الحواجز**، فقد تراكمت المصاعب أَمام كلّ خطوة من خطواته. واتّضح أَنّ التألّم في سبيل الإِنجيل ملازم للرسول الذي يتعيّن عليه التضحية بوقته، وصحّته، ومركزه، وكلّ أَسباب الرفاه.

و قد رأيناه يكدّ بيمينه كي يكسب لقمة عيشه وعيش رفاقه، ويضمن مجّانية التبشير، ولم يتّكئ على أَيّ سندٍ مادّيّ أَو سياسيّ.

و قد واجهه جمّاً من المصاعب، منها :

مصاعب ناشئة عن طبيعة رسالته : فقد كان تعليمه زاخراً بالمفارقات التي لم يكن جمهوره مهيّأً لتقبّلها، من جرّاء ضيق أُفق بعضهم، أو عداوة سافرة من بعضهم الآخرين. فاليهود الذين بشّرهم، كانت نفوسهم تعجّ بالآراء المسبقة، وبادّعاءات لا تتوافق والفقر الروحيّ الضروريّ لبلوغ الملكوت. وكان تعليمه كفيلاً بتقويض كلّ ما يعدّونه تفوّقاً لهم، وامتيازاً ما كانوا مستعدّين للتخلّي عنه، فناصبوه أعتى عداء، وأَنزلوا به أَشرس اضطهاد، وتعقّبوا أَثره في كلّ مكان قصده، ولم يهدأ لهم بال، ولم تفترّ شفاههم عن بسمات الرضى، حتّى شاهدوا رأسه يتدحرج على الأَرض مخضّباً بدمائه.

و شارك اليهودَ، في مقاومته واضطهاده، مسيحيّون متهوّدون لم يستطيعوا الانعتاق من ربقة الشريعة، ورأوا في استقبال بولس، في أَحضان المسيحيّة، وثنيّين غير مختونين، ومنبوذين من بيت إِسرائيل، جرأةً تلامس التهوّر، بل التدنيس، في حين أَنّ بولس كان يرى في الوثنيّين أَمل الإِنجيل الأَكبر، والميدان الذي سيلقى فيه يسوع انتصاره الأَعظم. لا بل إِنّه ذهب إِلى أَبعد من ذلك، عندما أَكّد تعذّر التجانس بين روح المسيحيّة الجديد، والشريعة القديمة، وكان بطل الفصل بينهما، وأَداة طلاقهما، إِذ لم يعد سائغاً أن توضع الخمرة الجديدة في زقاق عتيقة بالية. وعلى يده تمّت الولادة العسيرة التي بها انفصلت المسيحيّة عن المجمع اليهوديّ.

و قد قاومت فئة من المتهوّدين بولس عن حَسَد وصغارة نفس، إِذ لم تستطع التسليم بأَن يتبوّأ ذاك الذي لم يعرف يسوع في أَثناء حياته الأَرضيّة، مركزاً يضاهي مركز أَساطين الكنيسة، رفاق يسوع. هؤلاء المتهوّدون جميعهم ما انفكّوا يقتفون آثار بولس كاللصوص، ويجهدون في تقويض ما يبنيه في المشاقّ والدموع.

بيد أَنّ المتهوّدين اضمحلّوا، وبقي اليهود فئة ضئيلة متقوقعة على تقاليد بالية، مجترّة أَمجاداً وهميّة، في حين غطّت المسيحيّة التي حمل بولس مشعلها كلّ أَرجاء المسكونة.

و لم يكن الوثنيّون الذين بشّرهم بولس بأَفضل استعداداً؛ فحكماؤهم راغبون في الجدال أَكثر من رغبتهم في التعلّم. وإِن هم ابتغوا التعلّم، فهم يبتغون الاطّلاع على ما يدور في السماء والعالم، عوضاً عن الاستعلام عن وسائل بلوغ السماء، فضلاً عن استسلام بعضهم للخرافات، وفقدان جميعهم الحسّ الدينيّ، وافتقار أَغلبيّتهم إِلى الحسّ الأَخلاقيّ. ولقد تلقّن، في أَثينا، درساً ثميناً؛ فهو، حتّئذٍ، كان يؤمن بالتحليل المنطقيّ والفكريّ ولكنّه، أَدرك، في عاصمة الإِغريق، أَنّ هذا العالم الساعي إِلى هلاكه يحتاج إِلى رسالة أُخرى، هي التي وصفها في رسالته إِلى الكورنثيّين، ومفادها أَنّ المسيحيّة ليست فلسفة، ولا خطاب حكمة، بل هي تتحدّى العقل البشريّ، وتتخطّى المنطق؛ وهي مدوّنة في صميم القلب البشريّ، فالمسيحيّ لا يثبت الصليب بالبرهان، بل يحياه. وبالتالي، فالرسالة الوحيدة التي يتعيّن نشرها هي مَهانة ابن اللّه المصلوب المنتصرة. فما يرفض الربّ كشفه لفضول العقل، يجلوه للقلوب البسيطة. والخلاص الذي رفضته أَثينا المعتدّة بعقلها تقبّلته، بفرح، كورنثس المشهورة بانحطاط أَخلاقها. وما فشل في عاصمة الفسلفة نجح في عاصمة المال والفجور حيث نشأَت جماعة غنيّة بإِيمانها، حارّة في اندفاعها، بحيث استأثرت بقلب بولس وحبّه. وعندما يخاطب بولس الكادحين، والعبيد، وحثالة المجتمع، لا يتحرّج من التحدّث إِليهم بأَمور تبدو لهم حماقةً صرفاً. فهو، على سبيل الشاهد، حدّث الكورنثيّين الغائصين في الدعارة غوص السمك في الماء، لا عن العفّة في إِطار الزواج فحسب، بل دعاهم، أَيضاً، إِلى البتوليّة، وأَوصى بفضائل وأَنماط سلوك سامية، لا لدواعٍ اجتماعيّة، أو صحيّة، أو نفسيّة، بل تمثّلاً بالمسيح.وفي كلّ مكان علّم أَنّ لا فضل لليهوديّ على اليونانيّ الوثنيّ، ولا فضل للوثنيّ على البربريّ، وكانت تلك خير وسيلة لإِغاظة اليهود، والوثنيّين والبرابرة على السواء.

حماقة هذا التعليم لم تغب عن بال بولس، ولكنّه من هذه الحماقة عينها كان يستمدّ رجاء انتصاره، فقد كان قانعاً، قناعةً راسخة، بأَنّ " جنون الصليب " سيتغلّب على " حكمة العالم "، لأَنّ هذه الحكمة هي حماقة في عين الربّ. إِنّها مفارقة مطلقة، ولكنّ بولس لم يبتدعها، بل استقاها من نبعٍ خالد، من عظة يسوع على الجبل، ولذلك، كان واثقاً من النصر، وبفضل هذه القناعة جنى ثماراً وفيرة حيثما نشط. ولكن، دون ذلك النصر، كان عليه تخطّي عقبات كأداء من كلّ نمط، ومكابدة اضطهادات من كلّ لون، وبالإِجمال **كانت كرازته بالصليب هي صليب كرازته.**

في سبيل هذه الكرازة تعرَّض بولس **لهجوم شخصيّ** حفل بالشتيمة والمهانة، والاتّهام بشتّى الذمائم، وحارب الوحوش، وضحّى بأثمن صداقة كانت تدفئ قلبه.

هذه الافتراءات كانت توجعه في الصميم ولا سيّما عندما تصدر عن مسيحيّين تنكّروا لإنجيل يسوع إكراماً لشريعة بالية عجزوا عن الانعتاق من ربقتها، أو تصدر عمّن أنجبهم على الإيمان، ولكنّهم أمالوا آذانهم للحاسدين المفسدين المتخرّصين، وتجاهلوا الصليب الذي يتعيّن على الرسول التمثّل به، وغفلوا عن أنّ ما يُعزى إلى بولس من وَهن لا يُنقص من سلطته الرسوليّة في شيء، بل هو يتيح لنعمة يسوع أن تُظهر كلّ قدرتها فيه. ولئن هو هبّ داحضاً هذه الافتراءات، فهو لم يفعل ذلك دفاعاً عن كرامته، بل ذوداً عن متانة رسالته، وصحّة تعليمه، وسلامة الإيمان الذي علّمه.

و في سبيل الرسالة تصدّى **لمصاعب مدنيّة** مع السلطات، فاعتُبر مثيراً للشغب، مقاوماً للحكّام، وسُجن، وجُلد، وضُرب بالعصيّ، ورُجم.وفي سبيلها، أيضاً، عانى **أزمات نفسيّة**، واضطرابات شتّى مصحوبة بالخوف، والفشل، والإحباط أحياناً، والقلق على تلاميذه ومعاونيه الذين يكلّفهم بمهامّ خطيرة، وعلى الجماعات التي أنشأها والتي ما انفكّت مترجرجة الإيمان، غير منعتقة تماماً من عاداتها القديمة، متعرّضة لحملات تخريبيّة لأعداء الصليب من يهود ومتهوّدين.همّ كلّ فرد من أبنائه في الإيمان كان يلازمه، والخطر الذي يهدّد أيّاً منهم كان يقضّ مضجعه، أوَ لم يقلْ : " من يضعف، ولا أضعف أنا معه، ومن يقع في الخطيئة ولا أحترق أنا، حزناً عليه ؟ ". وكان همّه الأكبر همّ سلامة الكنائس التي أنشأها، وصمود إيمانها، ووحدتها، وصحّة نموّها لكي تتمثّل بالمسيح. وقد كابد بولس، خيانة بعض الإخوة، وتشكيك مسيحيّين بصدق رسالته وسلامة نواياه.وهل أدلّ على الجرح العميق الذي كان يحمله، من رسالته إلى الكورنثيّين التي كتبها " في كآبة شديدة، وكرب القلب، وفي دموع كثيرة " ؟ ومن الآلام النفسيّة التي ما انفكّ بولس يتجرّعها إمعان أبناء جلدته اليهود في مقاومة الخلاص المسيحيّ، وإنكار يسوع. ولطالما تمنّى أن يُمنى بأقسى المِحَن على أن يهتدوا وينعتقوا من عمى بصيرتهم.

و تعرّض الرسول غالباً **لهجوم جسديّ**، وكثيراً ما ضُرب بالعصيّ، وجُلد بالسياط، ورسف بالأغلال، ورُجم، وسمع هتافات البغض المطالبة بإزالته عن وجه الأرض، لأنّه غير جدير بالحياة. هذا، إضافة إلى مخاطر أسفاره المتواترة من برد وعري، وجوع وعطش، وعواصف، وغرق، ونصَب وسَهد، وهجمات لصوص، وأخطار الموت في كلّ لحظة، والتشرّد المتكرّر، بلا مسكن ثابت ولا أسرة، بحيث غدا مثل "أقذار العالم" و"نفايات الوجود"؛

وفضلاً عن شوكة الجسد التي، وإن جهلنا، حتّى الآن، كنهها، ما انفكّت تهبط ببولس أبداً من ذرى الكرامات الفريدة إلى حضيض بؤس الطبيعة البشريّة وهشاشتها.

هذه المحن كلّها لم يقابلها الرسول باللامبالاة، بل عاناها بعمق، كما يتّضح من قوله في رسالته الثانية إلى الكورنثيّين: "من حين قدومنا إلى مقدونية، لم يكن لجسدنا راحة قطّ، بل كنّا في ضيقٍ من كلّ وجه: من الخارج حروب، ومن الداخل مخاوف "؛ ولكنّه، في مواجهتها، ظلّ متشبّثاً بالمفارقة الإلهيّة، التي وقته من الانهيار، إذ سارعت قوّة خارجيّة فائقة إلى مساندة ضعفه، ضامنة له النصر، فاستطاع أن يهتف بثقة: "أجل، إنّي أُسَرّ بالأوهان، والإهانات، والضيقات، والاضطهادات، والشدائد من أجل المسيح. لأنّي متى ضعفت فحينئذٍ أنا قويّ".

إنّ أسلوب مواجهة الآلام هو الذي يحدّد معدن الرسول، واليقين بأنّ الألم هو ثمن رسالة سامية يجعل النظرة إليه مختلفة، ومواجهته بنظرة أُخرويّة تجعله عديم الشأن بالمقارنة مع المجد القادم.كان مؤمناً أنّ على الرسول أن يكون صورة للمصلوب، وقد تجلّى الصليب لا في كلام بولس فحسب، بل أيضاً في جسده، وفي كلّ حياته المضطربة الحافلة بالمحن، وفي كلّ كيانه الموقوف على الرسالة، ومن جرّاء الرجم والجلد والضرب قد حمل على يديه ورجليه وجبينه وجنبه سمات صلبٍ باقيات، فكان أوّل مسيحيّ دمغه بها المعلّم، وهذا ما أتاح له، وهو سجين في أفسس، وسط الوحوش، أن يكتب إلى الفيليبيّين " رسالة الفرح "، لأنّ أبصاره كانت شاخصة إلى رؤية الأبديّة، شخوص عيون البحّارة إلى المنارة المرشدة إلى المرفأ.

و هو، بعد كلّ ما أنجزه، وكلّ ما بذله من جهد، وما كابده من آلام، في سبيل نشر كلمة الربّ، كان موقناً أنّ إتمام رسالته يقتضي منه أن يكمل في جسده ما نقص من آلام المصلوب. ومع أنّ حدْسه كان ينذره بما ينتظره في أورشليم، إلاّ أنّه لم يتخاذل، ولم يُحجم، لأنّه كان يؤمن إيماناً راسخاً أنّ الحقيقة، كي تنتصر، لا بدّ من أن يراق على جوانبها الدم.

و عند مشارف نهاية الشوط، أمسى سباق بولس، **سباق مراحل.** فقد أظهرت له التجارب أنّ أسقاماً مباغتة، وأوضاعاً خاصّة، حالت، أحياناً، دون تبشيره حيث ومتى كان يودّ التبشير، فترسّخ لديه اليقين بأنّ نشر البشرى ينبغي ألاّ يكون مرهوناً بصحّته الواهية، ومحصوراً بأشخاصٍ معيّنين، بل ينبغي أن يكون متحرّراً من كلّ قيد. فأوكل الرسالة إلى فريقٍ انتقاه وكلّفه بإيكالها، بدوره، إلى آخرين. وهكذا حمل إيبافراس أنوار الإنجيل إلى كولوسّي، وإرستُس إلى كورنثس، وتيموثيوس إلى تيسالونيكي، وتيطس إلى دلماتية وكريت، وهؤلاء جميعاً، فُوّضوا بإنشاء سلطات محلّيّة تتولّى حمل المشعل، وانتقاله جيلاً إلى جيل.

فعقب فترة الاندفاع والانتشار الأولى دأب بولس على ترسيخ التعليم، وتنظيم الجماعات، وبات يؤثر الكتابة على السفر، تاركاً لأعوانه مهمّة متابعة الانتشار. وربّما أدّى ذلك إلى فقدانه، في المدى، ما كان يكتسبه في العمق؛ بيد أنّ هذا الأسلوب قد مكّنه من اختراق الوسط اليونانيّ الرومانيّ.

و بعد أن بدأ بولس عضواً في فريق برنابا ألّف فريقه الخاصّ، وثقّف مبشّرين يتولّون متابعة المهمّة، ويوصلون الرسالة إلى أقاصي المسكونة؛ بلّغهم رؤيته الإنجيليّة، وهيّأهم لتثقيف آخرين. وغدا إعداد المبشّرين مهمّته الأُولى، وإن هي اضطرّته إلى الانقطاع، فترة، عن الكرازة التي كانت قوام حياته، بعد أن أيقن أنّ هذه التضحية ضروريّة لغرس بذور الملكوت. وبات الرسول ينفق معظم وقته مع معاونيه، يطلعهم على أسرار الرسالة وسموّها، ويوطّد فيهم القناعة بأنّ ما من رسول فرد يتفوّق على فريق مبشّرين. وقد بلغ عدد معاونيه اثنين وسبعين رسولاً يتمتّعون بمواهب مختلفة، ولكن يجمعهم هوى رسالة واحد.

لقد كان بولس يمتلك سرّ استنفار رجال ونساءٍ لا يتردّدون في هجر أوطانهم، وبيوتهم ولغاتهم، من أجل مواجهة المخاطر والفقر والسجون. وممّا ساعده على ذلك أنّه :

بلّغهم الإنجيل بنفسه، وكان أداة تعريفهم بالحياة الجديدة في يسوع؛

و أيقظ فيهم الدافع مؤكّداً لهم "أنّ العطاء أعظم غبطة من الأخذ؛"

و أوكل إليهم مهمّات خاصّة وخطيرة، واثقاً في مواهبهم وكفايتهم؛

و ما انفكّ يصلّي من أجلهم ليلَ نهار؛

و أنفذ إليهم رسائل خاصّة.

و أوضح لهم أنّ التمرّس بالكرازة يتحقّق بالمثابرة، وبيّن لهم صفات الرسول الذي يتعيّن عليه أن يحاكي :

أباً، ينجب، بالإنجيل، أبناء ليسوع، وأُماً تعاني آلام المخاض، وتحيط أبناءها بالعناية؛

راعياً ساهراً على سلامة القطيع، وحافظاً إيّاه من المخاطر؛

سفيراً مفوّضاً متحدّثاً باسم يسوع،

فلاّحاً يحرث أرض اللّه المقدّسة،

جنديّاً متفرّغاً لمهمّته، لا يثنيه عنها أيّ اهتمام آخر، وقادراً على تحمّل كلّ المتاعب، بطلاً يقاتل بكلّ طاقاته، وبلا هوادة،

خادماً، خاضعاً لسلطة، عاملاً بتواضع ومتعاوناً مع العاملين في الحقل عينه،

شاهداً على قيامة يسوع، وداعية يعلن البشرى،

معلّماً ينشر أنوار الحقيقة، وتنهض حياته مصداقاً لأقواله،

مهندساً يضع أَساس البنيان، ويرسم هيكله.

و يذكّر بولس معاونيه، بصفتهم أَعوان اللّه، وخدّام العهد الجديد، أَنّ أَسماءَهم مدوّنة في سجلّ الحياة. ولكن عليهم أَلاّ ينسوا أَنّهم مجرّد خدّام للمسيح، وبشر، وأَنّ اللّه وحده يهب الحياة. وهو، في مجال تثــقيفهم، لم يبتغِ إِرشادهم إِلى وسائل عمليّة مجدية، كفيلة بمساعدتهم على إِصابة النجاح، بل بثّ فيهم روح التبشير، وأَضرم، في كلٍّ منهم، قلب الرسول، وأَلّف معهم أُسرة واحدة، يسافر معهم، ويُسجن معهم، ويواكبهم في كلّ خطوة، ويثق بهم، ويوكلهم إِلى اللّه وإِلى رعاية نعمته.

لقد ضمّ فريق معاونيه عدداً من شيوخ الكنائس التي أَسّسها، والذين أَمسوا مساعدين له على رعاية هذه الكنائس وعلى التبشير في المدن المجاورة التي لم يتّسع وقت بولس للكرازة فيها، منهم إِيبافراس، وإرستُس، ويوستُس وأَرسترخُس. وهذا الأَخير شاركه متاعبه وسجونه، وكان منبع عزائه في أَثناء سجنه في روما.ومنهم إِبفرُدتُس، وتيخيكس، وسوستينُس؛ ومنهم نسوة لعبنَ دوراً هامّاً في رسالة بولس، منهنّ ليديا تاجرة الأَرجوان، التي استضافت كنيسة فيليــبّي، والشمّاسة فوبية التي حملت رسالة بولس إِلى الرومانيّين، وخلوّة التي استضافت كنيسة كورنثس، ونيميفيا التي استضافت كنيسة كولوسي، وايفوديا وسنتيخا، ومريم وترفينا وتريفوسة. ومنهم عبيد وعبيد محرّرون، كلّف عدداً منهم بتسجيل بعض رسائله، منهم ترسيُس وكوارتُس، أو أوكل إِليهم رسائل يبلّغونها، ومنهم أونيسمُس العبد الآبق الذي شفع به لدى سيّده فيليمون.

و من أَبرز مساعديه: أكيلا وبرسكيلا الزوجان اللّذان كرّسا وجودهما لنشر البشرى، وخاطرا بحياتهما في سبيلها وفي سبيل بولس، ورعياه بحبّ وسخاء، وكان لهما مكانة خاصّة في قلبه.

و ثمّة جماعات اعتبرت ذاتها مسؤولة عن الرسالة، فأرسلت لبولس مساعدين يعاونونه في مهمّات معيّنه وتعهّدت بنفقتهم. هؤلاء المعاونون كانوا يتبدّلون باستمرار، وبلغ عددهم العشرات. بفضل هؤلاء جميعاً، استطاع بولس أَداء رسالة رحبة الآفاق، وتمكّن من مغادرة الجماعات الجديدة، أَشهراً، فقط، بعد تأسيسها، أَحياناً، والانصراف إِلى تأسيس جماعات أُخرى، غير قاطع صِلاته الوثيقة بها.

أَمّا الفريق الأَكثر التزاماً بالرسالة والأوثق صلة ببولس، فقد ضمّ نخبةً من الشبّان الأَنقياء، العازبين مثل بولس، الذين ضحّوا، في سخاء واندفاع، بكلّ شيء، إِكراماً ليسوع وللإِنجيل، وارتضوا عيشة الرحّالة المتشرّدين، بلا مسكن ثابت، ولا دخل مضمون، ومنهم برنابا الذي كان له فضلٌ محقّق في إِطلاق بولس، واتّخذه عضواً أَساسيّاً في فريقه الرسوليّ

قبل أَن يصبح، هو، عضواً في فريق بولس. ولا نستطيع إِلاّ أَن نأسف للظروف التي أَدّت إِلى انفصالهما. الذي أَذنت به حكمة اللّه في سبيل انتشار أوسع للبشارة.

و منهم سيلا أو سلفانُس الذي حلّ محلّ برنابا في رحلة بولس الرسوليّة الثانية، إِلى أَن اضطرّ بولس إِلى التخلّي عنه لهامة الرسل بطرس.

و منهم الطبيب العزيز والرفيق الأَمين، لوقا، كاتب الإِنجيل الثالث، وسفر أَعمال الرسل، الذي، بفضله، نعرف جلّ ما نعرف عن بولس، وقد واكبه في بعض أَسفاره، وكان رفيق أَسره، وعزاءَه، لا بل الوحيد الذي ظلّ إِلى جانبه عندما نأى عنه الجميع.

أَمّا الرفيقان اللّذان كانا لبولس بمثابة ابنين، بل أَفضل من ابنين، فهما تيموثيوس وتيطُس اللّذان كانا له السند والعزاء، وكانا سفيرَيْه في المهمّات الدقيقة، بحيث بات لا يستغني عنهما، فحضورهما يعزّيه وغيابهما يؤلمه، على نحو ما حدث عندما كلّف تيطس بمهمّة في كورنتش على أَن يلتقيا في ترواس؛ ولمّا هبط بولس هذه المدينة، ووجد فيها باباً مُشرعاً للكرازة، ولكنّه إِذ لم يجد تيطس، افتقد الراحة، فغادر المدينة، ويمّم شطر مقدونية علّه يستبق لقاء تيطس فيها.

في الجماعة كلّ فرد في حاجة إِلى الجميع، وجماعة بولس كانت رسوليّة يحدوها هوى البشارة، متخطّية جميع الحدود. وقد أَنشأ منها بولس مدرسة يجمعها الروح الواحد، وخصّ أَفرادها بالكثير من الوقت والاهتمام لكي ينموا في المسؤوليّة والخبرة الرسوليّة.

إِنّ بولس يقتضي من المتعاونين معه وفاءً مطلقاً لإِنجيل يسوع لا ثغرة فيه ولا تردّد، ومشاركة تامّة؛ والتزاماً بخدمة جميع البشر، ولا سيّما الأَكثر وهناً وهشاشة : "علينا، نحن الأَقوياء، أَن نحتمل أوهان الضعفاء، ولا نرضي أَنفسنا "؛ وزهداً في المغانم والنفوذ؛ وأَخيراً يطالبهم بأَن يكون سلوكهم وإِيمانهم مثالاً للرعيّة.

و هو يقرن رقّة التعامل من معاونيه بالصرامة في ما يتعلّق بالإِيمان؛ يحرص على سلطته، ولكنّه لا يتحرّج من الاعتراف بضعفه الذي لا يرى فيه غضاضة، فاللّه قد اختار الأَضعف ليخزي الأَقوى، كما أَنّه لا يخشى الاعتراف بحبّه لمعاونيه محبّة الأُمّ والأَب لبنيهما؛ لا بل هو يمضي إِلى حدّ الاعتراف بأَنّه عبدٌ لهم من أَجل المسيح.

و من خلال اقتضائه الطاعة، وتمسّكه بسلطته، لا يسعى إِلى السيطرة، بل يحمّل القيّمين على كلّ جماعة كامل مسؤوليّتهم؛ ويقرّ بأَن لا فضل له في أَيّ نجاح، فالعمل هو عمل اللّه، وليس الزارع، ولا الساقي بشيء، بل الشأن كلّه لمن يُنبت ويُنمّي، وهو اللّه وحده.

و هو، أَخيراً، يدعو أَبناءه ومعاونيه إِلى التمثّل به، مثلما هو تمثّل بالمسيح، لا تبجّحاً وتكبّراً، بل حرصاً منه على أَن يقتفوا، هم أَيضاً، آثار يسوع، ويتّخذوا منه قدوةً ومثالاً.

و على نحو ما عامل معاونيه، عامل بولس أيضاً، المؤمنين. فهو لم يفرض نفسه، قطّ، كرسول، ولم يطالب بحقوق الرسول، بل كدح لكي يكسب عيشه بكدّ يمينه، واكتفى بأَقلّ من الزهيد. ولكنّه، في ما يختصّ بالتعليم، كان حريصاً على تأكيد توكيله من الربّ، ولم يقبل، في ما يتعلّق بإِنجيل يسوع، لا مساومة ولا انتقاصاً. ولطالما أعلن نفسه خادماً للمؤمنين كي يسرّب إِلى أَذهانهم وقلوبهم بشرى الخلاص، وعاملهم معاملة الأَب والأُمّ.

لم يكن بولس الرسول بيروقراطيّاً ينفّذ مهمّة، ولا مفكّراً ومنظّراً، ولا ناقل أَفكار دينيّة، بل هو باني جماعات متناغمة، وشراكات حميمة، ومولّد بشريّة جديدة.ودعوته إِلى الإِيمان بيسوع تأخذ بمجامع قلبه، وتشدّ كلّ أوتار كيانه، وتفجّر ينابيع حنانه، وغالباً ما شبّه ذاته بأُمٍّ تلد أَبناءها في الآلام، وتغذّيهم بلبن عطفها، وهذا ما حمل الذهبيّ الفمّ على القول: "أَيّة نار! إِنّه ليتعذّر على أَبٍ أو أُمٍّ أو على كليهما معاً، مازجَيْن حبّهما، أَن يُظهرا لأَبنائهما مثل حنان بولس".

و تعليمه لا يمرّ، أَوّلاً، عبر حقوقٍ يحرص المعلّم على إِعلانها والتسلّح بها، وفرضها، ولو باسم الحقيقة، بل يتذرّع بحضورٍ إِنسانيّ قائم على الصداقة والمحبّة. وهذا ما يميّز الكنيسة الحقّة عن المؤسّسة. وأَيّة عبرةٍ لرعاتنا !

لقد جعل بولس ذاته خادماً للجميع، وكلاًّ للكلّ، لكي يربح معظمهم، واختار الدرب الوعر والاتّضاع، في سبيل النفاذ إِلى قلوب من يبلّغهم الإِنجيل. فكانت سيرته الرسوليّة منسوجة بالتواضع، والدموع، والمِحَن، والعقبات، والصعاب. إِنّ شخصاً في مثل شدّة مراس بولس، عصيّ الدمع، غير أَنّ الأَوضاع التي كان يواجهها كانت من التعقيد، والمصاعب من الخطورة، وكان يتجرّع من المرارة والخيبة، بحيث كان، غالباً، يطلق لعبراته العنان.

إِنّه يقرن الحزم في خدمة الحقيقة بحنان حضورٍ إِنسانيّ، هو، في آنٍ واحد، حضور أَبٍ وأُمٍّ، وأَخٍ؛ حنان يستخدم لغةً شاملة لا تعترف بحدود، وتزري باختلاف الأَلسن والبيئات. والذين يعلن لهم البشرى هم أَبناء اللّه المحبوبون، ووسيلة تعبيره لهم عن هذه الحقيقة هو ذلك الحبّ النابع من قلب الربّ نفسه.

و لا بدْعَ، بالتالي، إِن هو تذوّق، إِلى جانب الآلام والدموع، أَفراحاً كثيفة، وهو، غالباً ما يتحدّث، في رسائله، عن فرحه واندفاعه، أَكثر ممّا يتحدّث عن مِحَنه، ففي رسالته إِلى التسّالونيكيّين يهتف : " أَيّ شكر نستطيع أَن نؤدّيه للّه من أَجلكم، على كلّ ما نالنا من الفرح بسببكم أَمام إِلهنا ! " وللكورنثيّين يقول : " إِنّ لي بكم فخراً عظيماً؛ ولقد امتلأت تعزية؛ وأَنا أَفيض فرحاً في كلّ ضيقنا ".

و لا غروَ في ذلك، فمن يحبّ كثيراً يكابد آلاماً ممضّة، ويتذوّق أفراحاً عميقة؛ أَمّا من كان حبّه واهياً فآلامه وأفراحه سطحيّة.

و قد أَثبت ذلك الصوفيّ المحلّق في أَجواء الروح السامية، أَنّه، على أَرض الواقع، إداريّ منقطع النظير، دؤوب على العمل، يباشر كلّ مهمّة بنفسه، جارّاً الآخرين في إثره، بقدوته، مضطلعاً بكلّ شيء، محاولاً الحضور في كلّ مكان، وحيث يتعذّر عليه الحضور ينفذ رسائل ومندوبين.

و لئن كان، ثمّة، من يجيدون التخطيط لعمل، ولكنّهم يعجزون عن تنفيذه، إلاّ أَنّ بولس الذي كان يتمتّع بعبقريّة متكاملة كان يجيد ابتكار المشاريع بقدر ما يجيد تنفيذها، والمضيّ بها إلى تمامها، والاستمرار في مراقبتها. وهذا ما أَثبته في أفسس، حيث أَطال الإقامة، متحدّياً المخاطر، مستغلاًّ كلّ طاقات الإيمان، وفي الآن عينه، مواكباً، برسائله، جماعات كورنثس وغلاطية، مقوّماً اعوجاجاتها، رادّاً إيّاها إلى جادّة الصواب، مثبتاً واقعيّته المتبصّرة، وقدرة صوفيّ عظيم، مثله، على التوغّل في تفاصيل الواقع.

كانت رؤيته لأَهداف الرسالة جليّة، والرؤية الجليّة تتيح للإنسان صوغ التاريخ، من غير أَن تثنيه عن هدفه تطوّرات الأَحداث.

قلّما اجتمع، في إنسانٍ واحد، مثل هذا القدر من الحزم والحنان، والعزم والمعطوبيّة. فإنسانيّته كانت امتداداً لإنسانيّة يسوع، وقد هزّت قلوب البشر، إذ سرعان ما تبيّن مستمعوه أَنّ أَحاديثه لم تكن مجرّد كلمات بشريّة، بل هي كلام إلهيّ، فاعلٌ وخلاّق؛ إنّها ديناميّة قادرة على تحويل من يتلقّونها، وتسبغ على حياتهم طعم امتلاء. ولئن كانت وسائله واهية، إلاّ أَنّ خبرة إيمانه كانت زاخرة، فيّاضة، مؤثّرة. فالتحوّل الجوهريّ الذي طرأ على نفسه منذ حَدَث دمشق، والذي ما انفكّ يترسّخ ويتعمّق على مدى مسيرته الرسوليّة، أجرى، بدوره، تحوّلاتٍ كثيرة وخطيرة. إنّ الاهتداء في الفرح، وفي غمرة المصاعب، هو بؤرة إشعاع المسيحيّة. فمن الربّ إلى بولس، ومن بولس إلى موعوظيه، ومن حياة إلى حياة ينتقل، رغم كلّ شيء، نور الإيمان، في ملء إشراقه. ولا تفلح المصاعب في خنقه، بل تتيح له سكب ملئه الإلهيّ في قلب الوهن البشريّ. " محزونون ولكن دائماً فرحون "، ذلك هو موجز وضع الرسول الروحيّ. إنّه يُسجن، ولكنّه لا يصمت، لأَنّه مؤمن بأَنّ كلمة اللّه لا تُقيّد، ويمضي في كرازته أَكثر جرأة، بثقةٍ آتيةٍ من اللّه. والمحن لا تفاجئه، بل هو يتوقّعها بقدمٍ ثابتة، ويدعو المؤمنين إلى توقّعها ومواجهتها برباطة جأش، ويبشّرهم بمسيحيّة ينتصب، في وسطها، صليب المخلّص، فتبشيره لا يقوم على الحكمة البشريّة بل على جنون الصليب.

كان يواكب تقديرَ بولس الرفيع لرسالته، وللمواهب والكرامات التي وُهبها، ولخدمة الإنجيل التي انتُدب لها، شعورٌ مرهق بهشاشته ووهنه أَمام اللّه. والنِّعم الصوفيّة السامية التي أوتيها كانت تقابلها حياة بشريّة زاخرة بالمحن. ولكي يفخر ذلك الرجل الأَبيّ بوهنه، كان لا بدّ من أَن يدمغه الربّ في اتّضاعه وفي تجلّيه. وهو لم يعدّ، يوماً، مِحنَه عائقاً يحدّ من مدى رسالته، بل عدّها نعمة تُبرز قوّة اللّه التي لا تقهر. وإِذ واكبت تلك المِحَن كرامات وامتيازات، فقد غدت له بوتقة لخبرةٍ روحيّة ثرّة، خبرة موتٍ وقيامة، خبرة لفصح يسوع الذي عاشه بولس في جسده، فاستطاع أَن يعلن : " أستطيع كلّ شيءٍ في من يقوّيني "؛ ويستفيض أَكثر فيقول : " إِنّ هذا الكنز نحمله في آنيةٍ خزفيّة لكي يتّضح أَنّ هذه القدرة الفيّاضة هي للّه وليست منّا. نحن مضايقون من كلّ جانب، ولكنّا لا ننحصر؛ حائرون، ولكن على غير يأس؛ مضطَهدون، ولكن على غير انخذال؛ مطروحون، ولكن على غير تلاشٍ، نحمل، كلّ حين، في الجسد، موت يسوع، لتظهر حياة يسوع أَيضاً في جسدنا، لأَنّا، نحن الأَحياء، نُسلَم دائماً إِلى الموت من أَجل يسوع، لتظهر حياة يسوع، أَيضاً، في جسدنا المائت. فالموت، إِذن، يعمل فينا، والحياة فيكم ".

بولس الرسول قائد ممتاز، اندفاعه وأبوّته شاملان، عالميّان.كان قد وطّن العزم على تقديم كلّ إِنسانٍ للّه، وقدّم له البشر أَجمعين، وسع طاقته، ولكأنّه كان يحمل، وحده، مسؤوليّة أَبوّة البشريّة جمعاء، فنراه يقلق، ويجري، ويبدي اندفاعاً جمّاً في سبيل إِدخال كلّ فرد إِلى الملكوت، بفضل ما يبذل من اهتمام، وما يقدّم من تحريض، واعداً، مصلّياً، متوسّلاً، مبدّداً الشياطين، مقصياً كلّ مفسد. بحضوره، ورسائله؛ بفصاحته، ومبادرته، بعمله الخاصّ وبتلاميذه، كان يُقيل عثار الكابين، ويثبّت الصامدين، ويوقظ المنهارين، ويواسي المسحوقين، ويشجّع المتخاذلين؛ يطلق صيحات يُرهب بها الأَعداء، وبنظرته يصعق المناوئين. يحاكي قائداً ممتازاً، يوجد في كلّ مكان، ساهراً على كلّ شيء، رافعاً مجنّه، مدافعاً عن الجميع، كلاًّ لكل نفَر من جنده. لقد جاب الدنيا مبشّراً، في كلّ مكان، بمجّانية الخلاص، وحبّ اللّه، وفي نهاية شوطه مات شاهداً على ما بشّر به.

إِنّه يبرز صورة الراعي الحقّ، الرسول الملتزم التزاماً وثيقاً برسالته، المرتبط بها بكلّ وشائج قلبه، وكلّ حبال أَحاسيسه؛ يحبّ حبّاً جمّاً الأَشخاص الموكلين إِليه، لا حبّاً عامّاً جماعيّاً، بل حبّاً شخصيّاً، فرديّاً، يعرف كلاًّ باسمه، ويلمّ بأوضاعهم الخاصّة، العائليّة، والصحّيّة، والمهنيّة؛ كلٌّ منهم موضع اهتمامه، وكلٌّ منهم منبع حزن ومرارة ودموع، أو معين فرحٍ كثيف.

و هذا الرسول الواقعيّ النظرة، العامل بتبصّر على الأَرض، كان، في الآن عينه، صوفيّاً سامياً، يتحرّق توقاً إِلى لحظة الاندماج بالربّ الذي محضه حبّه، ومع ذلك عندما يحتدم الصراع بين هذا التوق، وواجب مواصلة الرسالة، ترجح لديه كفّة هذا الواجب، فيمضي قُدُماً في ميادين الرسالة، في مثابرة معجزة لا يتسلّل إِليها الكلَل، ولا يحبطها الفشل، ممّا يتيح لبولس القول: "إِنّنا نفتخر حتّى في الشدائد، لعلمنا أَنّ الشدّة تنشئ الصبرَ، والصبر ينشئ الفضيلة المختبرة، والفضيلة المختبرة تنشئ الرجاء، والرجاء لا يخزى، لأَنّ محبّة اللّه قد أُفيضت في قلوبنا بالروح القدس، الذي أُعطيناه. " (روما 5 : 4-5) هذه الكلمات الصادرة عن مرسل خبر الرسالة على مدى عشرين عاماً حافلةً بالنجاح والإِخفاق، وصنوف الاضطهادات، لاقِبَل لطاقةٍ بشريّة على التلفّظ بها، بل هي نعمة حبّ اللّه، ونفحة الروح القدس.

و قد التزم بولس، التزاماً كاملاً، بقواعد التبشير، إِذ لا يستطيع أَحد أَداء رسالة وفقاً لآرائه الخاصّة، وأَذواقه الشخصيّة، ولا استخدام الإِنجيل لمصالحه، ولا احتكاره. ومن مبادئ التبشير الثابتة :

وحدة الإِنجيل : أَي أَنّ البشرى الحسنة هي شخص يسوع المسيح، الذي ارتضى الموت طوعاً، افتداءً للبشر، فهو الوسيط الوحيد بين اللّه والبشر، والذي جعل الخلاص نعمةً إِلهيّة. هذا هو الإِنجيل الوحيد الذي لا يستطيع حتّى الملائكة مسّ حرفٍ منه. وكلّ من يخطر له المساس به فليكن ملعوناً ومحروماً!

التبشير بقدوة السلوك : فعلى المبشّر أَن يؤمن بما يبشّر به، وأَن يعيشه، بحيث يصبح، هو نفسه إِنجيلاً وبُشرى، وإِلاّ فقد المصداقيّة، ولم يؤمن أَحد بأَقواله. وقد أَتاح بولس للنعمة أَن تعمل فيه بحرّيّة، وتوغّل في التمثّل بيسوع، بحيث لم يعد هو من يحيا، بل كان يسوع هو من يحيا فيه، وحقّ له أَن يقول : " اقتدوا بي، كما إِنّي، أَنا، أَقتدي بالمسيح "

الاعتماد على قدرات الروح القدس : " بشارتنا لم تصر إِليكم بالكلام وحده، بل بعمل القوّة، وبالروح القدس، وبكمال اليقين ". هذا التبشير بقوّة الروح يسبغ على المبشّر قدرة الإِقناع، والثقة، والجرأة، والحرّيّة، بالاستناد إِلى القوّة الكامنة في الكلمة. وبذلك يمتلك المبشّر قدرة فاعلة للخلاص : " إِنّي لا أَستحيي بالبشارة، فهي قدرة اللّه لخلاص كلّ مؤمن ". وقد وُهب بولس مواهب شفاء توكّد قوّة بشارته : " كان اللّه يجري على يدي بولس معجزات خارقة، حتّى إِنّهم كانوا يأخذون إِلى المرضى مناديل ومآزر لامست جسمه، فتفارقهم الأمراض، وتخرج الأرواح الشرّيرة ". هذه المعجزات كانت جزءاً من التبشير ولم تخرج عن سياقه.

و فضلاً عن ذلك وُهب بولس **نعمة التمييز** التي أَهّلته لتبصّر مقاصد اللّه، كما وُهب النبوّة والمعرفة. وكانت مهمّة الرسالة، لديه، تسمو فوق كلّ مهمّة.

التواصل مع الكنيسة ومع بطرس : لم يعرف بولس يسوع في أَثناء حياته الأَرضيّة، ولم يكن من تلاميذه ولا من رسله. وقد كُلِّف بالرسالة تكليفاً مباشراً من قبل يسوع نفسه، فبات موضع ارتياب، إِذ خشي كثيرون أَن يتذرّع آخرون بمثله فيدّعوا رؤى وإِلهامات. ومن ثمّ، فقد حرص على المكوث مع بطرس خمسة عشر يوماً، عقب اهتدائه في دمشق، كي يستقي منه كلّ الدقائق عن سيرة يسوع وأَقواله؛ وعندما جاء به برنابا إِلى كنيسة أَنطاكية مبشّراً، جهد في إِيجاد صيغة تضمن وحدة الكنيسة، في التوفيق بين تناغمه مع سائر الرسل، والانقياد لإِيحاءات الروح. وقد حرص حائك الخيام الماهر ذاك على جمع الخيوط الكفيلة بجمع جسد المسيح، ونبذ كلّ ما قد يمزّقه. وما انفكّ يرجع إِلى الرسل التماساً لتأييدهم، والتواصل معهم، على حدّ قوله : " ثمّ إِنّي، بعد أَربعة عشر عاماً، صعدت، من جديد، إِلى أورشليم، مع برنابا، مستصحباً تيطس أَيضاً. وكان صعودي عن وحيٍ، فعرضت عليهم الإِنجيل الذي أَكرز به في الأُمم، مفاوضاً، على حدة، الوجوهَ فيهم، مخافة أَن أَسعى، وأَكون قد سعيت عبثاً ".

لم تقف المواهب الخاصّة والرفيعة التي أوتيها حائلاً دون خضوعه الطوعيّ لامتحان من كانوا دونه ثقافة، ومواهب، وإِنجازات. فهو التقى يسوع شخصيّاً، وكان مختاره وأَداته، ونوره بين الوثنيّين، وجاب أَصقاع العالم ناشراً بشراه، وأَجرى الربّ على يده الخوارق، واختُطف إِلى السماء الثالثة، وأُعطي إِلهامات خاصّة، وكتب رسائل أوحاها الروح القدس، وحمل، في جسده، سمات المصلوب؛ ومع كلّ ذلك، لم يتحرّج من طلب تأييد الرسل لتبشيره. ومع أَنّ فريقه الرسوليّ كان أَفضل إِعداداً وأهليّة من فريق بطرس، إِلاّ أَنّه التزم بالنظام الذي وضعه يسوع، وأيقن أَنّ نأيه عن الرسل وعن تأييدهم كفيل بجعل كلّ تبشيره باطلاً. وفي موقفه هذا عبرة بالغة الخطورة.

و لا بدّ من التنويه بأَنّ رسالة بولس لم تقتصر على الترحال والتبشير والكرازة، بل هي امتدّت، وترسَّخت، وخلدت، من خلال رسائله، فبفضلها ما انفكّ بولس يجوب كنائس العالم، ويخاطب المؤمنين، كلّ يوم، وفي كلّ مكان، عن النار التي أَضرمها في أَحشائه لقاؤه بيسوع، ويعرض لفهمهم أَسرار حبّ يسوع التي كشفها له. هذه الرسائل هي رسول متجوّل، لا يحصره مكان.

داعية الروح

بولس رسولٌ مُلتزم، وداعية الروح، ولكن أيّ روح ؟ ليس ذاك الروح المجرّد، المبهَم، المنطقيّ الذي ينشده الفلاسفة؛ ولا هو ظلّ كهف أفلاطون؛ ولا هو حلم ضبابيّ. بل إنّ الروح الذي يدعو إليه بولس هو الذي يضفي على الحياة معنى، والذي يعمل في الإنسان عمل قدرة محوِّلة، والذي يتجلّى في صميم المجتمع والتاريخ. إنّه كلمة اللّه الذي تجسّد في حشا عذراء، وعاش على الأرض، ومات مصلوباً.

رسالة بولس تبرز، على أفضل وجه، صورة المسيحيّة الأساسيّة، على أنّها، في آنٍ واحد، تفسير فائق الطبيعة للعالم، وقدرة عمل فاعلة في صلب الواقع.

على غرار كبار الصوفيّين يمتلك بولس حكماً سليماً في أمور الحياة، ورسالة تجمع بين الوقائع الأشدّ محسوسيّة، وأسمى النظريّات. إنّ تعليمه، مع سموّه، وثباته، مرتبط بالظروف الواقعيّة التي أملته، وبالتزامه الراسخ. إنّه ردٌّ على معطيات واقعيّة يفرزها الحدث، ولكنّ فكره من العبقريّة والتماسك بحيث يتجلّى على خير نَسَق، وفي وضوح مدهش، وهو من الشمول والبُعد بحيث يستخلص من الحَدَث العابر قواعد تصلح لكلّ عهدٍ وكلّ مكان.

لم ينطلق تعليم بولس من خواطر مجرّدة، بل من أحداثٍ محدّدة تتّصل بعمله الرسوليّ وبالجماعات المسيحيّة الأولى التي أسّسها، وهذا ما يُفرغ على رسالته طابعاً واقعيّاً وإنسانيّاً نابضاً بالحياة. فهذا القدّيس الذي قد نجنح إلى تصوّره تائهاً في رؤاه، يقترح أبداً مبادئ سلوك تصلح لكلّ مجتمع. وقد حمله اهتمامه بشتّى جوانب حياة المؤمنين إلى معالجة أكثر القضايا واقعيّة، مثل العمل الذي قال فيه قوله المأثور : " من لا يعمل لا يحقّ له أن يأكل "، والزواج الذي حدّد صيغته، ومبادئه، وعبوديّاته وحدوده، بدقّة ومعرفة نفسيّة لا تضاهيان. وقد تصدّى، أيضاً، لقضايا الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة، وللعلاقات بين الآباء والأبناء، ولقضايا أُخرى كثيرة، بحيث تكاد لا توجد قضيّة تهمّ حياة الإنسان لم يتطرّق لها.

و لرسالة بولس وجهان : فهي تأتي بأجوبة دامغة ملهمة على أسئلة أبديّة، وهي تندرج في التاريخ، وتفضي إلى زعزعة أنظمة البشر الزائفة.

فأيّ مسيحيّ يعتلج بين جوانحه شيء من القلق الدينيّ والالتزام الروحيّ لا يدين لذلك العبقريّ الطرسوسيّ ؟ ومن يستطيع نسيان مقارنته الخطيئة بالموت، ووصفه الدراميّ للصراع الناشب، داخل كلّ إنسان، بين نوازع الخير وغوايات الشرّ؛ وإسهابه المؤثّر في تعريف المحبّة، وتذكيره الدائم ببؤس الإنسان الذي حدّ يسوع من وطأته بتضحيته الخلاصيّة؟ كلّ ذلك ينفذ إلى أعماق نفوسنا، حيث نجد بولس في صميم صراعاتنا الأكثر سرّيّة.

و لأَنّ بولس كان بكلّيته في خدمة الروح، حوّل العالَم؛ وبعكوفه على حلّ قضايا محلّيّة آنية أرسى تعاليم خالدة.

الرسول "العامل"

من خصائص بولس أنّ ذلك المرسل الذي لم يتسرّب الكَلَل إلى همّته، كان عاملاً يدويّاً، دائب الكدح.

في مجتمع كان العمل اليدويّ فيه وقفاً على العبيد والطبقات المحرومة، كان عمل بولس من أبرز ميزات مرسل لا يني يذرع الدروب، ويكتب رسائل للجماعات التي أسّسها، ومع ذلك يجهد كادحاً بيديه، غالباً في ظروفٍ قاسية، لكيلا يكون عالة على أحد.

كان من حقّه أن يُعال من قِبَل الجماعات التي بشّرها، ولكنّه لم يستخدم هذا الحقّ، ولم يقتضِ، مقابل تبشيره، أيّة مكافأة، بل جعل من مجّانيّة الرسالة مبعث افتخار، أبى، أبداً، التنازل عنه. لقد حرص على هذه المجّانيّة لكي يكون للآخرين قدوةً في هذا المضمار، ولكي يناقض سلوك بعض المبشّرين الذين ينزعون إلى الغلوّ في استغلال الجماعات المؤمنة، ماديّاً، بحيث قد يغدو سلوكهم هذا " عقبةً تحول دون إنجيل يسوع". أمّا دافعه الجوهريّ فتمثّل في الردّ على مجّانية دعوة الربّ له ليكون رسوله، بمجّانيّة تبشيره.

و في مدنٍ حيث العمل اليدويّ هو شأن العبيد، ابتغى الرسول التمثّل بأولئك المنكودي الطالع، لكي لا يبقى العمل دليل عبوديّة، بل يضحي دليل " استقامة ". وحيث كانت البطالة شائعة، توخّى ضرب مثل في العمل الذي يقي من الرذائل.

و ردّاً على الذين كانوا ينزعون إلى التواني بحجّة دنوّ القيامة، أكّد أنّ من يأبى العمل، لا يحقّ له أن يأكل.

إنّ العمل دليل إخاء حقّ، إذ لا يسوغ أن تكدح فئة، لصالح فئة بطّالة مستغلّة. إنّ العمل هو وسيلة استقلاليّة الجماعة وضمان بقائها. واليوم يُطالَب بالعمل من جرّاء ندرته. ولكن اليوم كالأمس، العمل هو أحد المواضيع الأثيرة التي تتجلّى فيها قوّة الإنجيل كقدرة على تحويل العالم، وبناء إخاءٍ حقّ.

همّان يلازمان بولس : إعلان الإنجيل، واستخدام جميع الوسائل لجعله حاضراً في عالم العمل، مع التنكّب عن المغانم والمصالح الشخصيّة المخالفة لروح الإنجيل. وإن كان للتبشير مكافأة، فهي حرّيّة ينمو فيها الإنسان باطّراد. أمّا المكافآت الماديّة الأُخرى، فقد تكون عائقاً في وجه هذه الحرّيّة. إذن، في إثر من وهب ذاته مجّاناً، على كلّ امرئٍ أن يتعلّم، في وضعه المهنيّ أو الكهنوتيّ، كيف يبذل ذاته مجّاناً.

رسائل بولس

احتفظت الكنيسة بأَربع عشرة رسالة من رسائل بولس ضمّتها إِلى إِرثها، وجعلت منها عنصراً أَساسيّاً من عناصر العهد الجديد، الذي يدور حول محورين رئيسيّين : سيرة يسوع، وسيرة بولس. وإِن كنّا لا نعرف صوت يسوع إِلاّ من خلال الإِنجيليّين الملهمين، غير أَنّ هذا الصوت الإِلهيّ من السموّ والتميّز بحيث يستحيل تزويره، ويتعذّر على أَيّ صوتٍ آخر أَن يداني أَلَقه الذي يقرن العذوبة بالرهبة. إِلاّ أَنّه بوسعنا مطالعة حياة بولس وفكره، ليس فقط من خلال شاهد العيان، القدّيس لوقا، بل أَيضاً، وخصوصاً، من خلال الصفحات التي كتبها بولس بنفسه.

تتميّز رسائل بولس بكونها الكتابات الرسميّة المسيحيّة الموثوقة الأولى، وهي تعكس صورة حيّة عن نشاطه ونضاله، ونجاحاته وإِخفاقاته، عن تجاربه وفكره، ومع ذلك هي بعيدة عن كونها سيرة ذاتيّة، فبولس لم يروِ، من مسيرته، إِلاّ ما كان ضروريّاً لدعم الرسالة وخدمتها، وقد أَبقى مساحات فسيحة من مسيرته طيّ الظلال؛ وينبعث من مطالعتها شعور واضح بأَنّها لا توفّر سوى شهادة ناقصة، وأَنّ بولس الحقيقيّ يتخطّى تفسيراته الجدليّة، ومقاطعه الغنائيّة، وجميع جمله. فلدى رجل العمل– وبولس هو، قبل كلّ شيء، رجل عمل – تبقى الكلمة الملفوظة أو المكتوبة عاجزة عن اللحاق بالواقع الحيّ، وينقصها سحر النظرة، وقوّة الحركة، وثِقل فترات الصمت، ونبرة السخرية أو الغضب، أي كلّ ما يجعل المرء يفرض ذاته، ويؤكّد حضوره.

رسائل بولس المحفوظة تمثّل ربع أَسفار العهد الجديد، وتساوي الأَناجيل حجماً، ومع ذلك يبدو هذا الحجم ضئيلاً بالقياس إِلى نشاط بولس الرسوليّ، ممّا يسوّغ الاعتقاد بأَنّ بعض رسائله قد فُقد، مع أَنّ رسائل انطوت على تأنيب للجماعات التي أرسلت إليها، مثل الرسالة إِلى الغلاطيّين، والرسالة الثانية إِلى الكورنثيّين، لم يخجل أَصحابها من تبادلها مع الجماعات الكنسيّة الأخرى، ومن الحفاظ عليها للخَلَف.

تقسم الرسائل، وفقاً لحجمها إِلى قسمين :

الرسائل الطوال وهي ثمانٍ، وهي الموجّهة إِلى الرومانيّين، والأَفسسيّين، والفيليبـــيّين، والكولوسيّين والغلاطيّين، فضلاً عن رسالتين إِلى الكورنثيّين، والرسالة إِلى العبريانيّين.

و الرسائل القصار، وهي ستٌّ: منها رسالتان إِلى التيسّالونيكيّين، وثلاث رسائل راعويّة منها واحدة إِلى تيطس ورسالتان إِلى تيموثيوس، وأخيراً بطاقة إِلى فيليمون، وهي الوحيدة التي كتبها بولس بخطّ يده.

هذه الرسائل قد دُوّنَت على مدى ستّة عشر عاماً بين عام 51 وعام 67، وكان بعضها أَوّل أثر مسيحيّ رسميّ مكتوب.

و يُظنّ أنّ بعض إِضافات وإِيضاحات قد أُلحقت بهذه الرسائل مع الأيّام، وقبل نظمها في مجموعة نهائيّة. وكانت بعض الكنائس الأولى قد شرعت تمتلك مجموعات منها في أيّام بولس.

تحتوي مكتبات العالم الكبرى مخطوطات تضمّ نسخاً عن الرسائل الأَصليّة بلغات متعدّدة : اليونانيّة، والقبطيّة، والسريانيّة، والأَرمنيّة، والغوطيّة، والجيورجيّة، والحبشيّة، واللاتينيّة. أَقدمها مقاطع مكتوبة باليونانيّة على برديّ، وُجدت في قبور مصر، ويوجد نحو خمسين منها يعود تاريخها إِلى القرن الثاني، وأَفضلها حفظاً هي المنسوخة على رقّ.

عام 331 أمر الأمبراطور قسطنطين بنسخ خمسين نسخة من مجموعة الرسائل، قُدِّمت له نسخة منها، ووُزّعت التسع والأَربعون الأُخرى على مختلف الكنائس المسيحيّة، وهي مكتوبة على ثلاث مئة وستٍّ وأَربعين صفحة ونصف الصفحة من الرقّ الرقيق جدّاً، وكأنّه مصنوع من جلد غزال. وثمّة منها نسختان معروفتان ومحفوظتان، إِحداهما اكتشفت في دير القدّيسة كاثرينا في سيناء، كان قد اقتناها قياصرة روسيّا، ثمّ باعها السوفييت إِلى الحكومة البريطانيّة التي استنهضت اكتتاباً وطنيّاً لشرائها. أَمّا النسخة الثانية فمحفوظة بحرص في الفاتيكان، ولكنّها بمتناول أيّ باحث.

بولس : كاتب الرسائل

لم يكتب يسوع، يوماً، شيئاً. بل مرَّة واحدة، خطّ، بإصبعه، إشارات مبهمة في التراب، كي يُفحم الفرّيسيّين، ويخزي المرائين. فيسوع لم يكن كاتباً، بل سلطة، وتعليمه كان كلمة حيّة، وحياة ناطقة.إنّه أعلن البشرى، ولكنّه، خاصّة، زرعها. لم يشأ أن يورث كتاباً، بل ورّث جماعة حيّة تجمعها وشائج المحبّة، ويحييها روحه القدّوس.

فيما بعد، اتّضحت ضرورة حفظ أقواله وأفعاله للأجيال المقبلة، فدُوّنت الأناجيل. وقبل تدوينها ارتأى بولس – في غمرة رسالته – لزوم إيضاح جوهر الرسالة المسيحيّة، فكتب إلى أصدقائه ومعاونيه، وإلى الكنائس التي أسّسها، طاوياً كلّ رسالة من رسائله على بعض ما قادته إليه تأمّلاته وأبحاثه، في فهم حياة يسوع وأقواله.

لم يكتب أسفاراً عقائديّة، أو كتباً تعليميّة، بل رسائل حقّة، دعت إليها غالباً ظروف طارئة، فكانت رسائله امتداداً لتبشيره، وتثبيتاً له؛ وهي غالباً أقرب إلى الحديث العفويّ، ولا ناظم لها سوى التهاب غيرته. كتب ليقول شكراً لمن قدّم له عوناً، ليُثني على من أحسن صنعاً، ليعبّر عن فرحه، أو سخطه، أو قلقه، وفقاً للأنباء التي كانت ترده بشأن أبنائه الأحبّاء، في الإيمان. ومن ثمّ، فرسائله هي تفجّر حياة، ولا أثر فيها للتصنّع، ولا للصنعة الأدبيّة، بل هي عبارات تنبض بالصدق والعفويّة؛ ليس فيها أيّ تحفّظ، بل شعور متوثّب لا يفلح في حبس امتلائه عن التدفّق. وفي هذا الجَيَشان تمتزج البسمات بالدموع، والمديح الفرِح بالتأنيب المرير.

كتب انطلاقاً من ظروف محدّدة في الزمان والمكان، ومن ضرورات طارئة، ولكنّه استطاع أن يحلّق إلى ذرىً شاهقات، مضفياً على الزائل، العابر، التافه، رداء الخلود والقداسة والعظمة التي استمدّها من فهمه العميق لتعليم يسوع.

كانت الرسائل، له، وسيلة لإتمام رسالته، وبمثابة مراسيل تحلّ محلّه وتستهدف حلّ إشكالات، أو التمهيد لتأسيس رسالات جديدة. وكان بولس مؤمناً أنّ العمل الوحيد الذي سيمثل به أمام الربّ هو الجماعات نفسها التي أسّسها. ولا ريب أنّه دهش عندما أمسى في علياء خلوده وهو يرى معظم الجماعات التي أسّسها تندثر وتتيه في غياهب التاريخ، في حين ظلّت رسائله منارة متوهّجة ترشد أجيال المسيحيّين. ومن المحقّق أنّه لم يتوقّع لها كلّ هذا التأثير عبر القرون؛ ولئن هو نصح بتناقلها بين مختلف الكنائس كي تعمّ فائدتها المؤمنين الأوائل، إلاّ أنّه لم يتوخّ، من خلالها، تخليد ذاته، على غرار الفلاسفة الرومانيّين الذين كانوا يضعون

آثاراً أَدبيّة كفيلة بتخليدهم، ولا سيّما وأَنّ بولس، في قرارة نفسه، كان يتوقّع نهاية وشيكة للعالم.

و مع ذلك يتميّز بولس بأَنّه الوحيد، في المسيحيّة الأَولى، الذي وضع التبشير في صيغة مكتوبة، وخلّف، بذلك، شهادات مباشرة قيّمة عن نشأة المسيحيّة، وكذلك معطيات واضحة عن سيرته ولاهوته.

لقد كان أَوّل من استخدم سلاح القلم لنشر تعاليم يسوع، ولذلك بات يُصوَّر، وهو مُشهِرٌ سيفاً ماضياً، وما انفكّ حدّ صارمه قاطعاً، بعد عشرين قرناً، وما برحت رسائله تحاكي رعداً يدوّي في العالم أَجمع، "وما زالت عباراتها الرائعة تجتاز القرون، وتنفذ إِلى قلوبنا وعقولنا مثل أَسهم من نار ".

رسائل أَلهمها الروح، وكانت السماء مصدرها، فبقيت، عبر الأَجيال، فعّالة تجدّد وجه الأَرض.

أَقواله تتدفّق تلقائيّاً من ينابيع قناعاته، ورؤاه عن المسيح التي ما انفكّت تكتسب تأَلّقاً وتجلّياً مذ التقاه في دمشق، وغاص في بحر أَسراره المدهشة، ومن ثمّ فهو لم يلتزم، في رسائله، أسلوباً معيّناً، لأَنّ هذه الرسائل، وإِن هي خاطبت فئة معيّنة، في ظروف محدّدة، غير مقتصرة على تلك الفئة وهذه الظروف، بل هي تتخطّى، في جوهرها، الأَحداث والأَزمان؛ ولا بدعَ إِن هي احتفظت بنضارتها وحيويّتها، بعد أَلفين من السنين، وما برحت تخاطب شتّى أَنماط البشر من كلّ مستوى.

خلودها هذا مدين لكونها لم تكن نظريّات لاهوتيّة أَنجبها عقل بارد، في هدوءٍ مريح، بل هي، غالباً، صيحات قلب، وأَصداء جيّاشة، واستجابة لاحتياجات روحيّة ونفسيّة واقعيّة نشبت بجماعات اهتدت حديثاً إِلى الإِنجيل. إِنّها أَحاديث مكتوبة، رسائل محبّة وغيرة، رسائل أَبويّة أو أخويّة، موجّهة إِلى إِخوة وأَبناء أَنجبهم في آلام تحاكي آلام المخاض، وعدّهم فرحه، ومجده، وإِكليله، وشبّه ذاته، أَحياناً، بمرضعةٍ لهم، وبأَمّ رؤوم. وعندما كانت رسائله تتلى علنيّاً على مسامعهم، كان البرديّ يردّد صوته النفّاذ.

و إِن كانت الرسائل صورة لكاتبيها، فرسائل بولس انعكاس للرسول فيه، أَي للواعظ واللاهوتيّ، والمربّي، والأب، والأمّ، وهي تضطرم بالشعلة الداخليّة التي تلهب نفس من لم يكن يساوره أَيّ همّ سوى تبليغ الحياة. وبرسائله انتهج بولس أسلوباً قشيباً يميّز كتابات العهد الجديد عن كتابات العهد القديم التي ترتدي غالباً حلّة قانونيّة صارمة للتدليل على مشيئة اللّه، كما يليق بالشريعة.أَمّا رسل العهد الجديد، فهم إِنّما يكتبون إِلى إِخوة، في روحٍ من المودّة والحميميّة.

و من ثمّ، فمن الخطل اعتبار بولس كاتباً قابعاً خلف مكتبه، دائباً على صقل كلماته، ووضع نظامٍ فكريّ متكامل. فهو، في المقام الأوّل، رسول، وكلّ ما يقول أو يكتب، أو يعمل، فبوحيٍ من الرسالة. "الويل لي، إن لم أُبشّر ". هذه صيحة إنسانٍ استولى المسيح، بإحكام، على قلبه، بحيث ما عاد بوسعه إلاّ أن يعلن، في كلّ وقت، وكلّ مكان، وأمام كلّ إنسان، إيمانه بالحبّ الفادي. إنّه يسعى، أبداً وبلا هوادة، في إثر مستمعين يبلّغهم كلمة الخلاص، محاولاً إيجاد الكلمة التي توافق كلّ امرئ، وهزّ الوتر الحسّاس فيه. وما رسائله إلاّ متابعة لأحاديثه مع المؤمنين الذين اكتسبهم للمسيح، ومن خلالها يتجلّى اهتمامه القلق والدؤوب بكلٍّ منهم.

و لئن كانت رسالة يسوع تعني نهاية عهد الشريعة، ومجيء كائنٍ سامٍ، بات من الواجب اتّباعه، فبولس هو من ابتغى السير في إثر يسوع، داعياً الجميع إلى اقتفاء أثره. وفي هذا السياق كتب الأب ألّو : " بعد يسوع، وحصراً في يسوع الذي كان يعيش فيه، كما أكّد هو نفسه بتعابير مختلفة، بولس هو المرشد الكبير للحياة المسيحيّة التي أثبت الربّ أصالتها. تعاليمه التي انتهت إلينا هي التعليق على الإنجيل الأبلغ أثراً. إنّها لا تشبه، في شيء، تعليماً مسيحيّاً منظّماً، بل هي تنبع، بأكملها، من مساعيه الرسوليّة الملتزمة، والمتجسّدة في حياةٍ بشريّة تحكمها مئات مقتضيات وجودٍ تاريخيّ غنيّ، لاهث، ملتهب، ليس فيها أيّ تجريد، ولكنّها أكثر دلالةً وتحفيزاً من جميع المجرّدات. "

و من البدَهيّ أن تعبّر هذه التعاليم عن ذاتها، لا من خلال أبحاث، بل من خلال رسائل ذات أُسلوبٍ مباشر. فحتّى في مقاطع رسائله الأشدّ وعورة، حيث يقود الرسول أولئك الذين يخاطبهم نحو فهمٍ أعظم لأسرار المسيح، يتجلّى شخص بولس متدفّقاً بكلّ ما يودّ تبليغه، أكثر ممّا يتجلّى معلّم اللاهوت أو الجدَليّ. وما رسائله سوى امتداد للكلام الحيّ الذي كان يلقيه في نفوسهم، عندما كان يلدهم في الإيمان، بكلّ القوّة الداخليّة التي تتيح لهم معرفة يسوع.

إنّه شديد الاهتمام بالجماعات التي أسّسها، ولا يقتصر على إشاعة التساؤل والقَلَق في أوصالها، بل يُغدق عليها النصائح؛ ولا يكتفي بإزعاجها، بل يرضيها أيضاً، ولا يكتفي بجعلها تستشفّ السماء، بل يحرّضها على إقرار النظام والسلام على الأرض.

و قد غاص بولس في كلّ القضايا الجوهريّة الكفيلة بشغل بال المؤمن : أصوله، ومصيره، والخطيئة، والشرّ، والكون، والزمن، والتاريخ، والنعمة، والحريّة، والألم، والموت، والحياة الاجتماعيّة، والأسرويّة. كلّ هذه القضايا لم يعالجها عن بُعد، في خلوة حُجرة، بل انطلاقاً من وقائع إنسانيّة معاشة. فبولس، في المقام الأوّل، **رجل عمل يفكّر**، وكل ما يكتبه إنّما يتفجّر من خبرته الإنسانيّة والروحيّة، والرسوليّة. وكلّ أفكاره تنطلق من مركز واحد هو المسيح الذي يدفع كيانه، وقلبه، وحياته، وفكره ورسالته، وفيه تأتلف جميع التناقضات، وتُحَلّ

جميع الأَلغاز. إنّ بولس، جوهريّاً، مسيحيّ، وهواه كلّه منحصر في يسوع المصلوب، والناهض من الموت، الإنسان الجديد الذي انبعث في فجر الفصح. إنّه الشاهد، الذي أَخذت الدهشة بمجامع كيانه، على الخليقة الجديدة وعلى عمل الروح، والذي لا يني يتأمّل فعل الحبّ والخلاص الذي يشترك فيه الآب والابن والروح القدس، والذي جعل العالم كلّه واحداً، متجلّياً، يسكنه يسوع، ويبعث فيه الحياة. ولا بدعَ إِن جاءت رسائله قراءةً جديدة لتاريخ الخلاص، وخطاباً قشيباً عن اللّه ويسوع.

و في سبيل دراسة تحليليّة لرسائل بولس، لا بدّ من الإحاطة بظروف كتابتها، التي كانت، عموماً، شاقّة. فقد كان يُنضج مواضيعها وهو مستغرق في التبشير والتعليم والعمل اليدويّ المُجهد. وكان يقف على تدوينها ساعات راحته، في هدأة الليل، عندما يفرغ من مهامّه الرسوليّة، ويعطي النول إِجازة، وينتحي زاوية من مشغله الذي غشته عتمة لا يخفّف حلكتها سوى سراجٍ مدخّن، معلّق على جدار، يتراقص منه ضوء شاحب، ولم يكن بوسع بولس أَن يكتب بنفسه، فأَنامله متورّمة، ويده مهدودة من جرّاء عمل الحياكة المرهق.ويقال أَنّه كان مبتلى بحسَر في عينيه، ولم يكن له مفرّ من إملاء رسائله على أَحد تلاميذه ومعاونيه.وكان الكاتب يقبع تحت ضوء السراج، مكتوف الساقين، مسنداً رقّ الكتابة على لوح خشبيّ مسند على ركبتيه، أو على وسادة، ممسكاً قلماً من قصب أو من ريش إوزّ، يضطرّ إِلى غطّه في المحبرة بعد كتابة كلّ كلمة. وبما أَنّ الرقّ أو الورق كانا بدائيّين، غير صقيلين، كان القلم يتعثّر على سطحهما، مضيفاً إِلى مشقّة الجلسة صعوبة مضاعفة. كان الكاتب يدوّن، بصبر وعناية، ما يمليه عليه بولس، ولكنّه، مع كلّ ما يتحلّى به من أَناة وخدمة وجاهزيّة، لا يقوى على المثابرة، في وضعٍ مرهق، أَكثر من ساعات معدودات إِذ سرعان ما ينال منه التعب.وحينئذٍ كان يُرجأ إِتمام الرسالة إِلى اليوم التالي، أو يتولّى متابعة تدوينها كاتب آخر، بحيث يستغرق إِنهاء رسالة طويلة، مثل الرسالة إِلى الرومانيّين، أَسابيع عديدة؛ فلا عجب إِن ظهر على بعض الرسائل انقاطاعات مباغتة، وبعض التكرار، وانتقال مفاجئ من موضوعٍ إِلى آخر، أو تبدّل في اللهجة، فهذه كلّها ناجمة عن ظروف تدوينها.

وأَثناء التدوين يكون بولس متكئاً على مسند نوله، وقد أَلقى رأسه على راحة إِحدى يديه، فيما انطلقت يده الأُخرى تعبث، في عصبيّة، بلحيته؛ وكان يهبّ واقفاً، بين فينة وفينة، ويذرع الحجرة جيئة وذهاباً على إِيقاع الهوى الذي يضجّ في صدره. فقد كان فكره يجيش، تحاصره أَلف فكرة متزاحمة. وكان لا بدّ له من فترات تفكير كي ينظّم هذا الدفق من الأَفكار، ثمّ يختار فكرة ويشرع في عرضها. ولكن في سياق عرضه، قد توقظ كلمة استخدمها فكرةً جديدة يرى ضرورة عرضها، فيفتح معترضة، مرجئاً إِكمال عرض فكرته الأَصليّة، وقد

يفتح، في المعترضة عينها، هلالين يحشر بينهما فكرة أُخرى طرأت بغتة، ثمّ يغلق الهلالين، ويختم المعترضة، ويعود لإِنهاء عرضه الأَوّل. ولكن قد يتّفق أَن تتزاحم لديه الأَفكار، فيغفل إِنهاء فكرته الأَولى، أو يوجزها إِيجازاً برقيّاً، بحيث لا يستخدم أَكثر من جملتين للإِفصاح عن خاطرة يحتاج عرضها إِلى أَربع جُمل، تاركاً للقارئ إِكمال ما أَغفله. وفي جميع الحالات كانت كلماته وعباراته تتدفّق بلا انقطاع، وكأَنّها مياه تنبجس من نبع، أو حمم تتفجّر من أَحشاء بركان، وبولس مأخوذ أَبداً بإِيضاح فكرته، وبثّ شيءٍ من الروح المتأَجّج في داخله، غير عابئ بصقل إِنشائه..

في ليالي السهّاد تلك، وفي مشغله المعتم، كان بولس، في الواقع، يرسي أُسس جامعات اللاهوت المسيحيّ.

و قد نهجت رسائل بولس، في بنيتها، الأسلوب الذي كان شائعاً آنذاك؛ فهي تُستهلّ بمدخلٍ يبيّن اسم المرسِل وصفته والمرسَل إِليه أو إِليهم، ويتضمّن تحيّات وديّة، يليه صُلب الرسالة حيث يبسط موضوعها. وتنهى بخاتمة هي بمثابة وداع ينطوي على أمنيات ونصائح وتحيّات مكرّرة؛ وغالباً ما يُنهي بولس الرسالة بتحيّات يخطّها بيده وبأَحرف كبيرة يفرضها تورّم أَنامله وشحّ بصره، ثمّ يمهرها بتوقيعه. كم هي مؤثّرة هذه الأَحرف البارزة التي تؤكّد صحّة الرسالة وأَصالتها !

هل هي كانت رسائل شخصيّة، أَم توجيهات عامّة ؟ قلّة منها هي رسائل خاصّة، مثل الرسالة – أو بالأَحرى البطاقة الرقيقة – إِلى فيليمون.أَمّا معظم الرسائل الأُخرى، وإِن هي كانت موجّهة إِلى شخصٍ معيّن، مثل تيطس أو تيموثيوس، أو إِلى جماعةٍ معيّنة، مثل جماعة كورنثس أو تيسّالونيكي، فهي تتناول مواضيع خاصّة بهذه الجماعات، تناولاً عابراً، ولكنّها سرعان ما تنطلق منها إِلى تعاليم لاهوتيّة عامّة. كان بولس، إِذن، وهو يملي رسائله، يفكّر بهذا أو ذاك من الأَشخاص أو الفرقاء، وبقضاياهم الخاصّة، ولكنّه يستخلص منها قِيَماً عامّة وشاملة، تؤهّل رسائله لتكون مفيدة لآخرين كُثُر، جيلاً إِثر جيل، فلا بدعَ إِن أعرب عن رغبته في أَن تتبادل شتّى الكنائس رسائله الموجّهة إِلى كلٍّ منها. ويشهد تقليد مسيحيّ، عبر العصور، أَن المسيحيّين، في كلّ مكان، كانوا يحتفظون بمجموعات كاملة من رسائل بولس، يتلونها بورَع، مستمدّين منها تعاليم سامية، مستهدين بأَنوارها المضيئة، ويعدّونها ملهمة.ولم تخجل بعض الجماعات التي تناولها بولس، في رسائله إِليها، بالتأنيب واللوم، من وضع هذه الرسائل بين أَيدي جماعات أُخرى، مؤكّدة تقديسها لهذه الوثائق الخالدة.هكذا أَثبت بولس، عندما طالب بتلاوة رسائله علناً، وبتبادلها بين الجماعات، إِيمانه بخطورة الإِعلام، وكان من روّاد العاملين في ميدانه.

و قد استخدم بولس، في تدوين رسائله، اللغة اليونانيّة الشائعة في الأمبراطوريّة الرومانيّة، حرصاً منه على نشر الإنجيل بلغة يفهمها الجميع، إذ كانت اليونانيّة، آنذاك، مثل ما هي الإنكليزيّة اليوم. واللغة التي كتب بها ليست لغةً أدبيّة مرهفة، ولا هي لغة العامّة، بل هي أقرب إلى اللغة التجاريّة، لغة المثقّفين من أهل عصره، التي تشوبها بعض العبارات الأراميّة أو اليهوديّة الشعبيّة. وكان بولس قد تلقّن تلك اللغة في صغره، وأجاد في كبره، قواعدها، وتمرّس من مفرداتها، ولم يأخذ عليه اليونانيّون أنفسهم أيّ خطأ في التعبير الشفويّ أو الكتابيّ. ولكنّه طبع تلك اللغة بأسلوبه الخاصّ، وأسبغ على بعض المفردات معاني قشيبة، ودلالات خاصّة متميّزة؛ وصاغ مفردات وتعابير جديدة للإفصاح عن أفكار بكرٍ، وزاوج بعض المفردات للدلالة على معانٍ غير شائعة.لقد طوّع المفردات اليونانيّة، غير المعدّة للتعبير عن الحقائق المسيحيّة الفائقة، وبذلك، أوجد لغة جديدة، قادرة على التعبير عن اللاهوت المسيحيّ. وقد أحسن استخدام اللغة اليونانيّة، واستنباط كنوز غناها، وتطويعها لخدمة جدّة رسالته.وامتزجت ثقافته الكلاسيكيّة بالدينيّة، فلم يشقّ عليه التعبير عن رسالة العهد الجديد. وقد اتّسم فعله هذا بكثير من الجرأة، وكان له فضل جمّ. وفي تيّاره اندفع يوحنّا الإنجيليّ، الذي أفاد من إرثه اللاهوتيّ، وماثله جرأة، بإضفائه على بعض المفردات، مثل مفردة " لوغوس "، أي الكلمة، أبعاداً لم يكن ليتطلّع إليها فلاسفة زمانه ولاهوتيّوه.

كان بولس، إذن، متمكّناً من لغته اليونانيّة، قابضاً، بحزم، على ناصية الكلمة والفكر، ولكنّه، لم يقع قطّ في فخّ الاهتمام بالصيغة على حساب الموضوع والجوهر، لا بل إنّه غالباً ما أهمل جمال الشكل، فشابت أسلوبه عيوب كثيرة؛ فهناك الجُمل المتمادية الطول، والتعابير المرتبكة، المقطّعة الأوصال، والمقاطع غير المترابطة، أو المرتبطة ارتباطاً مهلهلاً، والخواطر المتزاحمة التي يستدعي أحدها الآخر، ويمسك بعضها برقاب بعض، في تداخل مشوّش، وفي منأى عن التسلسل المنطقيّ المحكم، تكثر فيها الاستطرادات الطويلة، والتلميحات الغامضة، التي لم يفلح المفسّرون في استيضاح مغاليقها حتّى اليوم، لأنّها أغفلت عناصر الإيضاح والتبسيط، فتسرّب بعض الغموض إلى النصّ. ولا ريب أنّ جهلنا لبعض الملابسات التاريخيّة التي كان معاصرو بولس مطّلعين عليها، وللظروف التي واكبت وضع الرسائل، هي التي خلّفت بعض بقع ظلمة فيها لم يتمّ بعد استجلاؤها.

ولكن من المحقّق أنّ المراسيل الذين كان بولس يكلّفهم بإبلاغ هذه الرسائل كانوا ملمّين بكلّ ملابساتها وفحواها، وكان من شأنهم أن يوضحوا للمرسَل إليهم كلّ ما استغلق عليهم منها.

وكثيراً ما اصطبغ إنشاء بولس بالاضطراب الذي كان يخالط نفسه، فجاءت بعض جمله غير متوازنة، فهي أَحياناً مقطّعة، لاهثة، وأَحياناً مستفيضة وعرة. ومع ذلك، بل ربّما بسبب ذلك، أَيّة عفويّة، وأَيّ تفجّر خواطر، وأَيّ اندفاع قلب، وأَيّ زخم في توثّبات الروح، وأَيّ تساوق بين النفس والإنشاء، وأَيّة أَقوال مدهشة، وأَفكار عميقة، وأَيّة إبداعات وجواهر!

لطالما حلّق بولس إلى أَجواءٍ سامية من الفصاحة التي تلهبها نفس مضطرمة، سواء عندما ينشد للصليب والقيامة والمحبّة، أو عندما يواجه مناوئيه، مثلما جاء في رسالته إلى الكورنثيّين : " مهما يجترئ فيه أَحد – أتكلّم كجاهل – اجترئْ فيه أَنا أَيضاً ! أعبرانيّون هم ؟ فأنا كذلك. أإسرائيليّون هم ؟ فأنا كذلك؛ أَذريّة إبراهيم هم ؟ فأنا كذلك. أَخدّام المسيح هم؟ – أَتكلّم كمن يهذي – فأنا أَكثر : في الأَتعاب أَكثر، في السجون أَكثر، في الجَلد فوق القياس، في أَخطار الموت غالباً. جلدني اليهود خمس مرّات أَربعين جلدةً إلاّ واحدة؛ ضُربتُ بالعصيّ ثلاث مرّات؛ رُجمتُ مرَّة؛ انكسرت بي السفينة ثلاث مرّات؛ قضيت نهاراً وليلةً في اللجّة. كثيراً ما واجهت في أَسفاري أَخطار السيول، وأَخطار اللصوص، أَخطاراً من أُمّتي وأَخطاراً من الأُمم؛ أَخطاراً في المدينة، وأَخطاراً في البرّيّة، وأَخطاراً في البحر، وأَخطاراً بين الإخوة الكذبة، تعبٌ وكدّ، أسهار كثيرة، جوع وعطش وأَصوام كثيرة، بردٌ وعري؛ وما عدا هذه، ما يتراكم عليّ كلّ يوم، واهتمامي بجميع الكنائس، فمن يضعف ولا أَضعف أَنا ! ومن يعثر، ولا أَحترق أَنا.

إن كان لا بدّ من الافتخار، فإنّي أَفتخر بضعفي. "

أَمّا أَحبّاؤه التسّالونيكيّون فيخاطبهم بلهجة تقطر حناناً وعذوبة : " مع أَنّه كان بوسعنا أَن نثقّل عليكم بوصفنا رسل المسيح، كنّا مترفّقين في ما بينكم، بل كما تحتضن المرضع أولادها، هكذا كنّا، من فرط الحنين إليكم، نرتضي أَن نبذل لكم، لا الإنجيل فقط، بل أَنفسنا أَيضاً، لكونكم صرتم أَحبّاء إلينا. وإنّكم لتتذكرون، أَيّها الإخوة، تعبنا وكدّنا، إذ كنّا نبشّركم بإنجيل اللّه، ونحن نعمل ليل نهار لئلاّ نثقّل على أَحدٍ منكم. وأَنتم شهود، واللّه شاهد، أَنّ سيرتنا عندكم، أَنتم المؤمنين، كانت مقدّسةً، وعادلةً، وبغير لوم. وتعلمون، أَيضاً، كيف كنّا، لكلّ واحدٍ منكم، كالأَب لأَولاده، نعظكم، ونشجّعكم، ونناشدكم، لكي تسلكوا على ما يليق باللّه، الذي يدعوكم إلى ملكوته ومجده... وأَمّا نحن، أَيّها الإخوة، فإذ قد فُصِلنا عنكم حيناً من الوقت، بالوجه لا بالقلب، اجتهدنا جدّ الاجتهاد، وفي اشتياقٍ شديد، أَن نشاهد وجهكم. لهذا عزمنا أَن نَقْدِم إليكم، أَنا بولس على الأَخصّ، مرَّةً بل مرّتين، وقد عاقنا الشيطان. إذ ما رجاؤنا وفرحنا، وإكليل فخرنا أَمام ربّنا يسوع، عند مجيئه ؟ أَما هو أَنتم ؟ أَجل، إنّما أَنتم مجدنا وفرحنا ".

و بالتالي، مع كلّ ما يعتور إنشاء بولس من هنات، يؤكّد كثيرون أنّ أُسلوبه رفيع، متميّز، فريد، فقد استطاع تحطيم الأُطر الضيّقة، وتحرّر من عبوديّة الحرف التي هيمنت على أَبناء شعبه. وقد برع في بسط أَفكاره، وإِعادة طرحها، بإِسباغ ملاحظ جديدة عليها، وإِبرازها بوسائل غير وسائل الأَلفاظ، والمقارنات؛ لا بل إِنّ بعض الذين عكفوا على دراسة رسائله لم يتردّدوا في وضع بعض صفحاتها، في مستوى أَجمل صفحات أَفلاطون.

و في هذا الدليل على أَنّ قيمة بولس الكاتب لا تنبع من لغته وإنشائه، وبراعة أَسلوبه، بل من ميّزات أَقلّ صلة بالشكل. لقد ارتقى إِلى ذرى الفصاحة لأَنّه أَزرى بأساليب البلاغة، وامتلك قدرة ابتكار العبارات المدهشة، والأوصاف المشرقة كالبرق، بحيث حفلت صفحاته بإِبداعات مثل : "نفحة المسيح الطيّبة"، "رجل الخطيئة "، "الشوكة في الجسد"، "جنون الصليب" والكثير من أَمثالها؛ أَقوال مثقلة بالمعاني لا يُسبر لها غور؛ صيَغ خالدة، ما زالت، بعد أَلفين من السنين، ورغم تشويه الترجمات، تتأَلّق بلمعانٍ لم يفقد شيئاً من وهجه.

و بولس كاتب فذّ لأَنّه تمكّن من تضمين عباراته مادّة شديدة الغنى، وصاغها صيغة من الكثافة بحيث يتعذّر إِدخال أَيّ تبديل، أو إِضافة، أو حذف، عليها، من غير المسّ بجوهرها. وفي جميع رسائل بولس نعثر على هذه الجواهر الكثيفة، على هذه التُّحف الكاملة.فلنستمع إِليه، مثلاً، يبشّر الكورنثيّين بالقيامة :

" ها إِنّي أكشف لكم سرّاً : لن نرقد كلّنا، ولكن، سنتحوّل كلّنا، في لحظة، في طرفة عين، عند البوق الأَخير؛ لأَنّه سيُهتَف بالبوق، فينهض الأَموات بغير فساد، ونحن نتحوّل. إِذ لا بدّ لهذا الجسد الفاسد أَن يلبس عدم الفساد، ولهذا الجسد المائت أَن يلبس عدم الموت"

هذا المقطع نموذج عن قدرة بولس الإِيحائيّة، وعن جيشانه الباطنيّ، وعن استنباطه، من الخواطر المجرّدة، صوراً نابضة بالحيويّة تفرض ذاتها على الذهن، وعن تمكّنه من تأليف المتنافرات، إِذ كثيراً ما ينزع بولس إِلى قرن المتناقضات مثل الحياة والموت، الجسد والروح، الظلمة والنور، النوم والسهر، الحكمة والحماقة. وبعض هذه المتناقضات يحمل توقيعه المميّز ودمغته، مثل الحرف والروح، الشريعة والنعمة.

و في الرسالة عينها، وفي نشيد المحبّة الرائع الخالد، طوى بولس أَسطراً قليلة على كنوز من التحليل النفسيّ، وضمّن أَلفاظاً معدودات معيناً ثرّاً من الحقائق الخالدة.

مقاطع مثل هذه، فضلاً عن ازدحامها بالصِّيَغ المأثورة، تبرهن على براعة بولس في بسط خواطره بسطاً كثيفاً يحيط بها من كلّ جوانبها، مستسلماً لعنفه الداخليّ الذي يهيمن على إِنشائه، ويفرض على قناعات قرّائه الحقائق التي يؤمن بها إِيماناً راسخاً ويعيشها بعمق. وإِن كان فنّ النفاذ إِلى قناعات الغير، هذا، متحرّراً من أُطر مدارس البلاغة ومعلّمي البيان، إِلاّ أَنّه

فنّ، بل فنّ عظيم، ولا سيّما وأَنّه فنٌّ تلقائيّ لا يعي ذاته؛ فبولس لا يكتب أَبداً من أَجل الكتابة، ولا يتوخّى وضع مآثر أَدبيّة، بل هو يكتب لأَنّه نبع لا يملك حبس تدفّقه، وبركان لا يملك حجز حممه المتفجّرة. الهوى المضطرم، والعنف الجامح اللّذان يحدوانه، هما اللّذان يضمنان وحدة الكاتب المعقّد والغنيّ الكامن داخل بولس، والخطيب الثاوي في ثناياه، والذي يتجلّى من خلال مقاطع متوازية كأبيات الشعر، على إِيقاع يسهل تلمّسه. إِنّ في طوايا بولس شاعراً غافياً، يهبّ مستيقظاً، ولا سيّما عندما هو يتحدّث عن المأساة الإِلهيّة التي يحتلّ المسيح مركزها، فيحلّق بخفقة جناح جبّارة، تحليقاً سامياً، فوق أَغوار تبعث على الدوار.

و ما هو أولى بالإِعجاب من أَقواله المأثورة، ومن تحليقاته المدهشة، هو كثافة رسائله كلّها، والتوتّر المتصاعد فيها، والذي لا يفلت من أَسره إِلاّ من عزم على أَن يصمّ آذانه عن كلّ شهادة، وعن كلّ نداءات الروح. صحيحٌ أَنّ بعض مقاطع بولس تتّسم بالغموض، كما اعترف بذلك القدّيس بطرس نفسه، وتستعصي على الفهم. ومردّ ذلك الجيشان الداخليّ الذي يملي عليه، أَحياناً، أَقوالاً مدهشة، ومقاطع تنافس روائع الشعر والبلاغة، ولكنّه يدعه، أَحياناً، عيّاً، متلعثماً، مُرتَجاً عليه، حيال عظمة الحقيقة التي يتناولها.

و إِلى كلّ ذلك، يتجلّى، في بولس، معلّم الشريعة الذي تتلمذ على يدي غمالئيل، وأتقن فنّ الخطابة، واستخدام الإِيقاعات المتناغمة، والتكرار، وأَساليب الجناس، مثلما أَجاد إِيراد النصوص الكتابيّة، واستخلاص مراميها. ويتجلّى فيه، أَيضاً، الخبير بالجَدَل المنطقيّ، على غرار أَبرع اليونانيّين في هذا الميدان؛ وله أسلوبه الخاصّ في تجسيد الخصم، ومباغتته بوابل من الأَسئلة والأَجوبة المحرجة؛ وأَخيراً يتجلّى فيه الفيلسوف، لا بالمعنى الكلاسّيكي للكلمة، بل بصفته من وُهب ملكة الحدْس، والاستنتاج، والتحليل المتبصّر، والتوفيق العسير بين المعطيات المتباينة.

شخصيّة غنيّة، فيها السحر والرقّة، التأمّل والتلقائيّة.هو تارة عنيف، وطوراً حنون عذب المناجاة، وحيناً آخر مفكّر مقنع. وكلّ هذه العناصر تأتلف في بولس على تناغم، وتتجلّى في أسلوبه. وما يؤلّف بينها هو ذلك الاندفاع الحيويّ الذي ميّز شخصيّةً وسيرةً قلّما كان لهما، في التاريخ، نظير.

إِذن، إِن كان بولس كاتباً كبيراً، فلأَنّه لم يكن، أَوّلاً كاتباً، بل كان، أَوّلاً، إِنساناً، فلكلّ ما كتبه صلةٌ بحدَث أو بشخص. ولم تكن رسائله نتاج دماغٍ حالمٍ قابع في هدأة مكتب، بل نتاج مناضل كانت حياته مخاطرة مستمرّة. هو، إِذن، لا يبتغي عرض نظريّة، بل يتوخّى الإِعلام والإِصلاح، والتثبيت. كلّ ما يُجيله في ذهنه، ويكتبه، إِنّما يكتبه في غمرة اندفاعه، وفي ديناميكيّة جهاده. هذا الموقف التلقائيّ لدى بولس هو ما تقتضيه المسيحيّة من أَتباعها،

فالإنجيل ليس نظاماً فكريّاً، بل هو تاريخ، ومأساة، وليس المطلوب إثباته بالبرهان المنطقيّ، بل عيشه.

و قد أقرّ بوسّويه[2]، في معرض حديثه عن بولس : " إنّ البلاغة الحقيقيّة تزري بأساليب البلاغة ". وبلاغة بولس لا تعتمد على وسائل البيان، ولا تدغدغ الآذان، بل توصل ضرباتها إلى القلب مباشرة، وكلامه مفعم روحاً وحياةً، نعمةً وحقيقة، لأنّها على اتّصال وثيق بنبع الحياة.

قد يعتري من يقرأ رسائل بولس، للوهلة الأولى، إحساسٌ بأنّ أُسلوبه بعيد عن فنّ الكتابة الأدبيّة الراقية، غير أنّ من يستغرق في ذلك النثر العنيف، يلمس شعوراً بالاندفاع، والتوثّب الجامح، وتساوقاً كاملاً بين حركة النفس وانسياب الأُسلوب، وهذا ما يميّز الكاتب الصادق.

و قد قيّم بولس نفسه كتاباته بقوله : " إن أعوزتني البلاغة، فلا تعوزني المعرفة ". هذا يعني أنّه قد لا يكون أديباً متمكّناً من فنّ الكتابة، غير أنّه يشعر شعوراً عميقاً بما يودّ التعبير عنه. فإن لاح على كلامه شيءٌ من الوهن والافتقار إلى الفصاحة، غير أنّ أقواله، أبداً، زاخرة بالمعرفة، وعمق المعنى. وقوّة شعوره، ومتانة علمه جعلا منه، ولو عن غير قصد، أديباً متميّزاً؛ فعلى حدّ قول القدّيس أُغسطينُس : "وضعت الفصاحة نفسها في خدمة علمه ".

شخصيّة بولس تندمج تلقائيّاً في الرسالة التي كُلّف بتبليغها، وهي شخصيّة رائعة الغنى، متعدّدة الوجوه، معقّدة، ولكنّها توفّقت إلى تحقيق وحدتها الداخليّة، وهي التي تتجلّى من خلال كلّ ما كتب، وتصنع منه كتلةً فريدة من مرمر وفولاذ.

إنّ بولس حيٌّ ينبض في كلّ كلمةٍ كتبها، ولا عجب إن قال فيه القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم: " إنّني أتعرّف هذا الصوت، فهو صديق لي، بل يُخيّل لي أنّني أراه وأسمعه شخصيّاً؛ وحينئذٍ أتهلّل جذَلاً، وأُفيق من سُباتي، فأنغام بوق الروح هذه تثيرني، وتغمرني بالسعادة ".

و يعترف الذهبيّ الفم بأنّه وجد، في ذلك البوق الروحيّ، معلّماً، فيصرّح: " إنّني أستمع، باستمرار، إلى رسائله... وأتمتّع، وأفرح بتذوّق هذا البوق الروحيّ. فأندفع، وأضطرم رغبةً وتقديراً لهذا الصوت الحبيب. إنّ كلّ ما نعرفه، نحن جميعاً – اللهمّ إن كنّا نعرف شيئاً

[2] أسقف فرنسيّ (1627 - 1704) اشتُهر ببلاغة خُطبه

– قد تعلّمناه، لا بفضل خصالنا وقوّة فكرنا، بل من حوارنا المستمرّ مع هذا الرجل، وبفضل المودّة العميقة التي نحملها تجاهه".

أمّا عن شموليّة رسائل بولس، فيقول الذهبيّ الفم: "رسائل بولس مثل سفينة نوح، ولكنّ بولس، على نقيض نوح، لم يقتصر على إنقاذ نفسه وذويه، بل إنّه، برسائله، أنقذ البشريّة كلّها المشرفة على الغرق. وسفينته لم تقصد هدَفاً واحداً تتوقّف عنده، بل ما انفكّت تجوب المسكونة، وتستقلّ على متنها، كلّ طالب نجاة ".

و هنا نكتشف السرّ الذي، أكثر من قوّة شخصيّته، ورهافة ذكائه، وقدرة عبقريّته، جعل منه كاتباً فذّاً : وهو أنّه " **بوق الروح** "، الذي اختير لهذه المهمّة، مذ كان جنيناً، ودعاه يسوع باسمه، عند مشارف دمشق، وأسبغ عليه قوّةً هي أوفر جدوى من كلّ موهبة وكلّ عبقريّة، لأنّها قوّة اللّه. إنّ ذاك الذي سار وفقاً للروح، وعاش وفقاً للروح، قد كتب، أيضاً، وفقاً للروح. وكما أنّه يتعذّر تفسير شخصيّته، في معزل عن علاقته الحميمة بالربّ، كذلك يتعذّر استيعاب نصوصه، إلاّ في ضوء طابعها العلويّ. إنّ ما تشهد عليه كتابات بولس، هو ما شهدت عليه حياته كلّها. فبولس، هو أكثر من كاتب، وخطيب، ومجادل، ولاهوتيّ؛ إنّه ملهم، بكلّ ما تنطوي عليه هذه اللفظة من معنى، لأنّه، في آنٍ واحد، عبقريّ وقدّيس، وما فنّه سوى التعبير المتفجّر من شفتيه عن الحضور السامي الذي يقطنه، والذي كان يُدهشه هو نفسه، بحيث هتف : " من هو خليق بهذه الرسالة ؟... إنّما كفايتنا من اللّه الذي مكنّنا أن نكون خدّاماً لعهد جديد، لا عهد الحرف، بل عهد الروح".

الفصل الخامس عشر : لاهوت بولس

انجيل بولس

"إِنجيل" بولس هو فحوى تبشيره، المبثوثة في رسائله، ملخِّصة إِيمانه، والتعليم الذي اكتسبه من استقراء سيرة يسوع واستغراقه في استيعاب تعاليمه، وتدابير خلاصه. وما لاهوته سوى قصّة الحبّ المتبادل بين من أَحبّه واختاره رغم اضطهاده له، فقابله هو بحبٍّ مضطرم، وفيّ، حرص على الغوص في فهمه والإِلمام بأسراره الفائقة، قصّة حبّ مضطرم بين نفسٍ والهة، وإِلهها المحبوب.

لاهوت بولس، إِذن، لم ينهض على خبر سمعه، بل على يسوع الحيّ الذي كلّمه، ثمّ تكلّم وعمل فيه، لا على يسوع التاريخ، بل على يسوع الروح الحيّ أَبداً، والفعّال في قلوب البشر ونفوسهم. إنّه خلاصة الحبّ الخصب الذي عاشه بولس مع يسوع.

تعليم بولس هو تعبير عن إِيمانه، وما إِيمانه سوى خبرة روحيّة راهنة تستند على عقيدة نيّرة راسخة، وفي ذلك يكمن سرّ تأثيره البليغ، وانتشاره الواسع.

و محور كلّ لاهوت بولس هو يسوع الربّ، بكلّ ألوهته، وبكلّ غنى مجده، بوجوده السابق لتجسّده، وبتجسّده، وتعليمه، وآلامه، وصلبه، وموته، وقيامته، وصعوده، وبشفاعته الدائمة لدى الآب، وبنعمته التي يجود بها عبْر روحه القدّوس.

و روح لاهوت بولس هو " في المسيح " و" مع المسيح ". فالمسيحيّ هو من مات في يسوع وقام معه، وما الكنيسة سوى " جسده " وروحه، ومستودع تعليمه. وواجب المسيحيّ، لكي يكون عضواً فاعلاً في هذا الجسد، أن يتمثّل بالمسيح في موته وقيامته، وأَن يعيش فيه، لكي يتمجّد " معه " إِلى الأَبد.

و بعد، فليس لاهوت بولس تفكيراً فلسفيّاً، منهجيّاً، محصوراً في بحثٍ واحد مكتمل، بل هو توثّبات حياة، وإِعلانات حبّ، واعترافات إِيمان عفويّة مبثوثة في مختلف رسائله. وعلى حدّ قول الأَب متّى المسكين : " لا تجيء المعارف اللاهوتيّة عند بولس الرسول في قوالب جامدة، محدّدة، مرصوصة، مبوّبة، بل تأتي كسيلٍ من التأمّلات الهادئة، تخترق القلب قبل أَن تستقرّ في الفكر، لتحدّث الضمير قبل أَن تحدّث العقل، ولتزلزل النفس، وتعيدها صاغرة إِلى مواطن نعمتها الأولى"

إنّ مسيرة بولس، وتبشيره ورسائله يحكمها، جميعها، منطق واحد، وديناميكيّة واحدة نابعة من لقائه الحاسم، على طريق دمشق، بالمصلوب الذي قهر الموت، ذلك الحدَث المباغت الصاعق الذي حوّل شاول الفرّيسيّ إلى بولس الرسول.

ذلك اللقاء هو الذي يفسّر بولس وفكره.ففي دمشق التقى بولس الربّ القائم من الموت وأَعلن له سرّه في نور باهر، وأَخصب فكره بغنى هذا السرّ، وكلّفه بمهمّة نشره في العالم، وهي مهمّة كان قد أَعدّه لها مذ كان جنيناً في بطن أُمّه.

من الربّ الممجّد، إذن، تعلّم بولس كلّ شيء، وما فكر بولس سوى فكر يسوع الذي أَطلعه على سرّ محبّة اللّه. ثمّ إنّ بولس توغّل في الاندماج بيسوع، بحيث بات يسوع هو الذي يحيا ويعمل فيه، وهو الذي يتكلّم بفمه، ويعلّم من خلاله.

في غضون لحظات، انهار عالم بولس الداخليّ بأَسره، إذ حطّم يسوع، بظهوره له، جميع الأُطر التي كان يعيش في داخلها، ويتشبّث بها ذلك الشابّ الذي تثقّف في أَفضل مدرسة يهوديّة، والذي وقف مذهولاً حيال جسامة ما بات عليه شاهداً، مدركاً، به، أَنّ يسوع المسيح مات وقام وجاء بالخلاص للبشر أَجميعن. وبذلك، أَدرك، أَيضاً، أَنّ هذا الخلاص لا قِبَل للشريعة على توفيره، بل يوفّره، وحده، الإيمان بيسوع. هذا الإيمان سيغدو هو الإنجيل الذي سيقف بولس حياته وذاته على التبشير به، في كلّ مناسبة وغير مناسبة.

و انخراط بولس في مغامرة إبلاغ بشرى الإنجيل للأُمم، حمله على التوغّل في معرفة يسوع، واستجلاء جدّة تعليمه، فأَصبح لاهوتيّاً في غمرة نشاطه الرسوليّ، إذ كان عليه، بلا انقطاع، أَن يدعّم فتوحاته الرسوليّة بتفكير لاهوتيّ أَبعد عمقاً. وقد نضج فكره اللاهوتيّ، في ساحة النضال، وسط الصراعات التي خاضتها رسالته.وقد استقى بولس مبادئ معرفته المسيحيّة من مصادر ثلاثة :

– **الكتب** التي تعلّمها عند قدمي غمالئيل، وأَشبعها تأَمّلاً، ولكنّه أَعاد قراءتها على أَضواء حَدَث دمشق، فاستوعب معانيها القصوى، وأَيقن أَنّها لم تكن سوى تمهيد لمجيء يسوع المسيح المخلّص.

– **إلهامات إلهيّة مباشرة،** أَوّلها ذاك الذي أَضاء نفسه عبر ظهور يسوع له في دمشق، وتلته إلهامات أُخرى، كشف له بها الربّ، شيئاً فشيئاً، سرّ يسوع الناصريّ، ابن اللّه، وأَثره الحاسم في عمليّة الخلاص، وقد اعترف بولس نفسه: "لقد حَسُن لدى اللّه الذي أَفردني، مذ كنت في بطن أُمّي، ودعاني بنعمته، أَن يكشف لي ابنه لأُبشّر به بين الوثنيّين".

- **تقليد الرسل الذي تلقّاه،** أوّلاً، على يدي حنانيا ثم اكتمل بما تبادله من أَحاديث حميمة ومستفيضة مع شاهد عيان فريد، اختاره الربّ نفسه كي يرعى كنيسته، هو بطرس – أو كيفا، الصخر – على مدى خمسة عشر يوماً في أورشليم. ثمّ أَسهم آخرون في ترسيخ وديعة الإِيمان لديه.

لقد امتزجت وتكاملت، لدى بولس، معارفه الكتابيّة، والإِيحاءات الإِلهيّة التي خُصّ بها، وروايات الرسل، مؤلّفة جوهر تعليمه، أو ما دعاه " إِنجيله " الذي حظي بتأييد أَساطين الكنيسة – بطرس، ويوحنّا، ويعقوب، وببركتهم، والذي ما انفكّ ينضج ويغتني على إِيقاع مسيرته الرسوليّة.

لا جَرَم أَنّ بولس لم يبتدع المسيحيّة، كما ادّعى بعض السطحيّي التفكير، فهو لم يعلّم سوى ما علّمه يسوع والرسل من قبله ومن بعده، ولكنّه هو أَوّل من أَدرك جدّة هذا التعليم وفرادته، وعكف، في محبّة وتبصّر، على استنباط أَسرار الكنوز التي جاء بها يسوع للبشريّة، وعلى إِيضاح معالمها، وإِضاءة مغازيها وعواقبها العمليّة العميقة، بحيث يعسر علينا فهم كلام يسوع فهماً صحيحاً، ما لم نستعِن بعبقريّة الطرسوسيّ، وبرسائله، وبقدوة مواقفه.ومن المحقّق أَنّه كان له فضل أَكيد في دفع المسيحيّة على السراط الذي اختطّه لها مؤسّسها.

قبل اهتدائه، كان بولس يتميّز بفكرٍ جَدَليّ ينطلق من المبادئ إِلى نتائجها القصوى. وقد احتفظ بهذه الميول الجدَليّة، عقب اهتدائه، ولكنّه أَصبح، أَيضاً، يعتمد الحدْس، ويتوغّل في تأمّلاته الصوفيّة، مستخلصاً منها نتائجها العمليّة كي يطبّقها على الحياة اليوميّة.

و كان لرائد الألوهة ذاك، العملاق الذي يغوص رأسه في النور الإِلهيّ، قدمان راسختان على أَرض الواقع الراهن، وفي قلبه الرحب كان يترجّع صدى الحياة البشريّة جمعاء، ولذلك تصدّى، بجرأته المعهودة، لقضايا الإِنسانيّة، وجهد في حلّها، بتمكّن ومهارة، على ضوء معرفته الإِلهيّة.

لقد لخّص الأَب مونييه رؤية بولس للمسيحيّة كما يلي :

ليست المسيحيّة، نظريّة مجرّدة، مهما بلغت من الجمال واليقين. ولا هي مجموعة أَساليب تستهدف اجتذاب رضى الربّ، وتهدئة عدله وقلقنا، بل هي: واقع من مستوى الخلق وإِعادة الخلق، يتعلّق بتكوين الإنسان وحياته، ومسيرته ونظام العالم، كلّ العالم المخلوق، علاقة جديدة بين الخليقة والخالق، بين المحدود واللامحدود. هذا الواقع يسميّه بولس سرّاً، كان خفيّاً، وكشفه يسوع بتجّسده.

بالمسيح وفيه توهب الحياة للبشريّة. فالمسيح هو الابن المتجسّد، الذي عاش حياة بشريّة، ومات موتاً بشريّاً، ثمّ استعاد حياة إِلهيّة مليئة؛ ونحن، به، نشارك بهذه الحيويّة الجديدة التي أَشرعتها القيامة.

المسيح حمقٌ للفلاسفة اليونانيّين الذين عجزوا عن احتوائه في نظام فكريّ متماسك. وهو حجر عثرة لليهود الذين يرون في تلك المشاركة الإِلهيّة تجديفاً لا عذرَ له.غير أَنّه، في الواقع، حكمة عُليا تدخلنا إِلى محراب النبع الأَسمى، المشرع الأَغوار على استقرائنا وتأمّلنا.

لهذا السرّ وجهان : وجه الفداء والتحرير؛ ووجه التأليه، والمشاركة في الحيويّة الإِلهيّة،

التحرير، أو الفداء، هو :

- إعتاقنا من جميع العلاقات غير الطبيعيّة التي تخنق حريّة أَبناء اللّه : الشهوات، والأصوليّة، والمخاوف،

- مصالحة الابن مع أَبيه

- أكثر من مجرّد إِرضاءٍ أَدبيّ يقدّمه المسيح لأَبيه، باسم بشريّة تقدّم، به وفيه، فيضاً من الحبّ، كفّارة عن إِنكارها للجميل، وثوراتها. بل هو توحيد كلّ من يحمل طبيعة بشريّة في مساواة بالكرامة ووحدة الحياة، في المسيح يسوع.

- انتصار على الموت.

هذا التحرير يسمو بالطبيعة المتحرّرة إِلى مشاركة حقيقيّة في طبيعة اللّه وحياته. إِنّه تحقيق لملكوت اللّه. وهكذا يغدو الإِنسان، بيسوع وفيه (وقد بات عضواً في جسده) ابناً للّه، مشاركاً في تيّار الحبّ الذي يربط الآب بالابن : أَي في الروح القدس.

هذا الإِنجاز العظيم، المتمثّل في إِعادة خلقنا في المسيح، ينبع من رؤية الآب الذي رآنا في ابنه منذ الأزل. وهو يتحقّق في المسيح يسوع، الابن الأوحد المتأنّس، لكي يجمع البشريّة والألوهة، في حميميّة ووحدة. المسيح هو الكلّ الذي نمثّل منه جزءاً متمّماً، مع محافظتنا على شخصيّتنا الخاصّة. هذا الكلّ يدعى الكنيسة، أَي الجسد الواحد، ومجموعة المتطوّعين للحبّ.

و روح الآب والابن يحلّ فينا، ويندمج بروحنا، بحيث يغدو الإِنسان الذي لبس المسيح، مكوّناً من جسد ونفس ومن الروح القدس.

وعي هذا الواقع كفيل بتوجيه نشاطنا الأخلاقيّ، وإِرسائه على مبدأ بسيط بقدر ما هو غنيّ، وهو " العيش عيشة جديرة بدعوتنا إِلى الحياة الإِلهيّة، وبتمثّلنا بالمسيح يسوع ".

و بذلك تمسي المحبّة والإنسانيّة فضائل طبيعيّة في المسيحيّ، وغريزة سامية نابعة من ولادتنا الجديدة.

و لئن وجّه بولس تعليمه لعهده وجيله، إلاّ أنّ هذا التعليم هو دعوة دائمة إلى تبيّن "علامات الأزمنة"، وإلى الاستسلام لعمل الروح الكفيل بتحويلنا والسكن فينا، وبجعلنا نتبنّى، على غرار بولس، خدمة المسيح التي تولد منها الحرّيّة الحقّة.

و جدير بالتنويه أنّ بولس لم يسرد تفاصيل حياة يسوع الأرضيّة، ولم يأتِ على ذكر بيت لحم والناصرة، ولم يورد من أقوال المخلّص سوى عبارات معدودات. فتلك الأفعال والأقوال كانت شائعة يتناقلها المسيحيّون، وقد آثر بولس أن يدع للإنجيليّين مهمّة تدوينها للأجيال القادمة، وقد اضطلعوا بها بأمانةٍ مطلقة، وبساطةٍ شفّافة، كما يليق بحدَث إلهيّ فريد. واكتفى بولس لنفسه بالغوص في استنباط كنوز الخلاص التي جاء بها يسوع، والتوغّل في تأمّل سرّه الفصحيّ، واكتشاف ثروات تعليمه التي خفي الكثير منها حتّى على بعض تلاميذه، واستجلاء تبعات هذا التعليم على مسيرة التاريخ، ومواكبتها لجميع الأجيال، ومعاصرتها للبشر أجمعين. لقد ترك لرفاقه الرسل سرد ما فعل يسوع وقال، واهتمّ بما هو قادر على فعله في قلب كلّ إنسان، في كلّ عهد، بفضل قدرة قيامته.

لقد أكّد بولس باستمرار أنّ لا إنجيل سوى الإنجيل الذي بشّر به يسوع بأقواله وأفعاله. فيوم شرع بولس يبشّر، كانت تلك الأقوال ما برحت مدوّية في الآذان، وفي أغوار القلوب، وكانت أفعاله، وصلبه وقيامته، ماثلة في الأذهان، ويشهد بها مئات ممّن عاينوها بعيونهم، وشاهدوا عجائب يسوع، وجرأته، ووداعته، وصلبه وقيامته، وظهوره لهم بعد قيامته.

و من ثمّ لم يكن بوسع بولس أن يبدّل من تلك الوقائع حرفاً، ولكنّه جهد في استجلاء غنى رموزها، ومغزاها، ومفاعيلها الخلاصيّة، امتثالاً لأمر يسوع الذي انتدبه، منذ الأزل، لهذه المهمّة، وفي سبيلها ظهر له ظهوراً خاصّاً، وكشف له أسرار حبّه وفدائه.

منذ دمشق، وعلى امتداد مشواره الرسوليّ، ما انفكّ بولس يختبر حقيقة الإنجيل كقوّة حبّ اللّه الخلاصيّة. ولأنّه اكتشف حبّ اللّه الذي يحرّر ويخلّص، تخلّى عن قناعته وأبحاثه السابقة، لكي يستسلم بكلّيته للمسيح، مؤكّداً : "حياتي الحاضرة، في الجسد، أعيشها في الإيمان بابن اللّه الذي أحبّني وبذل نفسه عنّي"

ذلكم هو " إنجيله "

صليب يسوع وقيامته

إنّ ظهور يسوع لبولس، عند مشارف دمشق، منتصراً على الموت، إلهاً ممجّداً، فتح له أَبواب السماء، وأماط له الحجاب عن سرّ الخلاص العظيم بيسوع، الذي كان في قلب اللّه، قبل بدء الأَزمان.يسوع قاهر الموت هو الذي قلب مفاهيم بولس ومسار حياته. وعلى صليب يسوع وقيامته بنى بولس كلّ لاهوته وتعليمه، وقد حرص على ألاّ يستهان بأَيٍّ من هذين المحورين في أيّ تعليم مسيحيّ. ولا بدعَ إن هما احتلاّ مكاناً مركزيّاً من تبشير بولس وكتاباته، فهما ينيران مصير الإنسان، وهما مآل تاريخ الخلاص.

توقّع اليهود مسيحاً قويّاً مسيطراً، ولذلك رأوا في صلب يسوع دليل وهنٍ أقصى، وفضيحة مجلجلة، فنبذوه ولعنوه. ولكنّ اللّه أَظهر أَنّ ما اعتُبر وهناً لدى يسوع هو أَمنع من كلّ قوى البشر. ولكنّ هذه القوّة تختلف، في أسلوبها، عن قدرة البشر.إنّها قدرة الحبّ، المتفجّرة من صميم وهن المصلوب، الذي، من قمّة صليبه، وعوضاً من سحق العالم، أَخذ على عاتقه آلامه، وعواقب خطيئته، لكي يجعل منه مكان انقلاب وتحوّل إيجابيّ للبشريّة. الصليب هو قمّة المحبّة، وله الكلمة الأَخيرة.

لقد ارتبطت حكمة بني إسرائيل، منذ القدم، بفنّ النجاح المادّيّ، ولذلك عجزت عن تقدير قيمة رسالة انتهت بصاحبها إلىمهانة الصليب. أمّا الحكمة التي يهبها الروح، فتظهر أَنّ صليب المسيح هو مفتاح الكون والتاريخ، ومحور الخلاص.

و في أَثناء حياة يسوع كان بطرس نفسه قد عبّر عن الموقف اليهوديّ. فهو قد أَعلن، يوماً، بإيحاء من الروح القدس، أَنّ يسوع هو المسيح ابن اللّه الحقّ. وفي إثر هذا الإعلان، راح يسوع ينذر تلاميذه بأَنّ عليه أن يقاسي جمّاً من الآلام، ويُرذَل، ويُعدَم، قبل أَن يتغلّب على الموت، فاستنكر بطرس هذا القول، ممّا دفع يسوع إلى تأنيبه بعنف واصفاً إيّاه بأنّه إبليس، لأَنّ آراءه بشريّة، وبعيدة عن آراء اللّه.

و لئن رأى اليهود في الصليب فضيحة، فاليونانيّون رأوا فيه حماقة، وهم الكلِفون بالحكمة، والفكر، والمعرفة. ففي نظرهم، لم يكن ممكناً أَن يأتلف جمال اللّه الأَسمى مع بشاعة الصليب القصوى. وكان شيشرون قد قال : " كان إنزال عقوبة الصلب بمواطنين رومانيّين يُعدّ جريمة، لا بل كان يتعيّن إبعاد اسم الصليب عن فكرهم، وعيونهم، وآذانهم ". كيف يمكن التوفيق بين هذا الموقف، وإعلان بولس بأَنّ مجد اللّه يتجلّى من خلال الصليب؟

غير أَنّ استنكار اليهود، واستحماق الوثنيّين ينقلبان قوّة وحكمة لدى من يؤمن من هؤلاء وأولئك، وعلى نحوٍ فائق يتخطّى كلّ المعايير البشريّة. فضلاً عن أَنّ رسالة الصليب تعقد مصالحة بين جميع الفئات، وتوحّد بينهم بالخلاص. وفي ذلك، أَيضاً، انتصار للصليب.

إِنّ الصليب الذي عدّه البشر حماقة هو قمّة حكمة اللّه، وقمّة المفارقات : فآلة المهانة باتت دليلاً على طاعة المسيح للمشيئة الإلهيّة حتّى الموت المهين؛ وبذلك غدا رمز الوهن والفناء عنواناً لقدرة اللّه الكلّيّة، التي تجلّت في قيامة المصلوب.

لقد قلب يسوع مفاهيم العالم ومعاييره، إِذ بات مجد اللّه يتجلّى حيثما كان الإنسان معرّضاً للازدراء، ممّا جعل بولس يهتف : " أَين الحكيم ؟ أَين العلاّمة ؟ أَين المجادل في هذا الزمان ؟ " وما الذي استطاع هؤلاء فعله في سبيل تقدّم معرفة اللّه، وإِنجاح الحياة ؟ لقد ارتأت حكمة اللّه ومحبّته أَن يتمّ خلاص البشر، بوهن الصليب وجنونه. فلا عجب إن اختار اللّه كلّ ما هو حقير ومزدرىً في العالم، من أَجل إِبراز غناه ومجده، وأَبطل حكمة العالم بحكمة صليب يسوع.

و كان الخلاص نعمة حبّ اللّه المجّانيّة لكيلا تتكبّر أَيّة خليقة أَمامه. فاللّه يدعونا إِلى العيش في ابنه يسوع، وإِلى التواصل الحميم معه، وهذه الهبة لا يستحقّها أَيّ إِنجاز بشريّ، أو أَيّ تأهيل ثقافيّ وأَخلاقيّ. وإِن تجلّى تفوّق النعمة الإِلهيّة في كلّ مؤمن، أَيّاً كان انتماؤه، إِلاّ أَنّه أَشدّ تألّقاً عندما تغمر تلك النعمة من لا يستطيع ادّعاء أَيّ تميّز إِنسانيّ، أو ثقافيّ، أو اجتماعيّ، أو دينيّ.

إِنّ إحلال المصلوب في موقع المركز هو إِحلالٌ للفقراء في الموقع عينه، فهم في نظر المجتمع الأَقلّ تقديراً، لأَنّهم الأَقلّ امتلاكاً.

و قد اكتمل الصليب بالقيامة، التي آذنت بحلول عهد جديد يكرّس انتصار الحياة.

فلئن كان يسوع قد مات على الصليب من أَجلنا، فهو، أَيضاً، قد قام من الموت من أَجلنا، لكي نقوم معه. فلولا قيامة المسيح التي تمهّد لقيامتنا، لكان إِيماننا كلّه باطلاً، ولكنّا ما برحنا تحت أَسر الخطيئة.

لم يمت المسيح كفردٍ عاديّ في جسده الخاطئ، متمّماً عقوبة الموت عن نفسه، بل مات بجسده الذي لم يعرف الخطيئة، طوعاً، ذبيحة تكفير من أَجل كلّ خطأة الأَرض، فاستحقّ لكلّ من تألّم وصلب معه أَن ينهض معه. فقد أَشركنا بكلّ مفاعيل قيامته، وجعلنا، بذبيحة صليبه، طائعين للآب، في طاعته.

فقيامة يسوع ليست مجرّد دعوة إِلى الحياة، ولا هي حَدَث يخصّ المسيح وحده، بل هي كانت عبوراً، وأَحدثت تحوّلاً في الوضع البشريّ، في المسيح أَوّلاً، ثمّ في المؤمنين به

المتضامنين معه. فحتّئذٍ كان محكوماً على البشر أَن يظلّوا أَسرى الموت، لأَنّ الخطيئة كانت تبقيهم بعيدين عن المساهمة الكاملة في حياة اللّه. ولكنّ الخطيئة هُزمت في الإِنسان يسوع، بدليل قيامته، وبه اشترك البشر اشتراكاً كاملاً في حياة اللّه.

و هكذا، "كان الموت على يد إِنسان، وعلى يد إِنسان تكون قيامة الأَموات"، وفي المسيح قاهر الموت تحقّق ملء دعوة الإِنسان المخلوق على صورة الله. وبه سيطر الإِنسان على كلّ شيء حتّى على الموت. ولم يكن بوسع هذه السيطرة أَن تتحقّق إِلاّ في إِنسانيّة متصالحة مع اللّه، وإِلاّ أَن تكون ثمرة الطاعة والحبّ، ثمن إِطاعة للحبّ بلغت مداها الأَقصى على الصليب.

أَمّا كيف تكون القيامة، فبولس يشبّهها بحبّة الحنطة التي تلقى في التربة فتموت، ومنها تنبعث حياة جديدة تحمل جوهرها في شكل قشيب. كذلك تتحوّل الأَجساد. قد تبدو عبارة " الجسد الروحانيّ " مفارقة، وهكذا لا يعني أَنّه جسد غير مادّيّ، بل "جسد يحدوه الروح "؛ جسدنا – أَي شخصنا بكلّ إِرثه الاجتماعيّ، والتاريخيّ، والكونيّ،- سيتطهّر، وسيتحوّل بالروح القدس، ولن يعود شيء يعيق أو يحدّ، فينا، قدرة روح المسيح وحرّيته. فيسوع، آدم الجديد، وبكر البشريّة الجديدة، أعاد، بقيامته، خلق الإِنسان، نافثاً فيه نسمة الروح القديرة. وهكذا، وإِن شرع إِنساننا الخارجيّ يتفتّت، إِلاّ أَنّ " الإِنسان " الداخليّ، أَي شخصنا الذي مسّه الروح القدس ودَمَغه، يتجدّد يوماً فيوماً، فتتغلّب قدرة الروح وحرّيّته على حدود وهننا.

و إِنجيل بولس المرتكز على صلب يسوع وقيامته، هو، بالتالي، إِنجيل تحرّر: تحرّر من الخطيئة والشريعة والموت.

في هذا السياق يقول بولس : " حَمَلُ فصحنا ذُبح، وهو المسيح ". فمسيح بولس هو، جوهريّاً، مسيح الفترة الفصحيّة، وبه تعبر البشريّة من العالم القديم إِلى عالم المستقبل. العالم القديم كان خاضعاً للشريعة، أَمّا العالم الجديد فقد بات يجسّد الحرّيّة، فحيث روح الربّ، هناك الحرّيّة. بموته مات يسوع عن الخطيئة، مرّةً ولكلّ مرّة، وبات يعيش في اللّه، بكلّ بشريّته. وذاك الذي كان " ابن داود حسب الجسد "، أُقيم، في الروح القدس، ابناً للّه في القدرة بقيامته من بين الأَموات، وغدا الصليب رمزاً لهذا العبور. وبه بطلت المعايير القديمة، ومظاهر الانتماء الخارجيّة، ولم يعد، ثمّة، شأن للختان أو للقلف، وغدا الاندفاع في مسيرة التاريخ غير متاح إِلاّ للخليقة الجديدة. لقد أُشرعت جميع التخوم، وأَمسى بمكنة الرسول أَن يحقّق ما تدفعه إِليه المحبّة، فيكون، بلا حرج، يهوديّاً مع اليهود، وبلا شريعة مع الذين بلا شريعة، وبات بوسعه أَن يتناول حتّى لحوم التقادم، بشرطٍ واحد، وهو أَلاّ يكون سبب عثرة لإِخوته، فحرّيّته لا تحدّها سوى مقتضيات المحبّة.

بتخطّيه التخوم أَبطل يسوع هذه التخوم، وكلّ ما تحجزه خلفها، ونقض الجدار العازل، مبشّراً أعداء العالم القديم بالسلام.

و على وجه الناهض من الموت يتألّق المجد الإلهيّ النابع من طاعة الصليب. إنّه وهج الوفاء، والقداسة، والقدرة، والحكمة، والجمال، المتوفّرة في اللّه، والمتجلّية في المسيح المصلوب. ولئن رأى البعض في الصليب وهناً وحمقاً، إلاّ أنّه، في الواقع رمز قدرة اللّه وحكمته. وقد أظهرت القيامة يسوع ابناً للّه، وصورةً أمينة له، صورة فاعلة تنطبع، أكثر فأكثر تألّقاً، في حياة المؤمنين، حياة جديدة في الروح الذي يجعلهم يتقدّمون "من مجد إلى مجد"، حتّى القيامة الأخيرة، حيث سيكتمل تطابقهم مع صورة الربّ.

إنّ سلطان يسوع الناجم عن قيامته الإلهيّة يختلف عن سلطان العالم.ولئن هو كان، قبل الفصح، ابن داود حسب الجسد، فهو، بعد القيامة، "الربّ "، الذي يعترف العالم كلّه بسيادته. إنّه آدم جديد يؤذن ببداية جديدة للبشريّة. ولعمله الفصحيّ بعدٌ شامل عالميّ، يخصّ البشريّة جمعاء. مسيح بولس هو " ربّ "، ومن ثمّ حاضر وفاعل في كلّ مكان من العالم والتاريخ. به يُعاش كلّ شيء، وبه تتحقّق رسالة الكنيسة، ويتلاقى الإخوة المختلفون، وتتّضح توجيهات الحياة الإنجيليّة وتفهَم. فأجلّ هبات الربّ يسوع هي موهبة الروح القدس، بحيث استطاع بولس التأكيد أنّ " الربّ هو الروح "، وأنّ العيش " في الربّ " أو " في الروح" واحد؛ وهو " يعيش في قلوبنا بالإيمان ". وربّ الحياة الداخليّة هذا، هو، أيضاً، ربّ التاريخ، وهو الذي يحثّ الرسول على أن يبشّر به كلّ إنسان، في العالم كلّه.

من يسوع هذا استمدّ بولس إلهامه وقوّته، في سبيل بناء كنائس تنتفي منها التباينات القديمة، الاجتماعيّة والدينيّة، التي قد تنال من مساواة الجميع في الكرامة؛ ففي عهد ابن اللّه لا نبذ ولا استثناء. ومنه استمدّ، أيضاً، شموليّة رسالته، إيماناً منه بأنّ الإنجيل كفيل بالتوجّه إلى كلّ أنماط الثقافة البشريّة، وبأنّ حقيقة يسوع قد بلغت من العمق والقدرة على الخدمة ما يجعلها جديرة بالنفاذ إلى كل إنسان.

كان لا بدّ من عبقريّة بولس من أجل استيعاب ذلك السرّ العظيم، وكان لا بدّ، أيضاً، من نعمة الروح لكي يتمكّن من إبلاغ هذا السرّ على نحو ما فعل من استفاضةٍ، وعمقٍ، ووضوح. وجلّ ما توخّاه إبلاغ أنوار الصليب والقيامة إلى العالم أجمع.

و لطالما انقضّت على صليب يسوع سهام الكفر والبهتان والشتيمة، ولكنّه بقي وسيبقى منارة البشريّة ومثالاً لأسمى حبّ، وما أصدق قول شاعرنا الكبير عمر أبو ريشة :

ياطول ما انهدّ الحديد مُبَعْثَراً، قِطَعاً، على خشب الصليب الطاهِر!

الخلاص إِنقاذ مجّاني حقّقه الآب بعمل ابنه الفدائيّ، كي يعتق البشر من الخطيئة، وما سبّبته من دمار وموت روحيّين.

ورسائل بولس تضجّ بلهفة اللّه إِلى إِعتاقنا من قيود الخطيئة، وبنيّته المثبتة، منذ الأَزل، وفي توفير الخلاص للبشر أَجمعين، والتي تتجلّى من خلال تعابير مثل هذه :

- " (اللّه) الذي خلّصنا ودعانا دعوة مقدّسة، لا نظراً لأَعمالنا، بل نظراً لقصده الخاصّ، ونعمته التي أُعطيناها، في المسيح يسوع، من قبل الأزمنة الدهريّة، وأُظهرت الآن بتجلّي مخلّصنا يسوع المسيح الذي أَباد الموت، وأَبان الحياة والخلود، بواسطة الإِنجيل" (2 تي 1 : 9-10)

- " أَمّا اللّه فقد برهن عن محبّته لنا بموت المسيح عنّا، ونحن، بعدُ خطأة " (رو 5 : 8)

- " غير أَنّ اللّه، لكونه غنيّاً بالرحمة، ومن أَجل فرط محبّته التي أَحبّنا بها، وحين كنّا أَمواتاً بزلاّتنا، أَحيانا مع المسيح - إِذ بالنعمة أَنتم مخلّصون " (أف 2 : 4 - 5)

و كم تتردّد، في رسائل بولس، أَقوال كهذه: "أَسلم (يسوع) ذاته"، "بذل نفسه"، "طوعاً وحبّاً بنا".

و في سبيل خلاصنا " أَرسل (اللّه) ابنه، في شبه جسد الخطيئة "، أَي في جسدٍ إِنسانيٍّ حقّاً، ولكنّه ليس خاطئاً كأَيّ جسد، بل هو منزّه من الخطيئة، بفضل ولادته العجيبة، كما يليق بإِلهٍ متجسّد. وهذا الجسد الإِلهيّ قُدّم ذبيحة، تكفيراً عن خطايا البشر.

الفداء مأساة إِلهيّة حقّق بها الربّ للبشريّة الغلبة في أَقسى انكسار، والفرح في أَعتى أَلم، وأَرفع مجدٍ في أَعمق هوان؛ وبه علّمنا المحبّة، والطاعة، والتواضع، وإِنكار الذات، والصبر، والبذل بلا حساب.

و بافتدائه لنا اكتسب لنا يسوع التحرير، والتبرئة، والصفح، والمصالحة مع الآب، وأَسبغ علينا "قوّة اللّه للخلاص".

و يوجز بولس عناصر تعليمه الأَساسيّة، بهذا الشأن، بالنقاط الجوهريّة التالية:

حبّ اللّه : " اللّه أبونا الذي أَحبّنا وأَنعم علينا بعزاءٍ أَبديّ، ورجاء حسن". إِنّه يحبّنا بمثل حبّه لابنه الحبيب. وهذا الحبّ يتخطّى كلّ ما يسعنا تخيّله. ودليل حبّه تضحيته بابنه في

سبيل خلاصنا، وبذلك عقد معنا عهداً أبديّاً، بحيث لا يستطيع شيئٌ أو أحدٌ فصلنا عن حبّ اللّه المتجلّي في يسوع المسيح، الذي مهر المعاهدة بين الآب والبشر بفصحه، بصليبه وقيامته. إنّ الصليب ماثل أبداً في ذهن بولس، فهو الدليل الأسمى على الحبّ الأكثر إدهاشاً. ولابدْعَ إن بادل بولس الربّ حبّه بحبٍّ لا يتزعزع، فأعلن: " من يفصلنا عن محبّة المسيح ؟ الشدّة أم الضيق، أم الاضطهاد، أم الجوع، أم العري، أم الخطر، أم السيف ؟ على ما هو مكتوب: " إنّا من أجلك نُمات النهار كلّه، وقد حُسبنا مثل غنم للذبح ". غير أنّا في هذه كلّها نغلب بالذي أحبّنا. فإنّي لواثق بأنّه لا موتَ ولا حياة، لا ملائكة ولا رئاسات، لا حاضر، ولا مستقبل، ولا قوّات؛ لا علو ولا عمق، ولا خليقة أُخرى أيّة كانت، تقدر أن تفصلنا عن محبّة اللّه التي في المسيح يسوع ربّنا ".

و كيف لا يحبّ بولس يسوع. " وهو، في صورة اللّه، لم يعتبر مساواته للّه غنيمة له، بل تخلّى عن كلّ هذا، واتّخذ صورة العبد. صار شبيهاً بالبشر، وظهر بمظهر الإنسان"، لا بل إنّه اختار الميتة الأكثر مهانة، حبّاً بالبشر. فتجلّى مجده في صليبه، وتألّقت عظمته في تواضعه.

– في مقابل حبّ اللّه، ثمَّة **خطيئة البشر**، التي لم يتنزّه منها أحد.وثمن الخطيئة الموت.الخطيئة هي موقف خاطئ للإنسان من حياته ومن الواقع في جملته. موقف "شهوة" يدفعه إلى عبّ كلّ شيء من أجل الذات، وإلى اعتبار الذات مركزاً للعالم، وحَكَماً مطلقاً في ما هو خيرٌ وشرّ. موقف يتجاهل أن العالم قد خُلق ونُظّم من قبل اللّه، بل يدّعي أنّ بوسع المرء صوغه على هواه، ممّا يشوّه علاقة الإنسان باللّه، وبالآخر، وبذاته وبالواقع.

إنّه ضربٌ من إنكار اللّه، ومن تأليه الإنسان لذاته، وذلك هو أساس الخطيئة التي تنجم عنها كلّ أعمالنا الشرّيرة، لأنّه رفض للّه، ولحبّه المحرّر الذي يقود الإنسان إلى تدمير ذاته. ويستخدم بولس، للدلالة على ذلك، عبارة " غضب اللّه " وهي عباة شرقيّة تعني حزن اللّه وهو يرى الإنسان ابنه، يشوّه ذاته ويدمّرها. فهذا التجاهل لدور اللّه ولمخطّطاته يقود إلى عبادة الأوثان، وإلى عبوديّة الشهوة، فالشهوة مرتطبة بادّعاء الإنسان القدرة على خلق آلهته الخاصّة، وهكذا يُمتهن اللّه وتُمتهن خليقته؛ ولكن بما أنّ العالم بأسره هو خليقة اللّه، ويستمدّ الحياة منه، فالإنسان الذي تقصيه شهوته عن اللّه الحقّ يقع في أسر الموت. فالنأي عن اللّه، مصدر كلّ حياة، يقود حتماً إلى الموت. فضلاً من أن الشهوة لا ترتوي، ومن ينساقون لها مسلوبون، فاقدو السيطرة على ذواتهم، لا يدركون معيار حياة مزدهرة في إطار الجماعة؛ فاقدو البصر والبصيرة، وتمنعهم الظلمات التي تحيق بهم من تبيّن ما آلوا إليه، والتماس مخرج للنجاة؛ وهم، بالتالي، عاجزون عن حبّ الآخرين حبّاً صادقاً وبذل ذواتهم في سبيل

الغير. ويؤكّد بولس أَنّ محبّة المسيحيّين للّه وللمسيح هي نقيض الشهوة؛ فالشهوة انكفاء على الذات، والمحبّة توجّه نحو الآخر.

" غضب اللّه " قريبٌ دائماً من رحمته التي تفيض كي يستعيد الإِنسان درب الحياة والحبّ. فاللّه لا يريد للخاطئ الموت، بل الخلاص، وبالتالي يصالح اللّه الإِنسان بالمسيح، ويخلقه من جديد.ذلك هو إِنجيل بولس الذي يجعل من خطأةٍ محكوم عليهم بالموت، مؤمنين مُنحوا النعمة لكي يظفروا بالحياة. هذا العبور من الإِنسان القديم إِلى الإِنسان الجديد، يعبّر عنه بولس بالموت والقيامة، بالانتقال من وضع العبوديّة إِلى وضع البنوَّة. في الوضع الأَوّل كان الإِنسان يعيش للخطيئة، ويخضع لها، ويؤدّي لها خدمات بصفته عبداً لها، ويضع أَعضاءه في خدمتها، وهي تسيطر على جسده، وتتحكّم بروحه. فهو عبد مباع للخطيئة، وهي ليست خارجة عنه، بل تسكن في داخله، وتجعله عدوّاً للّه.

و أَقسى ما يتعرّض له الإِنسان هو أَن يُسلَم للخطيئة في معزل عن اللّه. وفي دمشق اكتشف بولس جسامة خطيئته وبشاعتها، إِذ كان، في عمى قلبه، قد شتم المسيح نفسه، وقاوم مقاصد الخلاص. ومع أَنّه لا عذر لأَحدٍ في خطيئته، إِلاّ أَنّ رحمة اللّه ترفع عنّا العقاب المستحقّ.

– وجاء **الخلاص** : منذ القدم راح البشر يتلمّسون طريقهم نحو استعادة الفردوس المفقود. فظنّ اليونانيّون أَنّهم يستطيعون ذلك بواسطة الحكمة، ولكنّهم فشلوا في بلوغ اللّه، عن طريق الحكمة؛ فاتّخذ اللّه مبادرته الخلاصيّة، بعملٍ يمسّ ما هو أَعمق من مجرّد المعرفة، إِذ إِنّه ينفذ إِلى أَعماق الكيان؛ فالخلاص ليس قضيّة تأويل، بل قضيّة مصير. وظنّ اليهود أَنّ الشريعة كفيلة بضمان خلاصهم. ولكن اتّضح عجز البشر عن تطبيق جميع بنود الشريعة بكلّ حذافيرها، كما اتّضح عجز الشريعة عن توفير الخلاص للبشر. وتأكّد أَن لا أَحد يستحقّ الخلاص بأَفعاله وحدها.

و لذلك أَرسل اللّه ابنه ليخلّص البشر بالنعمة، ويحقّق، بدمه، الفداء وغفران الخطايا. إِنّ اللّه يريد خلاص البشر أَجمعين، والوسيط الوحيد بينه وبين البشر هو يسوع المسيح. وبما أَنّ الخلاص يتمّ بفعل النعمة، فلا مجال لأَحد بالافتخار. وما على الإِنسان إِلاّ أَن يؤمن بإِرادة خلاص اللّه، وبمُحقّق الخلاص، يسوع، فهو فصحنا، ووسيلة انتقالنا من العبوديّة إِلى التحرّر، وقد استحقّ لنا ذلك بفضل موته وقيامته.فذاك الذي، وحده، لم يعرف الخطيئة، صار خطيئةً ولعنةً من أَجلنا، لكي يخلّصنا من لعنة الخطيئة، وبموته على الصليب، حاملاً خطايانا، صلب الخطيئة إِلى الأَبد. بذل ذاته من أَجل كلّ إِنسان، وأَطاع حتّى الموت على الصليب. ولئن كان

عصيان آدم قد استحقّ الموت لجميع البشر، فبطاعة يسوع وحده، وبدمه، وموته، نلنا نعمة الخلاص.

و منذ اللحظة الأولى آمن بولس إيماناً راسخاً بشموليّة الخلاص. فاللّه هو خالق البشر أجمعين، ولا يمكنه أن يميّز أحداً من أبنائه أو فئةً منهم على سواهم؛ وهو لم يرسل ابنه ليخلّص فئةً دون فئة، أو ليهب فئة امتيازاً على أخرى. هذه القناعة هي التي تفسّر عنف الصراع بين بولس والمزاعم اليهوديّة بالتميّز والتفرّد. وقد آمن بولس، أيضاً، أنّ الخلاص الشامل ينبغي أن يُبشَّر به عالميّاً، من غير أن يحول عائقٌ أو سدّ دون نفاذ البشرى إلى الوثنيّين، وإلى البشر أجمعين.

لقد ردّت الشريعة على تعليم يسوع بصلبه، غير أنّه، بقيامته، قهر الشريعة، وأبطل سلطانها، فما عاد أيّ إنسان يُبرّر بها، بل بالدم الزكيّ الذي سفكته ظلماً وعدواناً.

لقد حمت الشريعةُ اليهود، حقبةً ما، من عدوى الوثنيّة المحيطة. ولكنّها سرعان ما أصبحت جداراً يفصلها عن العالم، ويحول دون دعوتها إلى تعريف الخليقة باللّه الواحد، وإلى الشمول والعالميّة.تلك كانت مأساة اليهود عندما باشر بولس رسالته. وبعد أن رفض اليهود المضيّ قُدُماً في رسالتهم الإنسانيّة الشاملة، وآثروا الانكماش خلف شريعتهم وعنصريّتهم، كان لا بدّ للمسيحيّة من الانفصال عنها، وهذا ما أقدم عليه بولس.

– هذه الخليقة الجديدة يعبّر عنها الإنسان **بإيمانه بيسوع، وبتحوّل سلوكه** : إنّ اللّه يقدّم للإنسان نعمة الخلاص المجّاني، وعلى الإنسان أن يتقبّلها، ويتبنّاها بالإيمان والتحوّل اللّذين يجعلان هذه النعمة حاضرة وفاعلة. التحوّل هو التوبة، والتنكّب عن الأصنام التي نستعيض بها عن اللّه. والإيمان هو تبنّينا خلاص يسوع. إنّه ليس إيماناً بشيء أو بفكرة، بل بشخص : اللّه وابنه يسوع. والإيمان يصبح فاعلا بالمحبّة، ويوحّد البشر أجمعين. الإيمان يسكن أعماق القلب، ويتجلّى بالشهادة : " إنْ اعترفت، بفمك، أنّ يسوع هو ربّ، وآمنت في قلبك أنّ اللّه قد أقامه من بين الأموات، فإنّك تخلص، لأنّ الإيمان بالقلب يقود إلى البرّ، والاعتراف بالفم، إلى الخلاص "

و بفضل خلاص يسوع ننال الصفح عن خطايانا، وبراءة جديدة، ونشترك في بنّوة يسوع للّه، ونصبح معه أبناء اللّه، ومثله نغدو ورثة. " ورثة للّه، وشركاء للمسيح في الميراث ". وهذا الميراث ليس متاعاً، بل الروح القدس الذي وسمنا بخاتمه. وهذه السمة تتجلّى بكون المؤمن:

مائتاً عن الخطيئة، حيّاً للّه، في المسيح يسوع، متنكّباً عن الأصنام التي تحلّ محلّ اللّه.

جديراً بإِنجيل يسوع، مرتدياً المسيح، بحيث يستطيع، يوماً، أَن يعلن على غرار بولس : " لست أَنا من يحيا، بعد، بل المسيح هو الذي يحيا فيّ ".

مؤمناً بأَنّ كلّ شيء ممكن بقوّة المسيح،

مبتهجاً دائماً بالربّ، بما أَنّ كلّ شيء يؤول لخير من يحبّون اللّه.

خليقة جديدة، متحرّرة من كلّ عتيق، ومن كلّ إِدانة، لأَنّ ضميرها في سلام مع اللّه.

سائراً بهدي الروح، غير مدين للجسد في شيء، عائشاً الخلاص في الرجاء.

ناعماً بحريّة أَبناء اللّه، لأَنّ المسيح حرّره، وبالتالي خاضعاً لصوت ضميره؛ غير متذرّع بهذه الحرّيّة لإِرضاء رغبات اللحم والدم، لأَنّ أَعمال الجسد تعارض أَعمال الروح.

منفّذاً كلّ ذلك في اتّحاد مع الروح، ومع أَبناء اللّه الآخرين، في جسد وروح واحد، وإِيمان واحد، وعماد واحد، وربّ واحد، مرتدياً الحبّ والسلام، وهما قاعدة كلّ كمال.

في معزل عن هذه السمات التي تدعم مصداقيّة الإِيمان، ليس الإِيمان سوى نظريّة مجرّدة، وصيغة فارغة.

و قد قاد استغراق بولس في تأمّل عمل الخلاص إلى الغوص في **سرّ الثالوث الأَقدس،** وكان أَوّل من عبّر عن تكامله ووحدته. فإن كان الابن، في نظره، هو مركز كلّ شيء، فالابن لا يفعل شيئاً إلاّ تنفيذاً لمشيئة الآب. وإن توجّه بولس بالصلاة والشكر إلى الآب، فإنّما هو يفعل ذلك عبر الابن، على حدّ قوله : " في كلّ وقت، وعلى كلّ حال، اشكروا اللّه الآب، باسم ربّنا يسوع المسيح " (أفسس 5: 20). ويسوع نفسه يرجعنا دائماً إلى الآب، لأَنّه، هو ذاته، تعبير عن حبّ الآب للبشر، ومنفّذ مشروع خلاصه. ويشرك بولس الروح القدس في هذا المشروع بقوله : " بعد إذ سمعتُم كلمة الحقّ، إنجيل خلاصكم، وبعد إذ آمنتم به، ختمتم بروح الموعد القدّوس، الذي هو عربون ميراثنا، لفداء الشعب، الذي اقتناه اللّه، لتسبيح مجده " (أفسس 1 : 13 – 14). إن الذين يتلقّون الكلمة (الابن) يُدمغون بخاتم الروح القدس، ومن يسِرْ في خطى المسيح، يتمثّل به، ويتحوّل إلى صورته، بفعل الروح القدس. وهذا الروح حاضر حضوراً دائماً في التدبير الخلاصيّ : " فلمّا تجلّى لطف اللّه مخلّصنا، ومحبّته للبشر، خلّصنا، لا نظراً لأَعمال برٍّ عملناها، بل بحسب رحمته، بغسل ميلاده الثاني، والتجديد في الروح القدس، الذي أَفاضه علينا بوفرة، بيسوع المسيح مخلّصنا ". إنّ الروح، بصفته مشاركاً في صميم الحياة الإلهيّة، هو الوحيد القادر على جعلنا نشارك فيها: "ليس أَحدٌ يعرف ما في اللّه، إلاّ روح اللّه. ونحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من اللّه، لكي نَعرف ما أَنعم به اللّه علينا من النعم. ونتكلّم عنها لا بأَقوال تعلّمها الحكمة البشريّة، بل بما يعلّمه الروح، معبّرين بالروحيّات عن الروحيّات... "

إنّ الآب هو مصدر الخلاص بواسطة ابنه، وروحه القدّوس هو الذي يغدق نِعَم هذا الخلاص. يسوع هو الذي بذل ذاته حبّاً بالبشر، والآب هو الذي أَقامه من الموت بقدرة روحه القدّوس، ومن ثمّ فإنّ الفداء عملٌ ثالوثيّ. وبذلك باتت قيامة يسوع هي ضمان قيامتنا وخلودنا.

و جدير بالتنويه أَنّ بولس لم يأتِ على ذكر كلمة " الثالوث " بالحرف، غير أَنّ مفهوم الثالوث راسخ في وعيه، رسوخ ركن من أَركان تعليمه. وهو لم يُعنَ بتدرّج الثالوث من الآب إلى الابن فإلى الروح القدس، ولم يجعل من هذا المفهوم صيغة تعليميّة، ولكنّ هذا المفهوم يتدفّق منه، سهلاً، سلساً، عفويّاً؛ وفي نظره، كلّ أَقنوم من الأَقانيم الثلاثة يقوم بكلّ مهام اللّه، بلا تمييز.

سرّ التجسّد

و غوص بولس في تأمّل تدابير الخلاص الإلهيّ حمله على الدهشة حيال **سرّ التجسّد**. ففي سبيل خلاص البشر، أرسل اللّه ابنه " مولوداً من امرأة "، حاملاً كلّ وهن الطبيعة البشريّة، و"مولوداً تحت الشريعة" أي ضمن إطار بشريّ محدّد، كأيّ إنسانٍ عاديّ. وقد جاء ابن اللّه بطبيعةٍ تحاكي طبيعة البشر، معرّضاً للألم، والعنف، والموت، ولكلّ ما يواكب بشريّة موسومة بسمة الخطيئة، مع أنّه، شخصيّاً منزّه عن الخطيئة.

و مع أنّه ابن اللّه، وذو طبيعة إلهيّة، غير أنّه، بطبيعته البشريّة، لم ينعم بأيّ امتياز عن سائر البشر، سوى تحرّره من الخطيئة. وهو لم يعدّ طبيعته الإلهيّة غنيمة يستأثر بها، ولم يستغلّها لكي ينعتق ممّا هو مفروض على كلّ إنسان عاديّ، بل احتمل طوعاً أقسى ما يحتمله أضعف البشر، لم يتبوّأ مركز الآمر الناهي، بل " تواضع وأطاع حتّى الموت، بل حتّى الموت على الصليب "، الموت الذي يُحكم به على المجرمين، والعبيد، والمنبوذين، والذي يعبّر عن أسحق مهانة.

هذه الحياة التي تتدنّى عن حياة أقلّ إنسانٍ عاديّ شأناً، لم يُقسر عليها المسيح قسراً، بل هو ارتضاها سخاءً، وحبّاً بالبشر : " أنتم تعرفون نعمة ربّنا يسوع المسيح : كيف وهو الغنيّ (بطبيعته الإلهيّة) افتقر لأجلكم (فقراً مادّياً، ومهانة، وآلاماً، وموتاً) لكي تغتنوا أنتم بفقره ". لقد أفرغ ذاته من ذاته، ومن جلالته، وهو، بذلك لم يتخلّ عن طبيعته الإلهيّة، لا بل إنّه أبرز وجه اللّه الحقّ : اللّه الذي، بابنه يسوع، انحدر إلى أدنى وضع بشريّ لكي يتّصل بكلّ إنسان، بلا تمييز ولا استثناء، ولم يهب ابنه أيّة ميزة، لأنّه شاء ألاّ يستثني أيّ إنسانٍ من حبّه، ولأنّه يؤثر بحبّه من يعدّهم المجتمع " أقلّ من العدم ".

و قد نهج بولس نهج يسوع، في مسيرته الرسوليّة، عاملاً بيديه لتأمين أوَده اليوميّ، مكتفياً بعيشٍ ممعنٍ في الشظف، زاهداً في كلّ رفاه، لكيلا يقيم أيّ عائق في وجه الإنجيل. ومن جانبٍ آخر، تخلّى عن محتده اليهوديّ الفرّيسيّ الذي كان يعدّه، من قبل، امتيازاً، منضمّاً إلى الوثنيّين، في سعيهم إلى نيل البرّ بالإيمان بيسوع الذي جعل نفسه "لعنة" و"خطيئة"، لكي لا تُحرم أيّة فئة التبرير، وبركة الربّ.

إنّ بولس الذي شاهد، يوماً، وجه الناهض من الموت، لم يعد بوسعه أن ينساه أبداً، فعلى ذاك المحيّا كان يتألّق كلّ سنى الآب. ومذّاك ما عاد بوسع بولس التأمّل في مصير الإنسان، في معزل عن ذلك المحيّا. فبارتدائه وجهاً بشريّاً، وجسداً بشريّاً، أكّد يسوع الاتّصال المباشر باللّه، ولم يكن تجسّده إلاّ دليلاً على مصير الخليقة الإلهيّ. ولم يكن بوسع اللّه أن

يغشى العالم إلاّ بوجه بشريّ، إذ إنّ الإنسان هو المخلوق الوحيد المصاغ على مثاله. يسوع هو صورة اللّه الأمينة الممجّدة، ونحن خلقنا وفقاً لهذه الصورة، وبقدر ما نعكس مجد اللّه، نتوغّل في تشبّهنا الكامل باللّه الذي دعينا إليه : " إنّ اللّه الذي قال : " فليشرق من الظلمة نور، هو الذي تألّق في قلوبنا، كي تتألّق معرفة مجد اللّه الساطعة على وجه المسيح".

صحيح أنّ الإنسان قد شوّه هذه الصورة بالخطيئة، ولذلك تجسّد يسوع، لكي يعيد لتلك الصورة نقاءَها، ويعيد للإنسان حرّيّة أبناء اللّه التي وحدها الخطيئة تستطيع انتزاعها منه.

و بفضل التجسّد يصبح الجسد البشريّ هيكلاً للروح، ومسكناً للربّ، مكاناً لإكمال الإيمان، وأداةً للتقديس؛ ولذلك يربأ بولس بالجسد أن ينقلب أداة خطيئة وموت، بل يعلن، هو نفسه : " إنّني أكمل في جسدي ما نقص من آلام المسيح ".

خليقة جديدة

إنّ يسوع، بتجسّده وصلبه وقيامته استهلّ عهداً جديداً، وهيّأ لولادة **خليقة جديدة**، متوافقة مع مشروع اللّه الخلاصيّ. وما انفكّ بولس، مذ قبض يسوع عليه، واعتمد على يدي حنانيا، ووُلد لحياة جديدة، دائباً على تأمّل العلاقة الحميمة التي تصل المعمَّد بموت المسيح وقيامته، وظلّ هذا التأمّل النابع من تجربته الشخصيّة، يتعمّق ويتجلّى، يوماً إثر يوم.

العماد في المسيح يسوع، في نظر بولس، هو الانتقال إلى ملكيّته، وهو يصوّر هذه الملكيّة باللباس، فيقول " لبستم المسيح "، وبذلك يعني تحوّلاً جوهريّاً، يتخلّى فيه المعمَّد عن ذاته ليعيش حياة جديدة في المسيح. العماد، إذن، ولادة جديدة تجعل المعمَّد شبيهاً بيسوع، مندمجاً فيه، وتتيح له أن يردّد مع بولس : " لست أنا من يحيا، بعدُ، بل هو المسيح، يحيا فيّ ". (غل 2 : 20)

المعموديّة هي اتّحاد سرّيّ بالمسيح، في موته وقيامته، وفي جسده، على نحوٍ غير مرئيّ، ولكنّه واقع روحيّ محقّق.

والمعمّد، بموته عن الخطيئة، وباتّحاده بجسد المسيح الروحيّ الحيّ القائم من الموت، لا يلبس المسيح فوق إنسانه القديم، إذ إنّ هذا الإنسان قد خُلِع ومات، بل يلبسه فوق ذاته، فوق إنسانه الجديد، وحينئذٍ يستطيع المسيح أن يلغي فيه أعمال الجسد والخطيئة، ويهبه جسده السرّيّ الروحيّ الحقيقيّ كي يحيا به.وهذا الثوب الجديد ليس فرديّاً، بل هو جسد إلهيّ يغمر الجميع ويوحّدهم: "لأنّكم، جميعكم، واحد في المسيح ".

بالعماد يصبح المرء خاضعاً لعمل الربّ، مشتركاً في عمله الخلاصيّ، وعضواً كاملاً في الجماعة المسيحيّة بأكملها، ومندمجاً في جسد المسيح. ويتلقّى هبات الروح وكراماته، فيُغسل، ويُقدَّس، ويُبرَّر، ويتعيّن عليه أن يعيش وفقاً لحالة القداسة هذه.

إنّ ارتداء المسيح، بالعماد، هو، إذن، تطابق الكيان كلّه، والوجود كلّه مع المسيح. وبالعماد يصبح المعمّد معاصراً لموت المسيح، وقيامته، وبانغماسه في المسيح، ينغمس، أوّلاً، في موته، وفي فعل طاعته، وحبّه السامي. إنّه يُصلب معه، ويُدفن معه، لكي يقوم، ويعيش معه وفيه، متحرّراً من ربقة الخطيئة. فالمعموديّة تخلق إنساناً جديداً، فمن مات مع المسيح، وقام معه، وتشبّه به، يصبح معه كائناً واحداً، ولا يسعه، بعدُ، أن يعيش كالسابق، بل عليه أن يعيش حياة جديدة، على حدّ ما جاء في رسالة بولس إلى الرومانيّين: "نحن الذين مُتنا للخطيئة، كيف نعيش، بعدُ، فيها ؟ أم تجهلون أنّا، جميع من اعتمدوا للمسيح، قد اعتمدنا لموته ؟ فلقد دفنّا، إذن، معه، بالمعموديّة للموت، حتّى إنّا، كما أُقيم المسيح من بين الأموات بمجد

الآب، كذلك نسلك، نحن أيضاً، في جدّة الحياة. لأنّا إذا كنّا قد صرنا متّحدين معه بشبه موته، نصير، أيضاً، بشبه قيامته، عالمين أنّ إنساننا العتيق قد صُلب معه، لكي يتلاشى جسد الخطيئة، بحيث لا نُستعبد، بعدُ، للخطيئة، لأنّ الذي مات قد تحرّر من الخطيئة. فإن كنّا قد متنا مع المسيح، نؤمن أنّا سنحيا، أيضاً، معه، عالمين أنّ المسيح، بعدما أقيم من بين الأموات، لا يموت أيضاً، فالموت لا يسود عليه من بعد، فإنّه، بموته، قد مات للخطيئة إلى الأبد، وبحياته، يحيا للّه. فكذلك أنتم أيضاً، احسبوا أنفسكم أمواتاً للخطيئة، أحياءً للّه في المسيح يسوع. فلا تملك الخطيئة، إذن، بعدُ، في جسدكم المائت، بحيث تخضعون لشهواته.لا تجعلوا أعضاءكم أسلحة إثم للخطيئة، بل اجعلوا أنفسكم للّه، كأحياءٍ عادوا من الموت، وأعضاءَكم أسلحة برّ للّه. فإنّ الخطيئة لن تسود بعد، لأنّكم لستم بعد تحت الشريعة، بل تحت النعمة "

و ما الخطيئة، في نظر بولس سوى إصرار الإنسان على أن يعيش بنفسه، وفي عالمه الخاصّ، رافضاً الاعتراف بأنّه مخلوق؛ هي إنكاره أنّه خُلِق ليطيع اللّه، ويعيش من كلمته، هي رفضه الشيطانيّ الاستسلام لحبّه، والعيش في هذا الحبّ، والخلاص به.

و بعد أن يتجرّد الإنسان من جسد الخطيئة، ويلبس المسيح الذي قهر الموت وتمجّد، عليه أن يسعى إلى الأسمى. فبما أنّه تحرّر من الموت، فهو يسير نحو تشبّه كامل بالمسيح، ولن تكون حياته الجديدة إلاّ توطئة لبلوغ مجد المسيح.

المعمَّد "خليقة جديدة"، وهو يعيش " في المسيح "، ويستوحي نهج سلوكه الداخليّ والخارجيّ من هذا الخلق الجديد. إنّ المسيحيّة تحوّلٌ كامل، وهي قضاءٌ على كلّ تمييز واستعلاء، ولا تحتفظ من الوصايا إلاّ بوصيّة المحبّة التي تولّد كلّ الفضائل والأخلاق الحميدة، وتقرّ أنّ ملكوت اللّه ليس قضيّة أكلٍ وشربٍ واغتسال، بل عدلٌ وسلام وفرح، في الروح القدس الذي يتّخذ لذاته مسكناً جسد المعمّد، ويدفعه إلى المحبّة. الروح يبطل مقتضيات الشريعة الآتية من الخارج، ولكنّه من الداخل، يدفع إلى التقدّس بممارسة المحبّة الأخويّة.

و بالعماد يتبنّى المسيحيّ رؤية جديدة. وفيما الجسديّون ينشدون حكمةً هي نتاج عقولهم، يستشفّ، هو، الحكمة في "اللامعقول"؛ وفيما هم ينشدون سعادة ملموسة، يؤمن، هو، بسعادة روحيّة؛ وفيما هم يرون، في الموت، نهاية كلّ شيء، يرى، هو، فيه، بداية كلّ شيء، وفيما تعليمهم الفضيلة يداعب الذهن، يقلب تعليم يسوع الكيان كلّه.

العماد، إذن، عمل خلاصيّ ينسج بين المعمّد والمسيح علاقةً وجوديّة. فالمعمّد بالمسيح أصبح إنساناً جديداً، ولكنّ هذه الحياة الجديدة هي صيرورة دائمة. والعماد هو حياة كلّ يوم، وفي كلّ يوم على المسيحيّ أن يتوغّل أكثر في الحياة التي اكتسبها بالعماد. وبما أنّ

العماد قائم على موت يسوع وقيامته، فهو يقوده إِلى واقع التجرّد عن الذات، والانفتاح على الآخرين، وعلى اللّه، هذا الواقع المدّون، تدويناً نهائيّاً، في صليب المسيح.

هذا التحوُّل الذي يحدثه العماد يزيح، أَيضاً، كلّ الحواجز الاجتماعيّة، والجنسيّة، والثقافيّة، ويمسي عامل وحدة المعمّدين. فعندما تحزّب الكورنثيّون فئات، دعاهم بولس إِلى نبذ تلك التحزّبات، متسائلاً : "باسم من اعتمدتم؟ " فهم لم يعتمدوا باسم بولس، أو أبولّس، أو بطرس، أو أَيّ من التلاميذ، بل باسم المسيح فحسب. ومن اعتمد باسم يسوع، أَصبح خاصّته دون سواه.

العماد يكوّن من جميع المعمّدين **جَسد المسيح** المتمثّل في الكنيسة، فلا يكون لأيٍّ منهم هويّة مستقلّة، أو دعوة مستقلّة عن جماعة المسيح هذه التي جعلت منهم إِخوةً، حقّاً، إِذ يدركون جميعهم أَنّهم عمّدوا بروحٍ واحد، ليكونوا جسداً واحداً.

على المسيحيّين أن يقتفوا من العالم العابر موقفاً جديداً، وألاّ يغرب عن بالهم أَنّ موطنهم هو السماء، وأنّ اعتناقهم المسيحيّة هو قطيعة مع عالم الشرّ والرداءة، وانتقال من العالم الخاطئ بتطلّعاته وسلوكه، إِلى عالم يتوخّى القداسة ويمارسها.

و بما أَنّ المعمّدين يعيشون في وسط بشريّ، عليهم أَلاّ يتغرّبوا عنه وأَلاّ يتهرّبوا من الوقائع البشريّة، وأَن يؤدّوا واجباتهم المدنيّة، شهوداً على الاهتمام الذي يكنّه الربّ لحياة العالم، فيفرحوا مع الفرحين، ويبكوا مع الباكين، حريصين على العمل الصالح، وعلى مقاومة الشرّ بالخير، طاهرين، ابناءً للّه بلا عيب، متألّقين كأبناء النور، في أجواء الشرّ المحيقة، شهوداً على حبّ اللّه للبشر، منفتحين بعضهم على بعض، وعلى الآخرين، سالكين، في محيطهم، سلوكاً لا لوم فيه، عاملين لصالح الجميع، في سلام مع الجميع، وممثّلين قدوة للجميع، بحيث تصبح جماعاتهم موئل تبادل، وتفكير، وتداول في السلوك المسيحيّ، حيال كلّ القضايا المطروحة، ملتمسين، في كلّ شيء، مشيئة اللّه. لكلّ منهم حقّ إِبداء الرأي، بلا قيد سوى الحرص على البناء، وتجنّب ما يشكّك الضعفاء.

طابع جماعات المعمّدين المميّز هو الإِخاء : " حبّ واحد، نفس واحدة، وشعور واحد"، وتخطّي كلّ الفوارق الاجتماعيّة، وتضامن يوميّ يتجلّى من خلال ترحيب بعضهم ببعض، وحمل بعضهم أَثقال بعض، وتشجيع بعضهم بعضاً، وبناء بعضهم بعضاً، وخدمة بعضهم بعضاً ببذل متبادل، وصفحٍ متبادل. وهذا يقتضي مساندة أَكثر الأَعضاء ضعفاً، وإِعادة الضالّين إِلى سراط الصواب، بصبر وأَناة.

هذه الوحدة تقتضي المشاركة والتعاون في الشؤون المادّيّة، بين مختلف الجماعات، مهما نأت بينها المسافات؛ وأَيضاً المشاركة في الأَلم والعزاء، تأكيداً للشراكة في ما تعيشه الجماعات وتتلقّاه، عندما تشترك في تناول جسد المسيح ودمه، تناولاً يمثّل أَساس الجماعة، وعامل وحدتها : " فبما أَنّ الخبز واحد، فنحن الكثيرين جسد واحد، لأَنّنا جميعاً، نشترك في الخبز الواحد ".

و على الجماعات المسيحيّة أَن تكون رسوليّة، منفتحة على حبّ اللّه لخليقته كلّها، فتشهد بسلوكها، على حبّ اللّه الجمّ، وعلى صفحه الذي يجمع البشر الأَشدّ تبايناً. عليها أَن

تتجاوز السمات الفرديّة، وتلتمس الإِخاء والتضامن الكفيلين ببناء مجتمع بشريٍّ حقّاً، مؤكّدة على ثوابت إِيمانها في كرامة كلّ إِنسان كرامة لا تنازل عنها، وإِيثار الفقراء، والصغار، وحبّ الأَعداء، وأولويّة الحبّ الذي يفضي إِلى الصفح.

الكنيسة

على **الكنيسة** أن تتخطّى، كلّ يوم، وهنها وتمزّقها، لكي تبرز هذا الوجه المسيحيّ المشرق.

مرادف الكنيسة، في اليونانيّة، يعني " مجلس الشعب " المدعوّ للنقاش في الساحة العامّة. وقد استخدمها المسيحيّون الأَوائل لكي يعنوا بها "جماعة الإِخوة الذين دعاهم يسوع القيامة، والتأموا معاً ". تلك الكنيسة نشأت من انبعاث القائم من الموت. ومن ثمّ هي ليست مؤسّسة، بل هبة من اللّه، وتجربة روحيّة، يتبيّن بها رجالٌ ونساءٌ يحدوهم الروح أَنّ المسيح حيٌّ فيما بينهم.

ليست الكنيسة، إِذن، في نظر بولس، معنىً مجرّداً، بل هي، قبل كلّ شيء، رجال ونساءٌ واقعيّون، ووجوه، وجماعات محلّيّة. وهو، عندما يذكر، في رسائله، "كنيسة المسيح" أو "كنيسة اللّه"، فهو يعني مجموع المسيحيّين، وتجمّع تلاميذ المسيح الشامل، العالميّ، كما يعني كلّ جماعة محلّيّة، فهي "كنيسة خاصّة للمسيح"، وشاهد على الكنيسة الجامعة. والمشاركة بين مختلف الكنائس كفيلة بإِثرائها، واستنهاض تيّار فيما بينها، لأَجل الخير، لا يتّسم بالمنافسة. " رأس " هذه الكنيسة هو يسوع، وهو ضامن وحدتها، وجميع المسيحيّين "جسدها"، حيث الجميع متضامنون، ينعمون بشراكة الروح فيما بينهم.

يسوع هو الرأس الذي تنبع منه كلّ الثروات والبركات الإِلهيّة على الكنيسة، وهو الذي يملأ كلّ شيء، فهو ملء الكنيسة. وروح يسوع الناهض من الموت يقوّي، ويروي، ويحيي الكنيسة كلّها، وكلّ فرد فيها.

يسوع هو عامل وحدة المسيحيّين، فهو الذي يجمع، في وحدته، جميع أَعضاء جسده. ثمّة رمزان لاتّحادهم: اعتمادهم بروح واحد، وارتداؤهم، بالعماد، المسيح الواحد الذي صُلب وقام من أَجلهم، وجلوسهم على مائدة الإفخارستيّا الواحدة، التي تكرّس تجسّد يسوع وحبّه اللامتناهي.

في الجماعات التي أَسّسها بولس، كان يلتقي، في مكان واحد، ويشترك في طقوس واحدة، أقوام من شتّى الطبقات الإِجتماعيّة، والمنابت العرقيّة : فقراء وأَثرياء، عبيد وأَحرار، رجال ونساء، يونانيّيون وشرقيّون، وأَصحاب مهن مختلفة. الجميع، بلا تمييز، ينالون عماداً واحداً، ويشتركون، بلا تفريق، في المائدة الإفخارستيّة الواحدة، والمسيحيّة تصهرهم جميعاً في بوتقتها الواحدة.

و كان هاجس بولس المقيم هو الحفاظ على هذه الوحدة، ومناهضة كلّ تحزّب، وكل ما يفسد اندماج أفراد الجماعة. فأولى السلام الداخليّ شاناً خطيراً، والاتّفاق على الإيمان الواحد جلّ اهتمامه. فعلى كلّ عضوٍ في الجماعة إدراك أنّ وحدتها هي من مسؤوليّته، وأنّ عليه الارتضاء ببعض التنازلات في هذا السبيل، مع الحفاظ على الحرّيّة. وملاط هذه الوحدة هو المحبّة الأخويّة، المحبّة قبل الحقّ الفرديّ، وقبل المصلحة الشخصيّة، بحيث يمسي شعار كلّ فرد : إن كان فعلٌ ما يجوز لي، ولكنّه يهزّ إيمان أخي، فلأتحاشَ عنه، ولأتنازل عن حقّي فيه لكيلا أؤذي أخي.

كلّ فردٍ في الجماعة يوهب الروح شخصيّاً، غير أنّهم يشتركون جميعاً في الروح. وفي مجال الإيمان لا يحلّ أحد محلّ آخر، غير أنّهم يشتركون جميعهم في الإيمان. يسوع يعيش في جميع المؤمنين، وكلّ مسيحيّ يعيش، مع جميع المسيحيّين، في يسوع.

كذلك، كلّ جماعة هي كنيسة كاملة، وهي، في آنٍ واحد، " في المسيح "، على شراكة مع كلّ الجماعات الأُخرى، وجميعها تؤلّف، أيضاً، كنيسة كاملة، لا بل تؤلّف جسد المسيح الواحد.

و الكنيسة تكبر بالحبّ الفاعل في كلّ مسيحيّ يستطيع المساهمة في رسالته، بل في هوى حبّه للجميع. هذا ما عبّر عنه بولس في رسالته إلى الأفسسيّين (4 : 15 - 16) : "نعتصم بالحقّ في المحبّة، فننمو من كلّ وجه، مرتقين نحو من هو الرأس، أي المسيح، الذي منه ينال الجسد كلّه التنسيق والوحدة، وبتعاون جميع المفاصل، على حسب العمل المناسب لكلّ عضو، ينشئ لنفسه نموّاً، ويُبنى في المحبّة "

هذا الجسد ليس مادّيّاً، بل هو روحيّ، صوفيّ، وكلّ مسيحيّ مطعّم فيه، مندمج فيه، ويتغذّى فيه بالإفخارستيّا.

و الكنيسة الأرضيّة، مع صراعاتها ومِحَنها، تسمو بالمسيح رأسها ورجائها، في مجد اللّه. إنّها واقع إنسانيّ وروحيّ، أرضيّ وسماويّ، تاريخيّ وأُخرويّ؛ وهي تتكوّن بنموٍّ داخليّ وخارجيّ، إنطلاقاً من "الرأس". وبُغية استقامة عملها، يتولّى كلٌّ من أعضائها مهمّة خاصّة، وفقاً لمواهبه. ولذلك كان بولس، كلّما أسّس كنيسة، أقام على إدراتها شيوخاً، وهيّأ لها حدّاً أدنى من التنظيم، يضمن استمرار زخمها، مع الزمن.

لقد ساعد بولس المسيحيّين على إدراك سرّهم الخاصّ، وعلى وعي أنّهم أكثر من مجرّد شعب، فهم أبناء اللّه وإخوةٌ فيما بينهم. وهم، أيضاً، جسد روحيّ حيّ. إنّهم جسد واحد غير متجمّد ولا متحجّر، بل يحييه الروح القدس الذي يوحّد أعضاء هذا الجسد الروحيّ الحيّ، على تنوّعهم وتبايناتهم.

ويذكر بولس ثلاثة مظاهر للروح القدس هي : المواهب الخارقة، والخدمة، والأَعمال، ولهذه جميعها هدف واحد هو انتصار الحياة والحبّ.وما تنوّعها إلاّ دعم لوحدتها، ولا تفوّق لإِحداها على الأُخرى. فواحد هو منشئها، وواحدة غايتها، والمحبّة هي ملاط وحدتها، ممّا أوحى لبولس نشيد المحبّة الرائع.

إِنّ العماد يطعّمنا في جسد المسيح الروحيّ المقدّس، حيث يسري النسغ عينه، وحياة الروح عينها اللّذان يرويان كلّ عضو. وإِن كانت الوحدة حيويّة لكلّ عضو، فالتنوّع حيويّ للجسد؛ والأَولويّة ليست للجماعة، بل للمسيح مؤسّسها.

جميع الأَعضاء متكاملة، ويحتاج كلٌّ منها إِلى جميع الأَعضاء الأُخرى، والجسد كلّه يُشوَّه عندما يُشلّ أَحد الأَعضاء، أو يفرط في عمله. كذلك عمل الكنيسة يفقد اتّزانه كلّما لم تُحتَرم التعدّديّة الروحيّة، أو كلّما حاول أَحد نائلي المواهب وضع ذاته فوق الآخرين، أو تنصيب ذاته مطلقاً.

و أَسمى المواهب هي التي يكون إِسهامها في البناء هو الأَكبر.

و في هذا السياق يقول الأَب متّى المسكين :

" الكنيسة هي جسد المسيح الذي يحيا المؤمنون كأعضاء فيه. فالصلة التي تربط المؤمنين بالمسيح هي صلةٌ عضويّة حيّة، قابلة للنموّ والإِثمار، وغير قابلة للموت أو الانحلال، " وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ".

"بولس هو أَوّل من ربط الكنيسة بالروح القدس، وجعله عمودها الفقريّ، هيكل تكوينها، الذي نبت عليه لحمها وعظمها من لحم المسيح وعظمه؛ وتصوَّرها وقد عمّدها المسيح وغسلها بيده، وطهّرها بدمه وبالكلمة، لكي يحضّرها لنفسه عروساً بلا دنس ولا عيب، مجيدة، كشريكة في مجده. أَمّا المؤمنون، كأفراد، فقد جعلهم المسيح، في جسده، واحداً، كنيسة واحدةً أَحبّها، وبعد أَن وحّدهم بدمه وجسده، وحّدهم بحبّه.

"و خير تصوير لواقع الكنيسة قول يسوع : " أَنا الكرمة وأَنتم الأَغصان ". فالفرع يتغذّى من الكرمة المتّحد بها، والتي تحمله، وبها يثمر لحساب الكرّام : الآب السماوي.

" لقد مرّ المسيح على الوجود المنظور والمحسوس، سواء في ميلاده، أو تعليمه، أو آلامه وموته، ثمّ قيامته. هذه كلّها أَعمال المسيح المنظور. ولكن بعد صعوده، بدأ يسوع وجوده وحضوره، وعمله غير المنظور، وإِنّما بصورة قويّة، شاملة، مالئة للوجود الكلّيّ، سماء وأَرضاً : " لقد دُفع إِليّ كلّ سلطان، في السماء وعلى الأَرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلّموهم أَن يحفظوا كلّ ما أوصيتكم به، وها أَنذا معكم، كلّ الأَيّام، وإِلى انقضاء الدهر ". المسيح المنظور أكمل لنا الفداء المنظور

على الصليب، بالدم المسفوك؛ والمسيح غير المنظور يعمّدنا، ويطعمنا جسده ودمه، ويقدّسنا في سرّ الكنيسة.

"المسيح المنظور مات على الصليب الموت المنظور المشاهد لأَجلنا. والمسيح غير المنظور يحيا الآن فينا بالإِيمان، ونحيا نحن فيه.

"المسيح المنظور صعد إِلى الآب، ودمه عليه، فصنع لنا صلحاً مع الآب بعد قطيعة، والمسيح غير المنظور يوحّدنا بنفسه وبالآب، ويقدّمنا إِلى اللّه كقدّيسين بلا لوم في المحبّة.

"المسيح المنظور كان بالنسبة لبناء الكنيسة حجر الزاوية، والمسيح غير المنظور هو رأسها، وهي جسده " (الأب متّى المسكين – القدّيس بولس الرسول – صفحة 470)

الروح القدس

إنّ أوّل ما يتلقّاه المعمّد هو الروح القدس الذي يجعل منه ابناً للّه، وعضواً في جسد المسيح. الروح القدس هو **مؤسّس الكنيسة**، وعامل وحدتها في تعدّدها، وصانع جسدها الواحد. والمعيار الأوّل لعمل الروح هو الاعتراف بيسوع ابناً للّه، واستهداف خير جميع البشر، وفوق كلّ ذلك موهبة المحبّة التي حلّق بولس عالياً في نشيده لها. ويتجلّى عمل الروح القدس في المسيحيّ، من خلال اهتمامه بأن يكون مفهوماً من الآخرين، والتزامه بالنظام الجماعيّ، وموهبة التمييز والتبصّر، كلّ ذلك بهدفٍ رسوليّ. فمن خلال الأفراد والجماعات، الكنيسة مدعوّة إلى التحوّل المستمرّ إلى حياة الإنجيل الذي يتعيّن عليها تبشير العالم به.والكنيسة، بصفتها خادمة المسيح، وممتلئة بروحه، تعلم أنّ خدمته والشهادة له ينبغي أن يخضعا لنفحة الروح التي تدفعها دائماً إلى أبعد فأبعد، باتّجاه البشر الذين بذل المسيح حياته من أجلهم. وقد كان بولس، بأقواله، وحياته، خير نموذج للرسول.

و الروح القدس هو **مؤسّس الحياة المسيحيّة ومحرّكها** :

فهو يقود إلى يسوع، وبنعمته ينال المعمّد ملء الحرّيّة التي حقّقها موت المسيح وقيامته : " فالربّ هو الروح، وحيث يكون روح الربّ، فهناك الحرّيّة ". والروح الذي أنهض يسوع من الموت هو ضمان قيامتنا. وبالروح يتحوّل المعمّد تدريجيّاً، وكلّيّة، إلى صورة المسيح الممجّد.

و الروح هو أساس الأخلاق المسيحيّة : " فإن كنّا نحيا بالروح، فلنسلكنّ أيضاً، بحسب الروح ". وعلى السلوك المسيحيّ أن يقاوم نزعات الغرائز، والأهواء البشريّة، ويسير بوحي المحبّة التي تختزل شريعة المسيح. فالمحبّة هي أولى ثمار الروح: " لأنّ المحبّة أُفيضت في قلوبنا، بالروح القدس الذي مُنحناه ".

و الروح يقود المعمّدين إلى الآب، فهو الحبّ المتبادل بين الآب والابن، وهو الذي يُدخِل المعمّد في هذه الحركة الثالوثيّة. وبالروح يكتشف المعمّد حنان الآب، ورغبته في ولادتنا على الحرّيّة، وإشراكنا في حقوق " ابن اللّه "

و بحملنا على هتاف " أبّا، أيّها الآب "، يفجّر فينا الروحُ الصلاة، بل يساعدنا عليها، ويعلّمنا إيّاها : " الروح يعضد ضعفنا، لأنّنا لا نعرف كيف نصلّي كما ينبغي؛ لكنّ الروح نفسه يشفع فينا بأنّات تفوق الوصف". إنّه يشفع فينا، ولكنّه لا يسلبنا حرّيّتنا، بل إنّه يقيم فينا، ليوسّع رقعة حرّيّتنا، ويمنحنا ديناميكيّة، وطاقة على العمل، مضاعفَتيْن. وهو، بإقامته فينا، يوحي لنا بما نصلّي، ويقودنا، شيئاً فشيئاً، إلى فهم أنّ الصلاة، في شتّى صيَغها، ليست سوى

استخدام أَساليب متنوّعة لدعاء " أَبانا "، ومسيرة مطّردة نحو القبول برؤية اللّه، عوضاً عن دعوته إِلى الاستجابة لرغباتنا. ولا يكتمل معنى هتاف "أَبانا" إِلاّ عندما نسبغ، حقّاً، على البشر، اسم إِخوة.

الروح القدس هو الذي مهّد درب الإِنجيل بقدرته، وهو الذي يسكب الفرح في قلوب المؤمنين، ويمكّنهم من الثبات في المحن.الروح هو هبة الربّ للمؤمنين كي يعيشوا في القداسة. ولذلك يحرّض بولس المؤمنين على ألاّ يطفئوا الروح، وألاّ يزدروا تجلّياته.

و الروح القدس هو عامل أَساسيّ في التبرير : " لأَنّ ملكوت اللّه ليس أَكلاً وشرباً، بل هو برّ وسلام وفرح في الروح القدس " (روما 14 : 17).

و الروح يُشرعنا على المشاركة والتواصل الحميم مع الآخرين، ويكرّس وحدتنا في جسد المسيح : " إِنّا، جميعاً، قد اعتمدنا بروح واحد، لجسد واحد ". وهذه المشاركة قائمة على الاختلاف، وعلى تميّز كلّ فرد بموهبة ومهمّة، وعلى صيانة حرّيّته، فالربّ "يوزّع كيف يشاء، وعلى كلّ واحدٍ خصوصاً". ومن ثمار الروح، القدرة على تمييز حضور الروح وعمله لدى الآخرين، والابتهاج بها.

و الروح يعتق حرّيّتنا، وعلاقتنا بالعالم، الذي لا يعود حاجزاً بين المعمّد واللّه، بل يضحي الحقل الموكل إِلى جميع المعمّدين لكي تتجلّى الحرّيّة التي نعيشها، بالروح القدس وبيسوع. فالروح يجعلنا ننظر إِلى العالم بعيني القائم من الموت، وإِلى العمل على ولادته ثانية.

فحياة المسيحيّ تقف على مسافة واحدة بين الاستعباد للعالم، والنأي عنه، إِذ إِنّ الإِيمان يحرّره من الخضوع للعالم، وفي الآن عينه يحمله على إِثبات إِيمانه بعمله في صميم العالم. ولطالما أَسهب بولس في وصف هذه العلاقة المزدوجة، مؤكّداً أَنّ المؤمنين ما عادوا يخصّون هذا العالم، وسلطاته، ومسلتزماته، بل يخصّون الربّ المصلوب الناهض من الموت. فبصليب يسوع، صُلِب العالم لبولس، وصلب بولس للعالم، فما عاد يساوره أَيّ قلق بشأن مقتضيات العالم المادّيّة.

الروح هبة من اللّه يتلقّاها كلّ إِنسان في الإِيمان. فمسيرة يسوع الفصحيّة، التي تجتذب، في إِثرها، البشريّة جمعاء، نابعة من صُلب حبّ اللّه الذي لا يني بولس يغوص في تأمّله واستجلاء أَسراره. إِنّ يسوع هذا، الناهض من الموت، وبكر الخليقة المتجدّدة، قد أَضحى " الروح المحيي " لكلّ مؤمن ينفتح، بالإِيمان، على مواهبه. وكلّ مسيحيّ مدعوّ، باتّباعه المسيح، إِلى العبور من وضعه " الجسديّ " إِلى وضع " روحيّ ". وهذا هو، جوهريّاً، عمل الروح القدس. وبفضل موهبة الروح، في يسوع، اضمحلّت الفوارق العنصريّة

والاجتماعيّة، والدينيّة، بما أَنّ جميع البشر باتوا مؤهّلين لتقبّل وعيش الروح الذي يجعل من جميعهم شركاء في وراثة المسيح. وقد دأب بولس على الدفاع عن مجّانيّة موهبة الروح القدس، مؤكّداً أَنّ لا أَحد يحتكر الروح القدس، وأَنّ الروح ليس ثمرة الجهد البشريّ، وكذلك نعمة الخلاص، بل هو عطيّة من اللّه مجّانيّة، على أَن يتقبّل الإِنسان هذه الهبة المجّانيّة بفعل إِيمان. فإِن كان كلّ شيءٍ يأتي من اللّه، غير أَنّ اللّه لا يستطيع فعل أَيّ شيءٍ للإِنسان إلاّ بموافقته الحرَّة.

و الروح هو منبع " الفهم الروحيّ " ومصدر الإِحاطة بالإِنسان الروحيّ. وهو يكشف القناع عن أَنّ الإِنسان، بمجرّد طاقات عقله، لا قِبَل له على بلوغ المعرفة. الروح هو الذي يحفر ويوسّع فهم المؤمن الداخليّ. هذه " المعرفة " لسرّ الإِيمان ليست معرفة غريبة موقوفة على بعض المتنوّرين، بل هي مشرعة على كلّ إِنسان منفتح على هذا "الوحي" أو "حكمة اللّه" التي جاء بها المسيح. ولذلك يطلب بولس لإِخوته هبة الروح هذه عساها تنير عيونهم وقلوبهم، وتجعلهم يكتشفون كنوز دعوتهم المسيحيّة، وثرواتها. وهذا "الفهم الروحيّ" لسرّ الخلاص هو أَحد علامات نضج الإِيمان. وهذه المعرفة الداخليّة المضيئة تنير ليس فقط العقل، بل، أَيضاً، السلوك اليوميّ، وتمكّن من تمييز ما هو باطل، ونافل، ومحطّ، ويفسد الإِنسان، ويدمّره، وبالمقابل، ما يبنيه ويكمله ويقوده إِلى سعادة دائمة، وإِلى العبور من الإِنسان القديم المعرَّض للموت، إِلى الإِنسان الجديد الذي لا يموت. هذا العبور من العبوديّة إِلى الحرّيّة، هو فصح الإِنسان والبشريّة.

و الروح هو منبع الصلاة المسيحيّة، لذلك الحوار الحقّ بين اللّه والبشر.إِنّ أَساس المسيحيّة الأَوّل هو شهادة الروح في قلب الإِنسان. وقناعة المسيحيّ لا تقوم على اقتناع فكريّ وعقليّ، بل تترسّخ في الروح الذي هو ثقتها الداخليّة. ومن قلب المؤمن يفجّر الروح صلاة "ابن اللّه": أَبّا، أَبانا.

و الروح هو أَساس الحياة الجماعيّة : وقد شهد بولس عمل الروح الجوهريّ في الجماعات المسيحيّة التي أَسّسها، وفي مواجهته لخصومه المتهوّدين الذين كانوا يأخذون عليه تراخيه حيال الشريعة، لا بل نأيه عنها، فأكّد أَنّ الروح الحيّ بات يحفر شريعة جديدة لا على أَلواحٍ حجريّة، بل في قلوب المؤمنين المشرعة على عمله. وقد تجلّى عمل الروح من خلال خصب هذه الجماعات، وصدق مواهب أَفرادها الروحيّة؛ ولذلك دعا بولس إِلى الحفاظ، بحرص، على هذه المواهب، وأَطلق صيحته المدوّية : " لا تطفئوا الروح ".

و الروح مؤيّد كلّ دعوة رسوليّة : وبولس لا يتردّد في وصف رسالته بأَنّها "خدمة الروح"، فالروح هو الذي أَهّله ليكون رسولاً.

و الروح هو منبع الكمال في الحبّ ونموّه : "هل مشيئة اللّه إلاّ أن تكونوا قدّيسين ؟"

و ما القداسة إلاّ الكمال في الحبّ، الحبّ دائماً، والحبّ على نحوٍ أفضل. وهذا من فعل الروح الذي سيطهّر ويؤهّل وجود الإنسان كلّه، محوّلاً كلّ نمط سلوكه، وطابعاً إيّاه بطابعه، واقياً إيّاه من الفجور والظلم، ودافعاً إيّاه في دروب المحبّة الأخويّة. ومن ثمّ، هو يحذّر المسيحيّين من العودة إلى الاعتقاد بأنّ التقيّد بحرفيّة الشريعة كفيل بنيل الخلاص، ويذكّرهم بموهبة الروح التي نالوها عندما آمنوا، والتي أهّلتهم ليكونوا أبناء اللّه، على حدّ قوله للغلاطيّين (4:6-7) : "الدليل على أنّكم أبناءٌ، كون اللّه أرسل إلى قلوبنا روح ابنه ليصرخ فيها : أبّا، أيّها الآب. فأنت، إذن، لستَ بعد عبداً، بل أنت ابن، وإذا كنت ابناً، فأنت، أيضاً، وارث بنعمة اللّه".

والروح هو روح الإيمان، وروح الرجاء، وروح المحبّة. هذه الفضائل الثلاث هي التعبير عن حياة من هو، حقّاً، "مصلوب مع المسيح"، من لبس المسيح رداءً، وأَصبح له الإيمان والمحبّة والرجاء مثل جسدٍ ثانٍ لجسده، وليس هو من يحيا، بعدُ، بل المسيح هو الذي يحيا فيه.

الإيمان هو الإدراك الفائق الطبيعة الذي يهبناه الربّ لذاته وسرّ عمله الفدائيّ. وهذا الفهم، بواسطة الروح القدس، لا يتمّ إلاّ بتلاقي النعمة الإلهيّة وإرادتنا. وبالتالي، فالإيمان هو دليل إرادتنا العميقة، وهو يعني أنّنا ارتضينا صداقة اللّه الفائقة، وآثرنا حقيقة اللّه على الكذب والعدم.

الإيمان علاقة جوهريّة كيانيّة بيسوع، تعتق الإنسان من سلطان الخطيئة، وتضعه في قلب اللّه، وتؤهّله للتحلّي بمناقب تتوافق والخليقة الجديدة، المولودة في المسيح

إنّه السلاح الذي يمكّن المؤمن من مواجهة مصاعب الحياة اليوميّة وإغراءاتها، ويقيه من غدر العدوّ الغاشم.

و إيمان بولس المسيحيّ مبنيّ على قيامة المسيح، فلولا القيامة لكان إيماننا وهماً. ومن ثمّ، فهذا الإيمان لا يخلو من مفارقة : إنّه حكمة اللّه، وحماقة في نظر البشر، لأنّه لا يعتمد على تحليلٍ منطقيّ.والتبشير بإلهٍ مات مصلوباً ثمّ قام لا يبدو مقنعاً للعقل. غير أنّ هذا الإيمان هو معين حياة جديدة للمؤمن، فبه يؤلّف الربّ بين الإنسان، ومصير الحبّ الذي أَوجده من أَجله، ويحرّره من عبوديّة الخطيئة، بتقبّله ابن الله، يسوع المسيح، فالإيمان هو وسيلة خلاص كلّ من يتقبّله : "فأنتم، إذن، بالنعمة مخلّصون، بواسطة الإيمان " (أف 2: 8) وهو مصدر حياته : " البارّ بالإيمان يحيا ". وتتجلّى قيمة الإيمان من خلال ما يسكبه في أَعماق الإنسان من فرح، وسلام، ورجاء، وتناغم داخليّ. إنجيل يسوع يتوجّه إلى كلّ فرد، والإيمان هو جواب كلّ فرد عليه.

و ليس الإيمان وضوحاً يرغم الإرادة، ولا هو طريق نور، بل هو، أَحياناً، نجمة مفرطة في الصغَر، تقودنا، في كثافة الليل، نحو نور المسيح. ليس طاعةً عمياء، طاعة عبد لمعلّمه، بل هو إنصات قلب، وتقبّل المسيح بحرّيّة. وما فعل الإيمان المطلوب من الإنسان سوى "نعَم داخليّ " يعترف عبره بوضوح وتواضع، بعجزه عن تحقيق ذاته بمفرده، فيعزف عن كلّ كبرياء وادّعاء، ويتقبّل كلّ امتلاءٍ آتٍ من اللّه.

الإيمان يثبت ولو تضاءلت أَسباب الرجاء، ولو بدت الوقائع الماديّة دحضاً له؛ لا يرتاب بوعد الربّ ولو صوّره العقل كذباً أو مُحالاً، ويضرب بولسُ من إِبراهيمَ مثالاً على هذا الإِيمان. وهكذا يصبح الإِيمان، بقوّته وثباته، تمجيداً للربّ.

و الإِيمان هو هبة الروح، والروح هو مصدر كلّ إِيمان : "لا يقدر أَحد أَن يقول إِنّ يسوع ربّ، إِلاّ بإِلهام من الروح القدس". "بنعمة اللّه نلتم الخلاص، بالإِيمان، فما هذا منكم، بل هو هبة اللّه". والبشرى بمتناول كلّ إِنسانٍ، شرط أَن يكون منفتحاً على أَنوار الروح. فالروح القدس هو الفاعل بالتبشير، والإِيمان هو ثمرة قدرة الكلمة، ثمرة الروح.

و لذلك لم يبنِ بولس تبشيره على الحكمة البشريّة، بل على قدرة اللّه.وبما أَنّ الإِيمان نعمة من اللّه، فعلى المؤمن أَلاّ يفتخر بنفسه، بل أَن يلتزم التواضع، وأَن يستخدم المواهب التي جاءه بها الإِيمان لخدمة الآخرين. فمن يتقبّل رسالة الإِنجيل يدخل في الإِيمان، ويؤلّف مع إِخوته المؤمنين جماعة واحدة، وجسداً واحداً. وينمو الإِيمان في تربةٍ جماعيّة حيث يتمّ تبادلٌ مغنٍ، فإِيمان كلّ فردٍ يقوّي إِيمان الجماعة، والإِيمان الجماعيّ يدعّم إِيمان كلّ فرد. وإِيمان الإِخوة والأَخوات الحيّ هو دليل على حضور الروح القدس الفاعل في الجماعة، مدعّماً إِيمان كلٍّ من أَعضائها.

الإِيمان كنز، ولكن لا يسوغ للمؤمن أَن يحتفظ به احتفاظاً أَنانيّاً. فمن اكتشف نبعاً كفيلاً بإِرواء عطش البشر، تعيّن عليه أَن يهدي إِليه الظمآنين إِلى النور والحقيقة. إِنّ الإِيمان، بطبيعته، رسوليّ، وبولس يبتهج دائماً، ويفيض شكراً للربّ، عندما يعلم أَنّ إِيمان الجماعات الناشئة مشعّ.

و ثمار الإِيمان وفيرة وثمينة، ومنها " المحبّة، والفرح، والسلام، والصبر، والطيبة، والرقّة، والوداعة، والسيطرة على الذات... فإِن كنّا نحيا بالروح، فلنسلكنّ، أَيضاً، بحسب الروح " (غل 5 : 22– 25)

ليس الإِيمان مجرّد تصديق التبشير، بل هو التزام كيان الإِنسان بأَكمله بعمل اللّه، وبوعوده في المسيح. **الإِيمان ولادة جديدة**، به يتحوّل الخطأة إِلى قدّيسين، والأَشرار إِلى بررة؛ به يتحوّل السكّير إِلى زاهد أو معتدل، والنيام إِلى متيقّظين، وناشدو المتع الجسديّة يلتمسون الروحانيّات؛ به الضالّون يعودون إِلى السراط القويم، والدنسون يطهرون، والقابعون في الظلمة يشرق عليهم نور. اليائسون يتذوّقون الفرح، والفاسدون ينقلبون أَبناءً للّه بلا عيب. به يصبح العبيد أَحراراً، والذين كانوا في خدمة الموت يصبحون خدّاماً للروح.

الإِيمان فعل باتجاه المسيح يحدو كيان المؤمن بأكمله لكي يخصّه، ويعتمد عليه، عوضاً من الاعتماد على ذاته، وبذلك يصبح الإِيمان وسيلةً للتبرير، وقوام الحياة المسيحيّة. به

يكتسب المؤمن محبّة يسوع، ورجاءه، ووداعته، ورقّة أَحشائه، وصبره، وطاعته، وتواضعه، وبه يتجدّد، ويشارك المسيح في آلامه، وشدائده، ويظفر بقوّته، وغناه، وبركاته، وامتلائه.

و الإِيمان حياة، فينبغي أن يُدارى، ويتعمّق لكي يضيء، ويوجّه جميع أَبعاد حياة المؤمنين ويتغلغل في ثناياها. وخير وسيلة لتغذية الإِيمان هي جعله فاعلاً، بحيث يتجلّى من خلال أَفعال دافعها الحبّ. ومن ثمّ يقرن بولس الإِيمان بالمحبّة، فهما وحدة لا تنفصل؛ وإِنّما التزاماتنا، ونوعيّة علاقاتنا المتطابقة مع خطط اللّه، هي التي تثبت صدق إِيماننا وحيويّته : "لو كان لي الإِيمان كلّه حتّى لأَنقل الجبال، ولم تكن فيّ المحبّة، فلست بشيء ".

و الإِيمان نبع تحوّل جذريّ، بحيث لا يعيش المرء منكفئاً على ذاته، بل يسكنه الربّ يسوع، بعد أَن يكون قد صلب إِنسانه القديم، لكي يعيش للّه، وللآخرين.

و الإِيمان نبتة صغيرة يتعيّن العناية بها، وتغذيتها ومساندتها، ومن ثمّ يحرّض بولس المؤمنين على تدعيم إِيمانهم.فهو سلاح المسيحيّ الأَوّل في مواجهة الشرّ والظلمات؛ ويدعوهم إِلى السهر على إِيمان إِخوتهم الذي ما زال هشّاً أو مترجرجاً. ويدرك بولس أَنّ أَخطر ما يهدّد الجماعات الفتيّة هو الزمن الذي قد ينجب الملل، والوهن. فعلى المؤمن أن يكون ساهراً، متيقّظاً لنفحات الروح، ولنداء الربّ، وأَلاّ يغفل : " تيقّظوا، أثبتوا في الإِيمان، جاهدوا جهاد الرجال؛ كونوا أَقوياء، إِعملوا كلّ شيء بمحبّة".

و أَخيراً الإِيمان حركة مزدوجة : حركة اللّه نحو الإِنسان، عبر المسيح، وحركة الإِنسان نحو اللّه، في المسيح. المسيح هو أَبهى تجلٍّ للمعاهدة المجّانيّة، ولنعمة اللّه. وفخرنا الأَكبر هو إِيماننا بالمسيح. ولا بدْعَ إِن عدّ بولس أَنّ كلّ ما كان يظنّه كسباً قبل معرفته يسوع، بات يعدّه خسارة ونفاية.

و هذا يقود بولس إلى إعلان أنّ **البرّ** يُنال بالإيمان بيسوع، لا بتطبيق بنود الشريعة بحذافيرها. هذا الإعلان أكّده بولس في الكثير من رسائله، وأمسى ركناً أساسيّاً من تعليمه، وقد دافع عنه بلا هوادة ولا وَجَل، ولو جلب على ذاته مقت اليهوديّة المميت، واستنكار الكثيرين من مسيحيّي زمانه، حتّى غدا شبه وحيد بين بني قومه. غير أنّه بفضل هذا التعليم أَصبح رسول الأُمم، وحطّم القيود التي كانت تكبّل المسيحيّة باليهوديّة، وأرسى أسس اللاهوت المسيحيّ.

للبرّ، في العهد القديم معنى ميتافيزيقيّ، وهو تحوّل الإنسان الكلّيّ، بحيث يتمثّل بالربّ، ويصبح جديراً بالمشاركة في حياة اللّه، وهو ما ندعوه، اليوم، القداسة، أي تطابقاً مع إرادة اللّه وكيانه. ليس، هو، إذن، عملاً خارجيّاً، بل إنّه يقتضي تجدّداً كاملاً، بمساعدة الروح ونعمة اللّه، " فمن اللّه تأتي كلّ نعمة". لا يُنال البرّ بممارسة طقوس فحسب، فهو حياة، واللّه وحده قادر على منح هذه الحياة الفائقة الطبيعة المتمثّلة في القداسة.

الشريعة نفسها لم تكن تقتصر، أَصلاً، على أَعمال خارجيّة، بل كانت تتطلّب، أَيضاً، موقفاً داخليّاً روحيّاً، وتحوّل القلب، ومحبّة اللّه والقريب. على أَلاّ يكون القريب هو اليهوديّ فحسب، كما فهم اليهود، بل كلّ إِنسان.ولكنّ هذا التحولّ الروحيّ، كانت الشريعة، بمفردها، عاجزة عن تحقيقه. بل وحده اللّه الذي يسبر الكلى والقلوب يستطيع فعله على حدّ قول النبيّ حزقيال: "سأضع في داخلكم قلباً جديداً ".

ويصف بولس الشريعة بالمؤدِّب، أي بالعبد المكلّف بتعليم الأَطفال النظام، وباصطحابهم إلى المدرسة. أمّا وقد بلغت الإنسانيّة سنّ الرشد، فهي ما عادت في حاجة إِلى مؤدّب، بل إِلى الإِيمان فحسب. كان للشريعة إِذن ضرورة مرحليّة، ولم تكن كافية، وكان لا بدّ من إِتمام العهد القديم بعهدٍ جديد، وهذا ما حقّقه يسوع، وما أَظهره بولس، وعلّمه.

وقد آلم بولس رفض اليهود، بعناد، إزاحة الحجاب المسدل على أَبصارهم لئلاّ يروا الحقيقية، ويسيروا بهديها، بقوله: "كان موسى يجعل برقعاً على وجهه لكيلا يُبصر بنو إِسرائيل غاية ما هو زائل. لكنّ بصائرهم قد عميت، إِذ إِنّ ذلك البرقع عينه، باقٍ إِلى هذا اليوم، عند قراءة العهد العتيق، فلا ينكشف لهم أَنّ هذا العهد قد أَبطله المسيح. أَجل، حتّى هذا اليوم، إِذ قُرئ موسى، يكون البرقع على قلوبهم، ولا يُرفع البرقع إِلاّ متى رجعوا إِلى الربّ" (2 كور 3 : 13 – 16)

إعلان بولس كان واضحاً، مع أنّه كان أكثر تصريحاته إثارة لتأويلات متعارضة ولخصومات، إذ قال : " إنّنا نعتقد أنّ الإنسان يبرّر بالإيمان، في معزلٍ عن الشريعة".

قبل اهتدائه، كان بولس يظنّ أنّ طريق بلوغ البرّ هو الالتزام بوصايا الشريعة بأدقّ تفاصليها. ولكنّه، على طريق دمشق، اكتشف بطلان هذا الظنّ، فلا أحد بمفرده يستطيع بلوغ البرّ والقداسة، إذ لا بدّ من أن تشوب أعماله وممارساته أخطاء. ولا أحد يستطيع أن يحكم على ذاته أنّه بارّ، بل اللّه وحد يقدر.ومذّاك غدت رغبته أن يربح المسيح، ويجد نفسه فيه، " لا على برّي الذي في الشريعة، بل على البرّ الذي بالإيمان بيسوع " (فيلبي 3 :9)

في مركز مشروع الخلاص ينهض الصليب مبدأً أوحد للتبرير، لا الشريعة، وهذا ما يأباه اليهود، ويستنكره المتهوّدون، الذين قد يرون في المسيح عوناً على عيش البرّ الذي تقتضيه الشريعة، فحسب. فيسوع الذي أطاع حتّى الصلب، وقام من الموت، استهلّ عالماً جديداً، وأصبح قادراً على إحياء البشريّة بحياته النبويّة، في الروح القدس.فلا مبرّر، بعدُ، للبحث، من خلال الشريعة، وأعمال الشريعة، عن نهج حياة يتوافق والمشروع الخلاصيّ الإلهيّ. فأُسُس البرّ قد تبدّلت، بعد أن أعطانا اللّه ابنه ليعيش فينا؛ وهذا يتباين – بما لا يقاس – مع البرّ الذي توفّره الشريعة، فضلاً عن أنّ الشريعة عاجزة، في ذاتها، عن منح القوّة المؤهّلة للبرّ والخلاص.

لقد اتّضح لبولس **أنّ الحقيقة المسيحيّة، والتحرّر من الشريعة متلازمان،** وأنّ الإنجيل والروح القدس هما اللّذان يحدّدان ماهيّة المسيحيّة، وطريقة عيشها. فتخلّى عن الطقوس الخارجيّة، كالختان، التي كانت علامة تميّز الشعب اليهوديّ عن سائر الأُمم، لأنّ المسيحيّة توخّت القضاء على هذا التميّز، وهدم الحدود والحواجز، وشمول جميع أبناء اللّه. لم تعد الشريعة هي المؤهّلة لحكم السلوك الإنسانيّ، بل الروح الذي يدعو إلى القداسة، ويرشد إلى مشيئة اللّه، ويمكّن من تحقيقها، والإيمان الفاعل بالمحبّة. وباتت المحبّة هي معيار السلوك السويّ.

ذلك الفرّيسيّ القديم لم يخشَ مخالفة الشريعة، والدعوة إلى مناقبيّة الإنجيل، وإلى احترام كلّ ما هو حقّ وشريف وعادل، وإلى تمييز مشيئة اللّه بالضمير، في حين كان اليهود يسجنون مشيئة اللّه في إطار مقتضيات الشريعة.

الشريعة تهب الإنسان معرفة الخطيئة، ولكن المؤمن بيسوع يموت عن الشريعة وعن الخطيئة، ويستبدل " الجسديّ " " بالروحيّ ". وإن كانت الخطيئة تقود إلى العداوة مع اللّه، وإلى الموت، فالإيمان بيسوع يقود إلى الحياة والسلام.

عند مشارف دمشق، اقتنع ذلك الفرّيسيّ الغيور على الشريعة الموسويّة، إثر لقائه يسوع الناهض من الموت أنّ الإنسان لا يستطيع التحرّر، بمجرّد تطبيق الشريعة تطبيقاً دقيقاً، فهذا لا يهبه القدرة على التحرّر من الخطيئة والشرّ، وتأكّد أن تطهير الذات في الأعماق لا يحقّقه سوى المسيح، وأنّ، وحده الإيمان بيسوع يمنح حرّيّة داخليّة حقّة، وهو، وحده، قادر على تبريرنا، وتنقيتنا، وتحويل قلوبنا، ومصالحتنا مع اللّه.

إنّ بولس يعلن مفارقة بإعلانه أنّ يسوع يسبغ على الشريعة الموسويّة قيمتها الحقّة والنهائيّة، إذ إنّه، هو، نهاية المعاهدة بين اللّه والبشر، وتصديق لوعود اللّه. ويضرب بولس من إبراهيم مثلاً، فهو قد بُرّر وخلص، لا بأعماله، بل بإيمانه بكلمة اللّه، وبترحيبه بمبادرة اللّه المجّانيّة. لقد آمن رغم كلّ أسباب الريبة والشكّ، وبذلك كان مثالاً لجميع المؤمنين.

و إن كان هناك من لا يزال يؤكّد أنّ على المؤمن الالتزام بالشريعة لينال الخلاص، فهو يعني أنّ صلب المسيح وقيامته كانا باطلين.

إنّ موت ابن اللّه وقيامته قد برّرا البشريّة، وحرّراها من الخطيئة التي كانت تسكنها، ومن سيطرتها التي كانت تحول دون وفائها لدعوة الربّ إلى أن يكون الإنسان ابناً للّه. هذا التبرير كان عملاً مجّانيّاً من النعمة، ولا يُطلب من الإنسان سوى الإيمان بيسوع، وتقبّل عمله الخلاصيّ، وموهبة روحه، بالابتعاد عن الخطيئة، والاندفاع نحو يسوع بكلّ الكيان، من أجل الانتماء إليه، والاعتماد عليه، عوضاً من محاولة الاعتماد على الذات.

فالتبرير، إذن، ليس إيماناً عقليّاً ساكناً، بل هو تطلّع نحو حياة جديدة في الروح، وديناميكيّة تحوّل، وعلى الإيمان أن يكون فاعلاً في المحبّة، وأن يزدهر في القداسة.

فالمسيحيّ الذي وُهِب خلاصاً مجّانيّاً، لم يعدْ بوسعه العيش على هواه. وبولس لا يني يؤكّد أنّ على من تعمّد أن يولد من جديد إلى حياةٍ قشيبة تليق بيسوع. فالعماد هو موتٌ عن الحياة القديمة، ومشاركة المسيح في موته وقيامته. بالعماد نجتاز باباً واطئاً وضيّقاً كباب القبر، ونعترف بأنّنا لا نستحقّ النعمة التي أوتيناها، فالعماد هو دفن " الإنسان القديم " المغترّ بنفسه، والذي يأبى التخلّي عن هويّته المغلقة.

إنّ التبرير بالإيمان دعوة إلى حياة جديدة، حياة مكرّسة لخدمة المحبّة، والانفتاح على الغير. فاعتراف اللّه بنا، وحبّه لنا في معزل عن استحقاقنا، يعفياننا من إنفاق حياتنا على إثبات أنّنا جديرون بالاعتراف والمحبّة. ومن ثمّ يسعنا الانصراف عن الانشغال القلق بأنفسنا، من أجل الاهتمام بالغير، والكفّ عن استخدام الآخرين في سبيل نجاحنا الشخصيّ، والتحوّل إلى خدمتهم. وهذا الانفتاح على الغير، وحبّهم، عملٌ طويلٌ، دائب، مستمرّ. إنّه انسلاخ عن حياة الانكفاء على الذات، والسعي إلى إبرازها في عيون الآخرين؛ وهو انعتاق ممّا يسمّيه

بولس " أعمال الجسد : الدعارة، والزنى، والفجور، والعداوات، والخصام، والحسد، والسخط، والمنازعات، والشقاق، والتشيّع، والسكر، والقصوف، وما أَشبه... إنّ الذين يعملون مثل هذه الأَعمال لا يرثون ملكوت اللّه... "

في المقابل، يدعو الرسول إِلى الانفتاح على الغير.فبعد أَن اطمأنّ المعمّد إِلى حبّ اللّه له، وانتفت حاجته إِلى إِثبات ذاته، بات بوسعه الانفتاح على الغير، والسلوك وفقاً لتوجيه الروح، " وثمر الروح هو المحبّة، والفرح، والسلام، والصبر، واللطف، وكرم الأَخلاق، والإِيمان، والوداعة، والعفاف..."

أَعمال الجسد تنتج الموت، والسلوك وفقاً لإِلهام الروح يفضي إِلى مواقف تولّد الحياة. وحياتنا نسيج من هذين الضدّيْن : فإِن نحن غلّبنا نزعات الجسد، نأينا عن النعمة المبرّرة. أَمّا إِذا استسلمنا لحبّ اللّه، فهو كفيل بإِشراع حياتنا على عمل الروح الذي يشيع في نفوسنا الطمأنينة، ويُقصي عنّا القلق، ويوقظنا على الاهتمام بالغير، ولا يعود الخوف هو الذي يمسك بدفّة مركب حياتنا. هذا ما يوجزه بولس بقوله: " إِنّكم، أَيّها الإِخوة، قد دعيتم إِلى الحرّيّة بشرط واحد، وهو أَن لا تجعلوا هذه الحرّيّة فرصة للجسد؛ بل بفضل المحبّة، اخدموا بعضكم بعضاً، لأَنّ تمام الشريعة كلّها في هذه الكلمة الواحدة: " أَحبب قريبك حبّك لنفسك ". وهكذا بعد أَن رفض بولس الشريعة الحرفيّة، يلتقيها من جديد، مجمّعة في الحرّيّة، التي هي دعوة إِلى محبّة القريب.

لم يدعُ بولس إِلى تغييرات جوهريّة وثوريّة في بُنى المجتمع، لأَنّ المسيحيّين، في عهده، كانوا ما زالوا أَقلّيَّة ضئيلة في محيط الأَمبراطوريّة الرومانيّة، وما كان بوسعهم الطموح إِلى تغيير بنى تلك الإِمبراطوريّة المنيعة، المترامية الأَطراف. ولذلك حرص، أوّلاً، على ترسيخ الروح المسيحيّ، تاركاً للكنيسة، من بعده، عندما يشتدّ عودها وتستقرّ في الزمن، السعي إِلى تعديل البنى الجائرة، وفقاً للروح الذي أَرسى أُسسه.

الرجاء

إنّ نفحة من الرجاء الوطيد، غير المتزعزع، تسري في تضاعيف جميع رسائل بولس.ورجاء بولس ليس حلماً متوهّجاً في غدٍ أفضل، بل هو متجذّر في تجربته الحاسمة مع الناهض من الموت، وقائمٌ على أساس منيع : قيامة يسوع التي باتت عربوناً لقيامتنا، ومجده الذي يرمز إلى ما سنعرف من مجدٍ عندما سننضمّ إليه انضماماً أبديّاً. إنّ صليب يسوع، الذي كان أداة خلاصنا هو ضمان مستقبلنا الأبديّ، هذا ما طالما أكّده بولس في معظم رسائله، حيث نقرأ :

" إنّ الذي أقام الربّ يسوع، سيقيمنا نحن، أيضاً، مع يسوع، ويظهرنا معكم، أمامه. " (2 كور 4 : 14)

" لا جرمَ أنّه صلب عن ضعف، بيد أنّه يحيا بقدرة اللّه؛ ونحن ضعفاء فيه، غير أنّا سنحيا معه بقدرة اللّه " (2 كور 13 : 4)

" نحمل، في الجسد، كلّ حين، موت يسوع، لتظهر حياة يسوع، أيضاً، في جسدنا" (2 كور 4 : 10)

"منيتي، إذن، أن أعرفه هو، وأعرف قدرة قيامته، والشركة في آلامه، فأصير على صورته في الموت، على أمل البلوغ إلى القيامة من بين الأموات " (فل 3 : 10 – 11)

"فإذا اتّحدنا به، فصرنا على مثاله في الموت، فسنكون على مثاله في القيامة أيضاً (روما : 6 : 5)

"الروح عينه يشهد مع روحنا بأنّا أولاد اللّه، فإذن ورثة أيضاً، ورثة اللّه، ووارثون مع المسيح، إن كنّا نتألّم معه، لكي نتمجّد، أيضاً، معه " (روم 8 : 16 – 17)

لا يكفّ بولس يؤكّد أنّ يسوع اشترى فداءنا بدمه الثمين لكي نتّصل به اتّصالاً أبديّاً لا فكاك عنه، في سمائه. وهو موقنٌ، أيضاً، بأنّنا قد أصبحنا، منذ وجودنا على هذه البسيطة، مسكناً للروح. وعلى هاتين القناعتين يبني رجاءه.

و هو موقنٌ، أيضاً، أنّ هذا الرجاء سيتحوّل إلى رؤية مباشرة، وإلى إقامة ثابتة أبديّة في الربّ؛ وهو، بدافع هذا الرجاء، يحتمل، بثباتٍ وجرأة، كلّ ما يعترضه من شدائد، لأنّه متيقّن بأنّ " آلام الزمن الحاضر لا يمكن أن تقارن بالمجد المزمع أن يتجلّى لنا".

هذا الرجاء من المنعة بقدر ما هو الحبّ الأمين الذي جعل ابن اللّه يتجسّد، والذي يسع الإنسان لمسه سحابة حياته. الرجاء المسيحيّ، إذن، هو ازدهار واقع ماثل : الاتّحاد الحميم بالربّ، وترسيخ الصداقة معه؛ الثقة بكلام اللّه هي التي تغذّي الرجاء، فتمكّنه من تخطّي

العقبات الظاهرة، وجميع الطاقات البشريّة، واقتحام المجهول بثقة. وبما أَنّ ما نرجوه ونؤمن به لا نراه، ولن يتجلّى لأَبصارنا إِلاّ في اليوم الأَخير، فعلى الصبر أَن يدعّم الرجاء، ويتدرّع بالجَلَد والثبات والمثابرة، وهذه تستمدّ زخماً من الدأب على التأمّل في كلام اللّه، وعلى الصلاة، وعلى استجلاب نعمة الصمود، عندما يبدو الرجاء، في غمرة بعض المِحَن، متعذّراً.

و هكذا يغدو الرجاء منبع ثقةٍ وفرح، حتّى في مصطرع أَعتى الشدائد الجسديّة والنفسيّة، وهذا ما أوحى لبولس قوله إِلى الرومانيّين (12 : 12): "كونوا فرحين في الرجاء، صابرين في الضيق، مواظبين على الصلاة ".

الرجاء هو الثقة باللّه وبالإِخوة، ومن ثمّ، هو سلاح كلّ من يعمل في حقل الربّ، ومنه يستمدّ الجرأة والصمود، لأَنّ " الرجاء لا يُخزى "

الرجاء هو يقين بالخلاص الذي استحقّه لنا يسوع بفدائه : " لأَنّنا بالرجاء خلصنا " (روما 8 : 24)

و لئن كان إِيمان المسيحيّ هو مصدر رجائه وقاعدته، فهذا الإِيمان لا يصبح فاعلاً إِلاّ بالمحبّة.

المحبّة

إن كان الإيمان هو الذي يُشرع آفاق الرجاء، فهو يعبّر عن ذاته بالمحبّة. وفي معزلٍ عن المحبّة والرجاء، لا إيمان. إنّ الروح القدس هو الذي يقود المؤمن والجماعة على دروب الإيمان، ويدفع سلوكهم نحو ما يرضي الربّ، ويحوّلهم من الداخل بتعليمهم المحبّة. فالمحبّة هي التي تؤكّد الإيمان، وتشيع الرجاء.

لقد جعل يسوع من المحبّة أساساً لكلّ الفضائل، وبها اختزل كلّ الشرائع؛ إنّها تحتلّ المقام الأوّل، وتحكم جميع أنماط السلوك، وفي معزلٍ عنها لا قيمة لشيءٍ على الأرض. وقد استوعب بولس عمق هذه الحقيقة السامية، واستفاض في إعلانها والإشادة بها، ولطالما ردّد أنّ المحبّة المعاشة، فعليّاً، توجز جميع وصايا الحياة المسيحيّة الأُخرى، على حدّ قوله، في رسالته إلى الرومانيّين : " لا يكن لأحد عليكم حقّ ما خلا المحبّة المتبادلة؛ لأنّ من أحبّ القريب قد أتمّ الناموس " (روما 13 : 8 – 10)، "كونوا، بالمحبّة، خدّاماً بعضكم لبعض، لأنّ الناموس كلّه يُتمّم في هذه الوصيّة الواحدة: "أحبب قريبك كنفسك" (غل 5 : 13 –14)

المحبّة هي الشريعة الجديدة المدوّنة لا على ألواحٍ ولا في قلوب متحجّرة، بل في قلوبٍ من لحم ودمٍ وعطفٍ.

ففي نظر بولس المحبّة هي حبّ الإنسان للّه، بالروح القدس، وفي المسيح يسوع، وحبّ الإنسان للإنسان، في الكنيسة التي هي جسد المسيح. وهي الرباط الذي يضمن وحدة هذا الجسد وحياته، ويؤلّف، من جميع المؤمنين، جسد المسيح السرّيّ، الذي تحييه محبّة المسيح، مشاركة في حياة الثالوث الذي تحدّد المحبّة، جوهريّاً، حميميّته؛ فحياة الثالوث نفسها هي محبّة.

إنّها، في جوهرها، روحيّة وفائقة الطبيعة، لأنّها تنبع من الروح القدس،

إنّها مشاركة في حياة اللّه، بواسطة إقامة اللّه فينا، وحضور المسيح في جسده الكنسيّ.

إنّها وسيلة معرفة اللّه، فكلّ علاقة معرفة بين اللّه والإنسان، لا يمكن أن تكون إلاّ علاقة محبّة.

إنّها، مع الإيمان، وسيلة تبرير. فالإيمان الفاعل بالمحبّة، هو، مع الرجاء، جوهر القداسة.

و هي السبيل الأسمى – بلا قياس – والأمثل، الذي يتخطّى جميع المواهب التي كانت تعتبر أكثر الكرامات سموّا في الكنيسة الأولى. وبولس، إذ يتوجّه إلى مؤمنين ينزعون إلى

إيلاء أَهمّيّة كبرى للمواهب الخارقة، يذكّرهم بأَنّ الهبة الكبرى التي يتعيّن التماسها من الربّ والحرص عليها، هي المحبّة. فالكمال المسيحيّ، والقداسة، لا يستندان على المعرفة، بل على المحبّة المعاشة يوميّاً. فلا التكلّم بلغات، ولا التنبّؤ، ولا إِجراء المعجزات، ولا التضحية بكلّ الممتلكات، ولا مواجهة الاستشهاد بجرأة، تتّسم بأَيّة قيمة، إِن هي خلت من المحبّة.

إِنّ معيار حياتنا الروحيّة هو نوعيّة علاقاتنا الأَخويّة، فنحن، هنا، لسنا، بعدُ، في مضمار الحساسيّة، والتوادّ التلقائيّ الطبيعيّ، بل في مضمار الإِرادة التي يسكنها ويحييها الروح الذي يبتغي خير البشر أَجمعين. والمحبّة، في نظر بولس، قدرةٌ إِلهيّة، وعملها يتناقص تماماً مع ما يميل إِليه الإنسان تلقائيّاً.

و قد فصّل بولس، أَبلغ تفصيل، رؤيته هذه، من خلال نشيد المحبّة، الذي أوردنا نصّه في إِطار تحليلنا للرسالة الأولى إِلى الكورنثيّين الذي تضمّن هذا النشيد؛ وقد مهّد له بالقول : " إرغبوا في المواهب الحسنى، وأَنا ادلّكم عل أَفضل الطرق"، إِنّه المحبّة.

لقد حرص بولس على التأكيد بأنّ المرء قد يفعل الكثير، ويكون لا شيء؛ وقد يبلغ قمم البطولة الدينيّة، ولكنّه يظلّ فارغاً أَجوف. فالمحبّة ليست فضيلة إِضافيّة، اختياريّة، إِلى جانب الإِيمان، بل هي شرط الإِيمان ونتيجته. ومن خلال نشيد المحبّة أَظهر إِلى أَيّ مدى يستطيع روح يسوع أَن يقودنا، عندما نرتضي أَن نشرع له نفوسنا، فيتيح لنا تبيّن قيمة الغير اللامحدودة.

و قد عدّد بولس صفات المحبّة السامية، التي لا يسع الإِنسان تحقيقها إِلاّ بمساعدة النعمة الإِلهيّة، والمثالب التي تتجنّبها وتقاومها.

فالمحبّة صبر : والصبر من صفات اللّه، وما رحمته إِلاّ مظهر من مظاهر صبره.

و المحبّة خدمة : فمن أَحبّ إِنساناً وضع ذاته في خدمته، ولم يكتفِ بخدمات عابرة.

المحبّة صفح وتغاضٍ عن السيئات : فهي مع تبيّنها عيوب الآخرين، ومواطن ضعفهم، لا تسجنهم، للأبد، في سلبيّاتهم، مؤمنة أَنّ كلّ إِنسان يستطيع أَن يتخطّى عيوبه ومثالبه. والمحبّة تتحاشى عن إِدانة النوايا التي لا يعلمها سوى اللّه.

" المحبّة تصدّق كلّ شيء " : فعلينا الاعتصام بالثقة، ونبذ الشكّ، لا بدافع تفاؤل ساذج، بل بدافع الإِيمان الفصحيّ، الذي يقيم على الرجاء، رغم انعدام كلّ أَسباب الرجاء. إِنّ محبّة المؤمن المشتركة في محبّة اللّه، خلاّقة للمستقبل، فهي لا تقطع، أَبداً، الرجاء في أَيّ إِنسان.

" المحبّة ترجو كلّ شيء : " فلا يُسقَط في يدها حيال أَعراض الشرّ. وبولس يؤمن أَنّ قلّة من البشر سيّـــئون، بحيث لا يُرجى منهم خير؛ غير أَنّ هناك كثيرين من البؤساء،

المجروحين، الذين لا يحتاجون إِلاّ إِلى الحبّ، لكي يعودوا فيؤمنوا بذواتهم، ولكي يكبروا، ويبرزوا قدرات كامنة فيهم.

" المحبّة تحتمل كلّ شيء "، ولا تسمح لقوى الشرّ أن تتغلّب عليها، بل تعمل على انتصار الخير، بمقابلتها الشرّ بالخير.

و ثمّة ما على المحبّة أن تنأى عنه :

" فالمحبّة لا تحسد " : والقدّيس فرنسيس الأَسيزي قال أَنّ المحبّة هي الابتهاج بسعادة الآخرين، كما لو كانت سعادتنا الذاتيّة. و" المحبّة لا تتباهى ولا تنتفخ " كبرياءً : فالكبرياء هي ادّعاء امتلاك المواهب والقدرات التي وهَبَناها الربّ لخدمة الآخرين. المحبّة إِذن متواضعة، وليس تواضعها خجلاً مرَضيّاً، ولا بخساً لقيمة الذات، بل هو تمثّل بالمسيح الذي شاء أَن يكون خادماً لإِخوته، " ووضع نفسه، وصار طائعاً حتّى الموت، بل الموت على الصليب".

المحبّة إِذن، لا تكتمل إِلاّ بالتواضع الذي يمنع المرء من عدّ نفسه متفوّقاً على الآخرين، وهذا التواضع نابع من كونه عضواً في جسد المسيح الواحد.

" المحبّة لا تأتي قباحة " : فهي تقابل الشرّ بالخير، والمسيحيّ المحبّ يُطعم عدوّهُ، ويروي عطشه، ويبارك لاعنه، ويعزّي من يتناوله بالنميمة، ويصفح عن المسيئين إليه.

"المحبّة لا تلتمس مصلحتها الخاصّة "، ولا تناضل في سبيل حقوقها الذاتيّة: فالمسيح، بتجسّده، تنازل عن حقوقه الإِلهيّة، في سبيل البشر، وحبّ اللّه مجّانيّ، والمجّانيّة تكمن في صميم البشرى، التي تعلن أَنّ كلّ شيءٍ في المسيحيّة هبة من اللّه، ونعمة من لدنه. وفي سبيل المحبّة يتغاضى المسيحيّ عن حقوقه عندما يتبيّن أَنّ المحبّة أَهمّ منها. وبولس يحظر على المسيحيّين التقاضي أَمام المحاكم، وإِذا ما حدَث ذلك، فهو الدليل على أَنّ المُثُل المسيحيّة ما زالت بعيدة المنال.

"المحبّة لا تحتدّ ولا تغضب " : بل هي تلجم انفعالات السخط، ولا تسلك بدافع تأثيرها، بل تتدرّع بالرقّة، فتحجم عن كلّ كلام جارح، وكلّ سلوك مؤذٍ.

" المحبّة لا تظنّ سوءاً " : لأَنّها نابعة من طويّة صافية، ولأَنّها، وإِن لم تعمَ عن معايب الآخرين، تتخطّاها، متحرّية الجوانب المشرقة لديهم. والمحبّة لا تحقد، بل تسارع إِلى مسح جراح الذاكرة. أَلم يقل بولس نفسه : " لا تغربنّ الشمس على غضبكم " ؟

" المحبّة لا تفرح بالظلم، بل تفرح بالحقّ " : فهي، قبل كلّ شيء، استقامة وعطف، تتوجّع لكلّ أَذىً يلحق بالآخرين، وتبتهج لكلّ ما هو عادل وشريف. والمسيحيّ يلتزم الحقّ، حتّى حقّ الأَعداء؛ وبالمحبّة يصبح عامل بناء، ويقاوم تدمير الأَقوياء للضعفاء.

لكلّ هذه الأَسباب، فحتّى لو بطلت النبوءات، وزالت الأَلسنة، واضمحلّ العلم، إِلاّ أَنّ " المحبّة لا تسقط أبداً "

و في معزل عن المحبّة، كلّ المواهب، مثل الصلاة والتضحية، لا قيمة لها، ولا تولي صاحبها أيّ شأن. لا بل حتّى الصلاة بأَلسنة الملائكة تصبح ضجيجاً أَجوف.

المحبّة معيار جميع المواهب، وتسمو على جميعها. وهي أَساسيّة للحياة المسيحيّة. تستمدّ مبرّرها ومنبعها من اللّه. تأتي منه ويسكبها الروح القدس في قلوبنا.

إِنّها نهر يتدفّق من قلب اللّه، ويغمر البشريّة، جاعلاً منها شريكة له، مستفيدة منه، تنبع منه وتوحّدنا به، تملؤنا وتمكّننا من الحبّ، على غراره، محبّة متجرّدة مجّانيّة.

و هذه المحبّة المجرّدة ليست انتقائيّة، بل هي شاملة لا تستثني أَحداً، وإِن حقّ للمسيحيّ أَن يعقد صداقةً خاصّة مع هذا أو ذاك، إِلاّ أَنّ عليه ألاّ يغفل المنبوذين، غير المحبوبين، الوضيعين، والذين لا يتوقّع منهم جزاءً أو عوضاً.

المحبّة تندرج في مجال الكمال واللانهائيّ، ولن يكون لها انتهاء؛ وهي أَساسيّة للحياة المسيحيّة.

و يتّخذ بولس من يسوع النموذج الأَسمى والأَكمل للمحبّة، فيسوع قد أَعلن : " كما أَحببتكم، أَحبّوا بعضكم بعضاً ". وفي رسالته إِلى الأَفسسيّين يهيب بولس بهم : " لا تُحزنوا روح اللّه القدّوس، الذي خُتمتم به لأَجل يوم الفداء، كي يُستأصل منكم كلّ مرارة وسُخط، وغضب، وصَخَب، وسبابٍ مع كلّ شرّ. كونوا، بالحريّ، ذوي رفقٍ بعضكم ببعض، شفقاء، متسامحين كما سامحكم اللّه في المسيح ".

فعلى جميع العلاقات بين البشر، الأَفراد، والأزواج والجماعات، أن تستنير بمشاعر المسيح وتهتدي بأَفعاله وأَقواله. لأَنّ تعليمه جدير بأَن يكون شريعة الحياة المسيحيّة، ومنهجاً إِلى الكمال.أوَ لم يقل يسوع : "كونوا كاملين كما أَنّ أباكم السماويّ هو كامل" ؟ أَوَ لم يجعل يسوع من نفسه خادماً لإِخوته، أَوَ لم يغسل أَرجل تلاميذه، لكي ينهض شاهداً على أَنّ الحبّ هو صانع عظمة الإِنسان ونبله؟

غير أَنّ التمثّل بيسوع لا يتحقّق إِلاّ بالاستسلام لعمل الروح، الذي يجعل الإِنسان، داخليّاً، شبيهاً بالمسيح.

و هذا التداخل الحميم بين المسيحيّ ويسوع يتيح له الاتّصال باللّه، فيُخاطبه مثلما يخاطبه يسوع : " أَبّا، أَبتاه ". بالروح يحبّنا الآب مثلما يحبّ ابنه، وبالروح يحبّنا يسوع مثلما يحبّ أَباه. وبهذا الحبّ، بالروح، نحبّ جميع البشر إِخوتنا مثلما يحبّهم اللّه، حبّاً يدمّر جميع الفوارق والحواجز الاجتماعيّة، والبيولوجيّة، والعرقيّة.

و هكذا تغدو المحبّة خير عبادة للّه. فكلّ ما نفعله لخير البشر، ولمساعدتهم على تحقيق مصيرهم كأبناء اللّه، هو تسبيح للّه.

وفي السماء عندما يتحوّل الإيمان إلى رؤية، ولا يخيب الرجاء، تبقى المحبّة وحدها رابطة وحدة بين اللّه وجماعة المؤمنين، في المسيح يسوع. ومن ثمّ تبقى المحبّة أكبر الوقائع التي تحكم حاضر الشعوب ومصيرهم.

ولئن كان ثالوث الإيمان والرجاء والمحبّة هو زبدة "الحياة في المسيح" فالمحبّة هي أعظمهنّ، كما يؤكّد بولس.

و على حدّ قول الأب متّى المسكين : "الإيمان تتوقّف مسيرته بعد إكمال السعي، والرجاء لا موضع له في السماء حيث نرى ما كنّا نرجو رؤيته، وننال ما كنّا نأمل نواله؛ أمّا المحبّة فالسماء موطنها الذي انحدرت منه، وبعد أن تكون قد أيّدتنا في الغربة تأخذنا إلى موطنها ".

يسوع هو موضوع الإيمان، وحياته وصلبه هما مقياس المحبّة، والرجاء هو إقامة المؤمن ثابتاً فيه.

و في يسوع يتحقّق لقاء اللّه بالإنسان، لقاءً حيّاً، شخصيّاً، كاملاً، مجّانيّاً مجّانيّة كاملة، يتّخذ الربّ مبادرته. ففي يسوع يهب اللّه ذاته كي نتّصل به، ونعرفه، ونأكله، ونبني الجسد الواحد الإنساني الإلهيّ. إنّ واقع يسوع الإله الإنسان، يقتضي الانطلاق مجدّداً من الصفر. وكلّ خاطرة، وكلّ حياة دينيّة، تحمل في ذاتها بذور بطلانها، إن هي لم تقم على الواقع الذي أعاد ولادة تاريخ الإنسان الإلهيّ، التاريخ الأَصيل الوحيد.

واقعٌ هو حجر عثرة لليهوديّ، الرافض لتجلّي الربّ عبر تجسّد إله، وآلامه وصلبه وقيامته؛ وهو حماقة في نظر اليونانيّ الوثنيّ لأنّه ينافي العقل ويحطّم النظام المعقول. وبولس لا يني يردّد، بثقة وبلا هوادة، على مسامع اليونانيّ المثقّف واليهوديّ التقيّ: " مات المسيح من أَجل خطايانا، وقام من أَجل تبريرنا "

لا يدعو بولس إلى فهم اللّه، بل إلى معرفته والتوغّل في رحابه.

و السرّ الذي يتكلّم عنه ليس تعليماً غريباً محصوراً في فئةٍ من المحظيّين أو المؤهّلين، ولا هو طقوس تعطي انطباعاً بالاتّصال بأَرواح فائقة الطبيعة، بل هو يسوع، هو كائن، إلهٌ إنسان، اللّه في صميم البشريّة، والبشريّة متّحدة باللّه في المسيح يسوع.

إنّ مركز التدبير الخلاصيّ الجديد الذي بدأ بالتجسّد والعنصرة، ليس، فقط، المسيح التاريخيّ، " حسب الجسد " بل " المسيح فينا "، الذي يمتلئ بنا بعد أَن بتنا أعضاء له تكمل جسداً هو رأسه. المسيح، في أَثناء حياته البشريّة كان قد اختبر حدودنا وقيودنا الأَرضيّة، ولكنّه، بقيامته، قد تجاوزها جميعها، وما عاد يعيقه لا كرّ الأَيّام، ولا ضيق الأُفق اليهوديّ الجغرافيّ، والاجتماعيّ، والثقافيّ، بل إنّ عقل الإنسان القائم من الموت وقلبه، فيه، قد باتا يسيطران على كلّ ما لم نزل خاضعين له من حدود.غدا قادراً على استيعاب كلّ شيء، وعلى تقبّل كلّ ملابسات مأساتنا البشريّة. " إنّه الكلّ في كلّ شيء "، وهو، الناهض من الموت، ينزع إلى الانسكاب – بقدر إيماننا – في كلّ حبكة مأساتنا، كي يكمل في الزمن، ما لم تتّسع له سنواته الثلاث والثلاثون، من محَن.

إنّه لا ينتمي إلى أَيّة جنسيّة أو جنسٍ أو عصر، بل ينتظر المؤمنين أَجمعين، ويقدّم لهم أَن يعيش فيهم ما نقص من خبرته الأَرضيّة، بحيث يستطيع كلّ مؤمن أَن يقول : " إنّني أَتمّم في ذاتي ما نقص من هواه لجسده الأَكبر ".

و مذ التقى بولس المصلوب الحيّ الذي دعاه باسمه، وقبض عليه، غدت حياته مسيرةً نحو من فتنه؛ وهذه المسيرة تعني، أَوّلاً، التوغّل في معرفة المسيح، أَي في التواصل معه في سرّه الفصحيّ، والعيش فيه، وهو المغنم الأَكبر، الذي لا يقدّر بثمن، بحيث اعتبر باطلاً كلّ ما كان يعدّه حُظوة وامتيازاً من جرّاء ولادته في أَحضان اليهوديّة الفرّيسيّة، وما اكتسبه بجهده في تنفيذ فرائض الشريعة، لا بل إِنّه أَدخل كلّ ذلك في خانة الخسارة : " هذه الأَشياء التي كانت لي ربحاً، عددتها خسراناً، من أَجل المسيح، بل أَعدّ كلّ شيء خسراناً إِزاء هذا الربح الفائق : معرفة المسيح يسوع، ربّي، الذي لأَجله خسرت كلّ شيء، وفي كلّ شيء لا أَرى سوى أَقذار حتّى أَربح المسيح، وأَجدَني فيه لا على برّي الذي من الناموس، بل على البرّ النابع من الإِيمان بالمسيح، البرّ الذي من اللّه، القائم على الإِيمان. فمنيتي، إِذن، أَن أَعرفه هو، وأعرف قدرة قيامته، والشركة في آلامه فأصير على صورته في الموت، على أَمل البلوغ إِلى القيامة من بين الأَموات " (فيليبي 3 : 7 – 11)

إِنّ يسوع قد تجسّد وقام باسم جميع البشر ولمصلحتهم، ويعود لهم الانتفاع به إِن هم شاؤوا التضامن معه، والتمتّع بثمار ما فعل من أَجلهم، أي :

حكمة تتخطّى بلا قياس كلّ ما تطلّع إِليه اليهود والوثنيّون.

البرّ، أو قداسة الحياة، التي تجعلنا على توافق مع مرامي اللّه، وعلى اتّصال مع اللّه الكلّيّ القداسة.

الفداء، أَي التحرّر من عبوديّة الخطيئة، والعيش في السلام الذي يوفّره هذا الفداء.

و " معرفة المسيح " تعني لبولس، سعياً متّصلاً، مغفلاً كلّ ما هو وراءه، متطلّعاً إِلى الأمام، جاهداً في اللحاق بمن استولى عليه أوّلاً. وهذا يستوجب صلب "الإِنسان القديم" مع المسيح، وانتهاج حياة جديدة جاهدة في سبيل القيامة، تمرّ عبر مراحل التألّم مع المسيح، والصلب معه، والعيش معه، والقيامة معه. وهذا النهج هو ما يدعوه بولس "برّاً"

لقد آمن بولس أَنّ العماد والإِيمان يحوّلان الإِنسان إِلى هيكل للروح القدس؛ فلا يعيش، بعدُ، لنفسه، وبذاته، بل عليه أَن يموت عن ذاته لكي يعيش اللّه فيه، وأَن يتمثّل بموت المسيح الذي استولى عليه، كي يشترك في قيامته. وهذه المشاركة لا تتحقّق إِلاّ بقطيعة جديدة، وانطلاق من نقطة الصفر. هويّة المؤمن الجديدة تحدّدها مواهب يسوع، وروحه القدّوس التي تقتضي منه قطيعة مع الماضي، لا يسعه، في معزلٍ عنها، بلوغ منزلة الألوهة التي دعي إِليها. فبالعماد يتمثّل المسيحيّ بموت المسيح وقيامته، وهذا ما يفعله بحياته كلّها؛ إِنّه يُصلَب ويموت معه، مقتسماً آلامه، ويحمل رجاء المسيح الذي "سيحوّل جسدنا المهان لكي يجعله على صورة جسده الممجّد"

و بالإِيمان يُبرم المسيحيّ قطيعة مع الماضي، ويموت عنه، وعن الخطيئة، وعن "أناه"، لكي يستطيع أَن يقول، مع بولس : " ليس أَنا من يحيا، بعدُ، بل المسيح هو الذي يحيا فيّ ". وبعد أن كان " أَناه " يقوده إِلى الخطيئة، بات يسوع هو " أَناه " المحيي.

بيسوع بات كلّ شيء يُحدَّد، وبه كلّ شيء يُقاس؛ ومذ آمن بولس بالمسيح، بات لحياته معنى قشيب، وتفجّرت لديه طاقات دفّاقة، تدفعه إِلى النهج على درب المسيح الفصحيّ، في سبيل اللحاق به، والمشاركة في ثروات حياته المجيدة. وبات كلّ كيانه منشدّاً إِلى ملء يسوع القادر وحده على تلبية رغباته، فالعيش في صلة حميمة بالمسيح هو سعادة الإِنسان، وغبطته، وخلاصه، ومنبع قداسته. فالبرّ لم يعد ممارسة للشريعة بل تواصلاً مع يسوع القيامة.

حدَث دمشق أَماط عن بصيرة بولس قناعاً كان يحول دون رؤيته لحقيقة يسوع، ثمّ ما انفكّت الأَقنعة تسقط الواحد تلو الآخر، فتستنير نفس بولس بإِيحاءات وانخطافات، وتتجلّى له أَسرار اللّه، وأَسرار الخليقة والتاريخ، من خلال يسوع. فبيسوع تُشرع حياة اللّه على الإِنسان، بالنعمة. وبذلك استطاع بولس أَن يعلن ما هو أَكثر صوفيّة من الصوفيّة : أَي أَنّ الوجود المسيحيّ اليوميّ، هو وجودٌ في آخر، أَي " في المسيح " وأَضحت العبارتان الأَغلى على قلبه هما " مع المسيح يسوع " و"في المسيح يسوع".

و سيظلّ بولس، طوال حياته، يُنضج قناعة خلق الإِنسان من جديد في المسيح. فالإِنسان الذي " يقبض " عليه المسيح يتحوّل بقدرة القائم من الموت، فيتّسع قلبه، بحجم العالم، لحبٍّ شامل، ويكتشف الحرّيّة، ويندفع دائماً إِلى الأَمام، غير ملتفت إِلى الوراء، ولا مهتمّ بما اجتازه من طريق. فالإِيمان حياة : إِنّه محبّة تجهد في سبيل الغير، وهو رجاء يثابر ويصمد وسط الاضطرابات.

كان بولس موقناً أَنّ موت المسيح غيّر وضع البشريّة بأَكمله، على حدّ قوله : " إِنّ محبّة المسيح تحثّنا، إِذ نعتبر أَنّه، إِذ كان واحد قد مات عن الجميع، فالجميع، أَيضاً قد ماتوا معه، وأَنّه قد مات عن الجميع لكي لا يحيا الأَحياء لأَنفسهم في ما بعد، بل للذي مات وقام لأَجلهم. وعليه، فمنذ الآن لا نعرف أَحداً بحسب الجسد، وإِن كنّا قد عرفنا المسيح بحسب الجسد، فالآن لا نعرفه كذلك. إِذن، إِن كان أَحدٌ في المسيح، فهو خليقة جديدة؛ فالقديم قد اضمحلّ. وكلّ شيءٍ قد تجدّد، والكلّ من اللّه، الذي صالحنا مع نفسه بالمسيح، وائتمننا على خدمة المصالحة. لأَنّ اللّه هو الذي صالح، في المسيح، العالمَ مع نفسه، ولم يحسب عليهم زلاّتهم، وأودعنا كلمة المصالحة...إِنّ الذي لم يعرف الخطيئة، جعله خطيئةً من أَجلنا، لكي نصير نحن، به، برّ اللّه " (2 كور 5 : 14 – 21)

هذا اليقين يدفع بولس إِلى الإعلان بأَنّ " حبّ المسيح يلاحقنا ". فعلى الجميع أَن يعرفوا أَنّ المسيح قد تألّم ومات، ونهض لكي يشركهم في فصحه. ولذلك يقرن بولس دائماً عبارة " مع المسيح " بعبارة " من أَجلنا "

أَمّا التواصل الشخصيّ الحميم بالمسيح فقد عبّر عنه بولس بقوله : " اليوم، كما في كلّ حين، أَتصرَّف بجرأة لكي يُمجَّد المسيح في جسدي، بالحياة أم بالممات. لأَنّ الحياة لي هي المسيح، والموت لي ربح (فيليبي 1 : 20 – 24) ومن ثمّ فهو، أبداً، ممزّق بين رغبته في الالتحام بالمسيح، بالموت، وواجب إِبلاغ البشر أَجميعن حبّ يسوع. ورغبته في أَن يكون مع يسوع تغذّيها تجربته بأَنّ يسوع قد غدا، هو حياته : " لستُ، أَنا حيّاً بعد، بل المسيح يحيا فيّ. وإِن كنت الآن أَحيا في الجسد، فإِنّي أَحيا في الإِيمان بابن اللّه الذي أَحبّني وبذل نفسه عنّي " (غلاطية 2 : 20)

من حَدَث الصليب يستمدّ بولس لاهوته، فبعد أَن تجلّى له يسوع، وبعد أَن تلقّاه هو بالمعموديّة والإِيمان، أَمسى موت يسوع موته، وغدا صليب المسيح هو الذي يحدّد وجه وجوده ومعناه؛ فهو أَيضاً قد مات عن الشريعة والعالم، العالم الذي ما برح سجين صلفه، وكبريائه، والخطيئة، والموت، واستطاع أَن يعلن : " أَمّا أَنا فمعاذ اللّه أَن أَفتخر إِلاّ بصليب ربّنا يسوع المسيح، الذي به صُلِب العالم لي، وأَنا صلبت للعالَم " (غل 6 : 14) أَي إِنّني انتقلت إِلى عالم آخر، وما عدت أَفخر بإِنجازاتي الأَخلاقيّة والدينيّة، كما كنت أَفعل من قبل، ولا بانتمائي إِلى شعب منعزل عن سائر الشعوب، مثلما يُعزل الطاهر عن النجس. وقد غدا هدفي الأَساسيّ أَن أَكون خليقة جديدة، وبات فخري أَنّ المسيح أَحبّني حتّى إِقدامه على الصلب من أَجلي.

و ما يقوله بولس عن نفسه يقوله عن جميع المؤمنين، " لأَنّ الذين هم للمسيح يسوع، صلبوا الجسد مع الأَهواء والشهوات" (غلاطية 5 : 24). فالمؤمنون قد عُمّدوا في موت المسيح كي يظفروا بحياةٍ جديدة، حسب تعبير بولس الرائع : " إِنّا، جميع من اعتمدوا للمسيح قد اعتمدنا لموته. فلقد دفنّا، إِذن، معه، بالمعموديّة للموت، حتّى إِنّا، كما أُقيم المسيح من بين الأَموات بمجد الآب، كذلك نسلك، نحن أَيضاً، في جدّة الحياة. لأَنّا إِذا كنّا قد صرنا متّحدين معه بشبه موته، نصير أَيضاً بشبه قيامته، عالمين أَن إِنساننا العتيق قد صلب معه، لكي يتلاشى جسد الخطيئة، بحيث لا نستعبد، بعدُ، للخطيئة، لأَنّ الذي مات قد تحرّر من الخطيئة. فإِن كنّا قد متنا مع المسيح، نؤمن أَنّا سنحيا، أَيضاً، معه، عالمين أَنّ المسيح، بعدما أقيم من بين الأَموات، لا يموت أَيضاً، فالموت لا يسود عليه من بعد، فإِنّه بموته، قد مات للخطيئة إِلى

الأَبد، وبحياته يحيا للّه. فكذلك أَنتم أَيضاً، احسبوا أنفسكم أمواتاً للخطيئة، أَحياءً للّه في المسيح يسوع (روما 6 : 3 – 11)

و المشاركة في موت المسيح تعني الانعتاق من الخطيئة، والاتّسام بدمغة يسوع، والقدرة على العيش فقط من أَجل اللّه، بعد أَن صُلِب وضعنا البشريّ القديم، وضع الوهن والخطيئة، لكي يقوم مع المسيح.فالعماد قطع الجسور مع الماضي، ومع العالم القديم، وأعدّ المؤمن لحياة جديدة.

لقد تميّز بولس بتأكيده أَنّه لا يسع المؤمنين العيش والعمل، والصلاة، والتألّم، والابتهاج، والموت، والقيامة، والوجود، إِلاّ بالمسيح يسوع، لا بل أَكّد أَنّ الآب نفسه لا يتدخّل إِلاّ عبر المسيح يسوع.

و في حياته الجديدة يعيش المؤمن في يسوع كلّ تاريخه الشخصيّ والجماعيّ. ففيه مولده على الإِيمان، وفيه حاضره ومستقبله، ومنه يستمدّ هويّته.هذه الهويّة المتمثّلة في "الوجود في المسيح يسوع"، لا تعتمد فقط على ما عاشه المسيح، سابقاً، إِذ إِنّه حيّ أَبداً، والمسيحيّون أَعضاء في جسده الحيّ، يحيون فيه وبه، بصفته روحاً محيياً، هو فيهم، وهم فيه، كالهواء الذي نستنشقه؛ يبثّ فيهم روحه القدّوس، ويشركهم في حياته. ومن ثمّ استطاع أَن يعلن أَنّ كلامه وعمله، وآلامه، إِن هي إِلاّ من المسيح الذي يتكلّم، ويعمل، ويتألّم فيه: "نحمل في الجسد، كلّ حين، موت يسوع، لتظهر حياة يسوع، أَيضاً، في جسدنا، لأنّا، نحن الأَحياء، نُسلَم دائماً إِلى الموت من أَجل يسوع لتظهر حياة يسوع، أَيضاً، في جسدنا المائت " (2 كور 4 : 10 – 11).

و مثلما يعيش المسيحيّون في الروح القدس وفي المسيح، يمكن أَن يقال أَنّ المسيح يقيم في المسيحيّ، وأَنّ الروح القدس يسكن فيه؛ ومثلما عليهم أَن يسلكوا وفقاً لمقتضيات المحبّة، كذلك حبّ اللّه يملأ قلوبهم. إِنّهم هيكل اللّه وروحه، وكلٌّ منهم عضو في جسد المسيح.

للمسيحيّ كلّ شيءٍ يتمّ " في المسيح يسوع ".
فهو يعني أَنّه إِنسان جديد " في المسيح يسوع".
إِنّه فيه سجين، وفيه سيّد،
فيه ضعيف وفيه فرح،
فيه وُلد، وكان طفلاً ومراهقاً،
فيه نضج، ونال الحكمة والفطنة،
و فيه ينجب أَبناءه؛

إِنّه، في المسيح يسوع، وُلد من جديد، وأحيي من جديد، وخُتن روحيّاً، ووُسم بالطابع الإلهيّ.

إيمانه ورجاؤه، ومحبّته هي في المسيح يسوع، وفيه، أيضاً، ثقته وحرّيّته.

أمواته ماتوا في المسيح يسوع، وفيه سيقومون؛

و علاقاته كلّها تتمّ عبر المسيح يسوع.

هذا الواقع يعبّر عنه بولس تعبيراً سامياً في مستهلّ رسالته إلى الأفسسيّين، حيث قال: "تبارك اللّه، أبو ربّنا يسوع المسيح الذي غَمَرنا، من علياء سمائه، بكلّ بركةٍ روحيّة في المسيح؛ إذ فيه قد اختارنا عن محبّة من قبل إنشاء العالم، لنكون قدّيسين وبغير عيبٍ أمامه؛ وسبق فحدّد، على حسب مرضاته، أن نكون له أبناءً بيسوع المسيح، لتمجيد نعمته السنيّة، التي أنعم بها علينا، في الحبيب، وفيه لنا الفداء بدمه، ومغفرة الزلاّت، على حسب غنى نعمته، التي أفاضها علينا بملء الحكمة والفطنة؛ بإعلانه لنا، على حسب مرضاته، سرّ مشيئته الذي سبق فقصده في نفسه، ليحقّقه عند تمام الأزمنة : أي أن يجمع تحت رأس واحد، في المسيح، كلّ شيءٍ، ما في السماوات، وما على الأرض؛ وفيه أيضاً دُعينا، وقد اصطفينا من قبلُ، بمقتضى قصد من يعمل كلّ شيء على حسب مرضاته، لنكون تسبحة لمجده، نحن الذين سبقوا فأناطوا رجاءهم بالمسيح.

" وفيه، أنتم أيضاً، بعد إذ سمعتم كلمة الحقّ، إنجيل خلاصكم، وبعد إذ آمنتم به، ختمتم بروح الموعد القدّوس، الذي هو عربون ميراثنا، لفداء الشعب، الذي اقتناه اللّه لتسبيح مجده "

هذا الاندماج في يسوع، وهذا الانغراس فيه، هما منبع حقوق المسيحيّ وواجباته.

و هذا الاتّحاد بالمسيح الذي يحوّل الكيان، يغذّي مفهوم بولس للكنيسة.فجميع المسيحيّين مقيمون في المسيح، وبولس يحبّهم فيه. وهم، جميعاً، يؤلّفون جسداً سرّيّاً، إذ إنّ كلاّ منهم، بالعماد، قد " ارتدى المسيح "؛ وإذ إنّ المأدبة الإفخارستيّة هي مشاركة الجميع في جسد المسيح. ويبقى على كلّ مؤمن أن ينهج نهجه الخاصّ في التمثّل بالمسيح، عبر اتّحاده به، صوفيّاً.

" في المسيح " تمّ الفداء والبرّ، وفيه ستتمّ القيامة الأخيرة. فيه اختارنا الربّ، وباركنا وخلقنا، وأقامنا، ومجّدنا.وفيه جمعنا في كنيسة، وجعلنا أعضاء في جسده الواحد، خليقة جديدة، تتحرّك بحرّيّة أبناء اللّه، ويحدوها الروح، و" إن كنّا نحيا بالروح، فلنسلكنّ أيضاً، بحسب الروح " (غل 5 : 25)

و السلوك بحسب الروح يعني للمؤمنين توفيق كلّ ما يفعلونه مع ما فعله الربّ سابقاً في المسيح. ولذلك ما انفكّ بولس يهيب بالمسيحيّين : "فليكن لكم من المشاعر ما للمسيح يسوع

" و" ليكن فيكم من الاستعدادات ما هو في المسيح يسوع "، " اسلكوا بما يليق بدعوتكم"، أي بما يليق بالإِنجيل، وباللّه أَبيكم.

كون المرء مسيحيّاً يعني، جوهريّاً، إِيمانه بيسوع، ودخوله في علاقة حميمة معه، واتّباعه على دربه الفصحيّ. والأخلاق المسيحيّة لا يسعها، بالتالي، أَن تكون إِلاّ فصحاً يقضي على " الإِنسان القديم "، أي على كلّ ما ينهض عائقاً في وجه الحبّ، ويمكّن من ولادة "الإِنسان الجديد".

لم يعد السلوك المسيحيّ يستند على سلسلة من الفرائض القسريّة، التي تفرضها قوّة خارجيّة، بل هو ينبع من الحبّ، ومن حضور الروح الإِلهيّ فينا : " أَو ما تعلمون أَنّكم هيكلّ اللّه. وأَنّ روح اللّه ساكن فيكم؟ من يفسد هيكل اللّه يفسده اللّه، لأَنّ هيكل اللّه مقدّس، وهذا الهيكل هو أَنتم" (ا كور 3 : 16 – 17)؛ " أوَ لا تعلمون أَنّ أجسادكم هي هيكل الروح القدس الذي فيكم، الذي نلتموه من اللّه ؟ وأَنّكم لستم، بعد، لأَنفسكم، لأَنّكم قد اشتُريتم بثمن كريم ؟ فمجّدوا اللّه، إِذن، في أجسادكم " (ا كور 6 : 19 – 20)

فالبعماد يرتدي المؤمن المسيح يسوع، ويغدو ابن اللّه، وهو مدعوّ إِلى أَن يرتدي، بسلوكه، الربّ يسوع وأَسلحة النور.

و يقين المسيحيّ بأَنّه " ابن اللّه " لا يأتي من استنتاج عقليّ، بل من الروح الذي يشهد في قلبه أَنّ الإِنسان هو أَكثر من معمل بيوكيمائيّ؛ وهذا اليقين إِنّما هو اختبار روحيّ يكتشف به المؤمن أَنّه، بالإِيمان والمحبّة، يتّحد بالمسيح. وهذا الاتّحاد بالقائم من الموت يجعل منّا "ورثة اللّه "، و" شركاء المسيح في الميراث ". والإِرث ليس، كما ظنّ اليهود، " أَرضاً موعودة "، بل هو خيرات ملكوت اللّه، ومنها " الحياة الأبديّة ". ووحده الروح قادر على جعلنا نسبر عمق فرحنا بهذا الإرث وعلى إِطلاق حرّيّتنا، وتحويل أَفعالنا كلّها "أَفعالاً روحيّة".

فيما كان المؤمنون، من حول بولس، يعتقدون أَنّ ساعة العالم مشرفة على إِيذان عهد جديد، ويتوقّعون إِعلانه، كان بولس يؤمن بأَنّ هذه الساعة قد قُرعت، وأَنّ الإِيذان قد أعلن، ولكنّهم لم يتبــيّــنّوا إِشراقه، بقيامة المسيح. وقد بيّن لهم بولس، انطلاقاً من تجربته الروحيّة الفريدة، أَنّ المسيح يسوع ليس فقط أَمامهم، بل أَنّه فيهم، وهم فيه، وأَنّه يقودهم نحو أَحداث جليلة ستغيّر مجرى التاريخ.

عند مشارف دمشق اكتشف بولس أنّ كلّ الجهود التي بذلها في سبيل الشريعة، وكلّ الضحايا التي قدّمها على مذبحها، لم تبلغ به الكمال، ولم تكشف له أنوار الحقيقة. فالشريعة بلّغت البشر ما هو مفروض، وما هو ممنوع، وما هي الخطايا التي يتعيّن عليهم تجنّبها، ولكنّها لم تزوّدهم بالقدرة على ممارسة وصاياها، فانقلبت مدرجة إلى الخطيئة، وأوقعت الإنسان في انفصام مدمّر : فما يريده لا يفعله، وما يكرهه إيّاه يفعل؛ ومن ثمّ فالشريعة تؤدّي به إلى وهاد القنوط واليأس من بلوغ البرّ والوحدة الذاتيّة. فيا له من إنسان شقيّ !

و فضلاً عن ذلك تصبح الشريعة سبباً لفصم عرى الإخاء بين البشر، لأنّها تجعل الناس يحكمون بعضهم على بعض وفقاً لوفائهم للشريعة، ويراقبون بعضهم بعضاً، فتتحطّم علاقات الأخوّة فيما بينهم، ويعرّض بعضهم بعضاً للازدراء والألم؛ وتمسي الشريعة أداة إدانة ونبذ.

و قد توهم الشريعة بعض البشر بالقدرة على الظفر بالخلاص بفضل استحقاقاتهم الخاصّة، بحيث يحوّلون اللّه إلى محاسب يدّون أعمالهم الصالحة، ويدين لهم بها، ويهبون ذواتهم شهادة الكمال، في معزل عن عون الربّ.

و إذ اكتشف بولس ذلك أكّد للّذين يتبجّحون بأعمالهم أنّ ليس، بين البشر، بارٌّ واحد يستأهل، بمجرّد جهده، الخلاص، وبشّر القانطين من إصابة الخلاص : " الجميع قد خطئوا، فأعوزهم مجد اللّه، والجميع، بنعمته، يُبرّرون بالفداء الذي بالمسيح يسوع "

ذلك الفرّيسيّ الغيور، حتّى الهوَس، على الشريعة، آمن أخيراً، أنّ ليس سوى سبيل واحد إلى الخلاص : يسوع الذي بحياته، وموته، وقيامته، أبطل سلطان الخطيئة، واستحقّ للبشر " البرّ "، الذي طالما التمسوه، عبثاً، من خلال الشريعة. فعلى كلّ إنسان تقبّل المسيح بالإيمان، كي يظفر بأفضل ما تنطوي عليه الشريعة، كالامتناع عن القتل، والسرقة، والكذب، والشهوة، وفضلاً عن ذلك، يظفر بالمحبّة، فهي تمام الشريعة، وموجزها، وجوهرها. وبعد إذ كانت الشريعة فريضة خارجيّة قسريّة، بل نيراً ساحقاً، غدت " الشريعة الجديدة "، شريعة المحبّة، قوّة داخليّة تدفع إلى الخير، وتؤكّد الحرّيّة.

إنّ " الخليقة الجديدة "، المتجدّدة بالعماد، تتلقّى روح اللّه الذي يجعل البشر أبناءً للّه أحراراً. ومن كان هذا اليقين حاديه، يدرك أنّ الحرّيّة التي وهبها يسوع المسيح لا تُكتَسب إلا " بشريعة الروح الذي يهب الحياة بيسوع المسيح ". وهذه الشريعة ليست مجموعة أوامر

ومحظورات وتنظيمات، بل هي اندفاع، وانطلاق لا هدف لهما سوى الاتّصال بيسوع، والعمل بشريعة حبّه، حبّ كامل، لا حدود له ولا قيود.

و الإنسان الجديد المنبثق من العماد والإيمان هو إنسانٌ متحرّر من قيود الحرف، ومن تعسّف الشريعة، ومن عبوديّة الخطيئة التي تغتال كرامته. إنّه يسلك بوحي الروح الذي يسكنه ويقوده في طريق القيامة، والانبعاث إلى حياة قشيبة. وبعد إذ كان أسير حرّيّات زائفة تفضي إلى عبوديّة الأهواء المدمّرة، ارتضى طاعةً إراديّة، يغمرها الحبّ، لهدي الروح الذي يقود إلى التحرّر من عبوديّة القلب وهي أدهى من عبوديّة الجسد، ويهب حرّيّة روحيّة داخليّة هي أسمى من الحرّيّة الجسديّة.

ليس مرجع السلوك المسيحيّ، بعد، شريعة مكتوبة، وفرائض خارجيّة، بل هو إنجيل يسوع الحيّ، وحياته وأقواله. وليست دوافعه الأدبيّة ضغوطاً ومحظورات، بل التزام بحبّ يسوع، على اعتباره منبع الحرّيّة الجديدة، والإيمان به على اعتباره عامل تحرير. فالإنسان الحرّ، حقّاً، لا يتجنّب الشرّ لأنّه ممنوع، بل لأنّه يهين الحبّ، ويجرحه، ويقتله. ومن ثمّ، فإنّ الآداب المسيحيّة ليست آداب عبوديّة، بل آداب حرّيّة، تحييها فينا طاقة روح اللّه، التي يدعوها بولس " نعمة " : " إنّ الخطيئة لن تسودكم بعد، لأنّكم لستم، بعدُ، تحت الناموس، بل تحت النعمة... أما تعلمون أنّ من تجعلون له أنفسكم عبيداً للطاعة، إنّما تكونون عبيداً لمن تطيعون : إمّا للخطيئة فللموت، وإمّا للطاعة فللبرّ " (روما 6 : 14 و16)

بولس هو الذي أدخل لفظة " الفداء " في التعبير المسيحيّ. واللفظة اليونانيّة التي استخدمها لهذا المعنى كانت تعني شراء الدولة الرومانيّة لمواطنين رومانيّين استُعبدوا في أعقاب هزيمة عسكريّة. وقد استخدم بولس هذا التعبير لكي يعني أنّ المسيح حرّر الإنسان من عبوديّة الخطيئة، وأعاد له مواطنيّته الأولى كابنٍ للّه.

جميع البشر كانوا، بسبب الخطيئة، مُبعَدين عن حياة اللّه الحميمة، وعن بيت اللّه، وعن المشاركة في حياته. والمسيح منحهم الحرّيّة الداخليّة، الروحيّة، الكفيلة بإنقاذهم من أسر الخطيئة، وتمكّنهم من الانفتاح على موهبة اللّه : " الجميع، بنعمته، يُبرَّرون مجّاناً، بالفداء الذي بالمسيح يسوع " (روما 3 : 24).

الفداء، إذن، هو تحرير، وعبور من عبوديّة الخطيئة إلى محراب الحرّيّة، وملكوت اللّه، بيسوع "الذي صار لنا، من اللّه، حكمةً وبرّاً، وقداسة، وفداءً " (اكور : 1: 30)

و الحريّة المسيحيّة التي بشّر بها بولس تختلف كلّ الاختلاف عن الاستقلاليّة المتكبّرة، وعن الفوضى، فبولس كان رجل نظام يحترم الأنظمة القائمة. والثوريّون الحقيقيّون يزدرون الثورات السطحيّة الباطلة. إنّما المسيحيّ حرّ لأنّه غلب العالم بفضل يسوع، وغلب أهواءه

الخاصّة، وغلب الموت؛ وسواء إن كان خاضعاً لأقسى الأنظمة السياسيّة قمعاً، أو كان عبداً أو أسيراً، يظلّ المسيحيّ إنساناً حرّاً، حرّيّة كاملة، ولا شيء يحدّ من حرّيته.

هذه الحرّيّة، إذن، ليست فطريّة تأتي بالولادة، ولا هي ثمرة إرادة بشريّة أوهنتها الخطيئة، بل هي هبة روح يسوع، إنّها تاريخ ومسيرة، وعلى المؤمن أن يتقبّلها وينمّيها؛ وبقدر ما هو يتقبّل المسيح، ويحقّق تعاليمه، بنفس القدر ينمو في الحرّيّة : " الربّ هو الروح، وحيث يكون روح الربّ، فهناك الحرّيّة " (2 كور 3 : 17) وبقدر ما يكون الروح راسخاً تكون الحرّيّة منيعة ثابتة.

و الروح ليس أيّ روح، بل روح يسوع المصلوب، فقد وفّر يسوع هذه الحرّيّة للبشر بصليبه.وكان بولس نفسه، قبل اهتدائه، يعدّ الصليب لعنةً، ولكن بعد أن استنارت نفسه، تبيّن أنّ هذه المفارقة نفسها غدت مثار دهشة، إذ اكتشف، في انتهاج يسوع درب الصليب، قمّة الحبّ، وروعة مشروع الخلاص. لقد شاء اللّه أن يفعل ما يتخطّى إدراك البشر ويصدمهم، فأرسل ابنه كي " يقيم فيما بيننا "، آخذاً على عاتقه تحرير البشريّة التي جرحتها الخطيئة جرحاً مميتاً، باقتسامه وضعنا كبشر خاطئين، وقبوله بما ينجم عن ذلك. ولم يكن الآب هو الذي خطّط لصلب ابنه، بل الإنسان هو الذي نصب له الصليب بسبب خطيئته. والخلاص تحقّق لا بآلام المسيح وصليبه، بل بالحبّ الذي حداه إلى هذا المصير.

على حرّيتنا، إذن، كي تنمو وتترسّخ، أن تستلسم لقيادة الروح الكفيلة بإعتاقها من قيود الشرّ والخطيئة، وميول الجسد الوبيلة، وهذا ما أكّده بولس بقوله : " أُسلكوا بالروح، فلا تقضوا شهوة الجسد، فإنّ الجسد يشتهي ضدّ الروح، والروح ضدّ الجسد، فكلاهما يقاوم الآخر حتّى إنّكم لا تفعلون ما تريدون. فإن كنتم تنقادون للروح، فلستم، بعدُ، تحت الناموس. أعمال الجسد بيّنة : الفجور، والنجاسة، والعهر، وعبادة الأوثان، والسحر، والعداوات، والخصومات، والأطماع؛ والمغاضبات، والمنازعات، والمشاقّات، والبدَع، والمحاسدات، والسكر، والقصوف، وما أشبه ذلك... أمّا ثمر الروح فهو المحبّة، والفرح، والسلام، وطول الأناة، واللطف، والصلاح، والأمانة، والوداعة، والعفاف..."

إنّ حضور اللّه في المؤمنين وفي الكنيسة هو حضور نشيط، فاعل، خلّاق، محوّل، وعمل الإنسان مغروس في صميم عمل اللّه. عمل اللّه يفعل في عمل الإنسان. " به نتحرّك، ونحيا، ونكون ". عمل اللّه يستخدم عملنا ويحترمه. وحرّيّة اللّه تفعل من خلال حرّيّتنا الشخصيّة. وما أكثر أقوال بولس في هذا السياق : " اللّه هو الذي يفعل فيكم الإرادة والعمل نفسه، على حسب مرضاته " (فيليبي 2 : 13)؛ "اللّه يصنع فيكم المعجزات" (غلاطية 3 : 5)؛ " فللقادر أن يصنع بقدرته العاملة فينا، ما يفوق جدّاً كلّ ما نسأل أو نتصوّر، المجد في

الكنيسة، وفي المسيح يسوع، إلى جميع الأَجيال..." (أفسس 3 : 20 - 21)؛ " كلمة اللّه تعمل فيكم أَنتم المؤمنين" (تيسالونيكي 2 : 13)

و عمل اللّه هذا، فينا، لا يقلّل من شأن إرادتنا، بل يستنهضها، ويشفيها، ويقوّيها. فإرادتنا لا تتحقّق في معزل عن اللّه، بل في تعاونٍ معه لمجده. وإنّما العبوديّة هي الخطيئة.

ويبقى أَنّ ازدهار حرّيّة مخلوقة في إِطار حرّيّة اللّه هو، بالتأكيد، سرّ الأَسرار، لا بل سرّ الخليقة.

و الروح، في نظر بولس، ليس مرشداً أو معلّماً يقودنا من الخارج، بل هو ديناميكيّة داخليّة، " تعمل فينا "، وطاقة حبّ، تجعلنا نحبّ مشيئة اللّه فينا، وقادرين على العمل بحبّ.

و على حرّيّتنا أن تحمل إِشارة الصليب، فالحرّيّة المسيحيّة بعيدة عن أَن تكون دعوة إِلى اليسر، أو الإِباحيّة، بل هي أَكثر الدعوات اقتضاءً، إِذ لا شيء أَشدّ اقتضاءً من الحبّ، وبولس لا يني يؤكّد : " أَنتم، أَيّها الإِخوة، إِنّما دعيتم إِلى الحرّيّة، ولكن لا تجلعوا هذه الحرّيّة فرصة للجسد ". ولا تثبت هذه الحرّيّة إلاّ بفضل صراع عاتٍ ومستمرّ مع قوى الشرّ التي لا تنفكّ تسعى إِلى استعبادنا من جديد. فالمسيحيّ، وإِن هو تحرّر من الضغوط والفرائض الخارجيّة، ليس لعبة أَهوائه ونزواته، ولا بدّ له من إِحكام سيطرته عليها، كي يظلّ ينعم بحرّيّته كاملة. ومع أَنّ لا قِبَل لأَحد على انتزاع هذه الحرّيّة منه، بيد أَنّ الخطيئة تصيبها بمقتل، وتنتج الموت. حرّيّتنا كنز نحمله في إِناء خزفيّ وعلينا مداراته والسهر عليه، وبولس يذكّرنا : " لقد حرّرنا المسيح لكي ننعم بهذه الحرّيّة : فاثبتوا فيها، إِذن، ولا تعودوا ترتبطون بنير العبوديّة " (غلاطية 5 : 1)

و لا تكتمل الحرّيّة إلاّ بوضع ذاتها في خدمة المحبّة. ولطالما أَكّد بولس أَنّ المؤمنين وُهبوا الحرّيّة لكي يحبّوا بعضهم بعضاً، ويخدموا بعضهم بعضاً، خدمةً لا عبوديّة فيها، لأَنّها تعبّر عن المحبّة، بحيث تصبح الحرّيّة هي علامة المحبّة المميّزة، ويصبح معيار حرّيّة المؤمن الداخليّة هو طاقته على الحبّ المتجلّية من خلال علاقته بالآخرين. الحرّيّة والمحبّة متلازمتان : " حيث الروح، ثمّة الحرّيّة " (2 كور 3 : 17) و" ثمرة الروح هي المحبّة " (غلاطية 5 : 22) وبالتالي يمكن القول : حيث المحبّة، هناك الحرّيّة.

الحرّيّة المسيحيّة، إِذن، ليست حرّيّة عبثيّة، بل هي حرّيّة في سبيل هدفٍ أَسمى، حرّيّة من أَجل المحبّة. والمؤمن، باتّحاده بالمسيح، وبتحرّكه بروحه، لم يعد خاضعاً لشريعة، وهو، بقدر، ما يستلسم للروح، بنفس القدر تتوافق رغباته وإِرادته مع مشيئة اللّه. ولم يعد بحاجة إِلى أَوامر وتهديدات وعقاب، بل حسبه أَن يحبّ، حقّاً.

و الحرّيّة المسيحيّة لا حدود لها سوى مقتضيات المحبّة: محبّة اللّه بتجنّب الخطيئة، ومحبّة القريب بالامتناع عن كلّ ما يشكّكه، ويجرحه، ويكون له حجر عثرة، ولو كان مباحاً. وكان بولس النموذج الأَسمى لهذه الحرّيّة العاملة في خدمة المحبّة والرسالة، وهو الذي أَعلن: "فإِذ كنت حرّاً من الجميع عبّدت نفسي للجميع لكي أَربح الأكثرين" (2 كور 9 : 19). إِنّه، وقد حرّره الإِنجيل، جعل نفسه حرّاً باتّباع الشريعة لكي لا يكون عثرة لإِخوته اليهود، وحرّاً في التخلّي عن الشريعة، لكيلا يثقل ضمير الوثنيّين؛ حرّاً في تناول لحوم التقادم أو انتباذها، فهي، في ذاتها، لا تعني للمسيحيّ شيئاً، وإِنّما يملي تناولها أو انتباذها الحرص على عدم صدم ضمائر الآخرين وحساسيّاتهم.

و قد دأب بولس على تذكير المؤمنين بأَنّهم تلقّوا خميرة جديدة تؤهّلهم للتمتّع بحرّيّة أبناء اللّه، التي تقودهم إِلى تجاوز الذات بالمحبّة؛ فالمحبّة هي، وحدها، كفيلة بقيادة هذه الحرّيّة، وحمايتها، وإِخصابها.

و عندما يترسّخ المؤمن في المحبّة والحرّيّة، لا خوف عليه من الانفتاح على كلّ ما هو جميل وخيّر، وبولس لا يتحرّج من مناشدة المؤمنين : "وبعد، أَيّها الإِخوة، فكلّ ما هو حقٌّ وكرامة، وعدلٌ ونقاوة، ولطف وشرف، وكلّ ما هو فضيلة وكلّ ما يُمتدح، كلّ هذا فليكن محطّ أَفكاركم..." (فيليبي 4 : 8)؛ فما الشرّ سوى الأَنانيّة والانطواء على الذات، وما الخير سوى بذل الذات التي تستمدّ من هذا العطاء، ومن المحبّة، انطلاقاً وزخماً.

إِنّ بولس الذي تذوّق طعم حرّيّة يسوع، وتحرّر من ربقة التقاليد البالية، والعادات الاجتماعيّة الفاسدة، والمحظورات الفكريّة، ظلّ سحابة حياته كلّها، يذود، بضراوة، عن حياض " الحرّيّة المسيحيّة "، التي اكتسبها يسوع، بثمنٍ غالٍ، لإخوته. وهذا ما يفسّر قسوته في الردّ على المتهوّدين الذين جهدوا في استلاب هذه الحرّيّة والعودة بالذين وُهبوها إِلى عبوديّة الشريعة، الخالية من الروح، وإِلى حرفها القاتل.وقد حملت رسالة بولس كلّها طابع حرّيّة الروح التي كانت تقطنه، والتي زوّدته بالجرأة على التعرُّض للآراء المسبقة الشائعة، والمسلّمات الراسخة، لأَنّ غنى النور الذي كان يحمله يفوق كلّ الخواطر البشريّة. وهذه الحرّيّة عينها هي التي دفعته إِلى مواجهة بطرس نفسه عندما تخاذل تحت ضغوط المتهوّدين، وكاد تخاذله يلحق الأَذى بمستقبل الإِنجيل. ولم تكن حرّيّته تلك اعتباطاً أو اعتداداً، بل كانت إِيماناً راسخاً بالانتماء المطلق والكامل إِلى يسوع، بصفته خادماً له، بل عبداً.ومن يخدم يسوع بلا تحفّظ لا يتحرّج من خدمة إِخوته بكلّ تواضع. وأَخيراً، آمن بولس أَنّ هذه الحرّيّة المسيحيّة المؤسَّسة على شريعة المحبّة، هي وحدها، تتيح للإِيمان ازدهاراً تامّاً، وهي وحدها، بقوّة الروح، تحمل المعمّد على التمثّل بالمسيح، في ديناميكيّة سرّ قيامته. غير أَنّ تقبّل هذه

الشريعة لا ينفصل عن ضرورة السعي الدائم إِلى تمييز مشيئة اللّه. الذي يحلّ محلّ الاستعباد لشريعة عاجزة عن توفير الخلاص.

فعل التمييز

إنّ مفتاح مناقبيّة العهد الجديد يكمن في القدرة على اتّخاذ القرار الأَخلاقيّ المتطابق مع الإِنجيل، في كلّ وضعٍ طارئ. وفي سبيل التمتّع بهذا التمييز، صلّى بولس، في رسالته إِلى الفيليبيّين (1 : 9 – 11): "صلاتي إِلى اللّه أَن تكون محبّتكم على نموٍّ صاعد في المعرفة والإِدراك التامّ. حتّى يكون في وسعكم أَن تميّزوا القِيَم الحقّة..."

ففي رأي بولس التمييز هو العنصر الجوهريّ للحياة المسيحيّة، إِذ على المسيحيّ أَن يستخدم عقله في تبيّن مشيئة اللّه لحياته، وفيها. وقد دعا المؤمنين إِلى التصرُّف كأَبناء النور، لا كما كانوا يسلكون قديماً وهم عبيد للخطيئة، بل كما يتعيّن عليهم أَن يسلكوا الآن، وقد أَصبحوا "خليقة جديدة "؛ لا كما كانوا يتعثّرون وهم غارقون في الظلمة، بل كما يتعيّن عليهم أَن يسلكوا الآن وقد غمرهم النور. ولذلك يحرّضهم: "ميّزوا ما يرضي اللّه، ولا تشتركوا في أَعمال الظلمة العقيمة، بل بالحريّ اشجبوها جهراً " (أفسس 5 : 10 – 11)

و يندرج التمييز اندراجاً وثيقاً في الإِيمان، والعماد، وموهبة الروح:

فالإِيمان هو دليل استسلام الإِنسان لمخطّط اللّه الخلاصيّ، واختياره لمقتضيات هذا المخطّط العمليّة، في كلّ حين.

و بالعماد يتحقّق تحوّلٌ كيانيّ كامل في أَعمق كيان الإِنسان، به يموت المعمّد، في المسيح، عن الخطيئة، ويتجرّد من إِنسانه القديم، لكي ينهض إِلى حياة جديدة. وبما أَنّ المسيح انتزعه من الظلمات، لا يستطيع الإِنسان، بعد، التمثّل بالعالم، بل عليه أَن يجدّد حكمه باستمرار، وأَن يدع الربّ الذي ارتداه يحوّله. تلك هي ديناميكيّة العماد التي تفرض ضرورة تمييز يُتابَع كلّ يوم.

أَمّا موهبة الروح القدس فهي عنصر مكوِّن للكائن المسيحيّ، ومعيارٌ لسلوكه، وهي التي تجعله أَكثر فأكثر شبهاً بالمسيح، الذي مات عن الخطيئة وقام، بل تجعله كائناً في المسيح، أَي مسيحاً حقّاً. وبفضل هذا التجدّد الدائم بالروح، يتمكّن المعمّد من معرفة اللّه، ومن الالتزام تلقائيّاً بالقِيَم الأَخلاقيّة اللائقة بأَبناء اللّه، ومن انتباذ كلّ زائف ومُضلّ : " لا تتشبّهوا بهذا العالم، بل تحوّلوا إِلى ضرورة أُخرى بتجديد عقلكم، لكي يتهيّأ لكم أَن تميّزوا ما مشيئة اللّه، وما هو صالح، وما يرضيه، وما هو كامل " (روما 12 : 2)

واجب المسيحيّ، إِذن، هو التماس مشيئة اللّه باستمرار، ونشدان القِيَم الحقّة، ومرضاة اللّه، وقياس كلّ شيء على ضوء معرفة مشيئة اللّه. وهذا النشدان يندرج في عمل اللّه

الخلاصيّ، وفي فداء المسيح الذي حرّرنا من الخطيئة والموت والشريعة، وأقامنا إلى حياة جديدة بموهبة الروح.

و التماس مشيئة اللّه، أيضاً، يندرج في ديناميكيّة تحرّر وحبّ تتجلّى من خلال نموّ خلاص المسيح في كلّ معمّد، الذي، بعد أن أصبح كائناً في الروح، وعائشاً فيه، يسير به وبهدي إلهامه. فالمعمّد المحرّر من حرف الشريعة، إنّما يعيش وفقاً لشريعة المسيح، وهي شريعة المحبّة التي تتخطّى كلّ شريعة مكتوبة، وتتطلّع إلى العطاء المطلق اللامحدود، على غرار محبّة الآب الذي بذل ابنه، ومحبّة الابن الذي بذل ذاته لأجلنا. وهكذا على محبّتنا أن تميّز مقتضيات شريعة المحبّة اللامحدودة.

و على ضوء تمييز مشيئة اللّه، يُرى التاريخ كلّه وكأنّه تاريخ خلاص، ويضيء الصليب والقيامة كلّ التاريخ، ويرتدي كلّ حدث بُعداً خلاصيّاً، وتصبح كلّ لحظة وقت خلاص يتعيّن عيشها واستخدامها استخداماً كاملاً: " استغلّوا الوقت الحاضر، لأنّ هذه الأيّام تبطن شرّاً، فلا تكونوا، إذن، أغبياء، بل تفهّموا ما مشيئة اللّه " (أفسس 5 : 16 – 17)

فعل التمييز، إذن، هو :

فعل توحيد وبناءٍ داخليَّيْن، يُشرك القلب، والعقل، والذاكرة، والكيان كلّه لتبيّن مقتضيات مشيئة اللّه، ودفع الحياة بهديها. هو، من ثمّ، تثقيف تدريجيّ للحسّ الروحيّ الأخلاقيّ، الكفيل بالإنقاذ من الحلول الجاهزة، والقرارات المسبقة التي تعفي من الخيار ومن المخاطرة.

و هو، بالتالي، يجعل المعمّد في حوارٍ دائم مع اللّه. به يتبيّن أنّ التمييز هو ثمرة محبّة اللّه، ولكنّه لا يحدّ من حرّيّة العطاء أو الرفض، بل يؤكّد هذه الحرّيّة، ويسبغ على كلّ خياراتنا، في الزمن، قيمة أبديّة. إنّه تعبير عن اندماجنا بتاريخ الخلاص.

و على كلّ مسيحيّ، من خلال فعل التمييز، أن ينفتح باستمرار، وأكثر فأكثر، على الكائن الجديد الذي أصبحه بالإيمان، والعماد، وموهبة الروح القدس. هذه المسؤوليّة هي أساس كرامة المسيحيّ. ولكنّها ليست مسؤوليّة تجاه الذات فحسب، بل تجاه الكنيسة الجامعة، فمخطّط الخلاص يشمل البشر أجمعين. وكلّ مشاركة في هذا المخطّط تتوخّى بناء الإخوة ومجد اللّه.

التيقّظ المسيحيّ

التيقّظ موقف حيويّ من أجل الثبات في الإيمان والوفاء للإنجيل، فنحن، في هذا العالم، ننزع، لا محالة، إلى الاستقرار في عاداتنا، ورتابتنا، ورداءتنا، وتنازلاتنا، وسطحيّتنا، وتبعثرنا تحت ضغط الاستعجال. إنّه لمن العسير أن يظلّ الإنسان يقظاً في بيئة اجتماعيّة كلّ ما فيها من فوضى الأفكار، وتنافر الصور والأصوات، يؤدّي إلى تخديره، ولا عجب، بالتالي، إن حفل تعليم يسوع الخبير بالقلب البشريّ بالدعوة إلى التيقّظ، والسهر، والحذر، والثبات، وهي دعوات لا تستهدف أن تجعل من التلاميذ رجالاً رعاديد عديمي الثقة، بل رجالاً ساهرين، واضحي الرؤية، متبصّرين.

في فجر المسيحيّة، كان المسيحيّون الأوائل يعتقدون أنّ عودة يسوع وشيكة من أجل إقامة ملكوته النهائي، وكانت كلمة السرّ، بل التحيّة المتبادلة فيها بينهم " ماراناثا " أي: "أيّها الربّ، يسوع، تعالَ ". ولكن سرعان ما اتّضح لهم أنّ عودة المسيح ستتأخّر عمّا كانوا يتخيّلون، وأدرك بولس أن أخطر محنة تتهدّد الجماعات المسيحيّة هي محنة الزمن. وهذا ما يفسّر تأكيده على السهر، والكفاح ضدّ الغفوة الروحيّة، والكلل، مذكّراً قول المسيح بأنّ يوم الربّ، كالسارق، يأتي حيث لا أحد يتوقّعه. ومن ثمّ لا يكفّ بولس يحرّض إخوته على العيش عيش " أبناء النور " الساهرين، الذين يحدوهم الروح، ولا تأخذهم غفوة الرتابة، والرداءة، وظلمات الخطيئة (ا تيموثيوس 5 : 4 – 28). وهو يدعو الإخوة إلى الزهد في الطعام والشراب والترف لئلاّ تتراخى أجسادهم وأفكارهم وقلوبهم. عليهم أن يكونوا متيقّظين كالحرّاس لئلاّ يغدر بهم أعداؤهم؛ أمّا سلاحهم فالإيمان، والحبّ المتيقّظ، والرجاء، والصلاة، بل اللّه نفسه الذي يغمرنا بحضوره، فعليهم ألاّ يطفئوا الروح (أفسس 6 : 10 –20)

المسيحيّ هو الحريص على ألاّ يستسلم إلى ما يحطّ من كرامته الإنسانيّة، هو المؤمن بالمسيح وبالرجاء الذي ولّدته قيامته في قلوبنا، ويداري هذا الكنز، ويظلّ حاجّاً نحو ملكوت اللّه، موثّقاً، بالصلاة، علاقته باللّه.

من أجل مجد الله

مجد اللّه يحتلّ مركز حياة بولس وعمله. ومنذ دعوته في دمشق، قلبت خبرة مجد اللّه كلّ مصيره، وأضاءت تفكيره وروحانيّته، بانتظار يوم مشاركته الكاملة في مجد الآب والابن والروح القدس.

منذ صباه تعلّم أن مجد اللّه فريد. وكلّ يوم كان يعترف بإيمانه بمن هو الكائن، وبه كلّ شيء كائن، وفي كلّ يوم كان يرى فيه أساس كلّ شيء، وسيّد كلّ شيء، القادر، وحده، على العمل المجدي في الأشخاص والأحداث. لأجل مجد اللّه اضطهد المسيحيّين، اعتقاداً منه بأنّ مصلوباً ملعوناً، حسب الشريعة، لا يسعه إلاّ حجب مجد اللّه كما عرفه. غير أنّ مجد القائم من الموت بهره عند أبواب دمشق، وحينئذٍ تبيّن أن من ظنّه صُلب ومات ليس حيّاً فحسب، بل إنّه يحيا بمجد اللّه، ويحمل، في ذاته، كلّ مجد اللّه. فأصبح رسول من هو "ضياء مجد اللّه "، وغدت منيته " أن أعرفه وأعرف قدرة قيامته، والشركة في آلامه، فأصير على صورته في الموت على أمل البلوغ إلى القيامة من بين الأموات" (فيليبي 3 : 10 – 11) وقد استنتج أنّ من تعمّد في موت المسيح وقيامته ينفتح على حياة المجد، التي استحقّها يسوع بصلبه وقيامته : (فيليبي 2 : 9 – 11)

مجد المسيح الناهض من الموت يعلن مجد الآب؛ به صار الآب حاضراً للبشر. ومن خلال هذا المجد استشفّ بولس آدم السماوي بكر خليقة جديدة منزّهة من الفساد، وممتلئة بالمجد الإلهيّ الذي فقده آدم الأوّل له ولكلّ ذرّيته. واستشفّ أيضاً ملء مجد المسيح الذي سيتجلّى عند مجيئه الأخير، والذي سيشمل الخليقة كلّها. هذه الرؤية المستقبليّة الغارقة في المجد تملؤه رجاءً (2 كورنثس 4 : 16 – 18). وهو يؤكّد أنّ بعض هذا المجد يتجلّى منذ الآن في المؤمنين الذين يشتركون في مجد اللّه.

عمليّاً يناشد بولس المؤمنين : " مهما فعلتم فافعلوه لمجد اللّه " : المعمّد يكتشف، بفرحٍ وإعجاب، أنّ كلّ شيء هو من عمل النعمة، فعليه، في كلّ شيء، شكر الربّ وتمجيده (1 تيموثيوس 5: 16–18) هذا التمجيد يتمّ بالصلاة، ويتمّ أيضاً وخصوصاً بالسلوك النقيّ الذي يلهمه الروح. ففي عالم ضالّ، على المسيحيّ أن يكون بؤرة نور، وأن يقود من يشاهدون سلوكه إلى تمجيد اللّه وإلى الخلاص.

بتأمّلنا مجد المسيح ينعكس علينا شيء منه، وبتشبّهنا الدائم بالمسيح نختبر ما اختبره بولس نفسه: "ونحن جميعاً، نعكس صورة مجد اللّه، بوجوه مكشوفة، كما في مرآة، فنتحوّل

إِلى تلك الصورة عنيها، ونزداد مجداً، على مجد، بفضل الربّ الذي هو روح" (2 كورنثس 3 : 18)

من استقراء مسيرة بولس يتجلّى بوضوح أنّ ذلك المرسل، جوّاب الآفاق، كان، في قرارة نفسه، صوفيّاً حقّاً، ورجل صلاة فذّاً. ولطالما تحدَّث عن الصلاة، موضحاً دور الروح فيها، فالروح هو الذي يمكّن من الانفتاح على اللّه، ومن توثيق علاقات معه، ومؤكّداً أنّ الحوار مع غير المرئيّ لا يمكن أن يكون إلاّ نعمة إلهيّة، وإنّ الصلاة إن هي إلا تجلّي رغبة الروح فينا : " الروح، أيضاً، يعضد ضعفنا، لأنّا لا نعرف كيف نصلّي كما ينبغي؛ لكنّ الروح نفسه يشفع فينا بأنّات تفوق الوصف. والذي يفحص القلوب يعلم ما ابتغاه الروح؛ لأنّه بحسب اللّه يشفع في القدّيسين..." (روما 8 : 26 – 27)

إنّ الصلاة المسيحيّة لا تنبع من حاجة الإنسان، أو من خوفه، ولكنّها ثمرة نداء الروح في داخلنا. ولا يسعنا أن نصلّي ونثابر على الصلاة، ما لم نكن مقتنعين بأنّ الروح يسكننا، وأنّه " رغبة اللّه فينا ".الصلاة، إذن، هي، جوهريّاً، نشاط الروح فينا؛ فنحن لا نستدعي اللّه، بل نستقبله : ولا نصلّي كأنّنا نقوم بأيّ فعل، بل ننفتح على حضور. الصلاة هي الإتاحة لروح المسيح في داخلنا أن يكون نشيد حبّ يتصاعد نحو الآب. الروح هو، في كلّ وقت وكلّ ظرف، منبع صلاة المؤمنين، يلهم تنوّع صلواتهم من شكر، (أفسس 6 :18) و(كولوسي 4 : 2) وتسبيح، وتوسّل، واستغاثة.

عندما يصلّي بولس، وسواء كانت صلاته شكراً، أو توسّلاً أو تضرّعاً، فهي دائماً تسكنها أفراح رسالته وأحزانها. غير أنّ الشكر يحتلّ منها الحيّز الأكبر. فهو عندما يجيل نظره، على ضوء قيامة المسيح، في تاريخ الخلاص، وفي عمل اللّه في حياته الخاصّة، وحياة إخوته، لا يكفّ يدهش حيال المغامرة الروحيّة والإنسانيّة الرائعة التي اتّخذ الآب مبادرتها، وكان لها المسيح الوسيط غير المنتظر. وبالمسيح، ومعه، وبالاتّحاد به، تتصاعد كلّ صلاة مسيحيّة نحو اللّه. وبولس يصلّي من أجل اليهود الذين اهتدوا إلى المسيح، واليهود الذين رفضوه علّهم يرعوون وينالون الخلاص؛ ويصلّي من أجل الوثنيّين الذين آمنوا بالمسيح، أوالذين يرجو إيمانهم به. وعلى المسيحيّين أن يصلّوا في كلّ وقت، وكلّ مكان، من أجل جميع البشر بلا استثناء.

الصلاة المسيحيّة ليست تخاذلاً واستسلاماً، بل هي ضربٌ من التعاون مع اللّه، إله لا يحلّ محلّ الإنسان في مسؤوليّاته، ولكنّه يلهم أعماله، وينيرها، ويدعمها.

لقد اكتشف بولس أَنّ اللّه حبٌّ خلاّق يبنينا، ويكملنا، ويصوغنا، ويخلقنا بحبّ؛ إِله لا يسلبنا حرّيّتنا أَبداً. وهو لا يكفّ يردّد أَنّ من يثابرون على الصلاة بلا كلَل، يستمدّون منها الرجاء والفرح، والجلَد في المحن.

الصلاة تنمّي الحبّ، وهي نبع المعرفة الحقّة والتمييز الروحيّ.

و يدعو بولس إِخوته إِلى انتباذ كلّ قلق، وإِلى بسط احتياجاتهم بين يدي اللّه، في صلاة واثقة (فليبي 4 : 6)

و لا يفصل بين الصلاة وخدمة الآخرين.

إِنّ الصلاة، لكلّ مسيحيّ، هي السلاح في مواجهة القوى المعادية، داخليّة وخارجيّة، ولذلك يلتمس من إِخوته أَن يصلّوا من أَجل رسالته، فعلى صلاتهم يعتمد خصبها.

و ليس سؤال الصلاة مساومة مع اللّه كي ننتزع منه ما لا يستحسن منحنا إِيّاه، بل هو جاهزيّة لتقبّل ما يرغب هو في منحنا.

ليست الصلاة وقفاً على النسّاك، بل هي بعدٌ أساسيّ من حياة كلّ مسيحيّ، أَيّاً كان نمط حياته، وأَيّاً كان مركزه.

و الصلاة عامل بناء، ولذلك يقاوم بولس الصلاة بلغاتٍ غريبة لا يفهمها الحاضرون، ولا تفضي إِلى بنائهم.

دعوة الإِنسان هي أَن يصبح هيكلاً يقيم اللّه فيه، فيصبح قلب المسيحيّ مسكن الثالوث. إِذ عندما يصلّي، وهو منفتح على الروح، يستطيع سماع همس اللّه، وتقبّل روح المسيح الحيّ، والمشاركة في الحوار الأَبديّ بين الآب والابن.

من خلال الصلوات الشخصيّة، والجماعيّة والطقسيّة، على حياة كلّ مسيحيّ، بما هو عليه، وبما يفعله، أن تصبو إِلى أَن تصبح عبادة روحيّة للّه. وبولس نفسه كان يشعر أَنّ جهده الرسوليّ في ذاته إِنّما كان عبادة.

قدرة اللّه في ضعف الإِنسان

لم يكن بولس سهل المراس في حياته اليوميّة، وكانت عيوبه بمستوى خصاله الرفيعة. وكان يشعر دائماً بالهوّة بين الرسالة التي أوكلها إِليه المسيح، وقدراته الإِنسانيّة. ولكن الربّ أوحى له أَنّ قدرة اللّه تتجلّى من خلال وهن الإِنسان.

إِنّ " الشوكة في الجسد " التي مُني بها، كانت هي الدلالة على أَنّ الربّ كان يعمل من خلال رسوله. وما بدا لبولس، أوّلاً، عائقاً دون نشاطه الرسوليّ، أَصبح أَحد شروطه، إِذ إِنّ قدرة اللّه تبلغ ملأها، وتبسط كلّ طاقاتها، محقّقة مشيئته، من خلال حدود البشر وأوهانهم. وما جعله، بادئ الأَمر، يشكّ في ذاته وفي رسالته، بات عامل مزيد من الثقة في اللّه والشكر له: " فبكلّ سرور، إِذن، أفتخر، بالحريّ، بأوهاني، لتستقرّ عليّ قوّة المسيح. أجل، إِنّي أُسرُّ بالأوهان، والإِهانات، والضيقات، والاضطهادات، والشدائد من أَجل المسيح، لأَنّي متى ضعفت فحينئذٍ أَنا قويّ." (2 كورنثس 12 : 9 – 10)

كان الربّ قد قال لحنانيا بشأن بولس : " سأريه كم عليه أَن يتألّم من أَجل اسمي ". وقد أورد بولس نفسه ثبتاً ببعض ما تحملّه من محنٍ جسديّة، وتعب، وسجن، وجلد بالسياط، وغرق، وسهر، وجوع وعطش وعري وبرد، ومن أَخطار لم تأتِه فقط من الوثنيّين واليهود، بل أَيضاً من " الإِخوة الكذبة "، المسيحيّين المتهوّدين، الذين ما انفكّوا يقيمون في وجهه العقبات، ويزرعون الفرقة بين الجماعات المسيحيّة. لقد اتّسم العديد من مراحل رسالة بولس بآلام الفشل، والاضطهاد، والحرمان التي قاساها في سبيل الإِنجيل، ناهيك عن آلام المرض التي قلّما هادنته.

فغالباً ما كانت تعقب نجاح تبشيره الأوّل مشاعر الحسد، وانعدام الثقة، والرفض والعداء؛ وغالباً ما طُرد، وجُلد، ورُجم أَحياناً، حيث بشّر، وقلّما غادر طوعاً، ومن غير عَنَت، المدن التي بشّر فيها. وأَدهى من ذلك كلّه كان الرفض العنيد لتبشيره، كذاك الذي قابله في أَثينا، فوسمه في العمق، وانحفر، في ذاكرته، أَلماً مقيماً.وبنفس القدر آلمه ترجرج إِيمان بعض أَبنائه وانسياقهم إِلى وسوسات المتهوّدين الذين ناصبوه مقاومة لا هوادة فيها، ممّا جعله يكتب بلوعة إِلى الغلاطيّين : "إِنّني لمتعجّب من تحوّلكم السريع عن الذي دعاكم بنعمة يسوع، إِلى إِنجيل آخر. "

و هل ننسى الرسالة التي كتبها " في الدموع " إِلى الكورنثيّين وما لقي، هو ومندوبه تيطس، من إِهانة ألحقها بهما بعضهم ؟ ومع ذلك لم يتخلّ عنهم، بل أَنفذ إِليهم رسالة أُخرى

كتبها " في كآبة شديدة، وكرب القلب، وفي دموع كثيرة، لا لتغتمّوا، بل لتعرفوا ما عندي من فرط المحبّة لكم". وكم نمّت تلك الرسالة عن عمق جرحه !

و كم تعرَّض لنقمة الجماهير الهائجة، وللسجن والتعذيب، وللمخاطر من كلّ لون، وللتشرّد والحرمان !

كلّ ذلك لم يُرده بولس، ولكنّه تقبّله على أنّه أحد أبعاد التبشير بالإنجيل وشروطه، فتجربة الصليب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتجربة الإنجيل. وقد تعلّم قراءة الألم على ضوء حبّ اللّه، الذي لا يقوى شيء على تفريقه عنه. لا بل إنّه بات يرى، في الألم، عنصراً من عناصر التمثّل بالمسيح، والمساهمة في عمله الفدائيّ : " إنّنا نحمل، في الجسد، كلّ حين، موت يسوع كي تظهر حياة يسوع، أيضاً، في جسدنا ". فالألم يقرّب من المسيح. ومن خلال الوهن والهشاشة تتجلّى قدرة اللّه الكلّيّة.

لقد خبر بولس أنّه، كلّما افتقر إلى كلّ عونٍ بشريّ، كانت تحلّ عليه قدرة المسيح، ويتحوّل ضعفه إلى قوّة. كان يضطلع بمهمّة ليس هو المبادر بها، وتتخطّى طاقاته، فبشرى الإنجيل كنز كان يحمله في آنية خزفيّة، ولطالما تكاتفت قوى الشرّ على محاولة تحطيمها، ولكنّها صمدت، وانتشرت البشرى " لكي يتّضح أنّ هذه القدرة الفيّاضة هي للّه وليست منّا " (2 كور 4 : 7)

و قد أظهر الربّ تفوّق قدرة " الوهن " الذي يسانده اللّه، على قوّة العالم، إذ أتاح لحفنة من التلاميذ اعتبروا " أقذار العالم ونفاية الناس"، التصدّي لجبروت الإمبراطوريّة الرومانيّة؛ ودعم الربّ رسوله باختطافه إلى السماء الثالثة وإسماعه كلمات تفوق الوصف.

و ما هذه القوّة الإلهيّة التي تتجلّى من خلال الوهن البشريّ والفشل إلاّ مشاركة في سرّ صليب يسوع. فهذه المشاركة ليست استسلاماً وبيلاً للألم والموت، بل هي وعيٌ نيّر ورجوليّ لشريعةٍ راسخة، شريعة الخليقة الخالدة التي شبّهها يسوع بحبّة الحنطة التي إن لم تمت ظلّت عقيمة، أمّا إذا انغمست في التربة وماتت فهي تأتي بغلالٍ وفيرة.

صحيح أنّ الرسالة تحتاج إلى فهم راعويّ وتضحيات، ولكنّها ليست مشروعاً بشريّاً فحسب، بل هي تعاون مع من هو النبع، والديناميكيّة، وغاية تاريخ الخلاص.

يسوع يقول : " بدوني لا تستطيعون شيئاً"، وبولس يضيف : " أستطيع كلّ شيء بمن يقوّيني ". تاريخ رسالته كلّه كان مزيجاً من تواضع وجرأة. وقد شبّه رسالته بالكفاح والصراع، غير أنّه لم يلتمس من هذا الصراع نصراً بشريّاً زائلاً، أو إكليل غار، بل توخّى، دائماً، تحقيق الرسالة التي انتدب لها، ومن ثمّ المشاركة في حياة المسيح الناهض من الموت ومجده. وما أسلحته سيف ولا حربة، ولا قوّة بشريّة، بل قوى " روحيّة ". وجدواها نابعة من

اللّه، لا من طاقات بشريّة. " لأَنّ أَسلحة حربنا ليست بجسديّة، بل هي قادرة على هدم الحصون" (2 كور 10 : 4)

و هو يشبّه الحياة المسيحيّة بصراع يقتضي خصال الجَلَد، والتضامن، وغالباً ما يدعو رفاقه إِلى خوض مثل معركته، معركة الإِيمان والوفاء لإِنجيل يسوع"، غير متخوّفين، في شيءٍ، من الذين يقاومونكم : إِنّ في ذلك دليل الهلاك لهم، والخلاص لكم، وذلك هو من اللّه " (فيليبي 1 : 28)

و بفضل من قوّاه استطاع بولس أَن يعلن في غروب حياته : " لقد جاهدت الجهاد الحسن، وأتممت شوطي، وحفظت الإِيمان " (2 تيموثيوس 4 : 7)

ليت كلّ رسول يستطيع أَن يردّد قول بولس هذا.

يسوع وبولس

لا يمكن تفسير بولس إلاّ بهواه ليسوع، الذي مذ غمره بنوره، في دمشق، استحوذ على كلّ كيانه، وبات هو من يحيا فيه، وأمسى بولس، يرى كلّ شيء من خلاله، وبه يعمل ويتحرّك، وكلّ يوم يتوغّل أبعد في معرفته واستجلاء أسرار حبّه، منقاداً لروحه، ومتجّدداً به. بحبٍّ ورفق دأب يسوع على إعادة صوغ بولس على صورته، وباندفاع مضطرم، وسخاء غير محدود، انبرى بولس لتعريف العالم بيسوع وحبّه، ولنشر إنجيله.

الإنجيل هو دعوة يسوع إلى البشر أن " تصالحوا مع اللّه ". وحيث يُقبل عرض النعمة هذا، يحلّ الخلاص، ويتحرّر البشر من الخطيئة والموت، ويرجون الحياة. وأساس هذا العرض هو عمل اللّه من خلال ابنه الذي جعله " من أجلنا "، "برّاً، وقداسة، وانعتاقاً "، بتجسّده، وموته على الصليب، وقيامته، وبمنحه المؤمنين روحه.

" يسوع المسيح "، " الربّ " الذي هبط كوكبنا، هو مركز الإنجيل الذي يحكم مصير البشر، وكلّ خليقة. إنّه، بكلّ تاريخه، تجسيد لمشيئة اللّه المحبّة، منذ الأزل.

الحياة التي فشلت، وفسدت، واستحقّت الغضب والإدانة، تلقّت مصيراً جديداً، لأنّ اللّه، بيسوع، ظلّ مرتبطاً بالعالم، في يسوع، من أجل خلاصه.

ذريّة آدم الخاطئة كان محكوماً عليها بالموت، ولكن يسوع جعل منها خليقة جديدة، فلم يعد تاريخ البشر تكراراً لآدم في أبنائه، بل أمسى بدءاً جديداً، من جرّاء النعمة التي تجسّدت في المسيح، أمسى تاريخ خطأة مسامَحين حاصلين على نعمة الخلاص.

و بعد أن اتّضحت هذه الأمور لبولس، أضحى هدفه الأوحد ألاّ يعرف إلاّ يسوع، لا بل يسوع مصلوباً، وأن يجعل كلّ فكر أسير طاعة يسوع ومعرفته. وبالقياس إلى هذه المعرفة الفائقة، بات بولس يعدّ كلّ شيء خسارة، وقذارة، وتخلّى عن كلّ ما سواه، ولم يعد له من هدف سوى كسب يسوع.

و لا مراء أنّ تعليم بولس قد أسهم إسهاماً جليل الشأن في نشر المسيحيّة، وقد جاء من ادّعى، بهتاناً، أنّ فكر بولس كان مستقلاً عن المسيحيّة القائمة، وأنّه " ابتدع " مسيحيّة مختلفة، واصطنع صورة للمسيح تتعارض مع صورته الواقعيّة.

و الواقع أنّ بولس الذي لاشى ذاته كي يعيش يسوع فيه، والذي ذاب في يسوع، لم يكن له من مرجع سوى يسوع، ولم يكفّ عن التأكيد أنّه صنيعته، وخاضع لصوته الذي يرسم له مسيرته.

لم يعلّم بولس إلاّ ما علّمه يسوع، ولكن بتعابير مختلفة. فملكوت السماوات الذي أعلنه يسوع، هو التبرير بالإيمان الذي أعلنه بولس، وفي كلتا الحالتين، الربُّ هو الذي يبادر إلى الخلاص، ويلهم حياة الإنسان. ويلتقي يسوع وبولس حول مبادئ السلوك المسيحيّ، التي أرسى يسوع أسسها في عظته على الجبل، حيث حذّر من جرح مشاعر الغير، وإلى مقابلة الشرّ بالخير، ومحبّة العدوّ، والصلاة من أجل المضطهِدين.مبادئ أخلاقيّة لم يُسمَع قطّ بمثلها، وتمضي إلى أقاصي الحبّ، مسجّلة لا نهائيّة رغبة اللّه في حياة البشر. هذه المبادئ لم يكفّ بولس عن تأكيدها من خلال رسائله، وتمثّلت ذروة هذه المحاولة في نشيده الشهير للمحبّة.

و لا ريب أنّ شخصيّة بولس الجمّة، وعمق فكره اللاهوتيّ، وخصب نشاطه الأدبيّ، ومتانة خبرته الروحيّة، قد دمغت الجيل المسيحيّ الأوّل؛ وأنّ نسجه شبكة جماعات مسيحيّة تغطّي نصف الإمبراطوريّة الرومانيّة، قد أسهم في ترسيخ مفاهيم لاهوتيّة استوحاها من إنجيل يسوع، وأتاحت للكنيسة، فيما بعد، التعبير، بها، عن عقائدها.

و من المؤكّد أنّ نشر المسيحيّة، وتعميم تعاليم يسوع، لم يكونا شأن بولس وحده، فهو، ربّما أكثر من أيّ سواه، آمن بأنّ الرسالة ليست عمل فرد، بل هي حدَث جماعيّ، وقد نشأت من تفجّر الروح القدس في قلوب مؤمنين عديدين، ومنذ البدء توخّت التعدّديّة.وقد عمل، قبله، رسُلٌ آخرون على ترسيخ تسمية يسوع بالربّ، وعمّموا تعليم "الروح القدس" ومبدأ " الفداء " بيسوع، والصليب كأداة خلاص. وكانت كلّ تلك المفاهيم شائعة، خاصّة، في جماعة أنطاكية.

غير أنّ عبقريّة بولس الفذّة، ونفوذه البعيد الغور، قد أضفيا على هذه المفاهيم عمقاً، ورسوخاً، وتألّقاً، وانتشاراً. ولئن اتّصف تعليم بولس بهذا التميّز، فلأنّ يسوع نفسه، المصلوب الممجّد، ظهر له ظهوراً خاصّاً، وكشف له، في نورٍ باهر، سرّه، وأخصب فكره بغنى هذا السرّ.

لقد كانت المسيحيّة قائمة وراسخة قبل بولس، وكان لها زعماؤها : بطرس ويوحنّا ويعقوب في أورشليم، وبرنابا في أنطاكية، ولم يكن أيّ تعارض أو تباين بين تعليمهم وتعليمه، وإلاّ لكانوا نبذوه. وعندما بذّهم جرأة في تنفيذ تعليم يسوع بكلّ حذافيره وبأصالة روحه، محطّماً القيود اليهودية التي كانت ما تزال تحجب عنهم جدّة هذا الروح، لم يستطِع أركان الكنيسة سوى تأييده، لأنّ تعليمه وسلوكه كانا نابعين من صميم الإنجيل ومن فهمه الصحيح له.

لا ريب أنّ، ثمّة، تبايناً بين لهجة رسائل بولس ولهجة الإنجيل، فالإنجيل مغرق في البساطة والوضوح والشفافية، ويحمل دمغه الإلهيّ، في حين أنّ رسائل بولس تتّسم بالجهد في التفسير والتحليل، اللّذين كان لا بدّ منهما من أجل استنباط الكنوز اللاهوتيّة الكامنة في تعليم

يسوع؛ فضلاً عن أَنّ الخطاب الموجّه إِلى قومٍ جليليّين بسطاء، يختلف، بالطبع، عن خطاب موجّه إِلى مثقّفين يونانيّين جعلوا من الجدَل الفلسفيّ ديدَنهم. لقد عكف بولس على توضيح التعليم المسيحيّ، وازدهاره، وإِغنائه، ولكنّه لم يحِدْ، قيد أنملة، عن تعليم يسوع الأَصيل. وفي صميم رسالته وتعليمه الذي يتخطّى كلّ فلسفة، تكمن حقيقة واحدة، وهي التي بها سيتحوّل العالم، حقيقة يسوع المصلوب.

و لا بدّ من التنويه بأَنّ اثنين من الإِنجيليّين الأَربعة، هما لوقا، ومرقس، كانا معاونين لبولس. ولوقا الذي واكب بولس في مراحل عديدة من مسيرته الرسوليّة، وأَرّخ لهذه المسيرة في سفر أَعمال الرسل، ولخّص أَقوال بولس وأَفكاره، وربّما أَسهم في تدوين بعض رسائله بكلّ ما انطوت عليه من نتوءات، وعمق، وصعوبة أَحياناً، هو نفسه دوّن الإِنجيل الثالث، فيما بعد، ببساطته الإِلهيّة المدهشة، وفي معزل عن أَيّ تعارض بين السفرين اللّذين يوضحان بجلاء أَنّ يسوع وحده هو الأَساس والمرجع.

و قد أورد الإِنجيليّ يوحنّا قول يسوع : " قلت لكم هذه الأَشياء، وأَنا مقيم معكم؛ وأَمّا المعزّي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو الذي يعلّمكم كلّ شيء، ويذكّركم بجميع ما قلته لكم ". وقد اختار الروح بولس لهذه المهمّة، اختاره من بين كثيرين أوفر منه جدارة، فظلّ بولس، أَبداً، واعياً لثقل المهمّة، شاكراً للربّ، اختياره، دائباً على أَن يردّ له حبّاً بحبّ، وعطاءً بعطاء، بلا تحفّظ ولا وجل.

في مركز رؤية بولس يستقرّ يسوع،

" الذي هو صورة اللّه الغير المنظور،

المولود قبل كلّ خلق،

إِذ به خُلِق جميع ما في السماوات، وعلى الأَرض، مايُرى وما لا يُرى، عروشاً كان أم سيادات، أم رئاسات أَم سلاطين؛ به وإِليه خُلق كلّ شيء، وفيه يثبت كلّ شيء " (كولوسّي 1 : 15 – 17)

له يجثو كلّ ما في السماء وعلى الأَرض وفي الجحيم، وفيه يُختَزل الكون كلّه؛

و مع ذلك هو إِنسانٌ حقّ، مولود من امرأة، ولكنّه، بصفته إِنساناً، آدم جديد، جاء ليصلح ما أَفسده آدم الأَوّل، ويوفّر التبرير والقيامة للبشر أَجمعين، بلا تمييز، مدمّراً جدران الفرقة والبغض بين الشعوب، ومعلّقاً الشريعة على الصليب.

و يسوع لم يتجلَّ بصفته سيّد الحقيقة، ولا زعيماً وديّاناً فحسب، وهو الذي اعترف: "لم آتِ لأَدين، بل لأُخلّص"؛ ولم يكتفِ بمنحنا معونات إِلهيّة كي يرفع طبيعتنا إِلى مستوى الفائق الطبيعة،

بل، هو الحقيقة، وليس فقط من يعلّمها،
و هو الطريق، وليس فقط من يهدي إِليه،
إِنّه الحياة، وليس فقط واهبها،
إِنّه النور، وليس فقط حامله.

إِنّه الكاهن والضحيّة، إِنّه الابن وكلمة الآب؛ ويبتغي أَن يكون كلّ ذلك فينا، إِن نحن ارتضينا أَن نكون فيه، ونأكله، ونبشّر به، ونقيم فيه، ونجعل من ذواتنا مسكناً له. إِنّه يريد أَن يكون فينا تفجّر حياة، وتعبيراً إِلهيّاً عن مكانته في قلب الآب.

إِنّه وحيد الآب، والأوحد الضروريّ لكلّ إِنسان، ففي معزل عنه، لاخلاص ولا قداسة، وهذا ما أَدركه بولس منذ البدء : أَنّ المسيحيّة ليست تعليماً بل هي " المسيح حيّاً في أتباعه الذين هم، حقيقة، مسيحيّون "

بولس يقدّر كلّ ماهو " جميل، وَرِع، طيّب ونبيل " على ألاّ يدّعي أيٌّ من هذه الفضائل الحلول محلّ المسيح، أو الانتقاص من دوره الذي ينبغي أَن يظلّ كاملاً ومسيطراً : "إِنّني لا أَعرف إِلاّ المسيح "، "المسيح يوجز في ذاته كلّ شيء"، " فيه يقوم كلّ شيء، الماضي والحاضر والمستقبل، والسماء والأَرض".

يسوع هو الإِنسان الكامل الحقّ، المنزّه من الخطيئة؛ غير أَنّه مثقل بخطايا العالم. إِنّه " الإِنسان "، عبره تتجلّى الإِنسانيّة مجرّدة، مثلما تتجلّى منتصرة على الموت، من خلاله تظهر بشاعة الخطيئة، وتتألّق روعة الخلاص والانبعاث.

إِنّه ربيع الإِنسانيّة، وحياة أَبديّة وإِلهيّة، وقد استقرّ في صميم البشريّة، واهباً الحياة لمن يتّحد به. وحضوره فيها إِلهاً إِنساناً، شطر تاريخها إِلى عهدين : عهد ما قبل التجسّد وما بعده.

إِنّه ينتصب في مركز البشريّة، رابطاً الماضي بالمستقبل، ومسبغاً على الزمن معنى مدّة تنساب ولا تمضي.

بفضله نشارك في كرامته، فهو امتلاءٌ من أَجلنا.

حياتنا الأَخلاقيّة، مهما سمت وتصوّفت، لا معنى لها إِلاّ في علاقة معه. إِنّها حياة يسوع فينا، فنحن لا نعيش فقط مثل المسيح، بل نعيش فيه وبه. الكمال هو كمالٌ فيه، والفسق شرّ لأَنّه يدنّس أَعضاء المسيح المتمثّلة في أَجسادنا.

يسوع، في نظر بولس، هو البداية والنهاية، وهو اللّه عينه بكلّ امتلائه، وفي معزلٍ عنه لا يوجد سوى الضلال والعجز.

و من آمن بيسوع اغتنى بكلّ ثروات اللّه، وما انفكّ يتوغّل في اكتشاف كنوزه، ومعرفته، والنموّ فيه روحيّاً.ومعرفة اللّه ليست " فهمه "، وحبسه في صيغٍ، وتحديدات، وصُوَر، بل، اختباره بالتجربة الشخصيّة، والولوج الحميم إِلى صميم سرّه، وما سرّه إِلاّ يسوع الحيّ، الكائن المحيّر الساحر، الإِله والإِنسان، اللّه في قلب البشريّة، والبشريّة متّحدة باللّه. وهذا السرّ المعتلن لا يشير فقط إِلى المسيح التاريخيّ " حسب الجسد "، بل إِلى يسوع قاهر الموت، " الحيّ فينا "، الذي سيغمر بحضوره حياة جميع البشر اليوميّة، وتاريخ جميع الشعوب.

لقد سرى نَفَس يسوع عبر بولس، والنار التي أَضرمها الربّ فيه، على مشارف دمشق، هي التي كوّنت لاهوته، وخلّفت، في نفسه، طعم المطلق.

و قد أَضحت لنا حياة بولس الضاجّة بهوى المسيح السامي إِيقونة ليسوع.

باسم قِيَم الشريعة صُلِب يسوع، وباسم هذه القيَم عينها اضطهد شاول أَتباع المصلوب.ولم يكن ظهور المصلوب له، قاهراً الموت وممجَّداً، سوى الدليل على أَنّ القيّمين على الشريعة قد خانوا روحها، وحوّلوها، جيلاً إِثر جيل، إِلى كتلةٍ متشابكة من الفرائض الخارجيّة، والفتاوى التي أَغرق الكثير منها في السخف؛ وإِلى احتكار اللّه من قبل فئة قائمة على العنصريّة والأَنانيّة، ووهم التميّز، حاقدةٍ على الغير مزدرية لهم، لا تتحرّج من عدّهم غير جديرين باللّه، ومن التآمر عليهم، في سبيل سلبهم أرضهم وكرامتهم وكلّ ما يسعها استلابه منهم.

و على ضوء نور الربّ الساطع، تبيّن بولس أَنّ يسوع إِنّما جاء لكي يقوّم هذا الاعوجاج، ويسلّم كرمه لقوم يحسنون العناية به، وأداء أَجره، إِذ إِنّ الذين كانوا يتولّونه، استثمروه لمغانمهم الشخصيّة الأَنانيّة، ولم يتورّعوا عن قتل ابن مالكه، كي يستأثروا به. واتّضح أَنّ الذين أوتوا الإِيمان باللّه الواحد قد شوّهوا هذا الإِيمان بسلوكهم البعيد عن حبّ اللّه لخليقته، وبانغلاقهم على عنصريّتهم، وبُغضهم لسائر الخلق أَجمعين، واقتصارهم، من الدين، على مظاهر لا روح فيها، وعلى ممارسات هي أَقرب إِلى عبادة أوثان؛ فأَحكموا تنظيم أَدقّ تفاصيل الأَكل والشرب والاغتسال، ولكنّهم أَغفلوا الروح والمحبّة، وعبدوا جماعتهم، ومقتنياتهم، وظلّوا يضحّون على هيكل صنم ثورهم الذهبيّ.

طُلب منهم تعريف العالم بالخالق المحبّ لخليقته، ولكنّهم أَظهروه إِلهاً شرساً منتقماً، متحيّزاً يحرّض فئةً من أَبنائه على الآخرين، ويسبغ عليها الامتيازات لكي تمعن في تدمير الآخرين وإِبادتهم.

و ظهر يسوع لشاول الذي كان أَداة تدمير ممتازة، بيد دهاقنة الشريعة، فجعله يدرك مدى تشويهه، هو وأَسياده، لصورة اللّه.

و ما إِن انفتح قلب بولس على حقيقة ابن اللّه، حتّى تلقّى منه تكليفاً بنشر معرفته وحبّه بين الأُمم الوثنيّة، وأَكّد له هذا التكليف مرَّةً إِثر مرَّة، مثبتاً أَنّه إِله البشر أَجمعين، المعنيّ بجميع خلائقه، والمساوي بينهم بحبّه، والذي تجسّد وصُلب وقام لكي يقود جميعهم إِلى الخلاص من غير ما استثناء ولا تمييز.

لقد أَدرك بولس بجلاء أَنّ عهداً جديداً انبلج كالفجر النقيّ، عهد حبّ، ومساواة، وانفتاح، وصفح، ومسامحة وتآخٍ، جعل من العهد القديم ليلاً قاتماً غارقاً في عتمة مريعة.

فالشريعة، بحكمها بالصلب المهين على ابن اللّه مخلّص البشر، قد حكمت على نفسها بالبطلان والزوال، وبرفضها النور المشرق، قضت على نفسها أن تموت في ظلامها وتيهها.

كان يسوع قد أشار، في مناسبات عديدة، إلى تلاميذه، بأنّ مجيئه إنّما هو إيذان بعهد جديد، وإيمان جديد، ومناقب جديدة، ورؤية قشيبة إلى اللّه وإلى أبنائه.وقد اختار عدداً منهم ممّن سيُسند إليهم أدواراً رياديّة، كي يشهدوا تجلّيه ويسمعوا بآذانهم إعلان الآب، بحضور ممثّلي العهد القديم، موسى وإيليّا، أنّ يسوع هو ابنه الحبيب، وأنّ عليهم أن ينسوا كلّ ما تعلّموه من قبل، لأنّ يسوع هو المعلّم، وله ينبغي الاستماع، وبهدي تعليمه يتعيّن السلوك.

و قد علّم يسوع المحبّة الشاملة، والمساواة بين البشر، والصفح، والعدل، مؤكّداً أنّ وليمة الآب مفتوحة لكلّ ضيف، وكلّ جائع، وأنّ الإيمان هو روح، وعمل تحدوه المحبّة، وليس مظاهر كاذبة تزخر بالرياء؛ وأنّ عبادة اللّه باتت متاحة لكلّ إنسان، في كلّ مكان.

و ما انفكّ يؤكّد أنّ ما قيل للأقدمين قيل لحقبةٍ مضت واندثرت، أمّا هو فيقول ما لم يُقَل من قبل، وما ينبغي أن يصبح منهاجاً للعهد الجديد، الذي استُهلّ بمجيئه. وقد أنذر تلاميذه بتعذّر التوفيق بين العهدين، فالثوب العتيق تفضح عتقَه الرقعةُ الجديدة، والزقاق العتيقة تفجّرها الخمرة الجديدة، فتتلف جميعها.

هذه الجدّة لم يستوعبها تلاميذ يسوع الأقربون إلاّ ببطء؛ غير أنّ بولس أدركها بعمق منذ ظهور يسوع له، ولا عجب إن أسند إليه الربّ تبشير الأُمم الوثنيّة به. وتلقائيّاً شرع بولس يبشّر، وهو متحرّر تحرّاراً تامّاً من كلّ قيود الشريعة، ومن مخلّفات العهد القديم، مستقبلاً في أحضان الكنيسة، بلا تحفّظ، كلّ من آمن بأنّ يسوع هو ابن اللّه، واعتمد تائباً عن خطاياه، وارتضى أن يلتزم تعاليم المحبّة والطّهر. أمّا عندما كان يخاطب اليهود، فكان يثبت لهم، بلا وَجَل ولا تردّد، وبالرجوع إلى الأنبياء، أنّ يسوع هو، هو، المسيح المخلّص، الذي انتهت بمجيئه الشريعة.

غير أنّ العنصريّة المتحكّمة بمفاهيم اليهود، وتطلّعهم إلى مسيح محارب، فاتح، يحقّق لهم إحكام السيطرة على العالم أجمع، قد منعاهم من رؤية حقيقة الخلاص، والإفادة من نعمته. وقد اقضّ مضاجعهم إقبال الوثنيّين على الدين الجديد، وكانوا محقّين في ذلك، فالمسيحيّة قد غشت المسكونة، منتشرة انتشار النار بالهشيم، في غضون بضع مئات من السنين، وطبعت حضارات العالم بميسمها المبارك، في حين ظلّ اليهود، بعد آلاف السنين، فئة منكمشة على ذاتها تجترّ وهم امتياز بات باطلاً، ووعدٍ أفرغته من فحواه.

و قد دأب على مناهضة بولس أيضاً، وعلى انتقاد تبشيره، فئة حاقدة ضالّة من المسيحيّين، الذين، مع إيمانهم بيسوع، لم ينعتقوا من سطوة اليهوديّة، وظلّت الشريعة ترين

بمعطفها الرصاصيّ، على عقولهم ونفوسهم؛ فراحوا يروّجون أنّ لا مسيحيّة صحيحة من غير التزام بفرائض الشريعة، وأهمّها الختان، وبما أنّهم كانوا يتصرَّفون، وكأنّهم مفوّضون من قبل يعقوب والرسُل، حرص بولس على إيضاح الأمور، مرَّة ولكلّ مرَّة، وعلى تأكيد استقلال المسيحيّة، استقلالاً تامّاً، عن اليهوديّة وشريعتها، وعلى إبراز وجهها الخاصّ، وهو وجه يسوع، ولا أحد سواه، وتعليمها الخاصّ، وهو تعليم المحبّة، والإخاء والشمول. وانعقد " مجمع أورشليم " بمبادرة من بولس، وبما أنّ الرسل الذين شاركوا فيه كانوا من الذين شاهدوا تجلّي يسوع، وسمعوا الآب يفوّضه بالتعليم دون سواه، لم يكن بوسعهم إلاّ تأييد موقف بولس الذي لم يكن سوى انعكاس لموقف يسوع، والنتيجة العلميّة لتعليمه، ومدّوا له يمنى المباركة والمشاركة.

و من الحجج التي أدلى بها بولس :

1 – أنّ الإيمان ليس نتيجة ممارسات خارجيّة، بل هو نعمة من اللّه تقدّس من يقبلها ويسلك بهديها؛ وخير دليل على ذلك إبراهيم أبو المؤمنين الذي آمن، ونعم بخيرات الإيمان، مع أنّه لم يعرف الشريعة.

2 – الشريعة التي أُعطيت للأقدمين كانت لهم بمثابة " مربّ " وهو الأجير الذي يرافق التلميذ إلى المدرسة ويعود به إلى البيت، ويسهر على تعلّمه، إلى أن يشتدّ عوده. وهذا الدور المؤقّت للشريعة قد انتهى بحلول ملء الزمان، ومجيء المخلّص.

3 – الشريعة أنزلت بذاتها على ذاتها حكم الموت لأنّها رفضت خلاص المسيح وصلبته.

4 – تعليم يسوع روح، وحرّيّة، وحبّ، ومساواة، وانفتاح على العالم أجمع، ولا يمكن أن يتماشى مع الحرف القاتل، وروح الانتقام، وادّعاء التفوّق، وحصر الوعد في أرضٍ وممتلكات.

لقد حارب بولس الشريعة لأنّه رأى فيها هويّةً مغلقة مرشّحة لأن تنقلب هويّة قاتلة، بسبب رفضها الآخر المختلف وسعيها إلى إزالته وتصفيته، على نحو ما فعل بولس نفسه عندما كان عبداً للشريعة. وهو بذلك، دعا إلى هويّة مفتوحة مشرعة على البشر أجمعين، لكونهم، جميعهم، أبناء اللّه، هويّة محبّة، لأنّ الربّ الذي يحبّ بالتساوي أبناءه أجمعين، يدعوهم إلى أن يحبّ بعضهم بعضاً.

5 – الختان الذي كان يُعدّ علامة الانتساب إلى الربّ، استعيض عنه بالعماد وحلول الروح القدس، فالربّ ربّ الأرواح والنوايا، لا ربّ الأجساد، ولا يفرّق بين إنسانٍ وإنسان إلاّ بإيمانه، و" إن كان الروح هو الذي يقودكم، فلستم بعد، في حكم الشريعة "

6 – بمجيء يسوع المسيح، اكتمل كلّ شيء؛ فكيف يُلتمَس الناقص، والمؤقّت، والزائل، بعد أَن تحقّق الكامل، الدائم، الأَبديّ ؟ إِنّ من يشترط الختان والتزام الشريعة، من أَجل الانضواء إِلى المسيحيّة، إِنّما ينتقص من قيمة الصليب وفداء المسيح. ومن المحقّق أَن نفسه لم تستتر، بعد، بالإِيمان.

7 – الشريعة عرَّفت الإِنسان بالخطيئة، وحذّرته منها، ولكنّها لم تهبه القدرة على مجابهتها والتغلّب عليها، فباتت، في واقع الأَمر، مدرجة إِلى الخطيئة. أَمّا الإِيمان فيهب النعمة للنهج بهديه، والتغلّب على الخطيئة.

كلّ هذه الحجج، على وضوحها، وقدرتها على الإِقناع، لم تفلح في ردع جميع المتهوّدين الذين ظلّوا، إِلى حين، يحيكون لبولس الدسائس ويجهدون في استجرار المؤمنين إِلى شباك الشريعة، وفي اغتيال الحرّيّة التي جاءهم بها الإِنجيل.

و من عجبٍ أَنّ لهؤلاء المتهوّدين أَحفاداً في عصرنا، ولا سيّما في العالم الغربيّ، ما زالوا يبحثون عن الحيّ بين الأَموات، وعن النور في الديجور، فيما شمس يسوع ساطعة باهرة.

و جدير بالتنويه أَنّ بولس، مع كلّ صلابة موقفه من الشريعة ومن اليهوديّة، لم يضمر أَيّ حقد على اليهود بني قومه، بل لطالما صلّى كي ينقشع الحجاب عن بصيرتهم، فيعترفوا بالمسيح مخلّصهم، وتمنّى لو يُبسل، هو نفسه، لقاء هذه الاستنارة.

بولس إذن، هو أَوّل من اكتنه جدّة المسيحيّة، وتميّزها وغناها، وانتُدب للتعريف بها ونشرها. ولكنّه كُلِّف بالبناء، وهو لا يمتلك سوى موادّ ناجمة عن أَطلالٍ دارسة، تعيّن عليه تنقيتها من عتقها كي يشيد بها صرحاً يضجّ بالقشابة والجدّة.

كان عليه أَن يبني على اليهوديّة التي تشبّثت بحرف شريعة شوّهتها، بما حاكت حولها من تأويلات وتفسيرات أملتها مصالح دنيويّة، وتعصّب متزمّت، كبّلها في قوقعة وعدٍ ظنّته أرضاً وسيطرة، في حين بشّر يسوع بخلاص يشمل البشر أَجمعين بلا تمييز، وينتظمهم جميعاً في الحبّ والمساواة والأخوّة، وبإِيمان قائم على الروح والتحرّر.

و كان على بولس أَن يبني، أَيضاً، على ركام فلسفة أَعلنت إِفلاسها الروحيّ، وحكمة ضلّت هدفها الأَسمى، فلم تتطاول تطلّعاتها إِلى أَبعد من " إِعرف ذاتك " و" كن ذاتك "، ولم يكن اللّه في نظرهما، وفي أَفضل الحالات، أَكثر من شاهد على ما قد يبلغه البشر من فضلية؛ ولكنّ هذه التطلّعات لم تدانِ، قطّ، علاقة صلاة حقيقيّة؛ في حين أَطلق يسوع شعارات: "كونوا كاملين كما أَنّ أَباكم السماويّ هو كامل". و"من أَهلك نفسه خلّصها".

غير أَنّ المسيحيّة قد ورثت، أَيضاً، من الديانات والفلسفات السابقة، الطبيعة البشريّة بحاجتها إِلى الفداء، بفقرها، بعجزها عن خلاص ذاتها، برغباتها الواعية واللاواعية، بنفسها المسيحيّة بالفطرة. وفي تلك التربة كان عليها أَن تنغرس، تربة متعطّشة ومستعدّة لإِنبات المخلّص، حالما تمطر السماء غيثها، وتهب " البارّ ". لقد ورثت المسيحيّة كلّ مكتسبات البشريّة وتقاليدها، التي مثّـــلت كنوزها المبعثرة، فطهّرتها، وسمت بها. لقد ارتقت بالشريعة البشريّة إِلى رتبة الكمال، فلم يعد للحكمة الحقيقيّة، عندما واجهت الكلمة المتجسّد، سوى رغبة واحدة : أَن تفقد ذاتها كي تجدهُ. أَمّا رغبات الفداء والخلود التي كانت تتغذّى بالطقوس السرّيّة والخرافات، فما إِن عرفت الفادي الحقّ حتّى عثرت على ضالّتها فيه.

ليست المسيحيّة، في نظر بولس، مذهباً فلسفيّاً جديداً، ولا هي حكمة من صنع البشر، بل هي " سرّ " وأسلوب حياة. ليست " سرّاً " بالمعنى اليونانيّ، أَي علماً موقوفاً على حفنة من المتنوّرين المحظيّين، يمكّنهم من الاتّصال بالألوهة، بل هو، حدَثٌ غير منتظر، هو يسوع المسيح الذي اعتلن لبولس؛ حدثٌ جمّ، إِذ إِنّ يسوع جاء كي يعلن للبشر حبّه الشامل لهم، وإِشراكهم جميعاً، لا فئة مختارة منهم فحسب، في حياته الإِلهيّة.

هذا الحدَث الجلَل تمّ بمبادرة من اللّه، وكان نعمة منه مجّانيّة. فهو الذي شاء أَن يحيا فينا، بيسوع، ويبعثنا إِلى حياة جديدة. ويسوع مات، طائعاً، تكفيراً عن خطايانا، وقام من الموت من أَجل تبريرنا، وكانت قيامته أَساس إِيماننا.

و سرعان ما تبيّن اليهود، إِثر تبشير بولس، أَنّ يسوع هو أَكبر ممّا توقّعوا وأَنّ تعليمه يخاطبهم، ويخاطب العالم أَجمع، محطّماً جميع الحواجز حتّى أَكثرها قدماً وقداسة، مستبدلاً القديم بجديده، مكملاً كلّ شيء باسم الآب، لا باسم الشريعة، فصُدموا، ودهشوا واستنكروا، وأَعلنوا على يسوع وبولس حرباً شعواء. وانضمّ إِلى اليهود مسيحيّون متهوّدون لم يفقهوا جدّة تعليم يسوع، وما انفكّوا يؤمنون أَنّ الالتزام بالشريعة وفرائضها لا يقلّ شأناً عن الالتزام بإنجيل يسوع.ولم يهن عليهم أَن يلج وثنيّون لم يعرفوا اللّه من قبل، البيت المسيحيّ، من غير أَن يمرّوا برواق اليهوديّة، وينفّذوا بنود الشريعة، ولا سيّما فريضة الختان، فاستنفروا لمقاومة بولس، وحاكوا له الدسائس، وجهدوا في تقويض رسالته، وتسفيه تعليمه. فقد ظلّوا موقنين أَنّ البرّ، في عين اللّه، مرتبط بمدى الالتزام ببنود الشريعة، وحقّ لهم أَن يتساءلوا : إِن كان الوثنيّون يفوزون بالخلاص في معزل عن الشريعة ومقتضياتها، كما يعلّم بولس، فعلامَ الشريعة ضروريّة لليهود ؟ وفي المقابل ظلّ بولس يؤكّد بإِلحاح أَنّ الخلاص ليس ثمرة أَيّ عمل بشريّ، أو طقوس خارجيّة، وأَنّ لا شرط له سوى نعمة اللّه، والإِيمان بيسوع. ولا بدْع، بالتالي، إِن واكبت مسيرته الرسوليّة الصدامات المطّردة مع اليهود والمتهوّدين، وإِن حفلت رسائله بتبيان أَنّ الإِيمان بيسوع قد أَبطل الشريعة، فقد انبلج فجر الواقع، ولا حاجة بعد إِلى الرمز، وجاء المخلّص، فلم يعد للوعد مكان.

و لكنّ القديم، وإِن بلي، يظلّ، أَحياناً، يقاوم. وتيقّن بولس أَنّ التصدّي لتخريب اليهود والمتهوّدين ينبغي أَلاّ يبقى وقفاً عليه، بل لا بدّ من أَن تتّخذ بشأنه الكنيسة كلّها موقفاً صريحاً، ثابتاً، واضحاً، لا لَبْس فيه، ولا تراخٍ، يمثّل تعليمها الرسميّ الملزم، ويبقى نبراساً لأَجيال المسيحيّين. وكان مؤتمر أورشليم، عام 49.

يومها، أَدرك بطرس أَنّ ما سبق له فعله، بإِيحاءٍ من الربّ، يوم عمّد قائد المئة الوثنيّ، كورنيليوس، من غير أَن يخضعه لمقتضيات الشريعة، هو الموقف السليم الذي ينبغي أَن تقفه الكنيسة من الوثنيّين الراغبين في الانضواء إِلى المسيحيّة.وأَدرك أَساطين الكنيسة معه، أَنّ كلّ نهج يخالف هذا النهج، إِنّما هو تعارض مع سلامة العقيدة الروحيّة، إِذ بعد أَن أَكمل يسوع الشريعة، علامَ يلتمس من يمتلك الأَكثر ما هو الأَقلّ، وعلامَ يحتاج من فاز بالكامل إِلى ما هو ناقص ؟

لقد كان، لبولس، الفضل في تجسيد قناعات الضمير المسيحيّ في قرارٍ تخطّت تبعاته أجرأ الأحلام، ومع ذلك أثبت، في الممارسة العمليّة، عظمة الحرّيّة التي كان ينعم بها، وانعتاقه من العُقَد، وتحرّره من حرف أيّ قرار، سالكاً أبداً بهدي المحبّة ومرونتها، مؤلّفاً بين التكيّف مع الظروف، والالتزام الصُّلب بالمبادئ، حريصاً على عدم تشكيك الآخرين. فهو قد وافق على اختتان تلميذه تيموثيوس، لأنّ أُمّه اليهوديّة كانت راغبة في ذلك، ولكي يمكّنه من التبشير في مجامع اليهود بلا حرج، ولكنّه لم يدعُ إلى الاختتان تليمذه الآخر، تيطس، الوثنيّ المولد، كي يزيح كلّ عقبة أو خوف من درب الوثنيّين الراغبين في اعتناق المسيحيّة. وعندما ضعف زعيم الرسل بطرس، في أنطاكية، تحت ضغط المتهوّدين، وحاد عن سراط النهج المسيحيّ القويم، عاتبه بولس بمحبّة صادقة، ولكن بحزمٍ صارم. صحيح أنّ خطأ بطرس كان خطأً مسلكيّاً، لا ضلالاً عقائديّاً، غير أنّه كان كفيلاً بجرّ عواقب خطيرة، فحال بولس دون استمراره، ودرأ أخطار عواقبه. وبصراحته الجريئة قاوم بولس كلّ مساومة مع يهوديّة باتت بائدة، في ما يتعلّق بالعقيدة والسلوك. ومعه أعلنت المسيحيّة استقلاليّتها، ووجهها الحقّ الصريح، واعتمادها على الإيمان بيسوع ومقتضياته مبدأ عقيدة ومنهج حياة.

و كعادته حلّق بولس من أحداثٍ عابرة إلى مبادئ خالدة أثبت، بها، انتفاء الحاجة إلى الشريعة بعد أن افتدى يسوع، بدمه، مرّة وإلى الأبد، خطايا البشر، وعجز الشريعة عن تأمين الخلاص الذي يوفّره الإيمان بيسوع، إيمان تدعمه المحبّة وتجعله فاعلاً، ديناميكيّاً، مؤثّراً. وكان إيمانه هذا من الرسوخ والإلحاح بحيث جعل منه ديدن تعليمه على مدى مسيرته الرسوليّة، وما انفكّ يعلنه ويكرّره في معظم رسائله.

و لا جَرَم أنّ موقف بولس هذا أحدث آثاراً بعيدة الأصداء على مستقبل المسيحيّة، وعلى مجرى تاريخ البشريّة، غير أنّ الرسول، بعبقريّته الفذّة، استشفّ عقبات أُخرى، كانت ما تزال لاطيةً في غياهب المستقبل، وكان لا بدّ للمسيحيّة من تخطّيها، بعد أن تتحرّر كلّيّاً من اليهوديّة، وتلج في عالم المذاهب والفلسفات، حيث ليس الخصم حرف الشريعة الذي يسجن النفس في قوقعة يذبل داخلها الروح، بل " حكمة العالم " التي تدّعي بلوغ الإلهيّ بوسائل العقل وحدها، ودمجه في مادّيّة تُذوّب سموّه الفائق الطبيعة.

في مواجهة هذا الخطر أعلن بولس " جنون الصليب "، ووفّر للمسيحيّة طريقة جديدة في التفكير، وبذلك حقّق ثورة روحيّة كاملة، وحلّ إشكال العلاقات بين النظرة البشريّة الوثنيّة، والنظرة الإنسانيّة المسيحيّة.فلو أنّ الدين الجديد حاول الاندماج في الرؤى الدينيّة والفلسفيّة الرائجة آنذاك، لظلّ نظريّةً إصلاحيّة مبهمة، لا تختلف كثيراً عن الديانات السرّيّة، ونظريّات المذاهب والبدَع. ولكنّ بولس عمد إلى قطيعة حاسمة، معلناً " جنون الصليب ".وبهذه المفارقة

تغلّب إنجيل يسوع على العالم الوثنيّ، وبذلك قضى بولس على خطرين بشريّين أَساسيّين : أَحدهما كبرياء العقل، وثانيهما الخضوع لثقل الطبيعة. إنّ " جنون الصليب " يقسر العقل البشريّ على الاتّضاع، ويضعه في مواجهة حدوده الذاتيّة. إذ إنّه، عندما يطلب من الجسد تقبّل الألم، يقنعه بهشاشته الذاتيّة. إنّ بولس الذي قال لليهود : "آمنوا وأَحبّوا"، قال للوثنيّين : " اتّضعوا "، وبذلك حوّلت المسيحيّة مجرى البشريّة، إذ أَنجبت نمطاً جديداً من البشر، وهيّأت للمستقبل مجتمعاً يضجّ جدّةً وتميّزاً. وهكذا وُلِدَت عالميّة المسيحيّة، التي مهّد لها لاهوت بولس، وصوفيّته، وتمثّله تعليم يسوع تمثّلاً كاملاً.

إنّ صيحة بولس : " لستُ أَنا من يحيا، بعد، بل المسيح هو الذي يحيا فيّ "، قد باتت شعار كبار الصوفيّين، ألا وهو الذوبان في اللّه، وأَمست، أَيضاً، تعريف المسيحيّ : فهو إنسان يحيا في المسيح، وهو ليس، بعدُ، " يونانيّاً أو يهوديّاً "، بل إنّه المسيحيّ فحسب. إنّه شعب جديد، ونمطٌ جديد من البشر، مجتمع جديد يعيش " وفقاً للروح "، بالمسيح وفي المسيح؛ إنّه الكنيسة " جسد المسيح "، البشريّة المفتداة بدمه، والمقدّسة بروحه.

و من المحقّق أَنّ تعليم بولس الكثيف يتضمّن عناصر أُخرى كثيرة تساعد على فهم الحقائق التي أَعلنها يسوع، ولا سيّما تلك المتّصلة بالعقائد الكبرى مثل التجسّد والثالوث، والإفخارستيّا، وإرادة تجاوز الذات؛ ومن أَكثر جوانب تعليم بولس ثوريّة إعلانه الحرّيّة المسيحيّة المبثوث في تضاعيف كلّ تعليمه.

هذا ما أَدركه، في أعماق ذواتهم، المسيحيّون الأَوّلون الذين توخّوا العيش مع يسوع وفيه، وهم واثقون أَنّهم بذار مواسم المستقبل، ولا سيّما وقد رأوا بولس يجسّد هذا اليقين بتعليمه ومثال حياته.

و عندما أَعلن بولس هذه التأكيدات على أَنّها نتيجة منطقيّة لمبادئ الإنجيل، لم يصرّح بأَنّ الصليب سيظهر، يوماً، على إمبراطوريّة روما، ولكّن إعلانه كان يتضمّن، في باطنه، هذه النتيجة الحتميّة.

بولس والموت

كثيراً ما تحدّث بولس عن الموت، الموت البيولوجيّ، والموت الروحيّ وهو الابتعاد عن اللّه، بسبب خطيئة الرجل الأوّل. "أجرة الخطيئة هي الموت".لقد فصلتنا الخطيئة عن اللّه، فصار جسدنا نفسه " جسد موت "

و لكي يعتقنا من الخطيئة والموت، لبس المسيح وضعنا المائت، وجعل من موته، موتاً عن الخطيئة إِلى الأَبد، وقهر الموت. عندما كنا أَسرى الخطيئة، كنّا أَمواتاً. وبحياتنا في المسيح بالمعموديّة، متنا عن الموت، وأَصبحنا " أحياء عادوا من الموت "

و يبقى السؤال : كيف سنكون بعد موتنا ؟ ومتى ستتمّ القيامة ؟ وهل ينبغي انتظار عودة المسيح ؟

كان أَهل تيساكونيكي قلقين حول مصير الذين ماتوا أو الذين سيموتون قبل مجيء المسيح؛ وقد خاطبهم بولس قائلاً إِنّ عليهم أَلاّ يحزنوا كسائر الناس الذين لا رجاء لهم، وأَكّد لهم: " فلئن كنّا نؤمن أَنّ يسوع قد مات ثمّ قام، كذلك فلنؤمن بأَنّ الذين رقدوا في يسوع، سيحضرهم اللّه معه" (ا تسالونيكي 4 : 14). فالموت لن يستطيع تحطيم تواصل المؤمنين الذين عرفوه بالعماد والإِيمان بالمسيح يسوع. ولن يكون في ذلك فرق بين الذين ماتوا قبل مجيء المسيح الأَخير، والذين ما زالوا آنذاك أَحياء، فالجميع سيلتقون حينئذٍ.

على المسيحيّ، إِذن، أن يظلّ متيقّظاً لنيل الخلاص بيسوع المسيح الذي مات لأَجلنا لكي نحيا جميعاً معه، أَحياءً كنّا أَم أمواتاً. ولذلك يجب أَن يساند المؤمنون بعضهم بعضاً ويعزّي بعضهم بعضاً : " فعزّوا إِذن بعضكم بعضاً، وليبنِ أَحدكم الآخر "

و للذين كانوا يشكّكون بقيامة الموتى يؤكّد بولس أَنّ قيامة المسيح مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقيامة البشر الأَخيرة (كورنثس 15 : 13 – 14)

و لكن على أَيّ شكل ستقوم أَجسادهم ؟ لن تكون تلك القيامة عودة الحياة إِلى أَجساد فانية زائلة، بل سيكون الجسد مختلفاً، فالحبّة التي تموت تنبت نبتاً جديداً، وسيكون " الجسد روحيّاً"، أَي متحوّلاً تحوّلاً تامّاً بروح اللّه، على صورة المسيح، آدم الجديد الذي أَصبح "إِنساناً سماويّاً"، وعلى نحو ما هو يحيا في ملء مجد الآب، بكلّ كيانه الجسديّ، كذلك سنكون. وسيتمّ كلّ ذلك في لحظة.وإِن كانت مشاركتنا في قيامة المسيح ستتجلّى كاملة في اليوم الأَخير بتحوّل جسدنا كلّيّة، وكلّ كياننا، إِلاّ أَنّ على هذه المشاركة أَن تبدأ منذ اليوم، في وجودنا اليوميّ، بفضل التحرّر من الخطيئة الذي اكتسبته لنا قيامة المسيح، فنتعلّم العبور من الموت

إلى الحياة. وهكذا سيكون الوجود المسيحيّ بأكمله تمثّلاً بموت المسيح وقيامته، وبمجد هذه القيامة.

لقد تحدّث بولس عن الموت وهو سجين في أفسس، إذ كان شبح الموت يطوف به، ولكنّه لا يوحي له أيّه خشية أو أيّ اضطراب، ولا الرغبة فيه، بل بكلّ واقعيّة يقول: " الحياة لي هي المسيح، والموت لي ربح. ولكن إن كانت الحياة في الجسد تهيئ لي عملاً مثمراً، فلا أدري ماذا أختار...فأنا واقع بين عاملين : أرغب في الانطلاق، فأكون مع المسيح، وهذا هو الأفضل بكثير، بيد أنّ التلبّث في الجسد أشدّ لزوماً من أجلكم... " (فليبي 1 : 21 – 24) فإن كان الموت يتيح له أن يكون مع المسيح بلا حدود غير أنّه لا يتطلّع إلى الهروب من خدمة المسيح، طالما كان له في ذلك طاقة وواجب. إنّ حياته مع المسيح على هذه الأرض ليست سوى تمهيد للانضمام إلى من أسبغ على حياته معنى. الموت، إذن، هو تتويج لحياة المعمّد، واشتراك كامل بموت يسوع الخلاصيّ وقيامته.

و في اليوم الأخير، عند مجيء الربّ، سيقضي يسوع نهائيّاً على الخطيئة وعلى الموت اللّذين ما زال المسيحيّ معرّضاً لهما.

في سذاجة سطحيّة، وتزوير سافر للواقع اتّهم البعض بولس، افتئاتاً وبهتاناً، بازدراء المرأة ومعاداتها، مخالفاً، بذلك، مثال معلّمه الذي كان رائداً في تحطيم المحرّمات، إذ لم يتحرّج من إنقاذ امرأة زانية، كان علماء الشريعة يتحفّزون لرجمها؛ ولم يتردّد عن إعلان هويّته الإلهيّة، للمرّة الأولى، إلى امرأة سامريّة بعيدة عن نصاعة السلوك؛ وعظّم توبة امرأة اشتهرت بممارستها الدعارة بعد أن تبيّن صدق توبتها، غير حافلٍ باستنكار الفريسيّين الذين وصفوا موقفه بالفضيحة؛ وفيما بعد، جعل منها المبشّرة الأولى بقيامته.

و قد أقعد أولئك المغالطون دعواهم على عبارات مقتضبة وردت في رسالة بولس إلى الكورنثيّين، حيث فرض على النساء وضع حجاب على رؤوسهنّ، في أثناء الطقوس، والتزام الصمت، والخضوع لأزواجهنّ، ولكنّهم عزلوا هذه العبارات عن قرائنها السابقة واللاحقة، وعن سياقها التاريخيّ.

فلا بدّ، إذن، من أجل تصحيح هذا الإدعاء الباطل، من التذكير بالتقاليد الشائعة آنذاك، في البيئتين اليهوديّة والرومانيّة، ومن الإلمام بمجمل مواقف بولس في هذا المضمار.

ففي تلك الحقبة من القرن الميلاديّ الأوّل، كان ما زال سائداً عهد الهويّة المغلقة، وعهد التمييز على كلّ صعيد، فاليهوديّ يفخر بأنّه ليس يونانيّاً ولا وثنيّاً، واليونانيّ يزدهي بأنّه ليس بربريّاً عديم الثقافة، والرجل الحرّ يزهو بأنّه ليس عبداً، والمواطن الرومانيّ يفخر بأنّه ليس من سكّان البلدان المستعمرة، والرجل يفخر بأن ليس امرأة، وتفخر المرأة بأنّها ليست ولداً...

و في تلك الحقبة كانت المرأة اليهوديّة تُقدَّر كزوجة وأمّ، ولكنّها كانت منبوذة من الحياة العامّة، التي يسيطر عليها الرجال. وفي المجمع كانت النساء يُعزلنَ عن الرجال، ويحرمنَ من تعلّم التوراة، لا بل كان ثمّة قول شائع : " أن تحرق التوراة خير من أن تسلّم للنساء ". وفي القرن الثاني فرض أحد الحاخامين على تلاميذه أن يتلوا، يوميّاً، هذه الصلاة: "تبارك من لم يخلقني وثنيّاً، ولا امرأة، ولا جاهلاً، فالوثنيّون هم في عيني الربّ لا شيء، والمرأة غير ملزمة باتّباع الوصايا، والجهّال لا يخشون ارتكاب الخطيئة ".

و جاء لاهوت بولس المستوحى من تعليم يسوع ثورةً على هذا التمييز وإعلاناً لهويّة مفتوحة، وتخطّياً لكلّ الفوارق، فليس، بعدُ " لا يهوديّ ولا يونانيّ، لا عبدٌ ولا حرّ، لا رجل ولا امرأة، بل الجميع واحد في المسيح يسوع ". إعلان المساواة ذاك كان، بلا مراء، ثورة عارمة في تلك الحقبة.

و لاهوت بولس، لاهوت التبرير بالإيمان، كان إعلان الهويّة المفتوحة، إذ إنّ اللّه يعترف، اعترافاً كاملاً، بكلّ فرد في معزل عن وضعه الاجتماعيّ، وانتمائه ومكتسباته؛ واعتراف اللّه غير المشروط هذا هو أساس الهويّة الإنسانيّة المحرّرة.

و في هذا السياق أكّد بولس أنّ العماد يجعل جميع البشر أبناء للّه متساوين، مساواة تلغي كلّ تميّز بينهم عرقيّاً، واجتماعيّاً، بيولوجيّاً، ودينيّاً، كما تلغي كلّ تمييز في الكرامة بين الرجل والمرأة، مع الاعتراف بفوارق بينهما، وتضع نهاية لامتيازات اليهود الدينيّة، وامتيازات المواطنين السياسيّة، وامتيازات الرجل الاجتماعيّة.

و لم يقتصر بولس على إعلان المبدأ، بل مارسه في واقع الجماعات المسيحيّة التي أسسّها، والتي اعترف جميع أعضائها بالمساواة أمام اللّه، ودعوا بعضهم بعضاً إخوةً وأخوات، أبناء وبنات للّه بالعماد، مشتركين جميعهم في الجسد الواحد، الكنيسة، جسد المسيح، مقتسمين الخبز الواحد، والكأس الواحدة. أولئك الذين جاؤوا من كلّ أفق، وكان كلّ شيء يفرّقهم، ساوت بينهم النعمة أمام اللّه، فاستطاعوا تأليف جماعة من نمطٍ فذّ لم يعهد مثله لا اليهوديّة ولا العالم اليونانيّ الرومانيّ.

قوام هذه الجماعات هو الاعتراف بأنّ اكتشاف " الشخصيّة "، أو "الأنا" ينجم عن اعتراف اللّه بكلٍّ من أبنائه، ممّا يحمل كلّ فرد على الاعتراف بأنّ الآخر هو " أنا " آخر، هو " أنت " يحظى باعتراف اللّه، أيّة كانت الاختلافات فيما بينهما.

و الجماعة القائمة على هذا الأساس تتميّز، في آنٍ واحد، بشموليّتها وانفتاحها على الجميع، وبتعدّديّتها، فهي لا تلغي التباين بين الأشخاص، وخصائص كلّ فرد، ولكنّها لا تولي هذه الاختلافات أيّ تميّز أمام اللّه. وكان ذلك حدثاً بدْعاً. فالعالم القديم لم يعرف قطّ مجتمعاً يؤلّف بين الشموليّة والتعدّديّة، منفتحاً على الجميع، ومعترفاً بخصائص كلّ فرد.

ربّما استهدفت الإمبراطوريّة الرومانيّة، في القرن الأوّل الميلاديّ، تحقيق ضربٍ من الشموليّة تنتظم العالم المأهول آنذاك، وتجعل منه قريةً عالميّة، ولكنّها كانت شموليّة تبتغي أن تجعل من الجميع شيئاً واحداً، وتخضعهم لقانونٍ واحد، وإدارة واحدة، ولإمبراطورٍ مؤلَّه واحد، معرِّضة من يرفض الخضوع لأقسى عقاب. غير أنّ هذه "العولمة "، قبل الأوان، لم تحُلْ دون تقسيم البشر إلى فئات تفصل بينها حواجز : فالرجال مع الرجال، والنساء مع النساء، والعبيد مع العبيد..

و كانت في القرن الأوّل الميلاديّ تعدّديّة، ولكنّها تعدّديّة تكرّس الاختلاف، وتنهض على التمييز، وتقوم كلّ فئة على ما يميّزها عن سواها، وخير دليل على ذلك ما كان يحدث في مجامع اليهود : ففي المرتبة الأولى يأتي اليهود بالولادة؛ ثمّ يأتي الدخلاء الذين وُلدوا

وثنيّين، ولكنّهم التزموا التوراة، وخضعوا للختان؛ وأخيراً في أدنى مقام، متّقو اللّه، أولئك الذين اجتذبهم الإيمان باللّه الواحد، ولكنّهم لم يخطوا الخطوة الحاسمة نحو الالتزام بكلّ مقتضيات الشريعة.

و هؤلاء عندما بلغتهم البشارة المسيحيّة أقبلوا عليها باندفاع، لأنّها جعلت منهم أعضاء كاملي الأهليّة في الكنيسة، لا من مستوى أدنى. وكذلك كان شأن النساء.

الجماعة التي أسّسها بولس، إذن، كانت تتميّز عن الشموليّة المركزيّة، والتعدّديّة المبنيّة على التمييز. فإله بولس هو إله الجميع، وإله كلّ فرد. والكنائس التي نشأت عن كرازة بولس كانت تستقبل في أحضانها، بلا تمييز، أعضاء من كلّ أُفق ومشرب، أيّاً كان جنسهم، وتاريخهم، وأيّة كانت من قبلُ، عبادتهم. ولم تكن قيمة الفرد فيها تحكمها الحظوظ التي يوفّرها المجتمع وتفرضها الولادة، والأدوار التي توليها لكلّ فرد، وفقاً لكونه حرّاً أو عبداً، رجلاً أو امرأة. بل كانت تلك الكنائس مختلطة على كلّ صعيد، تضمّ، جنباً إلى جنب، رجالاً ونساءً، أغنياء وفقراء، أسياداً وعبيداً. ولا ريب أنّ ازدهار المسيحيّة كان مديناً لهذا النمط الجديد من المجتمع، ولو أنّه أثار سخرية الفلاسفة الوثنيّين الذين أخذوا على دين يسوع اختياره أتباعه من أسفل دركات السلّم الاجتماعيّ، وضمّه، بين أعضائه، عبيداً ونساءً.

ولكنّهم، بسخريتهم هذه، شهدوا بأنّ المسيحيّة كانت، منذ البدء، جذّابة للمسحوقين والنساء.

و كان لا بدّ لهذه الممارسة الجديدة من أن تشوبها معاثر، ومن أن تثير التساؤلات، ولا سيّما وأنّ مشاركة النساء والرجال في أثناء طقوس الصلاة، جنباً إلى جنب، وبلا تمييز، كانت أمراً غير مألوف، بل جديداً كلّ الجدّة. ومن المعروف أنّ مدينة كورنثس قد اشتهرت بانتشار الخلاعة في جنباتها، وأنّ مئات الكاهنات كنّ يمارسن البغاء في معابدها الوثنيّة؛ ولذلك حرصت النساء الفاضلات على تغطية رؤوسهنّ لدى خروجهنّ من منازلهنّ، وعلى التقيّد بتقاليد راسخة كانت ترى في ظهور المرأة، في الخارج، حاسرة الرأس، ناشرة شعرها على كتفيها، تمثّلاً ببنات الهوى، وعيباً لا يقلّ خزياً عن كشفهنّ عن صدورهنّ، أو حلقهنّ لشعر رؤوسهنّ. وكان خروج المرأة اليهوديّة من منزلها، وهي سافرة الرأس، مبرّراً لطلاقها.

و اتّفق أنّ بعض النسوة أخذنَ يشتركنَ في الطقوس وهنّ حاسرات الرؤوس ممّا شكّك بعض الكورنثيّين؛ واستُفتي بولس في الأمر، فأدلى برأيه، لا انطلاقاً من شرعيّة الحجاب أو السفور، إذ إنّه لم يكن يقيم للمظاهر الخارجيّة شأناً، بل انطلاقاً من شريعة المحبّة التي تنهي عن كلّ ما يزعزع إيمان الآخرين ويشكّكهم، ومن إيمانه بأنّ حتّى المباح، إن لم يكن يبني، فيحسن، بل ينبغي تجنّبه؛ ومن ثمّ، ولو أنّه، ربّما، لم يكن يرى في السفور، بذاته، غضاضةً،

إلاّ أَنّه، تفادياً للتشكيك، أَفتى بوجوب وضع المرأة، حجاباً على رأسها في أَثناء الصلاة، فهي، بذلك، تحافظ على تقاليد حميدة تضمن للمرأة كرامتها، وتميّزها عن الغواني، وتقيها من إِثارة شكوك المؤمنين.

و بالدافع نفسه أفتى بولس بشأن مداخلات النساء في الطقوس حيث تمادت كثيرات في التنبؤ، والتكلّم بأَلسنة، وغالينَ في الثرثرة، ممّا أَشاع البلبلة والفوضى؛ وانطلقت فتواه من مبدأ : " فليجرِ كلّ شيء من أَجل البنيان "، فقال : " كما هو الأَمر في جميع كنائس القدّيسين، فلتصمت النساء في الجماعات... فإن شئن أَن يتعلّمن شيئاً فليسأَلنَ رجالهنّ في البيت ". وهو، في ذلك، لم يُصدر فتوى عامّة شاملة، بل حرص على حلّ إِشكال محدّد ناجم عن مداخلات النساء في كنيسة كورنش، كان يسبّب الضيق للكثيرين، في حين لم تكن سائر الكنائس يشكينَ منه، حيث كانت النساء صامتات.

هاتان الفتويان، إِذن، أملتهما مقتضيات المحبّة، والبناء، وتجنّب التشكيك، ولم تستندا على مبادئ لاهوتيّة تكرّس التمييز بين الرجل والمرأة، لا بل، على نقيض ذلك، أَكّدت تعاليم بولس المبثوثة في رسائله، أنّ فداء الصليب قد أَنهى تسلّط الرجل على المرأة، وكرّس المساواة بينهما. وشبّه بولس سلطة الرجل على المرأة، بسلطة المسيح على الكنيسة، أي إِنّها سلطة حبّ : " أَيّها الرجال أَحبّوا نساءكم، كما أَحبّ يسوع الكنيسة، وبذل ذاته من أَجلها ". وكذلك على النساء أَن يحترمنَ رجالهنّ احتراماً عميقاً، على نحو ما تحترم الكنيسة يسوع.

و قد أَلحق بولس طلبه بأَن يكون للمرأة على رأسها غطاء، بقوله : " بيد أَنّ المرأة ليست من دون الرجل، ولا الرجل من دون المرأة، في الربّ، فكما أَنّ المرأة هي من الرجل، كذلك الرجل هو أَيضاً بالمرأة، وكلّ شيءٍ من اللّه " (ا كور 11 : 11 - 12)

و قد أَيّد بولس موقفه هذا، عمليّاً، بإِسناده مهامّ خطيرة الشأن لبعض النسوة، واعتماده أخريات معاونات له في الرسالة، كما يتّضح من ازدحام بعض رسائله بالتحيّات لكثيرات منهنّ، ونذكر، على سبيل الشاهد، الشمّاسة فيبة التي كانت مسؤولة في كنيسة سنخريّة، والتي أوكل إِليها حمل رسالته إِلى الرومانيّين؛ وبريسكيلا التي كانت، مع زوجها أكيلا، خير عون لبولس، وهيأ له وسائل الرسالة في مدن عديدة بشّر فيها، وارتحلا معه إِليها؛ وبائعة الأرجوان ليديا التي استضافت في منزلها كنيسة فيليبي الوليدة، وأنقذت الرسول من أزمات عديدة بسخائها اللامحدود؛ ومن اللواتي ذكرهنّ في رسائله: "مريم التي أَجهدت نفسها كثيراً في سبيلكم "

و " ترفينة وتريفوسة اللتان تتعبان في الربّ " و" برسيس المحبوبة التي أجهدت نفسها كثيراً في الربّ " و" أمّ روفس التي هي أُمّي أَيضاً... "

و" على خطى القدّيس بولس"، شهدنا، حديثاً، قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني يسند مهامّ خطيرة لنسوة مثيلات الأَمّ تيريزا. وما أَكثر النساء اللواتي لعبنَ أدواراً هامّة في تاريخ الكنيسة منذ نشأتها حتّى اليوم!

بولس والزواج

استفتى الكورنثيّون بولس، أَيضاً، في الزواج، ويمكن تلخيص الظروف السائدة آنذاك، في هذا الشأن، على النحو التالي :

– يتوجّه بولس بردّه إِلى مهتدين، حديثاً، إِلى المسيحيّة، بعضهم كانوا مقترنين بغير مسيحييّن، وبعضهم كانوا مدعوّين إِلى مهمّة التبشير.

– وكان الاعتقاد السائد أَنّ القيامة الأَخيرة على الأَبواب،

– وكانت تتناهب النفوس نزعتان متضاربتان، ولا سيّما في كورنثس، نزعة إِلى الانحلال، والانفلات الجنسيّ، بلا قيد، ونزعة مناقضة راجت، خاصّة، لدى المسيحيّين الجدُد، إِلى الزهد، والتبتُّل الكامل، ونبذ العلاقات الجنسيّة.

و قد أَجاب بولس :

على كلّ فرد أَن يلتزم الوضع الذي كان عليه عندما آمن أو دعي للرسالة؛ فعلى المتزوّج أَن يظلّ متزوّجاً ولا يسعى إِلى الطلاق. ومن كان غير متزوّج فلا يسعينَّ إِلى الزواج، لأَنّ يوم الربّ قريب؛ وخير لمن دعي إِلى الرسالة ألاّ يتزوّج، إِذ إِنّ العفّة والتبتّل يحرّران من هموم الزواج المادّيّة، ويوفّران جاهزيّة فُضلى لخدمة الربّ والانصراف إِلى عبادته. ولكنّ من يتزّوج لا يخطئ، وإِنّما يحمّل نفسه عبئاً مرهقاً، فضلاً عن أَنّ الزواج يصرف الرجل والمرأة عن حصر اهتمامهما في شؤون الربّ، ويقسرهما على الاهتمام بشؤون دنيويّة شاغلة.

غير أَنّ بولس يسارع إِلى إِيضاح أَنّه، بقوله هذا، إِنّما يسدي نصيحة غير ملزمة، فمن تزوّج فعل حسناً، ومن لم يتزوّج فعل حسناً، أَيضاً.

و على المرأة أَلاّ تنفصل عن زوجها ما دام حيّاً، أَمّا إِذا توفّي فلا غضاضة عليها إِن هي تزوّجت ثانية، زواجاً في الربّ، على أَن تقترن بزوج مؤمن، ولكن خير لها أَلاّ تتزوّج.

و العفّة، في نظر بولس، مثلٌ أسمى على أَلاّ تكون سبباً للخطيئة. فهو، بعد تأكيده أَنّه " حسن للرجل أَلاّ يمسّ امرأة "، يستدرك قائلاً: "ولكن تلافياً للفجور، فلتكن لكلّ رجل امرأته، وليكن لكلّ امرأة رجلها ". ويؤكّد على ذلك ثانية بقوله : " أَقول للعزّاب والأَرامل أَنّه حسنٌ لهم أَن يلبثوا كما أنا. ولكن إِن لم يكن في وسعهم أَن يضبطوا أَنفسهم، فليتزوّجوا، لأَنّ التزوّج خيرٌ من التحرّق ".

من يدعوهم إِلى العفّة لا يبتغي إلقاء عبء على كاهلهم، بل حثّهم على فعل ما يليق، وما يربطهم بالربّ، من غير تجزّؤ؛ أَمّا الراغبون في الزواج فيدعوهم إِلى تقديسه ببذل الذات، والاهتمام والاحترام المتبادلَيْن، وبإصغاء الأزواج أحدهما إِلى الآخر بمحبّة.

و يتجلّى ذلك في قوله : إِن كان أَحد الزوجين مؤمناً والآخر لا، فلا ضرورة إِلى انفصالهما، لأَنّ الزوج المؤمن يقدّس غير المؤمن، فبعماد الطرفين أو أحدهما يصبح الزواج مكان تقديس الأزواج.

لقد رفع بولس من شأن الزواج، ومن شأن العلاقة الجنسيّة، إِذ في حين كان الكورنثيّون يرون فيها حاجة فيزيولوجيّة بهيميّة، كالأكل والشرب، رأى فيها بولس التزاماً إِنسانيّاً كاملاً، ودعا إِلى السموّ بها، فالإنسان هو عضو في جسد المسيح، وإِيقونة للروح، ولا يمكن لجسمه أَن يكون أَداة لعمل عبثيّ.وقد عبّر بولس عن ذلك في رسالته الأولى إِلى التسّالونيكيّين حيث قال: "إِنّ مشيئة اللّه أَن تقدّسوا أَنفسكم بأَن تمتنعوا عن الزنى، فيعرف كلّ واحد منكم أَن يحفظ إِناءه في القداسة والكرامة، ولا ينقاد لتيّار الشهوة كالوثنيّين الذين لا يعرفون اللّه "، وهو، بذلك، ارتقى بالمرأة من درك الأَداة إِلى مرتبة إِنسان جدير بالاحترام، وأولى الحبّ الأولويّة على الغريزة.

فلا شعور بالذنب، لا تقديس للجنس، بل توازن يجد فيه كلّ واحد خيره وخلاصه.

و قد تجلّت نظرته السامية تلك إِلى الزواج، في رسالته إِلى الأَفسسيّين حيث قال (5: 22 – 27) : " أنتنّ، أَيّها النساء، اخضعنَ لرجالكنّ كما للربّ، لأَنّ الرجل هو رأس المرأة، كما أَنّ المسيح هو رأس الكنيسة، التي هي جسده وهو مخلّصها؛ فكما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك فلتخضع النساء لرجالهنّ في كلّ شيء. وأَنتم، أَيّها الرجال، أَحبّوا نساءكم كما أَحبّ المسيح الكنيسة : لقد بذل نفسه لأَجلها، ليقدّسها ويطهّرها بغسل الماء وبالكلمة، ويزفّها إِلى نفسه كنيسة مجيدة، لا كَلَف فيها ولا غضن ولاشيء مثل ذلك، بل مقدّسة، ولا عيب فيها... "

الزواج، إِذن، تبادل حبّ غير مشروط، منغرس في مشيئة الربّ الذي أَوجد الفروق الجنسيّة لكي تتجلّى محاطةً بنور سنيّ، من خلال الوحي المسيحيّ الذي يتخطّى كون الزواج مجرّد حَدَث طبيعيّ، ويجعل منه رمز المعاهدة التي لا تنفصم بينَ المسيح والكنيسة.

و قد رسّخ بولس مبدأ التكافؤ في الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة بقوله المأثور : "أوصي بألاّ تفارق المرأة زوجها، وبألاّ يتخلّى الزوج عن امرأته "، وأَيضاً : " ليقضِ الزوج امرأته حقّها، وكذلك المرأة حقّ زوجها. لا سلطة للمرأة على جسدها، فإِنّما السلطة لزوجها، وكذلك الزوج لا سلطة له على جسده، فإِنّما السلطة لامرأته "

لا يضمر بولس، إذن، أيّ ازدراء للزواج، كما قيل، ولكنّه، خلافاً لليهوديّة التي كانت تجعل من الزواج واجباً، وترى في التبتّل خطأً جسيماً، أشاد بولس بالعفّة ولا سيّما لدى من يبتغون تكريس ذواتهم للربّ. لم يحطّ بولس من قدر الزواج، بل جعل منه وسيلة تقديس، ومنبع حبٍّ سامٍ، ودعا كلّ فرد إلى تبصّر دعوته، والسلوك بموجبها.

بولس وممارسة السلطة في الكنيسة

كانت قد نشبت، في كنيسة كورنتش، أيّام بولس، منازعات بشأن السلطة هدّدت وحدتها. وسارع بولس إلى درء هذا الخطر مبيّناً أنّ المواهب كثيرة، ومنوّعة، وموزّعة بين أفراد الجماعة، إلاّ أنّها واحدة في منشئها وغايتها، وقد أوضح فكره بصورة الجسد الواحد الذي يملك أعضاء كثيرة، ولكلّ عضوٍ، أيّاً كان، شأنه، وجميعها متكاملة لا يستغني أحدها عن الآخر، وكلّ ما يصيب أحدها من ألم أو خير، ينعكس على الأعضاء الأُخرى : "فأنتم جسد المسيح، وكلٌّ بمقدار" و"كلّ واحد إنّما يُعطى إظهار الروح للمنفعة العامّة "

و قد أوضح بولس أنّ المهمّات، في الكنيسة، تتدرج وفقاً لتسلسل: فثمّة أوّلاً المبشّرون أو الرسل الذين أسّسوا الكنائس، ورسّخوا التعليم؛ ثمّ هناك الأنبياء، وهم الذين يميّزون سبل الربّ، ويقدّمون للكنائس الإرشاد، والتوجيه، والتحذير، والتشجيع. ثمّ هناك المعلّمون الذين يلقّنون، ويفسّرون التقليد الذي تسلّموه. وبعد ذلك يأتي من أُعطوا مواهب، ويضطلعون بمهمّات ليست ثانويّة : مواهب الشفاء والعجائب، والذين يقومون بالإعانة والغوث، وأعمال البرّ والإحسان، والإدارة، ومواهب الألسن.

الكنيسة، إذن، بناء أساسه الرسل والأنبياء، وحجر زاويته يسوع الذي أقام بعضاً رسلاً، وبعضاً أنبياء، وبعضاً مبشّرين، وبعضاً رعاةً ومعلّمين، منظّماً هكذا القدّيسين، لأجل عمل الخدمة في سبيل بنيان جسد المسيح، ولا يني بولس يذكّر بأنّ يسوع هو رأس الكنيسة، فلا حياة لها ولا قوّة إلاّ به. والرأس هو السلطة الآمرة في الكنيسة، وهو مركز وعيها الذي يمدّها بالفكر والتمييز. ويسوع يعمل من خلال روحه القدّوس، روح الكنيسة، ومنبع حياتها؛ وبالتالي لن يضطلع أيّ مسؤول في الكنيسة بمهامّه، اضطلاعاً سليماً ولائقاً إلاّ إذا كان يحيا "في المسيح" ويعمل بهديٍ من روحه القدّوس.

و قد حرص بولس على أن يجعل من ذاته قدوةً لخدّام الربّ بزهده المطلق، وجاهزيّته المحرّرة من كلّ قيد، وكدّه الدؤوب الذي يضمن له مجّانية التبشير، وبوقفه كلّ ثانية من عمره على الرسالة التي انتُدب لها، ولم تصرفه عنها أيّة غواية، وبقداسة حياته الناصعة، وبسهره القلق على كلٍّ من أبنائه في الإيمان، وشعوره المرهق بالمسؤوليّة عن خلاصهم.

و على رأس الكنائس وُضعت سلطات تستأهل الاحترام؛ فبولس يخاطب التسّالونيكيّين: " نسألكم، أيّها الإخوة، أن تُجلّوا الذين يتعبون في ما بينكم، ويرئسونكم بالربّ، ويعظونكم، وأن تحبّوهم، غاية المحبّة، من أجل عملهم ". ويناشد بولس العبرانيّين: " أطيعوا مدبّريكم، واخضعوا لهم، لأنّهم يسهرون على نفوسكم سهر من سيؤدّي حساباً "

مفهوم الجماعة، أو الجسد الواحد، لا يتعارض، إذن، مع الاعتراف بسلطة وطاعة، ولكنّهما مختلفتان عن سلطات العالم وطاعته، فأساسهما هو انتساب جميع المعمّدين لجسد المسيح، وتعبّران عن واجب جميع تلاميذ يسوع، كلّ وفقاً لدعوته الخاصّة، من غير تمييز في الكرامة، بالمساهمة في ازدهار جسد المسيح – الكنيسة – ونموّه.

و كثيراً ما يعلن بولس سلطته الرسوليّة التي كلّفه بها المسيح، ولكنّه لا يسمح لنفسه باستخدامها للسيطرة على الجماعات التي أَسّسها أو واكبها: "لا ندّعي السيادة على إيمانكم، إنّما نريد المساهمة في سروركم ". وهو يحدّد مهمّته بأنّه خادم ووكيل: "فلنُحسَب خدّاماً للمسيح ووكلاء لأسرار اللّه "؛ وهذا يلقي على كاهله مسؤوليّات جساماً، ويعرّضه، أبداً، "للتعب والكدّ، للأسهار الكثيرة؛ للجوع والعطش، للأصوام المتواترة، للبرد والعري؛ وما عدا هذه كلّها، ما يتراكم عليّ، كلّ يوم، والاهتمام بجميع الكنائس : فمن يضعف ولا أَضعف أنا ! من يعثر، ولا أَحترق أنا ! "

و مع ثقل تلك المسؤوليّة، وجسامة ما تفرضه من تبعات، خاطب بولس التسّالونيكيّين قائلاً : " إنّكم لتذكرون، أيّها الإخوة، تَعَبنا، وكدّنا، إذ كنّا نبشّركم بإنجيل اللّه، ونحن نعمل ليلَ نهار لئلاّ نثقل على أَحدٍ منكم. وأَنتم شهود واللّه شاهد أَنّ سيرتنا عندكم، أَنتم المؤمنين، كانت مقدّسة، وعادلة، وبغير لوم. وتعلمون، أيضاً، كيف كنّا، لكلّ واحد منكم كالأَب لأَولاده..."

ما أَقلّ رعاتنا، اليوم، الذين يستطيعون ترداد أَقوال بولس هذه، وهم صادقون !

و لطالما حرَّض بولس رعاة الكنائس على الترفّع عن المكاسب والسيطرة، وانتباذ التواكل والتواني، وعلى أَن يكونوا لرعيّتهم قدوة، وتكون سيرتهم، في ذاتها، تبشيراً، ويعكس أَسلوبهم في ممارسة السلطة، داخل الجماعة المسيحيّة، عمل الروح القدس، ويتوافق مع رسالة الفرح، والإِخاء، والحرّيّة، والكرامة، والمسؤوليّة التي عليهم تأديتها أَمام العالم.

و تقديراً منه للمسؤوليّات الجسام المفروضة على الرعاة وخدَمة الرسالة، شدّد بولس، بلجاجة، على الخصال الإنسانيّة، والأَخلاقيّة، والروحيّة، التي لا مفرّ من تحلّيهم بها، والتي فصّلناها في معرض تحليلنا لرسالتيه إلى تيموثيوس.

و لا ريب أَنّ الكنيسة قد حاولت، عبر تاريخها، الالتزام بهذه الأَهداف التي وضعها لها مؤسّسها، وأوضحها رسوله بولس، جاهدة، في التنكّب عن أَساليب ممارسة السلطة التي تهدّد بعزلها عن العالم، وعن رسالتها الأَساسيّة، فيه، دائبة، على ابتداع أَساليب جديدة تكفل جعل خدمتها أوفر جدوى، وحضورها أَكثف وقعاً، وسلطتها أَقلّ انغماساً في ممارسات العالم.

و إِن حقّ للكنيسة أَن تفخر بلوائح متمادية من الوجوه النيّرة، من أَساقفتها وكهنتها، الذين كانوا انعكاساً رائعاً لصورة مؤسّسها ونفحة طيّبة لروحه، في كلّ عصر ومصر، إلاّ

أَنهّا نُكبت، وما تزال، بمن حوّلوا واجب الخدمة المطلوب منهم إِلى استخدام مسؤوليتهم في سبيل رفاههم؛ واستعاضوا عن واجب السهر الدائب القلق على خلاص أَبنائهم بالتخاذل واللهو بالمتع الرخيصة السخيفة، وحوّلوا دعوة البذل بلا حدود، إِلى جشع واغتناء بما سيكون لهم دينونة أَبديّة.

و إِن كان بولس قد هتف : " الويل لي إِن لم أُبشّر " فأيّ ويل لمن خانوا البشارة !

الفصل السادس عشر

شخصيّة بولس

رجلٌ أسطورة، وسيرته ملحمة مجلجلة. فمنذ أيّام المسيحيّة الأُولى كان الجميع يتحدّثون عن مضطهد يسوع الذي انقلب واحداً من أَشدّ رسله اندفاعاً وغيرة، ويمجّدون الربّ بشأنه. وما برح الدويّ الذي تركه في الدنيا يُلمس بالأَصابع العشر.

و من أَكثر مايدهش، في هذه الشخصيّة، هو تعدّد وجوهها، وغناها الثرّ. فبولس لا يتدفّق من نبع واحد، بل تساهم في تكوينه روافد متعدّدة، تتلاقى فتؤلّف نهراً هادراً. فهناك الرجل، بخصاله وملكاته الفطريّة؛ ثمّ هناك التربية المنزليّة، فالثقافة الرابينيّة، وأَخيراً الحَدث الحاسم، على طريق دمشق، الذي دفع مصيره في منحى جديد، وكأنّه ولادة جديدة، وما أَعقبه من أَحداث صوفيّة كبرى، أَكملت فهمه للربّ ولذاته، وأعادت صوغ شخصيّته، صوغاً رائعاً، ونحتت منه نموذجاً فريداً.

فهو عبرانيّ الجذور، يونانيّ اللسان، رومانيّ التبعيّة، آسيويّ المولد؛ وهذه العوامل كلّها تآلفت واندمجت في بوتقة يسوع الواحدة، فولدت منها شخصيّة بولس الفذّة.

إِنّه مدين للفكرين الإِغريقيّ واليهوديّ، بثقافته، ومدين ليسوع بلاهوته. ربّما هو لم يتعمّق في الثقافة الإِغريقيّة، ولكنّه تمكّن من لغتها منذ الطفولة، وصقلها من خلال أَسفاره، وكتب بها صفحات خالدات. وقد نشأ في جوٍّ مفعم بالثقافة الإِغريقيّة، وتأثّر بالنقاشات الفكريّة التي كانت تدور من حوله، ولا سيّما في مسقط رأسه، وبات، على غرار الإِغريقيّين، قادراً على التقاط الكرة وهي طائرة، ودفعها في اتّجاه غير متوقّع. وقد أكسبته الثقافة الهلّينيّة، انفتاحاً وعالميّة، وامتداد أفق، ويُسر تعامل مع الوثنيّين، والحكّام الرومانيّين، ورسّخت فيه معنى الحرّيّة، ونمّت شخصيّته، وفتحتها على جميع التأثيرات الغربيّة، وسهّلت، فيما بعد، تحرّره من القيود التي كبّلته بها الشريعة الموسويّة، وبالإِجمال أَعدّته، خير إِعداد، ليكون رسول الأُمم.

و من اليهوديّة استقى عبادة اللّه الواحد، والقدرة على الجدال، ومعرفة الكتب المقدّسة التي ساعدته على فهم النبوءات التي أَجمعت على أَنّ صفات المسيح قد تجمّعت كلّها في شخص يسوع. ولا ريب أَنّ الشريعة قيّدته بحرفها، وحالت، في شبابه، دون رؤيته لحقيقة الربّ إِلى أَن حطّم ظهور يسوع له، هذه القيود وحرّرته منها نعمته. وكان لا بدّ من رجل

مثله، ضليع بعلوم الشريعة، متّقد غيرة عليها، كي يظهر بطلانها بمجيء يسوع المسيح، وإِعتاق المسيحيّة الوليدة من ربقتها.

أَمّا مواطنيّته الرومانيّة، فلم يرَ فيها بولس، مثلما رأى يهود فلسطين، مجرّد أَداةِ قمع لا تطاق، بل إِنّه استشفّ في الإِمبراطوريّة كلّ عظمتها الموضوعيّة، وقدرةً على التنظيم تجدر الإِفادة منها لخدمة مخطّطات الربّ. وقد أَثبتت تلك المواطنيّة جدواها. ووفّرت لبولس عوناً محقّقاً في مواقف عديدة جابهها في غمرة رسالته.

ذلك المواطن الرومانيّ كان يفكّر بالعبريّة، ويكتب ويعلّم باليونانيّة، قارناً الفكر اليونانيّ، والتنظيم الرومانيّ وواقعيّته العمليّة بصوفيّة الساميّين المتوثّبة. نادراً ما تجمّعت لدى إِنسان واحد تأثيرات تلك الحضارات الثلاث، وقد جمعها بولس، في ذاته، على تناغم، مؤلّفاً بين الفكر الهادئ المنظّم والخيال الطليق، بين التحليل والتأليف، ويقود كلّ ذلك هوى حبّه المستعر للناهض من الموت. فقد لقّحت النعمة تلك الطبيعة الغنيّة، لتجعل منها أَداتها المختارة، وأَشرق نور إِيمان بولس على أَدقّ جزئيّات حياته اليوميّة، وزوّده بالقدرة على ربط تفاصيل السلوك الصغيرة بمجمل التاريخ، وبمغامرة الكون كلّه.

و قد تضافرت تلك العوامل مجتمعة على إِنجاب شخصيّة بولس الفريدة.

شخصيّة منيعة، صلبة، متماسكة، كلّيّة، لا خَوَر فيها ولا تجزّؤ، تتحرّك **بإِرادة فولاذيّة** لا تفلّها مصاعب، تعلو على كلّ شيء، وتتمكّن من كلّ شيء، وتحدوها عزيمة لا يثنيها عائق، وتمضي، في كلّ هدف، إِلى أَقصى غاياته. فعندما تسيطر فكرة على قناعة بولس، لا يعود شيء يلجم عزمه على خدمة تلك الفكرة وتحقيقها، وهو لا يرتضي من أيّ هدف، بأَدنى من الكمال. فهو قبل اهتدائه، عندما كان قانعاً بأَنّ المسيحيّة تمثّل خطراً على الشريعة التي كان شديد الوفاء لها، اضطهدها بكلّ ما أوتي من ضراوة ومثابرة، وبذّ، في هذا المجال، جميع أَترابه. وقد اختار الربّ مضطهده هذا، ليوكل إِليه مهمّة جسيمة؛ وعندما سطا يسوع على نفسه، وقف، في سبيله، كلّ طاقاته، وكلّ لحظات عمره المتبقّي، في اندفاع مضطرم؛ وبات يسوع هو حياته كلّها، وهو، ولا أَحد سواه، يملك عليه قلبه ونفسه وذاته. وحتّى عندما كان سجيناً راسفاً في الأغلال، لم يكفّ عن الإِعلان، بثقة مطلقة: " إِنّ كلمة اللّه لا تُقيَّد".

و هكذا ما انفكّ ذلك الرسول الهزيل الجسم، يذرع الدروب من مدينة إِلى مدينة، ومن حيّ إِلى حيّ، على طرقات غير آمنة، وفي بحار خطرة، لا ينال سوى الهزيل من الطعام، ولا يرتدي سوى الخَلِق من اللباس، كادحاً في سبيل لقمته ولقمة رفاقه إِلى جانب انصرافه إِلى التبشير، لا ترهبه المخاطر، ولا تردعه مقاومة اليهود الحانقين، والمتهوّدين المتزمّتين،

وبعض الوثنيّين الذين أَلحق بمصالحهم الماديّة أذىً، فساقوه إِلى الحكّام. ولطالما طُرد، وضُرب، وزُجّ في السجون، وأَمسى للجند " مفشّة خلق "؛ ولكنّ ذلك لم يثنه عن المضيّ قدُماً، بهمّة أَشدّ اندفاعاً، على دروب الرسالة. وقلّما عرف التاريخ رجلاً بذل نفسه لقضيّة، وكرّس ذاته لخدمة فكرة، بقدر ما بذل بولس وكرّس.

هذه **الإِرادة الصلبة** زوّدته **بجَلَد مدهش**؛ فهو على غرار أَبطال السباق، دائم المثابرة والصمود، مهما احتدم القتال، لا يحيد، لحظة، عن مساره، وبصره، أَبداً، شاخصٌ إِلى غايته المنشودة، ولا يني ينطلق من حيث انتهى إِلى مرحلة أَكثر تقدّماً. ولا يحول عائق دون مواصلته المسيرة حتّى الموت الذي لا يخشاه، بل يعدّه ربحاً.

و نظير كلّ متسابق جادّ يعرف هدفه جيّداً، وهدف بولس الثابت هو التمثّل بالمسيح، وفق ما أوتي من طاقات ومواهب شخصيّة، ففي هذا التمثّل جادّة الكمال.

فبين اهتداء بولس إِلى المسيحيّة واستشهاده انقضى نحو ثلاثين عاماً، منها ثلاث سنوات من التأهّب في دمشق وصحراء العرب، ونحو خمس سنوات أُخرى في طرسوس. وإِذا ما أسقطنا ممّا بقي فترات سجنه المتعاقبة ولا سيّما في قيصريّة وروما، يتّضح أَنّ فترة عمله الناشط لم تتخطّ خمس عشرة سنة، جاب، في أَثنائها، نحو خمسة عشر أَلف كيلومتر، أَكثر من نصفها سيراً على الأَقدام، وكانت إِنجازاته، في غضون تلك الفترة، مدهشة في كثافتها واتّساعها. وممّا يضاعف الدهشة أَنّ بولس قد حقّق كلّ ذلك، رغم هزاله، ورغم الأَمراض التي لم تكن تهادنه، والتي ما انفكّت تنقضّ عليه وتصرعه بين حين وحين. ولو إِنّنا نجهل طبيعة تلك العلل، إِلاّ أَنّ رسائل بولس توحي بأَنّها كانت شاقّة، وظاهرةً للعيان، ومهينة. ولا ننسينّ الضغوط النفسيّة الناشئة عن هموم شتّى الكنائس، وقلق بولس المقيم على أَبنائه في الإِيمان، وشعوره المرهق بضآلة عمله حيال اتّساع رقعة البشارة الممتدّة أَمامه. هذه العوامل متضافرة مارست على جهازه البدنيّ آثاراً مدمّرة ليس لأَحدٍ قِبَلٌ على احتمالها، مالم يكن يمارس على جسده سيطرة كاملة تمكّنه من أَن ينتزع منه كلّ ما يشاء ويرغب فيه.هذا ما أَكّده بولس في أَماكن عديدة قائلاً إِنّه أَعدّ ذاته لمواجهة كلّ طارئ وتحملّ كلّ ضيق، والتوافق مع كلّ ظرف، وقد أَكّد : " لقد روّضت نفسي في جميع الأَحوال، وفي كلٍّ منها، على الشبع وعلى الجوع، على الرفاهة وعلى الفاقة "، وواجه، بنفسٍ واحدةٍ، ساكنة، الإِملاق والرخاء، اليُسر والضيق، فلم ينتشِ بالنجاح ولا حطّمه الإِخفاق، لا أغراه حلو، ولا تأفّف من مرّ. لا بل إِنّه أَكّد أَنّه كلّما دبّ الفناء بإِنسانه الخارجيّ، أَي جسده، ازداد إِنسانه الداخليّ منعةً، وتألّقاً، وعزيمة.

لقد تسنّم بولس قمماً من **الزهد** شامخات، ممّا زوّده بقدرة لا تقهر على مجابهة أَقسى الحالات بقدم ثابتة، وبحريّة لا حدود لها. وليس، في زهده البطوليّ، أيّ أَثر وبيل، بل هو يتوخّى الإِثمار والعطاء، وإِنّما يلجأ إِلى التشذيب في سبيل جنىً أَوفر.

لقد عجزت أمواج الآلام، والمِحَن، والهواجس، والمتاعب التي قاساها بولس، على قسوتها وإِيجاعها، عن إِسالة المرارة في نفسه، أو تثبـيط عزيمته.فقد كان له من إِيمانه سندان منيعان : يقين بأَنّه، بالآلام والمحن. يشارك يسوع صليبه، ويكمل في جسده ما نقص من آلام يسوع لفداء العالم، ويقينٌ آخر بأَنّه يزداد قوّة ومنعة بقدر ما ينوء بالأَوهان، بيسوع الذي يقوّيه. فقد شاء الربّ أَن يستخدم تلك الأَداة الواهية كي يحقّق بواسطتها عظائم، وبخططه التي لا تُدرك، أَفرغ في ذلك الغلاف الهشّ، نفساً من نمطٍ فريد، يدعمها خلُق نادر النظير. فبقدر ما كان منظر بولس باهتاً، وطاقاته الجسديّة هزيلة، كان رائعاً بمزاياه الخلقيّة، وبالمنعة الروحيّة التي تميّزت بها حياته كلّها، وجعلت منه مثالاً خالداً، لحزمٍ لا يلين، وطاقات لا ينفذ لها معين؛ فذلك الرجل المعتلّ الذي كان عليه أَن يحسب حساباً لمقتضيات جسده وحدوده، لم يعرف، في ميدان رسالته دعةً ولا هدنة، ولم يردعه لا قسوة الطبيعة ولا لؤم البشر، ولكأنّه كان يجد راحته في المصاعب، والتوتّرات والخلافات، ولكأنّ عظمى إِنجازاته تولد في مناخ المِحَن.

و بولس يتكلّم عن محنه في سكون وسجوّ، لا تظاهر فيهما، معترفاً أَنّه طالما فُجع ولكنّه لم ينسحق، وحُرم من كلّ شيء، ولكنّه لم يقنط قطّ، وغُلب ولكنّه لم ينهزم. ولا ريب أَنّ شهادته في ذاته صادقة، فهو لم يهِنْ قطّ ولم يستسلم. وقلّما برهن بشر، مثل هذا البرهان، على مثل سيطرة بولس على ذاته، سيطرة اكتسبها بفضل جهد مستمرّ، وترويض موجع للنفس.ولئن كان هناك من يسيرون على دروب الحياة المعبّدة، السهلة، ساكنين، لا يخامرهم تردّد أَو قلق، ولا يطرح عليهم وجدانهم أَيّ سلوك، ولا يلقون، ولو نظرة خاطفة، على الهُوى المريعة التي يسيرون على شفيرها مطمئنّين، غير أَنّ شأن بولس كان من موقف هؤلاء على طرفيْ نقيض، فذاك الذي اعترف، صادقاً، أَنّه لا يفعل الخير الذي يحبّه، ويفعل الشرّ الذي يمقته، هو، بالتأكيد، رجل ابتُلي بالمأساة ونجا منها، وتصدّت له التجربة، ولكنّه تغلّب عليها، وحدّق في أَغوار الهوّة، فلم يأخذه دوار، ولا انهار إِليها. لقد تجمّعت فيه شتّى المتناقضات وتعايشت، وليس من العسير تخمين أَيّ ثمن دفعه كي يُحكم سيطرته على ذاته. ولو هو كان مجرّد إِنسان ديناميكيّ، منقطع للعمل بكلّ طاقاته، لأُعجبنا به على أَنّه من استثناءات الطبيعة التي تبرز من قلب الضعف الشائع؛ ولكن عندما نتوغّل في معرفته، ونطالع رسائله عن كثب، نتبيّن كم هو قريب من وهننا، وأَخٌ لنا في الكفاح.

قوّة شخصيّة بولس مكّنته من التغلّب على مفارقات كفيلة بسحق آخرين، فهو، العليل، بذل من النشاط المرهق ما يعجز عنه أقوى الأشدّاء؛ وقد مكّنته تلك الشخصيّة المنيعة من التصدّي لمفارقة أُخرى خطيرة. فذاك الذي دعي للتبشير، ووقف عليه عمره وكلّ طاقاته، لم يكن خطيباً مفوّهاً من عمالقة الكلمة الذين يقذفون حمماً، ويحرّكون أحشاء مستمعيهم، ويستولون على قناعاتهم، بحيث يغفلون منظرهم الخارجيّ، ولا يناقشون حججهم.فهو نفسه يعترف أنّه كان أُمّيّاً في الكلام، عييّاً؛ ومع ذلك نجد فيه أكثر من خطيب. ففي عنف عباراته المتعثّرة أحياناً، وفي تدفّق أفكاره المتشابكة أحياناً، ثمّة ما يتخطّى الفنّ والبلاغة: ثمّة تفجّر الروح نفسه.وهو بعيدٌ كلّ البعد عن الخطباء القدماء الذين يُغالون في تهذيب صيَغهم وأسلوبهم، ويُغفلون جوهر موضوعهم، ويتلفّظون بترّهات. أمّا بولس فلا يقول إلاّ ما يعيشه، وما يقاسيه في تمزّق نفسه، مؤمناً أنّ الفكرة أخطر شأناً من الصيغة، بلا قياس. وفضلاً عن ذلك يمكن تخيّل بولس يتحدّث بلغة يونانيّة تشوبها لكنة يهوديّة ظاهرة، مستخدماً، أحياناً، تعابير شعبيّة من شأنها إثارة سخرية المثقّفين واستخفافهم، وتضعف من تأثير أقواله؛ غير أنّ هذه الأقوال، المعبّرة عن قناعات راسخة، والمضمّخة بنفحة الروح، أحدثت تأثيراً تخطّى الأمصار، ومَخَر عباب الأجيال.

تغلُّب بولس على تلك المفارقات برهان على ما كان يحدوه من **ثقة** وطيدة في رسالته وفي قدرات اللّه العاملة فيه، والتي كانت ترسّخ في يقينه أنّه قادر على كلّ شيء، في من انتدبه للرسالة، ومن يقوّيه على كلّ شيء.

و هذه الثقة أكسبته **جرأة** نادرة لا ترهبها مخاطر. وهل أجرأ ممّن يعد الموت ربحاً؟ وأيّ خطر قادر على هزّه أو إخافته ؟ وأيّ اعتبار يستطيع ردعه عن المجاهرة بالحقّ، في وجه أيٍّ كان، كلّما رأى في هذه المجاهرة ضرورةً للحفاظ على سلامة الإيمان واستقامة السلوك المسيحيّ، كما فعل عندما أخذ على بطرس الذي كان يجلّه ويعترف له بالزعامة، تخاذله أمام ضغوط المتهوّدين، ونأيه عن المسيحيّين من أصل وثنيّ، لم يخضعوا للشريعة، جارّاً في تيّاره بعض كبار الرسل مثل برنابا؟ لم يهاجم بولس، آنذاك، بطرس، في شخصه، بل ندّد بموقفه الذي كان كفيلاً بإلحاق نتائج وبيلة بمستقبل المسيحيّة.

لقد تجلّت جرأة بولس فور اهتدائه، عندما شرع يبشّر، بلا وَجَل، في مجامع دمشق، ثمّ، بعد سنوات، في مجامع أورشليم، وقد بيّنت أسفاره الرسوليّة مدى جرأته، وتصميمه اللّذين لا يفسّرهما سوى حقيقة يسوع التي كان لها شاهداً، ودعم الروح القدس، ممّا زوّده بهمّةٍ شمّاء مكّنته من إزاحة كلّ العوائق وتخطّيها. وجرأة بولس هي التي أتاحت له التصدّي لما لم يجرؤ أحد على التصدّي له في عهده، وعلى قول ما لم يجرؤ أحد، سوى يسوع، على قوله في ما

يتعلّق بإنتهاء عهد الشريعة، بمجرّد اعتلان إِنجيل يسوع. ولم يكن غائباً عن ذهن بولس ما قد يستفزّه إِعلانه هذا من ردود صاخبة، وما قد يعرّضه له شخصيّاً من نقمة المتعصّبين اليهود، غير أَنّ التزامه بنشر تعليم يسوع، حرّره من كلّ خشيةٍ أو خوف، في كلّ ما فعل وقال.

هذه الجرأة أهّلت بولس ليكون أَوّل المبشّرين بزوال العهد القديم، وبولادة عهد جديد مع يسوع وتعليمه، وتحقيق ثورة عارمة عالميّة، استحقّ بها، على غرار معلّمه يسوع، لقب " أَعظم ثائر في جميع الأَزمنة ".

جرأة بولس كانت تنبع من **حرّيّته الداخليّة** الوطيدة التي لا يقيّدها سوى حبّ يسوع، والحياة معه، بمقتضى تعليمه. تلك الحرّيّة هي التي أَهّلته ليقف الموقف الملائم في تعامله مع كلّ إِنسان وكلّ فئة، ويكون على غرار معلّمه كلاًّ للكلّ لكي يربح معظمهم ليسوع، غير حافل بانتقاد أو تهديد، ولكي يكون مواطن العالم، وأَخاً لكلّ إِنسان.

و ممّا دعّم حرّيّته أَنّه لم يكن مديناً بشيءٍ لأَحد سوى اللّه؛ فانتدابه للرسالة قد جاءه مباشرة من الربّ.وفي أَثناء اضطلاعه بالرسالة كان يكدّ ليلَ نهار لكي يكسب أَوَد عيشه وعيش رفاقه، فلا يكون لأَحد عليه منّة. ولئن هو تقبّل، في غمرة أزماته، مساعدات من جماعة فيليبي دون سواها، فلأَنّ سخاءها كان يتدفّق تلقائيّاً من نبع، ولأَنّها، بعطائها، كانت سعيدة لأَنّها، من خلالها، تساهم برسالة إِلهيّة سامية.

و في هذا السياق كتب الكردينال مارتيني : " مدهشة هي حرّيّة بولس هذه : فهو غير مدين لأَحد سوى للمسيح، ومن خلاله للجميع. لا يسعى إِلى إِرضاء أَحد، ولا يتعيّن عليه أَداء حساب لأَحد، إِلاّ للمسيح. والشعب يعلم علم اليقين أَن ليس عليه أَن يرضيه، ويلبّي رغباته، بل عليه أَن يخدم يسوع فحسب. وقد خدمه بغيرة، واندفاع، وذكاء، وجرأة، وكفاية، ومثابرة "

و لا عجب إِن كان ذاك الذي وُلد لكي يرأس، ويقود، ويتزعّم، **حادّ الطباع، حازماً**، قاطعاً، مندفعاً، لا يُساوِم على الحقّ، عنيفاً في مواجهة أَعداء يسوع. صرامته هذه هي التي أَفضت إِلى فرض لاهوته، عبر الأَجيال، وهي التي مكّنته من تحدّي الوثنيّة المتغلغلة إِلى أَغوار النفوس، ومخاخ الغرائز، ومواجهة اليهوديّة المتسلّطة، وتحقيق الطلاق بين المسيحيّة الوليدة، بتعليمها الكلّيّ الجدّة، واليهوديّة التي ما انفكّ دعاتها يسعون، بعناد، إِلى ربطها بعجلة الشريعة البالية، وحرفها المميت. وبفضل عنف بولس هذا تسلّمنا الإِنجيل ناصعاً، منزّهاً من ظلال فرائض خانقة، ومظاهر عبادة نافلة، وفتاوى كثيراً ما اتّسمت بالسخافة.

لقد كان عنيفاً في مواجهة أَعداء يسوع، لأَنّه، أَكثر من أَيٍّ سواه، رأى أَنّ مجيء يسوع، كان فجر عهدٍ جديد مشرق، طردت شمسه المجيدة ظلمات الماضي؛ ولأَنّه آمن، بكلّ

كيانه، أنّ يسوع هو المخلّص لأنّه ابن اللّه، الذي تأنّس لكي يتولّى زمام البشريّة ويقودها إلى حضن الآب.

و عنفه، كان يمارسه، أحياناً، على نفسه، إذا ما تعارضت مشاعره مع ما يراه واجباً رسوليّاً. وخير دليل على ذلك خلافه مع صديق عمره، برنابا، الذي كان يدين له بأفضالٍ جسيمة، بشأن مرقس. فهو، في قضايا الرسالة ومقتضياتها لا يساوم، ولا يلين. وقد آثر انفصالاً عن برنابا حطّم قلبه، على تهاونٍ في شأن مرقس، عدّ تخاذله، في رحلته الرسوليّة الأولى، تعارضاً مع مستلزمات الرسالة.

و هو، في سبيل الرسالة، كان **مندفعاً**، وكان اندفاعه جامحاً.وقد يكون لمثل هذا الاندفاع مثالبه، ولكنّ بولس يدهشنا بسيطرته التامّة والحازمة على ذاته؛ **فهو رقيقٌ في قوّته، قويٌّ في رقّته**. محبّته شاملة تتحدّث، في كلّ حين، بلهجة الحنان، من غير أن تُنقص، في شيءٍ، من عنفوان زعيم عظيم.

و ذاك الذي لم يكن يجد راحةً ولا سلاماً إلاّ في حبّ يسوع، كان يؤنس حاجةً حارقة إلى حبّ البشر. وذاك الذي كان يجد الرضى الأقصى في رضوان اللّه، كان معنيّاً بتأييد إخوته. وكان يحبّهم، لا حبّاً بالمسيح، فحسب، بل حبّاً بهم أيضاً... كان يعيش معهم، ويقاسمهم مشاعرهم، واهتماماتهم؛ يقلق على مصيرهم، ويُغدق لهم العون، ويتوقّع منهم المساعدة... نفسه تحاكي آلة موسيقيّة، تهتزّ أوتارها من غير أن تمَسّ، متساوقة مع الآلات المجاورة... قلبه يتّسع لحبّ الجميع : فهو يهوديّ مع اليهود، ويونانيّ مع اليونانيّين، خطيب مع الأثينيّين؛ كادح مع فقراء تيسّالونيكي، مستجدٍ من أجل كنيسة أورشليم؛ وهو، أبداً، كلّ للكلّ.

و ذاك الذي زهد في كلّ متاع الدنيا، وألف قسوة العيش والحرمان، لم يستطع التدرّع ضدّ نكران الجميل. لا شيء كان يردعه عمّا يؤول إلى خير المؤمنين، ولكنّه كان يحتاج إلى الشعور بثقتهم ووفائهم.

كان **صانع صداقات** فذّاً، وكانت الصداقة له خبز حياة. قوّة إشعاعه كانت قوّة محبّة؛ وهو لم يحبّ بشريّة مجرّدة بغية تأمين الخلاص لها؛ بل أحبّ كلّ إنسان فرديّاً، لأنّ الحبّ لا يعرف سوى الأفراد الذين يتوقّع كلٌّ منهم أن يُحَبّ لنفسه. وقد اعترف بولس للتسّالونيكيّين أنّه كان يملك لكلٍّ منهم قلب أب. وأكّد للغلاطيّين أنّه كان لكلٍّ منهم مثل أُمّ رؤوم. وقد أحاط الجماعات التي أسّسها بعناية زاخرة بالحنان، حتّى وهو بعيد عنها، واهتمّ بكلّ تفصيل من تفاصيل حياتها. إنّ هذا الرسول الذي طالما صُوِّر عنيفاً، رهيباً، قد عاش، في رقّة مدهشة، المحبّة المسيحيّة.وخير دليل على ذلك، رسالته إلى فيليمون التي أنفذها إليه من سجنه في روما، ملتمساً منه، برهافة إحساس عذبة، الصفح عن عبده الآبق أونيسمُس، وتقبّله تقبّل أخٍ.

كان في حاجة إلى أن يحبّ الآخرين ويحبّوه كي يكون لحياته معنى. وإنّ نشيده الرائع للمحبّة لم تلهمه، فقط، نظرته المسيحيّة إلى الوجود، بل هو يعكس صورة نفسه الأَصيلة. وهو، من خلاله، لا يرى البشر إخوةً في اللّه، بل يستشفّ فيهم، أَيضاً، رفاق منفى على هذه الأَرض، ورفاق جهاد. وليست محبّته عواطف ظاهريّة، بل هي تضحية، وتفانٍ، ونكران للذات؛ ليست نتيجة ميل تلقائيّ، بل هي ثمرة محبّة مرادة، واعية. وقد حدّد قواعد هذه المحبّة الأَساسيّة في أماكن مختلفة من رسائله، فقال : " لا ينظر كلّ واحد إلى ما هو لنفسه، بل، بالحريّ، إلى ما هو لغيره " (فيليبي 2 : 4)؛ " افرحوا مع الفرحين، وابكوا مع الباكين " (روما 12 : 15)؛ " علينا، نحن الأَقوياء، أَن نحتمل أوهان الضعفاء، ولا نرضي أنفسنا " (روما 15 : 1)

لقد أَحبّ بولس الآخرين، فدفعهم إلى حبّه، لا بصفته رسولاً فحسب، بل بصفته إنساناً أَيضاً. ففي أفسس تطوّع مسؤولون وثنيّون لإنقاذه من ثورة الصاغة؛ وقد أَخلص له المؤمنون الجُدد، في كلّ الجماعات التي أَسّسها، بكلّ قلوبهم : الغلاطيّون لم يتوانوا عن افتدائه بعيونهم، والكورنثيّون حزنوا وانتحبوا لأَنّهم سبّبوا له الأَسى؛ وكان حَسْب بولس أَن يعلن لبعضهم أَنّه لن يراهم، بعد، حتّى يتردّوا في بحران من الحزن، أو أَن ينبئ آخرين بزيارته الوشيكة لهم، حتّى يشيع الفرح في قلوبهم. وهو، عندما يخاطب، ولو من بعيد، المؤمنين الجُدد، يستخدم عبارات ناصعة الرقّة، فيشبّه نفسه بمرضعة حانية على أَطفالها، ويؤكّد لهم أَنّه يحملهم جميعاً في قلبه، ويحبّهم بمثل محبّة المسيح لهم، وأَنّهم سيكونون رجاءه، وفرحه، وإكليل افتخاره لدى الربّ يسوع عند مجيئه. إنّه يشاطرهم جميع أَحزانهم، فإذا ما اعتلّ أَحدهم، مرض هو، وإذا ما نشبت بأحدهم محنة نفسيّة، انقبضت نفسه، وإذا هوى أَحدهم إلى الخطيئة، احترق، هو، حزناً عليه.

كان مسرفاً في الرقّة، يتألّم، ويضطرب، ويبكي، ويتوسّل، مثل أُمٍّ ملهوفة، قلقاً على من تولّى مسؤوليّة نفوسهم.

و كانت مودّته من الرهافة بحيث يخشى إغفال أَيّ إنسان من تحيّاته، في رسائله، ويراعي احتياجات كلٍّ من رفاقه، ولا يتحرّج، هو بولس، الرسول العظيم، والصوفيّ الفذّ، ومصطفى المسيح، من توصية تيموثيوس بتناول قليل من الخمر كي يريح آلام معدته.

و يعترف بولس نفسه أَن سيطرة الصداقة على نفسه كانت من الشدّة والسطوة بحيث تتغلّب، أَحياناً، على أَعزّ ما يختلج به قلبه، وتصرفه – إلى حين – حتّى عن التبشير؛ فقد روى في رسالته الثانية إلى الكورنثيّين (2 : 12 – 13) : " أَتيت ترواس من أَجل بشارة المسيح، فانفتح لي باب في الربّ. على أَنّ نفسي لم تطمئنّ، لأَنّي لم أَجد تيطس، أَخي.

فودّعتهم، وانصرفت إلى مقدونية ". كم كانت محبّته لتيطس آسرة، بحيث عجز حتّى عن التبشير، وقد أُشرع لتبشيره باب عريض، بسبب غياب من كان له بمثابة الأخ والابن والصديق ! وأيّ **إنسان** كان بولس، على غرار معلّمه، " ابن الإنسان " ! لقد انتزعه يسوع من ذاته، ولكنّه لم ينتقص من عقله ولا من قلبه شيئاً. وقد قال فيه مهتدٍ عظيم آخر هو الكردينال نيومن : " ثمّة قدّيسون حلّت فيهم النعمة محلّ الطبيعة. ولكن ليست تلك هي حال الرسول العظيم بولس. فالنعمة لم تفعل سوى تقديس طبيعته الرائعة، والسموّ بها، تاركةً له سيطرة كاملة على ذاته، واستخداماً تامّاً لكل ما فيه متحرّر من الخطيئة".

و لم يحاول بولس، يوماً، إخفاء انفعالاته أو تمويه مشاعره، بل هو، من خلال رسائله، ينتقل بغتة من الاضطراب القلق إلى السكون الواثق، ومن الاستنكار المتوعّد إلى البوح الرقيق، ومن السخريّة اللاذعة إلى التحريض الحزين. يبدو أحياناً منهاراً، وإذ به يتماسك فجأة، ويمارس، من جديد، سطوته على الجميع، وعلى كلّ شيء؛ يكتب، والدموع في عينيه، ولا يخجل من الاعتراف بذلك، ولكنّه، في الآن عينه، ينذر بأنّ لديه عصاً للتأديب.

و من سيطرته على ذاته، ومن زهده بأمور الدنيا، من صداقاته الحارّة، ومن محبّته المضطرمة لأبنائه الكُثُر في الإيمان، من جهاده الأبيّ في سبيل يسوع الذي أحبّه واختاره لكي يجعل منه رسوله، ومن القوّة التي كان يغدقها عليه في وهنه ومحنه، استمدّ بولس **فرحاً عميقاً**، ساجياً، ثابتاً، فرحاً يفوح من الكثير من رسائله، ويدعو إليه المؤمنين بإلحاح.

لقد كانت الندوب تغطّي جسده، فشراسة البشر قد أغدقت قسوتها بلا هوادة، عليه، وهو لم يدفع الآلام عن نفسه، بل كان يسارع نحو المهالك، لا كَلَفاً بالمخاطر، بل بدافع هواه لرسالته.وهذه المحَن المطّردة كان يعيشها كتجربة روحيّة خصبة، على حدّ قوله إلى الكورنثيّين : " بكلّ سرور أفتخر، بالحريّ، بأوهاني، لتستقرّ عليّ قوّة المسيح، أجل إنّي أُسرّ بالأوهان، والإهانات، والضيقات، والاضطهادات، والشدائد من أجل المسيح. لأنّي متى ضعفت فحينئذٍ أنا قويّ " (2 كور 12 : 9 – 10)

و لم يفلح تواتر المحن والآلام في إسالة الكآبة إلى نفسه، بل كان فرحاً وداعية إلى الفرح، فهو يناشد أبناءه الفيليبيّين : " إفرحوا في الربّ على الدوام، وأقول أيضاً إفرحوا " (فيليبي 4 : 4)؛ " إنّما نريد الإسهام في سروركم، لأنّكم ثابتون على الإيمان " (2 كور 1 : 24) " إنّ لي بكم ثقةً عظيمة، وفخراً عظيماً، ولقد امتلأت تعزية؛ وأنا أفيض فرحاً في كلّ ضيقنا " (2 كور 7 : 4) فيض فرح يقابل سيل المحن، ويحوّل تأثّر الرسول الفطريّ إلى سكينة عميقة.

إنّه لم يحاول، قطّ، إخفاء ما كان يراوده من تردّد، وحزن، وهواجس، وقلق؛ ومع ذلك ما من قلب أوفر ثقةً وفرحاً، وما من نفسٍ أقلّ خوفاً من نوائب الحياة، وغائلة الموت.

و كيف لا يفرح من استطاع، بعون النعمة، سكب معرفة اللّه وحبّه، في نفوس وثنيّين كانوا يجهلونه، وهو يعبّر بالشكر للّه عن كلّ ما حقّقه، على يده، في هذا المجال، والشكر لازمة تتردّد في كلّ رسائله، حتّى عندما هو يضطرّ إلى الشكوى أو التوبيخ.

و ذلك الأبيّ النفس، الذي يعي، بعمق، فرادة اختياره من الربّ، وجسامة المهمّة الموكلة إليه، لا يستمدّ من ذلك كبراً وانتفاخاً، بل هو يعي، بنفس القدر أغوار وهنه، وعدمه، ويُرجع كلّ شيء إلى النعمة التي تفعل فيه كلّ شيء، وتسبغ عليه قوّة اللّه.

و هو، بضعفه الذي يستمطر عليه هذه القوّة الإلهيّة، يفتخر.إنّه صادق مع نفسه، بصير بواقعها، يرى، بنظرة واحدة، موطن وهنه، وفرادة مسؤوليّاته ومواهبه، ويتحدّث عن هذه وتلك بلهجة واحدة، بسيطة وصادقة، سواءً هو اعترف بعدم أهليّته ليكون رسولاً من جراء اضطهاده كنيسة يسوع، يوماً، أو باختطافه إلى السماء الثالثة حيث أطلعه الربّ على أسرار إلهيّة، وهو في جميع الحالات يلتزم أسحق دركات **التواضع**. وقد عبّر عن تواضعه بتجنّب الاعتداد، وبخدمة الآخرين؛ وباعترافه بالوهن والهشاشة في معزل عن سند اللّه؛ وبالسلوك أمام اللّه في الحقيقة، وفي إحساسٍ عميق بأنّ اللّه هو الخالق، السيّد، الرحيم، واهب كلّ خير، بحيث كان يرى ذاته، أمام اللّه، خاطئاً فقيراً، مفتقراً إلى النعمة والرحمة والخلاص. لقد اعترف بولس، أبداً، أنّ ما عرفه وعلّمه استمدّه من اللّه، وأنّ غيرته الرسوليّة هي عمل اللّه فيه. تواضعه هو تواضع المسيح الذي يحيا فيه. التواضع، في نظره، هو ميزة خادم المسيح الذي جاء ليخدم، وقد خدم يسوع بكلّ تواضع، مقتفياً أثره، متشبّهاً به في ممارسة سلطته، في مثل تواضع يسوع، ورأفته، ورقّته.

و حتّى عندما تضطرّه مستلزمات الذود عن رسالته إلى البوح بما كرّمه به اللّه من رؤى، وإيحاءات، وانخطاف إلى السماء الثالثة، يفعل ذلك في تواضع وخَفَر مثلما يفعل وهو يعترف بوهنه، وبجرائمه بحقّ يسوع وأتباعه لمّا كان مضطهداً لهم، وبالصراع الذي يمزّق ضميره فيحمله على فعل ما يأباه، والعجز عن فعل ما يتمنّى فعله.

و أخيراً ذلك الصوفيّ الغائص في اللّه، كان بفضل **تبصّره**، وسلامة **تمييزه** للأُمور، على ضوء معرفته ليسوع، **برغماتيّاً وديناميكيّاً**، قديراً على التكيّف مع جميع الظروف والأحوال، واتّخاذ الخطوات العمليّة الملائمة الكفيلة بإنجاح مشاريعه. فهو قد أوتي مواهب روحيّة نادرة، ولكنّه لم ينكفئ على نفسه، في نبوّة غامضة، أو في صوفيّة متأمّلة. بل أقام معادلة متوازنة بين نزعته الصوفيّة، وسلوكه البرغماتيّ، وبرغماتيّته لم تنلْ، في شيء، من

جرأته على التبشير باللامعقول، عندما كان يتعيّن عليه التميّز عن محيطه، في سبيل مجد اللّه. فلم يتورّع عن تحدّي معاصريه، كلّما دعت الضرورة، مستخدماً مفارقة جنون الصليب لإظهار قدرة اللّه الفائقة، وحبّه اللامحدود.

و ذاك الذي أَخذت عليه الرسالة كلّ نفسه، **ظلّ منفتح الذهن**، متعطّشاً إِلى التعلّم، متطلّعاً إِلى علاقات جديدة. وذلك المثـــقّف لم يحبس ذاته في إِطار نظام فلسفيّ عقلانيّ، ولا في برج المثقّفين الفضيّ، ولا في فئة المحظيّين، بل كان يحيا إِيمانه، على الأَرض، كلّ لحظة، مخاطراً بحياته، ولم تقصِه مواهبه الروحيّة الفريدة، وتوغّله في معرفة اللّه، عن الإِمعان في محبّة كلّ الناس.

لقد وصفه الأب " برنار أَلّو " بقوله : " إِنّه ينتصب رجل فكرٍ وقلبٍ وعملٍ معاً، على نحوٍ قلّما يوجد له مثيل في هذه الميادين الثلاثة. وهو، أَيضاً، رجل خيال، ولكنّ خياله محرّك، أَكثر ممّا هو رؤيويّ أو سمعيّ. فكره دائب الحركة ينطلق، بلا انقطاع، إِلى السماء، ثمّ يهبط إِلى آلاف الهموم الأَرضيّة التي يضعها، جميعاً، تحت أَشعّة المطلق ".

و فضلاً عن كلّ ذلك، يتمتّع بولس بملَكات فكريّة وروحيّة تجعل منه نموذجاً منقطع النظير. وكلّ من أَمعن في معرفته اعترف **بعبقريّته النادرة**. فهو يملك قدرة فريدة على استشفاف المشكلات الكبرى، وموهبة النفاذ مباشرة إِلى جوهرها، لا تعوقه المظاهر والحواجز، بل كالنّسر يحلّق شاهقاً، ويستجلي بوضوح، وعندما يتبيّن هدفه ينقضّ ويقبض عليه بقوّة، يقوده حدْسٌ ثاقب لا يُخطئ، فيتّخذ، دائماً، القرار الأَصوب والأوفر جدوى لقضيّته، والأَكثر غنى، والزاخر بالآفاق المستقبليّة المشرقة. صحيح أَنّه يستسلم لقيادة الروح، غير أَنّه يتبصّر خطواته بدقّة، ويخطّط لمشاريعه بعناية، آخذاً بالحسبان مقتضيات الزمان والمكان. وهو لا يكتفي بإِلقاء البذار، بل يتفقّد مراحل النموّ ومواسم القطاف، ويسهر بعناية على شؤون الجماعات التي يؤسّسها، ولا ينفكّ يدعّمها، ويقوّم اعوجاجها، ويوفّر لها أَسباب النموّ، بحضوره، أو حضور معاونيه، وبرسائله.

وعيٌ متبصّر للهدف، وجهد صبور في سبيل بلوغه، تكملها، وتدعمها **كثافة الإِيمان.** ولئن لم يتحقّق، قطّ، أَيّ إِنجاز ذو بال في معزل عن الإِيمان، فمن المحقّق، أَيضاً، أَنّ الإِيمان المفتقر إِلى التبصّر والصبر قد يُفضي إِلى أدهى الانحرافات.

الاندفاع نحو غايات تبدو، للوهلة الأُولى، مستحيلة التحقيق، قد يُعدّ سذاجةً، وجهلاً، ما لم يكن المتصدّي لها يحمل بين جنحيْه قلب طفل، وإِيماناً مطلقاً، وهذا ما امتلكه بولس بوفرة. إِنّه يعرف كيف يكون ساخراً، ولا ينخدع لا بنفسه ولا بالآخرين. ولكن عندما يتعلّق الأمر بأَهدافه السامية، يندفع إِليها بكلّ كيانه، وبكلّ ثقة وحماس، ويُساعده على بلوغ وطره، كلّ ما

فيه من توثّب، ورغبة في التضحية، وطبيعة مناضلة، وميل فطريّ إِلى القيادة واجتذاب الجماهير في إِثره، وغيرة متّقدة، ومحبّة لا تنضب ولا تخمد جُذوتها. اندفاعه الحيويّ يقوده إِلى فعل كلّ ما يفعل، أي إِلى إِنجازات تتخطّى قدرات البشر.

بالإجمال، شخصيّة بولس، في غناها واتّساعها مجمع للتناقضات، فهو متبصّر في اندفاع، وحازم في رقّة، قويّ في وهنه، فرح في دموعه وقسوة مِحنه، سحيق التواضع في أنفته ورفعة نفسه، جريء في مخاوفه، عذبٌ في غضبه وحدّته، برغماتيّ في صوفيّته السامية، وهو في ثباته لا يني يتطوّر.

و هو يوظّف هذه الشخصيّة بكلّ غناها في كلّ ما يفعل، لا فرق لديه بين السلوك والعمل، والتفكير، والكتابة.وما تعليمه سوى انعكاس لخبرته الشخصيّة التي خاضها وفقاً للظروف. لاهوته، وأَخلاقيّاته، ونظرته الماورائيّة لا تنفصل عن شخصيّته والظروف التي أَنضجها في معمعانها. ليس هناك " منهج بولسيّ ". بل هناك إِنسان عبقريّ يتفاعل مع معطيات معيّنة بكلّ غنى طبيعته الثريّة، وكلّ قدراتها. غير أَنّ فكرته من العبقريّة، والتوازن الرائع، بحيث تتجلّى واضحة النَسَق، وكأنّها مسبقة الإِعداد.

و لئن انصهرت كلّ معطيات هذه العبقريّة في سبيل بلوغ نجاح مدهش، ولئن ائتلفت جميع عناصر هذه الشخصيّة المتضاربة أَحياناً، في سعيها نحو الهدف الواحد، فلا ريب أَنّه كان هناك من يقود كلّ ذلك، ويراقبه، ومنه كان ينبع ذلك التناغم الرائع، هو ذاك الذي، في ظهيرة يوم صيف، ظهر، بغتةً، لذلك الرجل على طريق دمشق، واستحوذ، بقبضة واثقة، على مصيره. وإِن كان بولس عبقريّ الفكر، وبطوليّ الخُلُق، إِلاّ أَنّه أَكثر من ذلك. وأَسمى ما فيه اندفاعه الروحيّ، وعمل اللّه الظاهر أَبداً من خلال مسيرته. ولئن اتّسمت شخصيّته بالوحدة والاستقامة، فلأنّه، تلقائيّاً، أَسلم مصيره لمن ينبع منه كلّ شيء، ومن يعرف أَسباب كلّ شيء، ويرعى مصير كلّ شيء.

إِنّ النعمة التي استولت على بولس، وقلبت مساره، لم تلغِ طبيعته الغنيّة المعقّدة، بل زادتها غنى، وسمت بها. ومنذ اهتدائه وُلد فيه " إِنسان جديد " ما انفكّ ينمو ويزدهر، ولكن "الإِنسان القديم "، فيه، لم يمت دفعةً واحدة، فظلّ الصراع بينهما سجالاً.بيد أَنّ الإِنسان القديم كان يمضي من هزيمة إِلى هزيمة، ويزداد، مع الأَيّام، هزالاً، بحيث بدا بولس، عند عتبة شيخوخته، غير بولس المهتدي حديثاً، فنتوءاته قد سُوّيت، والتجارب الكثيرة قد جعلته أَكثر مراناً وليونة، ولكن بولس، في جوهره، لم يتغيّر كثيراً.

سحابة ثلاثين عاماً من مسيرته الحافلة بالأَحداث المثيرة، لم يكفّ بولس يعمّق معرفته لنفسه ولرسالته، ويصوغها على صورة مثاله الأَعلى، يسوع، راكماً اختباراته التي كلّفته

الكثير من المعاناة، وجمّاً من التمزّقات الداخليّة. ولئن هو كان، من جرّاء غنى شخصيّته الفريدة، متعدّد الوجوه، غير أَنّ كلّ وجه من وجوهه يعكس صورة المسيح، ورؤيته له. لقد اختزل، في ذاته، رجالاً كُثُراً، وجعلهم، جميعهم، في خدمة يسوع.

و لا عجب إِن أَلّبت هذه الشخصيّة الفذّة، في غناها وتعقيدها، من حولها، أَقصى الأَضداد، أَي أَشدّ المعجبين اندفاعاً، وأَكثر الناقدين قسوة. ومع ذلك يبقى بولس من شخصيّات التاريخ الأَشدّ سحراً، والأَبلغ تأثيراً، والأَرفع عظمةً. رجل العمل فيه يفرض إِعجابنا، والرجل في طور التحوّل يلفت انتباهنا، أَمّا الرجل المتحوّل فيمسّنا في الصميم، وما عاشه يستفزّ حبّنا.

و تبقى سمة بولس الأَكثر تميّزاً هي **قداسته**، التي تسنّم أَسمى ذراها، بفضل سعيه الدؤوب إِلى التمثّل بيسوع، تمثّلاً ينطوي على كلّ سرّ سلوكه، وبطولته، وحبّه.

و قد أوجز القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم وصف بولس بقوله إِنّ هذا الرجل "الذي لم يتخطّ طوله ثلاث أذرع، قد تجاوز السماوات "

الفصل السابع عشر

صوفيّة بولس وروحانيّته

لا يمكن الإلمام بشخصيّة بولس، إلماماً كاملاً، إلاّ من خلال علاقته الحميمة بيسوع. فيسوع هو مصدر لاهوته، وموضوع رسالته، وقوام حياته، وجوهر روحانيّته وقداسته.

قبل اهتداء بولس، كان يسوع هو همّه الأكبر، فقد تخيّل فيه خطراً على الشريعة التي كانت تمثّل له قمّة الكمال، فحاربه بكلّ ما أوتي من ضراوة وطاقات. ولكن، بعد أن أشرق عليه، في دمشق، نورٌ إلهيّ، كشف له، كشفاً ساطعاً، الحقيقة السامية الوحيدة التي عمي عنها حتّئذٍ، أدرك واقع يسوع، وافتُــتن به، ووقف على خدمته ومحبّته كلّ كيانه، وتوغّل في معرفته وحبّه، بحيث بات انعكاساً له.

ظهور القائم من الموت أشرع لبولس هوّة اللّه اللامحدودة، ولمحة عن حياة اللّه الداخليّة، وعن يسوع الذي أرسله الآب بدافع حبّه الجمّ للبشر، وعطفه عليهم، حبّ وعطف برّرا وجود الروح القدس الفاعل في نفوس البشر.

و قد استحوذ على بولس هوى ليسوع، صاعقٌ، محوِّل.كيف لا، وقد اكتشف أنّه، هو المجدّف، المضطهِد، محبوبٌ، حبّاً حارقاً، خاصّاً، من قِبَل من كان هو ممعناً في اضطهاده وشتمه، والذي جاءه بالحياة والبرّ، والنور الحقّ، بعد أن كان ساعياً وراء خلاصٍ مشكوكٍ فيه، لأَنّه بمستوى جهوده البشريّة، وكبريائه. اكتشف أنّه، رغم تيهه، وضلاله، مُرحَّبٌ به. لقد أدهشه أن يأخذ الربّ المبادرة، ويكون البادئ في الاستيلاء عليه، وأن ينتدبه، شخصيّاً، لمهمّة تعريف العالم أجمع بحبّه.ومنذئذٍ انقلب وجود بولس سعياً دؤوباً إلى اللحاق بمن قبض عليه، أوّلاً، وتضحية بكلّ شيءٍ من أَجل التعريف به، ونشر معرفته وحبّه في الورى، واندماجاً في ذاك الإله الذي أحبّه، وفتنه، وامتلك عليه مشاعره وطاقاته كلّها.

إنّ تحوّل بولس الذي ابتدأ في دمشق، استمرّ حتّى آخر يوم من حياته موثّقاً أكثر فأكثر تمثّله بيسوع. ويوماً فيوماً، تجلّى تألّق نفسه التي صُهرت في بوتقة المحن والآلام، والصلوات المستمرّة، والثقة المتجدّدة، بلا انقطاع.فبفضل تجربته الشاقّة، وما كابده من آلام ومتاعب، وما أُغدِق عليه من نِعَمٍ سنيّات، باتت نفسه نيّرة، شفّافة، تتجلّى من خلال أقواله وأَفعاله، وما يسِم نفسه من سلامٍ، وسجوّ، وثقة بلا حدود.

و لم يقتصر يسوع على الظهور لبولس وانتدابه للرسالة، بل وفّر له، لإتمام هذه المهمّة، أَقدر الوسائل نجاعة، فكان هو قوّته الجبّارة في وهنه، وسنده المنيع في فشله، ومنبع

فرحه في آلامه ومحنه. لا بل إنّه في سبيل إكمال تثقيفه اختطفه إلى السماء الثالثة، وأماط له اللثام عن بعض أسرار اللّه الفائقة التي تتخطّى الفهم، ويستحيل على الكلمات البشريّة الإفصاح عنها. وقد حبس بولس هذه الكرامة الفريدة في صدره طويلاً، خَفَراً وإجلالاً، وعندما اضطرّ للبوح بها، بعد أربعة عشر عاماً، دفاعاً عن صحّة رسالته، كان ما زال يلهث تأثّراً ورهبةً، ولم يعثر على كلمات يفصح بها عن ذلك الحدَث الفذّ، فاكتفى بالتلميح، بكلمات المجد والنور.

مذ التقى بولس يسوع في دمشق غدا يسوع كلّ شيء، بل غدا هو حياته ومحطّ كلّ آماله وتطلّعاته، واستحوذ على كلّ كيانه، وقلبه، وعقله، وإراداته. يسوع هو محور ماضيه ومستقبله، ومدار شمسه، وجاذبه الأوحد، وهو الذي يُضفي على وجوده ورسالته معنى. ومنذئذٍ بات يحتلّ مركز رؤية بولس، يسوع " صورة اللّه الغير المنظور"، "الأوّل في كلّ شيء "، الذي يجثو له كلّ ما في السماء، وعلى الأرض وفي الجحيم؛ وفيه يُختزل الكون السماويّ والأرضيّ.

منذ اللحظات الأولى، أظهر له يسوع أنّه يتماهى بإخوته والمؤمنين به، عندما عاتبه بقوله : " لمَ تضطهدني ؟ "؛ وشاول لم يكن قد عرف يسوع شخصيّاً، ولا هو شاهده يوماً، فكيف يمكن أن يضطهده ما لم يعنِ يسوع أنّ اضطهاد المؤمنين به هو اضطهاد شخصيّ له؟ ومنذئذٍ ترسّخ في يقين بولس أنّ يسوع والمؤمنين به واحد. وعزم على تحقيق هذه الوحدة في حياته وعلاقته مع يسوع، تحقيقاً كاملاً.

و كانت خطوته الأولى، في هذا المضمار، التخلّي عن كلّ قناعاته السابقة، ودوافعه.ثمّ تجرّد بألم – ولكن بعزيمة ثابتة – عن كبريائه، ورغباته، وشهواته، فمات مع المسيح لكي ينهض معه في قيامته، ومضى في هذا المضمار، ببطولة وثبات، حتّى آخر الشوط، فاستطاع أن يهتف : " لقد صلبت مع المسيح، فلست أنا، حيّاً، بعد، بل هو المسيح يحيا فيّ. وإن كنت الآن أحيا في الجسد، فإنّي أحيا في الإيمان بابن اللّه الذي أحبّني وبذل نفسه عنّي "

و هو لم يتخلّ، فحسب، عمّا كان يعدّه، من قبل، امتيازات، ونجاحات، وكمالاً، بل بات يعدّ كلّ هذه عقبات مقيتة كانت تحول دون معرفته ليسوع المسيح، فأعلن بثقة : " هذه الأشياء التي كانت لي ربحاً، قد عددتها خسراناً، من أجل المسيح. بل أعدّ كلّ شيء خسراناً إزاء هذا الربح الفائق : معرفة المسيح يسوع ربّي الذي لأجله خسرت كلّ شيء، وفي كلّ شيء لا أرى سوى أقذار حتّى أربح المسيح " (فيليبي 3 : 7 – 8)

و لم يكتفِ بولس بالتمثّل بخصال يسوع، بل تطلّع إلى الاندماج فيه، والعيش فيه، كي يعيش يسوع فيه، ومن خلاله يقول، ويفعل، ويبشّر ويؤثّر. فيسوع وحده قادر على تمكين

رسوله من تخطّي أوهانه، ومِحَنه، والعقبات التي تقام في وجهه، كي يقوى على أَداء الرسالة الموكلة إِليه.

و كثيراً ما اعترف بولس بأَنّ نفسه ممزّقة بين غايتين يدفعه إِليهما هوى مضطرم واحد، يسوع والرسالة، كما يتجلّى من قوله الشهير : " الحياة لي هي المسيح، والموت ربح. ولكن إِن كانت الحياة في الجسد تهيّئ لي عملاً مثمراً، فلا أَدري ماذا أَختار... فأنا واقع بين عاملين : أَرغب في الانطلاق، فأكون مع المسيح، وهذا هو الأَفضل بكثير؛ بيد أَن التلبّث في الجسد، أَشدّ لزوماً من أَجلكم... (فيليبي 1 : 21 – 23)

و يسوع الذي فتن بولس على هذا النحو، هو يسوع الصليب : " إِنّي لم أَشأ أَن أعرف شيئاً وأَنا بينكم، غير يسوع المسيح، بل يسوع المسيح المصلوب " (ا كور 2 : 2) ولئن كان " كلام الصليب عند الهالكين جهالة، فهو، عندنا، نحن المخلّصين، قدرة اللّه " (اكور 1 : 18) ومن ثمّ لا يفخر بولس بشيء إِلاّ بصليب الربّ يسوع. وما يفتن بولس هو أَنّ كائناً مثل يسوع قد استسلم للموت افتداءً له. ولم يكن له قِبَل على مقاومة حبّ بهذه الكثافة، بل استجاب له، بلا قيد ولا شرط؛ ومن ثمّ لم يَعُدْ، هو، من يحيا، بل المسيح هو الذي أَضحى يحيا فيه. لقد ذابت حياته في حياة يسوع، وعلى غرار كبار العشّاق، ابتدع للتعبير عن هذا الحبّ الجمّ، مفرداتٍ بكراً. فالحياة " في المسيح " هي مشاركته آلامه، وصلبه، وموته ودفنه، والحياة " مع المسيح " هي مشاركته قيامته، ومجده الأَزليّ، وإِرثه للآب، والاتّحاد معه في كيانٍ واحد.

بولس هو أَوّل من استخدم اصطلاح " في المسيح "، الذي ورد 164 مرَّة في رسائله. الحياة " في المسيح " هي تلك التي يخوضها المرء بإِيمان راسخ، وإِرادة حرَّة، وبحبٍّ خالص، كي يُحكم اتّحاده بالمسيح، ويستحقّ مفاعيل فدائه، وصلبه، وقيامته. ومتى أَمسى الإِنسان " في المسيح "، استقرّ المسيح فيه؛ ومن يولد في آدم الجديد يرث كلّ ما لَه، بصفته ابن اللّه، من برّ، وقداسة، وحياة، يحيا فيه، ويبقى " معه " ويصبح عضواً في جسده السرّيّ.

منذ التقى بولس يسوعَ في دمشق، ما انفكّ يسعى إِلى فهمه، والتمثّل به، والاندماج بصليبه وقيامته، سعياً لا نهاية له، ولا مهادنة فيه.وقد باح لأَحبّائه الفيليبيّين بتلك النار التي كانت تستعر بين ضلوعه : " مُنيتي أَن أعرفه، هو، وأعرف قدرة قيامته، والشركة في آلامه، فأصير على صورته في الموت، على أَمل البلوغ إِلى القيامة من بين الأَموات. ولا أعني أَنّي قد أَصبتُ الهدف، أو بلغت إِلى الكمال. إِنّما أواصل السعي لعلّي أدرك المسيح يسوع لأَنّه هو قد أدركني...أَمر واحد أجتهد فيه : أَن أَنسى ما ورائي، وأَمتدّ إِلى ما أَمامي... " (فيليبي 3 : 10 – 13)

لقد توغّل بولس، بعيداً، في تأمّل أَسرار يسوع، يقوده منطق داخليٌّ محكم، مشبع بمفهوم الصليب والقيامة والنعمة، بحيث يعسر علينا، نحن السطحيّين، أَن نتبعه دائماً. وأَمّا الانخطافات العابرة التي يتيح له يسوع، من خلالها، الإِطلال على رؤى فائقة السموّ، فما كانت إلاّ لتشحذ رغبته في جعل علاقته بيسوع أوثق حميميّة، وأَثبت دواماً.

لقد بات يسوع هو حياته، هو الذي سانده طيلة ثلاثين سنة من النضال الشاقّ، والجهود المريرة، بحيث يتعذّر تفسير حياة بولس إلاّ من خلال تجربته وممارساته الصوفيّة، التي ارتقت به إِلى قمّةٍ بات يشهد منها ما يتخبّط فيه العالم بعيونٍ نيّرة، وأَتاحت له أَن يعلن : " إِنّنا مواطنو السماء "

و هذا السموّ لم يدفعه إِلى الغرور ولا إِلى التعصّب، بل جعله ينفتح على كلّ ما هو "حقّ وكرامة، وعدل ونقاوة، ولطف وشرف... " (فيليبي 4 : 8) تحدوه القناعة " بأَنّ اللّه، في كلّ شيء، يسعى لخير الذين يحبّونه، المدعوّين بحسب قصده " (روما 8 : 28)

لقد وعى بولس أَنّ عليه الشهادة لحبّ اللّه الجمّ، وقد دأب على التأهّب لهذه الشهادة بالتوغّل المتواصل والعميق في حياة الربّ. وبولس، على غرار كبار الصوفيّين لا انفصال لديه بين العمل والمعرفة الفائقة الطبيعة. ومنذ اللحظة التي استولى فيها النور عليه، بات كلّ شيء فيه بتصرّف الربّ، غارقاً في رحابه، وكما اعترف، فيما بعد، لم يعُد هو الذي يحيا بل الربّ هو الذي يحيا فيه. ومن هذا الاندماج التامّ بربّه – الذي بات محور تعليمه، ونسيج حياته، استمدّ بولس خير وسائله الرسوليّة.

إِنّ حياة بولس وتعليمه واحد؛ وبقدر ما هو يحتمل الآلام في سبيل رسالته يزداد التحاماً بمن هو مثاله الأَوحد. بصفته جنديّ يسوع، والمناضل تحت راية ثورة الصليب، يغدو انتصار قضيّته هو هدفه. ولكن هل بلوغ هذا الهدف يمكن أَن يتحقّق نهائيّاً، إِلاّ بالأسلوب الذي بلغ به المعلّم هدفه، أَي بالآلام والموت ؟ أَلم يصرّح بولس، في سياق حديثه عن الآلام التي كابدها في سبيل رسالته، بهذا القول المؤثّر : "إِنّني أتمّم، في جسدي، ما ينقص من آلام المسيح " ؟ أَوَ لم يختزل، بهذه العبارة، كلّ رسالته ؟

هذا الشعور الغامر هو الذي يفسّر فرحه المتفجّر أَبداً، والاندفاع الذي ما انفكّ يعبّر عنه، في غمرة أعتى اضطرابات تعرَّض لها. فكيف يحزن أَو يُحبط من آمن أَنّه مناضل في حلبةٍ، الخاسر فيها هو الرابح، وأَنّ كلّ امتحان هو فرصة للتقرّب من المسيح؛ وأَنّ كلّ فشل، في منظور بشريّ، هو انتصار في منظور أَسمى ! وهل من عجبٍ، والحالة هذه، إِن كتب بولس من روما، وسيف الإِعدام مسلط فوق هامته، إِلى أَحبّائه الفيليبيّين : " إِفرحوا في الربّ...إِفرحوا على الدوام، وأَقول أَيضاً : " افرحوا ".

هذا الفرح يكسبه ثباتاً وبسالة، فجبين هذا الثائر، على دروب مغامراته، مشعّ أبداً بالنور، وقلب هذا المقاتل يخفق جذلاً بمن يحيا فيه ومعه.

على صليب يسوع وقيامته بنى بولس إيمانه، إيماناً كفيلاً بنقل الجبال، إيماناً قاطعاً نفّاذاً إلى أعماق القلوب، إيماناً هو طاقة ومعين قوّة، لا بل هو يسوع نفسه، ابن اللّه، وليس خطاباً إيديولوجيّاً جديداً، بل هو قدرة حياة. ولم يكن لبولس من مطمح سوى أن يكون الصدى الأمين لهذا الكلام الذي يتردّد صداه في قلبه.

و من ثمّ لم تنبع دعوته من مشروع إنسانيّ، بل كانت صوفيّة الصبغة، فهو يستهلّ دائماً رسائله بوصف نفسه خادم المسيح، المدعوّ ليكون رسوله بمشيئة اللّه. وهو موقن أنّ هذه الدعوة ليست وهماً ولا حلماً، بل واقعاً أكّده له الربّ بنفسه.

ولا بدْعَ، بالتالي، إن جاءت جميع كلماته وتعابيره ناريّة، متجلّية، مؤثّرة، مثلما اكتوى هو نفسه، وتحوّل وتجلّى بفعل المسيح الناهض من الموت. إنّه ينظر إلى كلّ شيء، وكلّ إنسان، على ضوء الفصح، وبعيون الناهض من الموت، ولسان حاله يهتف أبداً : "يسوع حيّ، فقد غلب الموت، ونحن على ذلك شهود "

بقوّة هذا الإيمان تمكّن بولس من الظهور على المحن الداخليّة والخارجيّة، التي حفلت بها حياته. فهو قد عانى وهن الجسد، وأسر اللحم والدم، وقد اعترف : (روما 7 : 27) : أشعر في أعضائي بشريعة أُخرى تحارب شريعة عقلي، وتجعلني أسيراً لشريعة الخطيئة ". ولكن يتّضح، من رسائل أُخرى، مدى انتصاره على هذا الوهن، وما بلغه من سموّ، وسجوّ نفس، وتحرّر من أسر الجسد، ورقيّ في سلّم الروح، بحيث استطاع أن يقدّم نفسه قدوةً لكلّ من توخّى أن يترفّع عن غوايات الجسد وشهواته، ويعيش في عفّةٍ وتسامٍ "

و قد كابد بولس شتّى ضروب المِحَن، و" ضيقاً من كلّ وجه: من الخارج حروب، ومن الداخل مخاوف " (2 كور 7 : 5)، ولم يقف منها موقف تحدّ ولا مبالاة، بل عاناها بعمق؛ غير أنّه تشبّث، أبداً، بالمفارقة الإلهيّة، التي وقته من الانهيار. وقد سارعت أبداً، قوّة خارجيّة فائقة إلى مساندة ضعفه، ضامنةً له النصر، لا بل إنّ هذه المحن كانت تغمره فرحاً : " أجل إنّي أُسرّ بالأوهان، والإهانات، والضيقات، والاضطهادات، والشدائد، من أجل المسيح.لأنّي متى ضعفت، فحينئذٍ أنا قويّ "، ففي هوّة ضعفه يغدق عليه الربّ كنوز قوّته.

منذ اللحظة الأولى آمن بولس أنّ التوغّل في معرفة يسوع يقتضي التوغّل في التمثّل به والاندماج فيه، وهذا ما مارسه على ذاته، ودعا المؤمنين إلى الأخذ به، حاثّاً إيّاهم على التماس القداسة، والنموّ والكمال والحبّ، واقتفاء خطى يسوع.

لقد أهاب بالرومانيّين أن يرتدوا المسيح، وبالفيليبيـيّين أن يكون، فيما بينهم، الشعور الذي هو، أيضاً، في المسيح يسوع؛ وبالكورنثيّين أن يكونوا نفحة يسوع الطيّبة؛ وبالأفسسيّين أن يبلغوا الرشد، والقامة التي توافق كمال المسيح؛ وقد لخّص بولس رؤيته بدعوته الكولوسيّين إلى أن يكون المسيح هو كلّ شيء في جميعهم.

حبّه ليسوع كان يتفوّق على كلّ مشاعره الأُخرى، حتّى الأَكثر براءة، فحتّى صداقته كان يغمرها هواه المضطرم ليسوع الذي يمثّل له كلّ شيء. ربّما كان انفصاله عن برنابا آلم من النزاع وأمرّ من سكرات الموت، فقد كانت صداقة برنابا تملأ عليه نفسه، ولكنّه آثر هذه النهاية الموجعة على إلحاق أيّ أذى برسالة يسوع. فحبّه ليسوع هو التزام وبطولة، وتحرّر من كلّ شيء، إلاّ من سيطرة الربّ المطلقة.فيسوع يروي كلّ عطشه إلى المطلق، ولا شيء يقوى على فصله عنه.

و لا جَرَم أنّ بولس أدرك، إثر إفتراقه عن برنابا، أنّ الصديق الكامل الوحيد هو يسوع، الحاضر أبداً، الوفيّ أبداً، الوحيد الذي يفهمنا فهماً عميقاً، ولا يتخلّى عنّا أبداً، حتّى عندما نتنكّر له أو نسيء فهمه. يسوع هو الذي تتجلّى فيه الصداقة، بملء معناها، وكلّ سناها.

و في سبيل الحفاظ على تلك الصداقة الثمينة، استعان بولس بالصلاة. فالصلاة هي غذاء العلاقة بيسوع، وهي ضِرامُها.وقد قرن بها كلّ عمل، وثابر عليها بحرارة، في كلّ حين. ولطالما جثا على ركبتيه، واستغاث بالروح، وتمادى في الصلاة، وألحّ، ولطالما أَنفق الليالي مصلّياً؛ كما أنّه آمن بجدوى صلاة الآخرين في سبيل رسالته، فألحّ في التماسها، بل في استجدائها. ويتّضح من رسائل بولس أنّ صلاة بولس، هي قبل أيّ شيء، شكر لنعم اللّه الفائضة، وعرفان بجميل صنائعه التي تفوق الوصف والإحصاء.وبولس شديد الشعور بما هو مدين له ليسوع، وإنّنا لنكاد نسمع لهاثه وهو يهتف : " الويل لي إن لم أُبشّر بيسوع " "يسوع هو الذي يحيا فيّ "، " الحياة لي هي المسيح" ؛ "شكراً للّه الذي يقودنا، على الدوام، من ظفر إلىظفر، في المسيح، وينشر بنا، في كلّ مكان، نفحة معرفته، فإنّا، للّه، نفحة المسيح الطيّبة " (2 كور 2 : 14 – 15)

و بالإجمال لا يمكن فهم شخصيّة بولس إن أُغفلت حقيقة أنّه، فوق كلّ شيء، صوفيّ، أودع كلّ ذاته بين يدي ربّه، وأقام معه حواراً لا ينقطع. ولئن غدا بولس على ما هو عليه، ولئن هو حقّق ما يدهش، فلأنّ آخر، أكثر حميميّة له من ذاته، قد قاده، وواكبه على مدى مسيرته. هذا الواقع ما انفكّ بولس يؤكّده بقوله : " لست أنا من يحيا، بل المسيح هو الذي يحيا فيّ ".

حياة بولس " في " يسوع، واندماجه الحميم به هما أساس كلّ روحانيّته؛ فالمسيح هو الجوهريّ الوحيد، وكلّ ما سواه، وكلّ إِنجازاته، بل حتّى تبشيره ورسالته، لا قيمة لهما إِلاّ بقدر ما يمثّلان من خدمة ليسوع، وما يعبّران عن حبّه.

إِنّ حبّ بولس ليسوع جعله مثيلاً له، يتكلّم بلسانه، ويحبّ بقلبه؛ بحيث استطاع بولس، مع تواضعه، أَن يدعو أحبّاءه إِلى التمثّل به كما تمثّل هو بالمسيح، أو، بالأَحرى، أن يتمثّلوا بيسوع مثلما هو تمثّل به، وعاش فيه.

و لا بدْعَ إِنّ أَحلّ الذهبيّ الفم بولس في المنزلة الأولى بعد يسوع، معلناً " قلب بولس هو قلب يسوع "

و نحن بإنصاتنا إِلى خفقات قلب بولس نكتشف عظمة غنى حب يسوع الذي يتخطّى كلّ حبّ وكلّ معرفة.

الفصل الثامن عشر

عظمة بولس وأَثره

سُمّي " الأوّل بعد الوحيد "، لأَنّه كان أَوّل من أَدرك جدّة المسيحيّة، وتميّزها عن اليهوديّة، وقشابة تعليمها، وأنشط من عمل على ترسيخ هذا التعليم ونشره في أرجاء المعمورة. وقد اختاره الربّ وجعل منه صنيعة روحه، وداعيته، ورسوله، لأَنّه كلّيّ، يوظّف كلّ كيانه وكلّ طاقاته في كلّ ما يتصدّى له من مهامّ، بلا تحفّظ ولا تجزئة، ولا يرتضي من أَيّة غاية بأَقلّ من الكمال.

لقد دعاه الربّ في لحظة حاسمة من تاريخ الكنيسة الوليدة، لكي يعمل، بقوّة روحه، على توطيد أركانها، على أَساس تعليم يسوع الذي قلّما فهمه أَحد سواه كما فهمه هو. وقد اصطفاه لكي يكون، مع بطرس، عماد الكنيسة، وقائدي سفينتها. ولئن كان بطرس وراء الدفّة، فبولس هو الذي أخرج هذه السفينة من البحيرة، وانطلق بها إِلى أَعالي البحار، متحدّياً العواصف، وجامعاً الصيد الوفير.

و ضعه الربّ إِلى جانب بطرس كي يضمن ثبات المبدأ والسلوك، عندما يجنح بطرس الطيّب إِلى الحيرة والتردّد، ويضمن الحزم عندما تدفع ببطرس عاطفته إِلى المصانعة والتساهل؛ فلولا صلابة بولس، لكان عسيراً على الكنيسة الفتيّة الانعتاق من أَغلال الشريعة والاستقلال عن اليهوديّة، وعن وهم التميّز والشعب المختار، ولتعذّر تقويض جدران العداوة بين الشعوب، في سبيل الانفتاح على الوثنيّة بلا حدود، وإِبراز دين يسوع، كفجر نديّ، دين حبّ وإِخاء ومسكونيّة. ولو لم يكن لبولس سوى هذا الفضل لكان حسبه كي يتسنّم أَشمخ قمم العظمة والخلود، ففضله هذا كان له أَثرخيّر على البشريّة جمعاء، وعلى حضارتها.

و المفارقة في ذلك أَنّ التلاميذ الإِثني عشر كانوا يهوداً بسطاء عاديّين، في حين كان بولس فرّيسيّاً أَي مفرط التشدّد في شؤون الشريعة، وكان فيها معلّماً ورابيّاً؛ وفيما عُسر على التلاميذ تخطّيها، خاض بولس في ميدان الاستقلال عنها، وإِثبات بطلانها، إِثر مجيء يسوع، معركةً ضارية لا هوادة فيها ولا مهادنة، دفع في سبيلها حياته كلّها بما حفلت به من مِحَن، واضطهادات، ومخاطر والآم وضرّجها، أخيراً، بدمائه الزكيّة.

و مع أَنّ بولس لم يحظَ برؤية يسوع الإِنسان، وبالعيش إِلى جانبه، في أَثناء عبوره بكوكبنا، على غرار الإِثني عشر، إِلاّ أَنّ يسوع اختاره اختياراً خاصّاً ليجعل منه رسوله وداعيته بين الأُمم، لسانه وقلمه، سيفه ونوره.

إِنّه جذوة نار أوراها الربّ عند مشارف دمشق، لكي يضرم بها قلوب البشر في كلّ مكان.

إِنّه رجل نور لأَنّ الناهض من الموت أَشرق عليه بكلّ سناه، فوسمه إِلى الأبد.

و لا عجب إِن احتفظ العهد الجديد بالملامح الأَساسيّة التي تميّز كلاًّ من يسوع وبولس، وسرد أَهمّ مراحل سيرتهما وأَقوالهما، في حين أَغفل، تقريباً، ما يتعلّق بالرسل الذين لا نعرف سوى القليل عن قلّة منهم، ونجهل كلّ شيء عن معظمهم. فقد كان من شأن التلميذ الأَثير، يوحنّا الإِنجيليّ الحبيب، أَن يحتلّ مكان الصدارة من سفر " أعمال الرسل "، ولكنّه لبث في الظلّ، وظهر بطرس، الصخرة التي عليها أَشاد يسوع كنيسته في مستهلّ هذا السفر، ثمّ ما لبث أَن برز الطرسوسيّ الذي لم يعرف يسوع، قبل صعوده إِلى السماء، على أَنّه رسول المسيح إِلى الأُمم، والعامل الدؤوب على بنيان الكنيسة التي شاءها مؤسّسها.

" وجهان بقيا، الوجه الأَصليّ، الفريد، الأوحد، لأَنّه إِلهيّ، ووجهٌ بشريّ هو صورة له تشعل فينا رجاء التمثّل بالأَصل، مثلما تمثّل بولس الذي قال : " تمثّلوا بي مثلما أَنا أَتمثّل بالمسيح." (ريتشيوتّي)

لقد كان بولس رسولاً منقطع النظير، وعبقريّةً لاهوتيّة فذّة، في فجر المسيحيّة، وشخصيّةً معقّدة فريدة الغنى، وأَكثر جاذبيّة ممّا تصوّر أَحياناً، لم يضمّ الجيل الأَوّل من الرسل نظيراً لها. ومثل هذه الشخصيّات تثير الكثير من العداوات والمعارضة، ولا عجب إِن لم يستطع بولس خلق إِجماع حول اسمه، ولكنّه كان، أبداً، روح الجماعات المسيحيّة الأَولى.

لقد كان حجراً ثميناً صقلته النعمة، محترمةً طبيعته، لكي تجعل منه مأثرة فريدة، ولكنّ بعضهم وجدوا هذا الحجر شديد القسوة، جارحاً.

إِنّه وليّ اللّه، ولكنّه قُدّ من صخرة صلبة، فلم يساوم، ولم يتنازل، وأَثارت شهادته الملتهبة هوىً، عدوانيّة خصومه وحفيظتهم، وتحفّظات ذويه، وتوتّرات مؤقّتة فيما بينهم. وقد أَحرجت جرأته بعض الرسل؛ وأَفضت صلابته إِلى انفصاله عن أَعزّ أَصدقائه برنابا الطيّب، وإِلى مواجهة مع بطرس الذي كان يجلّه، فتجلّت مواقفه البطوليّة لا في التصدّي لخصومه فحسب، بل في التضحية بما هو عزيز عليه من أَجل إِنقاذ الجوهريّ.

و مع ذلك لم يجد نفسه، يوماً، وحيداً، بل جمع، من حوله، كوكبة من أَخلص المخلصين، الذين حفظوا الوديعة، ودأبوا على نشر رسائله وفكره. ودعّم رسالته أَقطاب صمود وإِشعاع، وتنافس على خطب صداقته رسُلٌ عديدون، وجموع من المؤمنين الذين بشّرهم ونسج معهم علاقات مودّة وثيقة ورقيقة.

لقد بشّر بولس لا بخُطَبه ورسائله فحسب، بل وخصوصاً بقدوة حياته التي كانت مصداقاً لأَقواله، والتي بفضلها نفذ إِلى قلوب المؤمنين وعقولهم، على غرار كبار القدّيسين الذين لم يكتبوا سوى القليل، ولكنّهم حفروا أَفكارهم في أَذهان البشر، بأَفعالهم. وقد أَدرك بولس، مذ كُلِّف بالرسالة، أَنّ خير وسيلة للتعريف بيسوع هو التوغّل في التمثّل به، والوفاء لوصاياه، فأمعن في التمثّل به، حتّى صار يسوع هو حياته، وكان بطلاً في الوفاء حتّى الاستشهاد، لأَنّ إِيمانه لم يكن مجرّد ثمرة اجتهاد فكريّ، بل كان نابعاً من شركةٍ حيّة مع يسوع، وفي هذه الشركة يسوع هو الذي يسبغ على هذا الإِيمان منعته.

حياة بولس حياة فريدة بتحوّلاتها وثباتها، حياة تختلج بالهوى، وتضجّ بالبطولة، وتنيرها أَضواء أَسمى معرفة.

منذ أَيّام المسيحيّة الأُولى اعتُبر بولس الرسول الممتاز، والقدّيس البطل، والمبشّر المنقطع النظير، الذي حقّق فتوحات روحيّة على نطاق العالم، وأَسّس، في كلّ مكان، كنائس وجماعات مسيحيّة.

و قد شاع تصويره شاهراً سيفاً، رمزاً لماضيه كمضطهد، وللعنف الذي واكب حياته، ورمزاً لما سيم من عذاب. وقد انقلب سيف المضطهد في يمناه " سيف الروح، أي كلمة اللّه"، سيف تبشير قاطعاً نفّاذاً.

لقد بشّر بولس بلسانه، وقدوة حياته، وخلّد تبشيره برسائله التي "تحاكي رعداً يدوّي في العالم أجمع ".وما انفكّت أَقواله المضيئة دعوة إِلى إِعمال الفكر، والتأمّل والصلاة، وما برحت، منذ قرون، تقلب النفوس والمصائر. فبعض أَسطر من رسائل بولس كانت كافية لطرد الظلمات التي كانت تقطن نفس أغسطينُس، وتقلب كيانه ومصيره، وتحوّله، من ماجن عابث، إِلى واحد من أَكبر اللاهوتيّين.

و بفضل تغذّيه برسائل بولس أَلّف القدّيس إِينياس دوي لايولا " تمارينه الروحيّة " الهادفة إِلى تثقيف رفاقٍ ليسوع مرتبطين شخصيّاً بمعرفةٍ تبلغ حدّ الحبّ المجرّد الكفيل بجعلهم خدّاماً لملك الحقيقة الوحيد. وكلّ تجدّد في الكنيسة نجم عن معرفةٍ أَوثق وأَعمق لفكر بولس.

و جميع الذين حاولوا التوغّل في معرفة المسيح تبيّنوا أَنّ معرفة الحقيقة المسيحيّة تقتضي الاطّلاع على خبرة بولس، وبواسطتها التمعّن في معرفة يسوع الحيّ في أَتباعه.

و لئن كان انتشار المسيحيّة مديناً بالكثير لبولس، فالحضارة الإِنسانيّة تدين بالكثير للمسيحيّة، ومن ثمّ فكلّ إِنسانٍ متحضّر مدين، نوعاً ما، لبولس، في ما هو أَسمى وأَغلى من العلم والتقنية، أي في المعرفة التي تهب الحياة. فلا بدْع، إِذن، إِن قال أَلكسي كاريل : "لقد كانت ولادة القدّيس بولس، حدَثاً أَجلّ شأناً من ولادة نيوتن وباستور "

أَلفان من السنين كرّت، وصوت بولس ما انفكّ يدوّي، نابضاً بالروح، مشعّاً بالحقيقة الإِلهيّة، منيراً الضمائر والقلوب، مجيباً على التساؤلات، مشدّداً العزائم والإِرادات، منتشلاً من التيه واليأس آلاف المتعثّرين، صانعاً أرتالاً من الشهداء والقدّيسين.

صحيحٌ أنّ الكنائس التي أَنشأها في آسية الصغرى قد اندثر معظمها، وبات أَثراً بعد عين، فالإِنجازات التي تتحقّق في إِطار الزمان والمكان، معرَّضة للدوال والزوال لأَنّها تحمل طابع المادّيّ الفاني. أَمّا منجزات بولس الروحيّة، فقد حُفِرت في النفوس والأَذهان، وستظلّ خالدة، وسيظلّ فكر بولس يملأ الزمان.

و قد أوجز " هولزنر " عوامل خلود بولس في هذه الأَسطر :

" لقد حقّ لذاك الذي كان يدوّن رسائله الخافقة بالروح أَمام نول حياكة في أَفسس، أو على ضوء شمعة نائسة في سجنه الرومانيّ، أَن يقول :

" إِنّني أَحيك على نول الزمن الهدّار،

ناسجاً ثوب الألوهة الحيّ ".

و لئن حقّ لإِنسان الافتخار بأَنّه نسج، في سدى الحضارة الغربيّة، لحمة اللّه، فهذا الإِنسان هو صانع الخيام، والحائك الطرسوسيّ.

ما هي عظمته الشخصيّة ؟ إِنّ كلّ ما هو عظيم بسيط، ويبسّط مظاهر الحياة المشتّتة. وإِن كانت القضايا التي تصدّى لها بولس، والتي جعلته على صدامٍ دائم مع اليهود، قد عفاها الزمن، إِلاّ أَنّ الروح الذي حداه ما زال حيّاً، وقد أَصبح هو روح الحضارة.إِنّ كلّ ما هو أَرضيّ وزائل إِنّما هو مطرقة القدَر التي تفجّر من الحجر الشرارة الإِلهيّة. وكلّ ما يحكمه الزمن يفنى كثوب خلِق. أَمّا ما يتخطّى الزمن، فيتجدّد، ويصمد رغم كلّ التحوّلات.ليس الإِنسان عظيماً بالولادة، ولكنّه يصبح كذلك بدعوته وتفانيه في خدمةٍ تفوق قدرات البشر. وفي هذا المضمار لم يبذّ أَحدٌ بولس عظمةً. فذوبان أَناه الكلّيّ في المسيح هو روح تعليمه، وسرّ عظمته.

و ما هو عظيم يظلّ فاعلاً في أَبعاد المستقبل، وفي هذا تكمن عظمة بولس التاريخيّة والعالميّة. علينا أَلاّ نغفل، اليوم، أَنّ الرجل الذي صاغ المفهوم الاجتماعيّ الجديد، انطلاقاً من تعليم معلّمه السماويّ، ومن إِرث العالم القديم، يدعى بولس الطرسوسيّ، وأَنّ الشعور المسيحيّ هو الذي يربط بين أَزمنة الأمس وأزمنة اليوم.

لقد استخلص بولس نتائج فكر معلّمه يسوع القصوى، فضحّى باليهوديّة كدين. وعندما سقطت الغشاوة من عينيه في دمشق، أَبصر كلّ ما في المسيحيّة من جدّة. ولم يكن، قطّ، دافعه " اللحم والدم "، بل دافعاً فائقاً، سماويّاً. إِنّ كلّ من يُغفل، في بولس، هذا الطابع الذي يتخطّى

الزمن والوطن، والطبيعة، لن يرى في شخصه، وفي أَثره، سوى لغزٍ مستعصٍ على الحلّ. ولا يمكن فهمه إِلاّ بكونه عاش في المسيح، وبصفته مسيحيّاً، صار كلاًّ للكلّ."

إِنّ صوت بولس ما زال مدوّياً، ولكأنّ رسائله كُتِبت لكلّ إِنسانٍ في كلّ جيل. وكلّما طالعنا رسائله أو استمعنا إِليها، توهّجت في أَذهاننا الأنوار الباهرة المنبعثة من اكتشافاته الفريدة، والتي ما انفكّت تهزّ قلوبنا وعقولنا، طاردة ظلمات هواجسنا وعتمات العالم، وباثّة في تضاعيف نفوسنا روح معلّمه الإِلهيّ. فتلك الصفحات لم يبلِها الزمن إِنّما أَكسبها تألّقاً، وما زالت عِبَرها معاصرة، نابضة بالجدّة.

و في هذا السياق كتب دانييل روبس :

" في ما يتخطّى كرّ القرون، وتدافع الحدثان، تظلّ رسالة بولس حيّة، متألّقة، ولن يغشاها غبار الزمن أَبداً، وبوسع من يتأمّل مسيرته، وينصت إِلى أَقواله، أَن يستنتج دروساً دائمة المعاصرة.

في وجه الإِنكار واللامعقول، وهما أسوأ ما يتعرّض له الوجدان من تجربة، يميط بولس القناع عن سرّ العالم والكيان ويبرز يقيناً راسخاً بأَنّ، ثمّة، تفسيراً فائقاً، يفرز معنىً نهائيّاً لكلّ " ماذا " وكلّ " كيف ".

و هو، في مواجهة الخيانات البشريّة المستمرّة، والنسيان الشامل، التي يغرق فيها العالم، يؤكّد، بقوّة إِقناع فذّة، واقعاً حيّاً، لا تقوى أَيّة سلطة على نفيه، وحضوراً سامياً لا تقوى خيانة على الحدّ من رأفته اللامتناهية.

و على مشاعر اليأس التي تعترينا من صميم وضعنا البشريّ، والتي نمارس آثارها المدمّرة على أَدقّ أوتار كياننا، ولا سيّما في حقبة مثل حقبتنا، أَعلن بولس وكرّر أَن ليس من قدَرٍ محتوم، وأَنّ الإِنسان المفتدى موعود بالانتصار النهائيّ على الخطيئة وعلى الموت بضمان المجد والقيامة، وهو الذي هتف : " أين انتصارك، ياموت، وأَين شوكتك ؟ "

و في عالم عنف، وكراهية، يعلن الرسول العظيم، بعبارات خالدات، رسالة يسوع، رسالة المحبّة، وقدرات الحبّ اللامحدودة، وقد عبّر عنها بحرارة بشريّة لا تُضاهى.

لنا، نحن المسيحيّين، ينهض بولس، بلا مراء، مثلاً، لا أروع ولا أَنقى، لهذه الشعلة السامية التي يحسن يسوع إِضرامها في النفوس التي تحبّه. وللذين لا يشاركونه إِيمانه، يظلّ بولس عبقريّاً، وبطلاً، وشاهداً لقضايا أَرفع شأناً من الحياة نفسها، ورجلاً يُشرّف الإِنسانيّة.

إِنّ التاريخ يرى، في ذلك الطرسوسيّ النحيل، أَجدى مناضل عرفته ثورة الصليب، في أَيّام نشأتها.وبعد أَلفين من السنين لم تفقد أَيّة كلمة من تعليمه مغزاها، أو أَيّة مبادرة من مبادراته جدواها. ولا غرو في ذلك، فعلى هذه الثورة أَن تتجدّد باستمرار ".

الجزء الرابع

كلمات من نور

(مقتطفات من رسائل القدّيس بولس)

تمهيد

تحفل رسائل القدّيس بولس بالأَقوال التي تختزل، في كلمات معدودات، دنيا من المعاني الثرّة، والرؤى البعيدة المدى، التي تُشرع للفكر والقلب آفاقاً لا حدود لها.

عبارات كالحمم، متفجّرة من قلبٍ ملتهب، كلّ لفظة فيها منجمٌ زاخرٌ بثروات الروح، طالما غذّت تأمّلات الصوفيّين الصابين إِلى حبّ يسوع، وخواطر اللاهوتيّين والمؤمنين الجاهدين في معرفته، وأَنارت دروب القدّيسين الساعين إِلى التمثّل به.

أَقوال مسكوكة، محكمة السبك، مقدودة من صخر نفسٍ راسخة الإِيمان، باتت مأثورة، شائعة، تتناقلها الأَجيال، وترفعها شعارات حيّة، من غير أَن تفلح في اكتشاف كلّ غناها، وما انفكّت، بعد أَلفَيْن من السنين، متأَلّقة الجدّة، منارات بحث، وبرامج حياة.

و في الصفحات التالية باقة زاهية من تلك الأَقوال.

- إنّي لا أستحيي بالإنجيل، لأنّه قوّة اللّه لخلاص كلّ مؤمن (1 :16)
- لا معذرة لك، أيّها الإنسان الذي يدين، أيّاً كنت، لأنّك، فيما تدين غيرك، تحكم على نفسك، بما أنّك، أنت الذي يدين، تفعل ذلك بعينه (2 : 1)
- إنّ لطف اللّه يدعوك إلى التوبة (2 : 4)
- إنّ اللّه لا يُحابي الوجوه (2 : 11)
- إنّنا نؤمن بمن أقام، من بين الأموات، يسوع ربّنا الذي أُسلم إلى الموت تكفيراً عن زلاّتنا وأُقيم من أجل تبريرنا (4 : 24 - 25)
- إذ قد بُرّرنا بالإيمان فنحن في سلمٍ مع اللّه، بربّنا يسوع المسيح (5 : 1)
- بيسوع نلنا أن ندخل، بالإيمان، إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون، وأن نفتخر في رجاء مجد اللّه (5 : 2)
- الرجاء لا يُخزى، لأنّ محبّة اللّه قد أُفيضت في قلوبنا بالروح القدس، الذي أُعطيناه (5 : 5)
- إن كنّا، ونحن أعداءٌ، قد صولحنا مع اللّه بموت ابنه، فكم بالأحرى، ونحن مُصالَحون، نخلص بحياته (5 : 10)
- كما أنّه، بزلّةٍ واحدة، كان القضاء على جميع الناس، كذلك، ببرّ واحد، يكون لجميع الناس التبرير الذي يهب الحياة (5 : 18)
- كما جُعِل الكثيرون خطأة بمعصية إنسانٍ واحد، كذلك، بطاعة واحد يُجعل الكثيرون أبراراً (5 : 19)
- حيث كثرت الخطيئة، طفحت النعمة (5 : 20)
- إن كنّا قد مُتنا مع المسيح، نؤمن أنّا سنحيا، أيضاً، معه (6 : 8)
- إحسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطيئة، أحياءً للّه في المسيح يسوع (6: 11)
- لا تجعلوا أعضاءكم أسلحة إثم للخطيئة بل...أسلحة برّ للّه (6 : 13)
- إنّي لا أفهم ما أفعل، فما أُريده لا أفعله، وما أكرهه إيّاه أفعل (7 : 15)
- يا لي من إنسانٍ شقيّ ! من يُنقذني من جسد الموت هذا ؟ (7 : 24)
- إنّ شريعة الروح الذي يهب الحياة، يسوع المسيح، قد حرّرتني من شريعة الخطيئة والموت (8 : 2)

– الذين يسلكون سبيل الجسد يهتمّون بأُمور الجسد، والذين يسلكون سبيل الروح يهتمّون بأمور الروح (8 : 5)

– نزعات الجسد موتٌ، ونزعات الروح حياة وسلام (8 : 6)

– من لم يكن فيه روح المسيح، فما هو من خاصّته (8 : 9)

– لا فضلَ للجسد علينا حتّى نعيش بحسب الجسد (8 : 12)

– إنّا أولاد اللّه، أولاد، فإذن ورثة أيضاً، ورثة اللّه، ووارثون مع المسيح إن كنّا نتألّم معه لكي نتمجّد، أيضاً، معه (8 : 16 – 17)

– إنّي أرى أنّ آلام هذا الدهر الحاضر لا يمكن أن تُقارَن بالمجد المزمع أن يتجلّى لنا (8 : 18)

– بالرجاء خُلّصنا (8 : 24)

– الروح، أيضاً، يعضد ضعفنا، لأنّا لا نعرف كيف نصلّي كما ينبغي، لكنّ الروح نفسه يشفع فينا بأنّات تفوق الوصف (8 : 26)

إنّ اللّه، في كلّ شيء، يعمل لخير الذين يحبّونه (8 : 28)

من يفصلنا عن محبّة المسيح : الشدّة، أم الضيق، أم الاضطهاد، أم الجوع، أم العري، أم الخطر، أم السيف ؟ (8 : 35)

– في هذه كلّها نغلب بالذي أحبّنا (8 : 37)

– إنّي لواثق بأنّه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا رئاسات، ولا حاضر ولا مستقبل ولا قوّات، لا علو ولا عمق، ولا خليقة أُخرى أيّةً كانت، تقدر أن تفصلنا عن محبّة اللّه التي في المسيح يسوع، ربّنا.(8 : 38 – 39)

– الإيمان بالقلب يقود إلى البرّ، والشهادة باللسان تقود إلى الخلاص (10 : 10)

– ما أبعد أحكام اللّه عن التنقيب، وطُرُقه عن الاستقصاء ! فمن عرف فكر اللّه ؟ ومن كان له مشيراً ؟ ومن سبق فأعطاه، فيُرَدّ له ؟ إنّ كلّ شيء منه، وبه، وإليه.(11: 33 – 36)

– إن جاع عدوّك فأطعمه، وإن عطش فاسقِه، فإنّك بفعلك هذا تركم على رأسه جمر نار (12 : 20)

– لا تتغلب للشرّ، بل إغلب الشرّ بالخير (13 : 21)

– لا يكنْ عليكم لأحد دين إلاّ حبّ بعضكم لبعض (13 : 8)

– ما من أحد منّا يحيا لنفسه، ولا أحد يموت لنفسه، فإن حيينا فللربّ نحيا، وإن مُتنا فللربّ نموت، فسواءٌ حيينا، إذن، أم متنا، فللربّ نحن (14 : 7 – 8)

- ما من شيءٍ نجسٌ في ذاته، بيد أَنّ من يحسب شيئاً نجساً، فله يكون نجساً (14 : 14)

- ليس ملكوت اللّه أَكلاً ولا شرباً، بل هو برٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس (14 : 17)

- اقبلوا بعضكم بعضاً، كما قبلكم المسيح لمجد اللّه (15 : 7)

– البشارة بالصليب حماقة لدى الذين يسلكون طريق الهلاك.وأَمّا عندنا، نحن السالكين طريق الخلاص، فهو قدرة اللّه (1 : 18)

– ما يبدو أَنّه حماقة من اللّه هو أَكثر حكمة من حكمة الناس، وما يبدو ضعفاً من اللّه هو أَقوى من قوّة الناس (1 : 25)

– اختار اللّه ما هو جاهل في العالم ليخزي الحكماء، واختار ما هو ضعيف في العالم ليخزي ما هو قويّ.واختار اللّه ما يحتقره العالم ويزدريه ويعدّه لا شيء، ليُزيل ما يظنّه العالم شيئاً، لكي لا يفتخر بشر أَمام اللّه.(1 : 27 – 29)

– ما من أَحد يعرف ما في اللّه إِلاّ روح اللّه (2 : 11)

– أَوَ ما تعلمون أَنكّم هيكل اللّه، وأَنّ روح اللّه ساكن فيكم ؟ فمن أَفسد هيكل اللّه أَهلكه اللّه.لأَنّ هيكل اللّه مقدّس؛ وهذا الهيكل هو أَنتم (3 : 16 – 17)

– إِنّ حكمة هذا العالم جهالة عند اللّه (3 : 19)

– كلّ شيء هو لكم، أَمّا أَنتم فللمسيح، والمسيح للّه (3 : 22 – 23)

– لا تحكموا بشيءٍ قبل الأَوان، إِلى أَن يأتي الربّ؛ فإِنّه هو الذي سيُنير خفايا العالم، ويوضح أَفكار القلوب (4 : 5)

– أَيّ شيء لك لم تنله من اللّه؟ فإِن كنت قد نلته فلمَ تفتخر وكأَنّك لم تنله؟ (4 : 7)

– ليس ملكوت اللّه بأقوال، بل بالقوّة (4 : 20)

– طهّروا أنفكسم من الخمير العتيق لتكونوا عجيناً جديداً (5 : 7)

– أَفلا تعلمون أَنّ الظالمين لا يرثون ملكوت اللّه ؟ (6 : 9)

– " كلّ شيء مُباح لي "، ولكن ليس كلّ شيء ينفع (6 : 12)

– ليس الجسد للفجور؛ إِنّه للربّ، كما أَنّ الربّ للجسد (6 : 13)

– أَما تعلمون أَنّ أَجسادكم هي أَعضاء المسيح ؟ (6 : 15)

– أَوَلا تعلمون أَنّ أَجسادكم هي هيكل الروح القدس، الذي فيكم، هبةً من اللّه وأَنكّم لستم، بعدُ، لأنفسكم، لأَنّكم قد اشتُريتم بثمن كريم (6 : 19 – 20)

– لقد اشتُريتم بثمن كريم، فلا تصيروا عبيداً للناس (7 : 23)

– صورة هذا العالم في زوال (7 : 31)

– العلم ينفخ؛ أَمّا المحبّة فتبني (8 : 1)

– إِن ظنّ أَحد أَنه يعلم شيئاً، فإِنّه لا يعلم، بعدُ، كما ينبغي أَن يعلم (8 : 2)

- الويل لي إن لم أُبشّر (9 : 16)
- إذ كنتُ حرّاً من الجميع، عبّدت نفسي للجميع، لكي أربح الأكثرين (9 : 19)
- صرت كُلاًّ للكلّ لأُخلّص بعضهم، بكلّ وسيلة (9 : 22)
- إنّ اللّه أمين، فلا يَدعُكم تُجرَّبون فوق طاقتكم، بل يجعل، أيضاً، مع التجربة مخرجاً، لتستطيعوا أن تحتملوا (10 / 13)
- لا تستيطعون أن تشتركوا في مائدة الربّ، ومائدة الشياطين (10 / 21)
- إذا أكلتم، أو شربتم، ومهما فعلتم، فاعملوا كلّ شيءٍ لمجد اللّه (10 : 31)
- اقتدوا بي، كما أنّي، أقتدي بالمسيح (11 : 1)
- من يأكل ويشرب (جسد الربّ ودمه) بلا استحقاق، إنّما يأكل ويشرب دينونة لنفسه، إذ لم يُميّز جسد الربّ (11 : 29)
- لا يستطيع أحد أن يقول : " يسوع ربٌّ "، إلاّ بالروح القدس (12 : 3)
- إنّ المواهب على أنواع، إلاّ أنّ الروح واحد (12 : 4)
- أنتم جسد المسيح، وأعضاءٌ، كلٌّ بمقدار (12 : 27)
- إنّ لم تكن فيّ المحبّة فلست بشيء (13 : 2)
- كونوا، في الشرّ، أطفالاً، أمّا في أحكامكم، فكونوا كاملين (14 : 20)
- فليجرِ كلّ شيء للبنيان (14 : 26)
- ليس اللّه إله بلبلة، بل إله سلام (14 : 33)
- إن كان رجاؤنا في المسيح لا يتعدّى هذه الحياة، فنحن أشقى الناس أجمعين (15 : 19)
- بما أنّ الموت كان بإنسان، فبإنسان، أيضاً، قيامة الأموات (15 : 21)
- إن كان الأموات لا يقومون، " فلنأكل ونشربْ، فإنّا غداً نموت ! " (15 : 32)
- إنّ شوكة الموت هي الخطيئة (15 : 56)
- الشكر للّه الذي يؤتينا الغلبة بربّنا يسوع المسيح (15 : 57)
- ليجرِ كلّ شيءٍ عندكم في المحبّة (16 : 14)

- إِنّ مواعد اللّه كلّها قد وَجدت في يسوع " نَعم " (1 : 20)
- اللّه هو الذي دمغنا بختمه، وجعل، في قلوبنا، عربون الروح (1 : 22)
- شكراً للّه الذي يقودنا، على الدوام، من ظفر إِلى ظفر، في المسيح، وينشر بنا، في كلّ مكان، نفحة معرفته (2 : 14)
- إِنّا، للّه، نفحة المسيح الطيّبة (2 : 15)
- الحرف يقتل وأَمّا الروح فيُحيي (3 : 6)
- إِذ لنا مثل رجاء المجد هذا، نتصرّف في جرأة كثيرة (3 : 12)
- الربّ هو الروح، وحيث يكون روح الربّ، فهناك الحرّيّة (3 : 17)
- نحن جميعاً، والوجه سافر، نعكس، كما في مرآة، مجد الربّ (3 : 18)
- الإِله الذي قال : " ليُشرق من الظلمة نور "، هو الذي أَشرق في قلوبنا، كي تسطع فيها معرفة مجد اللّه، المتألّق في وجه المسيح (4 : 6)
- هذا الكنز نحمله في آنية خزفيّة (4 : 7)
- هذه القدرة الفيّاضة هي للّه، وليست منّا (4 : 7)
- نحمل في الجسد، كلّ حين، موت يسوع، لتظهر حياةُ يسوع، أَيضاً، في جسدنا (4 : 14)
- لئن كان إِنساننا الظاهر ينهدم، فإِنساننا الباطن يتجدّد، يوماً فيوماً (4 : 16)
- الضيق الحاليّ الخفيف ينشئ لنا ثقل مجدٍ أَبديّاً، يفوق القياس في السموّ (4 : 17)
- لا ننظر إِلى ما يُرى، بل إِلى ما لا يُرى، فإِنّ ما يُرى إِنّما هو وقتيّ، وأَمّا ما لا يُرى فهو أَبديّ (4 : 18)
- إِذا نُقِض هذا الخباء – مسكننا الأَرضيّ – فلنا، في السموات، مسكن من اللّه، بيتٌ لم تصنعه الأَيدي، أَبديّ (5 : 1)
- إِنّ محبّة المسيح تحثّنا (5 : 14)
- مات المسيح عن الجميع لكي لا يحيا الأَحياء لأَنفسهم في ما بعد، بل للذي مات وقام لأَجلهم (5 : 15)
- إِن كان أَحدٌ في المسيح، فهو خليقة جديدة، فالقديم قد اضمحلّ، وكلّ شيءٍ قد تجدّد (5 : 17)
- نحن سفراء المسيح، كأنّما اللّه يعِظ بنا (5 : 20)

– إنّ الذي لم يعرف الخطيئة، جعله (اللّه) خطيئة من أَجلنا، لكي نصير نحن، به، برّ اللّه (5 : 21)

– إنّا، نحن، هيكل اللّه الحيّ (6 : 16)

– اللّه يعزّي المتواضعين (7 : 6)

– إنّ الغمّ بحسب اللّه ينشئ توبةً للخلاص، لا نَدَم عليها، أَمّا غمّ العالم فينشئ الموت (7 : 10)

– إنّ ربّنا يسوع المسيح، وهو الغنيّ، قد افتقر من أَجلكم لكي تستغنوا أَنتم بفقره (8: 9)

– من يزرع بالتقتير، فبالتقتير، أَيضاً، يحصد؛ ومن يزرع بالسخاء، فبالسخاء، أَيضاً يحصد (9 : 6)

– اللّه قادر أَن يغمركم بكلّ نعمة، بحيث يكون لكم، في كلّ حين، وفي كلّ شيء، كلّ الكفاية، ويفيض عنكم لكلّ عمل صالح (9 : 8)

– شكراً للّه على موهبته التي لا توصف (9 : 15)

– إنّا، ولا شكّ، نسلك في الجسد، بيد أَنّا لا نحارب بحسب الجسد، لأَنّ أسلحة حربنا ليست بجسديّة، بل هي قادرة على هدم الحصون (10 : 3 – 4)

– إنّ الشيطان نفسه يتنكّر بهيئة نور (11 : 14)

– من يضعف ولا أَضعف أنا، ومن يعثر ولا أَحترق أنا ؟ (11 : 29)

– إن كان لا بدّ من الافتخار، فإنّي أَفتخر بضعفي (11 : 30)

– متى ضعفتُ، فحينئذٍ أَنا قويّ (12 : 10)

– لا جرمَ أَنّ المسيح صُلِب عن ضعف، بيد أَنّه يحيا بقدرة اللّه؛ ونحن ضعفاء فيه، غير أَنّا سنحيا معه بقدرة اللّه (13 : 4)

– لا قوّة لنا على ما يخالف الحقّ، بل قوّتنا في سبيل الحقّ (13 : 8)

- لو كنت، إلى اليوم، أتوخّى رضا الناس، لما كنت عبداً للمسيح (1 : 10)
- إنّ اللّه لا يُحابي أحداً من الناس (2 : 6)
- لا يُبرَّر الإنسان بأعمال الشريعة، بل بالإيمان بيسوع المسيح (2 : 16)
- إنّي قد صُلبتُ مع المسح فلستُ أنا حيّاً، بعدُ، بل هو، المسيح، يحيا فيّ.وإن كنت الآن أحيا في الجسد، فإنّي أحيا في الإيمان بابن اللّه الذي أحبّني، وبذل نفسه عنّي (2: 20)
- إن كان البرّ يُنال بالشريعة، لكان موت المسيح عبثاً (2 : 21)
- المؤمنون يُبارَكون مع إبراهيم المؤمن، أمّا الذين يقتصرون على أعمال الشريعة، فإنّهم تحت اللعنة (3 : 9 – 10)
- المسيح حرّرنا من لعنة الشريعة بأن صار لعنة لأجلنا (3 : 13)
- إنّكم، جميعاً، أبناء اللّه، بالإيمان بالمسيح يسوع (3 : 26)
- أنتم، جميع الذين اعتمدوا للمسيح، قد لبستم المسيح (3 : 27)
- إنّكم، جميعكم، واحدٌ في المسيح المسيح (3 : 28)
- الدليل على أنّكم أبناء كون اللّه أرسل إلى قلوبنا روح ابنه، هاتفاً : " أبّا "، " يا أبتِ" (4 : 6)
- لستَ، بعدُ، عبداً، بل أنت ابن، وإذا كنت ابناً، فأنت وارثٌ بنعمة اللّه (4 : 7)
- يا أولادي الصغار، الذين اتمخّض بهم، من جديد، إلى أن يتصوّر المسيح فيهم (4 : 19)
- لقد حرّرنا المسيح لكي ننعم بالحرّيّة فاثبتوا، إذن، فيها، ولا تعودوا إلى نير العبوديّة (5 : 1)
- القوّة، في المسيح يسوع، للإيمان العامل بالمحبّة (5 : 6)
- إنّما دعيتم إلى الحرّيّة، ولكن لا تجعلوا هذه الحريّة فرصةً للجسد، بل كونوا، بالمحبّة، خدّاماً بعضكم لبعض (5 : 13)
- الشريعة كلّها تكتمل في وصيّة واحدة : " أحبب قريبك حُبّك لنفسك " (5 : 14)
- إذا كنتم تنهشون وتأكلون بعضُكم بعضاً، فاحذورا أن تُفنوا بعضُكم بعضاً (5 : 15)
- أسلكوا بالروح، فلا تقضوا شهوة الجسد، فما يشتهيه الجسد يناقض الروح، وما يشتهيه الروح يناقض الجسد (5 : 16 – 17)

– ثمر الروح هو المحبّة، والفرح، والسلام، وطول الأَناة، واللطف، والصلاح، والأَمانة، والوداعة، والعفاف (5 : 22 – 23)

– الذين هم للمسيح يسوع، صلبوا الجسد مع الأَهواء والشهوات، فإِن كنّا نحيا بالروح، فلنسلكنّ، أَيضاً، بحسب الروح (5 : 24 – 25)

– إِحملوا بعضُكم أَثقال بعض، وهكذا أتمّوا شريعة المسيح (6 : 2)

– إِن ظنّ أَحدٌ أَنّه شيءٌ، وهو، في الحقيقة، ليس بشيء، فقد خدع نفسه (6 : 3)

– لا تضلّوا ! إِنّ اللّه لا يُستهزأ به (6 : 7)

– كلّ امرئٍ يحصد ما قد زرع : فالذي يزرع في جسده، يحصد من الجسد الفساد؛ والذي يزرع في الروح، يحصد من الروح الحياة الأَبديّة (6 : 7 – 8)

– بصليب ربّنا يسوع المسيح، صُلِب العالَم لي، وأَنا صُلبت للعالم (6 : 14)

– اختارنا اللّه، في المسيح، قبل إِنشاء العالم، لنكون قدّيسين، وبغير عيبٍ أَمامه (1: 4)

– كنّا، بطبيعتنا، أَبناء الغضب كسائر الناس؛ ولكنّ اللّه الواسع الرحمة، لحبّه الشديد الذي أَحبّنا به، مع أَنّنا كنّا أَمواتاً بزلاّتنا، أحيانا مع المسيح (2 : 4 – 5)

– بالنعمة نلتم الخلاص، بفضل الإِيمان (2 : 8)

– المسيح، هو سلامنا (3 : 14)

– لنا، جميعاً، بالمسيح، سبيل إِلى الآب، في روح واحد (2 : 18)

– لستم، بعدُ، غرباء ولا نُزلاء، بل أَنتم مواطنو القدّيسيّن، وأَهل بيت اللّه (2 : 19)

– أَنتم بناءٌ أَساسه الرسل والأَنبياء، ورأس الزاوية المسيح يسوع نفسه (2 : 20)

– محبّة المسيح تفوق كلّ معرفة (3 : 19)

– المجد للّه القادر، بقوّته الفاعلة فينا، أَن يفعل ما يفوق جدّاً كلّ ما نسأل أو نتصوّر (3 : 20)

– أُحرّضكم أَن تسلكوا مسلكاً يليق بالدعوة التي نُدبتم إِليها (4 : 1)

– إِنّ الربّ واحد، والإِيمان واحد، والمعموديّة واحدة، والإِله واحد، والآب واحد للجميع، وهو فوق الجميع، وخلال الجميع، وفي الجميع (4 : 5 – 6)

– إِلبسوا الإِنسان الجديد الذي خُلق على مثال اللّه في البرّ، وقداسة الحقّ (4 : 24)

– لا تغرب الشمس على غضبكم (4 : 26)

– لا تحزنوا روح اللّه القدّوس، الذي خُتمتم به لأَجل يوم الفداء (4 : 30)

– أَنتم نور في الربّ، فاسلكوا كأبناء نور (5 : 8)

– تبيّنوا ما يرضي الربّ (5 : 10)

– استغلوّا الوقت الحاضر (5 : 16)

– دعوا الروح يملأكم (5 : 18)

– في الربّ، وفي قوّة قدرته، يجب أَن تتشدّدوا (6 : 10)

– إِلبسوا سلاح اللّه الكامل لتستطيعوا مقاومة مكايد إبليس (6 : 11)

– شدّوا أحقاءكم بالحقّ، والبسوا درع الاستقامة، منتعلين بالغيرة على نشر رسالة السلام؛ وعلاوة على ذلك، احملوا ترس الإِيمان، في كلّ وقت، فبه تستطيعون أَن تُخمِدوا

جميع سهام الشرّير الملتهبة؛ واتّخذوا خوذة الخلاص، وسيف الروح، أي كلمة اللّه (6 : 14 - 17)

- صلّوا كلّ حين في الروح (6 : 18)

- الحياة لي هي المسيح، والموت لي ربح (1 : 21)
- لا ينظرَنّ كلّ واحد إلى ما هو لنفسه، بل بالحريّ إِلى ما هو لغيره (2 : 4)
- ليكن فيكم من الاستعدادات ما هو في المسيح يسوع (2 : 5)
- إِعملوا لخلاصكم في خوفٍ ورعدة (2 : 12)
- إِنّ اللّه هو الذي يعمل فيكم الإِرادة، بل حتّى العمل نفسه، في سبيل رضاه (2 : 13)
- إِفعلوا كلّ ما تفعلونه، بغير تذمّر ولا تردّد، لكي تصيروا بغير لوم، أَطهاراً، أولاداً للّه أَزكياء، في جيلٍ متعوّج فاسد، في عالم تضيئون فيه كنيّرات (2 : 14 - 15)
- أعدّ كلّ شيء خسراناً إزاء هذا الربح الفائق : معرفة المسيح يسوع، ربّي، الذي لأَجله خسرتُ كلّ شيء، وفي كلّ شيء لا أرى سوى أَقذار، حتّى أَربح المسيح وأكون فيه (3: 8 - 9)
- أواصل السعي لعلّي أدرك المسيح يسوع، لأَنّه هو قبض عليّ (3 : 12)
- إفرحوا في الربّ، على الدوام، وأقول، أَيضاً : إفرحوا (4 : 4)
- كلّ ما هو حقّ وكرامة، وعدل، ونقاوة، ولطف وشرف، وكلّ ما هو فضيلة، وكلّ ما يُمتدح، كلّ هذا فليكن محطّ أَفكاركم (4 : 8)
- إِنّي أستطيع كلّ شيءٍ في الذي يقوّيني (4 : 13)

– في المسيح ارتضى اللّه أن يُحلّ الملء كلّه، وأن يصالح به، لنفسه، كلّ ما هو على الأرض وفي السماوات، بإقراره السلام، بدم صليبه (1 : 19 – 20)

– إنّي لأفرح الآن في الآلام التي أُقاسيها لأجلكم، وأُتمّ في جسدي ما ينقص من آلام المسيح، في سبيل جسده الذي هو الكنيسة (1 : 24)

– إنّ المسيح فيكم، وهو رجاء المجد (1 : 27)

– في المسيح يحلّ كلّ ملء اللاهوت جسديّاً، وفيه أنتم تمتلئون، لأنّه هو رأس كلّ رئاسة وسلطان (2 : 9 – 10)

– تُدفنون معه في المعموديّة، وتُنهضون، أيضاً، معه، لأنّكم آمنتم بقدرة اللّه الذي أقامه من بين الأموات (2 : 12)

– سامحنا (المسيح) بجميع زلاّتنا، إذ محا الصكّ المكتوب علينا، وما فيه من أحكام، وأزاله مسمّراً إيّاه على الصليب (2 : 13 – 14)

– لقد قُمتُم مع المسيح، فاطلبوا، إذن، ما هو فوق، حيث يقيم المسيح (3 : 1)

– كما سامحكم الربّ، سامحوا، أنتم أيضاً، وفوق كلّ شيء، البسوا المحبّة، فهي رباط الكمال (3 : 13 – 14)

– لتحلّ فيكم كلمة المسيح بوفرة (3 : 16)

– مهما أخذتم فيه من قولٍ وفعل، فليكن الكلّ باسم الربّ يسوع، شاكرين به اللّه الآب (3 : 17)

– لم تصرْ بشارتنا إليكم بالكلام وحده، بل بعمل القوّة، وبالروح القدس، وباليقين التامّ (1 : 5)

– كلامنا كلام من اختبرهم اللّه لكي يأتمنهم على الإِنجيل؛ فلا نبتغي رضى الناس، بل رضى اللّه الذي يختبر قلوبنا (2 : 4)

– إنّما أنتم مجدُنا وفرحنا (2 : 20)

– إنّ مشيئة اللّه أَن تقدّسوا أنفسكم (4 : 3)

– إنّ يوم الربّ يوافي كلصٍّ في الليل، وفي حين يقول الناس : " سلامٌ وأمن "، حينئذٍ يدهمهم الدمار بغتة (5 : 3)

– إنّكم، جميعاً، أبناءُ النور، وأَبناء النهار.وإِذ لسنا من أَهل الليل ولا الظلمة، فلا نَنَمْ كالآخرين، بل لنسهر ونصحُ...ولنلبس الإِيمان والمحبّة درعاً، ورجاء الخلاص خوذة (5 : 5 - 8)

– عزّوا بعضكم بعضاً، وليبنِ أَحدكم الآخر (5 : 11)

– كونوا فرحين على الدوام، وصلّوا بلا انقطاع، واشكروا على كلّ شيء (5 : 16- 18)

– لا تطفئوا الروح (5 : 19)

– إنّ الذي دعاكم أَمين (5 : 24)

الرسالة الثانية إِلى التسّالونيكيّين

- اختاركم اللّه، من البدء، ليخلّصكم بتقديس الروح القدس، والإِيمان بالحقّ (2 : 13)
- صلّوا لأَجلنا حتّى تواصل كلمة اللّه جريَها، وتُمجّد (3 : 1)
- من لا يريد أَن يعمل، لا يحقّ له أَن يأكل (3 : 10)
- لا تملّوا فعل الخير (3 : 13)

يريد الله أَن يخلص جميع الناس، ويبلغوا إِلى معرفة الحقّ (2 : 4)

– اللّه واحد، والوسيط بين اللّه والناس واحد، الإِنسان، المسيح يسوع، الذي بذل نفسه فداءً عن الجميع (2 : 5 – 6)

– بيت اللّه هو كنيسة اللّه الحيّ، عمود الحقّ وقاعدته (3 : 15)

– إِنّ كلّ خليقة اللّه حسنة، ولا شيء للطّرح ممّا يُتناوَل بشُكر : لأَنّه يُقدّس بكلمة اللّه وبالصلاة (4 : 4 – 5)

– إن كان في الرياضة البدنيّة بعض الخير، ففي التقوى كلّ الخير، لأَنّ لها الوعد بالحياة الحاضرة والمستقبلة (4 : 8)

– لئن كنّا نتعب ونكافح فلأنّا أَنَطْنا رجاءنا باللّه الحيّ، مخلّص جميع الناس، ولا سيّما المؤمنين (4 : 10)

– لا تهمل الموهبة الروحيّة التي أوتيتَها (4 : 14)

– من لم يعتنِ بذويه، ولا سيّما بأهل بيته الخاصّ، فقد أنكر الإِيمان، وهو شرٌّ من كافر (5 : 8)

– فليُحسب الكهنة الذين أَحسنوا التدبير أَهلاً لكرامةٍ مضاعفة، ولا سيّما الذين يتعبون في الكلمة والتعليم (5 : 17)

– إِنّا لم ندخل العالم بشيءٍ، ولن نستطيع أَن نخرج منه بشيء (6 : 7)

– الذين يرومون الغنى يسقطون في التجربة، وفي الفخّ، وفي جمٍّ من الشهوات السفيهة المضرّة، التي تغرّق الناس في الدمار والهلاك، لأَنّ حبّ المال أَصل كلّ الشرور (6: 9 – 10)

– أوصِ أغنياء هذا الدهر الحاضر أن لا يستكبروا، ولا يتوكّلوا على أَموال لا ثباتَ لها، بل على اللّه الحيّ الذي يؤتينا كلّ شيء بوفرة، لنتمتّع به، وليصنعوا الخير، ويستغنوا بالأَعمال الصالحة، ويرتاحوا إِلى التوزيع، وإِشراك الغير في خيراتهم، فيذّخروا، بذلك، لأنفسهم رأس مالٍ راسخاً للمستقبل، به يفوزون بالحياة الحقّة (6 : 17 – 19)

- لم يُعطِنا اللّه روح الخوف، بل روح القوّة والمحبّة، وامتلاك الذات (1 : 7)
- لا أَخجل، لأنّي عارف بمن آمنت (1 : 12)
- إحفظ الوديعة الصالحة بعون الروح القدس الساكن فينا (1 : 14)
- إحتمل قسطكَ من المشاقّ، كجنديٍّ صالح للمسيح يسوع، فإنّ من تجنّد لا يرتبك في شؤون الحياة، إرضاءً منه للّذي جنّده (2 : 3 – 4)
- إنّ كلمة اللّه لا تُقيَّد (2 : 9)
- إن لم نثبت على الأَمانة فهو (اللّه) يبقى أَميناً، لأَنّه لا يقدر أَن ينكر ذاته (2 : 13)
- إجتنب الأَحاديث الدنيويّة الجوفاء، لأَنّ أَصحابها لا يزيدون بها إلاّ نفاقاً، وكلامهم يتفشّى كالآكلة (2 : 16 – 17)
- إنّ الأساس الراسخ الذي وضعه اللّه يثبت ممهوراً بهذا الختم : " إنّ الربّ يعرف من هو له " و" ليتباعد عن الإثم كلّ من ينطق باسم الربّ " (2 : 19)
- إنّ جميع الذين يُريدون أن يحيَوْا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون (3: 12)
- إكرز بالكلمة، واعكف عن ذلك في وقته، وفي غير وقته (4 : 2)

- اللّه لا يكذب (1 : 2)

- إِنّ كلّ شيء طاهرٌ للأطهار؛ وأَمّا الأَنجاس وغير المؤمنين، فليس لهم شيء طاهر، بل عقلُهم وضميرهم أنفسهما قد تنجّسا؛ يعلنون أَنّهم يعرفون اللّه، ولكنّهم ينكرونه بأعمالهم (1 : 15 – 16)

- لمّا تجلّى لطف اللّه مخلّصنا، ومحبّته للبشَر، خلّصنا، لا نظراً لأعمال برٍّ عملناها، بل بحسب رحمته، بغسل الميلاد الثاني، والتجديد في الروح القدُس، الذي أَفاضه علينا بوفرة، بيسوع المسيح مخلّصنا (2 : 4 – 6)

– إِنّ اللّه، بعد إِذ كلّم الآباء قديماً بالأَنبياء مراراً عديدة، وبشتّى الطرُق، كلّمنا نحن، في هذه الأَيّام الأَخيرة، بالابن الذي جعله وارثاً لكلّ شيء، وبه، أَيضاً، أنشأ العالم؛ وهو ضياء مجده، وصورة جوهره، وضابط كلّ شيء بكلمة قدرته (1 : 1 – 3)

– إِذ إِنّ المسيح، هو نفسه، تألّم وابتُلي، صار في طاقته أَن يغيث المبتلين (2 : 18)

– قد صرنا شركاء في المسيح، إِن نحن أَقمنا ثابتين حتّى النهاية على الإِيمان الذي كان لنا في البدء (3 : 14)

– إِنّ كلمة اللّه حيّة فعّالة، وأَمضى من كلّ سيفٍ ذي حدّين، تنفذ حتّى مفرق النفس والروح، والأَوصال والمخاخ، وفي وسعها أَن تميّز خواطر القلب ونيّاته، فلذلك ما من خليقة مستترة عنها، بل كلّ شيءٍ عارٍ، ومكشوف لعينيْ من سنؤدّي إِليه حساباً (4 : 12 – 13)

– إِنّ يسوع قد صار ضمانةً لعهدٍ أَفضل (7 : 22)

– (يسوع) قادر أَن يخلّص تماماً الذين به يتقرّبون إِلى اللّه، إِذ إِنّه على الدوام حيٌّ ليشفع فيهم (7 : 25)

– إِن كان دم ثيرانٍ وتيوس، ورماد عجلة يُرشّ على المنجّسين فيقدّسهم لتطهير الجسد، فلكم بالأَحرى دم المسيح، الذي، بروحٍ أزليّ، قرّب للّه نفسه بلا عيب، يُطهِّر ضميرنا من الأَعمال الميتة، لنعبد اللّه الحيّ (9 : 13 – 14)

– الإِيمان هو قوام المرجّوات، وبرهان غير المرئيّات (11 : 1)

– بغير الإِيمان يستحيل نيل رضا اللّه، إِذ لا بدّ لمن يتقرّب إِلى اللّه أَن يؤمن بأَنّه موجود (11 : 6)

– فلنطّرح عنّا كلّ ثقل الخطيئة التي تكتنفنا، ولنسعَ بثبات إِلى الميدان المفتوح أَمامنا، شاخصين بأَبصارنا إِلى مُبدئ الإِيمان ومكمّله، إِلى يسوع، الذي، بدل السرور الموضوع أمامه، تحمّل الصليب، هازئاً بعاره،... لئلاّ تكلّ نفوسكم وتخور (12 : 1 – 3)

– إِنّ كلّ تأديب لا يبدو، في وقته، باعثاً على الفرح، بل على الغمّ.غير أَنّه، بعد ذلك، يعود على الذين روّضهم بثمرالبرّ وما فيه من سلام (12 : 11)

– اقتفوا السلام مع الجميع، والقداسة التي بدونها لا يعاين أَحدٌ الربّ (12 : 14)

– إِنّ إِلهنا نارٌ آكلة (12 : 29)

– إِنّ يسوع المسيح هو، هو، أمسِ واليومَ، وإِلى الدهور (13 : 8)